= جمع جادّة = جادّات ، جوادّ (مصطلح)

حلّ وترحَال

حسن الأمين

حلّ وترحال

ذكريات



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

SETTLEMENT & MIGRATION MEMOIRS

BY:

HASSAN AL-AMIN

First Published in 1999

BEIRUT - LEBANON

British Library Cataloguing in Publication Data Available

ISBN 1 8551 460 8

الغلاف: التصميم لمحمد حمادة

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ١٩٩٩

المحتويات

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: «حِلٌّ وترحال ـ ذكريات»، وقد يجده القارىء اسماً غريباً، ولكن واقعيته تشفع بغرابته، فهو يحتوي على ذكريات تبعثها الإقامة في الوطن، فهي ذكريات: (الحل)، وأخرى تبعثها الغربة عن الوطن، فهي ذكريات (الترحال)...

ذكريات توزعت بين ذكريات دمشقية، وذكريات عاملية، وهذا طبيعي ما دامت حياتي توزعت بين دمشق وجبل عامل، وسيجد القارىء أن في الذكريات وصفاً لتقاليد وعادات وأطوار للحياة كانت سائدة في البلدين ثم عفى عليها الزمن يوماً بعد يوم حتى انمحى بعضها من الوجود انمحاء كاملاً، ولا تزال لبعضها الآخر بقايا ماشية هي الأخرى إلى الانمحاء.

ليس ما تضمنه هذا الكتاب سيرة ذاتية، ولا هو مذكرات، ولا هو أدب رحلات، بل هو مزيج من ذلك جميعاً، مزيج أردته معبراً عن شيء مما مرّ بي في الحياة حِلاً وترحالاً. وأردت لقراء اليوم وقراء الغد مشاركتي في الإحساس بهذا الشيء لأنه تعبير عن مشاعر وطنية ومشاعر إنسانية هي منا جميعاً.

ولعل القراء الذين أشعروني بأنهم لم يخيبوا فيما كتبته لهم من قبل، وذلك بإقبالهم على ذاك الذي كتبت ـ لعلهم لا يخيبون بهذا الذي أكتبه لهم اليوم، وحسبي ذلك عزاء.

حسن الأمين



حسن الأمين في أوائل أيام العمل في دائرة المعارف سنة ١٩٦٦

القسم الأول

الحِــل

الفصل الأول

من شقرا إلى دمشق

ولدت سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) في دمشق وانتقلت مع الأسرة سنة ١٩١٤ بعد إعلان الحرب العالمية الأولى إلى بلدة شقرا (جبل عامل) حيث تكامل صباي.

لا أعي من أواخر الحرب العالمية الأولى إلاّ أشباحاً غير مترابطة لا أستطيع أن أؤلف منها حدثاً متكاملاً. فأنا مثلاً أذكر انتقالنا من دمشق إلى جبل عامل. ولكنني لا أذكر تفاصيل هذا الانتقال، ولا ما جرى لنا في الطريق، ولا كيف وصلنا إلى شقرا في جبل عامل. ثم أنا أعي أن أخي الأكبر كان في سن الجندية وأنه سعي له ليكون معلماً في شقرا وبذلك يعفى من الجندية، كما أذكر أن رجلاً استؤجر ليتولى مكانه أكثر الأوقات إذ كان يضيق ذرعاً بتعليم الأطفال، وأذكر أننا تلقينا شيئاً من التعليم عند هذا المعلم المستأجر، وأننا كنا نجلس أمام المعلم على الحصير المؤلف من البردي المعروف في جبل عامل بالبابير.

كما أذكر نزوحنا أنا وأخت لي من شقرا إلى مقام صدّيق «بتشديد الدال» هرباً من وباء الكوليرا، ولكن لا أذكر مقامنا هناك ولا عودتنا.

على أن الصورة تأخذ في ذهني بالوضوح شيئاً فشيئاً ابتداء من نهاية الحرب. فإنه يصح لي أن أقول، إن أحداثي لا يمكن أن تسجل إلاّ ابتداء من سنة ١٩٢٠ لتذكري للكثير من تفاصيل تلك الأحداث مما يمكن تسجيله والحديث عنه.

فمما لا أنساه أبداً تلك الطلقات النارية المتتابعة التي أخذت تنبعث من أحد بيوت بني عمنا ونحن في شقرا نهاراً بصورة مثيرة بدون انقطاع، فمضينا إلى مصدر الرصاص المنطلق فوجدنا قريبنا يطلق النار من بندقيته مبتهجاً مسروراً، مما جمع الناس عليه، ففهمنا أن حدثاً ضخماً قد وقع في دمشق، كان من صداه هذه الطلقات، وأن هذا الحدث هو شيء عظيم للبلاد. ولم أكن أدرك في تلك السن حقيقة الاستقلال وحقيقة الحركات الوطنية، ولكنني كنت مدركاً أن الفرنسيين يحتلون البلاد وأن هذا شيء منكر.

وكان الحدث الضخم هو إعلان الاستقلال السوري في الثامن من آذار/ مارس ١٩٢٠ وتتويج الأمير فيصل ملكاً على المملكة العربية السورية!

في مدرسة القرية

بنهاية الحرب العالمية الأولى تتضح الصور في ذهني وتتكامل خطوطها جلية بارزة، ولعل مما يسجل من تلك الصور هو مشاهد من الحياة الدراسية القروية، فقد أقبل، في أوائل الاحتلال، معلم حكومي على شقرا، فكان أول معلم يعين لمدرستها بعد انتهاء الحرب، وكنا ـ على ما أذكر ـ جلوساً فيما يسمى في شقرا بساحة المدارس مع بعض كبار بني عمنا وصغارهم، إذ أقبل رجل غريب معمم بعمامة بيضاء ومرتد بزة خاكية اللون مفصلة على الطراز الذي اعتاده المعممون في لبس الحلل المدنية تحت عمائمهم، وهي ذات معطف طويل وبنطال ككل البناطل المعروفة وصدرية ككل الصداري ولكنها بدون رباط عنق.

أقبل هذا الرجل الغريب على الحلقة فكان طبيعياً أن يقف أهلها لرد تحيته على الطريقة العاملية، متسائلين في أنفسهم عمن يكون هذا الطارق. ولم يلبث أن أعلن عن نفسه بأنه المعلم المعين لمدرسة شقرا، وأن اسمه محمد علي الحوماني.

دخلنا مدرس الحوماني، وكان هذا الرجل أبعد ما يكون عن العمل الجدي، منصرفاً إلى ما جبل عليه من النميمة والدس والفتنة بين الناس وإثارة الضغائن والأحقاد، لذلك قلّت الفائدة منه لمن يريد الفائدة، ومع أن كونه شاعراً وعلى اطلاع حسن على اللغة العربية كان يمكن أن يؤثر في تلاميذه ويثير مواهبهم ويصقل معارفهم، فإن الفائدة منه كانت ضئيلة ولم يخلف في أي واحد من تلاميذه أثراً محسوساً.

لا أظننا أكملنا السنة في مدرسة الحوماني التي خرجنا منها بدون طائل سوى تحسين الخط بعض التحسين. وكان سبب ترك المدرسة أننا انتقلنا إلى دمشق وذلك أن الفرنسيين قرروا أن يسوقوا حملة لإخضاع الجبل وتتابعت أنباء استعداداتها وكان الوالد في دمشق، فقرر الأخ الأكبر انتقالنا جميعاً إلى دمشق حيث إن ذلك أدعى إلى الطمأنينة.

إلى القنيطرة فدمشق

كان السفر إلى دمشق على الدواب، فقد مضينا على ظهورها من شقرا مجتازين وادي السلوقي في عرضه وصاعدين في وادي الإصطبل، مروراً بالقرب من قرية حولا فهونين، ثم هبوطاً إلى الحولة فوصولاً منها إلى بانياس، ولا أذكر إذا كنا قد بتنا في بانياس أم لا، وأحسب أنه لم يكن ممكناً قطع الطريق في مرحلة واحدة، فلا بد أن نكون بتنا في أحد المنازل، وذلك لا يكون إلاّ في بانياس. ومن بانياس وصلنا إلى القنيطرة.

وكانت القنيطرة في ذلك الوقت في حركة جياشة تغص بالجند والناس، إذ إنها كانت آخر مدينة على الحدود بين المنطقة العربية المستقلة والمنطقة المحتلة من الفرنسيين في الساحل والمنطقة المحتلة من الإنكليز في فلسطين. فكانت لذلك منطلقاً لكثير من التحركات.

وبتنا في القنيطرة في أحد الخانات التي كانت وحدها منازل للمسافرين ومن القنيطرة واصلنا السفر إلى

دمشق لا على الدواب هذه المرة، بل تركنا الدواب في القنيطرة وعاد بها مرافقونا إلى شقرا، وأخذنا نحن إحدى العربات الكبيرة المستطيلة المتعددة المقاعد، والمجرورة بالخيل، والتي كانت هي الوسيلة الوحيدة للمواصلات السريعة إذ لم تكن السيارات قد انتشرت بعد.

وبعد هذا التاريخ بسنة أو سنتين كانت هذه المركبات لا تزال في هذا الطريق، وإن تكن السيارات قد بدأت تشق سبلها فيه ولكن بقلة وندرة. ذلك أننا عدنا من دمشق إلى القنيطرة مع الوالد وأخي الأصغر وتلميذ الوالد الشيخ علي الجمال. عدنا إلى القنيطرة في طريقنا إلى جبل عامل فركبنا المركبة نفسها وحللنا القنيطرة، ولكن لا في الخان هذه المرة، بل في منزل امرأة قروية عاملية كانت تسكن القنيطرة في بيت بسيط، وكانت تؤجر بعض غرفه إما للطارئين أو للمقيمين وهو بيت هزيل قروي بكل ما في القروية القديمة من معنى.

نزلنا في هذا البيت على أمل السفر في الغد على الدواب المستقدمة من شقرا، سالكين الطريق السابق نفسه ولكن الأمل لم يتحقق وطالت إقامتنا في القنيطرة أسابيع. ذلك أن وسيلة إعلام شقرا بإرسال الدواب إلى القنيطرة كانت بإرسال برقية من دمشق إلى صور وهي آخر مركز يصل إليه خط البرقيات يومذاك. ومن صور ترسل البرقية مع بعض الذاهبين إما إلى شقرا أو إلى قرية مجاورة ومنها إلى شقرا. والمسافة ما بين صور وشقرا تتراوح بين الثماني والعشر ساعات ركوباً على الخيل أو غيرها من الدواب أو مشياً على الأقدام. وكانت صور تحفل دائماً بالقرويين الذين يعودون إلى قراهم بعد أن يكونوا قد باعوا منتوجات أرضهم من قمح وشعير وعدس لتجار صور. هذا في الصيف، ولا تخلو صور خلال السنة من واردين إليها بين الحين والحين من القرى، إما لمراجعة دوائر الحكومة أو لقضاء حاجاتهم. ومع واحد من هؤلاء العائدين من صور كانت ترسل البرقيات الواردة إلى صور والموجهة إلى القرى.

وكان والدي يعتمد في إرسال برقياته على الشيخ عز الدين علي عز الدين الذي يتولى إرسال البرقية إلى شقرا. وكانت برقية طلب الدواب من شقرا قد وصلت الشيخ عز الدين فأرسلها مع واحد من عملائه من أهالي مركبا التي تبعد أكثر من ساعتين عن شقرا. ولكن الرجل لم يوصل البرقية. ووصلنا نحن القنيطرة ولم تصل الدواب وطال الانتظار والدواب لا تصل وأقبل عيد الأضحى فقضيناه في القنيطرة. وفي صبيحة العيد مضينا مع والدي إلى أرض فضاء في طرف القنيطرة حيث ازدحم المصلون من الشراكسة لأداء العيد فشاركناهم الصلاة.

ولما طال الانتظار صدف والدي رجلاً من بلدة الخيام ذاهباً إلى بلده البعيد عن شقرا فاستأجره الوالد ليمضي من الخيام إلى شقرا برسالة بطلب الدواب، ولكن هذا الآخر مضى ولم يبلغ ما أؤتمن على إبلاغه وطالت إقامتنا في منزل (أم نمر) وهو منزل لا تحمد الإقامة فيه. ولما بلغ اليأس مداه فتش الوالد عن حل للمشكلة فعلم أن فلاحين من قرية عين فيت القريبة من القنيطرة، يحضرون العنب من قريتهم منقولاً على الحمير لبيعه في القنيطرة، ثم يعودون فارغين إلى قريتهم. فاستأجرنا حميرهم لتقلنا إلى هونين أول بلدة في جبل عامل من الطرف الشرقي المطل على الحولة. ولم يكن لا من اللائق ولا من المريح ركوب

الحمير. وإنما هي الخيل التي تستعمل في مثل هذا الانتقال، ولكن كان لا بد مما لا بد منه فركبنا حمير أهل عين فيت وبتنا ليلة في بانياس في خان فيها معد للنزلاء، ثم صعدنا إلى هونين.

والواقع أن دخولنا في تلك الحال إلى هونين كان شيئاً عجيباً غير متوقع، فلم يكن يخطر لأهل هونين أن هذا الموكب القادم إلى بلدتهم على ظهور الحمير هو موكب السيد محسن الأمين. وأنه نفسه يسير على رأس هذا الركب الهزيل. وقد زاد الأمر غموضاً أن السيد كان يجلل عمامته ورأسه بعباءته السوداء الرقيقة (الخاشية) فلا يبين من ملامحه شيء. حتى إذا اجتاز الركب مداخل القرية وتقدم إلى وسطها نزع الوالد عباءته عن رأسه وترجّل وترجّلنا معه ومضينا، وهنا صاح أحد الناظرين إلى الموكب: هذا السيد محسن. فتراكض الناس إليه دهشين. وانطلقنا إلى أحد المنازل.

ثم نعود بعد هذا الاستطراد إلى مواصلة الكلام:

في دمشق

في هذه الفترة كانت دمشق تغلي كالمرجل، فالفرنسيون طامعون بها يتحينون الفرص للانقضاض عليها وتحطيم الاستقلال الذي قام فيها. والوطنيون يحاولون تدعيم الاستقلال والمحافظة عليه. ولن أتحدث عن تاريخ تلك الفترة إلاّ في القليل منها، وإنما سأعرض فيما يأتي انطباعاتي عنها كطفل كان يرى مشاهدها عن كثب بقدر ما تسمح له أوضاعه. فمن ذلك مثلاً أن بعض العامليين قد وصلوا دمشق بعد وصولنا بمدة، فراراً من الحملة الفرنسية التي كانت قد انطلقت إلى الجبل للقضاء على العصابات المتمردة، تلك الحملة التي كانت تأخذ البريء بجريرة العاصي. وسكن بعض هؤلاء العامليين في حينا نفسه.

كان العرب في تلك الفترة يعيشون حلمهم الأكبر منتشين بما هم فيه من استقلال وتطلع إلى الوحدة ثم بدأت الآمال تنهار والحقائق المرة تتجلى واحدة بعد الأخرى!

ثم جاء إنذار الجنرال غورو للحكومة الاستقلالية يوضح الصورة ويجلو الواقع المر ويضع حداً لكل الأحلام.

ففي اليوم الرابع عشر من تموز/يوليو سنة ١٩٢٠ تلقى الملك فيصل لا بصفته ملكاً لسوريا بل بوصفه قائد جيش الحجاز المحتل لسوريا إنذاراً يهدم كل الأماني. وقبل أن نشير إلى نص الإنذار ننشر هذا البيان الذي ألقته الحكومة الاستقلالية أمام المؤتمر السوري (الذي كان بمثابة المجلس النيابي) وذلك بعد أن وضحت النيات الاستعمارية. ويتجلى في هذا البيان ما كانت عليه الأفكار في تلك الأيام وما كان يجول في نفوس القادة. أما مناسبة إلقاء البيان فهي أن الملك فيصل كان قد قرر السفر إلى أوروبا للدفاع عن استقلال سوريا، فأرسل نوري السعيد إلى الجنرال غورو ليسهل له طريق السفر البحري من بيروت، وكان الجنرال غورو يهيىء إنذاره ليرسله إلى فيصل وحكومته، فأعلن لنوري السعيد رفض سفر فيصل وأطلعه على مضمون الإنذار وطلب إليه إبلاغ ذلك إلى فيصل.

فلما علم فيصل وحكومته بمضمون الإنذار اجتمع المؤتمر السوري وردّت الحكومة بهذا البيان على مضمون الإنذار:

«أيها السادة، إننا نعتبر بأنه من واجبنا أن نطلعكم على الحالة في هذه الساعة الحرجة.

إنكم تعلمون أن سياسة الوزارة كانت وما زالت أساساً لعملنا كما أنكم تعلمون أن هذه السياسة التي وافقتم عليها تتضمن الإبقاء على علاقات الصداقة مع الحلفاء وخاصة مع فرنسا وبريطانيا. وأن عملنا الدائم كان تحقيقاً لتلك الرغبات التي أبدتها البلاد بواسطتكم.

لقد بوشر بالمفاوضة، واستمرت على أحسن الشروط. وكما تعلمون تلقينا قرار مؤتمر (سان ريمو) الذي يعترف بأن سوريا تؤلف دولة مستقلة، كما أعلمتنا بريطانيا ـ من جهة أخرى ـ بطريقة شبه رسمية، بأنها زيادة على ذلك تعترف بصاحب الجلالة فيصل ملكاً على سوريا.

لقد قررنا في هذه الأوقات أن نرسل بعثة إلى أوروبا لإتمام المفاوضات والحصول على حل نهائي طبقاً لرغباتنا الوطنية، كما أن رغبتنا أيضاً أن نثبت للعالم وللدول بأننا لا نعادي أحداً، ولا نعارض قرارات مؤتمر الصلح، بعد أن تعهد بالمحافظة على شرفنا واستقلالنا.

لقد أبدى صاحب الجلالة رغبته بأن يتوجه بنفسه إلى أوروبا، ليحصل على حل سريع للقضية، وبفضل الاحترام الذي يتمتع به لدى رجالات الدول المتحدة، فإننا على ثقة تامة، وأمل مكين بأن نزف قريباً إلى الشعب أخباراً سارة.

ولكن فجأة برزت الحالة الخطرة الحاضرة التي نبسطها لكم. أراد الجنرال غورو لأسباب نجهلها أن يغتنم مناسبة حشد جيوشه لكي يعارض، أو يمنع سفر صاحب الجلالة. فأبلغ مندوبنا بعض الشروط التي قال إنه يريد أن يطلبها منا والتي لم نتسلم نصها الرسمي حتى الآن ولذلك لم نتمكن من أن نبلغكم إياها ولا أن نعتبرها رسمية ما لم نتبلغ نصها المكتوب رسمياً.

إن بعض هذه الشروط هي على كل حال مخالفة ليس فقط لرغبات البلاد وتصميمها الثابت على الاستقلال، ولكنها مخالفة أيضاً لروح القرارات المتخذة في (سان ريمو) وللتعهدات الموقعة من فرنسا لأن في قبول هذه الشروط تقويضاً لسيادة البلاد واستقلالها من أساسه الذي اعترفت به الدول في سان ريمو.

حشد الجنرال غورو جيوشاً على حدود المنطقة الشرقية لجهتي الشمال والغرب، ومن المحتمل أن يكون هذا الإجراء دعماً للطلبات التي تقدم بها، والتي لم يصلنا نصها الرسمي، كما سبق وقلنا هذا عدا عن أنه أرسل جيوشاً فرنسية إلى رياق. ولقد أبلغ حاكم زحلة العسكري قائد قواتنا في رياق: بأنه احتل عسكرياً هذا المركز، كما أن الجنرال غورو أعاد إقامة القوة الفرنسية التي احتلت معلقة زحلة في السنة السابقة. ثم من جهة أخرى أبلغنا الكولونيل كوس باسم الجنرال غورو بأنه احتل المركزين المذكورين بسبب وجود قواتنا في (مجدل عنجر). ولكن من المعلوم أن مركز مجدل عنجر كان أقيم للمحافظة على الأمن العام في الجوار منذ بدء الاحتلال وأنه عزز أخيراً بعد حشد الجيوش الفرنسية على حدودنا.

وعليه اعترضت حكومتنا على هذه التدابير التي اتخذها الجنرال غورو، والتي لا تتفق مع التحالف، وطالبت بعرض المسألة على الدول.

أولاً: أننا نعلم الأمة والعالم أجمع ـ من على هذا المنبر ـ بأننا لا نريد إلاّ السلم، والمحافظة على شرفنا واستقلالنا، وأننا لا نقبل بأية شروط مقيّدة.

ثانياً: أننا نرفض كل شكوى يظن معها أو يكون فيها مجال للظن، بأننا نرغب في تعكير علاقات الصداقة التي تربطنا بحليفتنا أو بحلفائنا.

ثالثاً: أننا لا نرفض التفاوض وأننا على استعداد للمباشرة به، وأن بعثتنا التي يرئسها الملك فيصل هي على أتم الاستعداد للسفر إلى أوروبا لمواصلة المفاوضة. وأننا نقبل بكل حل لا يسيء إلى شرفنا ولا إلى حريتنا وعلى أن يكون قائماً على الحق.

رابعاً: وأخيراً، أننا على أتمّ الاستعداد والتصميم للدفاع عن شرفنا وحقوقنا بجميع القوى التي أنعم الله علينا بها». «انتهى»

اليوم كالأمس

وإننا حين نقرأ هذا البيان ونتدبر ألفاظه ومعانيه ومراميه، لا يسعنا إلاّ التصفيق للذين تقدموا به والذين تبنوه وأيدوه. فهو يعلن الموقف الذي يجب أن يقفه أي شعب يُهدَّد في استقلاله وحريته ويتعرض لغزو استعماري شرس. وهو الكلمة الفاصلة التي يجب أن ترد بها أية أمة كريمة على المتطاولين إلى النيل من كيانها والانتقاص من إرادتها، لا سيما إذا كانت هذه الأمة كالأمة العربية العريقة...

ولكننا ونحن نعيد تلاوة هذا البيان، وندقق في كل حرف من حروفه، لا نستطيع أن نسترسل في التصفيق لأصحابه، بل لا نستطيع إلاّ الوقوف موقف المؤنّب الصارخ في وجوههم: ماذا أعددتم لتحقيق هذه الأحلام، وماذا بيَّتُّم للصمود بوجه الغزاة؟ وماذا كان عندكم غير الكلام ترسلونه بلا حساب، وغير الحماسة الفارغة من كل قوة وجوهر!

وإننا ونحن نعيش حاضر أمتنا المنكوبة اليوم بعزّتها وكرامتها، المفجوعة بأرضها وترابها، المرزوءة بشعب من شعوبها.

إننا ونحن نعيش اليوم هذا الحاضر المرير، كما عشناه من أوّله منذ العام ١٩٤٧، يوم بدت طلائع الشر الصهيوني الرهيب، ومنذ وضحت نيات التهام فلسطين والقضاء على شعبها، ومنذ بدأ التنادي لدرس وسائل درء الخطر، وحفظ الوطن! فعقدت المؤتمرات وزخرت المنتديات، وتدفقت الأقوال الحماسية والتطمينات الكلامية.

منذ مؤتمر بلودان وقراراته السرية، ثم منذ التهيؤ للحرب لمنع التقسيم، ثم منذ دخول الحرب والخروج منها بالعار والشنار!

منذ أول يوم، وما كان يعقب كل ندوة ومجتمع ومؤتمر من تصاريح وأقوال!

إذا جمعنا الخطب والبيانات والقرارات، وقارناها بهذا البيان البليغ الفصيح الذي ألقته حكومة الأتاسي الاستقلالية على برلمانها حين ساور الاستقلال الخطر، وأطل على الأمة أبشع ليل في تاريخها الحديث!

إذا أجرينا هذه المقارنة، فإننا نرى أنه منذ أكثر من خمسين سنة من محن وأرزاء ونكبات وتجارب فإن كلمات المسؤولين هي الكلمات نفسها وتعهداتهم هي التعهدات نفسها وحماستهم الحماسة نفسها!

ثم النتيجة، النتيجة نفسها!

إنك حين تقرأ هذا البيان وتعيد قراءته، وتنسى تاريخ صدوره وموضوع صدوره، إنك لتحسب أنه واحد من هذه البيانات التي اعتدت قراءتها بعد مؤتمرات القمة أو بعد اجتماعات وزراء الخارجية أو وزراء الدفاع أو رؤساء الأركان.

بل إنك لتحسبه صادراً بعد هزيمة حزيران/يونيو وما أسموه بحرب الأيام الستة، ويخيّل إليك أنه يتحدث عن قرار مجلس الأمن والتمسك به والخوف من معارضته! والحرص على كسب الرأي العام العالمي بتبني السلام! والتشبث بالكلمات اللينة التي تصدر من هنا وهناك!

أليس البيان يتضمن الإصرار على «الإبقاء على الصداقة مع الحلفاء وخاصة مع فرنسا وبريطانيا» في حين أن بريطانيا كانت تحتل العراق وتقاتل أهله، وكانت قد وهبت فلسطين لليهود! وفرنسا هي التي تحشد جيوشها للقضاء على الاستقلال!

تماماً: كما ظل يعلن اليوم رجالنا عن حرصهم على صداقة أميركا، وكما يدعو من يدعو فينا إلى التشبث بهذه الصداقة!

ثم أليس يعلن البيان عن التعلق بالأوهام والاستبشار بكلمة وهمية صدرت من قوي؟

أليس يقول البيان: «... أعلمتنا بريطانيا بطريقة شبه رسمية، بأنها تعترف بصاحب الجلالة فيصل ملكاً على سوريا»!

في حين كانت بريطانيا تتآمر مع فرنسا على اقتسام التركة، بعد وأد الاستقلال، فأخذت بريطانيا ما عرف باسم شرق الأردن، وأخذت فرنسا الباقي!

ثم ألا يعلن البيان تمسكه بقرارات مؤتمر سان ريمو، تماماً كما نعلن اليوم تمسكنا بقرار مجلس الأمن، في حين أن أساس البلاء كان في قرار مؤتمر سان ريمو!

ثم ألا يعلن البيان ثقته بأن المفاوضات تحل المشكلات!

أي كما نأمل اليوم بما أسميناه «الحل السلمي»! وألا يعلن البيان تعجبه واستنكاره مخالفة الجنرال غورو لروح القرارات المتخذة في سان ريمو! كما نعلن اليوم تعجبنا واستنكارنا لمخالفات إسرائيل لا لروح القرارات المتخذة في هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، بل لنصوصها الصريحة!

وأخيراً: ألا تعجبك هذه الحماسة المعبرة عن العزة القومية الواجبة في الشعوب: إننا على أتم الاستعداد والتصميم للدفاع عن شرفنا وحقوقنا بجميع القوى التي أنعم الله علينا بها!!

هذا التعبير الذي يبدو أن سياسيينا، منذ سنة ١٩٤٧ حتى اليوم، قد استعاروه بنصه وروحه! لا سيما بعد ٥ حزيران/ يونيو وحرب الأيام الستة!

في الوقت الذي كانت حكومة الاستقلال تلقي هذا البيان، كانت البلاد غارقة في فوضى لا مثيل لها. ولم يكن أحد يفكر في إعداد خطة المواجهة، ولم يكن أحد يفكر بأن فرنسا قد خرجت من الحرب هازمة لألمانيا، وأنها لا تقاوم بالبيانات، بل لا بد من الإعداد والتفتيش عن السلاح، لا في ساعة وقوع المعركة، بل قبلها بسنين!

وأن كل ذلك يقتضيه إخلاص لا حد له، وعقول كبيرة وأنظار بعيدة، ترسم وتخطط وتنفذ!

وهذا ما كان العرب يومذاك ـ كما هم اليوم ـ بعيدين عنه كل البعد!

ويظهر أنهم سيظلون بعيدين عنه إلى وقت لا يعلمه إلاّ الله!

العاصفة

صبيحة أحد الأيام جالت في سماء العاصمة طيارة فرنسية وألقت على المدينة ألوف المنشورات التي لاأزال أذكر تناثرها من الطائرة وتهاويها في الفضاء هابطة إلى الأرض. وكان في تلك المنشورات تثبيط للعزائم ممزوج بالتهديد والوعيد.

وكنا، بُعيد وصولنا إلى دمشق، قد انتقلنا إلى منزل مؤقّت في أقصى الصالحية بسفح الجبل لأن إصلاحاً كان يجري في منزلنا في حي الخراب. وكنا مساء كل يوم نمضي إلى الصالحية للمبيت. وأذكر أننا لم نكد نتجاوز جسر بردى وننطلق صاعدين إلى الطريق الموصل إلى مداخل الصالحية، ثم نصل إلى المستشفى العسكري، حتى رأينا هرجاً ومرجاً وسمعنا طلقات الرصاص، مما استحال معه دوام السير إلى الصالحية فأبنا راجعين. ولم أكن أعي تماماً حقيقة ما يجري. ولما وعيت بعد ذلك بسنين علمت أن الأمر كان ثورة جامحة اضطرمت على أثر ما علم الشعب أن الحكومة القائمة اضطرت لقبول الإنذار الفرنسي الموجه إليها من الجنرال غورو، والمحتوي على مطالب كثيرة منها تسريح الجيش المرابط في مرتفعات مجدل عنجر، فسرح الجيش وعاد أفراده بسلاحهم إلى دمشق معلنين حقيقة ما يجري. فثار الشعب دفاعاً عن الاستقلال وانطلقت جموعه تهاجم مستودعات الأسلحة وأهمها داخل القلعة، ووقع الاشتباك بين الشعب وحكومته!

ولكن الفرنسيين ادعوا عدم وصول جواب حكومة دمشق في الوقت المحدد، فواصلوا زحفهم إلى دمشق التي لم يكن احتلالها من بين المطالب الفرنسية المشتمل عليها الإنذار. ولما رأت حكومة دمشق ما يجري عادت فقررت المقاومة لئلا تتيح للفرنسيين دخول دمشق دخولاً سلمياً دون دفاع...

نص الإنذار

ننشر فيما يلي نص الإنذار الذي وجهه الجنرال غورو باسم فرنسا إلى الملك فيصل، لا باعتباره ملكاً لسوريا، بل باعتباره أميراً حجازياً يقود جيشاً من جيوش الحرب، ويحتل جزءاً من البلاد المفتوحة، ونلاحظ أن الجنرال يسمي الجيش العربي السوري بالجيش الشريفي نسبة إلى اللقب الأول الذي كان يطلق على الملك حسين وابنه الملك فيصل، كما يسمي الحكومة بالحكومة الشريفية بهذا الاعتبار نفسه، أي إن فيصلاً هو الشريف فيصل ابن الشريف حسين وليس له إلاّ هذه الصفة.

وقد أرفق الجنرال إنذاره برسالة، يستهل بها الإنذار:

«يا صاحب السمو أتشرف بأن أرسل مذكرتي المؤرخة ١٤ تموز/يوليو، أقدمها إلى سموكم الملكي وأناشد أخلاقكم السامية ووطنيتكم الصحيحة وشعوركم الودي نحو فرنسا أن تقبلوها.

لقد برهنت فرنسا من جهتها على إخلاصها لسوريا بقبولها لمهمة إرشاد الدولة الجديدة وقيادتها بنزاهة.

ولذلك أريد أن أظن أن سموكم الملكي سيصغي إلى صوت الحكمة في معالجة هذه القضية الخطيرة فلا يتضامن مع حكومة لا تمثل سوى الأحزاب المتطرفة من الشعب.

ولا أفكر أنني قادر على أن أعول في تنفيذ الضمانات التي تشرفت بطلبها على سموكم إذا تولت ذلك الحكومة، فبقاؤها في مناصبها ينطوي على معنى العداء لفرنسا وقد بذلت جهودها لجر بلادكم إلى الحرب وإلقائها في أتون بلاياها ولن يعصمها سوى تصرف سموكم الملكي وحده».

وهذا نص الإنذار:

«باسم الحكومة الفرنسية، لي الشرف بأن أعرض على سموكم الملكي لآخر مرة، موقف هذه الحكومة إزاء السلوك الذي سلكته حكومة دمشق منذ مطلع هذا العام.

سادت السكينة سوريا إبان الاحتلال الإنكليزي ولم يتعكر صفو الأمن ويبدأ الاضطراب فيها إلاّ لمّا حلّت جنودنا محل الجنود البريطانية، وقد أخذت هذه الاضطرابات تزداد من ذلك الحين.

ولقد أثرت هذه الاضطرابات في رقي سوريا ونظامها السياسي والإداري والاقتصادي أكثر من تأثيرها في سلامة جنودنا وفي الاحتلال الفرنسي في المنطقة الغربية. فحكومة دمشق تحمل كل التبعة إزاء سكان سوريا الذين عهد مؤتمر الصلح إلى فرنسا بأن تمتعهم بحسنات إدارة مؤسسة على الاستقلال والنظام والتساهل والثروة، وأن أماني الولاء والتعاون التي أظهرتها فرنسا لسموكم، بتأييدها حقوق السكان الذين يتكلمون العربية على اختلاف مذاهبهم، ويقطنون القطر السوري، بحكم أنفسهم كأمة مستقلة قد أجاب عليها سموكم معترفاً بأن لسكان سوريا مصلحة كبيرة في طلب المشورة والمساعدة من دولة كبيرة لتحقيق وحدتهم وتنظيم شؤون الأمة، نظراً للتضعضع الذي أصاب البلاد من الإرهاق التركي والأضرار التي نتجت عن الحرب، وتلك المشورة والمساعدة ستسجلها عصبة الأمم عندما تتحقق بالفعل. وقد دعا سموكم الملكي فرنسا إلى القيام بهذه المهمة باسم الأمة السورية. ولما كنتم تفاوضون الحكومة الفرنسية في شهر كانون الثاني/ يناير الماضي وكانت العصابات الخارجة من دمشق تجتاح المنطقة الغربية أرسل إليَّ مسيو كلمنصو البرقية الآتية:

«عندما بلغني خبر هجوم البدو في جنوب سوريا وشمالها قلت للأمير فيصل إنني اتفقت معه مؤقتاً على بعض المبادىء وإنني أحافظ أتمّ المحافظة على كلامي، ولكن يجب أن يقابل خطتي هذه بمثل ما فيها من الإخلاص وأن يجعل سلطته محترمة على أنصاره فإذا لم ينفذ هذان الشرطان تنفيذاً دقيقاً فالحكومة الفرنسية تستأنف العمل بحرية وتستعمل القوة لتأييد النظام واحترام الحقوق التي لها من المؤتمر».

والبيان الآتي يوضح جلياً كيف أن حكومة دمشق لم تنقطع عن انتهاج خطة معادية ومخالفة تمام المخالفة لسياسة التعاون التي رمى إليها رئيس الوزراء وتعهدتم بتطبيقها.

١ ـ عداء جلي على قواتنا:

إن إصرار حكومة دمشق على رفض السماح للسلطة الفرنسية باستعمال سكة رياق ـ حلب الحديدية هو عمل عدائي بحت. فالحكومة لا تجهل أن تلك السكة لا بد منها لإعاشة إحدى فرقنا الفرنسية في الشمال وتمكينها من القتال، وهذه الفرقة تقاتل قوات معادية تابعة لتركيا التي انتزع الحلفاء الظافرون

سوريا من ربقتها، ودفاعاً عن حدود حكومة سوريا الجديدة التي يجب أن تربطنا بها روابط المصلحة وعرفان الجميل.

إن حكومة دمشق هي التي وضعت مبدأ تنظيم العصابات واستخدامها ضد جنودنا المحتلة. وهذا المبدأ أعلنه قائد الفرقة الثالثة في حلب صراحة يوم ١٣ نيسان/ أبريل بالقول الآتي:

«لما كنا لا نستطيع أن نعلن الحرب رسمياً على الفرنسيين يجب علينا أن نملأ البلاد بالعصابات التي تجهز عليهم تدريجياً، وسيقود ضباطنا هذه العصابات فإذا استشهد أحدهم تعيل الحكومة عائلته».

وإليك الأدلة الآتية على دقة تنفيذ هذه الخطة:

في ١٣ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩١٩ هوجم موقعنا في تل كلخ بتحريض السلطة الشريفية في حمص، وفي أواخر ذاك الشهر ذبح بدو محمود الفاعور الذي قلتم لي يا صاحب السمو الملكي إنه صديقكم الشخصي مسيحي مرجعيون، وهجم على جنودنا في ١٤ كانون الثاني/ يناير رافعاً العلم الشريفي.

وفي ٢٥ منه سنة ١٩٢٠ تحقق وجود الجنود الشريفية بين الذين هاجموا جنودنا تحت قيادة ثريا بك (بركات) في قريق خان ثم في الحمام. وفي حزيران/ يونيو ثبت وجود أميرالاي ويوزباشي وستة ملازمين و٣١٧ رجلاً من الجيش الشريفي بين العصابات التي كانت تعمل في ساحة مرجعيون وثبت استعمال معدات مأخوذة من الجيش نفسه وهي أربعة رشاشات ثقيلة وثلاثة خفيفة وخمسون صندوق ذخيرة وظهر أيضاً اشتراك محرضي المنطقة الشرقية في الاضطرابات التي امتازت بمذابح (عين إبل) وفتنة الشيعة في شهر حزيران/ يونيو.

ثم إن منظمي العصابات محترمون كل الاحترام في دمشق لا سيما صبحي بركات الذي لا يجهل أحد إساءته إلينا.

وعندما لم تكن العصابات ترسل من المنطقة الشرقية كانت الفتنة تثار في المنطقة الفرنسية ذاتها.

وبهذه الأعمال وقعت اعتداءات عديدة على المسيحيين لا سيما في جسر القرعون في ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر حيث تقع التبعة على الضابطين الشريفيين واجد بك وتحسين بك.

وقد سوعد الشيخ صالح (العلي) بطل الفوضى والبغضاء لنا مساعدة مؤثرة مستمرة في جبال النصيرية.

ومن الممكن تعداد كثير من هذه الأمثلة وقد عرضناها على سموكم الملكي في حينها.

٢ ـ سياسة حكومة دمشق العدائية:

رأى سموكم الملكي إدخال أشخاص مشهورين بعدائهم لفرنسا في حكومة دمشق، وكان تأثير المحيط شديداً عليكم حتى إنكم لم تتمكنوا من السفر في الوقت المناسب تلبية لدعوة مؤتمر الصلح، وقد تألفت الوزارة من أناس من تلك الفئة التي لا تقتصر خطتها على إهانة فرنسا ورفض مساعدتها بل تتناول المجلس الأعلى الذي منح فرنسا الانتداب لسوريا.

إن رفض انتداب فرنسا رفضاً باتاً في ١٨ أيار/مايو الماضي هو خطة عمياء تجر نتائجها المصائب على سوريا.

٣ ـ التدابير الإدارية ضد فرنسا:

إن التمتع الاقتصادي الظاهر في رفض ورق النقد السوري الجديد الذي أصدره البنك السوري لحساب فرنسا ومنع جميع المعاملات الشرقية هو دليل جديد على عداء مضر بمصلحة البلاد.

وكذلك منع نقل الحبوب إلى المنطقة الفرنسية متبدئاً من حماه فدمشق فحلب، ثم إن السلطة الشريفية اجتازت حدود المنطقة الشرقية وتقدمت تدريجياً داخل المنطقة لتظهر أنها توسعت توسعاً يقصد به إخراجنا.

ففي شهر آذار/مارس وضع مخفر شريفي في الخالصة ثم رفع العلم الشريفي على القدموس، بعد ذلك بقليل وفي نيسان/ أبريل جعلت حكومة حلب القصير قضاء شريفياً. ثم نصب قائقمقام شريفي في جسر الشغور.

٤ ـ أعمال عدائية موجهة رأساً إلى فرنسا:

إن من كان صديقاً لفرنسا أو موالياً لها في المنطقة الشرقية يكون مشتبهاً به من السلطة ويعامل معاملة سيئة في أغلب الأحيان.

(وبعد أن يذكر الإنذار بعض الأمثلة يعود فيقول):

وعدد سكان المنطقة الشرقية الذين أكسبهم عداؤهم لنا عطف الحكومة عظيم جداً.

إن بث الدعوة ضد فرنسا في المنطقة الغربية قد ألبسته حكومة دمشق أشكالاً خبيثة أرادت السلطة الفرنسية أن تغمض عينها عنها لأنها قررت اتّباع سياسة التساهل إلى النهاية.

وآخر هذه الأعمال وأظهرها شراء القسم الأعظم من أعضاء مجلس الإدارة باثنين وأربعين ألف جنيه مصري.

ولقد ألقت مخافرنا القبض على هؤلاء الأعضاء في ١٠ تموز/يوليو بينما كانوا ذاهبين إلى دمشق لبيع بلادهم منكرين الأماني التي أعرب عنها مواطنوهم بالإجماع تقريباً منذ عهد بعيد.

إن صحافة دمشق التي تفرط الحكومة في شد أزرها تواصل دائماً حملاتها على كل ما هو فرنسي، وتقبح السلطة المحتلة في المنطقة الغربية، وترد كل مساعدة تعرضها فرنسا على سوريا وتهينني أقبح إهانة.

٥ ـ الاعتداء على الحقوق الدولية:

بمقتضى هذه الحقوق، يجب على قائد جيش الحجاز المحتل قطراً سورياً لا بد أن يظلّ عثمانياً إلى أن يقتضي تنفيذ المعاهدة بتغييره أن لا يعمل بغير هذه الصفة وأن يحافظ على الحالة الراهنة وهو حارسها. ولكنه تصرف عكس ذلك متخذاً صفة السيادة العليا وقد تقرر التجنيد الإجباري ونفذ منذ كانون

الأول/ ديسمبر سنة ١٩١٩ مع أن البلاد لا تزال بلاداً أجنبية. وهذا العبء الثقيل الذي لا يجدي نفعاً قد أكره عليه الشعب حتى في المناطق التي لها شكل خاص كالبقاع. ونفذ في أناس مستثنين منه كاللبنانيين والمغاربة المقيمين في المنطقة الشرقية. ولاقى هذا التجنيد الباطل مقاومة نزيهة أدت في بعض الأحيان إلى إراقة الدماء.

ثم إن المجلس الملقب بالمؤتمر السوري الذي تألف واجتمع بصورة غير قانونية يسن القوانين، بل يحكم باسم حكومة ودولة لم يعترف بوجودها. وفضلاً عن ذلك فقد قدم اللقب الملكي لسموكم الملكي بدون حق ولا وكالة مما وضعكم كما عبرتم عن ذلك في موقف التمرد على مؤتمر الصلح.

ولم تحترم الامتيازات الأجنبية فإن أحد رعايانا، الأمير مختار الذي يمثل أسرة كبيرة اشتهرت منذ القدم باتصالها بفرنسا، قد أوقف إيقافاً معيباً.

وليست الاتفاقات السياسية محترمة أيضاً. فإن لواء من الجيش الشريفي أُرسل إلى مجدل عنجر رغم الاتفاق الذي تمّ في كانون الأول/ ديسمبر الماضي مع المسيو كليمنصو والذي يقضي أن لا تحتل في البقاع قوة شريفية أو فرنسية.

٦ ـ الأضرار التي أصابت فرنسا وسوريا من ذلك:

لم تستطع السلطة الفرنسية حتى الآن أن تنظم البلاد التنظيم الذي ننتظره منها لأنها اضطرت إلى صرف قواها وجهودها لقمع الفتن المتوالية، ومواصلة المفاوضات السياسية الجدية العقيمة مع حكومة دمشق، فهي والحالة هذه غير مسؤولة عن هذا التأخير، بل تتحمل العبء العسكري والمالي الذي تقضي به الحالة التي أوجدتها حكومة دمشق. ولا يمكن إلاّ أن تؤثر على التكاليف في الميزانية السورية سواء بفقد الدخل الذي ينشأ عن استمرار الفوضى أو الاشتراك في نفقات السيادة التي تلحق بها في المستقبل.

ولقد بلغت حالة الفوضى التي أوجدها مثيرو الفتن في البلاد حدّاً دعا إلى استجلاب قوات كبيرة أعظم عدداً مما يدعو إليه استبدال جنود إنكليزية وإن هذه الأسباب تدل دلالة كافية على أنه لا يمكن بعد الآن أن نعتمد على حكومة جاهرت فرنسا إبان السكينة بالعداء كل المجاهرة وأخطأت نحو بلادها خطأً عظيماً بظهورها عاجزة عن تنظيمها وإدارتها.

لذلك ترى فرنسا أنها مضطرة لأخذ الضمانات التي تكفل سلامة جنودها وسلامة السكان التي نالت من مؤتمر السلم مهمة الوكالة عليهم، فأتشرف بأن أبلغ سموكم الملكي أن هذه الضمانات هي كما يأتي:

١ ـ التصرف بسكة رياق ـ حلب الحديدية لإجراء النقليات التي تأمر بها السلطة الفرنسية ويؤمن هذا التصرف بأن يراقب مفوضون عسكريون فرنسيون جميع ما ينقل في محطات رياق وبعلبك وحمص وحماه وحلب تعضدهم قوة مسلحة مخصصة للمحافظة على المحطة واحتلال مدينة حلب التي هي نقطة مواصلات هامة لا يسعنا أن نتركها تسقط في يد الترك[1].

٢ ـ قبول الانتداب الفرنسي: إن هذا الانتداب يحترم استقلال أهالي سوريا ولا يناقض مبدأ الحكم بسلطة سورية تستمد قوتها من إرادة الشعب، ولا يتضمن سوى معاونة بشكل مساعدة وتعاون مع الدولة المنتدبة دون أن يتخذ مطلقاً شكل استعمار أو إلحاق أو إدارة تنفذ رأساً.

٣ ـ قبول الورق السوري: تصبح هذه العملة وطنية في المنطقة الشرقية فتلغى جميع الأحكام المتعلقة بالبنك السوري في المنطقة الشرقية.

٤ ـ تأديب المجرمين الذين كانوا أشدّ عداء لفرنسا. (ويعدد الإنذار بعضهم).

وهذه الشروط تقدم جملة ويجب قبولها جملة أيضاً بلا أدنى فرق خلال أربعة أيام تبتدىء من نصف ليل ١٠ تموز/ يوليو (أي ١٤ منه الساعة ١٢ ليلاً) وتنتهي في ١٧ منه الساعة ٢٤ (أي الساعة ١٢ ليلاً).

فإذا جاءني علم من سموكم قبل هذا الموعد بقبول هذه الشروط فيجب أن تكون قد صدرت أوامركم في الوقت نفسه إلى المراجع اللازمة لكي لا تعارض جنودي الزاحفة لاحتلال المواقع المعينة، ثم إن قبول الشرط الثاني والثالث والرابع يجب أن يؤيد رسمياً قبل ١٨ منه، أما تنفيذها بالتمام فيكون قبل ٣١ منه الساعة ٢٤ (نصف الليل).

وإذا كان سموكم الملكي لا يشعرني في الوقت اللازم بقبول هذه الشروط أتشرف بأن أبلغه أن الحكومة الفرنسية تكون مطلقة اليد في العمل. وفي هذه الحالة لا أستطيع أن أؤكد أن الحكومة الفرنسية تكتفي بهذه الضمانات المعتدلة. ولا تقع على فرنسا تبعة المصائب التي تحل بالبلاد، فهي قد برهنت على تساهلها من زمن طويل وفي الآونة الأخيرة. فحكومة دمشق هي التي تتحمل جميع أعباء مسؤولية فصل الخطاب الذي لا أنظر إليه إلاّ آسفاً ولكني مستعد له بمتانة لا تتزعزع.

جماهير الحرب

وأذكر الآن مناظر السناجق[٢] مرفوعة أمام الجماهير ودقات الطبول التي اندفعت في الأزقة والشوارع تؤلب الناس ليتجمعوا للقتال. كما أذكر جماهير المتطوعين ذاهبة (بعراضاتها) إلى محطة البرامكة لتركب القطار الحديدي إلى أقرب محطة للجبهة الجديدة في ميسلون وهي (الهامة) حيث يواصلون السير من الهامة إلى ميسلون على أقدامهم. وكان يطيب لي مرافقة الذاهبين إلى المحطة بأهازيجهم الحماسية وهتافاتهم المدوية. وقد ظلت صور بعض الوجوه منطبعة في ذهني، فكنت أشاهدها بعد مر السنين في دمشق فأتذكر الزحف إلى محطة البرامكة.

بعد معركة ميسلون

ولا أعي ما جرى بعد ذلك تمام الوعي، غير أني أتذكر منظر رجال الشرطة وقد عصبوا زنودهم اليمنى بعصابات بيضاء مكتوب عليها كلمة «بوليس» وهم يتنقلون في الشوارع. وقد علمت بعد ذلك أنه بعد الهزيمة في ميسلون وانهيار الحكم الوطني وترقب دخول الفرنسيين دمشق كان لا بد من هذا التدبير

ليظل رجال الشرطة محافظين على الأمن، دون أن يثيروا ريبة الفرنسيين بلباسهم العسكري وسلاحهم من المسدسات.

وكما شهدت زحف الجماهير إلى محطة البرامكة، فإنني أذكر الاستقبال الفخم الذي أعده بقايا صنائع الأجنبي للجنرال غورو في دخوله إلى دمشق لأول مرة بعد أسبوع من معركة ميسلون وكيف حشدوا الناس على مدخل دمشق في (المنشية). فدخل الجنرال دمشق دخول الفاتحين حقاً تستقبله جماهيرها المكتظة. ولم يكتفوا بذلك، بل إن (أبا شكري الطباع) ورفاقاً له فكوا خيول عربة الجنرال وجروا العربة بأنفسهم بدل الخيل. وكان الطباع يعتذر بعد ذلك بأن قريباً له كان محكوماً بالإعدام، ورجا بهذا التصرف إنقاذه!

كما أذكر منظراً من مناظر تلك الأيام، وهو أننا كنا نسير مع والدي إلى دعوة على العشاء، وأن واحداً سلّم على والدي ثم انفرد به ناحية، وأسرّ له بشيء، ولما عاد الوالد كان وجهه يطفح بشراً على غير عادته في تلك الأيام الكئيبة. ولما انتظم المجلس في الدار المدعوين إليها أقبل خلال الليل رجل أسرّ للوالد بكلام أعاد إلى وجهه الكآبة.

ثم علمت بأن ما بعث البشر في وجهه أول الأمر هو أن الرجل أسرَّ إليه بأن الجنرال غورور قد اغتيل وهو في طريقه من دمشق إلى القنيطرة لزيارة محمود الفاعور شيخ عرب الفضل في الجولان الذي كان قد أعدّ له احتفالات حاشدة، وأن ما أعاده إلى الكآبة في الليل هو أن الجنرال قد نجا من محاولة الاغتيال.

في المدرسة العلوية

بعد يومين أو ثلاثة من وصولنا إلى دمشق دخلت المدرسة العلوية، وأحسب أني كنت في الصف الثالث الابتدائي، وكنت على مستوى حسن مع طلاب الصف ما عدا شيئين اثنين هما اللغة الفرنسية، والحساب. فقد كنت لم أدرس شيئاً من الفرنسية كما أن موهبتي في الحساب كانت في منتهى الضعف فضلاً عن معلوماتي. وقد كان عليَّ أن أدرس أضعاف ما يدرسه التلاميذ في اللغة لأستطيع مجاراتهم وكان ذلك فوق الطاقة، لذلك بقيت ضعيفاً في اللغة متعباً في متابعة دراستها. أما الحساب فقد كانت مشكلته أعصى من أن تحل، لأن فقدان الموهبة فيه لا يجدي معه أي درس أو تعب. ولا أزال أذكر أنه خلال بقية سني الدراسة الابتدائية كان يصادف درس الحساب أول ساعة من صباح يوم السبت. فكنت من همّ التفكير في اليوم المقبل لا أستمتع بأي استجمام في عطلة يوم الجمعة، حتى إذا دنا أصيل الجمعة وبدأ النهار يتقلص وينقضي تراكمت عليَّ متاعب التفكير في الصباح الآتي وما يحمله من درس الحساب، فلا يكاد الظلام، ظلام يوم الجمعة، يطبق حتى أحس بأنه قد أطبق على نفسي.

وقد ظللت حتى اليوم أتضايق من جمع عددين أو طرحهما أو قسمتهما أو ضربهما، ولا بد من أن أقع في الخطأ. وقد كان أكثر ما يخجلني هو أنني إذا دفعت أكثر مما هو المطلوب مني على أن يعاد إليَّ الباقي ثم حسبت ما أعيد إليَّ وجدته ناقصاً وراجعت الدافع فيعاود العد فيجده صحيحاً! لذلك

أصبحت لا أعدّ ما يعاد إليّ، أو ما يدفع إليّ رأساً. وقد استغل هذا الأمر فيّ نادل في أحد مطاعم بغداد حين أقمت فيها لفترة، فقد لاحظ أني لا أعد ما يعيده إليّ وتكرر ذلك، فإذا بي أكتشف بعد حين أنه ينقص من حقي أشياء يحتفظ بها لنفسه!

على أنني إذا كنت مقصراً في الفرنسية والحساب متعباً بهما، فقد كنت متقدماً في اللغة العربية والتاريخ مستعذباً لهما مرتاحاً إليهما. وكذلك في درس الهندسة.

وقد كان يتولى إدارة المدرسة العلوية في أول دخولنا إليها مدير تقليدي من قدامى الرجال، وصدف أن مرض وتغيب، فوافق تغيبه حادث حدث للأستاذ أديب التقي. إذ كان مديراً لمدرسة (البحصة) الابتدائية في دمشق. وكان الشعور العام معادياً للإفرنسيين، فانفجر هذا الشعور بين تلاميذه في أحد الأيام وساعد بتصرفاته على هذا الانفجار مما ساء السلطات فأقالته من إدارة المدرسة الحكومية. ثم انتهى الأمر إلى أن عيّن مديراً للمدرسة العلوية. فكان ذلك حدثاً فريداً في حياة هذا المدرسة، كما كان ذا أثر بعيد في توجيهي الدراسي والفكري. فأنا مدين لاثنين في حياتي الثقافية، هما والدي ثم أديب التقي.



في المدرسة العلوية سنة ١٣٤٠هـ.

كان أديب التقي فذاً في الرجال، ذا خلق مستقيم وإرادة حازمة وفكر نير، وكان إلى ذلك أديباً من أقوى أدباء العرب. وإذا كنت أستطيع أن أمسك القلم اليوم وقبل اليوم فإن له في ذلك الفضل الكبير. لقد تولى بنفسه تدريسنا ثلاثة دروس: الإنشاء والمحفوظات والتاريخ. فكان لنا من دروسه الثلاثة هذه خير موجه في الأدب والوطنية والبحث. وقد وعيت بفضله ـ على صغر سنّي ـ أموراً ما كان لي أن أعيها لولا توجيهه.

لقد عرف بدرس الإنشاء كيف يثير فينا الحس الأدبي وكيف يسير بنا في دروب الكتابة، وكيف يقوم أقلامنا ويثقف أسلوبنا. وعرف بالدرس نفسه وبدرس المحفوظات والتاريخ كيف يثير فينا إلى جانب هذا كله الحس الوطني والثورة على الانتداب والنقمة على الغاصبين.

لقد كنت متأثراً بمظاهر الثورة العاملية التي شهدت بعض فصولها خلال الإقامة في شقرا، ثم ازددت تأثراً بمظاهر الاستقلال بدمشق، ثم بمظاهر الهزيمة بميسلون وما تلاها من انهيار الاستقلال. ولكن ذلك لم يؤلف في ذهني صورة كاملة لمعاني الوطنية والثورة على الاستعمار. فلم أكن في مثل تلك السن لأتبين حقيقة ما جرى وما يجري، ولكنني في أعماقي كنت متأثراً بكل ذلك. فإذا بأديب التقي يقدح في نفوسنا الشرارة الكامنة ويركز الصورة غير المتكاملة فتبدو لنا جلية واضحة!

جاءنا في أحد دروس الإنشاء، في يوم مرّت فيه في سماء دمشق طيارات فرنسية، وكان مرور الطيارات في ذلك الحين يعتبر حدثاً مثيراً، ولم تكن العيون والأفكار قد ألفت رؤيتها، فإذا امتد الدوي المنذر بوصولها اشرأبت الأعناق إلى السماء لتتطلع بتعجب عميق إلى هذا الجرم السابح في الفضاء، الراكض في السماء!

دخل أديب التقي علينا وطلب إلينا أن نكتب موضوعاً عنوانه «عند مشاهدتي الطيارة» ويقصد ذلك أن ندون شعورنا عندما نشاهد طيارة. وكان شعورنا شعور أطفال لا يبتعد عن التصورات الصبيانية، فلا أذكر الآن ماذا كتبت.

وبعد أن اطّلع أديب التقي على ما كتبنا جميعاً، طلب إلينا أن نأخذ أقلامنا ونهيّيء أوراقنا ثم أملى علينا قطعة تعتبر آية من آيات البيان ومرجلاً من مراجل الوطنية. وكم آسف أن لم يبق في ذهني منها سوى مقطعها الأخير، وكفى به دليلاً عليها، وكان المقطع الآتي: فما كان أشد خفقان قلبي أسى حين أوحت إليّ سمتها أنها أجنبية... ليت لنا طيارات أيضاً.

هذه القطعة كانت الشرارة التي أوقدت في نفسي جذوة الوطنية، وأثارت في عقلي العزة القومية.

ولا أزال حتى الآن أحفظ في ذاكرتي بعض ما لقننا إياه للاستظهار فمن ذلك مختارات من قصيدة الشبيبي (دمشق وبغداد) ومطلعها:

مـاذا بـنـا وبـذي الـديـار يـراد ... فُـقـدت دمـشـق وقـبـلـهـا بـغـداد

وكلها على هذا النسق الوطني المثير، فضلاً عن بلاغة الشعر وقوته.

وكذلك مختارات من قصيدة شوقي في سقوط أدرنة:

يـا أخـت أنـدلـس عـلـيـك سـلام هـوت الخلافـة عـنـك والإسـلام

إلى غير ذلك من هذا وأشباهه الباعث على شيئين: على تذوق أرقى الشعر، وعلى التغني بالوطن.

مصر والسودان

ومن التأثر بهذا انطلقت وأنا في الدراسة الابتدائية أمام الزعماء المصريين الفارين يومذاك من وجه الإنكليز في مصر، انطلقت بذاك الجواب الذي هزهم هزاً.

فإنه على أثر اغتيال لستاك باشا القائد الإنكليزي للجيش المصري أيام رئاسة سعد زغلول للوزارة المصرية اتهم بعض زعماء الوفد وشبانه بأنهم هم المتآمرون على القائد فقُبض على من قبض عليهم وفرّ من استطاع الفرار ولجأوا إلى دمشق.

ولا أدري الآن سبب زيارتهم للمدرسة العلوية، وربما كان ذلك رداً لزيارة المدير الذي يمكن أن يكون قد زارهم فردوا له الزيارة في المدرسة، ولا أعرف الآن أسماءهم ما عدا واحداً منهم هو الدكتور محجوب ثابت، وسبب حفظي لاسمه أن منظره كان متميزاً فيهم بسبب لحيته الكثّة وجسمه الممتلىء!

دخلوا علينا غرفة الدرس يصحبهم المدير ونحن في درس الجغرافيا، فكان من الطبيعي أن تكون أسئلتهم في هذا الدرس. فاختار أحدهم تلميذاً وقال له: عدّ لي مدن القطر المصري. فارتبك التلميذ واضطرب وظهر عليه العي. فأسرعت أرفع يدي استعداداً للإجابة فتوجه السائل بالسؤال إليَّ فانطلقت معدداً: القاهرة، الإسكندرية، الخرطوم!

ولم أكد أذكر اسم الخرطوم حتى صاح الدكتور محجوب بصوته الجهوري:

إيه .... إيه ... إيه ... إيه الخرطوم، الخرطوم دي في السودان.

فبادرته قائلاً: نحن نعتبر مصر والسودان بلداً واحداً. ولأجل أن تعرف وقع هذا الجواب على الزعماء المصريين يجب أن تعرف أن الشعار الأول للكفاح المصري كان يومذاك وحدة مصر والسودان.

فأثار الزعماء المصريين أن يعي تلميذ صغير السن حقيقتهم الوطنية ويهتف بشعارهم القومي وهم بعيدون عن بلدهم.

ولا أزال حتى الآن أتمثل في ذهني دموع الدكتور محجوب ثابت وقد تحدرت على وجنتيه ولحيته.

الخطاب المرتجل

وعدا عن درسي الإنشاء والمحفوظات فقد خصص أديب التقي بعد ظهر الاثنين من كل أسبوع لتعويدنا الخطابة بعد تمريننا على الكتابة، فكان بعد ظهر الاثنين ميدان للخطباء من التلاميذ يعرضون فيه مواهبهم وينمونها بتوجيه أديب التقي الذي كان يستمع مع مجموع الأساتذة والتلاميذ إلى ما يُلقى على منبر المدرسة، ثم يعلق على ما أُلقي، مشيراً إلى الحسنات والسيئات لتقويم الخطباء وتثقيفهم.

وقد كان يتخذ من هذا المنبر أيضاً وسيلة لتنمية الروح الوطنية، ولا أزال أذكر أن أحد الخطباء من التلاميذ استعمل خلال كلامه كلمة (الأمة السورية)، فهب أديب التقي ينعي على الطالب هذا الإطلاق قائلاً أن لا أمة إلاّ الأمة العربية.

ومن هذا أومثاله كان إحساس الطلاب بقوميتهم وتأثرهم بوطنيتهم ينموان ويتفاعلان في الوجدان والنفس... في مثل ذاك الجو الإرهابي الاستعماري الذي فرضه الفرنسيون على البلاد بعد معركة ميسلون وما تلاها من سنين.

ولم يكن فينا من يحاول الارتجال في مثل تلك السن، ولم نكن نجرؤ على مثل هذه الخطوة ما دمنا مستطيعين كتابة ما نريد أن نقوله.

ولكن في إحدى الرحلات المدرسية التي كانت تنظم بين الحين والحين إلى بعض القرى، دُعينا إلى الغداء على أن نتناوله بعد تأدية صلاة الجمعة في مسجد البلدة. وعلمنا أن إمام المسجد سيرحب بنا خلال خطبة الجمعة لذلك عهد إليّ بإعداد كلمة تناسب الرد على ترحيب الخطيب، فكتبت كلمة موجزة ووضعتها في إحدى جيوبي على ما اعتدت، ولكن يبدو أنني إما قد أخطأت فتركتها في مكان آخر أو أنها وقعت بعد ذلك من جيبي دون أن أدري.

وفي الموعد المعين ذهبنا إلى المسجد المكتظ بالناس وصعد الخطيب المنبر وألقى خطبته مرحباً بضيوف البلدة، وبعد انتهائه مباشرة هببت إلى المنبر العالي ووقفت على ذروته، ومددت يدي لآخذ الورقة المعدة لهذا الموقف، وكانت الأبصار كلها شاخصة إليّ متهيئة إلى ما سيقوله هذا التلميذ الصغير.

ولكنني لم أجد الورقة وفي لمحات مددت يدي إلى كل جيوبي عبثاً، فهالني أول الأمر الموقف. ولكنني ملكت روعي وسيطرت على نفسي وانطلقت في كلام ارتجالي كان عماده ما لا يزال عالقاً في ذهني مما هو مكتوب في الورقة.

فشجعني هذا بعد ذلك على الارتجال واستسهلته ومضيت به بعد ذلك في حياتي كلها.

دمشق يومذاك

كانت مدينة دمشق في تلك الحقبة من مطالع القرن تعيش فترة انتقالية، في عاداتها وتقاليدها الاجتماعية، ما بين المحدث والقديم الذي كان في أواخر أيامه. وكانت وسائط النقل في المدينة تتنوع بين الترامواي وعربات الخيل والسيارات على قلتها وندرتها، وهي للخاصة من القوم، أما سيارات الأجرة فكانت معدودة ومخصصة للانتقال بين المدن، دمشق ـ بيروت على الأغلب، لأن طريق دمشق ـ حلب كانت بالقطار. ودمشق تلك الحقبة كانت في أحيائها وطراز بيوتها من أندر مدن العالم. وكان بعض القديم من بيوتها قائماً كما كان منذ عقود كثيرة من السنين. وقد زرت دمشق قبل أسبوع فأدهشني بقاء حيّنا وبعض الأحياء الأخرى على ما كان فيها من أزقة ودخلات، تعادل ما يسمونه في بيروت «الزواريب». أما البيوت فأمرها عجيب إذا رأيتها من الخارج فستظن أنك أمام أكواخ لكن عند دخولك إليها ستفاجئك باحاتها الواسعة بما تحتويه من أشجار ونباتات مزهرة وأحواض، إلى بركة في وسط الباحة. وحتى بيوت الفقراء كانت تحتوي على بحرة وأشجار ونباتات مزهرة. ولا بد في كل بيت من وجود ما يسمونه «ليوان» يقع في وسط المنزل ويفضي إلى أرض الدار أو فسحتها، وهذا الترتيب للبيوت كان يتوخى، على الأرجح، تعويض النساء عن عدم التنزه في المتنزهات العامة، إذ بجلوسهن في الليوان يشرفن على البحرة وأحواض (الزريعة) والأشجار. ومنذ أواسط الثلاثينات بدأ الناس يخرجون من هذه

البيوت، حتى الفخمة منها، إلى بيوت السكن الحديثة ذات الطوابق الكثيرة. إلاّ أن الفقراء ومتوسطي الحال بقوا في تلك البيوت التي لا تزيد طوابقها عن اثنين، الأرضي منهما للإقامة في الصيف للرطوبة فيه، لأن المياه تحيط دمشق من كل جانب، إلاّ أن النوم يكون في الطابق العلوي صيفاً وشتاء بسبب شدة الرطوبة. ومن أعقد وأغرب ما في دمشق نظام توزيع المياه على أحيائها وبيوتها منذ القديم. وهو نظام دقيق ومحكم التنظيم ويستلزم أخصائيين لشرحه. ففي كل زقاق من أزقة دمشق كان يوجد ما يسمى «الطالع» وهو جرن مقفل تنصب فيه المياه الآتية من المركز الأساسي الذي يغذي المدينة. ولهذا الجرن فرضات متساوية على حافته الدائرية، منها تتغذى البيوت بالمياه بالتساوي. وإلى مياه «الطوالع»، كان في كل منزل دمشقي قديم بئر تستخرج منها مياه الاستعمال بالمضخة اليدوية. وإلى البحرة القائمة في أرض الدار، كان هناك بحرة ثانية تقوم في المطبخ، لا أدري من أين كانت تتزود بالمياه... كأن دمشق كانت مدينة للمياه.

أزياء، مقاه وفرنسيون

كان الغالب على ملبس الجمهور الدمشقي، حتى في أوساط الأثرياء من كبار التجار وزعماء الأحياء، ارتداء «القنباز» وما يغلب على القنابيز هو حياكتها في دمشق. ولا بد من شد وسط الرجل بزنار عريض. وفي لباس الرأس، ولا سيما بين التجار، كان الطربوش ملفوفة عليه عمامة مطرزة صفراء اللون تعرف بـ«الغباني». على أن الأبناء من طلاب المدارس كانوا يلبسون اللباس المحدث، بينما بقي الأبناء الكبار السن، الذين لم يتسنَّ لهم متابعة الدراسة، على أزياء آبائهم، لكن من غير لف طرابيشهم بالعمامة.

وهكذا كان البيت الدمشقي يحتوي ثلاثة أنواع من الملابس. وفي عهدنا بدأ التطور يظهر في تخلي الآباء عن العمامة واكتفائهم بالطربوش، كما تخلى الأبناء الكبار عن القنباز لصالح لباس إخوانهم الصغار المحدث، إلى أن تخلى الآباء عن اللباس التقليدي لصالح الزي الرسمي المعروف الآن. أما ملابس النساء فكانت واحدة موحدة تلتزمها الجدة العجوز كما الفتاة الشابة، أو البنت التي بلغت الست السنوات. والملاءة السوداء كانت تغطي الجميع، والنقاب الأسود يحجب الوجوه، إلاّ أن ما يختلف بين النساء هو ما تحت الملاءة من ملابس.

والملاهي لم تكن معروفة في دمشق، إلاّ تلك المخصصة للرواد من الفرنسيين والأجانب والبعض من الدمشقيين ممن تطبعوا بطباعهم. وبيروت كانت تزدحم بالدمشقيين أيام الجمعة من كل أسبوع، وعلى الأغلب منذ ما بعد ظهر نهار الخميس حتى صباح السبت الباكر. وكان لانتقال الدمشقيين إلى بيروت سببان: إستيراد السلع من التجار، واللهو والعبث في ملاهي بيروت التي كانت تستقبلهم ليلتين كاملتين، إذ يجدون فيها ما لا أثر له في دمشق. أما المقاهي الدمشقية فكانت كثيرة وتزدحم بالرواد في الآصال والأماسي، ولا سيما بعد أن شُقَّ شارع بغداد وقامت على جانبيه بعض المقاهي الحديثة النظيفة الشبيهة بالمتنزهات. أما قلب الأحياء وأطرافها فكانت تحوي مقاهي الفقراء. وكانت شلل من الطلبة الدمشقيين، ممن تؤثر في «ميزانيتهم» القروش الخمسة، ترتاد هذه المقاهي وتساوم أصحابها على الجلوس فيها خلال

الاستعداد للامتحانات من الصباح حتى المساء للمذاكرة، لقاء خمسة قروش من دون طلب أي شيء من المقهى. أما المطاعم الدمشقية فكانت محدودة وتقدم المآكل الدمشقية المحلية الفاخرة. ومن أشهرها كان «مطعم أسدية» في سوق الحميدية الذي كانت تكثر فيه محلات بيع (البوظة) غير المعروفة إلاّ في دمشق. والعابر سوق الحميدية كان يرى باعة البوظة ينهالون بمخابيطهم الخشبية الكبيرة على ما في داخل الأواني النحاسية. وكانت هذه المحال تمتلىء بالناس، وفيها فقط كنت تشاهد النسوة يتناولن البوظة في زاوية من المحل من تحت أنقبتهن السوداء. نقول (البوظة) لأنه الاسم المعروف في لبنان للحليب المجمد. أما في دمشق فكان اسمه (القيمق).

وأبناء الجالية الفرنسية من ضباط ومستشارين، ومن إليهم، كانوا لا يختلطون بالأهالي الذين ينفرون منهم وكانت للفرنسيين حياتهم الخاصة. ومن شدة كره الناس لهم كان يتجنبون الظهور في الشوارع والأماكن العامة، وخصوصاً في الأحياء. أما إقامتهم فكانت على أطراف دمشق، وفي حي الصالحية على الغالب، وبالقرب مما سمي بالجسر الأبيض كان يقوم بيت المفوض السامي الذي كان مقره الأساسي في بيروت.

من تقاليد دمشق

من الذكريات الدمشقية الجميلة في ذلك العهد سهرات الأدوار في ليالي الشتاء. فقد كان هناك تقليد دمشقي اجتماعي يسمى (الدّوْر) وذلك أن أرباب كل حرفة من الحرف، أو أية جماعات أخرى يرتبط بعضها ببعض برابط ما. كان يلتقي أفرادها في ليالي الشتاء في بيت أحدهم في ليلة معينة من الأسبوع فيظل هؤلاء يتنقلون طوال فصل الشتاء من بيت في الأسبوع إلى بيت آخر في الأسبوع التالي، حتى يأتي (الدور) على آخر بيت، ثم يعود فيبتدىء (الدور) من جديد.

كان لكل حي (أدواره) ولكل صنف من الناس (أدواره)، فيكون التلاقي في (الدور) فرصة لمن قد لا يتلاقون إلاّ في (الدور)، كما يكون وسيلة لبحث ما يطرأ من الشؤون العامة والخاصة.

وكانت أدوار حي الخراب ثلاثة أدوار (دور) للكهول والشيوخ وهم على الأغلب من التجار. و(دور) للشبان وأكثريتهم إما من التجار أو أبناء التجار. و(دور) ثالث لمحبي الثقافة والأدب الراغبين في الاستزادة من المعرفة.

أما ما يجري في (الدورين) الأولين فإن الدور الأول يغلب عليه طابع الجد، وكثيراً ما يتعدى الجد إلى التنكيت، وتبحث فيه شؤون الحي وأهمها شأن المدرسة العلوية وما تشكو منه أو ما يؤدي إلى تقدمها.

وأما (الدور الثاني) فيغلب عليه طابع التنكيت والقيام ببعض الألعاب المشتركة والتسليات الطريفة، ثم يكون للجد مكانه، وأهم ما يشغل أهله هو أمر المدرسة أيضاً. وأطرف شخصية كانت في هذا الدور هي شخصية توفيق شمس المنكّت البارع الظريف الذي أصبح بعد ذلك مختاراً لحي الخراب.

وأما (الدور) الثالث فقد كان معيناً له ليلة الأربعاء وكان رواده أقل عدداً بينهم شبه الأمي وشبه المتعلم والمثقف والعالم. ولكنهم كلهم يشتركون في أنهم أذكياء متفهمون راغبون بالمعرفة.

وكان منهجه أن يتلى فيه كتاب من كتب التاريخ أو الأدب، ويناقش ما يتلى أو يوضح. وكان لا بد من تلاوة شيء من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. كما كان ينشد فيه الشعر الجيد من بعض ذوي الأصوات الجيدة على الطريقة المعروفة في جبل عامل والعراق. وأطرف شخصية في هذا (الدور) كانت شخصية إبراهيم اللحام (أبي توفيق).

وكان لا بد في (الدورين) الأول والثالث من حضور الوالد، أما (الدور) الثاني فلا يحضره إلاّ إذا كان حضوره ضرورياً للبت في بعض الأمور.

وقد أنتج (الدور) الثالث الكثير من الشعر الطريف كان ناظموه الوالد وأديب التقي وأحمد صندوق، كما أنتجت ذكراه قصيدتين جميلتين للوالد ولأحمد صندوق إذ أرسل الوالد، بعد إقامة طويلة في جبل عامل، قصيدة يحن فيها إلى دمشق ويذكر ليالي الأربعاء. فأجابه أحمد صندوق بقصيدة من رويها وقافيتها كانت تخليداً (لليلة الأربعاء) كما أن لأحمد صندوق أكثر من قصيدة في الحديث عن ليلة الأربعاء.

ومن أطرف ما جرى في إحدى الليالي أن اقترح أحدهم أن يفرض على كل واحد من الحاضرين أن ينشد شيئاً من الشعر على طريقة الإنشاد المعروفة. وكانت معظم الأصوات منكرة، مما أدى إلى ضحك طويل.

وكنت أنا صبياً يصطحبني والدي معه لحضور ما يحضره لا سيما (دور) ليلة الأربعاء. وقد أثرت فيَّ ليالي الأربعاء تأثيراً كبيراً وانطبع في ذهني منها من المعلومات ومن الشعر ما استفدت منه كثيراً.

لقد زال (الدور) فيما زال من التقاليد الدمشقية الشعبية.

في أزقة دمشق

كانت المدرسة العلوية تجاورنا، بل كان أحد جدرانها يلاصق بيتنا، لذلك كنت أتباطأ في الذهاب إليها صباحاً، فلا أمضي حتى أسمع صوت (الصفارة) معلناً التجمع لدخول الصفوف. وعند ذلك أهب لأخذ كتبي ودفاتري فأصل المدرسة في دقائق تكون كافية لانتظامي بين التلاميذ الداخلين إلى صفوفهم.

والمدرسة والبيت يقعان في (دخلة الشرفا) وقد يقال لها (السِّيَدا) بتشديد السين المكسورة وفتح الياء، وهي عبارة عن ممر ضيق غير نافذ، ينتهي (بدخلة) أخرى أكثر ضيقاً وأقصر مسافة تكاد تكون مظلمة في النهار.

ويبدو أن الاسم (الشرفا) قد التصق بها لأن سكانها كانوا من السادة الأشراف، وهم في أكثريتهم من آل مرتضى، وإن كانت منذ عرفناها غير مسكونة إلاّ من بيتين منهم فقط. أما البقية فهم من آل اللحام، ثم من آل بيضون وبيت واحد من آل الجمال. وكان ألصق الجيران بنا الحاج (أبو أحمد اللحام)، الذي كثيراً ما كنت ألقاه بجسمه المربوع الممتلىء وعمامته (الغباني) منطلقاً في الصباح بوجه يشع إيماناً وتقى وابتسامة تفيض سماحة وبشراً فيملأ نفسي حباً له وتعاطفاً معه.

ولطالما خرجنا من (دخلة الشرفا) ومشينا متجاوزينها ومنطلقين إلى يميننا اجتيازاً لزقاق المدار، ثم منحرفين

إلى اليمين ماشين في الشارع الجديد المنشأ خلال الحرب العالمية الأولى، ثم منتهين إلى السوق. وهو السوق الذي يبدأ من باب الجابية ثم ينتهي (بباب شرقي) (الباب الشرقي). وخلال امتداده الطويل هذا يتكيف تكيفات عديدة ويتسمى بأسماء مختلفة. فهو منذ باب الجابية سوق مسقوف تقوم على جانبيه المتاجر المنوعة، وبعد أن يكون اسمه سوق مدحت باشا يصبح اسمه في امتداده مئذنة الشحم، ثم ينتهي سقفه، ولكنه هنا في مئذنة الشحم يبدل متاجره، فبعد أن كانت في سوق مدحت باشا متاجر عامة، تصبح في أوائل مئذنة الشحم بعد مدخل سوق البزورية سوقاً لاستيراد أبناء الغوطة والمرج، مما يطلق على أصحاب متاجره اسم (الجرّداين) (بتشديد الراء) ثم يصبح فيما يلي ذلك سوقاً خاصاً بحي مئذنة الشحم ينزله اللحامون والعطارون والخبازون والسمانون ومن إليهم، حي مئذنة الشحم: الحي الذي تتفرع أزقته منطلقة على يمين القادم من باب الجابية، وتوغل في الانطلاق حتى تتصل بحي الشاغور وغيره.

أما عن يسار القادم من باب الجابية فتتفرع أسواق عديدة يصل بعضها بين هذا الشارع الطويل وبين سوق الحميدية في تعاريج وأزقّة وأحياناً (دخلات). وأشهر ما يتفرع عنه هو سوق (البزورية).

وكل هذه الأسواق والأزقة، الكبير منها والصغير، والطويل والقصير، ذات طابع دمشقي أصيل يميزها عن غيرها في كل البلدان، ويسبغ عليها من الروح الدمشقية العريقة صفاء جميلاً وحلاوة طيبة.

فلله تلك الدروب، ابتداء من دخلة الشرفا إلى زقاق المدار إلى الشارع إلى السوق إلى مئذنة الشحم إلى سوق مدحت باشا إلى باب الجابية. إلى ما تفرع عنها وامتد منها من مسارب ومداخل ومخارج.

للّه تلك الدروب التي طالما غصّت (بالعراضات) الدمشقية الحماسية التي لا يشبهها شيء في الدنيا بما فيها من حداء (شامي) وفتوة عربية. العراضات التي تسير من حي إلى حي حتى إذا قاربت حدود الحي المجاور هتف هاتفها الرفيع الصوت بالتحية متجاوبة معه جمهرة الرفاق.

ويا ما أعذب ذلك الصوت الهادر:

أبلي السلام عليكم: (أي: قبل كل شيء السلام عليكم).

حتى إذا دوى الصوت في مسامع أبناء الحي المقصود تجمع من أمكن تجمعهم على جانب الشارع وهتف هاتفهم:

يا مرحبا

فيجيبه المجتمعون حوله:

بلّي جاي (بالذي هو آت)

أهلًا وسهلا

بلّي جاي

ولا يلبث أن يهرع على الصوت أكثر أبناء الحي، تاركين أعمالهم أو بيوتهم للمشاركة بالترحيب

بالقادمين، ويكون القادمون نوعين: إما ضيوف عابرون في طريقهم إلى حي آخر، ففي هذه الحالة إذا قاربوا تجاوز حدود الحي هتف هاتفهم، مودعاً، ويتجاوب معه جميع رفاقه:

خاطركم رايحين نروح، استروا ما شفتو منّا

فيجب أبناء الحي بصوت واحد:

مع السلامة يا ضيوف وبالله تتمسُّوا عنا (تقضون المساء عندنا).

وإما أن يكون القادمون مدعوين إلى الحي نفسه ولن يتجاوزوه إلى غيره. وهذا يكون إما إجابة دعوة إلى حفلات المولد النبوي، أو لزيارة حجّاج الحي العائدين حديثاً، أو إجابة دعوة إلى حفلة زفاف كبيرة مما يعرف في العرف الشعبي باسم (تلبيسة). أو للصلح بين متخاصمين.

وفي هذه الحالة لا يكاد القادمون يلجون الحي حتى يتقدم إليهم اثنان من أهل الحي المزور من أبطال (لعبة السيف والترس) التي كان الدمشقيون يبرعون بها كل البراعة. فيبدأ الاثنان متبارزين بسيفيهما وترسيهما لدقائق. وقد يتقدم معهما ثالث يكون غالباً بسيفين بدون ترس فيقف بينهما ليضاربهما معاً، وشرطه أن يكون من أبرع المضاربين، ويعرفونه في الحي باسم (أبو سيفين)، وفي كل حي من يلقب بأبي سيفين.

وتستمر لعبة أبناء الحي بضع دقائق ثم تنتهي ليتقدم أبرع أبناء الحي بسيفه فينتدب له من أبناء الحي الزائر أبرعهم، فيقدم له المزورون ترساً ـ لأن العادة جرت أن لا ينقل الضيوف معهم أتراساً ـ فتبدأ المضاربة بين الحيين وتفتتح بهذا النص:

صحايف الله والرسول وعلي بن أبي طالب.

ثم صحايف عالم الحي (ويسمونه باسمه).

ثم صحايف وجهاء الحي وعائلاته المشهورة (ويسمونهم بأسمائهم).

ثم صحايف أهل الحي كبير وصغير (ويعبّر عن الحي بلفظ «الحارة»).

ويختتم ذلك بعبارة: (بيّض الله وشُّو) «وجهه» إذا كان المذكور واحداً.

وتستبدل كلمة «وشُّو» بكلمة «وشّهم» إذا كانوا جماعة.

وفي هذه اللحظة ينطلق رصاص المسدسات من الفريقين بغزارة محاولاً كل من الفريقين أن يكاثر الفريق الآخر برصاصه مما يمكن اعتباره نوعاً من (عرض العضلات).

ثم تبدأ المضاربة بالسيف والترس، وتنتهي على الأغلب بانتصار لاعب الحي المزور، بنوع من التفاهم الضمني على ذلك لعرف سائد بين الأحياء كلها.

وبعد انتهاء الزيارة وعند عزم الضيوف على العودة إلى حيّهم يتجمعون وتبدأ (العراضة) من جديد فيهتف هاتفها متجاوبة معه جميع الأصوات الزائرة المودعة:

خاطركم رايحين نروح استروا ما شفتو منا.

فترد أصوات المضيفين الجماعية: (مع السلامة والدربْ سلطاني) ومدلول عبارة (سلطاني) هنا: أن الدرب سهلة سليمة مأمونة، كالدروب المنسوبة إلى (السلطان).

وعندما تعود العراضة سائرة إلى (حارتها) وتصل إلى تخوم (الحارة) تأخذ بتحية حارتها، فيهتف هاتفها، وتجاوبه أصوات العراضة بهتاف واحد:

مسا الخير، مسا الخير

مسا الخير على الصفين

(لأن من تخلف من أبناء الحارة عن المشاركة بالعراضة ـ وأغلبهم من كبار السن ـ يكونون قد تجمعوا على جانبي الشارع عند سماعهم عن بعد أصوات عراضة حارتهم القادمة).

الله يمسي حارتنا

يلّي مشيّلة حملتنا (الحاملة أثقالنا).

وهكذا حتى تصل العراضة إلى مفترق الطرق في الشارع الرئيسي، وهناك تقف لتتفرق ويذهب كل إنسان إلى بيته.

سقى الله أيام (العراضات) التي أحسب أنها زالت مع ما زال من التقاليد الشعبية الدمشقية الجميلة.

ولله تلك الدروب التي طالما غصّت بالمظاهرات الوطنية نقمة على المستعمرين، واستقبل فيها الشبّان الدمشقيون الرصاص بصدورهم، وتهاووا على الصعيد صرعى الكفاح الوطني.

تلك المظاهرات التي أقضت مضاجع الفرنسيين وحرمتهم لذة الاستقرار.

السيران

من زقاق المدار إلى الشارع، إلى السوق، إلى مئذنة الشحم، إلى باب الجابية إلى شارع النصر إلى شارع الحجاز، انطلاقاً إلى خارج دمشق، إلى الربوة. طالما مشت بنا المركبات المجرورة بالخيل فاجتزنا ذلك الوادي الجميل بين فروع بردى المتدفقة، ثم انتهينا إلى مجلس من مجالس الربوة ففرشنا (السجادات) واشتعل السماور ودارت أكواب الشاي ثم انتظمت المائدة المحمولة (بالمطبقيات) من البيوت، تلك (المطبقيات) ذات الصحون العميقة التي يوضع بعضها فوق بعض ثم تغطى من أعلاها بغطاء وتشد من جانبيها شدّاً محكماً بما يربطها من أسفلها إلى أعلاها.

تلك (المطبقيات) التي تحمل ألوان الطعام الدمشقي اللذيذ من البيوت الكريمة السخية، فتتنوع المائدة في (السيران) وتكثر ألوانها وقد لا يحمل الطعام في (المطبقيات) بل يتكفل أحد أصحاب (السيران) بدعوة رفاقه ونقل الطعام إليهم إما من صنع بيته، أو ـ على الأغلب ـ بأن يكون الطعام من (الصفيحة). المصنوعة عند اللحام والمنضجة في الفرن والمنقولة مع علب اللبن الخشبية الأسطوانية إلى مكان (السيران) حيث تكون وقعة دمشقية عريقة تتميز ملاحم دمشق وأفرانها بإتقان صنعها!

هاتان هما الطريقتان الوحيدتان في صنع الطعام. أما جمع المال من الجميع بالتساوي للإنفاق على

(السيران) فذلك ما ينكر فعله الدمشقيون ويتهمون به أهل حلب ويعيبونهم به. وإذا أشاروا إلى شيء من ذلك قالوا: (عشرة حلبية).

ويتنوع أصحاب (السيارين) فإما أن يكونوا أصحاباً متجانسين على تباعد ما بين أعمالهم وطبقاتهم. وإما أن يكونوا مجموعة من أصحاب الدكاكين المتجاورين، أو مجموعة من أصحاب حرفة واحدة كتجار سوق البزورية أو تجار سوق العصرونية أو السكرية أو الرواسة (بائعي رؤوس اللحم) والحبالة (بائعي الحبال) وغيرهم، هذا فضلاً عن (السيارين) العائلية التي تضم البيت كله: ربّ البيت وربّته وأبناءهما.

وقد يدعو صاحب العمل عمّاله جميعاً إلى (سيران) يضمه وأولاده مع عماله كلهم. وقد تقوم مدرسة كاملة بمديرها ومعلميها وتلاميذها (بسيران) يجمعهم جميعاً.

وقد يحدث أن يقوم أبناء حي بأكثرية رجالهم (بسيران) مشترك يضمهم كلهم معاً.

وفي هذه الحالات الثلاث وأشباهها لا بد من قضاء نهار كامل في السيران يمتد من الصباح إلى المساء.

وكان الناس يستزيدون من طعامهم المنقول معهم إلى (السيران) لتوقّع ضيف طارىء وليشركوا في طعامهم من يجدونه في البساتين ـ إذا كان السيران في بستان ـ من فلاحين أو ضامنين أو مرابعين في حين يتسابق هؤلاء في تقديم الألبان والفواكه والخضار لنزلائهم.

وكثيراً ما يشتري الضيوف هذه الأشياء من هؤلاء وينقلونها معهم حباً بمنفعة أصحابها.

على أننا، ونحن في معرض الحديث عن ولائم السيران، لا بد لنا من أن نشير إلى الولائم التي كان يولمها صاحب العمل في بيته لعمّاله جميعاً، وغالباً ما تكون في الشتاء فيقوم أهل بيته بإعداد الطعام بأنفسهم لضيوفهم ويتولى صاحب البيت مع أولاده خدمة ضيوفهم.

ثم يعد بعض الطعام ليرسل مع فقراء المدعوين إلى بيوتهم.

سيران الربوة

حتى إذا أمسى المساء في (سيران) الربوة ودخل الليل كانت مشاهد (العربيات) أي المركبات وهي تمضي إما قادمة من المدينة لتعود بأهل (السيران)، أو ذاهبة بهم من الربوة إلى المدينة ـ كانت مشاهد (العربيات) بفوانيسها الضئيلة المتلألئة وأصوات أبواقها المتتابعة وبما تبعثه ضربات الحوافر ودوران العجلات من أصوات. كانت بكل ذلك ـ ونحن نطل عليها من عل ـ شيئاً جميلاً عذباً طالما سحرني في الربوة وأنا طفل وأنا يافع وأنا شاب!

لقد زالت (العربيات) فيما زال من الأمور الدمشقية.

تقاليد السيران

(والسيران) هو من المظاهر الدمشقية المتميزة. وكان الدمشقيون على اختلاف صنوفهم يعتبرونه جزءاً من حياتهم الرتيبة، وقد يقومون به في الصباح مبكرين فيجتمعون ذاهبين إلى أحد المتنزهات القريبة حيث يحملون معهم طعام الصبوح فيتناولونه هناك تحت الشجر على ضفاف الماء، لا سيما في أيام الربيع بين

زهر المشمش المتفتح، ثم يعودون إلى بيوتهم من (الصبحية) ثم يمضون إلى أعمالهم. وأكثر ما يكون (السيران) في الآصال حيث تلتقي المجموعات المتجانسة فتمضي كل مجموعة إلى مكان تقصده إما إلى بساتين الغوطة وما جاور دمشق من ماء ورياض، أو في الربوة إما على ضفة الماء أو بعيداً حيث تختار مكاناً مطلاً على الوادي فتبسط على الأرض ما تحمله من مفارش وتمضي فيما يسليها من أحاديث أو ألعاب خفيفة وتظل هكذا حتى الساعات الأولى من الليل حيث تبدأ (العربيات) بنقل العائدين فتصل (العربية) إلى موقف تحت مكان جلوس جماعة السيران وتطلق (مزمارها) في طلقات متتابعة يعلم منها الجالسون أن عربيتهم قد وصلت، ويكونون هم قبل ذلك قد هيأوا أنفسهم للعودة، إذ إن مجيء (العربية) يكون على ميعاد معين. هذا عن الذاهبين في (العربيات) أما الذاهبون مشياً على الأقدام فيملأون الطريق زرافات ووحداناً. وليس السير مشياً هو بقصد توفير المال دائماً. بل كثيراً ما يكون زيادة بالاستمتاع بالطبيعة وإعمالاً للرياضة الجسدية.

وكان يتميز (سيران) جماعة الوالد بأنه لا بد فيه من إنشاد الشعر على الطريقة العاملية العراقية، وكان إنشاد الجماعة محصوراً تقريباً بأديب التقي والشيخ علي الجمال، وكان لا بد من نقل دواوين الشعر بين ما ينقل من أدوات (السيران) ولا بد من أن يكون بين هذه الدواوين ديوان الشريف الرضي، وربما اقتصر عليه وحده.

وأول ما سمعت شعر الشريف الرضي وأنا طفل، إما في ليالي الأربعاء، أو في (السيران). ومع أن بين جماعة (السيران) كما في جماعة ليلة الأربعاء من هم شبه أميين، فقد كانوا ذوي قابليات تستوعب ما تسمعه ولطول المران في ليلتي الأربعاء وفي (السيارين) أصبحوا يستحسنون الحسن من الشعر ويهتزون له ويطربون!

أما (سيارين) الأعياد فإنها تستمر طيلة أيام العيد وتقصد إلى الأماكن البعيدة العامرة في الفيجة أو عين الخضرا أو الهامة أو دمّر أو حتى الزبداني وقراها، حيث يمكن المبيت هناك طيلة أيام (السيران)...

وفي أحد سيارين عيد الفطر صحبت الوالد وجماعته إلى عين (الخضراء) وكانت لا تزال على طبيعتها. ومضى الوالد في أحد الأيام مصعداً في الجبال وتبعه الأكثرون ثم بدأوا يتراجعون تعباً وفرقاً، ولم يصل إلى أعلى الجبل غيره وكان المساء قد دنا في العودة فلقي شدائد كثيرة.

وحال المرأة في السيران كان كحالها في الأماكن العامة الأخرى بملاءتها وبرقعها الأسودين. إلاّ أن حضورها نزهات السيران كان قليل الحدوث. وعلى الرغم من غرام الدمشقيين بسيرانهم فإن نساءهم كانت محرومة منه. ومن شدة غرامهم بالسيران كانوا لا يكتفون بنزهات العصارى والعطل، بل إن فريقاً منهم كان يجتمع للذهاب إلى السيران في الفجر الباكر قبل الذهاب إلى العمل - كما تقدم - ومن أماكن هذه التنزهات الصباحية نذكر اسم (الأحد عشرية).

الشارع واليهود

من دخلة الشرفا كنا نخرج فإذا انتهى طريقنا القصير فيها، فإننا في نهايتها ندور إلى اليمين فنفاجأ أول ما نفاجأ بدكان علي المُبيّض القائمة على الزاوية تماماً في أول زقاق المدار، فنراه واقفاً في نقرة الدكان وتحت

قدميه قدر من قدور النحاس التي يعهد إليه بتبييضها وهو يدور في القدر ضاغطاً بقدميه فيه ليعود ناصع البياض! وقد لا يكون الأمر أمر قدر بل أمر مواعين صغيرة فعند ذلك يعالجها بيديه!

على أنه مهما كان الذي يعالجه، وسواء كانت قدماه هما العاملتين أم يداه هما العاملتين، فإن شفتيه لا تتعطلان أبداً، بل تشاركان في العمل دائماً، تشاركان إما القدمين وإما اليدين، تشاركان لا بتبييض النحاس، بل بالغناء الدائم المستمر!

لقد انقضى عهد علي المبيض فيما أحسب وطوى الزمن قدور النحاس وآنية النحاس!

وإذا كانت قدور (الضغط) وغير قدور الضغط قد حلّت محل قدور النحاس، واستغنى الناس عن (المبيِّضين)، فمن ترى حل محل علي المبيِّض في دكانه الصغير في أول زقاق المدار؟ وأيّاً كان هو الذي حل محله، فلا أحسب أن شيئاً قد حلَّ محل أغانيه، أو صوتاً يمكن أن يشغل النفس بمثل ما كان يشغلها صوت علي المبيِّض.. وبعد علي المبيِّض نجد أمامنا طريقين: طريقاً على اليد اليسرى هو مدخل حارة اليهود، حيث تتشعب هنا الأزقة والدخلات والدروب.

أما طريق اليد اليمنى فهو طريق زقاق المدار المنتهي إلى الشارع، وقد مرّ ذكر هذا الشارع دون تسمية ولم يكن له في تلك الأيام اسم ولم يكن معروفاً إلاّ باسم الشارع، فيقال مررت في الشارع وجئت من الشارع، وذلك أنه كان الشارع الوحيد في تلك المنطقة، إذ كان المقصود من الشارع ما شقّ حديثاً ووسَّع فيه القديم. وأنا لا أعي شق هذا الشارع إذ إنه شق خلال الحرب وإنما أعي أنه كان لا يزال فيه بيوت متهدمة أطرافها لشق الشارع، وكانت لم تبن بعد. ويبدو أنه كان زقاقاً ضيّقاً وسّعه الأتراك في أواخر عهدهم خلال الحرب، وهو في صميم حي الخراب، ولما كان شقّه قد جرى خلال الحرب، والناس في شاغل بفقرها وغربة شبابها، فقد طال أمد إعادة تعمير ما تهدم من بنيانه، وكان معظم المالكين من المسلمين الفقراء، فاغتنم اليهود هذه الفرصة وأخذوا يشترون الدور المتهدمة ويعيدون بناءها بشكل حديث حتى عمر الشارع بهم وأصبحوا فيه كثرة. ولم يعد المسلمون يملكون إلاّ النزر القليل. أما ما تفرع عن الشارع، فقد ظلَّ على حاله (دخلات) متداخل بعضها ببعض، وأزقة قديمة وبيوت عتيقة ظلّت لأصحابها المسلمين. وكان أهم ما يتفرع عنه في وسطه (القساطلية)، وكان من أبرز سكانها آل صندوق الأسرة العريقة بالذكاء والتقوى. والتي خرج منها في عصرنا مؤرخ وكاتب وشاعر مجيد هو الأستاذ أحمد صندوق وفقيه ألمعي أديب هو الشيخ محمد علي صندوق.

وتتفرع عن الشارع دخلة معظم سكانها فرع من آل مرتضى يعرفون ببيت الحنفي كان أبرزهم السيد عباس الحنفي الذي كان على قسط وافر من الشهامة والذكاء وحسن الخلق وحلاوة الحديث وعذوبة المنطق، وكان من أبرز عناصر ليلة الأربعاء و(السيارين).

سيطر اليهود على الشارع، وكان هذا الشارع وسيلة الخروج بسكناهم من حارتهم القديمة ذات التعاريج والأزقة والدخلات على طريقة أزقة دمشق القديمة، وأصبح يعج بهم في الأماسي لا سيما في ليالي السبت، شبّاناً وشابات يتنزهون فيه، جيئة وذهاباً، بينما يجلس الكهول والشيوخ نساء ورجالاً على أبواب بيوتهم.

واستقووا بالاحتلال الفرنسي، فكان الاحتكاك بينهم وبين أهل حارة الخراب مستمراً.

وحاول مرة الحاخام الأكبر أن يتودد لأهل الحارة ففاجأ والدي في أحد الأعياد برسول يشعر بأنه قادم على أثر الرسول لزيارة والدي وتهنئته بالعيد ولم يكد الرسول ينصرف حتى خرج والدي من البيت، فجاء الحاخام فلم يجد أحداً.

وبالرغم من أن هذا التصرف كان جافاً، وكان متنافياً مع أخلاق والدي، فقد كان لا بد منه في رأي الوالد، لأن معنى قبول زيارة الحاخام في العيد واستقباله في البيت أن الوالد سيضطر لمبادلته الزيارة في عيدهم، ثم تتكرر الزيارات والاتصالات. وكان هذا عند والدي أمراً لا يمكن أن يقع، في الوقت الذي كشفت فيه الصهيونية قناعها وأسفرت عن حقيقتها وكان اعتقاده أن كل يهودي صهيوني.

وبعكس ذلك فقد كانت الزيارات متبادلة بين الوالد وبين بطريرك الأرثوذكس المجاور حيّهم أيضاً لحارة الخراب، وكان البادىء بالزيارة البطريرك ألكسندروس طحان مع لفيف من المطارنة وذلك عند عودة الوالد من إيران والعراق، ثم بادله الوالد الزيارة في إحدى المناسبات وتكرر ذلك أكثر من مرة.

واستمر الاحتكاك والتحدي بين اليهود وأبناء الحي وبلغ أشده حين أراد اليهود إطلاق اسم أحد كبار رجالهم على الشارع بالتفاهم مع الفرنسيين وألصقوا لوحة في رأس الشارع تحمل الاسم، فاقتلعها ليلاً أهل (الحارة) إلى أن جاء الحكم الوطني العام ١٩٣٧ فتقرر تبديل اسم حي الخراب وإطلاق اسم حي الأمين عليه تكريماً من الحكم الوطني لوالدي، وتبعاً لذلك أصبح اسم الشارع شارع الأمين.

بعد الاحتلال

كان دخول الفرنسيين دمشق وهدمهم الحكم الوطني الذي قام فيها صدمة رهيبة ناءت بها سوريا وقتاً طويلاً، وصمت الناس على الاحتلال، ومضى الزمن في مسيرته هيناً ليناً كأن شيئاً لم يحدث، وكأن الكارثة لم تكن بمثل هذا الروع. وحسب من حسب أن ما يسمى بالانتداب قد ركّز دعائمه وأن التجزئة قد ثبتت. وأن سوريا العربية الباسلة قد قرت على الهوان، وأن دولة دمشق ودولة حلب اللتين قامتا على أنقاض المملكة العربية السورية، ودولة العلويين ودولة جبل الدروز قد استقر كيانها!

لا سيما وأن دمشق المتمردة قد تطامنت وألقت بيديها طائعة بعد ميسلون فرأى فيها غورو ما لم يكن يظن إنسان أن غورو سيلقى مثله من استقبال جماهيري صاخب، إذا كان قد أعده المتملقون، فإنهم على كل حال قد نجحوا في إعداده النجاح الذي لم يكونوا يحلمون به.

ولا أستطيع الآن أن أصف حقيقة شعور الجماهير لأنني لم أكن يومذاك في وعي يمكنني معه الإحساس بما يحمله الشعب من إحساس حقيقي.

ولكنني أذكر تماماً أن وزارة علاء الدين الدروبي التي تألفت بعد يوم ميسلون، والتي أصبحت تحكم البلاد في ظل الفرنسيين، أذكر أنها جوبهت بأول ثورة عليها وعلى الفرنسيين. ولم تكن هذه الثورة من صنع دمشق، ولا من صنع غيرها من المدن الكبرى!

لقد كانت تلك الثورة ثورة القرى والأرياف، وبالتحديد ثورة حوران[٣]. فإن صدى الاحتلال، وصدى

انهيار الاستقلال كان مدوياً في حوران، لا سيما وأن الملك فيصل كان قد تركز أولاً في الكسوة على الطريق الموصل إلى حوران ثم في درعا عاصمة حوران. وربما لاح له في ذلك الوقت أن يتخذ من موقعه هذا قاعدة لقتال الفرنسيين. ولكن طيارات الفرنسيين أنذرت بمناشيرها الحورانيين بما سينالهم من شر إذا استجابوا لفيصل. وكان أن صمم فيصل على التوجه إلى حيفا ثم أوروبا. ولكن غضبة (الحوارنة) لم تسكن وثورتهم لم تهدأ، فأرسل الفرنسيون رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي ووزراءه لإقناع (الحوارنة) بالاستسلام، فكان الجواب قتل علاء الدين الدروبي وبعض وزرائه ونجاة من نجا بالاختباء في شر مختبأ. واستطاع وزير الداخلية عطا الأيوبي الفرار ولكن إلى حيفا لا إلى دمشق.

كان الوفد مؤلفاً من كل من رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي وعبد الرحمن باشا اليوسف رئيس الشورى، وعطا الأيوبي وزير الداخلية والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ عبد الجليل الدرة.

وبوصولهم إلى محطة خربة الغزالة التي تبعد عن درعا خمسة وعشرين كيلومتراً، انقضّ على القطار جمع تتعالى أهازيجه ويرتفع حداؤه فخيّل للوفد أن الجمع جمع استقبال وتحية، ثم لم يلبثوا أن أدركوا الحقيقة فحاول الدروبي الاحتماء بين ركاب الدرجة الثالثة ولكنه اكتشف فقتل، وفرّ عبد الرحمن اليوسف إلى دار المحطة فعرف وقتل أيضاً ونجا الآخرون متوارين فارّين...

فجردت السلطة حملة على حوران قضت على الثورة بعد التخريب والتقتيل وفرضت غرامة باهظة.

جرى ذلك في محطة خربة الغزالة التي كانت مقراً لفريق من التجار الدمشقيين الذين يبدو أنه كانت لهم مشاركة فعالة فيما جرى.

وكانت ثورة حوران أول ما جابه الفرنسيين من تمرد وعصيان. وظلت أصداؤها تتجاوب في أذهاننا ونحن في تلك السن.

وهذه الثورة هي صورة عن الفوضى التي كانت تتخبط فيها البلاد وانعدام التنظيم والتوجيه والتخطيط.

فقد كانت البلاد كلها شعلة من الوطنية الثائرة على الفرنسيين ولكنها كانت كسفينة تتلاطمها أمواج المحيط بلا قائد ولا حكيم ولا مدير. فمنذ حلَّ الفرنسيون فيما أسموه المنطقة الغربية، بدأت الاضطرابات الموضعية غير المرتكزة على قاعدة ثابتة مدبرة فكان يسهل على الإفرنسيين إخمادها وتدمير أهلها كما حدث في حركات الجبل العلوي وجبل عامل وغيرهما، قبل سقوط دمشق. وكما حدث في ثورات الشمال وثورة الحوارنة بعد سقوطها. فلو أن جميع هذه القوى ادخرت للساعة الحاسمة، ساعة الصدام الذي لا بد منه مع المستعمرين، لواجه هؤلاء قوى ضارية منظّمة مترابطة تثور عليهم في وقت واحد يشغلهم في كل مكان ويريهم ثورة رهيبة لا يستطيعون ضربها بمثل السهولة التي ضربوا بها ما ضربوه.

ويبدو أن أهل الحل والعقد كانوا حتى اللحظات الأخيرة يطمعون بنوع من التفاهم ويرون أن الأمور لا تنتهي إلى صدام مسلح، فلم يعدوا للأمر عدته ولا واجهوه بتنظيم دقيق ولا كان لهم نظر بعيد.

فبينما كانت الاضطرابات تعم المنطقة المحتلة بلا ترتيب ولا قيادة، لم يفكر العسكريون في دمشق بفقدان السلاح وفقدان الذخيرة إلاّ في الساعات الأخيرة أو بالأحرى في اللحظات الأخيرة!

فياسين الهاشمي الذي كان العسكري الأول آنذاك، والذي كان معهوداً إليه بالإشراف الكامل على شؤون الجيش وسلاحه، لم يعرف عن حقيقة تسليح الجيش إلاّ بعد وصول إنذار الجنرال غورو، ثم انسحب من المسؤولية وآثر العزلة!

يروي محمد علي العجلوني الذي كان شاهد عيان: أن ياسين الهاشمي صارح الملك فيصلاً في الساعات الأخيرة أن الجيش السوري لا يستطيع الثبات فنياً سوى بضع ساعات.

ويروي يوسف الحكيم الذي كان شاهد عيان أيضاً: أن الضباط أركان الجيش أبلغوا مجلس الوزراء أن العتاد الحربي لدى الجيش لا يزيد عن مئتين وسبعين طلقة لكل بندقية حربية وثمانين قنبلة لكل مدفع من المدافع السبعين.

ولا أدري لماذا لم يكتشف هؤلاء العسكريون هذا قبل آخر لحظة. ولماذا لم تكن الحكومة قد درست أمر جيشها وهي في سعة من الوقت؟!

منذ الساعات الأولى لقيام الحكم العربي الاستقلالي في دمشق، اتّجهت الأنظار إلى العسكري الأول بين العرب في ذلك الحين، ياسين الهاشمي، فعهد إليه بالشؤون العسكرية كلها. وكان أول ما عمله أن حلَّ جيش الثورة الذي فتح دمشق وسرّح ضباطه. دون أن يكون قد اعتمد خطة معينة واثقاً من نجاحها لإنشاء جيش جديد، فبدأ التخبط العسكري منذ تلك الأيام. ثم اختطف الإنكليز ياسين الهاشمي بعد أن دعوه لتناول الشاي في مقر القيادة العسكرية في المزة وأرسلوه معتقلاً إلى الرملة بفلسطين.

فعلوا ذلك وهم يتهيأون للجلاء عن دمشق، بل قبل أن يجلوا بساعات. ثم أعادوه بعد بضعة شهور.

وكان قد خلفه في القيادة العسكرية يوسف العظمة فكان له رأي ـ على ما قيل ـ يختلف عن رأي ياسين الهاشمي في الإعداد العسكري.

ومهما يكن من شيء فإن ياسين الهاشمي لم يتذكر أن يكشف على مستودعات أسلحة الجيش إلاّ في الأيام الأخيرة التي سبقت معركة ميسلون، حيث رجعوا إليه في تولي القيادة فكشف على مستودعات السلاح وقال إنه لا سلاح يعتد به الجيش. ومن العجيب أنه طيلة سنتين اثنتين من ١٩١٨ إلى ١٩٢٠ لم يتنبه أحد إلى حقيقة السلاح الموجود والسعي لإيجاد غير الموجود!

تماماً كما حدث العام ١٩٤٨ حين صمم العرب على قتال الصهيونيين ثم اكتشفوا أنهم بحاجة إلى كل شيء، بعد أن كانت قد سدت في وجوههم مصادر كل شيء!

وظلت الأمور في تخبط بلا تخطيط ولا إعداد حتى جاء اليوم الذي لا يجدي فيه إلاّ العمل، وكانت وسائل العمل في هباء.

ومن العجيب أن أحداً لم يفكر، منذ الأيام الأولى لجلاء الأتراك، بالمستقبل البعيد وبإمكان الصدام مع الفرنسيين ووجوب الاستعداد لهذا الصدام! مع أن طلائع الصدام قد أتت منذ أول ساعة حين طرد الفرنسيون الحكّام الوطنيين في الساحل وأسفروا عن مطامعهم في الساحل والداخل!

ويبدو أن حال القوم يومذاك كان كحالنا اليوم، كانوا يأملون بما اصطلحنا على تسميته (بالحل السلمي)،

ثم انتهى بهم الأمل إلى ما انتهى. ولا يزال فينا اليوم (١٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٢) وبعد خمس سنوات من حدوث ما أسموه (حرب الأيام الستة)، وبعد قيام المستعمرات في كل مكان فيما احتله اليهود بعد تلك الحرب، وبعد تصريحاتهم العلنية الصريحة بأنهم باقون حيث هم، لا يزال فينا من يطمع بالحل السلمي.

اليوم كالأمس

هذا ما وعته ذاكرتي من أحداث تلك الأيام وما انطبع فيها مما شاهدته بعيني ومما أمكن أن يعيه فكري الطفل. وقد عرفت بعد ذلك، بعد أن أدركت ووعيت حقيقة ما جرى مما أجمله فيما يلي:

أقبل قادة العرب من كل مكان إلى دمشق بعد الجلاء التركي. فبعضهم جاء مع فيصل كالضباط العراقيين والبعض الآخر توافد إليها لأنها أصبحت مقر العمل العربي ومطمح آمال العرب وقاعدة أول بقعة مستقلة في بلاد الشام وغير بلاد الشام بعد الحكم الأجنبي الطويل.

فكان فيها رجال العراق ورجال لبنان ورجال الساحل ورجال فلسطين(٤)، كما كان فيها بعض من كان قد نزح إلى مصر من السوريين. والتقى الجميع بآمال ضخمة وأمانٍ بعيدة يحسبون أن ساعة الدولة العربية الكبرى قد دنت، وأنهم مؤسسوها وباعثو رفاتها.

كيف لا وجيشهم العربي الزاحف من قلب الحجاز هو المنتصر حليف المنتصرين، وملء حقائبهم وعود مؤكدة ومواثيق وثيقة.

كان العرب يعيشون تلك الأيام التي بدأت العام ١٩١٨ ثم انتهت يوم الرابع والعشرين من تموز/ يوليو ١٩٢٠ أزهى أيامهم وأعذب أحلامهم. وكانوا في غمرة هذا الفرح لا ينظرون إلى البعيد ولا يحسبون حساباً للغدر والختل.

ثم بدأت الحقائق تنجلي قليلاً قليلاً، فالحاكم العربي الذي ذهب إلى بيروت ورفع علمه على صروحها عاد مطروداً من الفرنسيين، وأنزل العلم ذليلاً!

والحكّام الوطنيون الذين عيّنوا أنفسهم في مناطقهم الساحلية معلنين الاستقلال لم يلبثوا أياماً بل ساعات ثم دُحرجوا عن كراسيهم.

وتقلص حجم الرقعة المستقلة حتى انحصر فيما عرف بعد ذلك باسم المنطقة الشرقية وهي لا تعدو دمشق وحمص وحماه وحلب وما يتبعها وينضوي إليها!

ولكننا إذا نظرنا إلى العرب يومذاك نراهم في واقع هو أفضل ألف مرة مما صار إليه واقعهم المعنوي بعد ذلك.

كان الحديث يومذاك عن العرب وعن القضية العربية والتوق كله إلى الوحدة الشاملة. ولم يكن للإقليمية مكان!

فهذه بقعة صغيرة من بلاد الشام أميرها ثم ملكها حجازي(٥) ورئيس برلمانها مصري لبناني الأصل(٦) وقائد جيشها عراقي(٧) ووزير داخليتها لبناني(٨) ووزير خارجيتها فلسطيني(٩) وحكام مناطقها وضباط

جيشها مزيج من كل أرض عربية. لا يدور بخلد أحد أن يسأل أحداً عن بلده أو أن يجد في ذلك موضعاً لاستغراب ومكاناً لتساؤل!

أليس الجميع عرباً؟ أليسوا كلهم رجال قضية واحدة فهم جميعاً في أرضهم وجزء من وطنهم؟

ثم هذا الترفع عن الطائفيات وعدم النظر إلى دين الشخص أو مذهبه. فهذه أول حكومة عربية تقوم في البلد الإسلامي العريق دمشق، وتشمل سيادتها الأرض السورية الداخلية التي لا يبلغ فيها المسيحيون ١ من ١٢ فتتكون من حاكم عسكري سني دمشقي هو رضا الركابي، ورئيس للشورى الحربية سني بغدادي هو ياسين الهاشمي، ورئيس للعدلية مسيحي من دير القمر هو إسكندر عمون، ورئيس للمالية مسيحي من الشويفات هو سعيد شقير، ورئيس للأمن العام مسيحي طرابلسي هو جبرائيل حداد ورئيس للخارجية مسيحي دمشقي هو توفيق شامية، ورئيس للصحة مسيحي من مواليد عبيه هو موصلي باشا.

خمس رئاسات أو بالأحرى خمس وزارات من سبع يشغلها مسيحيون، أربعة منهم من لبنان وواحد من دمشق(١٠).

ومحكمة الاستئناف المدنية التي تطبق مجلة الأحكام العدلية المستمدة من الشريعة الإسلامية، محكمة الاستئناف هذه تتألف من ثلاثة قضاة كلهم مسيحيون، بينهم اثنان من لبنان هم: نجيب الأميوني من حاصبيا رئيساً، وأسعد أبو شعر من دمشق عضواً، وفايز الخوري من الكفير (حاصبيا) عضواً.

أما اليوم، وبعد أن استقلت البلاد العربية وقامت فيها دول وحكومات، فإننا لا نطمح أن يعامل العربي في أي قطر عربي بمثل ما يعامل به أبناء ذلك القطر، بل إن أكثر ما نطمح إليه هو أن يسمح العرب للعرب بدخول أقطار العرب بمثل ما يسمح به الأوروبيون بعضهم لبعض.

وأن تعامل حكومات العرب بعضها بمثل ما يتعامل به الأصدقاء والجيران في كل مكان بلا شحناء ولا تباغض ولا تقاتل!

إنني وأنا أكتب هذه السطور أقرأ بلاغاً لحكومة عربية تباهي به أنها أسقطت لحكومة عربية أخرى طيارة وعطّلت كذا دبابات وقتلت كذا رجالاً! هذا والحكومتان تحملان اسماً واحداً، ولكن تنتمي إحداهما إلى الشمال والأخرى إلى الجنوب!

وأسمع صيحات التشاتم والتشاجر تتعالى من ها هنا وها هنا!

أقرأ وأسمع وأرى، في الحين نفسه الذي أقرأ فيه كلاماً للمرأة العجوز غولدا مايير تهدد وتتوعد وتهزأ وتسخر!

وإذا كان من غير المستغرب في هذا العصر أن ترئس امرأة أية حكومة، وإذا كان في العالم اليوم إلى جانب (الرئيسة) غولدا مايير رئيستان أخريان في الهند وسيلان، فإن من الإيغال في الإذلال المعنوي أن

يكون المهدد المتوعد الهازىء الساخر بالعرب أجمعين وملايينهم المائة والعشرين وجلالاتهم وفخاماتهم وسياداتهم هو امرأة عجوز!

والآن وأنا أكتب هذه الذكريات في خريف العام ١٩٧٢ أي بعد مرور اثنين وخمسين سنة على تلك الأحداث، وبعد أن شهدت الأمة العربية ما شهدت ومرّ بها ما مر...

الآن أقرأ وصفاً للضياع الذي كان فيه العرب يومذاك والتمزق الذي كانوا يعيشونه وهم يواجهون مرحلة من أخطر مراحل وجودهم. أقرأ وصفاً كتبه واحد ممن حضروا تلك الفترة وعانوها كل المعاناة.

الآن أقرأ ما كتبه أسعد داغر وهو يتحدث عن واقع العرب في تلك الفترة الحرجة:

«ولكن زعماء العرب ومفكريهم بعد أن رفعوا شعور الأمة إلى هذا المستوى العالي لم يحسنوا الاستفادة منه. إما لنقص في التجربة أو ضعف في العزيمة أو خلاف في الآراء أو تنافس بين الأفراد أو لكل هذه الأسباب مجتمعة في وقت واحد. فبدلاً من أن توضع خطة سياسية بعيدة المدى تتولى تنفيذها يد حازمة... لجأوا إلى الراحة وقضوا أوقاتهم الثمينة في بحث النظريات العقيمة غير حاسبين للمستقبل أقل حساب فكانت النتيجة أن انقسموا على أنفسهم شيعاً وأحزاباً».

ولو أن إنساناً أراد أن يصف حال العرب اليوم بعد اثنتين وخمسين سنة وهم يواجهون الصهيونية، هل كان يمكن أن يكتب غير هذا القول؟!

الهمود

ثم همدت سوريا ما عدا معارك إبراهيم هنانو في الشمال، ومعارك صالح العلي في الجبل العلوي، ثم انتهى كل شيء!!

ولقد كان عجيباً أن تقر دمشق، بعد كل تلك الحماسة وأن تستطيب الدعة بعد كل ذاك الاضطراب، ولكن الحقيقة أن الاحتلال فرق شمل المناضلين، فتفرقوا فراراً من الفرنسيين في كل مكان أو انزوى منهم من انزوى ستراً للعيون المترصدة.

ثم بدأ الشمل يجتمع، وبدأ بعض الراحلين يعودون، ثم أخذوا يتداولون ويجتمعون ويتهامسون، ثم بدأوا يجهرون بعض الجهر.

أصبح الانفجار مؤكداً، ومواد الوقود جاهزة لا تحتاج إلاّ إلى الشرارة التي تذكيها.

وكان قد حدث، على أثر الاحتلال ومجيء الجنرال إلى دمشق، ثم عزمه على تلبية دعوة محمود الفاعور شيخ عرب الفضل في الجولان، واتجاهه بطريق القنيطرة إلى مقر محمود الفاعور في ٢٣ حزيران/ يونيو ١٩٢١، حدث أن بضعة شبان من المناضلين قد كمنوا له في الطريق وأطلقوا على موكبه الرصاص محاولين اغتياله بعمل بطولي، وكان يرافقه حقي العظم الذي كان قد نصّبه الفرنسيون حاكماً لدولة دمشق. فلم يصب غورو وإنما أصيب مرافقه الضابط فقتل وأصيب رفيقه حقي العظم برصاصة فجرح جرحاً طفيفاً، كما مرت الإشارة إلى ذلك من قبل.

ثم قامت أحداث محدودة لم تلبث أن خمدت أو أخمدت كحادثة مدرسة البحصة التي عبّر فيها

التلاميذ عن نقمتهم وأدّت إلى إقالة مدير المدرسة أديب التقي. وذلك أن الطلاب حطموا صورة الجنرال غورو التي أمرت السلطات بتعليقها في المكاتب الحكومية وتغاضى أديب التقي عن ذلك فكان ما كان.

وأخيراً انطلقت الشرارة التي كان لا بد أن تنطلق ومست البارود الهامد فانفجر انفجاراً مدوياً.

الصيحة الأولى

كانت المناسبة وصول المستر كراين في زيارة لدمشق في شهر نيسان/ أبريل ١٩٢٢، والمستر كراين هو رئيس لجنة الاستفتاء التي جاءت إلى سوريا ولبنان في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وكان كراين هذا متودداً للعرب مظهراً الصداقة لهم، فجاء في تلك الفترة يزور البلاد التي جاءها في يوم من الأيام مستفتياً وأسبغ عليها من عواطفه ما أرضاها، فرأت دمشق أن تكرمه وتطور التكريم ففجر ما كان هامداً في النفوس من النقمة العارمة والثورة الجيّاشة فانطلق الخطباء يندّدون بالانتداب ويعلنون نقمتهم على رجاله وينادون بالاستقلال ويحيونه، فتجاوب الناس معهم، ودوى في أجواء دمشق لأول مرة بعد ميسلون صوت الحرية وتعالى نداء الاستقلال.

ثم كان توديع كراين، فانقلب التوديع إلى مظاهرة وطنية صخابة، كانت الأولى من نوعها في وجه الفرنسيين. وكان المحركون لكل ذلك والمسببون له هم الدكتور عبد الرحمن شهبندر وسعيد حيدر وحسن الحكيم ومن إليهم من شبان وإخوان.

فرأى الفرنسيون أن يأخذوا الأمر بالشدة، وأن يخمدوا الصوت قبل أن ينتشر في كل الآفاق فاعتقلوا الثلاثة واعتقلوا معهم من كان من أعوانهم. فجاءت النتيجة عكس ما أمل الفرنسيون إذ كان اعتقال هؤلاء مثيراً للمظاهرات، مؤلباً للجماهير!

وكلما اتسع الاعتقال اتسع نطاق المظاهرات، ولا أزال أذكر مشهد المصفحات الفرنسية وقد اخترقت سوق الحميدية ماضية إلى قرب مدخل المسجد الأموي، حيث كان المتظاهرون يتجمعون أكثر ما يتجمعون هناك.

وانتهى الأمر بمحاكمة الثلاثة ومحاكمة آخرين معهم والحكم عليهم بالسجن مدداً مختلفة وإرسالهم إلى جزيرة أرواد ليقضوا مدة الحكم هناك.

وقد بقوا في سجون أرواد حتى الثامن عشر من تشرين الأول/ أكتوبر العام ١٩٢٣ حيث أطلق سراحهم.

وهكذا كان هؤلاء الثلاثة، كما عبّر عنهم بعد ذلك



عند التخرج من المدرسة العلوية بالشهادة الابتدائية

نجيب الريّس الذي كان رفيقهم في سجون أرواد: أصحاب الصيحة الأولى.

أول مقال

ومضت الأيام وأنا لا أزال أواصل الدراسة الابتدائية في المدرسة العلوية، ثم أوشكت على إنهائها، وفي الصف الأخير منها (الصف السادس) يومذاك كتبت أول مقال نشرته لي مجلة «العرفان».

فقد طورتني دروس الإنشاء التي كان يتولاها أديب التقي، وكتبت يوماً موضوعاً شعرت أنه أرضى الأستاذ، فعدت وبيّضته وطلبت إليه أن يرسله إلى مجلة «العرفان»، فاستجاب أديب التقي لذلك، وأرسله لصاحب «العرفان» كما هو، قائلاً في تقديمه ما لا أزال أذكر بعضه: «هذه سانحة من سوانح التلاميذ أرسلها لكم على علاتها».

وكان من فضل الشيخ عارف الزين وتشجيعه أن نشرها (على علاّتها) وما أوضحها من علاّت كما تبين لي بعد ذلك!

وهكذا فتحت لي مجلة «العرفان» باب الكتابة وجعلتني أؤمن بأني أستطيع أن أكتب وأنشر. ثم تكرر الأمر أكثر من مرة، وكل ما كان ينشر إنما ينشر (على علاّته)!!

ذكرى الثامن من آذار

كانت الأحكام التي صدرت على الدكتور شهبندر وسعيد حيدر وحسن الحكيم ورفاقهم أحكاماً بالسجن مدداً مختلفة أقصاها عشرون سنة وأقلها خمس سنين.

ولم تلبث الحركة أن هدأت والمظاهرات أن انقطعت، ولا أذكر أنه حدث بعد ذلك أي حادث وطني، فيما عدا ما كانت تتململ به النفوس دون أن تبرزه أو تبوح به. وراق الفرنسيين هذا الركود وأرضاهم هذا الهمود، فأطلقوا سراح مسجوني أرواد بعد حوالى سنة ونصف السنة، فعادوا جميعاً إلى دمشق. ولم يعودوا ليستسلموا، فما هي إلاّ برهة قصيرة حتى عاودوا الحركة وعاد الناس يجهرون بما كانوا يضمرون، وبدأ التململ يتخذ مختلف المظاهر. ثم كان أن بدأ العمل المنظم فأصدر أحد أبرز معتقلي أرواد، سعيد حيدر، بالاتفاق مع شقيقه يوسف حيدر جريدة «المفيد». فكانت هذه الجريدة الصوت الوطني المتعالي والتف حولها شيوخ الكفاح وكهوله وشبّانه، فكانت لسانهم الناطق. بل كانت مدرسة الوطنية الناجحة!

وأعترف بأني كنت من أصغر تلاميذها وأنها لقّنتني من الدروس ما كان له أعظم الأثر في حياتي وأنها علّمتني ما لم أنسه، وأنضجت في ذهني الفكرة الوطنية وأوضحت أمامي طريق الكفاح!

لقد كانت مقالات سعيد حيدر نبراساً وهّاجاً ينير السبل أمام التائهين، وكان قلمه المحرك للهمم المثير للعزائم!

ولم تكن «المفيد» بمستطيعة أن تقول كل شيء، ولا كانت قادرة على أن تصرح بجميع ما يجب التصريح به، والدعوة إلى كل ما تريد أن تدعو إليه، لأن سيف التعطيل الإداري كان مسلطاً فوق رأسها يهددها عند أول بادرة!

لذلك كانت تلجأ إلى الرمز، وما كان أوضح هذا الرمز عند النفوس المتعطشة إلى كل كلمة وطنية.

ولن أنسى أبداً ما كتبه سعيد حيدر بتوقيع «س ...» وما صوّر به في «المفيد» بقلمه في صباح الثامن من آذار/ مارس!

وما صباح اليوم الثامن من آذار/مارس؟ إنه صباح اليوم الذي أعلنت فيه سوريا استقلالها التام الناجز وصرخت بوجه الدنيا، متحدية قوى الاستعمار بأنها تريد أن تعيش حرة سيدة نفسها!

ولم يلبث الحلم السعيد أن عاش بضعة شهور فقط، ولم يلبث الاستقلال أن هوى في يوم ميسلون!

وجاءت ذكرى الثامن من آذار/مارس والاستعمار الفرنسي يجثم بكل شراسته على صدر الوطن الجريح!

جاءت الذكرى العظيمة فكان لا بد لجريدة «المفيد» وسعيد حيدر من أن يحتفل بها احتفالاً يليق بجلالها! احتفالاً يوقظ النفوس ويلمس القلوب، ويوقظ الغافي ويهز الهامد، بل يثير ويستنفر!

يفعل كل ذلك دون أن يثير ريبة المستعمرين أو يلفت أنظارهم لما يريد فيبطشوا بـ«المفيد»!

ولقد كان لـ«المفيد» وسعيد حيدر ما أرادا وخرج مقاله في صباح ٨ آذار/ مارس قطعة أدبية رائعة وجذوة وطنية لاهبة ملهبة!

وكرمت دمشق بلسان سعيد حيدر وقلمه، كرمت ذكرى ٨ آذار/ مارس أنضر تكريم وأزكاه، أعنف تكريم وأقساه، كرّمت هذه الذكرى لأول مرة بعد ثلاث سنين من دخول الفرنسيين دمشق وسيطرتهم على الوطن! كرمتها بالرمز والتلميح، لأنها لا تستطيع البوح والتصريح!

وأذكر أن سعيد حيدر ختم مقاله بهذين البيتين لمهيار الديلمي:

أذكرونا مثل ذكرانا لكم ... رُبّ ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبّاً إذا غنى بكم ... شرب الدمع وعاف القدحا

لم تكن مقالات سعيد حيدر وحده هي التي تضج بها «المفيد»، بل كانت كذلك مقالات أخيه يوسف حيدر، ومقالات نجيب الريّس الذي اكتشفته «المفيد» وقدمته لقرّائها محرراً ناشئاً، وعهدت إليه بأن يكتب كل يوم (حديث اليوم). ولا ننسى أن أرواد كانت قد جمعت بين سعيد حيدر والفتى الناشىء نجيب الريّس!

وإذا كانت مجلة «العرفان» أول مجلة أكتب فيها، فقد كانت «المفيد» أول جريدة أسطر فيها بعض الكلام، لم يكن ما كتبته فيها مقالاً، بل كان تعليقاً محدود السطور على بعض تصرفات الجنود الفرنسيين!

ثم يدور الزمن وتقوم الثورة السورية ويهاجر سعيد حيدر فيمن هاجر من الرجال فراراً من مطاردة الفرنسيين، بعد أن كان من أكبر المسؤولين عن قيام الثورة، ثم تلجئه الأقدار إلى اسطمبول في حياة من أقسى ما يمكن أن يمر على إنسان. ويصبح نجيب الريّس يوماً ألمع صحفي سوري ويستقل بجريدة «القبس» ويطلع كل يوم على القرّاء بمقاله الافتتاحي مختوماً أبداً ببيت من الشعر. ويلاحظ قراء «القبس»

بين فترة وأخرى أنهم يقرأون فيما يقرأون في مواضيع «القبس» رسالة صادرة من اسطمبول متوجة بهذه العبارة: «بقلم مكاتب كبير». ولم يكن المكاتب الكبير سوى سعيد حيدر المحكوم من جديد بالإعدام من الفرنسيين، والعائش شريداً في اسطمبول عيشاً لا أمرّ ولا أنكد ولا أكثر شظفاً منه[1]!

الاتحاد السوري

كان تقسيم سوريا إلى خمس دول مهزلة من مهازل الاستعمار أقدم عليها الجنرال غورو إمعاناً في الإرهاق والتمزيق وتشتيت القوى. وقد كانت أهزل من أن يقبلها عقل إنسان، أو يقرها مجتمع متحضر!

وقد أدرك غورو بعد حين الأبعاد الحقيقية التي تصم فعلته أشنع الوصمات، فحاول أن يتلافى ذلك فأصدر في الثاني والعشرين من حزيران/ يونيو سنة ١٩٢٢ قراراً بإنشاء اتحاد بين دول ثلاث من دول سوريا، هي دولة دمشق ودولة حلب ودولة العلويين، وكان لواء إسكندرون يدخل ضمناً مع هذا الاتحاد باعتبار ارتباطه بدولة حلب. واستثنى غورو دولة جبل الدورز من الدخول في الاتحاد.

وظل الأمر كذلك حتى سافر غورو إلى فرنسا في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٢ وحدثت في فرنسا أحداث أدت إلى تبديله.

وظلت المفوضية الفرنسية بلا- مفوض حتى أوائل نيسان/أبريل سنة ١٩٢٣ حيث عين الجنرال ويغان مفوضاً جديداً، فوصل بيروت في التاسع من أيار/ مايو ١٩٢٣.

وفي الخامس من كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٤ أصدر ويغان قراراً بإلغاء الاتحاد السوري وإعلان الوحدة بين دولتي دمشق وحلب وأخرج منها دولة العلويين.

وجاء دمشق وخطب في (المنشية) في حفل عام معلناً الوحدة، متبسطاً في خطابه ممنياً، وملمحاً إلى الأمجاد العربية السالفة.

ويتناول سعيد حيدر الخطاب في جريدة «المفيد» تحليلاً وتفنيداً في سلسلة مقالات بعنوان: «الجنرال يتكلم» وبتوقيع (س...).

مع الجنرال ويغان

وكان لي حادث طريف مع الجنرال ويغان، ذلك أنه دعي إلى زيارة جبل عامل عندما كنا نقضي الصيف في شقرا. وحشدت لهذه الزيارة جماهير الناس مشاة وفرساناً على أن يكون اللقاء على ينابيع رأس العين في صور حيث يتناول هناك طعام الغداء.

فذهبت مع الذاهبين، فارساً مع فرسان من بني عمنا، حيث قضينا ليلتنا في صور، وكنت قد بيتّ أمراً أردت أن أكسب فيه هذه المناسبة التي حشر فيها الناس حشراً في حيث لا يصح أن يحشروا، أردت أن أكسبها فيه معنى يزيل ما في الاحتشاد من تزلف واستخذاء!

وكنت خلال متابعتي الدراسة في المدرسة العلوية قد أخذت شيئاً من اللغة الفرنسية. فكتبت كلمة باللغة

العربية ضمنتها مطالب معينة هي من صميم حاجة البلاد، وأشرت إلى ما تشكوه من حرمان وجور. وذهبنا في الليل إلى صيدلي في صور أو طبيب، مما لا أتحققه الآن، وطلبنا إليه أن يترجم لنا هذه الكلمة الموجزة إلى اللغة الفرنسية. فلما قرأها قال: أنا أخجل بلغتي الفرنسية أمام الجنرال، فأنا لا أتقن الترجمة الصحيحة الفصيحة، فقلنا له: لن تكون أنت مسؤولاً عن الترجمة، بل هي ستنسب إليّ، فاستجاب لنا. وقضيت الليل في حفظ النص الفرنسي عن ظهر قلب، ثم تابعت ذلك في الصباح.

ومضينا إلى رأس العين مع الماضين، وهناك كان الحشد الكثيف، وقد أعدت مائدة للجنرال وحاشيته وبعض الرسميين. ولم يكد يجلس الجنرال على المائدة، حتى تقدمت الصفوف إلى أن صرت غير بعيد عن مجلسه، فأثارت هذه الحركة انتباهه وانتباه الناس كلهم، وحاولت أن أتكلم. فإذا بي قد أنسيت النص الفرنسي الذي قضيت الليل والصباح في استظهاره، ولم يفتح الله عليّ منه بكلمة!

وكانت الأنظار كلها متجهة إلى هذا الصبي متسائلة عما يريد أن يفعل! فلم أرتبك، إذ كان أقل ارتباك أو تضعضع سيحيل الأمر إلى مهزلة تنتهي بإبعادي عن مكاني على أسوأ حال. لذلك توكلت على الله وانطلقت بما أعرفه من كلمات فرنسية محدودة معبراً فيها عن بعض ما أريد قوله، فقلت ما معناه مخاطباً الجنرال:

«إنك لا تستطيع أن تذهب إلى أبعد من صور لأن طريق السيارات ينتهي بصور، وإذا استطعت الوصول بإحدى الوسائل إلى ما هو أبعد من صور. فإذا مرضت هناك فلا طبيب يعودك. وإذا كان لك ولد هناك فلا مدرسة تؤويه. نريد طرقاً ومدارس وأطباء». والحقيقة أنني كنت أريد المطالبة بأكثر من هذا ولكنني عجزت عن الاسترسال في المطالب باللغة الفرنسية فسكتُّ عند هذا الحد.



الصورة التي صورها مسيو جيسكار

وقد انفعل الجنرال وحاشيته لهذا الكلام كل الانفعال، وأثر في نفسه أبعد التأثير، فأشار إلى رئيس غرفته المدنية المسيو (جيسكار) بأن يحضرني إليه، فأسرع آخذاً بيدي إلى الجنرال، الذي ربت على كتفي

مبتسماً ومشجعاً، ثم خاطبني بكلام لم أستطع متابعته وفهمه. وأدرك ذلك بعض من كان في حاشيته قريباً منه فأسرع يترجم لي كلام الجنرال، فإذا به يقول أيهم تفضل أولاً، الطريق أم الطبيب أم المدرسة؟

فقلت: الطريق لأنها هي ستأتي بالمدرسة والطبيب. فقال ستأتي الطريق. ولكن أين هي قريتك؟ قلت يجب أن تنتهي الطريق لا في قريتي بل في بلدة بنت جبيل.

واندفع رئيس غرفته يصورني صورة فوتوغرافية ولا أدري أكان ذلك منه أم بإيعاز من الجنرال. وسألني عن عنواني ليبعث لي بالصورة. فأعطيته عنواني في المدرسة العلوية في دمشق.

وقد أضاع هذا الذي جرى ـ أضاع على منظمي الاحتشاد المتزلفين به المستغلين للشعب السائقين له سوق الأنعام لتحقيق مآربهم، أضاع عليهم رونق ما قصدوه وأفسد عليهم مخططهم، وضاعوا في خضم ما جرى!

ولم نلبث أن عدنا إلى دمشق، فإذا بي أتلقى الصورة وهي المنشورة مع هذا الكلام، ومعها تحية من رئيس غرفة الجنرال باسم الجنرال ووعد بتحقيق شق الطريق.

وكنت يوماً أسير في سوق الحميدية بدمشق، فإذا بي وجهاً لوجه أمام المسيو جيسكار الذي عرفني قبل أن أعرفه، مع أنني كنت في صور أرتدي الكوفية والعقال، وكنت في دمشق أرتدي الطربوش، فأقبل عليَّ مندفعاً مصافحاً، وقال لي إن الجنرال هنا فهلمَّ معي لزيارته، فانطلقنا في سيارته إلى حيث كان ينزل الجنرال قرب الجسر الأبيض في الصالحية، فإذا بالجنرال يعرفني فيقبل عليَّ مرحباً مشجعاً.

ويبدو أنه أدرك ضعفي باللغة الفرنسية فنادى مترجماً له قال لي عن لسانه إنه قد أمر بإنفاذ تعبيد الطريق.

وبالفعل بدىء بالتعبيد، ولكن المنفذين كانوا يتباطأون حتى أوصلوه بعد جهد إلى جويّا. وظل الطريق متوقفاً في جويّا زمناً طويلاً، على أننا بعد أن كنّا نصل بالسيارات إلى صور ونأخذ الدواب منها إلى شقرا، صرنا الآن نصل إلى جويّا، وبذلك قربت شقة الطريق.

وبعد عهود وعهود أكمل الطريق إلى بنت جبيل.

وحشد الناس لاستقبال الجنرال هو مثال لما كان المستغلون المتسلطون يتعاملون به مع الشعب سواء في العهد التركي أو العهد الفرنسي ثم في عهد الاستقلال.

فقد كانت السلطات تطلق يد رجل واحد في المنطقة كلها، فتعطي من يريد إعطاءه وتمنع من يريد منعه. ويقوم في كل قرية من يطلقون عليه اسم (الأفندي) يكون هو يد المتسلط الأكبر في محيط القرية التي يقيم فيها، وتكون أدوات الحكومة من جباة ودرك تحت تصرفه، فينال بالضر من يخالفونه وبالنفع من يطيعونه. ثم هو ينفذ أوامر سيده الكبير الذي يعاونه بدوره على تركيز تسلطه. وهكذا يتجمع النفوذ في يد واحدة عليا توزع هي النفوذ على يد في كل قرية.

متابعة الحركة الوطنية

وكنت أتابع الحركة الوطنية من خلال مطالعاتي لجريدة «المفيد» التي كانت تصلنا بانتظام، والتي كانت

تصاب بتعطيل السلطات لها بين حين وآخر، مما كان يهظها مالياً، ولكنها ظلت صامدة مستمرة. فكنت أتابع ما يجري في البلاد وما يفكر به الوطنيون مما كنت أقرأه يومياً في «المفيد».

أول احتفال بذكرى ميسلون

وكما جاءت ذكرى ٨ آذار/مارس فاحتفلت بها «المفيد» احتفالاً بيانياً بليغاً ـ كما مرّ ـ وكانت تلك هي المرة الأولى بعد الاحتلال التي يتعرض فيها متعرض لذكر ٨ آذار/ مارس، كذلك جاءت الآن ذكرى اليوم الآخر المعاكس ليوم ٨ آذار/ مارس، اليوم الذي هدم فيه استقلال سوريا في ميسلون يوم ٢٤ تموز/ يوليو. وكان أديب التقي قد نظم بعد معركة ميسلون نشيداً رمزياً لتحية هذه الذكرى، لم يذكر فيه اسم ميسلون ولا اسم يوسف العظمة، بل جعل عنوانه أمين الشهيد، فيه وصف لمعركة وقتال واستشهاد رجل أطلق عليه اسم أمين، وجاء في ختام النشيد:

وصّى رفاقه وحيّاهم	تحية الحزين
يقول إما قدّر الله	وعدتم سالمين
قولوا لأهلي قد قضى	تحت القنابل «أمين»
قضى شهيداً غازياً	قد أدرك الفوز المبين
فلتعش الأمة وليحيَ	الوطن دوماً حصين

وكنّا نحن في المدرسة العلوية نحفظ هذا النشيد ونعلم أن المقصود بأمين الشهيد هو يوسف العظمة، وأن ما جاء فيه من الحديث عن المعركة والعساكر كان المقصود به معركة ميسلون.

ولم يكن النشيد يثير ريبة الفرنسيين، لما فيه من الغموض المقصود لغير العارف. وكان أديب التقي قد طبع النشيد مع مجموعة أناشيد سمّاها أغاريد التلاميذ، ومن هنا سار النشيد إلى كل مدرسة والكل يعلم ما هو ومن هو المقصود بالنشيد. ولم يكن في ذلك الوقت الحرج مستطاعاً أكثر من هذا.

وجاء يوم ٢٤ تموز/يوليو سنة ١٩٢٤ بعد ذاك الكبت المرهق، وجاءت الذكرى وقد آن أوان الاحتفال بها علناً على رؤوس الأشهاد بعد مرور أربع سنوات على المعركة.

ولا أدري الآن بمن كان اتصالي، ولا كيف عرفت بأنه تقرر تحدي الفرنسيين والذهاب إلى ميسلون والاحتفال بالذكرى على قبر يوسف العظمة نفسه وفي ميسلون نفسها، ولكنني أذكر أنني بعد الظهر كنت في المرجة ملتقياً باثنين من رواد الاحتفال لا أذكر الآن من هما وأننا كنا نفتش عن اثنين آخرين ليملآ معنا السيارة التي ستقلنا إلى ميسلون.

وبعد لحظات وجدناهما ومضت بنا السيارة إلى ميسلون حيث وجدنا غيرنا قد سبقنا، وحيث تتالى وصول السيارات حتى اجتمع بضع مئات من الشبان والكهول. وكنت أصغر الجميع سناً. وكان أبرز الحاضرين الدكتور خالد الخطيب أحد معتقلي أرواد الذين مرَّ ذكرهم.

وكان الدكتور خالد جمرة من الجمرات الوطنية الذكية المتلألئة، وقد أعطاه الله بسطة في الجسم والعقل، ووهبه صوتاً جهورياً مؤثراً وأداة خطابية فاعلة.

وتقدم قارىء للقرآن يتلو بصوت رخيم آياً من الذكر الحكيم فيها: «واأسفا على يوسف»!

ثم برز الدكتور خالد الخطيب يرتجل خطاباً استمده من نار ميسلون ودمها، وكفى بذلك...

ثم انبرى الجميع ينشدون بصوت واحد نشيد (أمين الشهيد) وهنا فوجئت بتغلغل النشيد في جميع الأوساط الوطنية، وأن كل من في دمشق وربما في غير دمشق أيضاً يحفظون النشيد ويرددونه!

وصحيح أن النشيد كان رمزياً ليس فيه اسم يوسف ولا اسم ميسلون ولكن قيمته كانت في أنه من تراب ميسلون وأنفاس يوسف العظمة!

وقد كان صغر سني وما يبدو عليّ من مظاهر الانفعال والتأثر سبباً في أن الجميع كانوا يحيطونني بعطف وحنان، ويدفعونني إلى التقدم إلى جانب الضريح أثناء الاحتفال، حيث كان التزاحم للوصول إليه ملموساً.

وكان بعض الحاضرين قد أحضروا معهم طاقات الورد وبعض الأكاليل، أما الأكاليل فوضعت على القبر وأما الطاقات فبقيت محمولة بأيدي أصحابها. وتأثر أحد حاملي الطاقات بمنظري فأسرع يقدم لي طاقة الورد التي كانت معه لأحملها بيدي.

ويبدو أنه كان مقرراً أن يخطب الدكتور خالد الخطيب وحده، لذلك لم يتكلم أحد فيما عدا نصوح الخرسا الذي استأذن بإلقاء بعض المقترحات.

ثم انتظم الجميع في موكب واحد عاد في مجموع سياراته فدخل دمشق دخولاً حماسياً أثار تصفيق المشاهدين وذكرهم باليوم الرهيب!

هكذا جرى أول احتفال بيوم ميسلون بعد مرور بضع سنين على أحداثه. وهكذا مرَّ أكبر تحدٍ للفرنسيين في ذلك الوقت.

أما خالد الخطيب فقد التحق بعد ذلك بالثورة السورية، ثم مات بعيداً عن وطنه، ولم يعد إلى بلده حماه إلاّ جثة هامدة!

وأما نصوح الخرسا فلم أعد أسمع عنه بعد ذلك شيئاً.

كان الاحتفال بيوم ميسلون مؤثراً في نفسي إلى حد أنطقني لأول مِرة بالشعر، فلما عدنا من ميسلون نظمت أبياتاً لا أزال أذكر صدر مطلعها وهو: (سلاماً أيها الثاوي سلاما).

أول مظاهرة

بلفور، صاحب الوعد الذي وهب فيه فلسطين لليهود، والذي لا يوجد في تاريخ العرب الحديث وربما القديم من هو أشد إجراماً، وأعظم إيذاء للعرب منه!

بلفور هذا دعاه اليهود ليشهد احتفالهم بافتتاح جامعتهم العبرية في القدس، دعوه تكريماً له وتقديراً لما أداه لهم. وجاء بلفور فمر بمصر مجتازاً إياها إلى فلسطين، ولم يثر وصوله إلى مصر أي شيء ولم يقابل بأي تحرك أو احتجاج، إذ كانت مصر إذ ذاك بعيدة عن الحس العربي لا يعنيها في شيء بلفور ووعده

وتحركاته. ولولا أن نفراً من الفلسطينيين ورفاقاً لهم مضوا إلى محطة القطار الذاهب إلى فلسطين والمقل لبلفور فهتفوا هتافاً ضعيفاً ضاع في زحمة الوداع الرسمي وضجيج الحياة الصاخبة، لولا هذا لما كان لمرور بلفور في مصر ونزوله القاهرة أي صدى احتجاج أو غضب. وشتان بين الأمس واليوم في تحسس مصر العربي. ووصل بلفور فلسطين فقابله العرب بالسخط مضربين متظاهرين، وقد كان من حقه أن لا يخرج من فلسطين حيّاً، ثم ها هو في دمشق!

إن مروره في مصر تحدٍّ للشعور العربي أي تحدّ، ثم إن تجوله في فلسطين إيغال في التحدي!

وظل يوغل في التحدي هابطاً إلى دمشق، نازلاً في العاصمة العربية الباسلة، وقبلت دمشق التحدي وخرجت إلى بلفور، خرجت إليه بالقلب العربي المؤمن والدم الشامي الفائر!

خرجت إليه بكل عراقتها، ومشت بكل أصالتها، واندفعت في الليل بمظاهراتها (وعراضاتها) شيباً وشباناً وفتياناً وصبياناً، تحاول أن تقتحم عليه فندقه على ضفاف بردى!

ومشى النذير إلى الفرنسيين فأخرجوا بلفور من الفندق قبل وصول المظاهرات ومشوا به في طريق بيروت دالينه على الطريق إليها...

واستمرت دمشق طول الليل تغلي كالمرجل، وتجددت المظاهرات في النهار، ولم يكن لي نصيب في الاشتراك بمظاهرات الليل، ولكنني قمت في الصباح منطلقاً مع المنطلقين حتى بلغنا أواسط شارع النصر،وهناك هاجمنا فرسان المغاربة بخيولهم وسيوفهم شاقين بها صفوف المتظاهرين، ضاربين بالسيوف على الشمال واليمين. وتشتتت المظاهرة بعد أن كادت ضربة سيف تلامس وجهي لولا إلقائي بنفسي على الشجيرات الممتدة في قلب الشارع.

وهكذا لم يستطيع بلفور أن ينعم بالقرار في دمشق ولا استطاع أن يتخذ من ثراها مهجعاً ولو ليلة واحدة.

وكانت هذه المرة الأولى التي أشارك فيها بالمظاهرات مشاركة عملية وأسير فيها مع السائرين وكان ذلك في ٨ نيسان/ أبريل سنة ١٩٢٥ على ما أذكر. ثم كانت لنا بعد ذلك مع المظاهرات أحاديث وأحاديث!

قراءات

ولا بد لي أن أشير هنا إلى أني كنت أتوق إلى مطالعة كل ما هو جديد من الكتب، فعدا الصحف اليومية التي كانت محصورة على الأغلب بجريدة «المفيد»، وعدا المجلات الشهرية التي كانت هي الأخرى محصورة بمجلة «العرفان»، فقد كنت أدخر كل ما أستطيع ادخاره من المال القليل الذي كان يصل إليَّ لشراء الكتب الحديثة. فمما قرأته في تلك السن كتاب «مذكرات جمال باشا» و«ما رأيت وما سمعت» للزركلي، و«ملوك العرب» للريحاني. وهذا الكتاب الأخير كان له في توجيهي النثري أعظم الأثر، وتأثرت به إلى أبعد حدود التأثر، إذ زادني حباً لأدب الرحلات. وعندما بدأت أجرب كتابة هذا النوع من الأدب كان أسلوب الريحاني فيه يجذبني فأحاول احتذاءه منفعلاً بتعابيره وطريقته. إلى أن أولعت بعد ذلك بالرحلات وكتابة انطباعات فيها بأسلوب مستقل.

وقد كان من فضل هذا الكتاب أن حملني على تسجيل معظم رحلاتي حتى توفر لي من ذلك كتاب كامل نشر، كله مقالات متفرقة، وأرجو أن يتاح لي جمعها وطبعها معاً[١١].

وإذا كنت قد أشرت من قبل إلى فضل أديب التقي في تثقيف قلمي ودفعي إلى الكتابة، فإنني أود أن أشير هنا إلى أن الفضل في تحقيق ذلك كان لمجلة «العرفان» التي احتضنت قلمي وكان لا يزال غضاً طرياً، وشجعتني ما وسعها التشجيع. وأولى رحلاتي نشرت في «العرفان»، ثم تتابع نشرها فيها، وما كان لها أن تنشر في غيرها لأسباب منها: أنني أنا نفسي لم أكن لأجرؤ على بعث ما أكتبه لغير «العرفان»، ثم لنوعية الرحلات، إذ كانت رحلات محدودة المكان والزمان، لا تهم غير قارىء «العرفان» في الغالب.

ولما توسعت الرحلات وانتشرت في كل مكان، وأصبحت شيئاً مذكوراً، ظللت وفاء لـ«العرفان» وصاحبها لا أنشرها إلاّ فيها على الأكثر.

ومن مطالعاتي المبكرة تلك الأيام التي كان لها أبعد الأثر في نفسي، ووجهتني بعد ذلك إلى التوغل في دراسة التاريخ الإسلامي، هو ما كنت أطالعه في كتب والدي التي كان ينشرها في ذلك الحين وأخص منها كتابه «المجالس السنيّة» الذي كنت أقرأه حين صدوره ملزمة ملزمة، وربما قابلت معه التجارب التي تأتيه من المطبعة (البروفات)، فتنطبع في نفسي الأحداث ويشوقني ذلك للشغف في قراءة أمثالها. وقد بلغ في اطمئنان والدي إليَّ، أن اضطر مرة للسفر إلى بيروت بينما كان يطبع الجزء الثاني من كتابه «المجالس السنية» فعهد إليَّ أن أتولى ـ وأنا في تلك السن ـ تصحيح التجارب وإعادتها إلى المطبعة، فقمت بالمهمة أحسن قيام، وعاد والدي بعد أيام ورأى العمل مستمراً لم يتوقف في غيابه.

وأذكر أن مما أثر في نفسي خلال قراءتي للمجالس، قصة مصرع حجر بن عدي، وقصة الحضين بن المنذر وما قاله فيه أمير المؤمنين من الشعر يوم صفين، إذ كانت مع الحضين راية ربيعة، وكان شاباً صغير السن، فزحف بالراية فأعجب علياً زحفه فقال فيه هذه الأبيات التي هي من الشعر القليل الثابت أنه لأمير المؤمنين، والتي استظهرتها حين قراءتها:

لمن رايـة حـمـراء يـخـفـق ظـلـهـا	**إذا قـيـل قـدّمـهـا حـضـين تـقـدما**
فـيـقـدمـهـا فـي الـصـف حـتـى يـزيـرهـا	**حـيـاض المنـايـا تـقـطـر الموت والـدما**
تـراه إذا مـا كـان يـوم عـظـيـمـة	**أبـى فـيـه إلاّ عـزة وتـكـرمـا**
جزى الله صبراً حين يدعى إلى الوغى	**إذا كـان أصـوات الـرجـال تـغـمـغـما**
ربـيـعـة أعـنـي إنـهـم أهـل نجـدة	**وبـأس إذا لاقـوا خـمـيـسـاً عـرمـرما**

وكذلك فقد كان لقراءتي كتاب «الإمامة والسياسة» يد في انجذابي إلى التاريخ وانفعلت كل الانفعال لقراءتي فيه قصة وقعة الحرة. وظللت أتابع قراءة كل ما تقع عليه يدي من كتب التاريخ في مكتبة والدي.

وعدا ذلك فقد شغفت بقراءة الشعر واستظهاره، وبدأت أعد دفاتري لتسجيل ما أستحسنه من الشعر، فاستظهرت منه في تلك السن قدراً صالحاً. وإني لآسف أن كل تلك المجاميع التي دونتها قد ضاعت.

ومما لا يزال عالقاً في ذهني من مستظهرات تلك الأيام قصيدة لخير الدين الزركلي الذي كان فيمن اضطروا لهجر البلاد بعد معركة ميسلون واستقر في مصر، والتقى فيها بعادل أرسلان فتطارحا الشعر الوجداني الرقيق المعبر عن شوقهما لوطنهما وحنينهما إلى بلدهما، وشعورهما بالغربة والوحشة، وتحسرهما على ما آل إليه أمر أمتهما.

فقد نشرت جريدة «المفيد» قصيدة الزركلي وجواب أرسلان، فمما أحفظه من قصيدة الزركلي منذ ذلك الحين وأكتبه الآن من ذاكرتي هذه الأبيات:

العين بعد فراقها الوطنا ... لا ساكناً ألفت ولا سكنا
ريّانة بالدمع أقلقها ... أن لا تحس كرى ولا وسنا
والقلب لولا أنّة صعدت ... أنكرته وشككت فيه أنا
يا طائراً غنى على غصن ... والنيل يسقي ذلك الغصنا
زدني وهج ما شئت من شجني ... إن كنت مثلي تعرف الشجنا
أذكرتني بردى وواديه ... والطير آحاداً به وثنا
وأحبة أسررت من كلفي ... وهواي فيهم لاعجاً كمنا
ما كنت أحسبني مفارقهم ... حتى تفارق روحي البدنا
يا موطناً عبث الزمان به ... من ذا الذي أغرى بك الزمنا
عطفوا عليك فأوسعوك أذى ... وهم يسمون الأذى منّنا
وحنوا عليك فجردوا قضبا ... مسنونة وتقدموا بقنا
كم ذا أغالبه ويغلبني ... دمع إذا كفكفته هتنا

ومن قصيدة عادل أرسلان:

يا خير مهلاً لا تثر شجنا ... حسبي وحسبك لوعة وضنا
النيل ماء الشرق قاطبة ... لكنهم قد كدروه لنا

ولقد حببت إليّ هذه القصيدة شعر خير الدين الزركلي، وخير الدين نفسه وصرت أتابع شعره فوقع لي منه قصيدته الدالية التي نظمها في أعقاب يوم ميسلون والتي يقول فيها:

غلت المراجل فاستشاطت أمة ... عربية غضبى وثار وقود
ولقد رأيت جموعها وثابة ... لو كان يدفع بالصدور حديد

على أننا لم نلبث أن فوجئنا بهجوم النجديين على الحجاز وإسقاطهم الملك حسين وإخراجه من بلاده. وقد كان الحسين يمثل في نظرنا الصمود العربي في وجه المطامع الاستعمارية. وكان عناده ورفضه التسليم بواقع الانتداب الإنكليزي في فلسطين وما وراءه من وعد بلفور، مع ما يهدده من غضب الإنكليز من خسران للملك.

كان هذا الصمود من الحسين مثار إعجابنا وموضع تقديرنا، لذلك كان سقوطه صدمة قوية لنا، فإذا بالزركلي يشمت بالحسين، ويحمله وزر مغاضبة ولده عبد الله له، فينظم قصيدة مطلعها:

صبر العظيم على العظيم ... جبار زمزم والحطيم

هذه القصيدة التي قالت عنها مجلة «العرفان» يومذاك: « ...وبمداد التشفي وقلة النصف نظمت قصيدة الزركلي».

فكرهنا الزركلي وأعرضنا عن شعره.

ولكن لم تلبث الثورة السورية بعد ذلك أن اشتعلت فإذا بالزركلي شاعرها الغريد. وإذا بي أعود لاستظهار شعر الزركلي ولحب الزركلي، وهو حب اتصل بعد ذلك، إلى أن لقيته بعد سنين وسنين فزاد اللقاء الحب حباً.

وتنتهي الثورة السورية فيلجأ بطلها سلطان الأطرش وعادل أرسلان إلى النبك في صحراء الجوف. وهناك في ذلك المنتأى الكئيب يفاجأ عادل أرسلان بموت أخيه نسيب فيرثيه بقصيدة تصل إليَّ فأستظهرها، وفيها يقول:

نفى النوم ما هاج الضمير المناجيا ... أفي الغيب ما أخشى وإلاّ فماليا
وذي تلعات النبك لاقت نواظري ... تمثل فيها ضاحك الروض باكيا
على النخلات الخمس يطغين في الضحى ... يشرن إلى المشتاق أن لا تلاقيا
تمايل من هوج الرياح كأنها ... نوادب يحثين التراب بواكيا
بلى قد مضى والقلب يهفو لذكره ... نسيب وخلى آهل الربع خاليا
فيا نائياً أواه لو أن نظرة ... تزودتها من قبل أن صرت نائيا
ويا جدثاً فوق الشويفات مشرفاً ... بروض من الريحان ريان عاليا
طواك على الرمح الرديني خالق ... وأغمد فيك السيف عضباً يمانيا
وكنت أرجيها رسالة واله ... على أمل اللقيا فكانت مراثيا
فيا لك من شعر سداه مدامع ... ولحمته نفس تذوب قوافيا
تحول قسراً في النسيب مراثياً ... ويا ليت لي ألفاظه والمعانيا
شقيقك من يعرفك يعرف مصابه ... ويرثي له راثيك حالاً وآتيا
رأبت صدوع الدهر في مواسياً ... وكنت لنفسي بالتعهد آسيا
بدرت لأمر كنت تعرف سره ... وتجعل منه للرجال مناحيا
ولولاه لم أصبر على البعد ساعة ... فعفوك عن بعدي سنيناً ثمانيا
تطلعت أبغي من ذرى الشوف نظرة ... فأعيت وقد أبعدت فيها المراميا
رمونا بديناميت حتى تقلقلت ... جبال على حوران كانت رواسيا
فيما غيروا القلب الذي كان مخلصاً ... ولا أوهنوا العزم الذي كان ماضياً

ودبوا بأبراج الحديد كأنها   سلاحف ما يمشين إلاّ تهاديا
دوارع يلقاها الفتى وهو حاسر   يصادمها بالفأس جذلان حاديا
فبينا تراها زاحفات إذا بها   أسافلها صارت عليها أعاليا
تواريخها مسطورة في متونها   متونا بأفعال الظبى وحواشيا
أقول لمن يبلو لدى الخطب صبرنا   ترى الصبر فينا شيمة وتواصيا
ونركب للغايات قبل خيولنا   من العزم والإقدام جرداً مذاكيا

هذا بعض ما لا أزال أتذكره من تلك القصيدة الفريدة.

وقد نشرتها أول ما نشرتها جريدة «الجامعة العربية» في القدس وعنها نقلها جبران التويني في جريدة «الأحرار» وقدم لها بمقدمة طيبة ومن «الأحرار» أخذتها وحفظتها.

وفي صحراء النبك ألتقي من جديد خير الدين الزركلي وعادل أرسلان. وعاد الزركلي من هناك فأرسل لعادل قصيدة يقول فيها:

إلى بطلي فخر العروبة عادل   مجير الحمى والفارس الندب سلطان
إلى عصبة تأبى الغضاضة خيلها   وفرسانها أكرم بخيل وفرسان

فأجابه عادل بقصيدة يقول فيها:

بقية أبطال لو أن زمانهم   تقدم لم تسمع بعبس وذبيان
قرأت لهم شعر الزركلي فيهم   فهز بهم من نجدة أي أغصان
وهموا فلولا حكمة لا أذيعها   سمعت الوغى ما بين حوط وعرمان
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   وليس بسوريا مقر «لغملان»

ومن المؤسف أن شعر عادل أرسلان قد ضاع فلم يوجد بين أهله وعشيرته من يجمعه وينشره، كما أن شعر الزركلي مطوي على الرفوف لا ينشر ولا يذاع.

الهوامش:

(١) كانت السلطات السورية قد رفضت أن تتسهل للجنرال غورو استعمال السكة الحديدية لإرسال القوات والمؤمن والذخائر إلى كيليكية حيث كانت الجيوش الفرنسية مشتبكة في محاربة القوات التركية الكمالية، وكانت نتيجة ذلك أن شعر الفرنسيون بحرج مركزهم في كيليكية فاتفقوا مع مصطفى كمال على الجلاء عنها واسترداد قواتهم منها، ودفعوا بها فجأة إلى سوريا. ويروي بعضهم أن بعض الفئات كانت تدعو إلى تعاون سوريا وتركيا الكمالية لمقاتلة الفرنسيين حتى النهاية وحملهم على الاعتراف باستقلال سوريا، وقد سافر يوسف العظمة وسعيد حيدر إلى إعزاز على الحدود التركية وتباحث كل منهما مع مندوبي الحكومة الكمالية في إنشاء تعاون عسكري بين الحكومتين، فوعدوه بأن يطلعوا حكومتهم على اقتراحاته ويبلغوه الجواب، ولكن الهدنة التي عقدتها فرنسا مع الأتراك أوقفت المباحثات عند ذلك الحد.

وقد كان امتناع الحكومة الوطنية في دمشق عن فتح السكة الحديدية أمام الفرنسيين للوصول إلى قتال الأتراك نابعاً

من الأصالة الوطنية العربية التي أبت مساعدة الفرنسيين على الأتراك المقاتلين في سبيل بلادهم. وتناسى العرب كل ما عانوه من فظائع الاتحاديين الأتراك خلال الحرب ورجعوا إلى ما يمليه عليهم شعورهم الوطني البحث متجاهلين حتى مصلحتهم في عدم إغضاب الفرنسيين.

على أنني سمعت من رضا الركابي نفسه الذي كان في ذلك الحين رئيساً للوزارة الاستقلالية الأولى ـ سمعت منه بعد ذلك بسنين ـ أنه كان من رأيه التحالف مع الفرنسيين في هذا الموقف الذي تجمع فيه المصلحة بين الفرنسيين والعرب، وأن لا مجال للعواطف أمام الحقائق. وأن حكومته استقالت لعدم الأخذ برأيه، فخلفتها وزارة الأتاسي التي يتحدث عنها الجنرال غورو. ويبدو أن الأتراك استغلوا مفاوضة السوريين لهم فأطلعوا الفرنسيين على ذلك، فكان أن تحالف الفريقان وانسحب الفرنسيون من كيليكيا موجهين قواهم كلها لقتال السوريين.

ولا شك أنه كان للتزاحم الإنكليزي الفرنسي أثر في ذلك، فإن الإنكليز كانوا أعوان اليونانيين في غزوهم للأناضول، فرد الفرنسيون بتأييد الأتراك.

(٢) هذه السناجق كانت موجودة في حي وتوضع في أكبر مساجد الحي أو عند قبر ولي مدفون في الحي. ويبدو أن هذه السناجق تعود إلى العصر الأيوبي. ويتكون (السنجق) من قطعة قماش كبيرة جداً ذات بطانة. يحمل الواحد منها الرجل القوي في الحي من وسطها بعمود ويعينه في الحمل آخرون من اليمن واليسار بحبال ربطوها وسط العمود وأطراف (السنجق) انتشاراً كاملاً فيقرأ الناس، ما عليه من آيات وأدعية واستنفارات.

وقد سرق معظم هذه (السناجق) ونقلت إلى بلاد الغرب.

(٣) كان ذلك في أواخر شهر آب/أغسطس سنة ١٩٢٠ أي بعد حوالى شهر من وقعة ميسلون.

(٤) كان الأردن جزء من سوريا.

(٥) فيصل.

(٦) رشيد رضا.

(٧) ياسين الهاشمي.

(٨) رضا الصلح.

(٩) سعيد الحسيني.

(١٠) فور انسحاب الأتراك ودخول الجيش العربي بقيادة فيصل إلى دمشق تألفت أول حكومة عربية لم يسم أعضاؤها بالوزراء بل سموا رؤساء: رئيس العدلية، رئيس الداخلية... إلى آخره. وبعد تتويج فيصل تألفت الحكومة الدستورية وأطلق على أعضائها اسم الوزراء.

(١١) طبع الكتاب بعد ذلك باسم: **(من بلد إلى بلد)** وهو الآن ضمن هذا الكتاب.

الفصل الثاني

الاصطياف في جبل عامل

في خلال ما مرّ من الأحداث، كانت الأسرة تنتقل في أغلب الأعوام إلى جبل عامل في الصيف. وإذا كنت قد تحدثت عن انتقالنا في إحدى المرات من دمشق إلى جبل عامل عن طريق القنيطرة وكان هذا الانتقال في العربات حتى القنيطرة، ثم على الدواب من القنيطرة إلى شقرا، فإنني أقول هنا إننا صرنا في عهد انتشار السيارات وتكاثرها، لذلك أصبحت الرحلة من دمشق إلى بيروت تتم في السيارة وأحياناً في القطار. وبالرغم من بطء قطار دمشق - بيروت فقد كان مألوفاً في السفر إلى بيروت لأن السيارات لم تبلغ من الكثرة حداً يلغي السفر في القطار.

أما بالنسبة لنا فإن تكاثر السيارات قد سهّل لنا الانتقال فيها من بيروت حتى صور. وبذلك لم يعد السفر بطريق القنيطرة ذا موضوع لأن المسافة منها إلى شقرا على الدواب سفر طويل. وبسلوكنا طريق بيروت - صور كان علينا أن نأخذ الدواب من صور حتى شقرا.

لذلك كنا نأخذ سيارة تضم العائلة كلها إلى بيروت أو نأخذ القطار بدل السيارة. ثم السيارة من بيروت إلى صور، وفي صور نبيت ليلتنا.

وكان الوالد يختار منزل الشيخ عز الدين علي عز الدين. وهو رجل على جانب كبير من الشهامة والكرم والنبل. وهو سليل أسرة علمية دينية من أشهر أسر جبل عامل.

وتكون قد وصلته برقية من الوالد ليرسلها إلى شقرا لتكون الخيل جاهزة في صور. وفي الصباح نأخذ الخيل مواصلين السير في الآكام والجبال والوهاد، ممضين ما لا يقل عن سبع ساعات بين صور وشقرا.

مفوض سام جديد

نقل الفرنسيون مفوضهم السامي الجنرال ويغان. وجاء مفوض جديد هو الجنرال ساراي ووصل في ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٤. وكنت أتابع الأحداث أكثر ما أتابعها من خلال جريدة «المفيد» كما مر.

جاء ساراي، وبدت تصريحاته باعثة للأمل، كما أعلن عن إجراءات جديدة كانت تبدو فيها عقلية

جديدة تختلف عن السابق. وظهر بتصرفات في لبنان جعلت فريقاً من الموالين للفرنسيين على حذر منه، ثم على نفرة ومقاومة.

وكانت الأوضاع في دمشق قد أخذت بالتبلور، وبدأ فريق من الوطنيين العاملين يستقطبون الرأي العام ويتكتلون ويجتمعون. وشجعت تصريحات ساراي وتصرفاته على التجمع والتذاكر. فكان أن تألف وفد دمشقي للذهاب إلى بيروت ونقل المطالب الوطنية للمفوض الجديد.

وعاد الوفد متفائلاً، وكان مما دعاهم إليه المفوض هو تأليف الأحزاب، فكان لهذه الدعوة أثرها البالغ.

وتدارس الوطنيون الوضع فقرروا تأليف حزب سياسي وطني يقود الحركة الوطنية ويعمل على تنظيمها.

وكانت حوادث (كراين) التي تقدم ذكرها قد بلورت الزعامة الوطنية، وكان للذين اعتقلوا في أرواد ثم عفي عنهم وعادوا إلى دمشق مكان الصدارة، وكان يتقدمهم ثلاثة: عبد الرحمن شهبندر وسعيد حيدر وحسن الحكيم. فكان هؤلاء الثلاثة زعماء الحزب الجديد الذي أطلق عليه اسم «حزب الشعب» وانتخب عبد الرحمن شهبندر رئيساً له وإحسان الشريف أميناً عاماً، ثم أصبح حسن الحكيم هو الأمين العام واحتفل الحزب بإنشائه احتفالاً شعبياً خطب فيه فيمن خطب فارس الخوري الذي كان من أبرز رجال الحزب.

واستقطب الحزب كل المتحسسين بالفكرة الوطنية المتحمسين لها وأصبحت جريدة «المفيد» لسان الحزب دون أن تسمي نفسها بذلك.

وكانت تصل إلينا أنباء لبنان وما يلاقيه ساراي من مقاومة عنيفة من الأكليروس الماروني ومن يقول بقوله، حيث امتنع ساراي عن أن يخص البطريرك الماروني بما كان يخصه به أسلافه، وامتنع عن ابتدائه بالزيارة، وأعلن أن في لبنان كذا من رجال الدين فلن يقضي وقته في زيارتهم.

وكان قد عزل حاكم لبنان الفرنسي وعيّن مكانه حاكماً فرنسياً جديداً يقول بقوله ويرى رأيه. وكانت اتجاهات ساراي ومعاونيه اتجاهات لا نقول إنها أقرب إلى تشجيع العمل الوطني، بل يمكن القول إنها غير شرسة في مقاومته، وكان أبعد عن الروح الاستعمارية المتغطرسة لولا الظروف الفريدة التي انفجرت فجأة كما سيأتي.

والحملة اللبنانية على ساراي كان يقودها صنائع الاستعماريين المتفرنسين وبعض المتعصبة الحقودين الذين رأوا في تصرفات ساراي شيئاً لم يألفوه من قبل. ويؤسفني أن أذكر أن ما ينسب إلى أصحاب بعض الصحف اللبنانية من مواقف في مواجهة حاكم لبنان الجديد (كايلا)، ليست في بواعثها مما يشرفهم، فقد كان ميشال زكور يصدر مجلة «المعرض» الأسبوعية فتصدت للسياسة الجديدة التي بدأها ساراي وأخذ يطبقها (كايلا)، ولم يكن تصديها هذا عن دوافع وطنية، بل عن دوافع إقليمية طائفية ضيقة لا تشرف أصحابها.

وإلا فأين كان ميشيل زكور وأين كانت «المعرض» في عهد غورو أو ويغان؟

كنت أتابع أخبار حزب الشعب بشغف شديد، وأقرأ مقالات نجيب الريّس اليومية في حديث اليوم في جريدة «المفيد» ومقالات يوسف حيدر التي كان يكتبها كل يوم، ومقالات شقيقه سعيد حيدر التي كانت تظهر بين الحين والحين. ولكن الجريدة لم تسلم هذه المرة أيضاً من التعطيل، وأذكر أنه جاء الصيف، صيف سنة ١٩٢٥ و«المفيد» معطلة. وأن موعد سفرنا إلى جبل عامل قد حل و«المفيد» معطلة.

إلى جبل عامل

وتركنا دمشق هذه المرة في سيارة مضت في طريق بيروت ثم انحرفت قبل الوصول إلى بيروت واصلة إلى صيدا، ولا أدري الآن من أين انحرفت السيارة، وما هو الطريق الذي سلكته فأوصلها إلى صيدا ووفر عليها مسافة كان لا بد لها من قطعها لتصل إلى بيروت ثم تخرج منها إلى صيدا. ومن صيدا وصلنا إلى صور. ولم نبت هذه المرة فيها في منزل الشيخ عز الدين بل واصلنا السير على الخيل إلى قرية طير دبا حيث مقر الشيخ حسين مغنية، وهناك حللنا لنعاود السير في صباح الغد إلى شقرا.

وكان والدي والشيخ حسين مغنية ألفين متحابين وصديقين متلازمين، درسا في بنت جبيل معاً في مدرسة الشيخ موسى شرارة، وسافرا إلى النجف معاً، وعاشا هناك عشر سنين معاً، وعادا من النجف معاً، فاستقر الوالد في دمشق، واستقر الشيخ حسين في قرية طير دُبّا.

وكان الشيخ حسين إنساناً فريداً بعلمه وهديه واستقامته، وأصبح في جبل عامل علماً باذخاً، ورجل دين يمثل أنبل ما في الدين من فض الخصومات والترفع عن الدنايا والسعي في الخير وخدمة الناس.

وكنت في كل مرة أراه فيها، سواء في طير دبّا أو شقرا، أمتلىء من رؤيته شعوراً بحبه واحترامه، وأشعر بانعطاف روحي إليه، وأستمتع بحديثه ومجلسه أقصى ما يمكن أن يستمتع من هو في مثل سني.

بتنا في بيت الشيخ حسين مغنية، ولم تكن هي المرة الأولى التي نبيت فيها في بيته وننزل ضيوفاً عليه. وقد كان بيته من أكرم البيوت وأنصعها، وهو ككل بيوت الجبل المعروفة لا بد فيه من العدد الوافر من الحشايا وما إليها من وسائل النوم ليكون على استعداد دائم لاستقبال الضيوف النازلين.

والبيوت المضيافة كانت متهيئة دائماً لمثل هذا، وكثيراً ما يتعاون الناس على تسهيل أمور بعضهم البعض في مثل هذه الحالات. فربما نزل عدد من الضيوف كان من الكثرة بحيث لا تستوعبه وسائل النوم العتيدة. وهنا يكون من المألوف أن يستعير المضيّفون من خلصائهم في القرية ما يرون أنهم بحاجة إليه من الحشايا وتوابعها.

وربما مررت في موضع آخر بشيء من تقاليد الضيافة القروية الكريمة.

لا تتضح الآن في ذهني معالم الطريق كلها من صور حتى شقرا، ولا أستطيع تعداد المراحل التي كنا نمر بها طيلة الست الساعات أو السبع التي كنا نمضيها على ظهور الخيل في ذلك الطريق. وقد أنساني الدهر تفاصيلها على كثرة ما عبرتها.

غير أنني أذكر أنه كان لا بد لنا بعد الخروج من قرية طير دبّا من المرور بقرية معركة، ولا أزال أتذكر أنه

كان على جانب الطريق قرب معركة بضع شجرات من التين متفردة عن الكروم، كنا لا نحجم عن أن نقطف ونحن عابرون بعض أثمارها اليانعة.

ثم إنني أذكر من مراحل الطريق (عين الراموح) التي كنا نجتازها غير متوقفين. ويخيّل إليّ أننا كنا نمر قريباً من عين دير كيفا. غير أنني لا أتحقق إلاّ أننا كنا ننتهي إلى وادي السامر مارّين قبله بعين الجرانيف قرب قرية خربة سلم، ثم بالزياتية وهي مكان لعدد من شجر الزيتون.

على أنني أتذكر أننا كثيراً ما صعدنا أو هبطنا (عقبة الطبّالة) الملاصقة لخربة سلم. ولا أدري الآن هل كنا نصعدها ذاهبين إلى صور، ونهبطها قادمين منها، أم أن مرورنا بها كان في سفرات أخرى؟ أرجح الرأي الأخير.

وكانوا يعللون لنا اسم (عقبة الطبالة)، أنها كانت المكان الذي يستقبل فيه (الطبالون) بطبولهم الحكّام الإقطاعيين العائدين إلى مقرهم. وبعضهم كان يقول إنها مأخوذة من كلمة طبل (بتشديد الباء) وذلك أنها لشدة ارتفاعها وصعوبة ارتقائها، كانت تحمل العاجزين على التطبيل. وفي الاصطلاحات العاملية العامية، أن يقال (طبل فلان) بتشديد الباء، أي: أعيا وعجز عن السير.

وبعد اجتياز وادي السامر كنا نصعد الثنية واصلين إلى بير حميّد. وهناك تلوح لنا شقرا. ثم نهبط من بير حميد واصلين إلى الوادي المتصل بوادي نحلة، والذي هو جزء منه، فنقطع الوادي الضيق في عرضه صاعدين في العقبة الكأداء. وبمجرد دخولنا إلى الوادي نكون قد صرنا في أرض شقرا، ويتتالى صعودنا حتى نصل إلى العين الفوقا أو (عين الفوقا) كما يطلق عليها هناك، ويكون المنتزه وعينه إلى يسارنا، ثم نكون بين كروم التين ماشين إلى المنازل.

وهذه البقعة من (عين الفوقا) والمنتزه إلى كروم التين، ما قبل «حريبة» وبعد حريبة إلى ما يليها وينحدر عنها ويتفرع منها، تتصل بالنفس بأعذب الذكريات وأحلاها، مما سيطول الحديث عنه في الآتي من القول في الذكريات العاملية.

على أنه لا بد هنا من كلمة في وادي السامر الذي مرّ ذكره. ويلفظونه هناك بفتح الميم. وأحسب أن أصل الكلمة بدون ألف بعد السين، فيكون: (وادي السمر).

وهذا الوادي يقع بين عدة قرى بين أهلها تواصل وتواد، فربما كان قديماً ملتقى للكثيرين منهم في ليالي الصيف والربيع حيث يسمرون فيه، فأطلقوا عليهم اسم (السمر).

وهو وادٍ يكاد يربط بين (شقرا) و(الصوانة)، ولا يفصله عن الصوانة إلاّ (خلة الدالية) حيث ينتهي الوادي قبلها في (خلة السيدة) وزيتونات الزياتية، ثم يصل السائر منها إلى (خلة الدالية) فيصعدها واصلاً إلى الصوانة.

أما من ناحية شقرا فينتهي الوادي قبيل (بير حمّيد)، حيث يصعد الصاعد منه في الثنية إلى بير حميد، ثم يهبط إلى الوادي الموصل بأرض شقرا.

فهو إذن الطريق المستقيم الواصل بين القريتين، ولا يوجد بينهما طريق يحمل اسماً مستقلاً يدانيه بالطول

وبعد المسافة، بل إن الأسماء الأخرى تشغل جزءاً لا يذكر أمام حيزه. وبذلك كثر ترديده في شقرا وفي الصوانة على السواء. لما يربط بين أهل القريتين من روابط القربى في أسرة من الأسر التي تتوزع بين القريتين، وهي الأسرة التي ينتمي إليها صاحب هذه الكلمات.

للّه تلك العهود التي كان لا يمضي يوم فيها إلاّ واسم وادي السامر مذكور فيه، وللّه تلك الرحلات الجميلة بين القريتين أيام الربيع والصيف! وللّه تلك الساعات التي يقال فيها في شقرا: (سيّاد الصوانة) هنا فتنعقد الحلقات وتعلو الضحكات وتطول الأحاديث!

بل ربما كان مجيئهم ومجيء غيرهم من أفراد الأسرة من عثرون ومجدل سلم مبعثاً لكثير من الشعر الطريف الذي يمثل الحياة العاملية بكل ما فيها من ترف وشظف وجد ولعب!

وقد ضاع كل ذاك الشعر فيما ضاع من التراث العاملي، لأن أحداً لم يعن بتدوينه وإنما تلي بوقته، وسجل في وريقات، ثم ضاع!

وأذكر من هذا أبياتاً من قصيدة قيلت في بعض من قدموا من عثرون والصوانة، راكبين على خيل ربطوها، ثم غابوا فلم يعودوا على العشاء عند مضيفهم الذي كان ينتظرهم، فقال فيهم قصيدة لا أزال أحفظ منها هذه الأبيات:

خذوا القواديش لا تبقوا القواديشا ... ولا تخلوا لنا الجرد (المفاليشا)

وفيها يقول:

لو أن (سلعا وباريشا) لنا بلد ... عفنا لأجلكم سلعا وباريشا

ولو فعلتم كهذا الفعل في بلد ... ألقوا عليكم (برابيشاً برابيشا)

والذي يعرف المصطلحات العاملية ويعرف ما تعنيه كلمة (القواديش) و(المفاليش) و(البرابيش) يدري ما في هذا الشعر من طرافة!

وسلعا وباريش قريتان في جبل عامل.

شقرا

ووصلنا إلى شقرا على أمل العودة إلى دمشق في نهاية الصيف دون أن ندري ما كان يخبئه القدر للبلاد كلها، ودون أن نعلم أن مجيئنا هذه المرة يختلف في مصيره عن كل مرة.

وكان أشد ما يملأ نفسي همّاً هو انقطاعي عن تتبع الحركة الوطنية تتبعاً كاملاً بسبب انقطاع وصول الجرائد إليَّ وندرة الحصول عليها.

وإذا وقع وحصلت على بعضها كان الحصول متأخراً.

ثم إن الجرائد التي كانت تصل هي جرائد بيروت ولم يكن منها في ذلك الحين من يمثل الفكرة الوطنية إلاّ جريدة «الحقيقة» لصاحبها كمال عباس التي كانت تمثل الدعوة الاستقلالية العربية أبلغ تمثيل، وإلاّ جريدة «الأحرار» التي كان المشرف الفعال عليها جبران تويني. وكانت «الأحرار» قد أصدرتها شركة

مساهمة فيها جبران تويني وترك تحريرها له. وكان صدور هذه الجريدة حدثاً صحفياً ضخماً، إذ إن التويني كان صحفياً موهوباً، فطوّر الصحافة البيروتية تطويراً كبيراً وقفز بها قفزات جعلت منها شيئاً جديداً لا سابقة له في البلاد.

وفضلاً عن التطوير في التحرير والتبويب، فقد كان التويني يتفرد بمماشاة الصف الوطني والترويج له والدعوة إليه. وكانت جريدته صدى للحركات الوطنية في سوريا ولبنان على السواء.

وهو أول من اتخذ للجرائد مراسلين في الخارج، فاختار نجيب الريّس مراسلاً له في دمشق. وصارت رسالة دمشق تحمل أخبار التحركات الوطنية فتنتشر في «الأحرار» موزعة في كل مكان. وكنت إذا سافر مسافر من شقرا فإن أعظم ما أوصيه عليه هو أن يحضر لي معه في عودته جريدة.

على أن ما فاتني من متابعة الاطلاع على الجرائد اليومية كنت أعوضه بعض التعويض بمتابعة الاطلاع على مجلة «العرفان» التي كانت تصلنا شهرياً. فقد كانت تسد جزءاً من الفراغ الذي صرنا فيه من انعدام المطالعة اليومية للصحف.

الثورة

لم نكد نستقر في شقرا، ولم نكد نحصل على بعض الصحف، حتى رحنا نطالع فيها طلائع تحرك ضخم في سوريا. وأخذت الأنباء منقولة على الشفاه، ومحمولة من مكان إلى مكان تصل إلينا، وفيها ما يشعر بأن جبل الدروز غاضب على السلطات الحاكمة.

ولم نكن نستطع أن نعي حقيقة ما يجري لأن الصحف لا تحمل الأنباء الصريحة، كما أن ما تتداوله المجالس التي نحضرها لم يكن واضحاً كل الوضوح.

ومن ذلك أن رجلين دمشقيين جاءا إلى شقرا كنت أعرف أحدهما، لأنه كان من صحابة والدي المقربين إليه، ولم أكن أعرف الآخر، ولم أكن قد رأيته من قبل، ثم اختلى الرجلان بوالدي خلوة طويلة لم ندر ما دار بينهما وبينه فيها من أحاديث. وبات الرجلان في شقرا وفي الصباح الباكر غادراها عائدين إلى دمشق دون أن نعرف شيئاً عن مهمتهما. ثم عرفنا بعد ذلك أن مهمتهما كانت إبلاغ والدي عما يجري من إعداد للثورة والتشاور معه في شؤون هذا الإعداد.

ثم تتابعت الأنباء شيئاً فشيئاً فعرفنا أن الثورة الفعلية قد نشبت في جبل الدروز، وأن المعارك مشتعلة. وفجأة وصلت إحدى الصحف البيروتية وفيها النداء البليغ الذي أذاعه سلطان الأطرش داعياً السوريين جميعاً إلى حمل السلاح والثورة على الانتداب.

وقد تكررت فيه كلمة: إلى السلاح...

وعلقت الصحيفة على النداء قائلة بما معناه: إن الحقيقة كما هو معلوم أن القوم ثاروا لغير هذا الهدف. وأحسب الآن أن الصحيفة قالت إنها تنقله عن جريدة «المقطم» المصرية، وأن التعليق كان لـ«المقطم» نفسها.

وبت متلهفاً على تتبع أنباء الثورة، ولم يكن الفرنسيون قد أعلنوا الرقابة على الصحف بعد، لذلك كانت

الصحف تنشر كل يوم ما يبلغها من أخبار. ثم علمت بما جرى للجنرال ميشو وحملته وما انتهى إليه أمر جيشه من الهزيمة النكراء.

ثم أخذت أخبار الثورة تتوضح وتنجلي على أبرز حال. وأريد أن أسجل هنا بأنه كان لجبران التويني ولجريدة «الأحرار» الفضل بتعميم أنباء الثورة بشكل صريح. وكان نجيب الريّس لا يزال مراسلاً في دمشق فكان يمدها بالأخبار الثورية فتفتح «الأحرار» صدرها على أوسع ما يمكن.

ولم تكن تصلني «الأحرار» بانتظام، ولكن ما كان يصلني منها كان ينعش نفسي ويرضي شعوري!

ثم علمنا أن الفرنسيين أطبقوا على قادة حزب الشعب في دمشق ففر منهم من فرّ وقُبض على من قُبض عليه. وكان إعلان الثورة قد اتفق عليه بين زعماء الجبل وبين وطنيي دمشق، بعد أن تعهد هؤلاء بالانضمام إلى الثورة في حالة بدء الزحف، وتواعد الدمشقيون على اللقاء في الغوطة والوصول إلى الجبل، فخرج من خرج وعلى رأسهم الدكتور عبد الرحمن شهبندر وسعيد حيدر وحسن الحكيم وقبض الفرنسيون على من بقي وبينهم يوسف حيدر صاحب «المفيد» ونجيب الريّس محررها الأول ومراسل «الأحرار» في دمشق. كما قبضوا على الوطنيين في غير دمشق ونفي الجميع إلى جزيرة أرواد.

وأذكر من أخبار الثورة في تلك الأيام تقدم فرسان الدروز إلى دمشق، ثم إعلان الفرنسيين صدهم بالطائرات والمصفحات بعد اعترافهم بأنهم لم يكونوا بعيدين عن دمشق.

وتوالت أحداث الثورة وتوالت انتصاراتها، وبدأت تعمّ البلاد وتمشي من بلد إلى بلد. وكنت حينذاك أحس بفيض من الزهو يملأ نفسي لما كان ينزل بالفرنسيين من هزائم.

ثم وضحت صورة الثورة أمام أبصارنا، وعرفنا من حقيقة معارك الجبل ما لم نكن قد سمعنا عنه إلاّ القليل. فقد كانت هزيمة الجنرال ميشو هزيمة كبرى ذبح فيها جيشه أو تشرد واستولى الثوار على المدافع وكل الأسلحة وأضحت فرنسا في البلاد بلا جيش يرد عنها الهزائم.

ومشت الثورة إلى الغوطة وانضم إليها الدمشقيون والغوطيون، وتألق اسم حسن الخراط الحارس الدمشقي البسيط وأصبح بطل معارك الغوطة وزعيم عصاباتها، ينازل الفرنسيين ويرعبهم.

واستضعف الثوار قوة الفرنسيين فقرروا اقتحام دمشق، واقتحموها بالفعل ونفذوا إليها من كل جانب، وقصدوا إلى مقر الجنرال ساراي من قصر العظم قرب البزورية حيث كان يبيت طيلة أيام الثورة وحاولوا أسره ولكنه استطاع النجاة قبيل وصولهم. ثم أمر مدافعه المنصوبة على القمم المطلة على دمشق أن تصب حممها على المدينة الباسلة، فانهالت القنابل تحرق وتدمر، قنابل المدافع وقنابل الطائرات.

ووصلتنا الأخبار بتفاصيلها، وعلمنا فيما علمناه أن حينا قد كان عرضة للقنابل، وأن (دخلة الشرفا) نفسها أصابتها النار الغاشمة، وأن صحاباً لنا من الجيران قد فقدوا أبناءهم وأطفالهم. وقد قيل إن المقصود كان بيت السيد محسن ولكن القنابل أصابت بيت الحاج زاهد بيضون الملاصق له.

ثم إذا بالثورة تطل علينا نحن، وإذا بها تغدو على مقربة منّا، فقد تقدم الثوار بقيادة زيد الأطرش واحتلوا

وادي التيم ونزلوا حاصبيا ومشوا إلى كوكبا فقاومتهم، فصاولوها فنالها ما ينال من يقف مثل موقفها. فاستغل الفرنسيون وأذنابهم الحادث وعملوا على تشويه وجه الثورة الناصع، وأثاروها طائفية بشعة!

وفي يوم كنا في شقرا نستطلع الأخبار، ونتوقع الحوادث فإذا بنا نشاهد عن بعد دخاناً كثيفاً يتعالى في الجو ويمتد ثم يمتد إلى العلاء فحدس الحادسون بأن جديدة مرجعيون تحترق. وقد صح حدسهم، فإن ضابطاً لبنانياً أرعن كان يقود قطعة مما سماه الفرنسيون (القناصة اللبنانية) وهم جنود لبنانيون تطوعوا في الجيش الفرنسي ـ إن هذا الضابط أبى إلاّ المقاومة في الجديدة. ولكنه لم يلبث أن هزم هو وقناصته ودخل الثوار الجديدة دخول المنتصرين مما أدى إلى إحداث الحرائق التي شهدنا دخانها من تلك المسافة البعيدة.

ولما وصل الثوار إلى جديدة مرجعيون أيقنا أنهم سيزحفون إلى جبل عامل فقررت مع ثلاثة من الرفاق أن ننضم إليهم بمجرد اقترابهم من شقرا وكان ينقصنا السلاح ورحنا نفتش عليه فلم نجد سوى المسدسات وبنادق الصيد.



التهيؤ للالتحاق بالثوار

وكان عند أخي الأكبر مسدس فأخذته دون علمه، واستطاع أحد الرفاق أن يعد لنفسه بندقية حربية وأعد لنا ثلاث بنادق صيد.

ولكن لم تلبث الأنباء أن توالت بانسحاب الثوار من جديدة مرجعيون ثم باندحارهم عن قلعة راشيا، وهكذا قضي على مشروعنا الثوري في مهده. ولم تبق منه إلا هذه الصورة الفوتوغرافية.

على أنه كان مقضياً عليه حتماً حتى لو تقدم الثوار إلى جبل عامل، فبنادق الصيد لا تغني في الثورات ولكن حماسة اليفاعة كانت هي الطاغية على تفكيرنا والحائلة بيننا وبين وعي الحقائق.

وقد آلمتنا أحداث كوكبا والجديدة. وأذكر أن شاعراً متفرنساً نظم مقطوعة يحتي بها كوكبا ويحمل على الثوار نشرتها له مجلة «المعرض»، لا أزال أذكر ختامها وهو هذا البيت:

أو شـئـت تـشـهـد مـعـقـل الأبـطـال فـاقـصـد «كـوكـبـا»

فأثارني ذلك فرددت عليه بمقطوعة جعلتها في تحية مجدل شمس التي كان أبناؤها في طليعة الثوار:

إن رمــت تــظــفــر بــالألــى بــذلــوا الــنــفــوس ومــا غــلا
مــن كــل أروع بــاســل مــتن الــفــخــار قــد اعــتــلــى
يــحــمــي بــصــفــحــتــه إذا حــمــي الــوطــيــس المعــقــلا
أو شــئــت تــشــهــد مــعــقــل الأبــطــال فــانــح «المجــدلا»

أما مجدل شمس التي سميتها معقل الأبطال، فهي اليوم ترزح تحت الاحتلال الصهيوني!

ألا سلام على تلك الأيام التي كانت البلاد تضطرم فيها بنار الثورة: نار الإباء والشهامة والبطولة والشمم.

سلام على تلك العهود التي حمل فيها الشعب الأعزل ما تيسر له من سلاح، ومضى يذود عن شرف بلاده وكرامة وطنه ويقاتل في سبيل حريته واستقلاله، مناضلاً أعظم قوة عسكرية في ذلك العصر. القوة التي هزمت قبل بضع سنوات قوة ألمانيا الجبارة وعطلت آلتها الحربية!

الشعب الذي لم ينتظر مؤتمرات القمة، ولا ثرثرة الثرثارين، ولا بيانات الجبناء، وبلاغات المتخاذلين. بل نادى: إلى السلاح! وما كان سلاحه إلاّ بنادق متباينة ومسدسات متغايرة صمد بها في وجه المدفع والرشاش، وقاتل بها الدبابة والمصفحة، وهزم بها (الجنرالات).

سلام على تلك الأيام، والبلاد تنوء بالاستعمار، وترزح تحت الانتداب، ولكنها تقاتل وتحارب!

ولا سلام على هذه الأيام، والبلاد تنعم بالاستقلال ولكنها تستكين للسلم الذليل!

وفي هذه الفترة كانت قد بلغت الثورة أوجها وسيطر الثوار على ما يقرب من نصف سوريا، وها هم الساعة يطلعون على لبنان ويوغلون فيه، حتى لقد كتبت «المعرض» مقالاً عنوانه: هل نحن على بركان؟!

وكثرت الإشاعات وتوالت الإرهاصات، لقد بدت طلائع تحركات في الشوف، وهي إذا جاءت ذات صبغة فردية ومحاور محدودة، فقد كانت ذات دلالة كبرى. وبدا أن الخطوة التالية بعد مرجعيون هي النبطية.

على أنه من ناحية ثانية كانت الإمدادات الفرنسية قد وصلت بطريق البحر، وانطلقت لصد المد الثوري، وكانت إمدادات قوية يحسب لها كل حساب.

ولكن الموقف الحاسم الذي أوقف تقدم الثوار، ثم ردّهم عن مرجعيون نفسها، كان الفشل الذي أحاق بهم في محاولتهم احتلال قلعة راشيا الوادي، حيث كانت تقيم قوة فرنسية حاصرها الثوار، ثم حاولوا الصعود إلى القلعة على السلالم التي نصبوها، فكانوا كلما احتشدوا على السلم حصدتهم الرشاشات فتهاووا صرعى إلى الأرض. ومع ذلك فقد استطاع فريق منهم الوصول إلى القلعة ودخلوها مما أرعب الفرنسيين. وكانت النجدات الفرنسية تسرع في الوصول إلى القلعة فتقدمت طائرة ألقت برسالة فوق القلعة، ولكن الريح حملتها إلى الخارج فسقطت بعيداً عن القلعة. وكانت راهبة لبنانية قد رأتها تسقط

فالتقطتها وحملتها إلى من في القلعة. ويبدو أن الثوار ترفعوا عن أن يتصدوا لامرأة تحاول اللجوء إلى القلعة، لا سيما وهي في ثياب الراهبات، فتركوها.

وكان في الرسالة دعوة للمحصورين إلى الصمود لأن النجدات أصبحت وشيكة الوصول إليهم. وهكذا صمد الفرنسيون بعد أن كادوا يستسلمون، ثم فوجىء الثوار بالجند ينقض عليهم من الخارج بينما النار تنصبّ عليهم من الداخل، فكان ذلك كافياً لتشتتهم، بعد أن أبدوا من البطولات ما كان خليقاً ببني معروف الأنجاد، وما هو إلى الأساطير أقرب منه إلى الحقائق، لما فيه من البسالة المنقطعة النظير، والاستهانة بالموت استهانة رائعة!

وكانت معركة راشيا هذه حدّاً فاصلاً في تاريخ الثورة، أخذت بعده تتراجع تدريجياً. ولو قدر للثوار الفوز بالسيطرة على القلعة واقتحامها لكان للثورة شأن أي شأن.

وقد جاءت أنباء راشيا تملأ نفسي همّاً وأسى ظلا يطغيان عليها يوماً بعد يوم، لأن أنباء الانتصارات كانت تمتزج بأنباء الفشل، حتى عاد الأمر بعد ذلك كله فشلاً وتراجعاً.

وفي هذه الأثناء شاع شعر الشاعر القروي رشيد سليم الخوري وشعر الياس فرحات الثوريين، وحفظنا قصائدهما عن ظهر قلب، بل ويمكن القول إنني سمعت باسم القروي لأول مرة مع سماعي لقصيدته العينية إذ كنت في صيدا لأمر خاص، وفي إدارة مجلة «العرفان» اطّلعت على القصيدة ونقلتها معي وأذعتها في جبل عامل، فانتشرت في كل مكان فيه.

وإليك ما وعته الذاكرة من تلك القصيدة التي خاطب فيها سلطان الأطرش:

خففت لنجدة العاني سريعا ... غضوباً لو رآك الليث ريعا
وحولك من بني معروف جمع ... بهم وبدونهم تفني الجموعا
كأنك قائد منهم هضاباً ... تبعن إلى الوغى جبلاً منيعا
ألم يلبس عداك «التنك» درعاً ... فسلهم هل وقى لهم ضلوعا
ومذ هطل الرصاص عليك سحّاً ... كوسمي جليت به ربيعا
وثبت إلى سنام «التنك» وثباً ... عجيباً علّم النسر الوقوعا
وكهربت البطاح بحد سيف ... بهرت به العدى فهووا ركوعا
كأن به إلى الإفرنج جوعاً ... وسيفك مثل ضيفك لن يجوعا
تكفل للثرى بالخصب لما ... هفا برقاً فأمطرهم نجيعا
فخر الجند فوق «التنك» صرعى ... وخر «التنك» تحتهم صريعا
فيا لك غارة لو لم يذعها ... أعادينا لكذبنا المذيعا
ويا لك «أطرشاً» لما دعينا ... لثأرٍ كنت أسمعنا جميعا

كيف ثارت الثورة

الواقع أن نوايا الجنرال ساراي لم تكن من السوء إلى الدرجة التي أظهرتها الأحداث التي رافقت وجوده

في سوريا ولبنان، وحين نريد أن ننصف فإن علينا القول بأنه شتان بينه وبين سلفيه غورو وويغان. ويكفي أنه طلب إلى الوطنيين الذين قابلوه أن ينظموا صفوفهم أولاً وأن يؤلفوا حزباً سياسياً يوحّد كلمتهم ويحدد مناهجهم. ويكفي أنه لم يتوقف أبداً في إجازة حزب الشعب مع علمه بماضي رجاله وأهدافهم الاستقلالية.

ولكن الأمور سارت بعد ذلك بعكس هذا الاتجاه، وتطورت الأحوال إلى الحد الذي جعل من ساراي جزّاراً من جزاري سوريا، دون أن يقصد ذلك أو يتعمده.

ولا شك أن حاشية السوء التي كانت تحيط بالجنرال، والتي لم يكن في تصوره التخلص منها ولا في علمه شيء من نواياها، هذه الحاشية التي صورت له الأمور على غير حقيقتها، ولم تشأ أن توضح له ما يجب إيضاحه، وأن تبين المحاذير التي ستنجم عن بعض التصرفات. بل على العكس، ربما تكون هي التي قادته إلى المزالق التي وجد نفسه فيها، والتي دهورته إلى أسوأ مصير.

قلنا فيما تقدم أن غورو أعلن جبل الدروز دولة منفصلة عن سوريا، ولإرضاء الدروز عيّن الجنرال حاكماً منهم للجبل هو الأمير سليم الأطرش، ثم لم يلبث أن مات، فعيّن الفرنسيون مكانه ضابطاً من ضباطهم الرعناء المهووسين، اسمه كاربييه ممن يبدو أنهم نشأوا وسادوا في حكم المستعمرات وألفوا الغطرسة والإذلال. فسار في حكم جبل الدروز سيراً كله شطط ورعونة وشراسة وإرهاق، مما كان له أسوأ الأثر في نفوس الدروز الأشداء... ولم تفد الشكاوى بل زادته غطرسة وتجبُّراً.

وحين جاء ساراي، رأى زعماء الدروز أن الوقت مناسب للمطالبة بتنحية كاربييه، ولكن الأمل في نفوسهم كان ضعيفاً، وكانت الحركة الوطنية بعد تأليف حزب الشعب قد انتظم أمرها، وبدأت الاتصالات وتوسعت المناهج والخطط، فكان أن عُقد اجتماع تمهيدي في أوائل شهر أيار/ مايو سنة ١٩٢٥ في أحد البيوت الدمشقية، حضره فريق من زعماء الجبل مع فريق من قادة الوطنيين في دمشق بُحث فيه بتوحيد جهود العاملين، وأشير فيه لأول مرة إلى القيام بثورة مسلحة.

ويبدو أن الفكرة لقيت تجاوباً عند زعماء الجبل فتلا هذا الاجتماع اجتماع آخر موسع ضم معظم رجالات الجبل بمن فيهم شيخ مسيحيي الجبل (عقلة القطامي) تعاهد فيه الجميع على العمل يداً واحدة لا من أجل تنحية كاربييه فحسب، بل من أجل الوحدة والاستقلال، واختمرت في النفوس فكرة الثورة وتقرر أنها هي الطريق الوحيد للوصول إلى الحق.

وفي ١٥ أيار/مايو سافر الكابتن كاربييه بإجازة إلى فرنسا، وقد رأى زعماء الجبل وجوب الاتصال بالسلطات الفرنسية لوضع حد لطغيان كاربييه والخلاص من الوضع القائم، فأمَّ وفد منهم دمشق ومنها أبرقوا للجنرال ساراي طالبين موعداً لمقابلته. ثم قصدوا إلى بيروت ولكن ساراي رفض مقابلتهم، وبعد توسطات أحالهم على الأمين العام، فلم يصنع شيئاً فعادوا محنقين.

وتتالت الأحداث فلجأ ساراي إلى أمر مشين، إذ بعث بتاريخ ١١ تموز/ يوليو إلى مندوبه في دمشق

ليدعو إليه عدداً من الزعماء الكبار باسم التفاوض وإنهاء الأمر، حتى إذا وصلوا اعتبرهم مسؤولين عن كل ما يمكن أن يحدث في الجبل، ثم أبقاهم بيديه رهائن يعتقلهم في أحد المعتقلات.

وهكذا تمّ له ما أراد، فنفى بعضهم إلى تدمر وبعضهم إلى الحسكة. على أن أخطر الزعماء (سلطان الأطرش) أبى القدوم إلى دمشق وبذلك ظل في منجاة من الاعتقال.

وحسب الفرنسيون أنهم يستطيعون القبض على سلطان، فجهزوا حملة صغيرة يناهز عددها المائتي جندي وضابط بقيادة النقيب نورمان، فهاجمهم سلطان في الثاني والعشرين من شهر تموز/ يوليو ١٩٢٥ أي بعد خمس سنين من يوم ٢٤ تموز/ يوليو يوم معركة ميسلون. فلم يثبت الفرنسيون لسلطان فأبيدوا. ثم جمعوا قواهم كلها في قلعة السويداء وتقدم سلطان إلى السويداء فدخلها وبدأ حصار قلعتها.

ولكن كان على ساراي أن يفك الحصار عن قلعة السويداء فجهز حملة بقيادة الجنرال ميشو أيقن أنها كافية لإنهاء التمرد والتغلب عليه. ومن بلدة أزرع تقدمت الحملة وعددها سبعة آلاف جندي مجهزة بكل أدوات القتال، ومشت في أول آب/ أغسطس ١٩٢٥ متجهة إلى السويداء فلاقاها بنو معروف ببسالتهم المعروفة فلم تصمد لهم وكان نصيبها نصيب حملة نورمان على فرق ما بين الحملتين من حيث العَدد والعُدد.

وغنم الثوار من سلاحها ما كان لهم عتاداً يعز مثيله لا سيما من المدافع بذخائرها.

وكان في هذه الحملة جلّ ما يملك الفرنسيون من قوى، فلو واصل الثوار زحفهم إلى دمشق لدخلوها منتصرين.

وبالرغم من التكتم الشديد الذي حاول الفرنسيون به إخفاء حقيقة النصر الباهر الذي أحرزه الثائرون فقد تسربت أنباء هذه المعركة إلى كل مكان، ووصلتنا أخبارها.

وبعدها أدرك ساراي أنه كان مخطئاً في سوء معاملته لرجالات الجبل فحاول مفاوضتهم واسترضاءهم وأطلق المعتقلين منهم في تدمر والحسكة منذ ١٣ تموز/ يوليو فعادوا إلى الجبل.

ثم أرسل وفداً من دروز لبنان إلى الجبل لوضع حد للأعمال الثورية، وفي الوقت نفسه طلب من فرنسا تعزيزاً عسكرياً. وقد التقى في الجبل نوعان من الوافدين، نوع لبناني يمهد للسلام ونوع دمشقي يدعو لاستمرار القتال. وفي الوقت الذي كاد السلم أن يتحقق وصل الدمشقيون فرجحت كفة القتال.

مفوض سام جديد

بعد فاجعة دمشق وقصفها بالطيران والمدافع، وتشعب الأمور وامتداد الثورة، قررت الحكومة الفرنسية استدعاء ساراي، وأرسلت بدلاً منه لأول مرة منذ الاحتلال الفرنسي مفوضاً مدنياً ليعالج الأمور ويصلح ما فسد منها، هو دوجوفنيل. وفي الوقت نفسه كانت الإمدادات الفرنسية يتوالى وصولها قادمة بطريق البحر إلى بيروت ومنها مرسلة إلى مختلف المناطق.

وقدم جوفنيل معرجاً على مصر ليقابل من بها من السوريين للتفاهم والتفاوض، ولكن لم يكن لذلك من

نتيجة. ثم وصل بيروت في أول كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٥ وقامت محاولات للتفاوض والتوفيق. ومضى وفد لبناني دمشقي للاتصال بالثائرين فقصد درعا ومنها إلى عرى والتقى بالزعماء الذين عرضوا أدنى ما يمكنهم قبوله. وتألف وفد دمشقي للاتصال بالمفوض في بيروت، وحدد مطالبه، ولكن هذا الاتصال لم يؤد إلى شيء. وهنا أعلن رئيس الاتحاد السوري استقالته فعجز المفوض عن إيجاد خلف له، لذلك أعلن تعيين فرنسي حاكماً لسوريا. ثم حاول المفوض أن يفصل بين قضية جبل الدروز والقضية السورية لمخاطبة الدروز رأساً، ولكن المحاولة لم تثمر. وحاول أن يجري انتخابات في سوريا ففشل، وكان يبدو متخبطاً لا يدري ما يصنع.

ولستر الإخفاق، قرر الاعتماد على العمل اللبناني فقرر إعلان الجمهورية اللبنانية واستبدال رئيس لبناني لها بالحاكم الفرنسي، وإنشاء مجلس شيوخ إلى جانب المجلس النيابي وإعطائها كل بهارج الجمهوريات دون حقائقها. واعتقد أنه بهذه المظاهر الجمهورية يمكن أن يغري الثائرين، ولكنه لم يصل إلى أية نتيجة فرأى من الأفضل له أن يعود من حيث أتى. فغادر البلاد في الثامن والعشرين من شهر أيار/ مايو ١٩٢٦.

موقف مجلس لبنان من الثورة

عندما وصل الثوار إلى أطراف لبنان واشتبكوا مع القوات الفرنسية ثم تقدموا داخل لبنان اجتمع المجلس التمثيلي اللبناني في أول كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٥ وأصدر قراراً باقتراح النائب شبل دموس خالفه كل من النواب: فؤاد أرسلان وعمر بيهم وعمر الداعوق وجميل تلحوق.

وهذا نص القرار:

«لما كانت حوادث العصيان التي ابتدأت في جبل حوران قد تطاير شررها إلى الأطراف الجنوبية الشرقية من لبنان فتناولت حاصبيا وراشيا وما يتبعهما من القرى المجاورة فألحقت بالبلاد ضرراً فادحاً بالأموال والأرواح.

ولما كانت هذه الحوادث في قرانا التي على الحدود غير مستندة إلى مبدأ يبررها.

ولما كانت حكومة لبنان المحلية غير مجهزة بجيش نظامي يرد غزوات الطامعين وكانت على ثقة تامة من حماية الدولة المنتدبة للبلاد عند الحاجة قياماً بعهدها الذي قطعته مع جمعية الأمم.

ولما كانت قوة الجندرمة المحلية على قلة عددها قد قامت بواجبها أثناء مهاجمة الحدود. ولما كان لبنان بانفصاله سياسياً عن جارته سوريا وجبل الدروز يرغب في البقاء في عزلته وحياده التامّين.

ويعتبر تصدّي الخارج لمهاجمة أطرافه تعدّياً على استقلاله وافتراء محضاً على حريته ومصالحه فإنّ هذا المجلس يقرر ما يلي:

١ - إن هذا المجلس يعتبر هجوم الثوار على حاصبيا ومرجعيون وراشيا تعدياً على استقلال لبنان وحرية سكانه.

٢ - يرفع هذا المجلس شكره بالنيابة عن البلاد إلى الدولة المنتدبة الكريمة لما قامت به حتى الساعة من التضحيات بالأرواح والأموال، للذود عن حياض لبنان والعمل على سلامة سكانه وضمان استقلاله.

٣ - يقدر مفاداة الجندرمة اللبنانية حق قدرها ويثني على ثباتها وشجاعتها.

٤ - يؤكد هذا المجلس للدولة المنتدبة بقاء البلاد على ولائها لها ومحبتها التقليدية غير المتزعزعة.

٥ - يطلب هذا المجلس من دولة الحاكم إبلاغ الدولة المنتدبة هذا القرار بالصورة الرسمية».

الحليشة

وصلنا إلى شقرا في مطالع الصيف، وللصيف في القرى العاملية حياة شيقة حلوة. فمنذ تبدأ حقول (القطانة) بالاصفرار، ثم تيبس تلك الأباطح المكسوة بنبات العدس والباقية والكرسنة، يبدأ في القرية موسم (الحليشة)، وهو أول موسم من مواسم الحصاد، ولكن هذا الحصاد لا يقتضي له مناجل ومقاطع، ولا زنود قوية وسواعد فتية، بل إن الأيدي الناعمة هي التي تتولى حصاد حقول (القطانة) وذلك لقصر سيقان العدس والباقية والكرسنة وضعف تكوينها وسهولة اقتلاعها. لهذا تتولى (الحليشة) فتيات القرية لا فتيانها، وصباياها لا شبّانها، وقد يشارك بذلك عجائزها لا شيوخها!

فأنّى صعّدت في الذروات، وأنّى صوّبت في الوهدات، وأنّى أصغيت في الأسناد والأصواح والسفوح، فإنك ستسمع أبداً أصوات الصبايا منطلقة بالأغاني القروية الجميلة!

ها هنا تنطلق النفوس المكبوتة التي أضواها الحب، فلم تستطع التعبير عنه في المجالس والندوات، ها هنا تنطلق معبرة عنه تعبيراً شاعرياً أخّاذاً، ها هنا يتنوع الشعر، فهو إما رمزي خجول يأخذ بالكنايات والتوريات؛ أو صريح واضح، ولكن صراحة مهذبة خجلى!

ها هنا تنطلق الأصوات بأغانيها العاطفية على مداها الواسع لا تحدها الجدران، ولا توقفها السدود، بل إن لها في البر المديد ما تظل تدوّي به ما شاء البر لها أن تدوّي!

يا لروعة أيام (الحليشة) في القرية، وقد اصفرّت الحقول، ويبست الزروع، واستحالت البراري الواسعة من مروج خضراء، إلى سهوب صفراء، لتنطلق فيها الأيدي الناعمة باجتثاث سيقان العدس والباقية والكرسنة، راكضة ركضاً ومتلاحقة تلاحقاً ومتوثبة توثباً!

ويا لبهجة تلك الأرض، وقد علت فيها أغاني الصبايا وصيحات الفتيات، ويا لعظمة القروية العاملة، وقد انقلبت من ناعمة مستكينة، إلى جبارة صاخبة تدق بقدميها الأرض وتقتلع بيدها الزرع، وهي في كل ذلك عاطفية شائقة مشوقة!

الأيدي الناعمة! لا ليست ناعمة تلك الأيدي التي تعمل في الحقل وفي الغابة وفي الكرم وعلى البيدر وفي التنور! إنها قاسية قسوة الحياة في هذه القرى، إنها صلبة صلابة العيش في هذه الجبال!

ولكنني في حياتي كلها ما لمست يداً كانت في نفسي أرق من تلك اليد القاسية، ولا احتويت كفاً كان في وجداني أكثر نعومة من ذلك الكف الصلب! ولا هفوت إلى حسن كان في عيني أروع من ذلك الحسن العامل المجهد المكدود! ولا خفق قلبي بوجد كان أكثر إلهاماً من الوجد بتينك العينين الشاردتين في مدى الحقول، الهائمتين على ذروات الجبال وجنبات الأودية!

الحصيدة

فإذا انطوت (الحليشة) وعادت حقول (القطانة) جرداء إلاّ من (أغمار) الزرع اليابس، وصارت صامتة خرساء لا تسمع فيها إلاّ صوت الذكريات!

فإن حياة جديدة تنتظر جوانب أخرى من جوانب القرية، وإن حقولاً أخرى لا تزال خضراء يانعة تتهيأ

أن تيبس وتصفر. وتكون سواعد الشبان وزنود الفتيان قد تهيأت وهيّأت مناجلها، فإذا بالحياة تدب في ذاك الجماد وذاك النبات! وإذا بالأرض الصامتة الخرساء تنقلب إلى حركة عارمة وصيحات متعالية ومناجاة متتابعة وأفراح متضاحكة!

إنه عرس الحقول يحييه هؤلاء الفتيان بسواعدهم القوية وأكفّهم الشديدة وأجسامهم المديدة!

إنه عرس الحقول يتعالى فيه الشدو وتنفجر الحماسة وتفور القوة وتتجلى الحياة على أشرف مُثُلها وأنبل أهدافها!

وهل أشرف من هذا العرق المتجمع حبيبات على هذه الجباه الشامخة والمتساقطة ذرات على هذا التراب الطيب!

وهل أنبل من هذه الأكف تجمع من الأرض غذاء أهل الأرض!

الرجيدة

وبعد (الحليشة) و(الحصيدة) تُجمع الزروع المحصودة كتلاً صغيرة تسمى كل كتلة منها (الغمر) (بضم الغين وتسكين الميم) وتترك إلى حين، إلى الوقت الذي ينتهي فيه موسم الحصاد وتكون جميع الحقول مهيأة لنقل الزروع الحصيدة منها، وعند ذلك يخرج الفلاحون مع إطلالة الفجر، حيث يكون الندى متراكماً فوق كتل الحصيد فتغدو به طرية لا تتساقط سنابلها بالتحريك، فيعود التجميع من جديد تجميعاً أكبر وتكتيلاً أضخم، وعند ذلك تسمى الكتلة اسماً جديداً هو (البندك)، فيجمع كل بندكين متوازيين بحيث يترك بينهما مربض للجمل، ثم تشد (البنادك) بحبال (البابير) المنقوع بالماء ليلين، ثم يؤتى بالجمال ليحمل كل جمل بندكين بعد بندكين، ناقلاً (البنادك) إلى البيادر وهذا ما يسمى باصطلاح القرية بـ (الرجيدة).

وقبل ذلك، وقبل إطلال الصيف تكون تجارة الجمال قد راجت في كل القرى، وتكون قوافل الجمال المعدة للبيع قد أصبحت تنتقل من قرية إلى قرية ليشتري الشارون ما يعدونه (لرجد) البنادك.

وهذه القوافل يتاجر بها تجار متخصصون، يذهبون كل عام قبيل الصيف إلى دمشق القريبة من البادية، حيث يفد الأعراب بجمالهم إليها فيوقفونها في أسواقها الخاصة في حي الميدان، فيقبل التجار بأموالهم لشرائها، ثم يعودون إلى الجبل كل بما اشترى فيدورون على القرى للبيع.

وقد كان للجمل شأن أي شأن في القرية، فصاحب الجمل هو كصاحب الشاحنة اليوم، فعلى جمله (يُرجد)، وعلى جمله تنقل الأغلال إلى صور وغير صور لتباع هناك إلى التجار، ثم يعود الجمل محملاً بما أعده أصحاب الدكاكين الصغيرة في القرية، أو بما أوصى عليه غير أصحاب الدكاكين مما يسد حاجاتهم اليومية وغير اليومية.

وصور هي أقرب ما يقصده الجمالون في الرحلات البعيدة، وإلاّ فقصدهم صيدا مألوف وكذلك قصدهم بيروت. وحتى بعد شيوع استعمال السيارات ظل للجمل شأنه حيناً من الوقت في الوصول إلى صيدا وبيروت!

واليوم لا (رجيدة) بين الحقول والبيادر إلاّ في النادر النادر، واليوم لا جمال تقطع الطريق بين شقرا وصور. بل اليوم لا رغاء للجمل يتعالى في دروب القرية وعلى بيادرها وفي حقولها!

بل نكاد نقول إنه لا (حليشة) ولا (حصيدة) إلاّ في بعض حقول القرية وجزء من أرضها الواسعة. لأن الأرض لم تعد تسدّ بغلاّتها حاجة الناس، بعد أن تطور الناس وتطورت حاجاتهم، ولأن الناس لا يستطيعون تطوير نتائج الأرض بوسائلهم الخاصة تبعاً لتطور الحياة والحاجات، ولأن الحكم والمسيطرين على الحكم ليسوا بالمستوى المخلص الواعي الذي ينهض بالأرض وأصحاب الأرض!

لذلك هُجرت الأرض وعادت بوراً لا تمتد إليها يد بزرع ولا حصد، والذين كانوا يعملون فيها ارتحلوا عنها إلى حيث يفتشون عن الرزق الأوسع فنجح بعضهم ولم ينجح أكثرهم!

وحين ترسل ببصرك من شقرا نفسها فتتطلع اليوم إلى (المنارة) التي اشتراها اليهود وكانت بالأمس القريب قطعة من جبل عامل! كانت أرضاً جرداء وحقولاً لا تخضرّ إلاّ في الشتاء والربيع، حين تتطلع إليها اليوم فترى العمارات المتلألئة والغابات النضيرة والأرض الشجيرة والمياه الغزيرة، تراها كذلك في الصيف والشتاء والربيع والخريف، تدرك من الحقائق ما يمزق نفسك أسى وأسفاً! وتعلم ما جناه ويجنيه على الأمة من تسلطوا عليها حاكمين، ومن وثبوا على رزقها متسلطين، ومن تركوها للفقر غانمين!

اليوم لا أغاني الفتيات تتعالى من بين (أغمار) العدس، ولا شفاههن تتحرك صداحة من خلال (شمائل) (الباقية)، ولا تلك الأودية تتجاوب بأناشيد الهوى المكبوت مترنحة بأرق الألحان!

واليوم لا أهازيج للفتيان تدوّي في السفح وعلى القمة وخلال الوادي!

لقد عاد كل شيء صامتاً أخرس، وآبت الحياة إلى الهمود والركود!

البيادر

وفي البيادر تتجمع (البنادك) مثنى مثنى، وتتراكم الواحد إلى جنب الآخر حتى تغص بها تلك البقعة التي كانت طوال العام خالية خاوية، فإذا بها في الصيف تضج بالحركة والحيوية، قد نصبت فيها خيام الرند (الغوردل)، فسهر فيها الساهرون ونام النائمون. أما في النهار فإن أصوات الصبيان على نوارجهم تملأ الآذان بترجيعها الحلو، وقد جلس أو وقف كل واحد منهم على النورج وبيمناه مقود يوجه به الثورين ساحبي النورج، وبيسراه عود يحركه على جلد الثور المتباطىء أو المتحرف، حتى إذا ملّ رتابة الساعات أرسل في الجو صوتاً رقيقاً بأهزوجة مخصوصة للبيادر بحيث تصلح للحوار، فإذا سمعها جاره الأقرب رد عليها مقطعاً بمقطع!

حتى إذا أخذ وجه (الطرحة) بالاندراس جاء الرجال يقلبونها بالشواعيب!

وكانت البيادر في شقرا يشغل معظمها القسم الشمالي من الأرض المتصلة بالعمران، ويشغل بعضها القسم الغربي الجنوبي، وبعضها، وهو الأقل، القسم الشمالي الشرقي.

ولحكمة عملية أقيمت (عين الناقة) قريبة من البيادر الشمالية والشمالية الشرقية لتكون مورداً للبقر العامل على البيادر الغربية، أما البقر العامل على البيادر الشرقية الشمالية فيرد البركة.

والبيادر الشمالية التي تشمل معظم زروع القرية، وتقوم عليها أغلال كبار الفلاحين هي في الصيف (برلمان) القرية ودار الندوة فيها، فهناك وسط البيادر وتحت الجوزة العريقة يلتقي الشيوخ وبعض الشبان فيتدارسون شؤون قريتهم إن كان هناك من شؤون، ويتحادثون ويتنادرون إن لم يكن لديهم من شؤون. أما في الليل فحيوية القرية كلها تنتقل إلى البيادر، إذ تعود خيامها مسكن الفلاحين الذين يحرسون فيها غلالهم. ولعل الأصح أن نقول إن حيوية القرية تتقاسمها في ليالي الصيف كل من البيادر والسحاري والكروم، وهي في معظمها متقاربة متصلة ومن هنا كانت حياة هذه البراري في الصيف متشابكة متداخلة.

وللبيادر الشرقية الشمالية هي الأخرى ندوتها ومجالسها ورجالها، أما البيادر الشمالية الشرقية، فلقلة من فيها ولقربها من الغربية، فلا ندوة خاصة بها، بل إن رجالها يشاركون الغربيين في ندواتهم ومجالسهم!

لقد أدركتُ شيوخ القرية على البيادر الغربية وأدركتُ أمثالهم على البيادر الأخرى.

وجالستهم وأنا صبي ويافع وشاب، فربما نسيت كل المجالس والأندية وغابت عني مع الزمن كل الأصوات فيها وانطوت من ذهني كل الصور عليها. أما أولئك الشيوخ، شيوخ شقرا، ومجالسهم على البيادر وسامرهم في الحي، فلن أنساهم أبداً!!

ولشدة تأثري بحيوية البيادر أيام موسمها، ثم لشدة تأثري بانتهاء موسمها، أذكر أنني في إحدى السنين نظمت قصيدة أودِّع فيها البيادر وأقف على أطلال القمح وآثار الخيام وذكريات الناس، لا أذكر سوى بيتين منها، وقد أنستني الأيام سائرها، ومع أنها من شعر الصبا غير الناضج فما أسفت على شيء كما أسفت على أني لم أحفظها بين أوراقي لتكون صورة حية من صور المواقف العاطفية. أما البيتان فهما:

خلت البيادر بعد طول عجيج ومحت بها الأيام كل ضجيج

لا سامر الأحباب ثمة سامر أنساً ولا ليلِ الهوى ببهيج

أما اليوم فقد خلت البيادر بعد طول عجيج، لا خلواً إلى حين، بل خلوا في كل حين!

وعادت تلك البقعة جزءاً من عمائر القرية وامتلأت بالمنازل، واقتلعت الجوزة وانطوت الندوات وغابت المجالس والأسمار!

الكروم والسحاري

أما ليالي الصيف في القرية، الليالي الأضحيانة، فهي ليالي الكروم أولاً وليالي السحاري ثانياً. فمنذ أوائل الصيف ينتقل الكثير من الحياة إلى كروم التين، فتنصب فيها خيام الرند المعروف هناك باسم (الغوردل) أو الملول والسنديان. وهذه الخيام نوعان، منها ما هو طبقة أرضية تمهد الأرض أمامها لتكون صالحة لنشر التين عليها ليجف وييبس فيكون منه مؤونة الشتاء. والخيمة هي المأوى الذي يفيء إليه أصحاب الكرم أو ضامنوه، ففيها يقيلون وفيها يبيتون. وقد تكون بعض الخيام مرتفعة عن الأرض ومقامة على قواعد عالية من جذوع الشجر فتسمى عند ذلك (السرير).

فإذا عسعس الليل أشعلت القناديل أمام الخيام وتحلق السامرون في أفنيتها متحاورين متنادين، وانتقل جزء كبير من حياة القرية إلى الكروم حيث الهواء الطلق والنسيم العليل والأفق الرحيب!

فإذا تنفس الصبح امتدت الأيدي إلى ثمار التين الناضجة تقطفها لتمتلىء بها السلال القصبية الصغيرة والكبيرة، فبعضها يحمل إلى البيوت فاكهة شهية، وبعضها يطرح للتجفيف غذاء لما يأتي من الأيام.

أما السحاري (جمع سحرا) فهي حقول الكوسى والخيار والقثاء والبطيخ التي تنصب فيها الخيام هي الأخرى مقيلاً للقائلين ومبيتاً للبائتين ومنزلاً للضيوف المستجمّين.

السحاري وكروم التين في حريبة ووادي الملول ووردة والدواوير وعقبة عين الحمرا وشواثا وجل زكّو... زالت إلاّ بقايا لا تجمع سامراً، ولا تؤلف مجلساً ولا تلفت انتباهاً.

فلا القناديل تنير دجى الليل البهيم، فتجذب ببصيصها الضئيل النفوس قبل العيون، ولا «الشبّابات» ترن في أجواز الغسق فيلج رنينها القلوب قبل الآذان!

عودة القطيع

وفي أماسي الصيف، يعود الرعاة بقطعانهم إلى القرية. يعود قطيع البقر مجتازاً بالبركة حيث ترد الأبقار من مائها لترتوي طيلة الليل بما شربت في المساء، ثم يمضي الرعاة على رأس القطيع وعلى آخر القطيع بعصيهم الطويلة ذات الشعب مجتازين بمقبرة القرية الشرقية، وشاقين الطريق الطويل منها بين البيوت الشمالية، وما هو أن ينحصر القطيع بين جدران البيوت حتى يغدو لوقع أظلافه ضجيج مسموع بعد أن كان الضجيج يتلاشى في الفضاء الواسع قبل الولوج بين الجدران التي تحصره بينها فيصل إلى الآذان برتابته المشوشة. وكثيراً ما كنت أكون في الغرفة اللصيقة بالطريق فأصغي إلى القطيع يدب بأظلافه على الأرض فيثير الغبار ويثير الضجيج معاً، وينتهي السير إلى (الصيرة) وهي أرض فضاء مسورة بجدران ينحصر بينها القطيع طوال الليل!

وما هو أن يصل القطيع إلى (الصيرة) حتى تبدأ القرويات بالوصول إليها لتأخذ كل قروية بقرتها أو بقراتها إلى المنزل حيث تحلبها ثم تعيدها إلى (الصيرة) بين أترابها من البقر، حيث يبيت الجميع حتى إطلالة الفجر. ومع الفجر يعاود الكل الرحلة إلى المروج من جديد يتقدمهم ويسوقهم الرعاة بعصيهم الطويلة ذات الشعب!

ولعل من أطرف طرائف القرية أن انطلاق القطيع وإياب القطيع هما ما يحدد به الزمن في القرية، وقطيع البقر يطلقون عليه اسم (العجّال) (بتشديد الجيم). لذلك يقولون مثلاً: وصل فلان تحويلة (العجال) وسافر فلان سرحة (العجال)! ومن العجيب أن (السرحة) (والتحويلة) لا يتبدل زمانها ولا يتقدم ولا يتأخر، بالرغم من فقدان الساعات في أيدي الرعاة لذلك كانت من أصح ما يحدد به الزمن!

ولتحديد الزمن في القرية طرفة أخرى: إنهم يحددونه (بمعالاة المجدرة) وذلك أن (المجدرة) المؤلفة من العدس والبرغل والزيت والبصل هي الوقعة الأصيلة في القرية لأن ما تؤلف منه هو من نتاج القرية نفسها ومما يحصل عليه كل بيت، فهي أرخص طعام وأكثر توفراً! وهل يطلب الفلاح الفقير في طعامه إلاّ الرخص والتوفر؟!

ولا بد في معظم البيوت من أن (يعلّي) قدر المجدرة على الموقد في المساء لتكون المجدرة حاضرة على العشاء، وبالتكرار صار ميعاد (معالاتها) محدوداً معروفاً لا يحتاج تعيينه إلى الساعة، بل صار هو الساعة التي تعين الزمن! لذلك يقال مثلاً: وصل فلان معالاة المجدرة!

وتحديد الزمن بسرحة العجال وتحويلة العجال ومعالاة المجدرة دليل على ندرة الساعات وافتقادها إلاّ في الأقل الأقل من البيوت، أو بالأحرى دليل على الفقر والفاقة!

و«لصيرة العجال» في القرية شأن آخر، فبعد أن يمضي الليل في الظلام وتمضي ساعاته الأولى، يكون البقر قد أفرغ ما في أحشائه من بقايا الحشيش الذي تغذى به طيلة النهار. وهنا يقبل على (الصيرة) بعض النسوة لجمع الأرواث ثم لتيبيسها لتكون وقوداً للطبخ أو الاصطلاء. ويحاول النسوة جهدهن أن لا يثرن البقر لئلا يغضب الرعاة النائمون على ما مهدوه في جدران الصيرة... ولكن البقر كثيراً ما يثور من حركات النسوة فيقوم ويجول ويقعد، فيستيقظ الرعاة ويدور التلاسن بين الرعاة والنسوة وتقوم المشاجرة ويعلو الصياح!

هذا الذي ذكرته عن «العجال» إنما يكون كذلك خلال الصيف وربما بعض الخريف. أما حين يبدأ الجو بالاكفهرار وتبدأ نذر المطر، فلا مكان «للعجال» في الصيرة، ولا سير له مجتمعاً في أزقة القرية. إذ إن (الصيرة) دائماً مكشوفة، كما أن مراقد الرعاة فيها مكسوة بالأغصان اليابسة وحدها. لذلك فإن مكان تجمع (العجال) في الشتاء هو في أعلى المقبرة الشرقية قرب زيتونة الفرسي العادية العمر، حيث يكر الرعاة بالوقوف في العراء منتظرين إقبال الناس بأبقارهم فيسوق كل إنسان أو إنسانة بقرته إلى موقف الرعاة حيث تتجمع الأبقار كلها، ثم يسوقها الرعاة إلى المراعي. وفي المساء يعودون بها حتى مداخل البلدة وهناك يتخلون عنها فتنطلق كل بقرة إلى بيت صاحبها وهذا كله في أناثي البقر. أما الذكران فمأواها البيت صيفاً شتاء لأنها في الشتاء تعد للحراثة عليها فتعلف ليلاً بالكرسنة والباقية فضلاً عن التبن، ثم تساق في الصباح إلى الحقل للحراثة. وفي الصيف تعد (لتدرس) عليها أكوام الزرع اليابس.

والمكان الذي تبيت فيه الأبقار في البيوت شتاء هو الغرف الواسعة نفسها التي يبيت فيها أهل البيت، ويتميز مكان أهل البيت بأنه يرتفع قليلاً عن مستوى الأرض، ويترك المنخفض للأبقار وغيرها من الدواب. وهكذا يتعايش الإنسان والحيوان، أو بالأحرى الفلاح والحيوان في القرى في غرفة واحدة وبيت واحد.

ويعلل الفلاحون أنفسهم بأن هذه المشاركة من بواعث الدفء من برد الشتاء في الغرفة الواسعة التي تضم العائلة كلها مع حيواناتها! ويا له من دفء بائس تبعثه أنفاس الأبقار!

المعزى والغنم

وفي المساء أيضاً تعود قطعان الماعز والغنم مع رعاتها، ولكن عودتها لا تشبه عودة قطيع البقر. فبقر القرية كله يجتمع في (عجّال) واحد ويذهب كله معاً ويعود كله معاً.

أما الماعز والغنم فقطعان متعددة يكون كل قطيع مملوكاً لمالك واحد يشاركه الراعي في ملكيته. والذين يملكون عدداً محدوداً يبدأ من واحدة فأكثر يضمون ما يملكون إلى القطيع الكبير. ويسمون أصحاب

(العرّة) بتشديد الراء تمييزاً لهم عن أصحاب (الشلعة). إذ كما أطلق القرويون على قطيع البقر اسم (العجال) أطلقوا على قطيع الماعز أو الغنم اسم (الشلعة). وإذا كانت (صيرة العجال) ملك القرية كلها، فإن لكل صاحب شلعة (صيرة لشلعته) مملوكة منه.

وإذا كانت عودة (العجال) عودة هادئة لا تثير إلاّ وقع الأظلاف على الأرض، فإن عودة (شلعات) المعزى والغنم عودة شعرية عاطفية!

فمنذ تقبل (الشلعة) على القرية وتجد الأمهات ريح السخال يتعالى ثغاؤها جياشاً بأروع صور الأمومة!

فما من عنزة أو غنمة لها أولاد تنتظرها إلاّ وترسل ذاك الصوت العاطفي الشعري الذي لا تدري أهو نداء أو هتاف أو إعلام، أو مزيج من هذا كله! فتشتبك الأصوات كلها متعالية من ها هنا وها هنا فتشكل مجتمعة مظهراً من أجلى مظاهر الشوق والحنين والحدب والعطف، تعبر فيه هذه العجماوات أصدق تعبير وتبين فيه أوضح إبانة!

فإذا دنا القطيع من مقره وأصبح على قيد خطوات من (الصيرة) وسمعت السخال ثغاء الأمهات ردت عليها بثغاء أشجى ونداء أرق!

ألا لله تلك الأماسي الشاعرية العاطفية التي لم يبق منها اليوم إلاّ بقايا!

الصيف في القرية

كان لحياة الصيف في القرية الذي تحدثت عنه فيما سبق جانب آخر لا يخصها وحدها، بل يعم الجبل كله. فكروم التين في شقرا كروم محدودة ليست لأكثر من سد حاجة الناس بالتين كفاكهة صيفية بحتة. وهذا لا يمنع أن الكثيرين كانوا يعدون التين لفصل الشتاء بعد تيبيسه في الصيف ولكن لا تين شقرا ولا تين غيرها من القرى البعيدة عن الساحل كان يعتبر من التين الجيد القابل للادخار للشتاء. وإنما كان التين الجيد هو تين القرى الساحلية. ومنذ أن تبدو طلائع الصيف ويصبح موسم التين قريب الحلول تتهيّأ صبايا القرية للذهاب إلى (الساحل) حيث يمكثن هناك طيلة موسم التين. تذهب الصبايا كل إلى القرية الساحلية التي اختارتها حيث يعملن هناك في كروم التين قطفاً ونشراً وتيبيساً. لذلك تتحول كروم التين في الساحل إلى مجامع قروية جياشة حيث لا يخلو بيت من أن يملك شيئاً من شجر التين أو يعمل في شجر التين، وتنصب الخيام في الكروم وتنتقل إليها أسر بكاملها من بيوت القرية، ينضاف إليها الفتيات العاملات القادمات من القرى الجبلية. فتدب في تلك الكروم حياة زاهية نضيرة متألقة، وتشيع في تلك السهوب روح من الانشراح والمرح والنشاط.

وفي ظلال التين تنشد أحلى أغاني الغرام، وفي ضوء القمر تتفتح أعذب أماني القلوب فتموج الدنيا كلها بالبهجة والحبور.

ولما تأخذ أشجار التين بالإقفار من الثمار، ويأخذ الصيف بالإقلاع من تلك الديار، يأخذ النزلاء بالتهيؤ للرحيل. ثم تقفر الأشجار وينأى الصيف، وتمضي الفتيات عائدات إلى (الجبل) وفي جيوبهن ما ادخرن من مال، وعلى دوابهن أو على رؤوسهن ما جمعن من تين يابس يدخر لأيام الشتاء.

أما اليوم فقد انقضى صيف التين. واستؤصلت أشجاره في الساحل وعفى الزمن على ذلك اللون من الحياة العاملية، لأن التين اليابس بوسائل تحضيره البدائية لم يعد مجدياً. وصار لبنان كله يستورد التين اليابس من كل مكان، لأن التين في كل مكان استحدثت لصنعه الوسائل الحديثة وأصبح صناعة من الصناعات!

الماء

وكان من أوجع ما تعانيه القرية العاملية خلال الصيف هو أمر الماء. فالينابيع في الجبل قليلة جداً. وحين توجد في قرية من القرى ـ على قلة ما توجد ـ فإنما توجد بماء قليل لا يكاد يفي بحاجة القرية. وكان الناس يعالجون هذا بإنشاء العيون المصطنعة والبرك المفتعلة، فهم يختارون أماكن معينة في ظاهر القرية يحفرون فيها الأرض بشكل دائري لتكون الحفرة مجمعاً لماء المطر يسمى (العين). ولما كان في كل قرية أكثر من عين واحدة لذلك كان لا بد من إطلاق اسم معين على كل عين.

ولا يستفاد من ماء هذه العيون إلاّ خلال الشتاء، وربما إلى أوائل الربيع، حيث تفد إليها صبايا القرية وقد حملن الجرار على رؤوسهن فيردن العين ناقلات منها الماء بالجرار. ولا بد في كل عين من درج حجري تهبط الصبايا درجاته كلما هبط الماء. وهذه العيون عيون قديمة العهد لا يعرفها الناس إلاّ هكذا. وربما عنَّ لأحدهم أحياناً أن ينشيء عيناً جديدة يطلق عليها اسمه وهذا قليل الحدوث.

ثم هناك في كل قرية مجمع كبير للماء يطلق عليه اسم (البركة) تتدفق إليه سيول الشتاء فتملأه ليكون مورداً لمواشي القرية وأبقارها وخيولها وحميرها، ولري مزارع الدخان. ثم هو مكان غسل الأواني، ومكان غسل الثياب.

وإذا كان ماء العيون سائغ المنظر لأنه ينقل جديداً، فإن ماء البرك ماء تعاف منظره العيون وهو مملوء بما يتولد فيه لقذارته من أنواع حيّة تعيش فيه طوال العام.

وإذا كان ماء العيون يسد بعض الحاجة خلال الشتاء، فقد كان لا بد من سبيل لسد الحاجة كلها خلال بقية فصول السنة. لذلك عمدت معظم البيوت إلى إنشاء آبار فيها. ففي كل بيت بئر تتجمع فيها مياه الأمطار خلال الشتاء لتكون مشرباً لأهل ذاك البيت خلال السنة.

وهكذا تظل الأمور سائرة والناس راضية. ولكن المحنة الكبرى حين يتأخر هطول المطر وتأخذ مياه الآبار بالنفاد، ثم تنفد! فعند ذلك يفتش الناس عن الينابيع في القرى البعيدة فيقصدونها بدوابهم لينقلوا منها ما يسد بعض حاجاتهم!

وحين تبدأ مياه أقرب الينابيع البعيدة بالتضاؤل، لكثرة ما ينقل منها، يقيم أهل القرية النواطير لمنع الغرباء من ارتياد العين. وعند ذلك يفتش العطاشى عن ينابيع أكثر بعداً!

ففي شقرا مثلاً كان الأهلون يبدأون بنقل الماء من (عيون الخان) الواقعة في سهل الخان تحت تبنين إلى شرقها والمملوكة لأهل تبنين. ثم يتقدمون إلى عين المزراب في غرب تبنين، ثم ينتشرون بعد ذلك في كل مكان بحثاً عن الماء!

العيون متنزهات القرية

عيون القرية المجموعة من ماء المطر هي في أيام الصحو متنزهات القرية، فما هو أن ينبت العشب على حوافيها المدورة ويمتد حول تلك الحوافي على مساحات غير واسعة، وما هو أن تخضر تلك الجوانب بما نبت عليها من العشب، ثم ما هو أن ينقطع المطر ويطول انقطاعه أياماً ينشف فيها العشب وتجف الأرض حتى تصبح حوافي تلك العيون مقصد رواد الاستجمام ومنطلق هواة الاستمتاع بالهدوء والسكون.

وأكثر ما تكون تلك العيون في مواقع طبيعية مشرفة على ما انحدر تحتها من سفوح، أو ما انبسط أمامها من حقول، مما يزيد من جاذبيتها للمتنزهين.

وعيون شقرا المشهورة هي ثلاثة: (عين الحمرا، وعين الفوقا، وعين التحتا).

ووصفت الأولى بالحمرا لأنها تقع في أرض ترابها أحمر. أما الثانية والثالثة: فإن الأولى وصفت بالفوقا لأنها أعلى من الثانية التي هي أسفل منها، والتي يوصلها بها خط مستقيم يمر عبر الكروم والحقول يمتد من الفوقا إلى التحتا.

ويختلف رواد هذه العيون والمتنزهون فيها: أما الوقورون فأكثر ما يقصدون عين الفوقا لأنها أبعد عن البلد ولا تقصد من الواردات إلاّ بعد أن تنضب أو تكاد عين التحتا فيبقي أهل الوقار فيها على وقارهم، فلا تخدش هذا الوقار رؤية أسراب الصبايا متهاديات على طريق العين ثم واصلات إليها بجرارهن الجميلة المنبطحة على رؤوسهن فارغة في الورود، والمستقيمة المتعالية مملوءة على تلك الرؤوس في الصدور. ومن لا يبالون بالوقار، أو من ليس شأنهم الوقار، يقصدون أكثر ما يقصدون عين التحتا.

وقد يتناول القادمون طعام الغداء إذا ذهبوا ظهراً أو قبل الظهر. وقد يتناولون الشاي إذا ذهبوا عصراً أو أصيلاً، وقد لا يتناولون لا هذا ولا ذاك، بل يقتصرون على التحدث والتنادر. وفي مجلس الوقار لا بد من الشاي، ولا بد من منشد للشعر العربي الأصيل يرتله على الطريقة العاملية العراقية الأصيلة ترتيلاً جميلاً يكسب الشعر تأثيراً في النفوس، ويثير فيها الاستمتاع بأطايب القول.

وكان أعلى المنشدين صوتاً وأنداهم ترتيلاً وأعمرهم حنجرة، في عهدنا، هو السيد محمد حسين خلف، الذي كان إذا انطلق في إنشاده الشعر يدوي صوته الدوي المعجب المثير.

وكنا في تلك السن نتنازع العينين: الفوقا والتحتا فإذا صحبنا أهل الوقار كنا على الفوقا وإذا انفردنا كنا على التحتا.

على أن لعين الحمرا شأناً آخر، فهي أبعد العيون كلها عن القرية، لذلك كان قلما يقصدها المتنزهون، إذا كانوا كلهم من شقرا. ولكنها مكان مناسب لالتقاء متنزهين من أكثر من قرية تتوسط عين الحمرا المسافة بينها جميعاً، فيتواعدون على الالتقاء عليها. وهي الأخرى ملتقى أهل الوقار.

ومن طرائف لقاءات هذه العين أنها كانت يوماً مقصداً للسيد محمد محمود الأمين العالم الزاهد مع رفقة له ذبحوا عليها ديكاً وكان غيرهم من أصحابه قد قصدوا متنزهاً آخر هو بركة المرج. وكانوا قد

ذبحوا هناك لطعامهم عنزاً، فبلغهم ما جرى على عين الحمرا فأرسل شاعرهم السيد هاشم عباس إلى السيد محمد أبياتاً منها:

أم أين من ذا المرج عين أصبحت — «حمراء» ذات قذى لها بجفون
فكأنما القوم الأولى حجّوا لها — لم يأنفوا من موضع التعفين
وعهدتهم شم الأنوف وما أبوا — نتناً أتى من مائها المحقون
فاعجب لهم حلوا بسفح مضيقها — يتقاسمون الديك بالسكين
ما كان ديككم كعنز محمد — يكفي مئين تتابعت بمئين

وعلى ذكر السيد محمد محمود الأمين هذا أقول: إنه كان وجهاً أصيلاً من وجوه هذا الجبل يجمع إلى الزهد حب الاستمتاع بجمال الطبيعة. وقد حمله ذلك على أن خص أرضاً له تناوح عين الفوقا فسماها المنتزه وحفر فيها عيناً، فكانت ملتقى النخبة في الآصال الجميلة، وعلى رأسهم هو بألمعيته وطيب مجلسه.

وأحسب أن الذي دعاه إلى إيجاد العين هو الرغبة في البعد عن رؤية الواردات إلى العين بجرارهن، مع حب الاستمتاع بالطبيعة.

وبالفعل لم تكن عين المنتزه مقصداً للواردات، بل كن يكتفين بالوصول إلى عين الفوقا غير البعيدة عن عين المنتزه.

وفي يوم من أيام الربيع أرسل السيد محمد إلى والدي أبياتاً يقول فيها:

ما ترى الأرض أينعت بالأقاحي — والأزاهير في جميع النواحي
وبها العندليب يشدو بلحن — مطرب للنفوس والأرواح
فقد العزم واقتعده ذلولاً — ـ يا زعيم الكرام ـ سلس الجماح
وتعجل فإننا في انتظار — قبل تشويشها بلفح الرياح
ولك الاختيار في أي أرض — أنت تهواه يا حليف السماح

وصحيح أنه جعل له الاختيار في المكان، ولكن المكان كان معيناً. أما عين التحتا فهي خارجة من هذا الاختيار حتماً، وأما عين الحمرا فهي بعيدة لا بد في الوصول إليها، من هبوط عقبة ثم صعود هذه العقبة في الرجوع.

وعين الفوقا وعين المنتزه متجاورتان، ولكن الثانية أخلى، إذن فهي المعنية، لذلك أجابه والدي بأبيات قال فيها:

إنني للدعاء منك ملبّ — وإلى ما طلبته ذو ارتياح
وقد اخترت أرض «منتزه» — النفس محلاً لنزهة وانشراح

الشتاء في القرية

يقبل الشتاء على القرية حاملاً الري والخصب وممهداً للرزق والعيش، وما من شيء في القرية يعدل ذاك المطر المتساقط من السماء نعمة وراء نعمة.

فالإنسان يترقبه ليطمئن أول ما يطمئن على إرواء الأوام، ثم لينبت له الزرع ويحفظ الضرع لذلك عبروا عن المطر بالخير، فإذا دعوا الله بأن يبعث الخير فإنما يعنون بالخير المطر فإذا تأخر الخير عن موعده عمت الكآبة الوجوه وملأ الهم النفوس، والتجأ الناس إلى الله يسألونه الرحمة بهم والإشفاق عليهم.

والفلاحون يبدأون الزراعة أول ما يبدأون قبل إقبال المطر أملاً بأن يأتي بعد ذلك هاطلاً بأمواهه الريا. ويسمون الزراعة قبل المطر: الزراعة على (عفير) وهذه الزراعة المبكرة التي هي زراعة القمح، هي أكثر الزراعة تأثراً بتأخر المطر، وبتقدمه معاً.

فإذا جاء المطر مبكراً كانت مواسم (العفير) أكثر المواسم إقبالاً وأعظمها إنتاجاً. وإذا تأخر المطر كان نصيبها الإدبار، وأحياناً الاندثار.

ومن هنا كانت نوعاً من المغامرة، ولكنها مغامرة لا بد منها ولا غنى عنها. وهي نوع من التسليم للقضاء والقدر الذي يفعل ما يشاء. وتأخر المطر فيها نوعان: إما أن يتساقط مبكراً ولكن بكميات غير كافية ثم ينقطع هطوله أمداً طويلاً فيوقع الفلاح بذلك في الكارثة. لأن المطر القليل المتساقط أول الأمر يكون كافياً لإنبات حبات القمح، بحيث تطل من تحت التراب خضراء زاهية، ثم لا تجد ما ترتوي به فتموت، فيضطر الفلاح لتجديد الزراعة بعد المطر وبعد خسران ماله وأتعابه.

والنوع الثاني أخف ضرراً وأقل خطراً، وذلك بأن تخضر الأرض بزروعها، ثم يتأخر هطول المطر تأخراً لا تكون معه الزروع ماتت ولكن ضعفت، فإذا جاء المطر قبل الموت عادت تستأنف الحياة ولكن ضعيفة كليلة، وكان نتاجها بالتالي ضعيفاً ممحلاً.

أما النعمة الكبرى، فهي أن يهطل المطر مبكراً وابلاً ثجاجاً متتابعاً لأكثر من يوم وليلة، فيحصل بذلك ما يدعونه (الريَّة) فيقولون: «أروت الدنيا» ويطمئنون عند ذلك لموسم (العفير). وللرية عند الفلاحين حدود يعرفونها هم، ولا أعلم أنا عن تفاصيلها أكثر من اسمها. ويوم الرية يصبح تاريخاً للسنة، تؤرخ به أحداثها، فيقال: تزوج فلان بعد الرية بشهرين مثلاً، وتوفي فلان بعدها بشهور، إلى غير ذلك من التواريخ المتصلة بشؤون القرية وأهلها.

وكذلك يقولون: مثلاً: تأخرت رية هذه السنة عن ريّة السنة الماضية أو تقدمت عليها.

وعندما يوغل فصل الشتاء في التقدم توغل السماء بالمطر الغزير مما قد يظل متواصلاً أياماً متتابعة وربما أسابيع، تواصلاً لا يضعف ولا يهي، بل يظل على قوته وعنفه مصحوباً بالرياح والرعود والبروق ويسمى عند ذلك العيانة، فيقال: استمرت العيانة كذا يوماً أو كذا أسبوعاً. وكثيراً ما منعت العيانة الناس من الخروج من بيوتهم وحرمتهم من التواصل والتزاور فيقول في ذلك الشاعر ابن شقرا:

منعتنا عن الوصال جوار ... نشرت فرعها على الآفاق
لابسات سود البرود حداداً ... يوم جد المصيف بالانطلاق
مرسلات ودقاً إثر ودق ... من جفون مغرورقات المآقي

أو يقول:

بين جزر من البروق ومد — هدرت في السما شقاشق رعد
وغوادي السحاب وهي ثقال — طوت الأفق بين نص ووخد
ربما يسرع المروع اختشاء — وهو في حالتي عناء وجهد
فارتوى عاطش وأينع روض — وازدهى في ردائه المستجد
قد قعدنا عن الوصال اضطراراً — ربّ بعد يكون عن غير عمد

وأيام (العيانات) أيام مشهودة في القرية، فعندما تتلبد السماء بالغيوم وتنذر بهطول المطر ثم يبدأ يتساقط، يحاذر الناس، أول ما يحاذرون، من تساقط الدلف داخل البيوت لذلك يهرعون جميعاً إلى أسطحة المنازل حيث يعالجونها (بالحديلة)، ذلك أن الأسطحة هي من تراب، وهذا التراب يتشقق بالجفاف فإذا هطل المطر تخلل الماء الشقوق، وبدأت نقاط منه تهبط إلى داخل الغرف. والحديلة تكون بالمحدلة، وهي حجر أسطواني الشكل منقور من طرفيه بمقدار ما يدخل فيه طرفا (الماعوص). والماعوص عودان من خشب متصلان برأسهما ومنفرجان بعد ذلك بحيث يشكلان زاوية حادة تنتهي بطرفين معكوفين يوضعان في نقرتي المحدلة فيشدانها من طرفيها بحيث تتماسك في الماعوص فيجرها الرجل أو المرأة أحياناً، أو يدفعها أمامه فتنجر أو تندفع بثقلها على التراب وقد بلله المطر، مما يساعد على سد الثقوب وتفادي الدلف.

وساعات الحديلة ساعات طريفة جداً، إذ يصعد على كل سطح من سطوح القرية إنسان، فتغدو الأسطحة كغابة متحركة من الناس، ثم يتعالى من دوران الحادلين (بالمواعيص) صرير يسمع من الطريق، فلا ترى العينان سوى شخوص تتحرك مسرعة، ولا تسمع الأذنان سوى صرير ورنين. فإذا توالى المطر وعاد الطل وابلاً مغرقاً تراكض الناس هابطين من الأسطحة إلى داخل المنازل.

ولكن هل تغني الحديلة فتمنع تساقط الدلف؟ إنها في الكثير من الأحيان لا تغني كل الغناء، فيكون لا بد من تساقط الدلف، ولكن بنسب مختلفة بحسب العناية بالأسطحة وقلة العناية بها، وقصة الدلف هي الأخرى قصة طريفة: فعندما تسقط النقطة الأولى يسرع أهل البيت فيضعون تحتها إناء، ثم تتتابع النقط المتساقطة ويتتابع وضع الأواني، وتبعاً لذلك تضيق الرقعة السليمة فيبدأ السكان بالانكماش والتجمع فيما لا يزال سليماً. وقد يعم الدلف فينطوي الناس على أنفسهم في الزوايا. ويصبح لتساقط الدلف على الأواني التي تمتلىء ثم تفرغ ثم تمتلىء، يصبح تساقط الدلف عليها مصدراً لأصوات رتيبة متتابعة متكاثفة كأنها نغم واحد.

ولما كان كل شيء في جبل عامل محركاً لقرائح الشعراء، فقد كان للدلف أثره في الشعر العاملي فمما قال فيه شاعر من شقرا:

الدلف قد أودى بنا وقعه — يا ربّ خلصنا من الدلف
وسقف بيتي لم يزل واكفاً — فهو يباري السحب بالوكف
كأنما تنّور نوح غدا — يفور بالماء من السقف
وكلما قلت كفى ما جرى — منك علينا قال لا يكفي

كـأنمـا الـغـيـث إذا مـا هـمـى يـتـلـو عـلـيـه وقـعـة (الـطـف)
كــأنــه وهــو بــلا صــبــوة صــبّ بـكـى مـن فـرقـة الإلـف
قـد مـلأ الـبـيـت جـمـيـعـاً ولم يـقـنـع بـثـلـث لا ولا نـصـف
مـنـهـمـر تـنـقـر قـطـراتـه فـي الأرض كـالـنـقـر عـلـى الـدف
مـن عـن يـمـيني وشـمـالـي ومـن فـوقـي وقـدامـي ومـن خـلـفـي
وكـلـمـا الـسـقـف بـكـى أصـبـحـت تـرقـص بـين الـلـهـو والـقـصـف
تحـسـبـهـا أصـوات مـن سـبـحـوا فـي عـدد يـربـو عـلـى الألـف
وكـلـمـا قـلـت انـتـهـى وكـفـهـا وانـقـشـعـت زادت عـلـى الـضـعـف
لـسـت وإن أطـنـبـت فـي وصـفـهـا أبـلـغ مـنـهـا مـنـتـهـى الـوصـف
مـا زلـت ممـا نـابـنـي حـائـراً أصـفـق بـالـكـف عـلـى الـكـف
وبـت لـيـلـي قـلـقـاً سـاهـراً لا أغـمـض الـعـين ولا أغـفـي

ولقد انتهى الدلف وقصص الدلف ومشاكل الدلف، وزالت الأسطحة الترابية، وحلّت محلها أسطحة الإسمنت، وانقضى عهد المحادل.

ليالي الشتاء

ليالي (العيانة) في الشتاء تحبس الناس في بيوتهم ملتصقين (بالدواخين)، والداخون هو موقد النار الذي يصطلي به الناس في القر، دافعين البرد عن أنفسهم بما يؤججون فيه من نيران، وما يوقدون من حطب.

والداخون يقام دائماً في زاوية الغرفة، حيث يمتد كعلبة مثلثة الجوانب، تبدأ من علو حول المتر عن الأرض مرتفعة حتى سقف الغرفة حيث يكون السقف مثقوباً بمقدار سعة الداخون فيندفع الدخان من الثقب الكبير متعالياً في الجو.

وما دام الداخون محصوراً في الزاوية فحرارته لا تمتد إلى كل جوانب الغرفة، بل لا تكاد تشمل إلاّ جوانب الزاوية. وكل ما تفعله في سعة الغرفة أن تمتص القليل القليل من البرودة المتعاظمة، لذلك تكون السهرة هي في الجلوس حول الداخون على شكل قوس ينحني حتى يلاصق طرفاه جانبي الزاوية وبذلك يصطلي الجميع بالتقرب من النار المضطرمة.

أما من يفوز بالجلوس على أحد جانبي الزاوية تماماً (في القرنة) فهو الفائز الأكبر في تلك السهرات الشتائية الباردة، إذ يكون حظّه عدا الاصطلاء هو أن يجلس مستنداً إلى الجدار، ولا يفوز بهذا المغنم إلاّ اثنان يشكلان نهاية القوس البشري.

فإذا كانت السهرة عائلية بحتة، فالجنبان لرب البيت ولربته وحدهما، وإذا غابا عن السهرة أو غاب أحدهما، إما لوجوده في غرفة أخرى أو في منزل مجاور، تسابق الآخرون على الفوز بالقرنة، ومن سبق لا يغادرها إلاّ أن يبلغ اضطراره حداً لا يقاوم.

وحول الداخون تقص الأقاصيص على الأطفال أو تتنوع الأحاديث، وتتبادل الآراء.

وإذا كان رواد الغرفة أكثر من أن يتسع لهم قوس الداخون يكون لا بد من وضع (منقل) وسط الغرفة تنتقل إليه بعض (الأحطاب) التي تكون بدأت تشتعل في الداخون وهذا النقل يلازمه تعالي الدخان في الغرفة تعالياً طاغياً، وعندما تبدأ الدموع تتساقط من العيون بفعل الدخان يردد الجالسون المثل القروي العاملي «دخان يعمي ولا برد يضني».

على أنه قد يستعمل الفحم أحياناً وسط الغرفة، ويكون هذا في البيوت الميسورة.

أما وقود الداخون فهو نوعان: إما خشب الزيتون اليابس الذي لم يعد يصلح للحياة، فيقطع ويدخر للشتاء، وهذا أفضل أنواع الحطب؛ وإما الحطب المستورد من بقايا الأحراش. وكانت هذه كلها خارج شقرا. إذ إن أحراش شقرا قد أبيدت ولم ندرك نحن منها شيئاً، وكان الشيوخ يتحدثون عن بقاياها التي أدركوها.

وأقرب مكان كان يقصد للحطب من شقرا هو حرش حولا الممتد في وادي السلوقي شمالاً وجنوباً، أو في وادي الاصطبل شرقاً. وحرش وادي الاصطبل هو الحرش الذي مرّ فيه ابن جبير ووصفه وصفاً جميلاً. ونقل الحطب من الأحراش يكون على رؤوس صبايا القرية، حيث ينطلقن في مطالع الصيف، سرباً وراء سرب، إلى الوادي الجميل حيث يفترض فيهن أن يجمعن ما يبس وتساقط أو كاد من الأغصان. ومع أن هذا محظور عليهن لأنهن من قرية غير قرية الحرش فقد يتساهل به نواطير الأحراش. ولكنهن لا يتقيدن بذلك إذ كثيراً ما امتدت أيديهن إلى الأغصان الغضة اليانعة فيأخذن يقطعنها، مغتنمات غياب الناطور أو ابتعاده.

وكم من مشاكل تقع بينهن وبين النواطير، وكم من متاعب جرها التحطيب من (الوعر). والوعر هو الاسم الذي يطلق في القرى على الحرش، فإذا قيل ذهبنا إلى الوعر فالمقصود هو الحرش.

فمن يمر في مطالع النهار في وادي السلوقي سائراً بين تلك القلل الشجيرة والتلال النضيرة، ومن يجتاز في متوع الضحى بهاتيك المرابع، تملأ مسامعه أغاريد الصبايا وقد عكفن على الحطب جمعاً أو قطفاً، حتى إذا اجتمع لكل واحدة ما يقوى رأسها على حمله، كتلت ما جمعته كتلة أسطوانية الشكل مديدة الحجم، وربطتها بحبال (البابير) ثم تناولتها بكلتا يديها ورفعتها إلى رأسها ومشت تدق الأرض بقدميها في خطوات وئيدة تتمثل فيها أشرف خطوات يخطوها إنسان.

وهل أشرف من خطوات هذه الفتيات اللواتي يمشين إلى العمل منذ الصباح برؤوس مرفوعة ووجوه متعالية، يبسطن الأنامل منقبات عن الأعواد ويطوين السواعد حاملات للأحطاب.

يمشين من الوادي وقد أخذ الصمت يرين عليهن بعد الغناء الطويل، حتى إذا بلغن عقبة (السكيكة) وانطلقن فيها مصعدات، أخذ العرق يتصبب من تلك الوجوه الجميلة بما ناءت به الرؤوس من حمل، وما أعيت به الأقدام من تصعيد. يمشين صامتات قارات، ولكن في صمتهن أبلغ بيان.

وفي القرى المحرومة من الأحراش، أو البعيدة عنها، قد يستعاض عن الحطب بالبلاّن، ولكن البلاّن لا يستعمل للاصطلاء لسرعة هبوبه فسرعة هموده، ولكنه يستعمل لنار المطابخ. وكما أن الصبايا ينقلن

الحطب من الوديان ذات الأشجار، كذلك ينقلن البلاّن على رؤوسهن من الوديان ذات البلاّن. والتقى مرة الشاعر أمين عبدالله بفتاة تنقل البلاّن على رأسها من وادٍ يسمى (وادي عراجا) في بلدة الخيام فأنشد:

تـــه دلالاً بـــلاّن وادي عـــراجـــا حـيـث أصـبـحـت لـلـمـلـيـحـة تـاجـا

لقد انقضى عهد الداخون فلا تسابق إلى القرنة ولا تحلق حول النار. وانتهى زمن الحطب فلا هبوط إلى الوادي ولا صعود في العقبة.

لقد حلّ (المازوت) مشكلة البرد وحلت مدافئه محل الدواخين.

دروس النحو

كان والدي حريصاً على إتقاننا اللغة العربية وقواعدها، كما كان حريصاً على أن نتابع دراسة الفقه مع متابعة الدراسة الابتدائية في الوقت نفسه. فكنت ونحن في دمشق ألتقي في الصباح الباكر قبل ابتداء الدروس في المدرسة العلوية ـ ألتقي بنفر من التلاميذ الدمشقيين عند والدي حيث نتلقى عليه دروس النحو في الكتب القديمة. فبعد حفظنا للأجرومية ثم دراستنا كتاب «القطر»، صرنا ونحن في الصف الابتدائي الأخير نتلقى الدروس في كتاب «الألفية» شرح ابن الناظم. فنحفظ النص الشعري ثم ندرس الشرح. وننهي الدرس قبل أن يحين موعد (دوام) المدرسة.

وكان والدي يحرص أثناء ذلك على تلقيننا بعض القصائد العربية القديمة التي يختارها بنفسه لنستظهرها، ثم نتلوها أمامه ليتأكد من أننا استظهرناها، فمما استظهرته في تلك الفترة «لامية العرب» وأبيات قتيلة بنت الحارث التي ترثي بها أخاها النضر بن الحارث بن كلدة الذي أسر يوم بدر ثم قتل.

وكنا عند انتقالنا في الصيف إلى شقرا، يظل والدي حريصاً على أن نتابع الدروس خلال إقامتنا في شقرا. وفي الانتقال الأخير الذي طال وطال بسبب ظروف الثورة السورية، ظللنا ندرس «الألفية» ونحفظ شعرها. وكنت أشترك في هذه الدروس أنا وأخي جعفر. وكان جعفر متبرماً بهذه الدورس، يقبل عليها لا عن رضا ورغبة، ويود لو تخلص منها.

وكانت لنا في شقرا خلال الربيع أيام نقضيها في التنزه في البرية جماعة يلتقي فيها كل أتراب الأسرة ممن هم في مثل سنّنا أو أكبر قليلاً أو أصغر قليلاً. فنقصد مجتمعين أحد الأماكن البعيدة عن القرية حيث نقضي النهار بكامله في تسلية ولعب. وكثيراً ما كنا نتواعد مع رفاقنا من أبناء قرية (حولا) حيث يوافوننا إلى (دوبيه) الواقعة بين شقرا وحولا. فنتخذ من القلعة وجوارها متنزهاً لنا طول النهار ويصنع الغذاء جماعياً في المتنزه وهو على الغالب (مجدرة) يتولى طبخها بعض العارفين من الرفقة.

وفي يوم التقينا في (دوبيه) وأمضينا النهار وتغدينا المجدرة، وكان يوماً أنسنا فيه كل الأنس. ولما عدنا استوحى جعفر من ذلك اليوم قصيدة طريفة لا أزال أذكر منها:

يـــا مـــن يـــقـــضـــي عـــمـــره ويـــضـــيـــع مـــنـــه أكـــثـــره
بـــين الـــدفـــاتـــر والمحـــا بـــر قـــلَّ أن لا تـــنـــظـــره
حـــب الـــقـــراءة دأبـــه أقـــصـــى مـــنـــاه (الـــشـــحـــبـــره)

ماذا يفيد تعلم — العلم عندي مسخره
لا سيما النحو الذي — ما فيه إلاّ النحوره
أشجى فؤادي درسه — وكذاك قلبي مرمره
لو جئت إحدى السيدات — وقد لزمت القنعره
أدمتك من قبقابها — وعلتك منها (الكندره)
ربح الذي دوماً غدا — في غير أنس لم تره
قل للذي لا يرعوي — لنصيحتي ما أحمره
لو كنت تبصرنا وقد — سرنا بقصد (الكزدره)
نبغي مكاناً لائقاً — بجنابنا كي نعبره
كان المقام بقلعة — مهجورة ومكركره
فيها أقمنا يومنا — من أنسه ما أقصره
إن كنت تسأل ما الطعا — م أقول كان (مجدره)
لكنها ممتازة — محمرة (ومذرذره)
وكثيرة أيضاً وقد — ملأت فناء الطنجره
والكل منّا جائع — والحال منه مكدره
أسناننا مسنونة — وكذا الكروش مهيره
حتى إذا نضج الطبيـ — ـخ علت لذاك (الهوبره)
وكذا النفوس استبشرت — من بعد (عوف التزكره)
ما كنت تسمع حين نأ — كل غير صوت الشخوره
حتى حسبنا أنه — بلغ الطعام الحنجره
ثم انكفأنا راجعين — كما أتينا القهقره
هذا حديث ذهابنا — أغناك عن أن تحضره
إن كنت فيه مقصراً — فإلى الرفاق المعذره

وبلغت القصيدة والده فضحك لها طويلاً وأعلن إعفاء جعفر من حضور درس الألفية. ولقد أفادتني هذه الدروس في قابل أيامي، سواء منها دروس النحو أو دروس الفقه. على أنني لم أكن أقبل عليها إقبالاً كاملاً ولم أكن أعطيها ما يجب أن تعطى من عناية واهتمام. ثم أدركت بعد أن وعيت تمام الوعي كم كنت مخطئاً بقلة عكوفي على تلك الدروس وعدم الانكباب عليها. فإن ما ظل عالقاً في ذهني منها أراني كم كان يمكن أن تكون فائدة الكثير والأكثر.

الإعلان في القرية

كان إذا احتيج في القرية إلى إبلاغ الأهلين جميعاً أمراً من الأمور التي تتعلق بهم كلهم من شؤونهم

العامة أو الخاصة، استخدمت لذلك المناداة العامة من على سطح مسجد القرية، أو أي مكان عال آخر، ويكون ذلك ليلاً حيث يقف ناطور القرية فيبدأ المناداة قائلاً:

يا أهل البلد أجمعين

أولكم محمد وثانيكم علي

وثالثكم فاطمة بنت النبي

ويكون هذا القول تمهيداً لما يريد أن يقوله ولفتاً للأسماع واجتذاباً للآذان.

ثم يشرع بعد ذلك بإبلاغ ما يراد إبلاغه.

على أن هناك إعلانات خاصة تتعلق بالمعلنين أنفسهم وتجري لمصلحتهم. وهذا يحصل مثلاً بأن يكون اليوم يوماً مطيراً يتعذر معه المكث خارج البيوت. ويكون أحد القصابين قد أعد ذبيحة لبيع لحمها. والعادة في الأيام العادية هي أن يجري ذلك في الساحة التي هي سوق القرية ومجتمعها، حيث يلتقي جميع أصحاب الحاجات بما فيهم المفتشون عن اللحم.

ولكن حين يتعذر الخروج والمكث تحت المطر لا يستطيع القصاب تعليق ذبيحته في الساحة، ولا يدري الناس إذا كان اللحم موجوداً أم لا، ولا من هو القصاب الذي ذبح اليوم. في هذه الحالة، يرسل القصاب ولداً أو ولدين يغتنمون فرصة انقطاع المطر لفترات فيجولون أزقة القرية صارخين:

يا الله على اللحم ... عند السيد إبراهيم عاشور ... (مثلاً).

وعندما يتعالى النداء يرهف الناس آذانهم ليستوعبوا ما يقال. فحين يفهمون يهرعون للتزود باللحوم وأكثر ما يكون النداء على اللحم، وقد يكون لغير اللحم.

طبقات القرية

الطبقية في القرية العاملية لها مفهوم غير المفهوم الذي يمكن أن تدل عليه عند إطلاق كلمة طبقية. فهي طبقية ولكنها ليست ذات امتيازات اجتماعية تتمتع بها طبقة دون طبقة، بل هي طبقية تدل على طبيعة العيش وإمكانية الحياة.

فمعظم القرى مملوكة لمجموع أهلها، وقد تكون فيها ملكيات كبيرة لأسرة من الأسر، ولكنها ملكيات لا تحول دون تملك الآخرين. ومع ذلك يظل فريق دون تملك للأرض. ومن هنا جاء تقسيم الناس في القرية.

فمعظم القرى يقسم سكانها إلى أربعة أقسام: ملاكين، فلاحين، شكرجية، فلتية.

أما الملاكون فهم الذين يملكون الأرض ولا يعملون فيها وإنما يعمل الفلاحون ويكون لكل فريق نصيب من غلة الأرض ويسمى هؤلاء الفلاحون (المرابعين) لأن حصتهم لقاء العمل هي ربع المحصول. والفلاحون هم نوعان: نوع يملك الأرض ويعمل فيها بنفسه، ونوع لا يملك الأرض فهو يعمل في أرض الملاكين. وأما (الشكرجية) فهم الذين لا يملكون الأرض ويعملون في مصالح أخرى ولكنهم يستأجرون الفلاحين وأدواتهم ليزرعوا لهم في أرض الملاكين ما يسمونه (شكارة) يكون من نتاجها أكثر ما

يحتاجونه من قمح وبرغل. وأما (الفلتية) فهم الذين لا يملكون الأرض ولا يعملون مرابعين ولا أجراء ولا يزرعون (شكاير).

ومن هؤلاء يكون العمال الزراعيون في الحرث والحصد، والعمال غير الزراعيين كعمال البناء.

العرس

الزواج في القرية هو على الأعم زواج حب، ويندر أن يكون زواج مصلحة أو زواج صدفة. فالناس يعرفون بعضهم بعضاً وينشأون متلاقين إما على البركة أو على طريق العين أو في الحقل أو في السهرة وما دامت القروية شريكة في العمل تقوم بسهم وافر من الجهد، سواء أيام الزرع بنثرها بذور الفول والذرة في الحقل وراء زوجها العاكف على محراثه، أو أيام الصيف باجتثاثها سيقان العدس وأشباه العدس عند (الحليشة) أو بالتقاطها ما تساقط من سنابل القمح وجمعها (شمائل) عند (الحصيدة). ما دامت القرويات قسيمات العمل في الحقول والبيادر والكروم و(السحاري)، فإن الاختلاط محتوم والتعارف مفروض، وسفور الوجوه قائم.

ومن هنا كان زواج القرية على الأعم زواج حب. وقد يطول وقد يقصر زمن الحب، وقد يلاقي زواج الحب عراقيل يصمد معها الحب حتى يتجاوزها.

وتبدأ الشكليات بإيفاد كبير في القرية للخطبة، فإذا لقي الاستجابة، ذهب من يحدد موعد القران ويسمونه في القرية (العقد). وينطلق فريق من أقارب العريس على بيوت القرية يدعون الناس لحضور القران وهو إما أن يكون عصراً أو ليلاً.

وفي الموعد المحدد يلتقي الرجال في مكان من منزل (العروس). ويمضي فقيه القرية أو عالمها متصدراً المجلس. وإذا كان أهل العريس على شيء من الوجاهة لم يقنعوا بالفقيه أو العالم المحلي وإنما يستدعون المرجع الكبير في البلاد. ولم تكن شقرا تستدعي أحداً لأن المرجع كان فيها دائماً وكان يدعى إلى غيرها من المدن والقرى.

وبعد أن يكتمل الجمع يدعى الفقيه من بين الرجال للذهاب إلى الغرفة الموجودة فيها العروس مع أهلها وأترابها والمدعوات من نساء القرية، ويرافقه أقرباء العروس كأعمامها وأخوالها أو غيرهم، وهناك يجلس وحده مقابل العروس محاطاً بالأقرباء وقوفاً. ثم يبدأ بالطلب إليها أن توكله بإجراء عقدها. ويكون الطلب بصيغة معينة تنتهي عادة بقوله: «فإن كنت راضية فقولي أنت وكيلي». وربما استبدل كلمة: «فقولي أنت وكيلي». بكلمة: «فقولي نعم».

وهنا تبدأ مسرحية طريفة: فبالرغم من أن الفتاة تكون على أحرّ من الجمر في انتظار هذه اللحظات لتصبح قرينة لمن تحب، وبالرغم من أنه لم يعد من كلفة بينها وبين الفتى المنشود، فإنه لا بد من إظهار الدلال والتمنع والتظاهر بالخجل وعدم التسرع. فيظل السؤال بدون جواب ويرين الصمت على الفتاة. فيعاد السؤال من جديد ولكن لا جواب. ويعاد السؤال للمرة الثالثة. وقبل أن يطرح هذه المرة تُنبه الفتاة إلى أن هذه هي آخر مرة، وأن عليها الآن أن تجيب. وبالفعل فإنها تجيب بنعم، سواء كان السؤال

مطروحاً عليها بشكل: «فقولي: أنت وكيلي» أو بشكل: «فقولي: نعم». لأن نعم أكثر اختصاراً وأقل كلفة.

على أن بعض الفتيات ترفض أحياناً أن تجيب عند طرح السؤال عليها لثالث مرة، وتظل مصرّة على الصمت حتى المرة الخامسة.

وعندما تلفظ كلمة نعم يكون على باب المنزل حامل بندقية صيد، فما إن يقال له: «وكّلت» حتى يطلق البندقية في الهواء معلنة لسكان القرية أجمعين أن (التوكيل) قد حصل.

ثم ينتقل الوكيل مع صحبه إلى مجلس الرجال. وهنا إما أن يطلب إلى (العريس) أن يوكّل أحداً عنه، أو أن يتولى هو الإجابة بنفسه، ردّاً على صيغة العقد بقوله: (قبلت).

ومع أن لفظ (زوجتك) هو وحده كافٍ لإتمام الزواج، فإن العاقدين يضيفون على هذه الصيغة صيغاً عديدة بألفاظ مختلفة، ولكنها لا تخرج في الحقيقة عن مفهوم الصيغة الأولى.

ويختم العاقد صيغة الإيجاب والقبول بقوله: «مبارك إن شاء الله. إيذاناً بإنهاء كل شيء. وهنا ينطلق البارود للمرة الثانية.

ويقبّل العريس يد الفقيه العاقد، ثم يدور على الحاضرين فيقبّل أيدي الشيوخ منهم ويصافح غيرهم أو يقبّلهم ويقبّلونه.

ومن طريف ما حدث في مناسبة من هذه المناسبات أن قروياً ينظم الشعر قد أحب فتاة فلم يوفق للزواج بها فكان مما قاله واصفاً حاله هذا البيت:

عشية أصغت للعذول مطيعة وقالت لشيخ السوء «أنت وكيلي»

وعندما يقبل الليل تقام الأفراح مستمرة ثلاث ليال، تعقد في كل ليلة فيها حفلة (الدبكة) صاخبة ضاجّة، تضرب الأقدام بها الأرض على نغمات (المجوز) أو (الشبابة) ضرباً قوياً عنيفاً متمادياً ويشترك في الحفلة الواحدة فتيان القرية وفتياتها معاً ولكن لا مختلطين، بل يشكل الفتيان قوساً في الحلقة والفتيات قوساً آخر يرتبطان معاً بفتاة بأول قوس الفتيات وبفتى بآخر قوس الفتيان هما وحدهما اللذان تتشابك أصابع يديهما معاً في مسيرة الحلقة المتواصلة.

أما بقية الأيدي، فأصابع الفتى تتشابك مع أصابع الفتى وأصابع الفتاة مع أصابع الفتاة.

وأعذب ما في الدبكة حين تنبري صاحبة أعذب صوت بين الفتيات فتغني الأغاني القروية منطلقاً معها صوت المجوز أو صوت الشبابة باللحن نفسه. وتبلغ العذوبة ذروتها حين تتولى ذلك لا فتاة واحدة بل فتاتان ينبعث صوتاهما معاً بغناء واحد.

المطاحن

في تلك الأيام، لم تكن المطاحن الآلية معروفة وكانت المطاحن المدارة بالماء هي التي تتولى طحن القمح. والماء الذي يمكن أن يدير المطاحن لم يكن قريباً من معظم القرى. وكان أقرب ماء إلينا في شقرا هو ماء

وادي الحجير الذي تفور ينابيعه أيام الشتاء دفّاقة غزيرة، وتظل كافية طيلة فصل الربيع بعد أن تكون قد بدأت تغور يوماً بعد يوم[1]. وبعد نضوب الحجير يعد أصحاب القمح بقمحهم من وادي الحجير إلى مطاحن الليطاني التي تظل تدور على مدار السنة. لذلك كان للطحن شيء من الأهمية تقتضي التهيؤ له وإعداد الدواب، وكان الأمر عبارة عن رحلة إلى وادي الحجير يقضي فيها الذاهبون ليلة خارج قريتهم. ويؤلفون موكباً مؤلفاً من عدة حمير،ربما التقى سائقوها على موعد وربما على غير موعد. وكان في الحجير عدة مطاحن تحمل كل مطحنة إسماً معيناً متداولاً على أوسع نطاق في أوساط القرية، إذ ما من بيت إلاّ وله في واحدة من هذه المطاحن المنتشرة في الوادي الجميل نصيب.

وعودة موكب الطحين له في البيت، لا سيما عند صغاره،شيء من البهجة، إذ إن العائدين يحملون معهم إلى البيت نوعاً من الأرغفة لا يصنع إلاّ هناك، يطلق عليه اسم (المشاطيح) واحدها (مشطاح). وهي من الخبز السميك غير المألوف في القرية التي لا تعرف إلاّ الخبز الرقيق (المرقوق) المخبوز على (الصاج). وقد لا تكون المشاطيح أفضل من المرقوق ولكنه طلب التنوع، والرغبة في غير المألوف.

وخبز القرية نوعان: الأعمّ الأغلب هو ما يصنع في البيوت حيث (يرق) العجين ويمدد على الأكف النسائية بحركات سريعة متعاقبة، ثم يطرح على (الكارة)، وهي غلاف مدور على سعة الرغيف، من نسيج، محشو بقطع النسيج. ومن الكارة يطرح على الصاج المحمى بالنيران الموقدة تحته.

وهناك حالات استثنائية يعجن فيها العجين في البيوت، ثم يرسل إلى التنور ممزوجاً به سمسم وكمّون وزيت، مما يجعله متميزاً عن الخبز البسيط. وشرط الخبز في التنور أن يرسل مع العجين كمية من الحطب تكفي لإنضاجه، إذ إن التنور لا يقدم الحطب وفي هذه الحالة تكون الأرغفة شبيهة (بالمشاطيح) أي سميكة غير رقيقة، ولكنها تختلف عن المشاطيح بشيئين اثنين: بالتسمية أولاً، لأن الرغيف هنا يسمى (بعقة) لا مشطاحاً ثم بالشكل إذ إن المشطاح طويل ممتد، وأما البعقة فمدورة غير متسعة.

والتنّور الشهير في شقرا كان تنور (جميلة)، فطالما حملت إليه أوعية العجين من البيت، وطالما عادت نضيجة شهية، وطالما ترقبنا عودها لنتخاطف (البقعات) حارة ثم لنلتهمها دون أن نضيف إليها أي شيء.

والتنور يختلف عن الفرن، في أنه نقرة في الأرض مطلية بالكلس توقد في قعرها النار حتى تحمى من أسفلها إلى أعلاها، فتتناول جميلة أو ابنتها صفية قطع العجين الممدَّد بعض التمديد وتضعها على الكارة ثم تمد يدها إلى جانب من جوانب التنور فتلصق عليها العجين، ويظل ملتصقاً حتى ينضج...

وعدا عن خبز البعقات، فمما يصنع في التنّور (الكعكات) ويتميز عن البعقات بأن العجين ممزوج بالحليب والسكر، وتوضع كل قطعة منه في قالب خاص يكسبها خطوطاً وتخاريم منوعة ولا يصنع الكعك إلاّ في العيد.

البرغل

البرغل في القرية شيء أساسي وجزء من حياة القروي، بل هو عماد قوته اليومي وركيزة غذائه على مدار

السنة. فمنه تصنع (المجدرة) ومنه تصنع (الكبة) على اختلاف أنواعها ابتداء من (الكبّة النية) إلى (الكبّة بالصينية) إلى (كبّة اللبنية) إلى الأقراص المقلية إلى غيرها.

ومنه يصنع الطعام الذي يطلق عليه اسم (البقلة) وهو صنوف. فإذا أطلق اسم البقلة دون أن يضاف إلى اسم آخر عني به طبيخ البرغل مع مجموعة من الأعشاب البرية الخضراء. وهذا لا يكون إلاّ شتاء، وذلك عندما يبدأ تساقط المطر وتبدأ الزروع والأعشاب بالإطلال من تحت التراب. فعند ذلك تخرج فتيات القرية وقد أخذت كل واحدة منهن سلة بيسارها وسكّيناً بيمينها، وينطلقن في البراري يفتشن عما نجم من العشب البري، حيث يخترقن الأرض بسكاكينهن على جذور الأعشاب مقتلعات للأعشاب من جذورها ومالئات بها سلالهن. وليست كل عشبة تصلح لذلك، فبعض الأعشاب لا تؤكل. والفتيات يعرفن ما يؤكل وما لا يؤكل، ويحسّن انتقاء ذلك. وهذا الخروج إلى البرية واقتلاع الأعشاب والعودة بها إلى البيت يعرف باسم (السليق) فيقال: خرجت فلانة إلى (السليق)[٢] وذهبت (تسلّق) بتشديد اللام (والسليق) المجموع ينظف ويقطع ويطبخ مع البرغل مضافاً إليه قطع البصل وزيت الزيتون فيخرج من ذلك طعام (البقلة).

وقد يضاف اسم البقلة إلى صنف آخر مطبوخ مع البرغل، فيقال (بقلة حمص) أو (بقلة فول) إذا كان المطبوخ مع البرغل حمصاً أو فولاً.

وسواء أكان الطعام بقلة أو بقلة فول أو بقلة حمص، فهو أبداً خالٍ من اللحم. وبذلك يكون نتاجاً قروياً محضاً مما أنبتته أرض القرية وعملت في إنباته يد الفلاح. لذلك فهو قليل التكاليف رخيص الثمن.

والبرغل يستعمل أيضاً مطبوخاً وحده أو مضافاً إليه من قطع البصل، وهو بذلك يقوم مقام الأرز، ويكثر في هذه الحال أن يطبخ معه نوع من المرق المؤلف من اللحم وبعض الخضار، كما يصنع حين طبخ الأرز. ويسمى البرغل المطبوخ في هذه الحالة (صايت). وأكثر ما يكون هذا في الولائم. وأدركنا من يطبخون الصايت ثم يجللونه بطبقة من الأرز غير كثيفة فإذا أزيلت بدا البرغل تحتها. ويفعلون هذا تجمّلاً.

وأدركنا من روى لنا أن الأرز لندرته وغلاء ثمنه بالنسبة لثروة الفلاح، كان يعتبر دخوله بيت الفلاحين نتيجة ضرورة مؤذية. ذلك أنه كان يوصف طعاماً للمرضى، وكانت الفلاحة إذا ذكرت الأرز في مجتمع أعقبت ذكره بقولها: «الله لا يدخله بيتكم»...

هكذا نرى أن حياة الفلاح في القرية تدور على البرغل وأنه الطعام اليومي الذي لا مناص منه، على مختلف الأسماء التي تطلق على مطبوخه.

ومن هنا كانت مواسم البرغل في القرية مواسم حافلة.

إن للبرغل في القرية موسمين: الموسم الأول هو موسم (سلقه)، فبعد أن تنتهي البيادر ويجمع القمح وينقل إلى البيوت، يبدأ الاستعداد لإنتاج البرغل. ففي كل قرية من يمتلكون (الخلاقين) جمع (خلقينة) والخلقينة وعاء نحاسي ضخم كروي الشكل عميق القعر كبير المحيط حتى ليكاد يكون حوضاً. وصاحب الخلقينة هو الذي يتولى سلق القمح وإعداده ليكون برغلاً، لقاء أجر معلوم هو حصة من البرغل نفسه. وعملية السلق تبدأ بأن تركز الخلقينة على موقد كبير يتسع لها ثم تثبت عليه وتوقد تحتها

النيران إلى أن ينضج القمح فيفرغ من الخلقينة، وينشر في الشمس إما في مكان يعده صاحب الخلقينة نفسه، أو على أسطحة أصحاب البرغل، ويظل في الشمس إلى أن يجف وييبس، وعند ذلك يرفع إلى البيوت ويجرّد منه اسم القمح، ويصبح اسمه برغلاً، وينتظر فيه الموسم الثاني وهو موسم (الجراشة).

ومن الطريف هجوم العصافير على القمح المنشور على الأسطحة فهي فرصة ثمينة للعصافير أن ترى الأسطحة وقد تلألأ عليها القمح في نور الشمس، فتتنادى من كل مكان للانقضاض على السطح والفوز بالتهام أقصى ما تستطيع التهامه من هذا الغذاء اللذيذ، فتراها وقد أقبلت رفاً بعد رف وحطّت على السطح، مستعدة للغنيمة التي لا تكون دائماً باردة، بل هي على الأغلب حامية، إذ إن أصحاب الأسطحة لا بد لهم من أن يضعوا على السطح ولداً تكون مهمته مطاردة العصافير بما تصل إليه يداه، وهنا تبدأ المعركة، فبينما الولد يطارد العصافير من أمام يكون غيرها منقضاً من وراء أو من اليمين أو من الشمال.

وخلال موسم السلق تكون القرية في حركة دائمة متصلة، فمن ناقلين قمحاً إلى الخلاقين بالأكياس على الدواب، ومن عاملين في الخلاقين ومن ناقلين القمح مسلوقاً من الخلاقين إلى الأسطحة، وهذا يجري بالأوعية النحاسية منقولة على رؤوس الفتيات.

والذي كان يعنينا نحن الأطفال من موسم السلق أننا كنا نحصل فيه على (الإلبة) (بكسر الهمزة وسكون اللام وفتح الباء) والإلبة الاسم الذي يطلق على القمح بعد نضجه بالسلق وقبل أن يجف، فهي الاسم الذي يتوسط القمح والبرغل. وفي هذه الحال يكون القمح ناضجاً طرياً يسهل مضغه ويعذب طعمه، فيستحضر الأطفال الأواني الصغيرة ويذهبون بها إلى قمح أهلهم المسلوق حيث تملأ لهم من الإلبة.

وهنا يكتفي بعضهم بأكل الإلبة منفردة، ولا يكتفي غيرهم بذلك بل يضيفون إليها السكر الناعم فتصبح (الإلبة) محلاّة.

والموسم الثاني للبرغل هو موسم (الجراشة). ولم تكن المطاحن الآلية قد عرفت بعد، ولا يمكن نقل البرغل إلى مطاحن الحجير أو الليطاني، لأن هذه غير معدّة لمثل هذا الأمر، لأن لطحن البرغل طريقة معينة هي غير طريقة طحن القمح، فالثاني يغدو طحيناً في حين أن الأول يظل خشناً وعلى أنواع من الخشونة.

لذلك كان في كل بيت (جاروشة) معدة لطحن البرغل، وهذا (الجرش) لا يجري إفرادياً ولا يقوم به كل بيت لقضاء حاجته الخاصة، لأن مجموع ما (يجرشه) البيت تضيق به جاروشة واحدة لذلك كان لا بد من التعاون في ذلك بين بيوت القرية كلها، فإذا عزم أحد البيوت على جرش برغله بعث يدعو بيوت القرية للمساهمة في عملية الجرش فتقبل صبايا البيوت وقد حملن (الجواريش) على رؤوسهن منقولة إلى بيت الداعي، وحيث إن الجاروشة تحتاج لأكثر من يدين لإدارتها ولا بد من أن تتعاون أربع أيد أو ست أيد، لذلك يقبل من البيت المدعو جميع صباياه ويلتقي الجميع ليلاً في أوسع غرف البيت

حيث تكون قد فرشت الغرفة فراشاً يستطيع تلقي (الجريش) . وهناك تصفّ الجواريش واحدة جنب الأخرى حتى تمتلىء بها الغرفة وتضاء السرج وتجلس الصبايا متحلقات حول الجواريش، ثم تدير أيديهن الجواريش مترنمات بالأغاني القروية، ومنطلقات بالعمل والإنشاد أتم انطلاق.

ولا ينتهي الهزيع الأول من الليل حتى يكن قد أنهين ما أعد للجراشة وقمن بنفض أذيالهن مما علق بها من آثار البرغل المجروش، ثم تقدم الحلويات وما أعد للضيافة.

كانت ليالي الجراشة من ليالي القرية المشهودة، والقريب من مكان الجراشة يتحسسها بجوارحه وهو يصغي إلى ضجيج الجواريش ممزوجاً بأصوات الفتيات في تلك الليالي القروية الماتعة.

بنات آوى (الواوية)

من الأصوات التي كانت مألوفة في القرية هي أصوات بنات آوى، فما هو أن يسدل الليل حتى تتجاوب الأودية والرحاب بأصوات بنات آوى صارخة في الظلمة الداجية، أو الليلة الأضحيانة لا فرق في الحالتين... وما هو أن تسمع كلاب القرية أصوات بنات آوى حتى تجاوبها رادة عليها رداً عنيفاً. وإذا كان نباح الكلاب هو تهديد ووعيد وإنذار، فما من أحد يعرف الحكمة التي تتوخّاها بنات آوى بالإعلان عن نفسها بهذا الصياح العجيب، والإشارة إلى وجودها بهذا النداء الغريب. على أن بعض (فلاسفة) القرية فسّر ذلك بأنه نوع من استكشاف قوى العدو ومعرفة حقيقة هذه القوى ومدى فعاليتها، وذلك بما تجيب به الكلاب من نباح يكثر أو يقل بحسب كثرتها أو قلّتها.

وعندما يتعالى هتاف ابن آوى الخبيث فإن أول ما يتبادر إلى ذهن القروي هو ذكر دجاجاته، ففرائس بنات آوى هي دائماً الدجاجات. ومهما حصنها صاحبها، ومهما أحاط (القن) بما يحسب معه أن الاقتحام أصبح متعذراً، ورغماً عن وجود الكلب، الحارس الأمين، فسيظل (الواوي) يجد منفذاً يصل منه إلى (قن الدجاج) والفوز بصيد ثمين.

وإذا كانت بنات آوى تتصايح في أول الليل، فهي تسكت حينما تهجع العيون، ففي تلك الساعات تدركها الحكمة، ويعود إليها التعقل وتمتلكها الرزانة، فلا تعود تعلن عن وجودها وتدل على مكانها، بل تأخذ بالتهيؤ والاستعداد للتسلل إلى قن الدجاج محاذرة أشد ما تحاذر أن لا تثير انتباه الكلاب، لتمرق إلى غايتها آمنة مطمئنة، وكثير ما نجحت خططها في استغفال الكلاب واقتحام الدجاج بلا خوف منها، ولكن الويل لها إذا أحس الكلب بـ «واوٍ» قريب منه، ثم فاجأه بالهجوم عليه، فإن معركة (الواوي) معه خاسرة حتماً، لا يخرج منها إلاّ مهشماً ممزقاً دامياً.

أما إذا استطاع الإفلات والركض هارباً من الكلب وعدا الكلب وراءه، فإن الكلب لن يدركه أبداً، وسيظل هو أسرع من الكلب، ويظل راكضاً حتى يصبح في الحقول الواسعة المترامية، فيرجع عنه الكلب خائباً.

وهنا يؤلف القرويون ما يشبه المثل، بأن يقولوا: إن سائلاً سأل الواوي لماذا تستطيع دائماً النجاة من براثن الكلب إذا حاول اللحاق بك؟ فأجاب الواوي: لأنني أركض لنفسي والكلب يركض لغيره.

وكما كان يسطو الواوي ليلاً على الدجاج فكذلك كثيراً ما كان يسطو الذئب على الغنم والمعزى في حظائرها فيفوز بفريسته جارّاً لها إلى البراري.

والكلب هنا لا يستطيع مقارعة الذئب لذلك لا يدخل معه في معركة، أما ما يعمله فهو أن يوالي النباح عنيفاً صارخاً ليوقظ النائمين، فيهبوا لحماية ماشيتهم.

لقد صمتت بنات آوى، ولم يعد يسمع لها صياح في محاجر القرية وحقولها الدانية، وأمنت الدجاجات فلم تعد تبيت قلقة مروعة، وانعدمت الحاجة إلى الكلاب، فلم يعد لها ذاك المجد باعتبارها الحارسة الشجاعة. فتوارت عن القرى وغابت عن بيوتها.

أشياء كثيرة تبدلت في القرية، وحالات عديدة زالت فيها من الوجود، فلم يترك هذا التبديل وهذا الزوال إلاّ ذكرى ضئيلة خابية، وإلاّ خيالات تأخذ في الانمحاء يوماً بعد يوم. ولكن كرّ الأيام وتعاقب السنين، لا يمكن أن يطمس ذكرى أشياء وحالات أخرى.

لا يمكن أبداً أن يطمس ذكرى الإقبال على القرية في الليالي وقد صمت كل شيء، وهدأت كل حركة، إلاّ أصواتاً لم تصمت، وحركات لم تهدأ، أصواتاً تشق أجواز الفضاء إلى الآذان في هدأة الليل ماشية إلى البعيد البعيد، فتكون إشارة الأمن وشعار الوصول. أصواتاً إذا كانت غير مرضية من قريب فإنها تبعث الرضا كل الرضا في الليل البهيم من بعيد.

تلك هي أصوات كلاب القرية التي طالما سمعناها على ظهور الخيل، ماشين إلى القرية في اعتكار الظلام.

لم ينته وجود الكلاب في القرية كل الانتهاء، بل لا يزال لها وجود محدود. ولكن النوع تبدل والعمل تحول.

والكلاب الموجودة اليوم في القرية هي كلاب الصيادين، كلاب تنام في الليل مع النائمين، وتهدأ مع الهادئين. وبعد أن كانت مهمة الكلب حماية الضعفاء ورد المعتدين، صارت كيد الضعيف وعضد المعتدي.

سباق الخيل

كانت الخيول كثيرة في القرية، وكانت هي وسيلة الانتقال من قرية إلى قرية أخرى، وبعض الخيول كان يعد (للدراسة) سنابل القمح، ولكن هذا النوع قليل، (فدراسة) السنابل على البيادر تتولاها ثيران البقر التي كانت تولت زراعتها. على أن خيول الدراسة حين توجد لا تكون من النوع الأصيل، فالأصائل لا تستعمل لغير الركوب.

واجتماع عدد من الأصائل في القرية تكون نتائجه أن تقام في القرية ميادين السباق، أصيل كل يوم في الكثير من أيام السنة. وأسلوب هذا السباق هو أن ينقسم الفرسان إلى صفين متقابلين، فيبرز من هذا الصف فارس بفرسه قاصداً الصف الآخر، ولا يكاد يدنو منه حتى يلوي عنان الفرس راجعاً بأقصى سرعته، فينتدب له فارس يعدو بفرسه وراءه متسابقين، حتى إذا دنا الفارس من صفه انضم إليه، ولوى الآخر عنان الفرس راجعاً فيتعقبه فارس من الصف، وهكذا بين كرّ وفرّ طوال الوقت.

وقد كان اقتناء الخيول موضع تباه وتنافس بين البارزين في القرية، كل يحاول أن يقتني الأكثر أصالة والألطف شكلاً والأسرع ركضاً، وكان ذلك من دلائل الوجاهة، فلا بد في (التوجه) في القرية من اقتناء الفرس.

على أن أعظم ميادين السباق كانت تعقد في الأيام الحاشدة حيث يشترك في السباق فرسان أكثر من قرية واحدة، وذلك أيام الأعراس الكبرى حيث تدعى إلى حضور عقد الزواج قرى بكاملها، فتقدم القرية بعلمها ورجالتها وفرسانها وصباياها في موكب واحد وما إن يطلّ الموكب على القرية الداعية حتى يأخذ فرسانه بالتباري على ظهور الخيل جائلين في كل رحبة، ويأخذ الرجالة بإطلاق أصواتهم بحدائهم الجميل الذي كانوا يسمونه (الرويد) حيث يتقدمهم اثنان من ذوي الأصوات العامرة بهتاف يردده الجمهور بصوت واحد ومن ورائهم الصبايا بهتافات أخرى... وما إن تسمع القرية الداعية صوت (الرويد) يقترب منها، حتى تنطلق بجمهورها لاستقبال القادمين (برويد) مقابل فإذا التقت القرى المدعوة كلها، عقدت كل قرية حلقة للدبكة وحدها، فيما يجتمع فرسان كل القرى منقسمين إلى صفين متقابلين.

وكثيراً ما كنّا ننطلق من شقرا في موكب من الفرسان، في زيارة لقرية أخرى بمناسبة من المناسبات في موكب جميل وقور هادىء. على أنني ما كنت فارساً معدوداً، فبالرغم من أننا كنا نقتني دائماً فرساً أصيلة، وكنت كثير التنقل عليها، فإنني لم أكن أشارك بالميادين ودخول الحلبات، وإذا شاركت كنت بيّن الضعف، وذلك لأن الفروسية يقتضي لها مران دائم منذ الصغر. ولم يتيسر لي ذلك بسبب نشوئي في دمشق، وعدم تفرغي للخيل إلاّ خلال الصيف. ولما طالت إقامتنا في شقرا خلال الثورة السورية وبعدها لم أتفرغ لذلك فظللت غير ملم بالأصول غير متمرّس بما يجب أن يكون.

لقد انقرضت الخيول من القرى انقراضاً كاملاً. وانقرضت الدعوات الجماعية للأعراس الكبرى، وصمت (الرويد)، وإن ظلّت الدبكة تطل بين الحين والحين إطلالات ضعيفة.

الحركة الوطنية

أخذت الثورة السورية تتلاشى يوماً بعد يوم، وإذا كنت لم أنسَ أن آخر بطل من أبطالها كان عز الدين الجزائري الذي حاول اقتحام الغوطة من جديد بعصابته التي لا تعدو العشرات، فتلقاه الفرنسيون وانجلى القتال عن مصرعه وتشتت رجاله، ونزح سلطان الأطرش إلى الأزرق ثم إلى صحراء النبك وتفرق بقية الزعماء بين مصر والعراق والأردن وتركيا. وكان أكثرهم في مصر، وانجلى الأمر عن شقاق مؤلم انشطر فيه القوم إلى فريقين يتشاتمان ويتبادلان التهم على صفحات الجرائد.

وجاء مفوض فرنسي جديد هو المسيو بونسو، وأعلنت فرنسا العفو عن فريق من الثائرين فعادوا إلى الجبل ودمشق وغيرهما. وأعلن بونسو قيام مرحلة جديدة ودعا إلى انتخاب مجلس تأسيسي يضع دستوراً لسوريا تدخل فيه عهداً لا يشبه عهودها السابقة. وتكتل الوطنيون السوريون وجمعوا صفوفهم فكان ذلك ميلاد الكتلة الوطنية التي قادت سوريا بعد ذلك في نضالها مع الفرنسيين حتى آخر عهودهم.

ورحنا ونحن في جبل عامل نرقب ما يجري في دمشق وسوريا كلها، فأسفرت النتائج عن فوز الكتلة الوطنية بأغلبية مقاعد المجلس التأسيسي وسيطرتها على قيادة المجلس.

ولما بدىء بوضع الدستور وتتالت مواده مادة بعد مادة ثم انتهى وضعه، أسفر الفرنسيون، عن نواياهم، إذ جاء الدستور دستوراً استقلالياً واضحاً مما لم يقبله الفرنسيون، وطلبوا تعديل بعض مواده وهي ست مواد كانت هي جوهره وروحه وفي تعديلها كما يريد الفرنسيون تكريس للانتداب واعتراف قانوني بوجوده.

ولما طال الأخذ والرد وأصر كل فريق على موقفه، راح الفرنسيون يؤجلون جلسات المجلس ثم حلّوه حلاً نهائياً.

وعادت سوريا إلى الكفاح من جديد وقامت المظاهرات في جميع المدن السورية واشتبكت بالفرنسيين واعتقل الشبّان والطلاب وسجنوا وعذبوا.

وكانت الأخبار تصلنا فننفعل بها انفعالاً كاملاً دون أن نستطيع المشاركة العملية. لأن الرأي العام عندنا لم يكن مهيّأً لأية مشاركة من هذا القبيل، ولأن الفرنسيين قد تسلطوا على البلاد عن طريق وجاهات خلقوها أو دعموها وجعلوها تتحكم بمصائر الناس ومضارهم ومنافعهم.

في النباطية

وفي يوم من الأيام مضيت من شقرا إلى النباطية ـ وكثيراً ما مضيت إليها ـ فركبت الفرس من شقرا مصطحباً معي رجلاً ليعود بها، فمررنا بالبركة في طرف القرية الشرقي لنهبط عقبة السكيكة.

والبركة في شقرا ـ كما في كل القرى ـ من أطرف ما في القرى، فهذا الماء الآسن المتجمع خلال الشتاء مما يتدفق، سواء من أزقة القرية أو خارج القرية من فيوض المطر، والمتكون حوضاً واسعاً راكداً، إنما يصلح في القرية لكل شيء في حين أنه في الواقع لا يصلح لشيء.

ولأي شيء يمكن أن يصلح ماء ركد في حيز معين فتولد فيه ما لا يعلمه إلاّ الله من صنوف الأحياء التي يمكن أن تتولد في الماء الراكد الآسن، مما تراه العين صغيراً وكبيراً أسود وأحمر ومن كل لون، أو مما لا تراه العين أصلاً.

ولكنه، كما قلت، يصلح في القرية العاملية لكل شيء: إنه أولاً وقبل كل شيء مورد لكل ما في القرية من خيول وحمير وبقر وغنم وماعز، وما أكثر ما في القرية من هذه الصنوف.

ثم هو مشرع لشيئين اثنين أساسيين من حاجات القرية اليومية، فيه تغسل أواني البيوت جميعاً. في هذا الماء القذر تنظف أواني القرية.

ومنه تغسل ملابس القرية، فمنذ الصباح الباكر تنظم الأثافي وتوقد فيها النيران وتوضع عليها القدور فيسخن الماء ويغلى به ما حملته القرويات من منازلهن أثواباً وملاحف، وكل ما حفل به البيت القروي مما يتسخ فيغسل.

فإذا أقبلت صباحاً من القرية هابطاً إلى الشرق في اتجاه البركة، أبصرت الدخان يتعالى من جميع أطرافها الدائرية من مواقد الغسيل.

وهذا الماء نفسه هو مسبح القرية يتدرب فيه صبيانها على السباحة ثم يتقنها فيه فتيانها وشبّانها.

ومن هذا الماء تروى مشاتل (الدخان)، ثم أغراس الدخان... وفيه ينقع البابير الجاف ليلين فيصلح لربط (البنادك) وغير البنادك. ولعل له منافع أخرى غابت عن معرفتي، فمن منافعه ـ فيما أذكر ـ أنه مغتسل للموسوسين الذين لا يطمئنون لصحة الغسل الترتيبي فيقصدون البركة ليغتسلوا ارتماساً، صيفاً وشتاء...

ومغتسل لغير الموسوسين ممن تضطرهم قلة الماء في بيوتهم فيغتسلون في البركة ليوفروا الماء... أقول: مررنا بالبركة صباحاً، ومواقدها عامرة وقدروها متضرمة وتجاوزناها إلى مطلع عقبة السكيكة واصلين إلى وادي السلوقي ومنه إلى وادي الحجير، حيث ينتهي عند مشارف الليطاني. ومن هناك عبرنا جسر القاقعية على نهر الليطاني حيث يفترق الطريق الموصل إلى النباطية إلى شعبتين فإما أن يسلك السالك طريقة والقاقعية، وإما أن يسلك طريق زوطر ولا بد في كلا الطريقين من تسلق عقبتين كؤودين، فأما العقبة الأولى فأقل مشقة، ولكن طريقها الأطول في الوصول إلى النباطية. وأما الثانية فإنها جبل شامخ متدرج في الارتفاع تدرجاً عمودياً مضنياً، ولكن طريقها في النهاية هو الأقصر. لذلك كنا في ذهابنا إلى النباطية نسلك طريق عقبة زوطر مصعدين على ظهور الخيل تصعيداً بطيئاً مقلقاً، حتى ننتهي إلى قرية زوطر فنجتازها عابرين في السبيل الموصل إلى النباطية فلا نصلها إلاّ بعد حوالى سبع ساعات من خروجنا من شقرا.

وأذكر أننا كنا عندما نصل إلى مرتفع مشرف على النباطية حيث تبدو لنا منه البلدة فجأة، ندرك أننا في المرحلة الأخيرة من سفرنا هذا، وهنا ننزل عن الخيل فنبدل ملابسنا، أو على الأصح بعض ملابسنا ونترك ما كان علينا، لما كان يمكن أن يكون قد لحقه من أوضار خلال الطريق من عرق الخيل، وغير عرق الخيل، ثم نمضي إلى النباطية واصلين رأساً إلى (الخان) حيث نودع الدواب فيه لنعود عليها بعد يوم أو أيام إذا كانت عودتنا قريبة، أو لنعيدها مع من يكون قد صحبنا من الرجالة، إذا كانت إقامتنا ستطول، أو أننا سنغادر النباطية إلى صيدا أو بيروت أو غيرها في غيبة طويلة.

والنباطية كانت مقراً لاثنين من أعلام جبل عامل علماً وخلقاً وأدباً ووطنية، هم الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر. وكنا حين نجيء النباطية فأول شيء نفكر فيه هو حضور مجلس الشيخ أحمد رضا الذي تلتقي فيه نخبة من رجال النباطية كل يوم، إما عصراً وإما ليلاً، أو بالأحرى عصراً وليلاً هناك في منزله الكريم على الجادة قريباً من ساحة البلدة العامة. المنزل المحاط ببستان البرتقال الأخضر والمسقوف بقطع القرميد الأحمر والممتد طولاً بطبقة واحدة تضم غرف المنزل الداخلية، وأولاً وقبل كل شيء في المدخل غرفة الشيخ الخاصة بمكتبته وسريره بحيث يغمض عينيه ليلاً، فيكون آخر ما يشاهد رفوف الكتب، ثم يفتحها صباحاً، فيكون أول ما يشاهد تلك الرفوف، ثم يعيش نهاره محاطاً بها والقلم بيده والورق تحت بصره... إلاّ أن يفاجئه اثنان اختلفا على حد في أرضهما، أو تنازعا على شأن من شؤونهما، فيهبّ معهما مستجيباً هاشاً باشاً.

هناك في منزله تحت أغصان شجرة الياسمين النضيرة بزهرها الأبيض العابق المتفتح، وأغصانها الخضر الظليلة، وحول الحوض المترع بنافورته الصغيرة المتشامخة.

وما هو أكثر نضارة وأفوح أرجاً وأروى على الظمأ: حديث الشيخ أحمد رضا وخلقه وعلمه وأدبه.

مجلس الشيخ أحمد رضا تحت شجرة الياسمين وحول حوض الماء، كان ندوة من أزهى الندوات العربية وأكثرها خصباً وأبعدها أثراً. وإذا كان قد قدر لكثير من الندوات في شتى بلاد العرب أن يشار إليها ويكتب عنها وينتشر ذكرها فإنه لم يقدر لندوة الشيخ أحمد رضا أن تنال شيئاً من هذا الحظ.

بل إن منزل الشيخ أحمد رضا الذي طالما ضم أفضل العلماء وأعذب الشعراء وألبق المحدثين، والذي كان منبعاً للوطنية وملتقى لرجالها، إن هذا المنزل الذي يمثل صفحة من أنقى الصفحات في تاريخ جبل عامل، بل في تاريخ لبنان وتاريخ العرب العلمي والأدبي والنضالي، إن هذا المنزل الذي كتب فيه الشيخ أحمد رضا معجمه (متن اللغة) وأبحاثه في التاريخ والفقه والأدب، إن هذا المنزل قد أزيل من الوجود، وأصبح أثراً بعد عين كما يقول الأقدمون.

وكان من حقه على بلدته وعلى بلاده كلها أن يحفظ أثراً من آثارها التاريخية ومتحفاً من متاحفها الوطنية.

فسلام على الشيخ أحمد رضا حيّاً وميتاً، وسلام على منزله صرحاً عامراً وطللاً دائراً...

كان أبرز رواد مجلس الشيخ أحمد رضا: تربه وزميله، بل أخوه الذي لم تلده أمه الشيخ سليمان ظاهر، وقد عاش هذان الشيخان منذ وعيا الحياة أخوين في الله والعلم والحق. عاشا معاً طالبين فعالمين فمكافحين.

عاشا معاً حياة حافلة بأشرف ما تحفل به حياة الرجال من علم وعمل وإخلاص. وكان لا يذكر أحدهما إلاّ ويذكر الآخر معه، حتى لقد استعيض عن تسميتهما باسميهما عند ذكرهما فكان يقال: جاء المشايخ وذهب المشايخ، وقال المشايخ وفعل المشايخ. فيفهم السامع أن المقصود هو الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر.

وكانا يكمّل أحدهما الآخر، فكلاهما شاعر كاتب مؤرخ لغوي، ولكن الصفة المتفوقة في الشيخ سليمان ظاهر (الشاعر) وفي الشيخ أحمد رضا (اللغوي).

وعلى الرغم من أنهما كانا على مزاجين مختلفين، فإنهما في حياتهما الطويلة كلها لم يتكدر ما بينهما بذرة من التكدر، بل ظلاً في كل لحظة من تلك الحياة المعطاء الجوادة على أصفى ما يكون الأصفياء، وأشهى ما يكون المتحابّون.

وتوفي الشيخ أحمد رضا قبل الشيخ سليمان ظاهر بسنين، فظل الشيخ سليمان ما عاش طويل الكآبة عميق الحزن، مستشعراً الوحدة، مفرداً بين الجماهير.

أيها الشيخان، بل أيها المشايخ كما كان يحلو للناس أن يتحدثوا عنكما...

إذا كان لكل منكما عشرات السجايا التي تكفي كل واحدة منها لتضع الرجل أكرم موضع فأحسب أن من أجلِّ سجاياكما أن كنتما كما تحدث القرآن عن أهل الجنة: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخواناً على سرر متقابلين﴾.

أيها الشيخان:

كم يطيب لي الحديث عنكما وأكتفي اليوم من ذلك بقول شوقي: وهو يرثي صديقاً له:

«يا ليت شعري هل قلت الذي أجد»

جئت النباطية في تلك الفترة وكانت قد تألفت فيها جمعية باسم «جمعية النهضة العاملية» ضمت عصبة من الشباب النباطي، فكانت أول جمعية من نوعها بعد «جمعية المقاصد الخيرية» التي أسسها الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر منذ شبابهما فأقامت مدرستين: مدرسة للبنين ومدرسة للبنات، فعاشت الجمعية طيلة حياتهما، ثم بعد وفاتهما واستطاعا بنزاهتهما أن يوجدا لها أملاكاً جمّة ذات موارد غزيرة.

ولقد علمت عند وصولي للنباطية بأن جمعية «النهضة العاملية» تتهيأ لإقامة حفل تكريمي لأحد شباب المنطقة لمناسبة نيله إجازة الحقوق من معهد دمشق.

وكان نيل إجازة الحقوق يعتبر في ذلك الوقت في جبل عامل حدثاً يستحق بأن يشاد بصاحبه ويدعى الناس للاحتفاء به...

ورآني الداعون إلى الحفل، فشاؤوا أن أكون في عداد المتكلمين. ولم يكن في ذهن أحد أن أحداً من الخطباء سيتجاوز فيما يقوله الحديث عن المحتفى به وما إلى ذلك من شؤون. ولكنني كنت منفعلاً بأحداث دمشق، وما يجري في سوريا كلها من صراع بين الوطنيين والفرنسيين، ومتأثراً بالمظاهرات والاعتقالات، متأسفاً على أن لا أكون قد شاركت في شيء مما يتأجج في ديار الشام، فصممت على أن يكون خطابي مستوحى من صميم الأحداث السورية، وعلى أن أجعل منه قنبلة تنفجر في ذاك الحفل، فتصيب شظاياها من تصيب...

وقد كان ذلك، فألقيت كلمة مكتوبة بدأتها بالحديث عن موضوع الاحتفال فاتخذت من تخرج المحتفى به من معهد حقوق دمشق سبيلاً للحديث عن دمشق وما يجري فيها...

فران على الجميع صمت رهيب هو مزيج من الدهشة والخوف والاستنكار والاستحسان، وقد كنت أطالع كل ذلك في وجوه السامعين...

ونزلت عن المنبر وعدت إلى مكاني واتخذت من الإطراق وسيلة للتخلص من العيون الشاخصة إليَّ بشتى بواعث الشخوص...

وأذكر أن الخطيب الذي تلاني خرج إلى المنبر متعثراً وبدا في كلامه متلجلجاً، وظهر عليه أنه يخشى أن يؤخذ بجريرتي ويشرك في مسؤوليتي...

وانتهت الحفلة وعدت إلى طبيعتي ووقفت مع الواقفين استعداداً للخروج، ومن الطبيعي أن يتصافح الخارجون، فرأيت كيف تجنبني حتى أمسّ الناس صلة بي...

مرّ الحادث خلافاً لما توقع الناس ولما توقعت أنا نفسي، ما خلا العتاب ممن ينتمون إلى منظمي الحفل على أن ورطتهم في هذا الأمر، وأنهم يتوقعون شرّاً لا يدرون كيف سيقع.

ولكن الشر لم يقع وحرصت على أن أبقى في النباطية أكثر من يوم لأكون ماثلاً لكل سؤال. وبدا لنا بعد ذلك أن السلطات لم يكن في ذهنها حدوث ما حدث، لذلك لم تحرص على إرسال المخبرين المتجسسين، وأن أحداً من الحاضرين لم يتبرع بالإبلاغ، لذلك ظل الأمر محصوراً ضمن إطار محدود لم يترك ذيولاً...

السيد طعّان خليل

لم تكن النباطية وحدها هي المكان البعيد الوحيد الذي نقصده على ظهور الخيل في أسفارنا، فعدا عمّا يجاورنا من قرى كان أبعد ما نقصده هو صور وجديدة مرجعيون. وتكلمت فيما تقدم عن سفرنا بين صور وشقرا.

أما جديدة مرجعيون فقد كنا نقصدها في حالتين: إحداهما أنه بعدما تم شق الطرق الموصلة بين الجديدة فبانياس فالقنيطرة التي كانت الطريق تصلها بدمشق، فإننا صرنا أحياناً نختار في الذهاب إلى دمشق والمجيء منها طريق الجديدة فالقنيطرة، آخذين السيارات من الجديدة حتى القنيطرة ثم منتقلين إلى سيارات أخرى تنقلنا من القنيطرة إلى دمشق.

ومرّ فيما تقدم أننا كنا من قبل نركب الدواب حتى القنيطرة، ومنها نأخذ العربات المجرورة بالخيل أولاً، ثم السيارات بعد ذلك. وفي غير أسفارنا إلى دمشق كنا نقصد الجديدة لأن شقرا كانت في فترة طويلة تتبعها إدارياً، فكان لا بد من الذهاب إليها أحياناً لمتابعة بعض المهام، فتمضي بنا الخيل منحدرة في عقبة السكيكة، فوادي السلوقي، ثم منحرفة إلى اليمين في الطريق المؤدي إلى مركبا فنمر في طرف البلدة دون أن نعرّج عليها. ثم نوغل في السير مضياً إلى بلدة عديسة. وهنا يختلف الأمر. فإما أن يكون خروجنا من شقرا مبكرين في الصباح، ومعنى ذلك أننا سنصل الجديدة في مرحلة واحدة دون التعريج على عديسة، وإما أن نكون قد تعمدنا الخروج من شقرا عصراً أو أصيلاً، ومعنى ذلك أننا مصممون على أن نقسم الطريق إلى مرحلتين، تكون إحداهما عديسة، وفي هذه الحال فإن المنزل الكريم الذي سنحل به هو منزل السيد طعان خليل.

ومنزل السيّد طعّان خليل يقوم على الجادة وكأن الشاعر إنما عناه بقوله:

نصبوا بمدرجه الطريق قبابهم ... يتسابقون على قرى الضيفان

فما هو أن نقبل على المنزل حتى يتلقانا السيد طعّان بقامته المديدة ووجهه المشرق وترحيبه الصميمي.

كان السيد طعان يمثل في عديسة الصورة التي رسمها العرب في شعرهم ونثرهم للعربي الجواد المضياف الذي يرى إكرام الضيف أجلّ المزايا. وما قرأت بيتاً من الشعر العربي في الضيافة وأربابها إلاّ وتمثل أمامي السيد طعان وبيته وأخلاقه.

إنني أحسه مثلاً وأنا أقرأ:

بشاشة وجه المرء خير من القرى ... فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك

فالبشاشة أول ما كان يطالعك به السيد طعان، البشاشة التي تشعرك بمقدار السرور الذي أدخلته عليه وأنت تنزل ضيفاً عليه، البشاشة المنبعثة من القلب صوراً على الوجه.

ثم بعد ذلك: الذكاء الفطري والحديث العذب والخلق الرضي والود الصافي.

كان بيت السيد طعان في عديسة ملتقى لضروب شتى من الناس، قد لا يربط بينهم إلاّ لقاؤهم على قصد ذاك البيت في غدوهم ورواحهم، ولطالما التقى فيه على غير موعد الخصوم المتنافرون، والأضداد المتنافسون، والأعداء المتزاحمون.

والذين لا يجمعهم مكان، ولا يظلهم سقف واحد، كان المكان الذي يجمعهم، والسقف الواحد الذي يظلهم، هو مكان السيد طعان، وسقف غرف بيت السيد طعان...

فلطالما تشاكس نافذان في قرية، أو غير نافذين، ثم مضيا إلى الجديدة يشكو أحدهما الآخر، أو ليستعدي كل منهما السلطة على مشاكسه، ثم إذا بهما يلتقيان مساء ذاهبين أو آيبين على مائدة السيد طعان وعلى ما هيّأ لهما من آرائك، وبسط لهما من حشايا ووسائد.

كل هذا والسيد طعان رقيق الحال قليل المال...

لقد مضى السيد طعان وخلت منه عديسة، وقبل أن يمضي السيد طعان وقبل أن تخلو منه عديسة خلا الطريق من الخيل، وانقضى عهد التنقل على ظهورها، فصرنا نمر بعديسة في السيارة، ولم يعد من حاجة للضيافة، ولا من ضرورة للمبيت عند السيد طعان، ولكنني ظللت طول حياة السيد طعان ومروري بعديسة أُلزم سائق السيارة بالوقوف على باب المنزل الذي طالما وقفنا عليه مجهدين وحللناه متعبين، فكان لنا ملاذاً من الجهد، ومراحاً من التعب. كنت أُلزم سائق السيارة بالوقوف على بابه ثم أَلج المنزل الكريم محيياً صاحبه العزيز جالساً إليه بعض الوقت، فلا يفوتني أن أحس ملامح المرارة على قسمات وجهه، لأن الضيوف اليوم غيرهم بالأمس، لأن كوباً من الشاي أو رشفة من القهوة تكفي لقراهم...

البقاء في شقرا

كان استمرار الثورة السورية سنتين، واستمرار وقوع المعارك في قلب دمشق، سبباً لاستمرار والدي والعائلة في الإقامة في شقرا، وبعد أن مضى ما يقرب من سنة على قيام الثورة، وبدا أنها ستطول إلى مدى لا يعلمه إلاّ الله، لم يصبر والدي على البعد عن مكتبته، وهو الذي اعتاد الجلوس إليها ليلاً نهاراً، لا سيما وقد كانت لديه مخططات لتدوين بعض مؤلفاته، وأهمها في ذلك الحين كتابه «كشف الارتياب»، لذلك أرسل إلى دمشق يطلب أن يرسلوا إليه إلى شقرا مكتبته كلها، فشحنت المكتبة من دمشق إلى بيروت بالقطار، ومن بيروت إلى صور بالسيارة، ومن صور إلى شقرا على ظهور الجمال.

وكان وصول المكتبة إلى شقرا باعثاً على استقرار الوالد فيها، فانتهت الثورة خلال سنتين، فلم يفكر بالعودة إلى دمشق، فما دامت كتبه عنده، وما دام مطمئناً إلى سير مشاريعه في دمشق سيراً مطرداً بما كان قد أعد لها من جمعيات تشرف عليها، فلم يكن له باعث قوي على ترك شقرا.

وهكذا توالت علينا الأيام في شقرا، واستفادتي الثقافية الوحيدة فيها هي ما كنت أتلقاه على والدي

من دروس اللغة العربية، ودروس الفقه الإسلامي، وكان المستقبل أمامي مجهولاً، بل قاتماً، إذ لم يكن لديَّ ما أتجهز به لهذا المستقبل، وكنت أتوق لترك شقرا بأي وسيلة، ولم تكن لي أية وسيلة. وكانت رغبة والدي هي أن أتابع الدراسة الفقهية في النجف ولم أكن أنا راغباً في ذلك.

وقد اقترح عليَّ يوماً أن أذهب إلى النجف زائراً، وأستطلع الأحوال هناك فلعلي أجد فيها ما يرغبني في البقاء، فذهبت سنة ١٩٢٧ إلى بغداد لأصل منها إلى النجف، وكنت أعتمر الطربوش الذي كان لباس الرأس المأخوذ به في جميع البلاد التي كانت تابعة للدولة العثمانية.

وفي بغداد استقبلني أحد مريدي والدي، فقال لا يمكن - وأنت ابن السيد محسن الأمين - أن تدخل النجف بالطربوش فلا بد من العمامة، وبعد نقاش اتفقنا على أن أترك الطربوش وأعتمر كوفية وعقالاً أبيض، وأرتدي عباءة، فدخلت النجف بهذا الزي.

وفي اليوم نفسه الذي وصلت فيه النجف والتقيت بفريق من الطلاب العامليين وغيرهم من أصدقاء والدي أجمعوا كلهم على أنه لا يمكن أن أقيم يوماً واحداً في النجف بهذا الزي وأنه لا بد من العمامة.

وكان واحد منهم قد أحضرها منشورة، فلم يلبث أن نظمها تنظيمها المعروف وخلع العقال عن رأسي ووضع فوقه العمامة.

وقد قضيت ثلاثة أسابيع في النجف معتمراً العمامة ذهبت خلالها إلى أحد المصورين لأخذ صورة تذكارية للعمامة، وهي التي يراها القارىء مع هذا الكلام. ولم تقنعني الأسابيع الثلاثة بالإقامة في النجف فعدت إلى لبنان ورجعت إلى الإقامة العبثية في شقرا.



في النجف

وفي يوم من الأيام، تلقيت دون سابق طلب أو رغبة، قراراً بتعييني مساعداً قضائياً لمحكمة النباطية الشرعية، وذلك أن أحد النافذين كان قد زارنا في شقرا وعرف تضجري من الإقامة فيها على ذلك الشكل، فاستصدر مرسوماً بتعييني في تلك الوظيفة، ففوجئت بذلك، ولم تكن هذه الوظيفة لتحقق شيئاً مما أبتغيه في الحياة، بل كانت تبدو وكأنها قد حدّدت مصيري بما لا يمكن أن أرتضيه لقابل أيامي.

وقد كانت لي مطامح ثقافية بعيدة، فإن

طول جلوسي إلى جانب والدي سواء في مكتبته، ورؤيته عاكفاً ليلاً نهاراً على القلم والورق والكتاب، وانتشار كتبه في أنحاء العالم الإسلامي، كل ذلك ركّز في نفسي الطموح الثقافي وحده، وكان أكثر ما يستهويني الاطلاع على التاريخ، وأسس هذا الاستهواء في نفسي شيئان: قراءة ما قرأته في مكتبة والدي، ثم الدروس التي كان يلقيها علينا أستاذ التاريخ في الدراسة الابتدائية في المدرسة العلوية (أديب التقي) فقد كان إلى جانب إدارته للمدرسة يتولى فيها درس التاريخ ودرس الإنشاء ـ كما تقدم ـ وكان هو نفسه مؤلفاً في التاريخ المدرسي، مشبعاً بالحس التاريخي العميق، بارعاً في إلقائه وترسيخه في الذهن، فكان لهذين العاملين الأثر الكبير في ميولي التاريخية.

وعندما انتميت بعد ذلك إلى الجامعة السورية، لم يكن لي بد من الانتماء إلى معهد الحقوق، لأنه كان هو وحده الموجود ـ عدا معهد الطب والصيدلة ـ ولم يكن في الجامعة معهد للآداب والتاريخ، ولو كان ذلك موجوداً لانتميت حتماً إلى معهد التاريخ ولما درست الحقوق.

التردد في قبول الوظيفة ثم القبول

عندما فوجئت بقرار تعييني مساعداً قضائياً لمحكمة النباطية الشرعية، صممت لأول وهلة على الرفض تصوراً مني أن هذه الوظيفة قد حدّدت مصيري غير المرضي مني، ثم لم ألبث أن تأرجحت بين القبول والرفض، ذاك أن مجرد تصور الخروج من شقرا ومن حياة الضجر والقلق التي أعيشها فيها كان كافياً لرجوعي عن الرفض وميلي إلى القبول. ثم عاد التردد استقراراً على القبول، مقتنعاً أن هذه الوظيفة لن تسد أمامي باب المستقبل، بل يمكن أن أجعل منها مفتاح ذلك المستقبل، وهذا ما كان.

ومن هنا أستطيع أن أقول إن تلك الوظيفة الصغيرة ذات الراتب القليل القليل، وذات المركز الاجتماعي الهزيل، والتي كنت أخجل بها أمام المعارف والأصحاب فأتوارى منهم. إن تلك الوظيفة هي التي أوصلتني إلى ما وصلت إليه، وهي التي حققت لي المطمح الثقافي الكبير في إصدار «دائرة المعارف الإسلامية الشيعية» و«الموسوعة الإسلامية»، والمؤلفات التاريخية التي شفيت بها الغليل من مزوّري التاريخ والعابثين به.

فلو لم أخرج تلك السنة من شقرا، ثم أسعى لمتابعة الدراسة الثانوية، ثم أؤدي امتحان الجامعة وأدخلها ـ كما سيأتي ـ لما علم غير الله أي مصير سيّىء كان يمكن أن أصير إليه. ففي السنة التالية لدخولي الجامعة ألغي امتحان الجامعة، وصار على كل طالب لدخولها أن يحمل شهادة القسم الثاني من البكالوريا، وهو ما كان من المستحيل أن أحققه.

في النباطية

كان قاضي المحكمة الشيخ محمد رضا الزين، وهو إنسان دمث الأخلاق طيّب الذات لطيف المعشر، وكان لنا من قبل صديقاً وفياً مخلصاً، فلم يكن من صعوبة في العمل معه، وكان الراتب خمساً وعشرين ليرة ورقية؛ وهو راتب زهيد لا يسد حتى الحاجات الضرورية، لذلك كان عليَّ أن أتكيف مع هذا الراتب، مصمماً على عدم الاستمرار في عملي إلاّ بمقدار ما أجد سبيلاً للانطلاق في الميدان الذي

أرغب فيه، وكان هذا الميدان محصوراً في متابعة الدراسة الثانوية للالتحاق بالجامعة. ولم يكن ذلك بالأمر السهل، بل كان يبدو أن دونه خرط القتاد ـ كما يقول الأقدمون ـ إذ كان قد مضى على إنهاء دراستي الابتدائية سنوات انقطعت فيها عن متابعة الدراسة، ولو أنني واصلتها لكنت الآن في نهاية الدراسة الثانوية، فكيف لي أن أستدرك ما فاتني، وهل من المعقول في هذه السن أن أبدأ الدراسة الثانوية في الصفوف مع الصغار؟!

ثم إن هناك مشكلة كبرى كانت تبدو مستحيلة الحل، هي ذات شقّين: الأول وهو الأخطر، أن اللغة الفرنسية صارت أساساً في نيل شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا)، وليست اللغة وحدها هي المفروضة بل أدبها أيضاً. وكانت كل معرفتي باللغة الفرنسية هو القليل الذي تلقيناه في الدراسة الابتدائية، فكيف أنجح في نيل الشهادة الثانوية وأنا على هذا الجهل باللغة الفرنسية، وكيف يتسنى لي دراسة اللغة وآدابها في فترة وجيزة، وهب أن مدرسة قبلتني فهل من المعقول أن أستطيع متابعة الدراسة والنجاح في النهاية؟

والشق الثاني هو شق طريف كل الطرافة، وهو أنني لست ذا ذهن رياضي بحيث إنه كان يشق عليَّ جمع عددين أو ضربهما أو طرحهما، فإذا كان من الممكن مثلاً أن أجدّ في دراسة الدروس الأخرى، وهو ما كنت مستعداً له كل الاستعداد، وأن أنال فيها أعلى الدرجات، فلم يكن ذلك ممكناً في دراسة الحساب والجبر، لأن هذين الدرسين لا يجدي فيهما الجد، ولا يفيد الانكباب ليلاً نهاراً على مطالعتهما، لأنهما شيء لا يخضع للمطالعة والمتابعة، بل للقابلية والموهبة، وقابليتي وموهبتي فيهما عدم في عدم!

ولكن لا بد من تحصيل الشهادة الثانوية ودخول الجامعة! فلنعلق الآمال على المجهول ولنتّكل على الله لعله يجد لنا مخرجاً.

والواقع أن كل شيء كان ينفي وجود هذا المخرج، وأن التفكير فيه كان ضرباً من الأحلام التي لا يمكن أن يعتمد عليها الواقعيون العمليون!

ومضت الأيام في المحكمة الشرعية رتيبة، وكان العمل فيها قليلاً والدعاوى لا تشغل إلاّ حيزاً ضيّقاً من الوقت، وكنت أعمل أنا لا على أساس الاستمرار، بل على أساس أنها أيام معدودة لا بد من تمضيتها قبل الوصول إلى الطريق المنشود.

لذلك كان غريباً كل الغرابة عند الناس أن ينصرف موظف في حكومة تخضع للانتداب الفرنسي، أن ينصرف إلى أعمال تتعارض مع هذا الانتداب وتقاومه، فقد استطعنا تكتيل فريق من تلاميذ البلدة الذين كانوا يواصلون دراساتهم الثانوية في بيروت، وكانوا كلهم تلاميذ مدرسة واحدة هي «الكلية الإسلامية»، وكانوا يحضرون أيام العطل إلى النباطية، فألتقي بهم وننظّم سهرات ولقاءات كان الحديث فيها لا يتعدى الحديث الوطني الحماسي، ولم يلبث الصيف أن جاء وانقطعوا عن الذهاب إلى بيروت، وعادت اللقاءات يومية، وعاد الحديث الوطني أكثر تشعباً وتواصلاً، وقد كنّا نخرج إلى ظاهر النباطية، فننشد الأناشيد الحماسية الثورية التي توري الهمم وتحفز العزائم. ثم رفعنا علم الاستقلال العربي السوري المربع الألوان ذا النجمة البيضاء وسط لونه الأحمر، وهو العلم الذي كان من قبل علم الثورة العربية، ثم

أضيف، إليه عند إعلان استقلال سوريا بملكية الملك فيصل بن الحسين، نجمة سباعية، ثم طُويَ بعد قضاء الفرنسيين على الاستقلال السوري واحتلالهم البلاد، وأصبح رفعه جريمة من الجرائم السياسية الكبرى.

إقترحت أن نرفع هذا العلم في اجتماعنا لا سيما في ظاهر البلد، فجمع أحد الرفاق ألوانه وشدّه إلى رمح خشبي طويل، وأحضره إلينا ملفوفاً على رمحه، فاحتفلنا بنشره احتفالاً حماسياً صاخباً، وكان قد كثر عددنا، ولم يبق محصوراً في التلاميذ وحدهم، بل انضم إلينا بعض الفتيان واليافعين وشاركونا في اجتماعاتنا وساهموا في لقاءاتنا.



مع علم الاستقلال الذي رفعناه

وهنا لا بد من الإشارة إلى أمر هام، وهو أن جميع رفاقنا التلاميذ كانوا تلاميذ مدرسة وطنية واحدة، فكانوا متآلفين لا تفرق بينهم المناهج المدرسية المختلفة التوجيه، وكان من أبناء البلدة تلميذ واحد يتلقى دراسته في الجامعة الأميركية، ولما حاولنا ضمه لم يستجب إلى ذلك، وبقي وحده منفرداً بعيداً عن مجموعة تلاميذ بلدته، فأدركت عند ذلك سبب تشعب الاتجاهات والميول في لبنان، فإن انقسام المدارس بين توجيه فرنسي أو إنكليزي أو أميركي، وبين يسوعي وعلماني وإسلامي وكاثوليكي وبروتستنتي، كان يقسم التلاميذ ويسير بهم في اتجاهات متباينة متعارضة، في حين أن بلاد الدنيا كلها تسيطر الدولة فيها على التعليم في منهج واحد وتوجيه واحد، فيتخرج الرجال وطنيين أولاً ذوي ميول واحدة، وإذا اختلفوا فإنما يختلفون في كيفية تنفيذ تلك الميول.

الجهر بعد الإخفات

ظلت اجتماعاتنا ولقاءاتنا في أوائل الصيف محصورة فينا، ثم رأينا بعد أن أصبحنا كتلة ذات عدد لا بأس به، أن نجهر بين الناس بما لا زلنا نخفت به بينهم، ولا نجهر به إلاّ بيننا، وفكّرنا في إيجاد المناسبة، فإذا بها تأتينا على رجليها، فقد كان بيننا وبين ذكرى المولد النبوي بضعة أيام فرأينا أن نعلن الاحتفال بمرور هذه الذكرى احتفالاً جماهيرياً شاملاً، فنظمنا أنفسنا في ليلة المولد وحشدنا فيها كل من نستطيع حشده من الرفاق ومن غيرهم، فكنا جمهوراً لا بأس به، وبدأنا مسيرتنا في الليل فانضم إلينا الفضوليون ومن راقتهم هذه المسيرة، فإذا بنا جمعٌ كثيفٌ يخترق شارع النباطية العام من أول البلدة هازجاً منشداً متحمساً، وكنّا كلما تقدمنا في السير ازداد عددنا حتى اخترقنا البلدة، وانتهى بنا المسير إلى الطرف الآخر من البلدة، ثم عدنا راجعين إلى الساحة العامة حيث تفرقنا متواعدين على اللقاء عصر الغد في الحسينية في حفلة خطابية تمجّد هذه الذكرى المجيدة، وكنا قبل ذلك قد وزّعنا الدعوات لحضور هذه الحفلة على الناس.

وقد فكّرنا أول الأمر بأن نرفع أمام مسيرتنا علم الاستقلال العربي السوري، ثم عدلنا عن هذه الفكرة لأنها ستلفت الأنظار إلى غاياتنا، وتنبه عملاء الانتداب الفرنسي إلى أهدافنا، وقررنا أن نؤخر رفعه إلى مناسبة أخرى.

وفي عصر اليوم الثاني احتشد الناس في الحسينية حتى غصّت بهم على رحبها، ودعونا إلى الخطابة في الحفلة الشيخ أحمد رضا، وتكلم بعض الشبان، وختمت أنا الحفلة بخطاب حماسي عنيف، فكانت المسيرة الليلية والحفلة النهارية شيئاً جديداً على البلدة لم تألفه في مرور ذكرى المولد النبوي. وكان من أغرب ما رآه الناس أن موظفاً حكومياً يقف هذا الموقف، ولا يخشى على وظيفته غير عالمين أن هذا الموظف يعدّ الأيام لينهي حياة الوظيفة وينطلق في طريقه الجديد الذي لم تتضح له معالمه بعد.

ثم رأينا أن قد آن لنا أن نرفع علم الاستقلال رفعاً علنياً، فقد عرفنا أن رياض الصلح كان يزور قرية له من قرى النباطية هي قرية الشرقية، وأنه سيمر عائداً في النباطية، وكان رياض ممن يعملون يومذاك في الحقل الوطني، فقررنا أن نشعره بوجودنا، فخرجنا في أربع سيارات رافعين العلم الاستقلالي على ساريته العالية، وانتظرنا رياض في ظاهر النباطية، فلما وصل إلينا أوقفنا سيارته فنزل منها وكان يرافقه محمد جابر، وهو من الوطنيين المخلصين فخطبت محيياً رياض خطاباً وطنياً حماسياً، ثم شيعناه بسياراتنا رافعين في السيارة الأولى علم الاستقلال يخفق أمام عيون القرويين الذاهبين والآيبين والمقيمين حتى قرية حبّوش. ومنها عدنا ومعنا محمد جابر الذي لم يخف عنا خشية رياض من رفع علم الاستقلال، وقال إن رياضاً قال له: إن رفع العلم مخاطرة، فاخترقنا بسياراتنا شارع النباطية العام منشدين الأناشيد الحماسية والعلم في المقدمة يتماوج عالياً شامخاً، والناس تتجمع على جوانب الشارع لترى ما هذا الذي يحدث.

لم يمر هذا الحادث مروراً سهلاً، بل كان له ما بعده، فقد كان وقوفنا في ظاهر النباطية على مفترق طريق يؤدي إلى بلدة نافذ قوي، وكان وقوفنا لا يبعد كثيراً عن قرية النافذ الذي كان ككل النافذين في ذلك

الوقت يستند نفوذه على صداقته للسلطة ومماشاته لها، وكان يعتبر أكبر النافذين وأقربهم إلى السلطة وأوسعهم اتصالاً بالناس، وكان على عداوة شخصية متأصلة لرياض الصلح ترجع إلى أيام الحرب العالمية الأولى، فرأى في فعلنا تحدياً عارماً له، أولاً لشدة عداوته لرياض، ثم لما في فعلتنا من استهتار بالسلطة ومجاهرة في عدائها، وهو ما كان ضامناً عكسه، فكنا فيما فعلنا دالّين على تقليص تأثيره في الناس، وأن تقريب السلطة له ولأمثاله ليس معناه السيطرة على الشعب والتكفل بعدم رفع صوته في وجه السلطة.

فقام النافذ ولم يقعد وهاج وماج وتهدّد وتوعّد، وأرسل إليَّ أنه يعتبرني مسؤولاً عما حصل، وأن أقل ما سينالني هو الاقتلاع من الوظيفة، وأن تحقيقاً سيجري مع المشاركين، وأن الاعتقال والسجن سيكون جزاءهم الأكيد.

ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً فقد جاءه من ينصحه بأن النباطية تعتبر من معاقله، وأن جمهورها من أنصاره وفيهم من هم من خلص أصدقائه وأعوانه، وأنه ليس بين هؤلاء أحد إلاّ وله ابن أو أخ قد اشترك في مظاهرة التحدي هذه، وأنه إنما سيؤذي جماعته إن حرّض السلطة على أولادهم وإخوتهم، وبذلك سينقلبون عليه ويؤذي نفسه. أما فيما يتعلق بي فقد أخبروه بأن إقالتي ستثير عليه من تضره إثارتهم ـ ولم يكن يعلم أني أنا نفسي سأقيل نفسي بعد أسابيع ـ لذلك اضطر إلى السكوت على مضض وكظم غيظه ونقمته، وكل ما فعله أنه أنّب المنتمين إليه على ما فعله أبناؤهم وإخوتهم تأنيباً عنيفاً.

الهوامش:

(١) الحجير بلفظ تصغير: واد طويل عميق مبدؤه من آخر وادي السلوقي ومنتهاه نهر الليطاني قرب قرية القاقعية يخرج فيه إذا كثر المطر نبع ماء من جانب حجر كبير ـ ولعله ينسب إليه ـ من الحول إلى الحول، وقد يجف أو لا يخرج من قلة المطر، عليه أرحية كثيرة.

(٢) السليق اسم لعملية جمع الأعشاب، واسم للأعشاب المجموعة.

الفصل الثالث

بصيص من النور

أخذت شهور الصيف تمضي وأيامه تتقلص، وبدأ العام الدراسي يدنو وأنا لم أهتد بعد إلى الطريق الذي يمكن معه الحصول على شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا)، وكان شبح اللغة الفرنسية والجبر يتراءى لي رهيباً حائلاً بيني وبين سلوك أي طريق، فقررت الذهاب إلى دمشق، لتلمس ما يمكن أن يزحزح اليأس الذي يكاد يسيطر عليَّ، فإذا بي أكتشف بصيصاً من النور ما لبث أن أصبح شعاعاً مضيئاً ينير بعض جوانب الطريق.

ذلك أني عرفت أن الجامعة السورية لا تشترط في غير السوريين الذين يريدون الانتماء إليها أن يكونوا حائزين على شهادة القسم الثاني من البكالوريا الحكومية، بل يكفي أن يكون طالب الدخول حاملاً شهادة إنهاء الدراسة الثانوية من أية مدرسة ثانوية، وأنه في حال حصوله على هذه الشهادة يمكنه الاشتراك في امتحان عام تجريه الجامعة لحاملي هذه الشهادة، وهو امتحان لا يختلف في مواده عن مواد القسم الثاني من البكالوريا الحكومية إلاّ في اللغة الفرنسية حيث تخلو مواد هذا الامتحان من مادة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية، ومن الفرنسية إلى العربية. وأن مدرسة أهلية في دمشق قد خصصت صفّاً من صفوفها الثانوية أسمته (صف الجامعة) يقصده غير حاملي الجنسية السورية، وحاملو الجنسية السورية من الحائزين على شهادة القسم الأول من البكالوريا الحكومية، إذ إن الجامعة تعاملهم معاملة غير الحاملين للجنسية السورية فتقبل اشتراكهم في امتحانها دون حصولهم على القسم الثاني من البكالوريا الحكومية.

وهكذا كثر المنتمون إلى صف الجامعة، وكان معتبراً أبناء المنطقة التي أسموها منطقة (العلويين) من غير حاملي الجنسية السورية، إذ كانت لهم حكومة مستقلة عن الحكومة السورية حكمها حكم لبنان. ومن هنا احتشد عدد غفير من التلاميذ في هذا الصف كان فيهم عراقيون أيضاً.

ومن حسنات هذا (الصف) أنه يقبل كل طالب انتماء إليه، دون أن يثبت أنه قد تدرّج في دراسته الثانوية من صف إلى صف حتى وصل إلى الصف النهائي، فكل طالب انتماء يُقبل، وهو في النهاية

مسؤول عن نفسه في الامتحان الذي تقيمه هذه المدرسة في نهاية العام الدراسي، والذي تمنح الناجحين فيه شهادة إنهاء الدراسة الثانوية.

وقد أغرى هذا التصرف غير الأكفياء، ولكن هؤلاء يبدأون يتسللون منذ الأسابيع الأولى الواحد بعد الآخر، متخلين عن الدراسة، مقتنعين أن الأمر ليس بالسهولة التي تخيلوها.

وقد كان عمل المدرسة عملاً تجارياً بحتاً تقصد به اجتناء الربح فقط حيث كان يحتشد في قسمها الداخلي العدد الكثير من التلاميذ الذين يعودون عليها بأموال أي أموال. ولكن هذا القصد التجاري قد أفاد الكثيرين من الأكفياء الذين لم تقدر لهم الدراسة الثانوية المنتظمة، فأمكنهم اختصارها بالانتماء إلى هذا الصف الذي كانت مواده في الحقيقة تشمل مواد البكالوريا الأولى والثانية معاً..

لقد كان هذا الحل بصيصاً من النور ـ كما قلت ـ فإذا أمكن الانتماء إلى صف الجامعة ومتابعة الدراسة فيه، فكيف تحل عقدة اللغة الفرنسية وعقدة (الجبر)؟ صحيح أن المطلوب فيه من اللغة الفرنسية هو أخف بكثير من المطلوب في امتحان البكالوريا الحكومية، ولكن الصحيح أيضاً أن هذا الأخف هو الأثقل على من لا يعرف من اللغة الفرنسية إلاّ القليل القليل، بل أقل من القليل. ويكفي أن يكون فيه أداء امتحان في الأدب الفرنسي وتاريخه. ولكنني اتّكلت على الله وانتميت إلى صف الجامعة تاركاً للأقدار أن تجد الحلول للعقدتين اللتين تبدوان وكأن لا حل لهما.

دراسة ثانوية

وكان من المصادفات الحسنة أن فوجئنا بأن أستاذ اللغة العربية وآدابها هو الشاعر خليل مردم، وكنت أعرف عن شعره الشيء الكثير، ولما التقيته في الصف وتابعت دروسه الأولى بدا لي رجلاً على شيء كثير من طيب الذات وعذوبة الحديث وصفاء النفس فضلاً عن الكفاءة، مما يجعله من أقرب الناس إلى القلب وأحبهم إلى طالب العلم، ولقد أفادنا في الدروس القليلة التي حضرناها عليه، ما لو استمر لكانت فائدته كبيرة.

ولكنه تخلّى عن تدريسنا بعد أقل من شهر من ابتدائه به، وذلك أن عددنا كان كبيراً جداً، مضافاً إلينا طلاب القسم الثاني من البكالوريا، الذين كانوا يتابعون الدرس نفسه، وكان يفرض علينا كتابة مواضيع لا بد من قراءتها وتصحيحها، وكان ذلك فوق طاقته، وفوق طاقة أي أستاذ لكثرة عدد التلاميذ، لذلك اعتذر عن تدريس هذه المجموعة الكثيرة الأفراد، غير المتجانسة والمختلفة الكفاءات. واقتصر على تدريس تلاميذ صف القسم الثاني من البكالوريا. وبذلك حرمنا من متابعة دروس خليل مردم فحرمنا من فوائد كثيرة.

ولقد نلت من تشجيعه في تلك الفترة القليلة ما أذكره دائماً، ذلك أنه في أول درس (إنشاء) طلب إلينا أن نكتب عن حياتنا الأدبية وتفكيرنا فيها وميولنا، فكتبت فيمن كتب، فجاء في الدرس الثاني وسأل من منكم حسن الأمين؟ فوقفت وإذا ما كتبته في يده، فقال: إن هذا أحسن ما كُتب في هذا الموضوع وإني أهنئك عليه...

والواقع أنني لم أغترر بهذا الكلام ولم أزه به، فليس معنى أن ما كتبت كان أحسن ما كتب التلاميذ، أنه شيء جيد، بل ربما كان أقل رداءة مما كتبه الآخرون...

وأذكر أن ما كتبته كان مطولاً بلغ عدة صفحات، وأني ختمته بالإعراب عن سروري بأن يكون أستاذ الأدب العربي عندنا هو شاعر الشام وأديب الفيحاء «الخليل» ثم تمثلت بقول الشاعر:

كانت مسامرة الركبان تخبرنا ... عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت ... أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وفي الحقيقة ليس هذا الثناء عليه هو الذي حمله على مقابلة الثناء بالثناء، ولا أنا كنت متملقاً له فيما كتبت، فقد كان ما كتبته معبراً عن حقيقة شعوري تجاهه.

ولقد جاءنا بعد خليل مردم من لم نحمده ولا استفدنا منه، وكنت أنا معتمداً على نفسي في دراسة الأدب العربي.

دروس الجبر

وجاء أول درس في الجبر، وكان أستاذ الدرس معتاداً على وجود الجهلاء في الصف، فأول شيء قاله أن سأل عما إذا كان فينا من لم يدرس الجبر قبل الآن، فخجلت من الاعتراف بذلك وظللت صامتاً، ولا شك أنه كان هناك غيري ممن خجلوا فصمتوا، ولكن كان هناك واحد لم يجبن عن الاعتراف بالحقيقة، فرفع يده مقرّاً بجهله، فكان بذلك على الأستاذ أن يبدأ بتدريس الجبر من أوله. ولكن سواء أبدأه من أوله أم آخره، فلم يكن ذلك شيئاً مفهوماً لديَّ، وكان عليَّ البحث عن حل، فوجدته بتناول درس خصوصي خارج المدرسة، وكنت لا أستطيع احتمال مصاريف جديدة تقتضيها أجرة المدرس، ولكن كان لي صديق حميم هو من أهل هذا الفن وكان يسرّه أداء أي شيء يعينني على النجاح في مهمتي فتطوع بإعطائي دروس الجبر بلا أجر، فعكفت عليها عكوف النهم إليها وتابعتها متابعة الظمآن الراكض وراء الماء فإذا بي بعد حين أحلّ كل معادلاتها، مكتفياً من ذلك بوضع الحل دون الدخول في التفاصيل من ضرب وطرح وقسمة، لأن ذلك مما لا أقوى عليه. وهكذا اطمأننت إلى الجبر. ولكن لم تحل ساعة الامتحان بعد ذلك ودخلنا القاعة المعدة له في الجامعة، حتى تملكتني الرهبة المطبقة، فلم أستطع إقناع نفسي بأني يمكن أن أحل معادلات الجبر، وضاعت مني كل ثقة بالنفس في هذا الأمر، وعدت إلى حقيقتي التي تعجز عن أي عمل حسابي مهما خفّ أمره.

في هذه الزعزعة النفسية والتضعضع الفكري جلست على المقعد أنتظر السؤال المطروح، وقد كان في الحقيقة من أهون ما كنت قد حللته أيام الدراسة الخاصة، ولكن شتّان بين تلك الأيام المفعمة بروح الصمود والأمل، وبين هذا اليوم الذي واجهت فيه الحقيقة الماثلة: حقيقة حلّ المسألة الجبرية، والتعامل مع الأرقام في امتحان حكومي يهيىء صاحبه لدخول الجامعة!

لقد انهار كل شيء ولم يبق إلاّ ذلك الفتى المشلول الفكر أمام الأعداد الحسابية! ولم يكن في مقدوري أن أخط كلمة أو أن أدون رقماً وبقيت هامداً يتمثل لي (الصفر) الذي سيوشح ورقتي الامتحانية البيضاء التي لن يمسسها اسوداد منقذ.

وفجأة امتدت يد حانية، كانت تعلم مشاكلي مع الأرقام، وعجزي عن استيعاب أي شأن من شؤونها،

وتعرف أني لا أتأخر في هذا المضمار كسلاً وقلة درس، بل فقداناً للموهبة ليس إلاّ، وكان يعزّ عليها أن أضيــع بسبب علة لا يد لي في تجنبها، وكانت تحسن الظن فيما يمكن أن يكون مني في يوم من الأيام.

كانت هذه اليد الحانية قد أعدت نفسها لمثل هذه الساعة الرهيبة التي أعيشها وحسبت حسابها، فكانت متهيئة للطارىء الصاعق الذي يوشك أن ينقض عليَّ، فلم تلبث أن تدخلت في اللحظة المناسبة، تدخلاً إذا كان معدوداً في النظام غير مشروع، فهو في المدى الإنساني الرائع مشروع أي مشروع.

وهكذا انطوى شبح الجبر، وخرجت من قاعة الامتحان وأنا لا أكاد أصدق أني قد نجوت من الهول.

اللغة الفرنسية

قلت إنني لجأت في الجبر إلى مدرّس خاص، وكان قد بقي أمر اللغة الفرنسية، وإذا كان من المعقول أن يُدرس الجبر في فترة شهور، فهل من المعقول أن تُتقن هذه اللغة، ثم تتقن آدابها وتاريخ شعرائها ومفكريها في مثل تلك الشهور؟ لم يكن ذلك معقولاً أبداً، وحرت في الوصول إلى المخرج، ولكن تبين أني لست وحدي الذي أعاني من هذا الهم المقيم المقعد، وأنه قد سبقني إلى معاناته سابقون ويزاملني في معاناته الآن آخرون.

واهتدينا إلى الطريق الذي سلكه من تقدمنا، وهو أن هناك أستاذاً قديراً متخصصاً في هذا الأمر، فهو يُعدّ ملخصات للشعراء الفرنسيين المطلوب أداء الامتحان في حياتهم وأدبهم، ويتولى تدريس التلاميذ هذه الملخصات على أن يفهموا معانيها المترجمة إلى العربية، ثم يفرض عليهم استظهارها وإتقان إملائها، بعد أن يكون قد قسمها أقساماً، كل قسم لدرس واحد يتلو فيه التلميذ عليه ما استظهر فيقوّم له ما يحتاج إلى التقويم، ويصحّح ما يحتاج إلى التصحيح، فلا يأتي وقت دخول امتحان الجامعة حتى يكون التلميذ قد استظهر ذلك كله استظهاراً متقناً، فإذا طرح السؤال وهو دائماً عن شاعر من الشعراء صب التلميذ على ورقة الامتحان ما كان قد استظهره صبّاً متلاحقاً دون توقف، فيوصله ذلك لا إلى التخلص من الصفر فقط، بل إلى نيل قليل من الدرجات تكون كافية بضمها إلى درجات ما يتقنه من الموضوعات الأخرى لإنجاحه، وقد كنت أنا لا أطلب إلاّ التخلص من الصفر، لأني كنت واثقاً بأن ما سأناله من موضوع الأدب العربي ومن موضوع التاريخ وحده كافٍ لضمان نجاحي، بشرط أن لا أنال صفراً في موضوع من الموضوعات الأخرى، ولم يكن الصفر متوقعاً لي إلاّ في الجبر والأدب الفرنسي، وبهذه الطريقة أنجو على الأقل من الصفر في الأدب الفرنسي.

وتابعنا الدرس على هذا النسق، وكنا أربعة، اثنان سوريان من مدينة حماه، واثنان لبنانيان أحدهما أنا. ولما جاء وقت الامتحان الجامعي لم يكن له في نفسي شيء من الرهبة، ولا كنت مبالياً أية مبالاة، لأن الأمر هنا أمر جد واجتهاد، لا أمر موهبة لا ينفع في فقدانها أي جد وأي اجتهاد. ولم يكن قد نقصني شيء من الجد والاجتهاد طوال العام.

ودخلت القاعة وجلست على المقعد لا أنتظر أية مفاجأة، ولا أتوقع أية نازلة!

ولم يخطر لي أن الشاعر العربي كان قد قال: «وتقدّرون فتضحك الأقدار»، وهب أن هذا القول قد خطر في بالي فأية أقدار يمكن أن تضحك الآن من تقديري؟

ليس هنا تقدير، بل هنا واقع راهن: لقد استظهرت كل ما يفيدني في الجواب على أي سؤال يمكن أن يطرح علينا الآن: سيطرح علينا سؤالان، علينا أن نختار الجواب على واحد منهما، ولن يعدو كل من السؤالين الطلب عن كتابة سيرة واحد من الشعراء، والتعريف بشعره وأدبه وفكره، وهذا ما أتقنته كل الإتقان حافظاً له عن ظهر قلب، وما عليَّ عند طرح السؤال سوى أن أنطلق انطلاقاً لا توقف فيه ولا تأمل يعيقه، ولا تفكر يبطئه.

صحيح أن ما أستظهره ليس مطولاً، ولكنه ليس موجزاً إيجازاً مخلاً، فقد كثّف لنا الأستاذ المادة تكثيفاً يجعلنا على تخوم الإجادة.

أتضحك الأقدار الآن وفي هذه الساعة؟ ولماذا تضحك الأقدار؟ إنه الجد كل الجد، الجد الذي لا مجال معه للضحك، بل لا مجال معه حتى للبسمة الخفيفة!!

بل أنا الآن الذي أضحك من الأقدار التي حالت بيني وبين إتقان اللغة الفرنسية فتغلبت عليها بهذا الأسلوب اللطيف: أسلوب استظهار خلاصة للمادة المطلوبة!

كنت أجلس على المقعد غير مشغول الذهن بشيء يكدره، وإذا بالصاعقة تنقض عليَّ انقضاضها المروع المدمر. وإذا بي أسمع لا ضحك الأقدار، بل قهقهتها الصّاخّة! أتضحك من الأقدار؟!

ها هي الأقدار تواجهك الآن فاجرؤ على الضحك منها!

لقد كان المتعارف في امتحانات الجامعة في الأدب الفرنسي أن يطرح اسم الشاعر المختار ويطلب إلى التلاميذ الكتابة عنه، ودرسنا طوال العام على هذا الأساس واستظهرنا ما استظهرناه معتمدين على هذا العرف.

ولكن الأقدار كانت لنا بالمرصاد، فقد شاء المستشار الفرنسي لوزارة المعارف أن يطوّر امتحانات الجامعة في الأدب الفرنسي ابتداء من هذا العام، وذلك بأن يجعلها تدور لا على الإدلاء بما يعرفه التلميذ عن الشاعر وشعره، بل على استنتاجات تحليلية فكرية، لا يقدر عليها إلاّ المتضلعون بالأدب الفرنسي، وأين أنا من ذلك؟!

لقد ألقي السؤال الأول فلم أفهم منه شيئاً حتى ولا كلمة واحدة، ثم ألقي السؤال الثاني ففهمت منه ثلاث كلمات يفهمها حتى أشباه الأميين: لقد فهمت منه كلمة: (روسّو) وكلمة (فولتير) وكلمة (فلسفة)!

لقد كنت قبل اليوم لا أستوعب المدلول الحقيقي لكلمة: «أسقط في يده»، ولا أتفهم وضع من تطلق عليه. أما في هذه الساعة فأنا الصورة الواضحة لمن أسقط في يده!

وضعت كل الضياع وشلّت الصدمة كل تفكيري وبقيت لفترة هامداً فوق المقعد همود القانطين، ولم ألبث أن توكلت على الله، وقلت في نفسي ما دام قد ورد في السؤال اسم روسو واسم فولتير فلا شك

أنه يتعلق بشيء منهما، فلأفرغ هنا كل ما اختزنته في صدري عنهما، فلا بد أن تجيء جملة لها علاقة بالسؤال تنجيني من نيل الصفر، وهكذا كان فانطلق قلمي دون توقف يملأ الصفحات التي في يدي كلاماً فرنسياً، الله وحده يعلم ماذا سيقول عنه مصحح هذه الأوراق، أظنه سينسبني إلى الغباء حين يقارن بين السؤال وبين هذا الكلام الذي يشبه في نظره الهذيان!

ولكن أظن في الوقت نفسه أنه ستأخذه الشفقة على هذا الغبي الذي يهذي ويهذي فلا يجعل نصيبه منه الصفر. على أنه من يدري فربما كان قاسي القلب فيغيظه هذا الغباء وهذا الهذيان اللذين شغلا وقته دون طائل فينتقم ممن أغاظه فيجعل جزاءه: الصفر!

وإذا كنا قد سلمنا للأقدار واعترفنا بأنها تضحك منك حين تحسب أنها في صميم الجد، ثم يعنّ لها فتجدّ حين تحسب أنها في صميم الضحك! فلنسلم الأمر لها تلعب بنا كيف تشاء.

وبدا أن الأقدار قد اكتفت بما ضحكت، فألانت قلب المصحح فلم يوشّ صفحاتنا السوداء بصفره الوضّاء!

ومن طريف ما حدث أنه كان يجلس في المقعد الذي وراء مقعدي أحد خريجي معهد (الفرير) في بيروت وهم من هم في اللغة الفرنسية وآدابها، فرآني أعكف على الورق كتابة متصلة دون توقف، في حين أنه يقتضي للإجابة شيء من التبصّر والتركيز والأناة، فحسب أني نابغة من النوابغ في الأدب الفرنسي لا أحتاج إلى ما يحتاج إليه أمثاله من الروية، بل إن كفاءتي العظيمة تجعلني أنطلق هذا الانطلاق المتتابع، ثم زاده في هذا الاعتقاد أنه رآني أملأ ست صفحات كاملة، في حين أن الجواب لا يمكن أن يعدو الثلاث الصفحات على أكثر تقدير. فشاقه أن يتعرف على هذا النابغة في الأدب الفرنسي وأن يسترشده في شؤونه، فانتظرني في الخارج عند باب القاعة، فلما خرجت تلقاني وعرّفني بنفسه. ثم سألني: عن أي السؤالين كتبت فقلت: عن السؤال الثاني. فقال: إنه كتب عن السؤال نفسه، وإنه لم يستطع أن يملأ أكثر من ثلاث صفحات في حين ملأت أنا ست صفحات بسرعة فائقة!

فقلت له: إنه سؤال مهم جداً يجب التوسع في الإجابة عليه، فقال: إنه بدأ يشك بسلامة جوابه، ثم أراد أن يزداد إيضاحاً وشرحاً فتهربت منه وانطلقت مسرعاً.

وعندما نجحنا ودخلنا الجامعة فتشت عنه، لأبلغه الحقيقة، فلم أره بين الناجحين، فعرفت أنه لم يكتب له النجاح وأنه فشل ولكن في غير الأدب الفرنسي طبعاً.

رفيقي يقبض عليَّ

ومضت الدراسة في المدرسة الثانوية رتيبة مع متابعة درسي الجبر واللغة الفرنسية خارجها. ومما حدث في هذه الأثناء: عزمي على المشاركة العملية في نضال الانتداب الفرنسي، وكان سبيل ذلك المساهمة في إعداد المظاهرات وتنظيمها، ثم السير في صفوفها تحريضاً وتوجيهاً، ونزلت إلى الميدان وجاءت أولى المناسبات، وصادف أن كانت في شهر رمضان، فكان علينا اغتنام فرصة تجمع الناس ليلاً في المسجد الأموي، فخطبنا فيهم وهجناهم للخروج في مظاهرة صاخبة فاستجابوا، وكنت مع من كان في طليعة المظاهرة، وسرنا في سوق الحميدية لنخرج منه إلى شارع النصر، وكانت هذه أول تجربة لي في

المظاهرات، لذلك كانت خبرتي فيها قليلة، ولم أكن أعلم أن عيون الفرنسيين مبثوثة محكمة البث في صفوف المتظاهرين تراقب المسؤولين عن التحريض والتهييج، حتى إذا تشتتت المظاهرة بعد اصطدامها بقوى السلطة انقضوا على المحرضين فقبضوا عليهم وساقوهم إلى السجن فالمحاكمة.

وكان الذين سبقونا قد وقعوا في هذه التجارب، لذلك كانوا يحكمون انتقالهم في صفوف المتظاهرين فلا يلبثون في مكان واحد سوى دقائق لا تلفت النظر، ويظلون يتنقلون، فهم طوراً في المقدمة وطوراً في الوسط وطوراً في المؤخرة. تارة في هذا الصف وتارة في صف آخر وبذلك تضيع آثارهم فلا تتعرف عليهم عيون الجواسيس المنتشرين في كل ناحية من نواحي المظاهرة.

وكنت من بين الأغرار الذين لا خبرة لهم في هذه الشؤون، لذلك ثبتُّ في موقعي في المقدمة مثيراً مهيجاً، مؤلفاً للشعارات، ثم ارتأيت ـ وقد بلغت الحماسة أقصاها ـ أن نأخذ نحن الذين في الصف الأول بأيدي بعضنا البعض فنشكل سلسلة متماسكة تثبت عند الاصطدام المترقب بعد الخروج من سوق الحميدية الضيق والوصول إلى شارع النصر المتّسع الذي يستطيع فيه الجنود أن يصولوا ويجولوا مهاجمين المتظاهرين.

وظللت ممسكاً بيد شاب كان يبدو على كثير من الحماسة والاندفاع، ورحت أتشاور معه على تدبير الصمود عند اشتباكنا بالجنود، ولبثنا كذلك إلى أن خرجنا من سوق الحميدية، وكان الجنود ينتظروننا في الشارع وبدأت المعركة، وظللنا نتدافع إلى أن وصلنا إلى نهاية الشارع قريباً من محطة الحجاز، وهناك استطاعوا تفريقنا، وعدنا شراذم مشتتة، وانطلقت وحدي، فإذا بثلاثة يسرعون إليَّ، ويقول أحدهم: «هذا هو أبو البدلة البيضا»، وكنت أرتدي في تلك الليلة بزة بيضاء. فانقضّوا عليَّ وأمسكوا بي، فإذا أحدهم ذلك الشاب الذي كنت أمسك بيده طول الوقت والذي كان يبدو متحمساً كل التحمس!

وساقوني مع من قبضوا عليهم إلى السجن حيث بقينا فيه ليلة واحدة، حوّلونا بعدها إلى المحكمة، وكان الذي ينظر في هذه الأمور قضاة وطنيون، فكانوا يحكمون بتبرئة الموقوفين، بعد أن يوجّهوا إليهم النصح بالكف عن هذه التصرفات.

فتنبّه الفرنسيون لهذا الأمر، فأصدروا قانوناً قاسياً سموه «قانون قمع الجرائم» يحاكم بموجبه المتّهمون أمام محاكم فرنسية، وتقضي مواده بأن كل من يُرى موجوداً في مكان المظاهرة، حتى وإن لم يثبت أنه كان مشاركاً فيها، يجب أن يحكم عليه بالسجن، ولا يجوز أن يكون الحكم أقل من سبعة أشهر.

ولو كان هذا القانون موجوداً يوم حوكمنا لكنا قضينا في السجن سبعة أشهر على أقل تقدير.

ومن ذلك اليوم صرت حريصاً كل الحرص على التخفي بين المتظاهرين فلا يُرى مكاني بارزاً. وأذكر أننا بعد أن دخلنا معهد الحقوق، وحاول الفرنسيون فرض المعاهدة التي عرفت بمعاهدة (الشعباني)، وكان لا بد من تهييج الشعب لمقاومتها. وكان مسكن المفوض السامي الفرنسي عندما يكون في دمشق بالصالحية، كما كانت منازل عملاء الفرنسيين هناك، فصممنا ـ نحن بضعة طلاب في معهد الحقوق ـ على وجوب تسيير مظاهرة صاخبة تصل إلى منزل المفوض السامي نفسه وبيوت عملائه، وكان ذلك متعذراً إذ كان مكان انطلاق المظاهرة من قلب المدينة، لأن المسافة بعيدة بين مكان انطلاقها وبين

هدفها، فيمكن تشتيتها قبل وصولها إلى الهدف، لذلك فكرنا بتشكيل مظاهرة تنطلق من الصالحية نفسها لتصل بسرعة إلى منزل المفوض السامي، وكان تشكيل مثل هذه المظاهرة صعباً جداً، إن لم نقل إنه مستحيل، لعدم إمكان حشد جمع كثيف تتشكل منه المظاهرة في الصالحية.

وبعد التفكير رأينا أن تكون المظاهرة ليلاً وأن تنطلق بعد صلاة العشاء من مسجد (الشيخ محيي الدين) حيث يكون المصلّون فيه نواتها، ثم يتجمع عليهم الناس شيئاً فشيئاً خلال مسير المظاهرة. فضلاً عن أن هذا المكان بعيد عن تفكير السلطة بحدوث مظاهرات فيه، لذلك سيربكها انطلاق مظاهرة منه كانت لا تظن أبداً أن ذلك ممكن الحدوث.

وانطلقنا إلى المسجد قبيل صلاة العشاء، وتقاسمنا الأدوار ـ وكنا خمسة ـ فعهدنا إلى عبد القادر الميداني أن يصعد فور انتهاء الصلاة إلى المنبر فيحرض المصلّين، وكان سبب اختياره أنه كان ذا صوت رهيب، إذا أطلقه ينطلق كأنه الرعد المدويّ. وتقاسمنا نحن الأربعة زوايا المسجد فأخذ كل واحد منا مكانه في زاوية، فما إن تعالى صوت عبدالقادر بالنداء حتى صحنا بأعلى أصواتنا من كل زاوية: الله أكبر، وكررنا الصيحة فنفذت إلى قلوب المصلّين فإذا بكل واحد منهم يصيح: الله أكبر، ثم خرجنا من المسجد بين المجتمعين فيه بين صياح: الله أكبر، وصياح بسقوط المعاهدة، ومشينا في الأزقة التي كانت تضيق أحياناً وتتسع أحياناً، وكلما خطونا خطوة انضم إلينا جماعة ولم نبلغ الشارع العام المؤدي إلى قصر المفوض السامي حتى كانت الحشود قد تكاثفت، ومن الطبيعي أنني هذه المرة لم أمسك بيد أحد يقودني بعد ذلك إلى السجن، ثم وجّهنا المظاهرة في الاتجاه الموصل إلى القصر، ولما اطمأننا إلى ذلك أسرع كل منا ركضاً إلى الترامواي الهابط إلى المدينة.

ولما رآنا أحد المتظاهرين نصعد مسرعين إلى الترامواي صاح بأعلى صوته بحيث سمعناه واضحاً: (وين حمّيتوها وهربتو)!!

لقد كان هذا الصائح طريفاً جداً، وصادقاً جداً، فقد (حمّيناها) وهربنا فعلاً! لأن شبح قانون قمع الجرائم كان يطاردنا، ولأن تخيّل سبعة أشهر سجن كان يحث خطانا على الهرب السريع!

وبعد القبض عليَّ في المظاهرة الأولى لم أقع في أيدي عمال السلطة مرة ثانية لأنه لم يعد يستهويني تماسك الأيدي في المظاهرات!

في الدراسة الثانوية

وأخذ العام الدراسي يتوالى يوماً بعد يوم، وأخذ يوم الحسم يدنو شيئاً فشيئاً، ومن طرائف الدراسة أن مدرّس التاريخ كان عجوزاً من بقايا ضباط الجيش العثماني المتقاعدين، ونشأ نشأة تعليمية بعيدة عن جو اللغة العربية، فهو بالرغم من أنه دمشقي عريق كان يتعثر في النطق خلال الدرس باللغة الفصحى فيأتي بجمل تدعو إلى الضحك، فكان من تعابيره مثلاً ما قاله أحد الملوك الفرنسيين، فقد أورده المدرّس بهذا اللفظ: إن تلك التاج يؤلمني!

ومن طرائف ما جرى لنا معه أنه كان يطلب منّا في كل درس أن نكون مستعدين للإجابة في الدرس المقبل، ومن الأكيد أننا لم نكن كلنا مستعدين للإجابة، فكان متروكاً للتلميذ الذي ينادي المدرّس اسمه

من ورقة أمامه كانت تحتوي أسماء التلاميذ جميعاً، كان متروكاً للتلميذ إذا كان غير مستعد للجواب، أن يرد على النداء بكلمة: (غير موجود)، فكان المدرّس يضع إشارة أمام اسمه ليعلم غيابه.

وصدف يوماً أن معظمنا، بل ربما كنا كلنا غير مستعدين للجواب، وكان الصف غاصّاً بالتلاميذ، فكان كلما نودي على اسم يجيب التلميذ بنفسه: غير موجود... إلى أن امتلأت الورقة بأسماء التلاميذ الغائبين، بينما كان الصف ممتلئاً بهم!

دخول الجامعة

وأقبل يوم امتحان (الجامعة) وجرى لي فيه في درسي الجبر واللغة الفرنسية ما قصصته على القارىء من قبل، وانتهى الأمر بالنجاح ودخلت الجامعة، وتحقق الأمل الذي كنت أظنه غير ممكن التحقيق! ولم أشعر ببهجة تشبه البهجة التي عرفتها يوم إعلان النتيجة، وإن كانت أيام البهجات أقل من قليل!

وكان من عوامل التنغيص عقوق العاقين، وجحود الجاحدين، ولؤم اللؤماء! وحسبك أن واحداً من أولئك كنت ملازماً له أيام الاضطهاد والقلّة، لا يأنس إلاّ بي، حتى إذا انقطعت عنه مضطراً يومين متتابعين أرسل يبحث عني ويتساءل عن سبب انقطاعي. وصعدت وإياه يوماً إلى الترامواي وسيلة النقل الشعبية الوحيدة في بيروت ثم هبطنا وسرنا مشياً على الأقدام في أوائل الليل لزيارة بعض أقربائه فمررنا تحت قصر عامر كان يشع بأنوار الكهرباء، ويزدحم الطريق المؤدي إليه بسيارات الزائرين، وكان رجلاً لا يستطاب مجلسه، فقلت للرفيق السائر معي على قدميه: إني لأعجب كيف يجد هذا الرجل من يجالسه، فضلاً عن أن يزدحم مجلسه! فأجابني رفيق أيام النضال والاضطهاد قائلاً: أتعجب من أن يزدحم مجلسه بالناس وقد باع بالأمس أرضه الواسعة لليهود في فلسطين، فقبض مئات الألوف وامتلأ وطابه بالمال، وأصبح يرجى ويخشى؟ أتعجب من ذلك؟ لا، لا تعجب فليس هنا مكان العجب، بل العجب أن أجد أنا القليل المال، أنا الذي لا يرجى ولا يخشى، أن أجدك أنت تمشي إلى جانبي وتصلني في منزلي!

وتدور الأيام فإذا هذا الذي كنت أزامله في ركوب الترامواي وفي السير على الأقدام في شوارع بيروت، والذي كان يكبر صلتي له في منزله حيث لا يرجى ولا يخشى، والذي طالما استمدني عند الشدائد، إذا به في يوم من الأيام لا يسير في الشوارع على قدميه، بل يسير في السيارة الضخمة الفخمة التي يرف عليها العلم! بينما كنت أنا لا أزال أواصل السير على قدميّ في رحلة الحياة الطويلة الشاقّة، ولما جاء يوم كنت في حاجة لنجدته، كان هو في عالم آخر يزهو بالأعوان والأنصار الجدد الذين لا يزاملونه في السير على الأقدام، وكان إنجاده لي لا يزيد في سلطانه، وعدم إنجاده لا يقلل من أعوانه فزوى وجهه وتجاهل الإنجاد!

طالما سرت على قدميّ مع رياض الصلح، وطالما زاحمنا الناس معاً في ترامواي بيروت، حتى إذا انتقل هو من السير على القدمين ومن ركوب الترامواي إلى ركوب (الكاديلاك)، لم يعد يذكر الماضي ومن كان فيه وما كان فيه.

وقد كانت آخر الأيام الشعبية مع رياض الصلح، يوم تقررت الانتخابات النيابية سنة ١٩٤٣ وهي السنة

التي تمّ فيها الاستقلال، وكان يتنازع النفوذ في لبنان: الإنكليز والفرنسيون. ومن هنا كان لا بد من أن تكون الانتخابات حرة لأن لا سلطة واحدة تستطيع أن تحسم الأمور لمصلحتها. وكان رياض الصلح حائراً لا يدري ما يفعل، أيرشّح نفسه في بيروت، أم يرشح نفسه في جبل عامل (أي ما أطلقوا عليه اسم الجنوب)؟

لقد كان يصدّه عن الترشيح في بيروت أنه كان يخشى أن يتألب عليه المسيحيون مع خصومه من المسلمين فيسقطوه، لأن المسيحيين يرون فيه الرجل القوي، وأهم من ذلك فإن قريبه سامي الصلح عازم على الترشيح في بيروت، ولسامي قواعد شعبية متينة، فلم يكن من المعقول أن يترشح صلحيان في قائمة واحدة ولا أن يتقارعا في قائمتين متضادتين.

وكان يصده عن الترشيح في جبل عامل أن لا قاعدة شعبية له فيه حتى ولا في مدينة صيدا المعتبرة مدينة أسرته ومدينة أبيه من قبله ومدينته هو نفسه، وذلك لأنه هجرها ولم تبق له ركيزة فيها.

وكنت إذ ذاك أعمل في القضاء في محكمة النباطية، فأرسل إليّ يطلب حضوري إلى بيروت بأسرع ما أستطيع من الوقت، فجئته في الحال، فخلا بي في منزله وعرض عليّ الموقف وحيرته فيه.

فقلت له: هل ستكون الانتخابات حرة، أم هناك مجال لتدخل السلطة؟ فقال ستكون الانتخابات حرة مئة بالمئة فابد رأيك بناء على هذا الأساس.

فقلت له: إذا كنت موقناً بأن الانتخابات ستكون حرة فلا تتردد لحظة واحدة في الترشيح في جبل عامل، فإن لك فيه قواعد شعبية تجهلها أنت، وسنتفانى نحن أصدقاءك في تأييدك والدعوة إليك، وسيستجيب الناس وسمعتك وسمعة أسرتك طيبة وستنجح بإذن الله.

وكان المتنافسان الرئيسيان يومذاك في جبل عامل هما أحمد الأسعد وعادل عسيران، وكان أحمد الأسعد مرشح الفرنسيين، وعادل عسيران مرشح الإنكليز، وكانا عدوّين لدودين، يسعى كل منهما لتأليف لائحة تنافس لائحة عدوه، فقلت له: إن الأمر سيكون أهون مما تتصور، لأن الموقف في نظري هو كالآتي:

إن كلاً من أحمد الأسعد وعادل عسيران يتهيب المعركة لأن أحداً منهما لم يجرّب بعد قوّته الذاتية، فأحمد الأسعد نجح في الانتخابات الماضية لأنه كان واحداً من جماعة ضمتهم السلطة الفرنسية في قائمة واحدة نجحوا جميعاً لأن السلطة فرضتهم. وعادل عسيران سقط في تلك الانتخابات لأن مزاحمه في القائمة كان كبير الأسرة عمّه نجيب.

إن هذا التهيّب من المعركة يجعل الاثنين، أحمد وعادل، قابلين بسهولة للدخول في قائمة واحدة إذا وجد من يعرف كيف يمهّد الطريق لذلك، فكل منهما لا يطمح الآن لأكثر من أن يفوز هو نفسه ولا يهمه الآخرون، وانضمامهما في قائمة واحدة ينهي المعركة ويضمن لكل منهما الفوز، والأمر يحتاج إلى رجل لبق يدخل بينهما، وهل في الدنيا من هو أكثر منك لباقة، فأقدم ولا تتردد.

فتهلل وجهه بشراً وانزاح عن صدره الحمل الثقيل.

وطلب إليّ أن أبقى إلى جانبه عصر ذلك اليوم والليلة والنهار القادمين، لعل الأمر يحتاج لأن يستوضحني في بعض التفاصيل، وهكذا كان. ثم تمّ الأمر كما قدّرته.

فنجح أحمد وعادل في قائمة واحدة كان فيها رياض.

سنة وبعض السنة مضى على ذلك، كان فيها رياض الصلح قد أصبح رئيساً للوزارة وصار الآمر الناهي، وعاد راكب (الكاديلاك) بعد ركوب الترامواي، وأصبح عشير الرؤساء ورفيق الوزراء وخليط النواب!

بعد سنة وبعض السنة كان رياض الصلح يشيح بوجهه ويلوي عنقه وتتمعّر طلعته ثم يدير ظهره أمام الاستنجاد به.

لقد مرّ في خاطري شريط الذكريات منذ اللقاء الأول برياض في ظاهر النباطية يوم تحدّيت السلطات والنافذين في تكريمه حتى ساعة الاستنجاد هذه.

ولم تكن هذه أولى غدرات رياض الصلح بأصدقائه، ولا آخر غدراته، فقد تبيّن أنه مطبوع على الغدر، وعلى ما هو شر من الغدر.

يوم الانتخاب في دمشق

مضت دراسة الحقوق مضياً رتيباً، وتآلفنا هناك بضعة طلاب لا يزيد عددنا على العشرة، متخذين لنا منهجاً، فيه أن نلتقي في المنازل لقاءات أسبوعية لا تخلو من التسلية البريئة، وأهم ما فيها تنظيم الكفاح الوطني ومقاومة الإفرنسيين، فإذا ألمّ بالبلاد حادث كان علينا أن نحزم أمرنا ونقود فيه جبهة فاعلة تقرر وتقتحم.

ومما يذكر مما كانت مشاركتنا فيه فعّالة، هو يوم قرر المفوض الفرنسي (بونسو) إجراء انتخابات عامة في سوريا في ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٣١ تمهيداً لتصفية القضية الوطنية بتزوير الانتخابات وإخراج مجلس نيابي مطواع يقر معاهدة معدة لا تختلف عن الانتداب إلاّ بالاسم، وهي المعاهدة التي عرفت يومذاك باسم «معاهدة الشعباني» نسبة لوزير الداخلية شاكر نعمت الشعباني الذي تبنّاها وتعهّد تصديقها من المجلس.

وجاء يوم الانتخاب وأعدّ الفرنسيون عدّتهم للتزوير في سوريا كلها، وأعد الطلاب عدّتهم للمعركة، وقضينا ليلة يوم الانتخاب نجول من حي إلى حي نشحذ الهمم ونستفز النفوس، وفي الصباح كنا نتوزع في الأحياء حول مراكز الاقتراع، وقد كان كل شيء مهيّأ للمعركة، ولا تحتاج النار العتيدة إلاّ إلى عود من الكبريت لتضطرم اضطرامها المروع. وقد كان، فبدأ[1] الهجوم على المراكز وأخذ الرصاص يدوّي من بنادق الجنود حماة المراكز، وانطلقت الجموع في شوارع دمشق مهددة متوعدة وبدأ الصدام عنيفاً، وكان مكاني من المعركة بالقرب من محطة الحجاز، وكنّا قد وصلنا إليها دون مقاومة تذكر، وكانت قوة الجنود تعسكر على جسر بردى الموصل بين آخر شارع الحجاز وأول الشارع الصاعد إلى طريق الصالحية، وكانوا يقفون هناك متأهبين لصد المظاهرة الزاحفة منه لتصل إلى (السراي) المقيم فيها وزير الداخلية والجهاز الحكومي كله، فإذا بهم يفاجأون بنا نزحف من محطة الحجاز هابطين للوصول إلى

الهدف نفسه. وكان سلاح المتظاهرين الحجارة التي تفرَّغ لتجميعها وإحضارها فريق من الفتيان لا تتعدى أعمار أكثرهم الرابعة عشرة فما دونها، وكان يدهشنا ما نرى منهم، ونتساءل كيف كان يتسنى لهم جمع ما يجمعون من الحجارة، وكيف يتأتى لهم بعد جمعها نقلها وتوزيعها على الجبهات المتعددة.

إنها دمشق ... دمشق البطلة ... دمشق التي لا يعرف حقائقها إلاّ من خبرها... دمشق التي أقضت مضاجع الفرنسيين على مدى وجودهم فيها.

لقد كنت من موقفي قرب محطة الحجاز أشاهد المعركة على الجبهة المقابلة، فكانت مشاهد لا يمكن أن تنمحي من الذهن بسالةً وتفنناً وكرّاً وفرّاً. كان المتظاهرون يكرّون على الجند بالحجارة كرّاً عنيفاً، فإذا تقدّم الجنود ممهدين لتقدمهم بإطلاق الرصاص، انكفأ المتظاهرون غير منهزمين بل متغلغلين في الأزقة الجانبية المتفرعة من الشارع الكبير، فيخلو هذا الشارع منهم تماماً، فلا يجد الجنود أمامهم من يقاتلونه فيعودون إلى موقعهم على شاطىء بردى، فإذا رآهم المتظاهرون قد عادوا وتوقفوا عاودوا الكرّ عليهم بالحجارة، فيعود الجنود إلى مهاجمتهم، ويعودون هم إلى إخلاء الشارع والتغلغل في الأزقّة الجانبية.

أما عملنا نحن على الجبهة المقابلة فكنا إذا رأينا الجنود يتقدمون مهاجمين كررنا نحن عليهم بالحجارة، فإذا ارتدّوا عن رفاقنا إلينا ارتددنا نحن إلى مواقعنا متباعدين عنهم إلى الشوارع الفرعية.

وظل الأمر على هذه الحال كرّاً وفرّاً إلى أن رأينا من موقفنا منظراً عجباً، ذلك أن ضابطاً فرنسياً تقدم منفرداً رافعاً بيده اليمنى منديلاً أبيض أخذ يلوّح به ماشياً وحده صوب المتظاهرين الذين لم يتعرضوا له بسوء، وتقدم بعضهم منه وبدا لنا أن الجميع يتحاورون، ثم لم يلبث المتظاهرون أن توقفوا عن كل حركة فمشى الجنود منسحبين، فلم ندر ماذا جرى ويجري، وأسرعنا بعد انسحاب الجنود إلى أصحابنا فعلمنا منهم أن الضابط أنبأهم بأنه تلقى أوامر بوقف التعرض للمتظاهرين والانسحاب إلى الثكنات.

ولم تلبث أن انتشرت التفاصيل، فإن المفوض الفرنسي (بونسو) المقيم في بيروت عندما بلغه نبأ ما جرى في دمشق تملكه الهلع وأيقن أن ذلك مقدمة ثورة شاملة، فأسرع في الحال إلى إعلان إيقاف عملية الانتخاب وإبطال ما جرى منها، ولم يكن يومذاك إذاعة تنقل القرار، فعلقت صور عنه على جدران الشوارع والأحياء وعرفه الناس جميعاً، فانقلبت المظاهرات الحربية إلى مهرجانات سرور وابتهاج، وكان يوم من أيام دمشق المعدودة في تاريخها النضالي الباسل.

ولا بد من الإشادة برجال الدرك السوريين الذين كانوا عندما يتلقون الأمر بالهجوم وإطلاق الرصاص، كان رصاصهم ينطلق أكثر ما ينطلق في الهواء متظاهرين بتنفيذ الأوامر، في حين أنهم كانوا يجنبون رصاصهم أجساد الناس، لذلك لم تكثر الإصابات، وكان عدد القتلى دون العشرة.

وفي اليوم الثاني خرجت دمشق عن بكرة أبيها تشيع الشهداء إلى قبورهم، وكان يسير في طليعة حاملي النعوش شيخ معمم بعمامة بيضاء يحمل على يديه جثة طفل يبدو أنه في حوالى الخامسة من سني حياته، فكان منظره يستنزف الدموع من عيون المشاهدين ويثير عظيم النقمة على الفرنسيين الذين قتلوا فيمن قتلوا: الأطفال.

ثم تبين لنا بعد ذلك أن هذا الطفل كان قد مات في المستشفى موتاً طبيعياً، وأن هذا الشيخ قد تعمّد إثارة النفوس على الفرنسيين فأخرج جثة الطفل مع نعوش القتلى فكان له ما أراد.

وكنت في ذلك الحين أنظم الشعر بين آونة وأخرى فأوحت لي معركة الانتخابات بقصيدة ضاع أكثرها ولم يبق في ذاكرتي منها إلاّ هذه الأبيات:

بذلوا ليوم الانتخاب جهودا ... ضمنوا لأنفسهم بها التأييدا
وعدوا فما حفظوا الوعود ولا رعوا ... فينا بيوم الانتخاب عهودا
قد أوقدوها فتنة نارية ... كانوا لها عند اللقاء وقودا

ومنها:

باتوا سروراً ناعمين بليلهم ... ودمشق باتت تشتكي التسهيدا
ترنو مفجعة إلى فتيانها ... تستنجد الشم الأباة الصيدا
فتدافعوا متواثبين وأقبلوا ... متسارعين إلى المنون ورودا
لله يومهم غداة تقدموا ... تتلو الوفود إلى النزال وفودا
من كل أعزل يتّقي ببنانه ... وبصدره يستقبل البارودا
يرمي الحجارة صارخاً بجموعهم ... فيرد جمعهم النظيم بديدا
ولرب طاوية على أشجانها ... وارت يداها في التراب وحيدا
دفعت بفلذتها لمعترك اللظى ... وأبت عليه أن يعود طريدا
أبنيَّ دافع عن بلادك إنه ... ليقر عيني أن أراك شهيدا
إحمل على النيران حملة ضيغم ... واستقبل الخصم الشديد شديدا

وقد أسفت لضياع معظم أبيات القصيدة، وأنه لم يبق في ذاكرتي منها إلاّ هذه الأبيات، فالمناسبة التي نظمت فيها القصيدة من أغلى المناسبات في حياتي.

نتائج الانتخابات

أعلنت نتائج الانتخابات في بقية المناطق السورية فإذا بمرشحي الفرنسيين يفوزون في كل مكان ما عدا بضعة أفراد محدودين استطاعوا التغلب على التزوير.

يفوزون حتى في حلب قلعة إبراهيم هنانو وسعدالله الجابري وعبد الرحمن الكيالي، واستطاع الفرنسيون أن يسقطوا قائمتهم وينجحوا قائمة العملاء وعلى رأسها صبحي بركات.

فلم يتصد الشعب في حلب بمثل ما تصدى في دمشق، فلم تقم في الأولى ثورة عارمة كما قامت في الثانية، واقتصر الأمر فيها على الغضب، مجرد الغضب والاحتجاج، مجرد الاحتجاج، وهما لا يردعان ظالماً ولا يكبحان مستعمراً، والأمر كما قال أبو تمام: «السيف أصدق أنباء من الكتب».

وإذا لم يكن السيف متيسراً فقد أثبتت الحجارة أنها يمكن أن تحل محله، وأن تكون «أصدق أنباء من الغضب والاحتجاج»!

وحاولت حلب بعد ذلك، وبعد أن تمَّ أمر الانتخاب وأعلنت النتائج وانتهى كل شيء، وبعد أن رأت ما أدَّت إليه ثورة دمشق، حاولت حلب أن تقتفي أثر دمشق، فقامت فيها المظاهرات الصاخبة واشتعلت فيها المعارك الدامية، ولكن ما تمَّ قد تمّ، ولم يكن من الممكن إعادة عقرب الساعة إلى الوراء، فذهبت محاولات حلب سدى، ولو أن ما فعلته حلب بعد الانتخابات فعلت بعضه وقت الانتخابات لتغير الأمر وتباينت النتائج. ولك أن تتساءل لماذا ثارت دمشق ولم تثر حلب، مع أن في حلب شعباً لا يقل وطنية وشجاعة عمن في دمشق، ومع أن في حلب قادة أبطالاً صلبين، وحسبك أن يكون فيهم إبراهيم هنانو وسعدالله الجابري وعبد الرحمن الكيالي، وفي حين كان في دمشق رجل مثل جميل مردم!

كيف قدّر لحلب إبراهيم هنانو وسعد الله الجابري وعبد الرحمن الكيالي أن تتأخر عن دمشق جميل مردم؟!

إنني أجيب: كان ذلك لأنه كان في دمشق عصبة من الطلاب نذروا أنفسهم لوطنهم العربي، ونظموا أمورهم تنظيماً دقيقاً، وتحسبوا لكل شيء، ثم انبثوا في الأوساط الدمشقية ليلة الانتخابات يشرحون ويحرضون ويجمّعون، ثم انطلقوا في الصباح في كل مكان يؤلبون ويرتبون، حتى إذا اجتمعت الجماعات قادوا خطواتها قيادة واعية مضحية فتقدموها في اقتحام الهول فاستجابت لهم، فكان ما كان.

وقد ساعد على أن يكون في دمشق ما كان، أنه كان فيها الجامعة السورية التي تستطيع أن تكتّل الطلاب وتصهرهم معاً مما لم يكن مثله في حلب، إذ لم تكن فيها جامعة بعد.

انتخابات جديدة

وقد كان لا بد للإفرنسيين من أن يحددوا يوماً جديداً لإجراء انتخابات دمشق، وقد كان، وتعين يوم الانتخاب وبدأت المداولة بأسماء المرشحين وإدارة المعركة المقبلة. وهنا يبرز دور جميل مردم.

لم يكن بين رجال الكتلة الوطنية في دمشق رجل قوي، وإن كان فيهم المخلصون.

لذلك خلا الميدان لجميل مردم الداهية المتماسك الألعبان، المستعد للتلون بألف لون.

ولم يكن من همّ جميل مردم التفكير بالنضال والكفاح، بل كان من همّه الوصول بأهون سبيل، وأقل تعب. وقد صار الحال الآن إلى أن يكون هو المقرر الأقوى لقرارات الكتلة الوطنية في دمشق فعوضاً عن أن يستغل النصر الدمشقي الثوري، فيقود انتخابات دمشق القادمة إلى نصر شعبي كاسح، أخذ يفاوض الفرنسيين على أن يكون لمرشّحيهم مكان في القائمة الدمشقية الوطنية، لئلا يكون هناك معركة انتخابية متعبة، فيدخل هو المجلس على رأس القائمة دخولاً مريحاً، مع ما في ذلك من كسب ودّ الفرنسيين الذين سيحتاجون إليه ـ كما تبين بعد ذلك ـ في الأيام القادمة، وليثبت لهم حسن نواياه فيطمئنوا إليه. وهكذا كان!

فإذا بالقائمة الوطنية تعلن وبين مرشحيها محمد علي العابد وحقي العظم، نعم حقي العظم! وإذا لم يكن للأول السجل الأسود الذي للثاني، مما جعل الناس ينسون اسمه فلا يستفظعون ذكره أمام اسم حقي العظم، فقد كان لوجود اسم هذا الآخر في القائمة الوطنية وقع الصاعقة في جميع أوساط المخلصين.

فحقي العظم صنيعة الفرنسيين وعميلهم ورجلهم الأول، والذي أقاموه على أنقاض الحكم الاستقلالي بعد يوم ميسلون حاكماً لدولة دمشق، والذي كان مجرد ذكر اسمه يثير في النفوس التقزز والقرف والإنكار، حقي العظم هذا عضو مرشح في القائمة الوطنية!

وتساءل الناس هل قامت ثورة دمشق، وسفكت فيها الدماء الزكية التي سفكت من أجل أن يكون حقي العظم نائباً عن دمشق؟! ومحمد علي العابد أيضاً؟!

هكذا يريد جميل مردم وكان له ما أراد!

وجاء يوم الانتخاب ولم يكن للقائمة مزاحمون أشداء ففازت بأعضائها جميعاً وفيهم محمد علي العابد وحقي العظم.

وحاول جميل مردم وأعوانه أن يعتبر الناس فوزها فوزاً وطنياً باعتبارها قائمة الكتلة الوطنية وأن يحملهم على الابتهاج الشعبي، ولكن هيهات.

وآن للمجلس النيابي أن يجتمع وكان فيه ثلاثة تجمعات: تجمع وطني يبلغ عدد نوابه سبعة عشر نائباً من أصل ثمانية وستين نائباً هم مجموع نواب المجلس.

وتجمعان يضمان النواب الذين عملت على إنجاحهم السلطة الفرنسية، على رأس أحدهما صبحي بركات، وهو يضم نواب حلب وأقضيتها، وعلى رأس الثاني حقي العظم وهو يضم نواب بقية المناطق وهم خليط يجمعه الخضوع للسلطة الفرنسية.

وكان أمام المجلس مهمة كبرى هي إبرام المعاهدة التي أعدها الفرنسيون، على أن عليه أولاً أن ينهي أمراً أولياً هو انتخاب رئيس له، ثم انتخاب رئيس للجمهورية، ثم يلي ذلك اختيار رئيس للوزراء.

وكان للفرنسيين رجلان هما صبحي بركات وحقي العظم، وكان عليهم أن يختاروا واحداً منهم لرئاسة الجمهورية وكان يطمح إليها الاثنان معاً، وكان الفرنسيون يريدون أعرق الرجلين في خدمتهم، وأبعدهم صيتاً في الخيانة، وهو حقي العظم. ولكن صبحي بركات لم يسلم لهم في ذلك. وأخذ التنافس والتزاحم مأخذهما، فأراد صبحي بركات أن يثبت قوته وسيطرته على العدد الأكثر من النواب فرشح نفسه لرئاسة المجلس، وعضده في ذلك النواب الوطنيون ففاز بالرئاسة.

وهكذا هزلت الحركة الوطنية حتى أصبحت مساهمة في ترجيح فوز مرشح للسلطة الفرنسية على مرشح آخر لها.

وبدا للفرنسيين واضحاً أن صبحي بركات سيفوز برئاسة الجمهورية بتأييد النواب الوطنيين له، وكان الشرخ قد وقع بينه وبين الفرنسيين بترجيحهم حقي العظم عليه، وإن لم ينقطع الأمر بينه وبينهم.

وهنا بدأت المناورات والمداورات فأسفر الحال عن الاتفاق على حل وسط يضمن للفرنسيين رئيساً لهم ويبعد المتنافسين المحسوبين عليهم عن التخاصم والتزاحم، على أن توفر رئاسة الوزراء لحقي العظم، بعد أن توفرت رئاسة المجلس لصبحي بركات. وهكذا قسموا الرئاسات الثلاث بين رجالهم بمعاونة النواب الوطنيين الذين أوصلهم جميل مردم إلى هذه المواقف، وكان ذلك من حظ محمد علي العابد الذي

جاءته رئاسة الجمهورية في ١١ حزيران/ يونيو ١٩٣٢ من حيث لا يحتسب. وتحققت أمنية جميل مردم فأصبح وزيراً للمالية في وزارة حقي العظم.

وفي ذلك يقول الشاعر السوري المبعد عن سوريا خير الدين الزركلي مخاطباً النواب الوطنيين الذين كانوا يقولون إن من أهدافهم من المشاركة في هذه الأمور الحصول على العفو عن المبعدين السوريين، من قصيدة لا أزال أستظهر منها[1]:

تبارك الله أحسنتم بفعلتكم | كل الرئاسات في أيدي المرائيس
ما كان أغناكم عن خوض معترك | ترأست فيه أذناب الفرنسيس
تالله لا خير يرجى من نيابتكم | وإنما هي رزق للمفاليس
ولا رئاسة في أيدي ثلاثتكم | وإنما هي نقش في القراطيس

* * *

أبات (مردم) من أوزار أمته | يسعى إلى الغنم سعياً غير معكوس
يرضى بما لاح من صيد ومن قنص | والكيس في الكف غير الكف في الكيس

* * *

يا طالبي العفو عنا هونوا وقفوا | وجنبوا أمرنا من كل تلبيس
إنّا لنصبر ما عاش الزمان على | غير الهوان فعيشوا في الفراديس

ثم اضطر جميل مردم بضغط هاشم الأتاسي وإبراهيم هنانو مجتمعين على الاستقالة من وزارة حقي العظم في ٦ نيسان/ أبريل ١٩٣٣.

يوم المعاهدة

وبعد الانتهاء من أمر الرئاسات واصل المجلس اجتماعاته ليحقق الغاية التي انتخب من أجلها وهي إقرار المعاهدة التي أعدها الفرنسيون، وعُين يوم عرض المعاهدة على المجلس، وكان الفرنسيون واثقين من النتيجة فأكثرية نواب المجلس مؤلفة من الأشخاص الذين جاؤوا بهم إلى النيابة.

وقرر الطلاب إفساد أمر المعاهدة، واستطاعوا في اليوم السابق ليوم عرض المعاهدة على المجلس أن يجمعوا معظم طلاب معهد الحقوق وطلاب معهد الطب في مسيرة يمرون بها على النواب فرداً فرداً، للضغط عليهم ضغطاً معنوياً باستثارة كوامنهم الراكدة من بقايا شهامة ووطنية، وكان النواب موزعين على فنادق المدينة، فمشينا بجمعنا إلى حيث ينزل كل واحد منهم، وكان بعض الفنادق يضم اثنين أو ثلاثة أو أربعة، فنطلب لقاء من نعرف أنه في الفندق فلا يسعه إلاّ الاستجابة لطلبنا، فينبري الخطباء منا إلى تبيان شرور المعاهدة، ثم يناشدون النائب بأن لا يلقى الوطن المصير السيىء على يديه، ويذكرونه بلعنة التاريخ التي ستلحقه وبالعار الذي سيصيب أبناءه وأحفاده، فلا ينتهي الخطيب من كلامه حتى تكون كل كوامن الخير قد انطلقت في نفس النائب، وحتى يكون قد نسي أن الفرنسيين هم الذين جاؤوا به إلى النيابة، فيعاهدنا بصوت متهدج بأنه لن يوافق على المعاهدة، وكان بعضهم لا يستطيع حبس دموعه.

وأذكر أننا التقينا بمجموعة من نواب العشائر في فندق واحد، وكان هؤلاء النواب من أهم الركائز التي يستند إليها الفرنسيون، فقابلوا مجيئنا أول الأمر بشيء من الاستنكار والاستهانة بهؤلاء الأولاد الذين يتطاولون إلى ما لا يعنيهم، فحاولوا عدم الإصغاء إلينا والترفع عن الدخول في مناقشات معنا، فلم نزل بهم حتى سمعوا ما نريد أن نقوله، وانتهى الأمر بأن وقف أبرز رجل فيهم (مجحم بن مهيد) وسلّ سيفه من غمده وقال بلهجته البدوية ما معناه: والله يا أولادي إنني لا أستطيع مخاطبتكم بمثل هذه الألفاظ التي تتكلمون بها، ولكني أقول لكم إن من يجرؤ على الموافقة على المعاهدة لن يكون له إلاّ هذا السيف. فكان بهذا القول أبلغ خطيب.

وقصدنا إلى الفندق الذي ينزل به أحد نواب حلب (هنري هندية)، فرفض أول الأمر الخروج من غرفته لمقابلتنا، وأمام إصرارنا وتلويحنا بالتهديد والوعيد، خرج (ببيجامته وروبه) ووقف في أعلى الدَّرَج ونحن في البهو الذي في أول الدرج فقال بلغته العامية ما معناه: ما أنتم وهذه الشؤون. فلم ندعه يتم كلامه بل صعدنا الدرجات راكضين إليه فولى هارباً يتملكه الذعر، واقتحمنا غرفته فلم نجده بها، ولم نعلم أين اختبأ، فاكتفينا بذلك.

وعدا هذا النائب فقد تمرد على طلبنا أربعة نواب آخرين من مجموع النواب، وكان تمرد ثلاثة منهم ممزوجاً باللين والملاطفة والتظاهر بالاحترام، فأخذنا نجادلهم فأبوا أن يعدوا برفض المعاهدة. فعند ذلك لوّحنا لهم بالانتقام من كل من يوافق على المعاهدة وتركناهم.

أما الرابع فقد حاول أن يقف موقف هنري هندية فانتهى به الأمر إلى الفرار والتواري. ويؤسفني أنني لا أتذكر أسماء هؤلاء الأربعة لأسجل عليهم هذا الموقف.

وانتهت جولتنا وفي يقيننا أننا قد حققنا ما نبغيه، وقد كان كذلك، فلما عقدت الجلسة في اليوم الثاني أدرك الفرنسيون بأن المجلس سيرفض المعاهدة فأصدروا قراراً بفضّ المجلس وإيقاف جلساته قبل أن تبدأ المناقشة.

ثورة حمرا

ومن الذكريات الشعرية في تلك العهود التي تعبّر عما كانت تعتمل به نفوسنا من حماسة وأمل وتطلع أذكر هذه الأبيات التي نظمتها في ساعة من تلك الساعات المفعمة بالشعور الثوري الوطني:

سنقلب هذه الدنيا ... فنجعل بطنها ظهرا
سنملأ من جنود العر ... ب منها السهل والوعرا
سنملك بعد تشريد ... وترويع بها الأمرا
سنخضب من دم الإفرنج ... منها البر والبحرا
سنملأها بنا عدلاً ... كما ملئت بهم جورا
سنُطلع من بريق البيض ... في ليل الدجى فجرا
سنشعلها على ظلم الفر ... نجة ثورة حمرا

مع دي مارتيل

على أثر المظاهرات الدامية التي قام بها العرب في فلسطين والتي مشى على رأسها زعيم فلسطين موسى كاظم الحسيني احتجاجاً على السياسة الصهيونية، وعلى أثر مجزرة يافا التي سقط فيها نفر من رجال العرب المتظاهرين صرعى برصاص الإنكليز، قامت في دمشق المظاهرات الاحتجاجية الصاخبة، فاصطدم المتظاهرون بالشرطة فوقع القتلى والجرحى. وكان قد خطب بالمتظاهرين زكي الخطيب وأحمد الشهابي وغيرهما. فأصدر المفوض السامي الفرنسي الكونت دي مارتيل، وكان حديث عهد بالبلاد، بلاغاً كله تهديد ووعيد، واعتقل زكي الخطيب ورفاقه في سجن القلعة، فأضربت دمشق أياماً، وصدرت البيانات الاحتجاجية، فاجتمع طلاب الحقوق في منزل أحدهم وكلفوني بأن أرد باسمهم، فوضعت هذا البيان ووزع على الصحف فحذفت بعض مقاطعه عند نشره. وذلك في خريف سنة ١٩٣٣:

«تابع طلاب الحقوق في دمشق بدهشة بلاغ فخامتكم المنشور في الصحف المحلية، وقد استغربوا كل الإستغراب هذه اللهجة الشديدة تواجه بها البلاد في مفتتح عهد يقال إنه عهد جديد يختلف عن العهود السابقة، فإذا كانت فخامتكم تعتقد أن مثل هذه اللهجة يمكن أن توهن عزائم السوريين فتصرفهم عن تطلاب حقهم المنشود فقد ضللتم في ذلك السبيل. فالسوريون الذين درسوا وقائع الثورة الفرنسية دراسة وافية وتلقنوا تعاليم رجالها بما فيما من صبر وثبات لن تضعفهم لهجات الوعيد وعبارات التهديد. والطلاب السوريون وطلاب الحقوق منهم بخاصة، وهم الذين تلقوا على مقاعد الدرس آراء علماء فرنسا في دحض نظريات (نيتشه) التي لا ترى الحق إلاّ في أفواه المدافع وعلى رؤوس الحراب وفوق أشلاء الضعفاء ـ لا يسعهم إلاّ أن يعجبوا كل العجب من هذا التناقض بين آراء علماء فرنسا وبين أعمال سياسييها الذين يزعمون أنهم إنما هبطوا سوريا لإرشادها وتدريبها على الحرية والاستقلال!!

يا فخامة المفوض

إن سوريا العربية التي قطعت شوطاً بعيداً في الثقافة والتي قدمت على مذابح الاستقلال زهرات شبابها والتي يلوح لها من خلال الأجيال ماضيها اللامع بكل ما فيه من قوة وجلال لن يثني من أعنتها بيان تهديدي وبلاغ إرهابي، بل إن ذلك لينفخ فيها روح الحماسة والكرامة ويدفعها للعمل الاستقلالي المستمر.

لقد كنا نترقّب أن لا تستند بلاغاتكم إلى أشخاص تدفعهم وظائفهم لاتهام الناس وتشويه الحقائق تبريراً لأعمالهم وزلفى لأسيادهم. فقد جاء في البلاغ «أن المتظاهرين هاجموا مخفر باب توما بتأثير الخطب التي ألقيت في المسجد»، في حين أن المتظاهرين كانوا مسالمين لم يهاجموا أحداً ولم يطلقوا ناراً، وفي حين أن الخطب دعت الناس إلى عدم العنف. وقد أثبتت المشاهدة والتقارير الطبية أن الشهداء أصيبوا في ظهورهم مما يدل على أن رجال الشرطة هم المعتدون.

أما قولكم: «إن اعتداءات كهذه لا يمكن أن تغطى تحت ستار مظاهرة تضامن وتأييد بمناسبة حوادث تقع خارج البلاد، بل هو تحد للسلطة ليس في الوسع احتماله»، فقد عرف أن ليس هناك اعتداءات، ولم تكن غاية المتظاهرين مهاجمة المخافر والاستيلاء على الذخائر ـ كما زعم البلاغ ـ بل أرادوا الإعراب عن شعورهم بمظاهرة سلمية فقوبلوا بالنار والرصاص. والحوادث التي تظاهروا لأجلها ليست خارج بلادهم، بل هي في قلب بلادهم فإن فلسطين جزء الشام الذي لا يتجزأ.

وقد ألقيتم في بلاغكم المسؤولية على أشخاص معينين أمرتم بتعقبهم في كل حالة. ومعنى ذلك أنكم لم تتركوا المجال فسيحاً للقضاء ليستلهم من حقيقة الواقع لا من الأوامر الصادرة إليه. وقد كان اعتقال الأستاذ زكي الخطيب وإخوانه نتيجة فعلية لهذا الأمر.

فطلاب الحقوق الذين يؤلمهم مخالفة نصوص القوانين وانتهاك الحريات يلفتون نظر فخامتكم إلى جميع ذلك ويؤيدون بيانهم بإعلانهم هذا النهار إضراباً يشمل جميع فروع الجامعة السورية».

زيارة أحمد رامي

خلال دراسة الحقوق زار دمشق الشاعر المصري أحمد رامي فأقيمت له حفلات فيها، وقد حييته بهذه القصيدة:

وطن العروبة لا تلين قناته ... وبنو القريض الشاعرون حداته
هاجوا الغفاة النائمين عن الحمى ... فاستيقظت لصدى القريض غفاته
ولرب شاعر أمة مهضومة ... بعثت بأمته الإبا أبياته
يبكي على الحق السليب بعبرة ... شعرية فتثيرها عبراته
يا نازلاً والشعر يعبق نشره ... من ردنه فتهزنا نفحاته
السفح مفتر إليك تضاحكت ... أصواحه وتهللت هضباته
حيتك بالزهر النضير تلاعه ... واستقبلتك بوردها ربواته
يحنو الخلاف به عليك مرحباً ... ويؤهل الوادي ومنعطفاته
بردى وأي تحية مسكيّة ... بعثت إليك مع الصبا ضفاته
حنّت خمائله إليك تشوقاً ... وحنت عليك بطلّها دوحاته
غنيته الشعر الطروب فصفقت ... أمواهه وتأرجت نسماته
سر الجمال تراه حول ضفافه ... والسحر ما برزت به غاباته
تحنو الغياض على الوفود وتنحني ... بظلالها وثمارها شجراته
ترد الحسان على الضفاف سوافراً ... عن كل وجه أشرقت قسماته
يحلو لها الوادي وعذب نسيمه ... ويروقها بردى ومخضلاته
فتمر بالوادي فتأتلق الربى ... وتطيب من أعرافها جنباته
من كل فاتنة تورد خدها ... وتألقت في ثغرها بسماته
إنزل بضفّته ورجع منشداً ... شعراً تهيج قلوبنا نغماته
حدث عن النيل الشقيق فنيلكم ... تشتاقه وتحبه أخواته
ما باله يجفو العروبة إنها ... تدمي قلوب بني أبيه جفاته
لهفي على بردى تكدّر ماؤه ... بعد الصفاء وصوّحت جناته
لا الخيل في يوم الرهان خيوله ... كلا ولا تلك الظباة ظباته
سله عن المجد الذي عصفت به ... غير الزمان فنكست راياته
واليوم تغزى أرضه من بعدما ... بلغت أقاصي المغربين غزاته
سله عن الميدان أين جنوده ... يوم النضال وأين عنه حماته
صرح تهاوت للحضيض بنوده ... وتناثرت فوق الثرى شرفاته

يا ويح قلبي كم يكابد حسرة ... حتى تكاد تذيبه حسراته
يشكو تباريح الزمان وربما ... أجّت بأطراف اليراع شكاته
أترى تعود ليعرب أمجادها ... ويعود فيها ملكها وبناته

وداع الدروس

وأخيراً أنهينا السنوات الثلاث في معهد الحقوق سنة ١٩٣٤، وخرجنا إلى الحياة العامة نكافح فيها الزمن وصروفه وأحداثه. وقد ودعت عهد الدراسة بهذه القصيدة:

حسبي وحسبك ما لقيت وما بي ... فلقد أذبت فتوّتي وشبابي
علقت آرابي عليك ولا أرى ... أني سأظفر منك بالآراب
وسهرت فيك الليل أجرع دونه ... مر العذاب وما سواك عذابي
كم ليلة ليلاء بت أجوزها ... بحشا مروعة ووجه خابي
متلفعاً برد الهموم مقلباً ... بأنامل الفزع الممض كتابي
قلق أحاط بيقظتي فأحالها ... صوراً مروعة من الإرهاب
وعدا على نومي فما عقد الكرى ... إلاّ على أشباحه أهدابي
أرنو لمطّلع الصباح بمهجة ... حرى وقلب بالهموم مشاب
يا أيها الليل الطويل أتنجلي ... عن فجر ترويع وصبح عذاب
أم تحمل البشرى فتنعش معشراً ... سئموك خدن متاعب وصعاب
أوهت جسومهم الدروس وأعملت ... في كل قلب مثل حد الناب
وقفوا على الأبواب وقفة هالع ... يترقبون تفتح الأبواب
يا خيبة الآمال ثم لفاشل ... جم العناء وضيعة الأتعاب
فشل تذوب له النفوس مضاضة ... وتطيش منه رواسخ الألباب

* * *

اليوم لا «فحص» نبيت لأجله ... متقلبين على الغضا اللهاب
واليوم ودّعنا الدروس فحسرة ... لمودع لا يرتجي لإياب
لهفي على تلك العهود وليتها ... عادت بما فيها من الأوصاب
إني لأذكرها فأذكر عندها ... خير الرفاق وأفضل الأصحاب
أيام تجمعنا على صفو الهوى ... متآلفين شمائل الأحباب
نرتاد (دمر) ضاحكين إلى الربى ... (ونروح أسراباً إلى أسراب)
ونؤم من بردى الرياض نضيرة ... فوّاحة الأعراف والأطياب
يا أيها النهر المرقرق لا ذوت ... في ضفتيك نواضر الأعشاب
مهوى القلوب على وهادك والربى ... ومنى النفوس بمائك المنساب

قد كدروك على الأباة فما لهم ... من وردك الصافي غير شراب
لا تستطاب لذي الإباء متالع ... في ضفتيك ولا تشوق روابي

* * *

ولّت ليالي «الامتحان» وأقفرَت ... تلك الملاعب من جموع صحابي
لا الدار بعدهم تلذّ لسامر ... فيها ولا تحلو الرياض لصابي
من للبشاشة والكياسة بعدهم ... من للهوى والبشر والترحاب
من للحماسة يستثير كمينها ... من للتظاهر ثم والإضراب
المجد الزاهي يحن لفتية ... شمّ الأنوف غطارف أنجاب
قاموا بليلهم على أعواده ... يستفرون شمائل الأعراب
شدوا بكل مصابر مستبسل ... ومشوا بكل مواثب غلاّب[٣]



عند التخرج من معهد الحقوق سنة ١٩٣٤

الهوامش:

(١) تحدث فارس الخوري عن جميل مردم فقال: «كان جميل مردم يتصرف بالمصاريف المستورة على هواه وربما يخص نفسه بمعظمها إن لم يكن كلها فقد كان يحب المال حبّاً جماً، ويمد يده إليه عن أي طريق. دخل الحكم سنة ١٩٣٦ يلاحقه الدائنون في كل مكان بإشعارات الحجز على أمواله وخرج مليونيراً (الصفحة ٤٠١ من كتاب: **فارس الخوري وأيام لا تنسى**).

(٢) راجع أخبار المظاهرات والإضرابات وما جرى في المسجد فيما مرَّ من الكلام.

الفصل الرابع

أولى المعارك الوطنية

كانت أولى المعارك الوطنية بعد التخرج من معهد الحقوق تلك المعركة التي أعدت للصدام لأول مرة في جبل عامل بالإفرنسيين بعد استقرارهم في البلاد.

ففي الانتخابات اللبنانية سنة ١٩٣٤ وكنت لا أزال طالباً في معهد الحقوق قدّم الفرنسيون مرشحيهم لتلك الانتخابات، وتقدم في كل المناطق مرشحون معارضون سقط أكثرهم وفاز بعضهم، إلاّ في جبل عامل فإنه لم يترشح معارض واحد ـ وكان لجبل عامل نائبان فقط ـ ففاز مرشحا الفرنسيين بما يسمى بـ (التزكية).

وكنا نحن في دمشق نتحرق لأن منطقة جبل عامل هي وحدها التي لم تجر فيها معركة انتخابية، ولم يجرؤ مرشح فيها على أن يتحدى الفرنسيين.

ثم حدث في السنة التالية (١٩٣٥) وكنت قد تخرجت من معهد الحقوق أن توفي واحد من نائبي جبل عامل، فإذا بنا وجهاً لوجه أمام المعركة التي كنا بالأمس نتألم لعدم وقوعها، فقبلنا التحدي وصممنا على إشعالها، وكان لا بد لنا من أن نتذاكر في الأمر مع بعض العناصر الوطنية الفاعلة في بيروت، أو بالأحرى مع رياض الصلح.

وكان أهم الأمور هو إيجاد المرشح التقليدي الذي يقبل بترشيح نفسه معارضاً لمرشح الفرنسيين، وكان ذلك أمراً بالغ الصعوبة، ولم يكن من المستحسن تجاوز المرشحين التقليديين إلى مرشح شاب يفاجأ به الناس لذلك كان لا بد من المرشح التقليدي.

وقد تداولنا أكثر من اسم فتبين أن من يمكن خوض المعركة به هو أحد اثنين: يوسف الزين أو عبد اللطيف الأسعد. وكانت هناك عومل عديدة تحول دون ترشيح الأول، فانحصر الأمر بالثاني.

فتقرر في آخر لقاء لي مع رياض الصلح[1] أن أذهب لمقابلة عبد اللطيف الأسعد وأقنعه بالحضور إلى بيروت، وعند حضوره يمكننا إقناعه، مثيرين فيه رواسب فروسية يمكن أن تكون عالقة في نفسه من

ماضي بعض رجال أسرته القدامى، فذهبت أول الأمر إلى صيدا لأستفسر عن مكان وجوده، فإذا بي أعلم أنه موجود في صيدا نفسها، فأسرعت إليه في دكان حلاّق في بوابة صيدا الفوقا فتلقاني بالترحاب وشكرني على أنني أشدت بجدّه الأعلى ناصيف النصّار في خطاب تأبيني كنت قد ألقيته منذ شهر، وكان قد حضره ولم يتسن له رؤيتي بعد الخطاب ليشكرني على ما قلت، وها هو يغتنم فرصة هذا اللقاء ليؤدي هذا الشكر. وبعد تبادل المجاملات، قلت له أراك في صيدا فماذا تفعل؟ أجاب: إني أريد أن أرشّح نفسي للانتخابات وقد جئت أستأذن المستشار الفرنسي (بشكوف)[٢] في ذلك لعله يأذن لي، وموعدي معه بعد ساعة. فقلت له فإن لم يأذن لك؟ قال: أذهب وأقعد في بيتي. فقلت له: لقد سمعتني قبل شهر أشيد على المنبر بجدّك الشهيد ناصيف النصار بعد موته بأكثر من مائتي سنة، فهل تظن أن جدّك هذا لو كانت سيرته أن يذهب فيستأذن طغاة الحكام في تصرفاته فإن أذنوا له فعل، وإن لم يأذنوا ذهب فقعد في بيته، هل تظن أنه لو كانت سيرته هذه السيرة، أكان يشاد بذكره على المنابر بعد مائتي سنة من موته؟

فصمت بعض الصمت ثم قال لي: وما أستطيع أن أفعل إن لم أفعل ذلك؟

فقلت له: إنك سليل الأسرة التي كان لها أكبر الشأن في جبل عامل وأخرجت من أخرجت فيه من الرجال الذين سادوه عشرات السنين، ويكفيك منهم ناصيف النصار وحمد المحمود، وأنت اليوم حامل ميراث تلك الأسرة، ومن هو بشكوف؟ إنه دعي من أدعياء الفرنسيين سلّطوه على البلاد، أيليق بوريث ناصيف النصار أن يسمع له ويطيع؟!

فشعرت أن هذا الكلام قد حرّك كوامنه، فقال لي: أشر عليَّ.

فقلت له: إنك ذاهب بعد قليل لمقابلة بشكوف فلا تكلمه مستأذناً، بل قل له: إني مصمم على ترشيح نفسي للانتخابات، وجئت من باب اللياقة أخبرك بذلك.

وليكن كلامك له بنبرة عالية فيها العزة والشموخ، وتمثل نفسك وأنت تكلمه بأنك خليفة ناصيف النصار.

ثم قلت له: إذا أراد أن يناقشك فارفض مناقشته، وقل له: لم أجيء لمناقشتك بل جئت لأخبرك بالأمر الواقع، وها أنا منصرف لتنظيم معركتي الانتخابية. فتحمّس عبد اللطيف وقال: سأفعل ذلك.

وكان وقت مقابلته لبشكوف قد دنا فأسرع ذاهباً إليه وانتظرته في دكان الحلاّق.

فما هو غير قليل حتى عاد بمثل ما ذهب به من الحماسة، وقال لي: لقد طبّقت تعليماتك حرفياً وتركت بشكوف يغلي غلياناً من الغيظ، فما هو العمل الآن؟ وكيف لي بتحمل غيظ المستشار وغضب الإفرنسيين؟

فقلت له: وهل أنت أول من غاظ المستشار وأغضب فرنسا؟ ألا ترى ما يجري في سوريا؟ ألا ترى زعماءها يجاهرون الفرنسيين بالعصيان والتمرّد، فماذا استطاعت فرنسا بكل جبروتها أن تفعل بهم؟ لقد

نفت بعضهم لبعض الوقت ثم اضطرت إلى إعادتهم، فعادوا معززين مكرّمين من مواطنيهم. وأنت لست دونهم، ومواطنوك ليسوا دون مواطنيهم.

فقال: وكيف نتصرف الآن؟ فقلت له: الرأي أن نذهب الآن إلى بيروت، وهناك سنلتقي بذوي الرأي ونستمع إلى آرائهم، ونتكل على الله ونبدأ بإشعال المعركة. فشعرت أن الأمر قد هاله، فصمت صمتاً طويلاً، ثم قال: أمهلني إلى ما بعد الظهر.

فخشيت أن تهمد حماسته ويتردد، وأن يقابل بعض الانهزاميين الخانعين فيثنوه عن عزمه. فقلت له: لا مجال للإمهال، وعلينا أن نغتنم كل ساعة للعمل الجدي، فهلمّ بنا إلى بيروت، فاستجاب ومشى معي بخطوات بطيئة وهمّة فاترة مستهولاً ما هو مقدم عليه.

وأخيراً كنا في السيارة متجهين إلى بيروت، وكنت قد اتفقت مع أحد الأصدقاء أنه بمجرد أن يرانا نصعد السيارة، يتصل بالهاتف بمنزل رياض الصلح ببيروت ويخبره بتوجهنا إليها.

وكان لعبد اللطيف في بيروت ابن أخت هو في الوقت نفسه صهره يسكن بيتاً متواضعاً في محلة البسطة فذهبنا إليه رأساً. ولما استقر بنا المقام وقبل أن يسألني عن الخطوة التالية قلت له: إن فتى من آل الصلح قد توفي، ويصادف هذا المساء يوم أربعينه، فالرأي أن نذهب إلى منزلهم معزّين مشاركين في ذكرى الأربعين.

وكنت أعلم سلفاً بالصعوبة التي تنتظرني في إقناعه بتنفيذ هذا الاقتراح، لأن عداء مستحكماً كان بين كامل الأسعد شقيق عبد اللطيف وبين رضا الصلح عميد آل الصلح، ومع أن الاثنين كانا قد انتقلا إلى رحمة الله منذ سنين، فإن من المفروض أن تكون العداوة موروثة.

وصح ما توقعته فاستنكر هذا الاقتراح استنكاراً صارماً، وقال كيف يمكن أن أبدأ آل الصلح بالزيارة! ولا سيما رياض ابن رضا وبيننا وبينهم ما تعلم؟!

فلم أزل في محاورته وتقريب الأمور إليه وتذكيره بأن الدنيا تغيرت وأن لنا كل المصلحة في هذه الزيارة فيما نحن مقدمون عليه. فَلاَن وقال لي ضاحكاً: لقد هورتني منذ مقابلة بشكوف ولا بد لي من السير معك في هذا التهور إلى النهاية لنرى إلى أين ستوصلني في النتيجة.

وكان من المتفق عليه أن يستقبل في المنزل بحفاوة وأن يكون جماعة من وجهاء أحياء بيروت وفريق من الشبان حاضرين وأن يرحب الجميع به.

وفي أوائل الليل ذهبنا إلى منزل رياض الصلح فلقي هناك من التكريم والترحيب ما أرضى كبرياءه، وأثار سروره فبدا منشرحاً كل الانشراح. وبعد أن أقمنا حوالى الساعة، التفت إليَّ مشيراً بأن قد آن لنا أن نغادر المنزل، وكان الناس قد أخذوا بالانصراف، فهمست في أذنه بضرورة البقاء لأن اجتماعاً سيضمنا مع بعض النخبة بعد انصراف الجمهور لندرس الخطوات التالية. وهكذا كان، فلما لم يبق سوى المطلوب بقاؤهم التف حوله الحاضرون وذاكروه فيما هو مقدم عليه وشجّعوه ووضعوا أنفسهم في تصرفه.

وقد كان لا بد من جمع بعض أقربائه حوله لئلا يشعر في نفسه في أنه وحيد، وكان من يمكن جمعهم

هم ابنه أحمد وابنا اختيه أحمد الناصيف ورياض التامر. وكان ابنه أحمد في ذلك الحين شيئاً مهملاً لا يحس أحد بوجوده، وكان يسكن في بيروت في مكان على سطح فندق السنترال، فصار يحضر اجتماعاتنا ويرافق أباه في تنقلاته، ثم تبين بعد ذلك أن الإفرنسيين اتصلوا به وجعلوا منه جاسوساً على أبيه وعلينا، فكان ينقل إليهم أخبار كل تحركاتنا. والذي كشف المسألة، أنه تقرر إقامة حفلة لعبد اللطيف الأسعد في منزل محمد مطر وهو أحد العامليين الساكنين في بيروت. ولم يعلم بهذا القرار سوى رياض الصلح وعبد اللطيف وابنه أحمد وأنا، وتفرقنا ليلاً كل إلى منزله على أن يتم الاتصال بصاحب المنزل غداً.

وفي الساعة الثامنة صباحاً كان صاحب المنزل يُستدعى إلى مديرية الأمن العام الفرنسي ويقال له إن حفلة ستقام في منزله لعبد اللطيف الأسعد، وأن هذا يثير عليه غضب السلطات، وأنه إذا وافق على إقامة الحفلة فلا يلومنّ إلاّ نفسه.

فأبدى لهم استغرابه وأنه لا علم له بشيء من هذا. فقالوا له: اسأل رياض الصلح أو حسن الأمين فعندهما الخبر اليقين.

وحوالى الساعة التاسعة والنصف كان يوافينا إلى منزل رياض الصلح ويقص علينا ما جرى مبدياً استعداده لتحمل مسؤولية الحفلة فأعفيناه من إقامة الحفلة، وبقينا حائرين فيمن أوصل الخبر إلى إدارة الأمن العام بهذه السرعة، ومن هو المطلع على كل خطواتنا.

فإذا بنا أمام الحقيقة المرة، وإذا بأحمد بن عبد اللطيف يتجسس على أبيه، مضافاً إلى مهمته الأخرى وهي العمل على تثبيط عزيمة أبيه ومحاولة ثنيه عن خوض المعركة.

وقبل ذلك عندما قررنا أن ينتقل عبد اللطيف إلى جبل عامل ليعلن هناك عزمه على ما عزم عليه، وأن ينقل الخبر بنفسه إلى العامليين وأن يكون طريقه على النباطية، وهناك يوافيه ولده أحمد وابن أخته رياض التامر بمجموعة من الفرسان تنتقل معه من النباطية ماراً بها على أكبر عدد من القرى، فيدخلون القرية بخيولهم المطهمة وحدائهم الفروسي الحماسي، فيثيرون العزائم ويستفزون النفوس.

وقسمت منطقة (بلاد بشارة)[٣] أي ما يقع جنوب نهر الليطاني إلى قسمين: قسم يقصده رياض وقسم يقصده أحمد فيجمع كل منهما ما يستطيع جمعه من الفرسان ـ وكانت القرى يومذاك مملوءة بالخيل ـ ثم يسلك رياض طريق وادي السلوقي فوادي الحجير فجسر القاقعية فعقبة زوطر وصولاً إلى النباطية.

ويسلك أحمد طريق تل النحاس فجسر الخردلة ثم صعوداً إلى كفرتبنيت فالنباطية. ثم يدخل الاثنان النباطية كل من ناحيته بالأهازيج الحماسية المثيرة المتحدية، ثم يصطحبون جميعاً عبد اللطيف منطلقين معه بموكبهم الفروسي إلى الطّيبة. ويومذاك أطلقنا الحداء الذي اشتهر بعد ذلك في جبل عامل، والذي كان على الفرسان أن يرددوه وفيه ما فيه من التحدي العنيف لبشكوف بخاصة، ولفرنسا كلها بعامة.

ولقد اعتبره بعض الناس تحدياً جزافياً مضحكاً، ولكنه كان يومذاك أفضل ما ينشد وخير ما يهتف به في مثل الظروف التي كنّا فيها، وإذا كانت البلاغة ـ كما قالوا ـ مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فلم يكن في تلك الفترة أبلغ من ذلك النشيد:

بــشــكــوف خــبّــر دولــتــك　　ســلــطــانــنــا عــبــد الــلــطــيــف
بــاريــس مــربــط خــيــلــنــا　　ورصــاصــنــا يــوصّــل جــنــيــف

ولكن أحمد الأسعد أفسد الخطة كلها، فما إن وصل بفرسانه إلى تل النحاس، وكان فيه مخفر للدرك حتى استوقفه رقيب المخفر وقال إنه مكلف بأن يرجوه بأن يتصل هاتفياً بصيدا. ودخل أحمد إلى الهاتف. وروى الرقيب بعد ذلك ما سمعه: بأنه كان يسمع صوت أحمد وهو يقول: أمرك... أمرك... ويكررها بين فترة وفترة.

وأخيراً قال: لا يكون إلاّ ما يرضيك.

وخرج أحمد إلى فرسانه وقال لهم: لقد تبدلت الخطة وعليكم التفرق إلى قراكم.

ثم اختار اثنين منهم وطلب إلى أحدهم أن يسرع فيلاقي رياض التامر قبل وصوله إلى النباطية ويطلب إليه وإلى فرسانه العودة من حيث أتوا. ويقصد الثاني أباه عبد اللطيف في النباطية ليطلب إليه العودة إلى بيروت.

ولما لقيت رياضاً بعد ذلك ولمته على عودته، قال لي إنه فهم أن ذلك تقرر باتفاق الجميع، وأنه لو لم يستنتج هذا الاستنتاج وعلم أن المصدر هو أحمد لواصل سيره إلى النباطية.

ثم تبين بعد ذلك أن الذي كلّم أحمد هو محافظ صيدا أسعد عقل، ولم يدر أحد بتفصيل الحديث الذي كان طويلاً بينهما، ولم يظهر منه سوى كلمة: أمرك، ولا يكون إلاّ ما يرضيك التي سمعها رقيب الدرك.

ومن ذلك اليوم بدأ أحمد يتجسس على والده وعلينا، ويثبط عزائم والده ويحاول أن يثنيه عن إكمال الطريق.

قلت فيما تقدم إنه كان لا بد من جمع بعض أقرباء عبد اللطيف حوله، وأنه كان ممّن يمكن جمعه هم ابنه أحمد وابنا شقيقتيه أحمد الناصيف ورياض التامر. وبالفعل فقد رافق هؤلاء الثلاثة في أول الأمر عبد اللطيف.

أما ابنه أحمد فقد رأينا ما كان موقفه، وأما ابن شقيقته أحمد الناصيف فلم يلبث أن نكص على عقبيه وتخلى عن خاله. وبقي ابن شقيقته الآخر رياض التامر صامداً مع خاله لم يثنه وعد لا وعيد، ملازماً له في حله وترحاله. وكان مثل هذا الموقف في تلك الأيام التي كان فيها مجرد ذكر اسم بشكوف كافياً لدب الذعر فيمن يعتبرون أنفسهم من الشجعان ـ كان مثل هذا الموقف من رياض التامر نوعاً من البطولة.

رحم الله رياض التامر ما كان أطيب شمائله وأصفى حديثه وأشجع قلبه وأسمى وفاءه وأعذب مجلسه.

رحمه الله بقدر ما كان نائياً عن الصغائر مولعاً بالفضائل...

ونحن لم نتوقع أن ينجح عبد اللطيف في الانتخاب، لأن في يد السلطة كل الوسائل لإسقاطه مهما نال

من أصوات الناخبين، وكان كل همّنا أن لا يفوز مرشح السلطة بالتزكية، وكل خوفنا أن لا ترى السلطة معارضاً يقف في وجهها.

على أن النتيجة فاقت ما توقعنا، فقد لقي عبد اللطيف من الإقبال عليه ومن التحمس له في أوساط الشعب ما لم يكن منتظراً. ولأول مرة لا يبالي الجمهور غضب السلطة فيخرج على إرادتها.

وهكذا نجحت الحركة كل النجاح، وانكسرت حدّة بشكوف.

على أن بشكوف لم يسكت، فعوّل على الانتقام من القرى التي تحمّست لعبد اللطيف، فسلط عليها رجال الدرك ينكلون بأهلها، وراحوا يتفننون بذلك، فمن غرامات مالية تفرض على الناس، ومن سجن واضطهاد وإذلال.

ووصلتنا أخبار ذلك إلى بيروت، فكتبت نص برقية وعرضتها على عبد اللطيف ليوقعها، وكانت بهذا النص:

«فخامة المفوض السامي.

لم يكف بشكوف أن زوّر الانتخابات لإنجاح مرشحه حتى عمد اليوم إلى التنكيل بالناس وإرهاقهم وحجز حرياتهم والانتقام منهم سالكاً في كل ذلك مسلك كاربييه في جبل الدروز».

فسألني عبد اللطيف من هو كاربييه هذا؟ فقلت: هو الضابط الفرنسي الذي كان حاكماً لجبل الدروز فطغى فيه مما كان السبب في الثورة الدرزية الشهيرة على الفرنسيين سنة ١٩٢٥. فأعجبه ذلك ووقّع البرقية في الحال.

وعملت نسخاً من البرقية تصل إلى الصحف البيروتية كلها لعل واحدة تجرؤ فتنشرها، فلم تنشرها إلاّ جريدة واحدة، وذلك أنها كانت قد عزمت على التوقف نهائياً بعد أيام. فأقدمت على نشر البرقية مما أمكن إيصالها إلى الناس في جبل عامل.

وأذكر أننا زرنا في اليوم الثاني لإرسال البرقية أحد الصحفيين في إدارة جريدته فقال: لما وصلتني البرقية كادت يدي ترتجف وأنا أمسك بها.

إذ إن البرقية كانت تهديداً بالثورة المسلحة.

ثم كنت مضطراً لترك بيروت والذهاب إلى دمشق لأني كنت أتابع التدرج في المحاماة الذي لا بد منه بعد نيل إجازة الحقوق. وبعد شهر من وصولي إلى دمشق علمت أن الخانعين المتزلفين وفي طليعتهم أحمد الأسعد بن عبد اللطيف نفسه حملوا عبد اللطيف على زيارة بشكوف مما كان يعتبر توبة عما جرى!

ولكن كان المقصود من الحركة قد حصل واهتزت هيبة بشكوف وأمكن إيجاد معارضة مناهضة للفرنسيين.

مرة أخرى مع عبد اللطيف الأسعد

تلقيت وأنا في دمشق رسالة من عبد اللطيف الأسعد يرجوني فيها أن أحضر إلى بيروت لمقابلته لأمر

هام، وقد أكد هذا الرجاء كل التأكيد. وعيّن لي المكان والزمان اللذين ألقاه فيهما. فكان لا بد لي من الذهاب إلى بيروت لأرى ماذا يريد عبد اللطيف.

ووصلت في الوقت المحدد، فوجدت عبد اللطيف الأسعد وابنه أحمد ومعهما رجلان آخران هما (ر .ب) و(م .ب)، فتعجبت من التقاء هؤلاء الأربعة في مكان واحد مع أن لا رابطة بين الرجلين وبين عبد اللطيف وابنه، ولكن عجبي زال حين بادرني عبد اللطيف بقوله: إنه لا ينسى الأيام التي صحبته فيها والتي كانت مشرفة له، وإنه لا ينسى ما بذلته من جهد في سبيله لذلك فقد عزم على أن أكون وكيله ووكيل شركائه فيما يريدون بيعه من أراضٍ شاسعة واسعة، ثم شرح الأمر قائلاً: لقد عزمنا على بيع المنارة وهونين وما يلي ذلك من مساحات ممتدة من الجبل حتى سهل الحولة إلى شركة صهيونية وإن هذين الحاضرين هما السمساران. ولما كان مالكو الأرض هم عديد من الشركاء ورثوها عن جدّهم خليل الأسعد، كما يشاركهم في بعضها آل الخوري، لذلك طلبت الشركة أن يوكل الجميع وكيلاً عنهم يجري معاملات البيع باسمهم ويقبض باسمهم ويسجل باسمهم. وإنه (أي عبد اللطيف) قد طلب من جميع الشركاء أن أكون الوكيل لائتمانه إياي، ووفاء لي على ما عملته من أجله، وإنه أصرّ على أن لا تكون أجرة التوكيل هي ما تعورف عليه، بل تكون مبلغاً كبيراً، وإن السمسارين قد قبضا عربوناً لهذا البيع وسيُدفع لي حالاً هذا المبلغ من أصل العربون المقبوض.

وهنا قال أحد السمسارين إن المبلغ عنده وإني أستطيع أن أقبضه متى شئت. وكنت في ذلك الوقت في ضيق مالي شديد اضطررت معه لأن أستدين نفقات السفر إلى بيروت من أحد أصدقائي الدمشقيين. ولكنني لم أكد أسمع هذا القول من عبد اللطيف الأسعد ومن السمسار حتى انتفضت غاضباً وصحت في الحاضرين: إني لا أسمح لنفسي بأن أقيم لحظة واحدة في هذا المجلس الدنس. ثم خرجت.

وبسبب رفضي قبول التوكيل تردد عبد اللطيف في اختيار وكيل آخر وظل في تردده، ثم إذا به يصاب بشلل فينقل إلى المستشفى ولا يلبث أن يموت.

وبعد موته أقنع ابنه أحمد الورثة بأن يكون هو الوكيل عن الجميع، وهكذا كان، فباع باسمه واسم موكّليه تلك الأراضي الواسعة للصهاينة(٤).

وبعد استقلال لبنان سنة ١٩٤٣ وخروج الفرنسيين منه أصبح أحمد، بائع الأرض للصهاينة، وزيراً في الوزارات التي كان يؤلفها رياض الصلح وغيره، ثم أصبح رئيساً للمجلس النيابي.

كما كان أحمد الأسعد نفسه في إحدى المرات عضواً في الوفد اللبناني الذي ذهب برئاسة رياض الصلح لحضور أحد اجتماعات الجامعة العربية التي كانت تعقد في القاهرة للبحث في شؤون فلسطين المغتصبة من الصهاينة.

تم بسعي رياض الصلح، بنت الجامعة العربية قصراً لأحمد الأسعد في قريته الطيبة.

الهوامش:

(١) كان شبان آل الصلح في ذلك الوقت الأشقاء عادل وكاظم وتقي الدين وعماد هم المتصدون لنضال الفرنسيين المعرضين أنفسهم لغضبهم وانتقامهم، وقد ورثوا عن والدهم عقارات ومزارع كان يمكن أن تجعل منهم أثرى الأثرياء لو أنهم احتفظوا بها واستكانوا إلى الراحة والهدوء. ولكن وطنيتهم وإخلاصهم للقضية العربية كلها أبيا عليهم إلاّ التجرد للجهاد الوطني فحاربهم الفرنسيون في أرزاقهم، فما زالوا يبيعون ما يملكون قطعة وراء قطعة حتى باعوا جميع ما يملكون وأنفقوا أثمانه في الكفاح الوطني الطويل، وحسبك أنه كان من أملاكهم في بيروت منطقة (الروشة) فباعوها بأبخس الأثمان، ثم أصبح ثمن الشبر من ترابها يعادل ثروة، كما باعوا مزراعهم في جبل عامل وعاشوا عيش الكفاف.

ولما تحقق الاستقلال الذي تفانوا في سبيل تحقيقه، وافتقروا من أجل إنجازه كان جزاؤهم من أمتهم وممن وثبوا على مغانمها جزاء سنمار. فإذا ببشارة الخوري الذي قضى حياته كلها مطية للفرنسيين يحكم باسمهم وينفذ أوامرهم، ثم أصبح هو وزمرة من عملاء الاستعمار أصبحوا في غفلة من الزمن وبدعم من الإنكليز يسمون أنفسهم أبطال الاستقلال، إذا ببشارة الخوري هذا وهو رئيس لجمهورية الاستقلال!! يحول بسلطانه دون البطل الاستقلالي المناضل كاظم الصلح وبين الوصول إلى النيابة فينجح صلاح البزري ويفشل كاظم الصلح.

وينجح بعد ذلك في بيروت أحد النكرات ويفشل تقي الدين الصلح. ولما اجتمعت بعد زمن عدة عوامل ضاغطة كان لا بد معها من تكليف تقي الدين بتولي رئاسة الوزراء كان المسؤولون يدون وكأنهم يمنون عليه بذلك. وقد عمل تقي الدين في رئاسة الوزارة بذهنية رجل الدولة لا بذهنية المتسلط، فكان من أول ما فكر فيه إنشاء مجلس أعلى للثقافة، وقد نفذ فكرته فألف المجلس من نخبة من رجال الفكر، وإبعاداً للفكرة عن كل استغلال، فقد جعل أعضاء المجلس متطوعين في عملهم لا يتناولون أي راتب أو تعويض مما لم يعهد له مثيل فيما سمي بالجمهورية اللبنانية، إذ كانت تتخذ مثل هذه الأمور وسيلة لإثراء الأتباع والأنصار كما جرى من قبل فيما سمي بالمجلس الأعلى للسياحة.

ولكن الأمر لم يطل فوضعت العراقيل في وجه تقي الدين فآثر الاستقالة، وانتهى باستقالته أمر مجلس الثقافة.

(٢) هو الطاغية الفرنسي الذي كان أول أمره مستشاراً في صور ثم ترقى فصار مستشاراً في صيدا فطغى وبغى وفيه أقول:

والـهـفـتـاه لأوطـان ممـزقـة	يـنـهـى ويـأمـر فـيـهـا الـعـلـج بـشـكـوف
أنـظـر إلـيـه تـراه بـيـنـهـم ضـبـعـاً	فـظـاً وهـم بـين أيـديـه خـواريـف
يـا لـلـرجـال أمـا فـي الـقـوم ذو وشـم	يـأبـى الـهـوان أمـا فـي الـقـوم غـطـريـف

(٣) هي المنطقة التي يكثر فيها أصدقاء آل الأسعد.

(٤) كان معظم هذه الأراضي داخلاً ضمن فلسطين، ومساحة منه ضمن لبنان، وكانت إسرائيل لم تقم بعد، وكان همّ الصهاينة شراء أقصى ما يستطيعون شراءه من الأرض العربية. ولما قامت إسرائيل بعد ذلك وأريد تحديد حدودها مع لبنان أصرّ اليهود على أن تكون حدود دولتهم على مستوى الأرض التي اشتروها مما هو داخل لبنان وبذلك استولوا على ما يقرب من ثلث أراضي قرى: عديسة، ومركبا، وحولا، وميس، وبليدا، وعيترون، استولوا عليه اغتصاباً بحجة تسوية الحدود. كل ذلك بسبب ما ارتكب أحمد الأسعد.

الفصل الخامس

في العراق

العام ١٩٣٨ كان الشيخ محمد رضا الشبيبي وزيراً للمعارف العراقية في وزارة جميل المدفعي التي ألّفها بعد اغتيال بكر صدقي وسقوط وزارة حكمت سليمان. وقد كان وجود الشبيبي في وزارة المعارف عاملاً في انتقالي إلى العراق للتدريس في معاهده. وكان لا بد من هذه الخطوة. فأنا عندما دخلت معهد الحقوق في الجامعة السورية لم يكن في ذهني العمل في المحاماة بعد التخرج لعدة عوامل منها: أن المحاماة تقتضي التفرغ لها تفرغاً كاملاً مما كان سيشغل كل أوقاتي فيصرفني عن تنفيذ ما كنت أشغل به ذهني من البحث التاريخي، بعد أن استهواني هذا البحث كل الاستهواء. ومنها أن التفوق في المحاماة في لبنان كان لا يمكن لمن لا يجيد اللغة الفرنسية، فإن كثيراً من الأحداث كان أمر الفصل بها يعود إلى ما سُمي بالمحاكم المختلطة، وهي المحاكم التي تتألف من قضاة فرنسيين ولبنانيين ويرئسها الفرنسيون ومنها محكمة التمييز، والمرافعات في هذه المحاكم باللغة الفرنسية التي كانت معتبرة لغة رسمية في جميع دوائر الحكومة حتى في مجلس النواب، ومعنى ذلك أن المحامي الذي لا يجيد اللغة الفرنسية لن يكون في الصفوف الأولى من المحامين، وأن ذلك محصور بخرّيجي معهد الحقوق في الجامعة اليسوعية في بيروت، ولم يكن بإمكاني التسليم بالقيام بعمل لا يكون باب التفوق فيه مفتوحاً أمامي.

ومنها أن طبعي بعيد عن الانغماس في مشاكل الناس وخلافاتهم والانشغال بخصوماتهم، وهي خصومات يبعثها التكالب المادي، وأنه إن صح أن المحامي يستطيع أحياناً أن ينقذ بريئاً أو يرد حقاً سليباً فإنه في كثير من الأحايين سيدافع عن مجرم وسيناصر ظالماً ويدعم مغتصباً. ولم أكن أحتمل أن يكون عماد حياتي قائماً على هذا الأساس.

وكنت أتذكر دائماً ما رواه (اتلي) أحد رؤساء حزب العمال البريطاني ومترئس وزاراته من أن الذي صرفه عن المحاماة، بعد أن كان قد بدأ العمل فيها ناجحاً، أنه في أوائل عهده في المحاماة دافع عن متّهم بجناية كان قد أقنعه بأنه بريء واستطاع تبرئته مما اتُّهم به، ثم تبين له أن صاحبه مجرم عريق في الإجرام.

لهذا كله لم يكن في ذهني أن أعمل محامياً، وفي الوقت نفسه كانت الأبواب الأخرى مسدودة أمام أمثالنا في عهد الانتداب الفرنسي، ولم يكن في إمكاني الانصراف إلى ما يستهويني من الدراسات والبحوث، لا سيما التاريخية منها، فرأيت في التدريس في معاهد العراق ما يقربني مما أحاوله.

لذلك ذهبت إلى العراق مرتاحاً منشرحاً، فكان أن عهد إليّ التدريس في ثانوية مدينة الحلة المنشأة في العام نفسه.

في الحلة

وكان العراق يستقدم معظم مدرسيه من مصر، إذ كانت حكوماته تنشيء في كل عام مدارس جديدة، لذلك كانت محتاجة في كل عام إلى مدرسين جدد، فكانت تواصل استدعاء المدرسين من الخارج وكان اعتمادها في ذلك على مصر.

ومن طريف ما كان يجري أحياناً أن المدرسة كان يصلها من المدرسين العدد الذي تحتاجه دون أن يراعى الاختصاص فيجد مدير المدرسة أمامه مثلاً مدرّساً للغة الإنكليزية في حين أنه يحتاج إلى مدرس للتاريخ فيضطر إلى أن يسد فراغ التاريخ بغير المختص بالتاريخ.

وهناك قصة تروى عن مدرّس لبناني عهد إليه بتدريس التاريخ وهو لا صلة له بهذا العلم، فكان من مواضيع تدريسه موضوع الدولة البويهية فكان يلفظ كلمة (بُوَيْه) المضمومة الباء المفتوحة الواو الساكنة الياء، كان يلفظها مضمومة الباء ويجعل الواو حرف مد، والياء مفتوحة والهاء ساكنة (بُويَهْ). وكذلك يلفظ كلمة (المَغول) المفتوحة الميم، والمضمومة الغين، والتي واوها واو مد، كان يلفظها مكسورة الميم ساكنة الغين مفتوحة الواو ساكنة اللام (مِغْوَلْ).


في ثانوية الحلة العام ١٩٣٩

ولما جئت مدينة الحلة كان مدير الثانوية عبد الوهاب الركابي وهو من أكفأ رجال المعارف، إداري حازم جيد الثقافة على جانب من طيب الذات وحسن الخلق وإنصاف الناس.

جئت أنا على أساس أني مدرّس للأدب العربي، ولكن المدير وجد أن لديه شواغر في الأدب العربي وفي التاريخ الحديث وفي الاقتصاد، فقسم دروسي بين هذه الثلاثة.

وقد وقع اختياري لمدينة الحلّة موقعاً

حسناً في نفسي، فأسرتنا في الأصل عراقية من الحلة نفسها أو من ضواحيها جاء جدّنا الأعلى منها إلى جبل عامل واستقر في شقرا.

وإلى الحلَّة ينتمي العلاّمة الحلي والمحقق الحلي وصفي الدين الحلي والسيد حيدر الحلي والسيد جعفر الحلي وغيرهم، وهي أسماء تتردد كثيراً في بيوتنا ومجالسنا، لذلك وجدتني مسروراً بأن أكون في منابت أولئك الرجال وفي الأرض التي خرجت منها أسرتنا.

ولم تخيب الحلَّة اغتباطي بوجودي فيها، فقد كان يغلب على سكانها الاتصاف بالصفات الحسنة، وكان كل من اتصل بهم يبعث الاتصال به الثناء عليه، فضلاً عن وجود مجموعة طيبة المعشر أنيسة المجلس نيّرة الفكر.

لذلك كانت أيامي في الحلّة وتلك السنة الدراسية التي أمضيتها فيها من أمتع أيامي وأعذبها.

والحلّة فضلاً عن ذلك من أجمل المدن بفراتها ونخيلها ورياضها وبساتينها، مما كان مبعثاً للشعر والنثر في نفسي فكان مما قلته فيها قصيدة فقدت مني وأتذكر منها هذه الأبيات:

ظلٌّ على شط الفرات ظليل ... ومرابع فتانة وحقول
ليست تملّ العين رائع حسنها ... إذ كل حسن غيرها مملول
وزها الفرات لرائديه وأمرعت ... في ضفتيه تنائف وسهول
تحلو على الأجراف ثمة بكرة ... ويطيب في ظل النخيل أصيل
يا صاحبي قفا فثمة موقف ... في الجسر فوّاح الأريج ظليل
تترقرق الأمواه فيه دوافقاً ... فيروق مجرى دافق ومسيل
ويلذ للورّاد عذب نسيمه ... وتشوقهم فيه صبا وقبول
أمناظر الشط الجميلة كم حلا ... في جانبيك لرائديك مقيل
كم وقفة في الجسر عاطرة الشذا ... والماء رهو والنسيم عليل
طال الوقوف بنا عليك عشية ... إن الوقوف على الجمال يطول

* * *

يا نازلين على الشآم وإنكم ... بينَ الجوانح في الفؤاد نزول
ما لذَّ ورد للمشوق ولا ارتوى ... من بعدكم للمستهام غليل
يهتاجه الزهر النضير إليكم ... ويهزه في الرافدين نخيل
أو ما تزال على كروم (حريبة) ... ترد الحسان عشيّة وتقيل
وهل العيون الدافقات كعهدنا ... تجري على خضر الربى وتسيل
إني ليصبيني الخزام على النوى ... ويشوقني الزيتون والملّول
وجد على شحط المزار مبرح ... وشجى بطيات الضُلوع دخيل

والواقع أن الفترة التي قضيتها بين التخرج من معهد الحقوق سنة ١٩٣٤ وبين وصولي إلى الحلة سنة ١٩٣٨ كانت فترة ركود في إنتاجي الكتابي ولا أستطيع أن أعد منها شيئاً يذكر.

وكان عهدي الجديد خصباً في هذا الإنتاج افتتحته بمقال في وصف الرحلة من دمشق إلى بغداد، وكان هذا أول مقال في أدب الرحلات الذي كنت مولعاً به مطالعة، وطامحاً إلى الكتابة فيه، ثم تتابعت بعده مقالات الرحلات التي كنت أقوم بها داخل العراق مما يؤلف جزءاً كبيراً من «ذكريات الترحال».

وكانت ثاني المقالات في وصف رحلة قمت بها مع الطلاب من الحلّة إلى سامراء.

وعدا القصيدة اللامية التي مرّ ذكرها نظمت قبلها قصيدة كانت من وحي أول عيد يمرّ عليَّ وأنا بعيد عن الوطن والأهل ومنها:

أطل علينا كالح الوجه خابيا ... يثير شجوناً في الضمير سواجيا
أطل فلا القلب الطروب كعهده ... طروب ولا غرّ الليالي كما هيا
يهيم بحوراء اللحاظ ويجتلي ... على طلعة العيد الحسان الروانيا
لقد حال ذا البشر غماً وبدلت ... ضواحك نفسي في الحياة بواكيا
فلا العيد بساماً يهيج صبابتي ... ولا الحسن وضّاءً يثير غراميا
تلفتّ للعيد المطل فلم أجد ... على جنبات العيد إلاّ مآسيا
ورائي من الأشواق ثم مفاوز ... وبحر من الأشجان طام أماميا
تلفّت من شط الفرات فراعني ... على جنبات الشط أن لا تلاقيا
لئن لذّ للورّاد عذب فراتهم ... فإن فؤادي فيه ما زال ظاميا
يحن لماء البركتين ويشتهي ... مشارع في تلك الذرى ومساقيا
له الله خفاقاً على غارب النوى ... يصارع أياماً ويشكو لياليا
لقد شفّه بعد المزار وهاجه ... إلى شجرات الرند أن ليس دانيا
فيا شجرات الرند في سامق الربى ... سقيت على البعد الغمام الغواديا
فما راقني بعد (الدواوير) مربع ... ولا اعتضت عن (وادي السلوقي) واديا
ولا شاقني من بعد (غرة) مبسم ... يشوق ولا هاج الغرام فؤاديا
سقى (الحومة) الخضراء صوب سحائب ... وروى هطول المزن ثم (الدغاليا)
مرابع يطلعن (السكوكع) أبيضاً ... ويزهين (بالدحنون) أحمر قانيا
نناجي مغانيها النضيرة لو وعت ... على منتأى الدار المشوق المناجيا
ونسأل عنها الركب هل كان زاهراً ... ربيع الحمى فيها وهل كان زاهيا

والدواوير، ووادي السلوقي والحومة، والدغالي: أماكن في شقرا، والسكوكع والدحنون من أزاهيرها البرية.

وللمقايسة بين هذا الإنتاج الشعري في الحلّة وبينه بعد التخرج من معهد الحقوق يكفي أن تعلم أن آخر

قصيدة كنت قد نظمتها كانت وداعاً للدروس عند التخرج، ثم انقطعت بعدها عن الشعر إلى أن كانت القصيدة اللامية ـ ثم اليائية في الحلة.

وكذلك الحال في النثر. ولا يزال من أحب ما كتبته من النثر إلى نفسي، قطعة عاطفية كتبتها في الحلّة عند سماعي في المذياع زجلاً لعلي الحاج مذاعاً من بيروت يقول فيه:

عـطـشـان وقـلـبـي مـحـروق اسـقـيني مـن ابـريـقـك مـيّـا

وقد ضممت هذه المقالة إلى ذكريات الترحال، وهي وإن لم تكن من أدب الرحلات ولكنها لصيقة به.

وصرت بعد ذلك لا يصدر جزء من أجزاء مجلة «العرفان» الشهرية إلاّ ولي فيه مقال، إما في الأدب العربي أو في أدب الرحلات. ومما نشرته فيها في تلك الفترة دراسات عن الشاعر ابن هاني الأندلسي، وهي فيما أحسب أول دراسات تنشر عن هذا الشاعر المظلوم. وكذلك دراسات عن الشاعر ابن زيدون نشرت في بعض المجلات البيروتية.

وممن عرفتهم في الحلة، متصرفها السيد سعد صالح، وهو من رجال الأمة العربية المعدودين، فقد نشأ عصامياً وكوّن نفسه بنفسه، وكان يجمع الذكاء الوقاد والموهبة الأدبية والخطابية والحنكة السياسية والرأي الراجح والوطنية الصادقة. وكان كل ما فيه يؤهله للزعامة الشعبية النافذة. ولما احتيج إليه ليكون وزيراً للداخلية رفض قبول الوزارة ما لم تطلق حرية تشكيل الأحزاب فكان له ما أراد. ولما استقال من الوزارة وانصرف إلى المعارضة المنظمة كانت قد تهيأت له كل وسائل القيادة الشعبية الراسخة وأصبح ينظر إليه نظرة الزعيم الذي أخذت تتجمع حوله القلوب، وبينما هو يخطو خطواته المتتابعة انقضّ عليه داء عضال بدأ يهدّه طيلة سنتين هدّاً بطيئاً، ولكن متمكناً، ولم تنجح في مقاومته علاجات العراق وأوروبا، حتى انطفأ سراج سعد في غير أوانه! فانطفأت بانطفائه شعلة مروءات ونخوات وأريحيات وألمعيات.

ومن الطرائف في الحلة أن الحي الذي سكناه أنا وزميلان مصريان كان اسمه حي (التعيس)، ولا أدري من هو هذا التعيس الذي أطلق الحليون لقبه على هذا الحي، ولا ما هو نوع تعاسته ولا ما هي أسبابها.

ولو كنا ممّن يتشاءمون من الأسماء والمناظر على الصورة التي يتهمون ابن الرومي بها لرفضنا أن يكون منزلنا في حي (التعيس)، ولكننا لم نكن كذلك، ورضينا بأن نقيم في المكان الذي كان يوماً مصدراً لتعاسة الناس.

وإنصافاً لهذا الحي فإننا نشهد أن التعاسة لم تطرقنا فيه، بل كنا على الكثير من السعادة والبشر، وهو الجو العام الذي كانت تضفيه علينا الحلة سواء من حيث جمالها الطبيعي الناضر، أو من حيث أصالة أهلها في خلال الخير.

موت الملك غازي

ومن ذكريات الحلّة أننا فوجئنا في صباح ٤ نيسان/ أبريل سنة ١٩٣٩ بنبأ مصرع الملك غازي مصرعاً

مروعاً، وكان لغازي حب في نفوس الناس، وكانوا يعقدون عليه آمالاً كبيرة، لذلك كان لموته في عنفوان شبابه صدى حزن عميق أثار الجماهير أي إثارة.

وبعد مرور ثلاثة أيام على وفاته أقيمت له في الحلة حفلة حافلة دعيت إلى الخطابة فيها، فألقيت كلمة أنقلها هنا ليرى القارىء كيف كنّا نفكر في تلك الأيام. وقبيل وفاة غازي كانت الاضطرابات في سوريا قائمة على الفرنسيين، وقد انتصر العراقيون لإخوانهم في بلاد الشام، فعقدوا الاجتماعات وقدموا الاحتجاجات وأقاموا المظاهرات.

وكانت للملك غازي محطة إذاعة خاصة في قصره (قصر الزهور) كان يشرف عليها بنفسه وكانت صدى لكفاح السوريين تنشر أخبارهم وتثير هممهم. وفي يوم من الأيام ألقى منها أحد المدرسين السوريين خطاباً حماسياً استصرخ فيه الملك غازي، فكان يكرر في خطابه نداء: يا غازي... يا غازي... مستنصراً به على الفرنسيين، مستنجداً به للسوريين. وفي اللحظة التي أنهى فيها الخطيب خطابه تعالى صوت في المذياع: لبيك... لبيك.

وكانت مواقف غازي الوطنية ومجاهرته بالعداء للإنكليز وللفرنسيين معاً، هذه المجاهرة التي كانت تتجلى أكثر ما تتجلى في إذاعة قصر الزهور تحرج الحكومة العراقية وتثير غضب الإنكليز. لذلك شاع يومذاك أن موت غازي لم يكن طبيعياً وأن أمراً دبّر للتخلص منه.

وهذه هي كلمتي في حفلة تأبين الملك غازي:

«إنني يا سادة باسم تلك العصب من الفتيان النضر الذي يهوون تحت الرصاص في بلاد الشام أنحني أمام هول الفاجعة في العراق، وإنني باسم ذاك الدم الموار على سهول الغوطتين وفي محافي النير بين أخشع أمام دم الغازي.

وإنني من أعماق القلب أحيي هذا الجمع الكريم وأحيي هذه الأرض الطيبة وأشكر الظرف الذي ساقني إليها فتعرفت إلى هذه الوجوه النيرة والطلعات المشرقة.

بالأمس هب العراق يواسي الشام في فجيعتها، وتدافع بنوه غضباً للظلم النازل بها، فما أدري إن كان في موقفي هذا بعض المقابلة بالمثل.

ولكن كلا يا سادة: فإن غازي لم يكن للعراق فحسب، فابن الشام شريك ابن العراق في هذا المصاب، وغازي قبل أن يكون ولي عهد العراق في حياة أبيه كان ولي عهد الشام. وفيصل قبل أن يكون ملك العراق كان ملك الشام، فموقفي بينكم ليس إلاّ موقف المفجوع بمليكه لا موقف المعزّي لإخوانه.

إنكم لتسمعون تلك الصيحات النارية التي تدوي بها بطاح الشام، وترون ذاك الصراع الدموي فوق ثرى بردى.

إنها صيحات الشعب الأنوف يأبى أن يمد يديه للأغلال ورجليه للأصفاد. إنها أصوات فتيان العرب الغطاريف يأنفون ذلة الاستعباد وعار الهوان، قد أجمعوا أمرهم على الوثبة، فإذا فاتتهم الحياة الشريفة فلن يفوتهم الموت الشريف.

لقد قيل قديماً:

لا يعرف الشوق إلاّ من يكابده ... ولا الصبابة إلاّ من يعانيها

فإذا ما حدّثتكم حديث الجهاد فقد كابدتم هذا الجهاد وعانيتموه وبرزتم فيه، فإخوانكم اليوم لا يزالون من

حيث ابتدأوا يناضلون المستعمر بالدم والمال، ولقد كان لهم من أبي الغازي ثم من الغازي بعده حصناً حصيناً وسنداً معيناً، ولقد تعالى صياحهم بالأمس: واغازياه مستصرخين، ثم تلفتوا فصاحوا: واغازياه... ولكن متفجعين، فشتان بين الصيحتين!

يا فتيان العراق: إن أمتين كبيرتين هما اليوم حديث العالم، كانتا حيناً من الدهر وكل واحدة منهما قبائل وشعوب، فهبت في إحداهما (بروسيا) وهبت في الثانية (بيدمنت) فقادت الأولى ألمانيا إلى وحدتها الجبارة، وقادت الثانية إيطاليا.

وإننا نحن العرب الطامحين إلى مملكتنا الكبرى، نتلفت إلى القطر العربي الذي يستطيع أن يمثل في العرب دور بروسيا في ألمانيا وبيدمنت في إيطاليا فلا نجده إلاّ في العراق.

لقد كانت سوريا تستطيع أن تكونه، ولكن سوريا الشهيدة رماها الله بعدو جاهل ظل على حربها طوال عشرين عاماً حرباً لا تهدأ.

فسوريا لا تستطيع ذلك ما دامت وفي كل واد منها دم مطلول وثأر مطلوب.

فليس في الميدان اليوم إلاّ العراق. إن حدودكم ليست في قلب الصحراء على أبواب الرطبة، إن حدودكم على ساحل البحر المتوسط، وليس مرفأ بغداد هو البصرة: إن مرفأ بغداد هو بيروت وحيفا.

يا فتيان العراق: ليست المملكة المؤلفة من خمسة ملايين هي المملكة التي تروي الظمأ القومي وترضي الطموح الوطني، بل هي المملكة التي تضم العشرة الملايين ثم عشرات الملايين، هي المملكة التي تضم العراق وسوريا وفلسطين أولاً، ثم البلاد العربية جميعاً ثانياً.

فهذه كانت أمنية فيصل وأمنية الغازي. وإذا كان فيصل الأول وشبل فيصل الأول قد ماتا قبل أن يرياها، فإن فيصلاً الثاني سيراها إن شاء الله» (انتهى الخطاب).

تعيين الوصي

ولما كان ولي العهد فيصل قاصراً، كان لا بد من تعيين وصي له يتولى شؤون الملك. وكانت أنظار الناس كلها متجهة إلى الأمير زيد عم غازي باعتباره أكبر رجل في الأسرة سناً وتجربة وقرابة، ولكن فوجىء الناس بتعيين عبد الإله خال فيصل.

وقد تبين أن الأمر جرى على هذه الصورة: كان رئيس الوزراء يومذاك هو نوري السعيد وله، بحكم منصبه وبحكم أشياء أخرى، القول الفصل في هذا الموضوع وكان هواه مع عبد الإله لا حباً بعد الإله، بل لأنه كان يرى في الأمير زيد رجلاً متمرساً بالحياة لا يسلس القياد، بينما يرى في عبد الإله شاباً غرّاً من السهل تطويعه، ولنوري السعيد مطامعه في السيطرة على حكم العراق، وهذه السيطرة لا تتم بوجود رجل قوي الشكيمة مجرب كالأمير زيد.

وقيل يومذاك إن لنوري السعيد تجاربه مع الأمير زيد أيام كانا يعملان معاً في دمشق بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى.

ولما كان نوري السعيد لا يستطيع التظاهر بالانفراد في اختيار الوصي لذلك دعا رؤساء الوزراء السابقين وبعض من إليهم من غيرهم، وطرح عليهم أمر اختيار الوصي، فكان الجميع مع اختيار الأمير زيد، ما عدا طه الهاشمي الذي اعترض بشدة على هذا الاختيار محتجاً لذلك بأن الأمير زيداً أيام كان وزيراً مفوضاً

في أنقرة أحب زوجة موظف تركي وبادلته الحب فسعى لتطليقها من زوجها وتزوجها، فلا يجوز أن يكون الوصي على عرش العراق زوجاً لمثل هذه المرأة.

فاقتنص نوري السعيد هذا الرأي وأعلن ميله إليه، ثم دعم رأيه بأن للملكة عالية أم فيصل رأيها الذي يجب احترامه في هذا الاختيار، وأنها أبلغت إليه بأن غازي كان قد أسرّ إليها بأنه إذا طرأ عليه طارىء فإنه يختار عبد الإله للوصاية على فيصل.

وسواء أصحَّ ما زعمه نوري السعيد من رأي غازي أم لم يصح، فمن الطبيعي أن يكون ميل الملكة عالية إلى أخيها أكثر من ميلها إلى عمّها، فاجتمع رأي نوري ورأي عالية إلى حجة طه الهاشمي، وأيقن الحاضرون بأن نوري مصمم على اختيار عبد الإله، فكان أن طلبوا إلى نوري أن يبقى أمر آرائهم سراً لئلا يُغضبوا عبد الإله عليهم وكل منهم يطمع بالتقرب إلى من ستؤول إليه الوصاية على عرش العراق، وبالرغم من أن نوري وعدهم بذلك فإن الأمر لم يبق سراً.

ومن تصاريف القدر العجيبة أن الأمر انتهى بين عبد الإله ونوري السعيد إلى التنافر والتخاصم، وصار لهذا جماعته ولهذا جماعته، حتى إن مرشحي السلطة للانتخابات النيابية ـ حين يكون نوري رئيساً للوزراء ـ كانوا قسمين: مرشحي البلاط، كما كانوا يسمونهم ومرشحي الحكومة.

كما أن الأمر انتهى بين طه الهاشمي وعبد الإله إلى الشر، ويكفي أن نشير هنا إلى ما ذكره كامل الجادرجي في مذكراته عن الاجتماع الذي دعي إلى حضوره رؤساء الوزراء السابقون ورئيس الوزراء العامل مصطفى العمري، مساء الثالث من تشرين سنة ١٩٥٢ والذي حضره أيضاً رؤساء الأحزاب المعارضة: طه الهاشمي رئيس الجبهة الشعبية، ومهدي كبّة رئيس حزب الاستقلال، وكامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديموقراطي.

قال كامل الجادرجي في الصفحة ٥٥١ من مذكراته:

«اجتمعت بطه الهاشمي ومهدي كبّة فاتفقنا على أن نكون مستمعين أكثر منا متكلمين وأن يقتصر بحثنا فيما إذا اضطررنا إلى الإجابة المسهبة على شرح المذكرات التي قدمناها».

وبعد أن يستعرض الجادرجي أقوال الآخرين في الاجتماع المذكور يقول:

«وتكلمت أنا وشرحت وجهة نظر الحزب التي جاءت في المذكرة شرحاً مسهباً نوعاً ما كما مهدي كبّة... ثم تكلم طه الهاشمي فقال: من منكم أو منّا كان حراً في تأليف وزارته؟ ومن منا كان حراً في الكثير من أعماله؟ إن الحكم يجب أن يكون بعيداً عن الاستغلال، ثم استدرك بقوله: إننا جميعاً لم نبتعد عن استغلال النفوذ فيجب أن ينتهي هذا الدور.

وكان قد تكرر خروج الأمير من الاجتماع وعودته إليه، فلما عاد أخيراً إليه قال: كلكم تكذبون. متى أنا تدخلت في أمور الدولة؟ متى أبديتم النصح لي ولم أسمع؟ متى استغليت نفوذي؟

ثم وجه الخطاب إلى طه الهاشمي قائلاً: أنت تتهمني باستغلال النفوذ. أنت كذّاب، أنت استغليت ضعفي في الوثبة وكتبت في الجرائد ذلك المقال ضدي كان كله كذباً. أنت كذاب. تقول إنه سيقع في العراق مثل ما وقع في مصر. أنا لا أخاف ذلك. أنا لا أهتم بهذه الأمور.

ثم دخل الأمير مع طه بمشاجرة حول أمور وقعت في ١٩٤١ فأنكرها طه فقال الأمير: ما أقوله هو الصحيح أنت تكذب. أنت كذّاب.

وقد أراد طه أن يترك القاعة ـ عندما بدأ الأمير بتوجيه الإهانات إليه ـ ولكن الأمير صرخ بوجهه قائلاً: إجلس إجلس... لا تخرج... تحمل ما سأقوله لك، فأطاع الهاشمي الأمير طاعة عسكرية وجلس».

وكذلك فإن الملكة عالية نفسها بدت وكأنها نادمة على ما ورطت به أخاها في وصاية العرش بعد أن ساءت الحالة العراقية وما عرض لعبد الإله من مشاكل ومتاعب واتهامات ونقمة لا سيما بعد الحركة التي عرفت بحركة رشيد عالي الكيلاني، واضطرار عبد الإله إلى اللجوء إلى قاعدة الحبانية وانتقاله بعد ذلك إلى الأردن، ثم عودته إلى بغداد إثر فشل الحركة، وما بدا به من أنه عاد في ظل الجيش الإنكليزي. ثم ما توالى بعد ذلك من انتفاضات شعبية لم تهدأ، مما جعل عبد الإله وكأنه المسؤول عن كل ذلك.

وكانت عميدة كليتنا بعد انتقالي الثاني للعراق (أمة السعيد) على صلة وثيقة بالملكة عالية وبعبد الإله وبقية الأميرات إذ إنه كان قد عهد إليها بتعليمهم والإشراف على تربيتهم أيام طفولتهم فظلت لصيقة بهم بعد ذلك تقضي أوقاتاً كثيرة في مجالسة الملكة عالية والأمير عبد الإله.

وكنت موضع ثقة العميدة واعتمادها في الكلية، فكانت تحدثني في جلسات خاصة عن كثير من شؤون الأسرة المالكة. ومما قصته عليّ: أن الملكة عالية كانت تتألم لأخيها موقعة اللوم على نفسها بأنها كانت السبب في تحمله مسؤولية الوصاية وما جرّته عليه.

وكان سبب خلاف عبد الإله مع نوري السعيد، إنكاره على نوري الاستسلام الكامل للإنكليز، وعندما كان يهم بإقصاء نوري ـ وقد أقصاه في بعض الحالات ـ كان الإنكليز يفرضونه عليه فرضاً.

وأذكر أنه عندما دخلت الجيوش العربية فلسطين سنة ١٩٤٨ كان الملك فيصل مع والدته في لندن يتابع دراسته، وكانت ترافقهم هناك العميدة أمة السعيد، وكانت تراسلني من لندن إلى بغداد، ومما فهمته من رسائلها أن عالية كانت مغتبطة كل الاغتباط من حماسة أخيها عبد الإله لدخول الجيش العراقي إلى فلسطين ومن خطابه في قطعات الجيش العراقي خطاباً عاطفياً حماسياً مؤثراً.

كما كانت مغتبطة، من قبل، من ذهاب أخيها إلى القاهرة ومساهمته في إقناع المصريين في المشاركة في الحرب مساهمة كانت فعالة، بما في ذلك من تضحية شخصية منه بلقاء الحاج أمين الحسيني في حين أن عبد الإله يعتقد ـ عن صواب ـ أن مصائبه في اضطراره للجوء إلى قاعدة الحبانية ثم الذهاب إلى الأردن، ثم الظهور في العودة إلى بغداد كمن هو عائد بفضل الحراب البريطانية، إن مصائبه هذه كان سببها الرئيسي الحاج أمين.

وكان اغتباط الملكة عالية بمواقف أخيها هذه يرجع إلى أنها ستكون عاملاً في تقريبه من الشعب.

وقد كتبت إليّ العميدة أمة السعيد فيما كتبت من لندن أن أبعث إليها بقصاصات من الصحف التي تتحدث عن مواقف عبد الإله، لا سيما الصحف غير العراقية، كما سألتني في بعض رسائلها أن أكتب لها عما أتصوره عن موقف الرأي العام من عبد الإله في هذه الظروف.

ولم أكن أشك في أن كل ما كتبته العميدة كان بطلب من الملكة عالية، وأن الملكة كانت تطلع على رسائلها لي وعلى أجوبتي لها.

ولعدم شكّي بذلك كنت أتعمد مصارحتها بالحقائق، فكان في بعض ما كتبت إليها: أن مواقف الأمير

تلقى صدى حسناً ولكن ليس من السهولة ولا بهذه السَرعة يمكن أن يزول من النفوس ما كان عالقاً بها ـ سواء بالحق أو بالباطل ـ من تأثير الدعايات القوية المؤثرة. وأن ثقة الناس واكتساب حبهم وعطفهم تحتاج إلى أعمال بطولية متتابعة.

وكان من حسن حظ الملكة عالية أنها ماتت قبل أن تشهد ما حلّ بابنها وأخيها بعد ذلك.

استطراد لا بد منه

وما دمنا في الحديث عن حرب سنة ١٩٤٨ ودخول الجيوش العربية إلى فلسطين، فلا بد من إشارة موجزة إلى بعض الأضاليل التي نشرت فانتشرت عن تلك الحرب، والتي تريك أن التاريخ زيف في زيف وأن الناس كتبوه حسب أهوائهم، ويكتبونه الآن حسب أهوائهم وسيظلون يكتبونه حسب أهوائهم.

وأنه إذا قيل من قبل إن التاريخ يكتبه المنتصرون، فإننا نستطيع أن نقول اليوم بأن التاريخ يكتبه لا المنتصرون فحسب، بل يكتبه الأبرع في الادعاء والأقوى في البث والأنشط في النشر والأوسع حيلة في التضليل والأمهر في الاستهواء.

لقد كتب يومذاك عن موقف الجيش العراقي ما كتب من الشر المريع واتهم قادته بما اتهموا به، وانتشرت كلمة (ماكو أوامر) التي نسبت إلى أولئك القادة زاعماً من اخترعها أن القادة العراقيين كانوا يجيبون بها من يطلب إليهم التقدم.

إن ما فعله الجيش العراقي وما أُنكر على ذلك الجيش ما فعله، وما أشاعه المشيعون عنه، وما سجّله المسجلون وأذاعه المذيعون وكتبه الكاتبون، مما لا يزال منتشراً بين الناس حتى اليوم وسيظل هو الحقيقة بين الناس حتى آخر يوم.

إن هذا وحده هو الدليل على زيف كل ما كتبته كتب التاريخ عند من عرفوا حقائق ما جرى للجيش العراقي في ذلك الوقت.

وقد كنت بحكم اتصالي الوثيق بالسفارة اللبنانية يومذاك ـ إذ كان سفيرها المناضل الوطني والمفكر العربي كاظم الصلح ـ مطلعاً على كثير من الحقائق والمفاوضات، وإني لآسف كل الأسف أني لم أسجل في تلك الفترة الأحداث اليومية حدثاً حدثاً. ولم أكتب وقائعها واقعة واقعة، وبذلك ضاع كثير من الأمور التي لو سجلت يومها لكان فيها جلاء ما لم يجل من الحقائق ونقض ما برز من الأضاليل.

وقبل الدخول في هذا الموضوع لا بد لي من الإشارة العابرة إلى موضوع آخر هو وثيق الصلة بموضوعنا، وهو الحقيقة في تحول مصر من الابتعاد عن العروبة إلى الاقتراب منها ثم الدخول في صميمها والمشاركة في حروبها، فقد تجوهل الرجال الذين حققوا ذلك ونسي مدوّنو التاريخ ما فعله أولئك الرجال، لأن التدوين كان في أيدي من يكرهونهم ويريدون الغض منهم.

ومن حقي هنا أن أقول إني لم أكن أحب أكثر أولئك الرجال، وإني كنت في عواطفي من خصومهم، لا لشيء سوى إنكاري عليهم تصرفاتهم الأخرى، ولقد سرّني سقوط من سقط منهم.

ولكن ذلك لا يمكن أن يحولني عن تسجيل ما لهم من فضل وحفظ ما لهم من حق. وإذا كنت قد عاديتهم في الحق، فإني أنصفهم في الحق.

فأنا مثلاً كنت ولا أزال معجباً بـ «الوفد» ورئيسه مصطفى النحاس، مقدراً كل التقدير لنضاله الوطني وقيادته الشعب المصري في الحرب على الإنكليز وعلى استبداد الملك فاروق.

فأنا وفدي متحمس للوفد، مناضل عنه في حين أن لا صلة عملية لي بنجاحه أو فشله، ولا صلة شخصية بأحد من رجاله. ولكن متابعتي لمسيرة الوفد ورئيسه مصطفى النحاس جعلتني (وفدياً) وأنا في لبنان ككل الوفديين في مصر.

وبهذه الروح وحدها، وبهذا الخط وحده، أنصفت وسأظل أنصف أعداء الوفد الألداء فيما فعلوه من خير.

فأنا أكره علي ماهر، وهذا الكره متسبب عن عدائه للوفد ورئيسه مصطفى النحاس ودسه الدسائس عليه، ولما كان هذا هو مصدر الكره، فإذا فعل علي ماهر فعلاً حسناً فإني أسجله له وأحييه من أجله.

وكذلك الملك فاروق، ولكن هذا لا يمنعني من أن أنصف فاروقاً حيث يجب إنصافه.

لقد نسب الناسبون إلى من نسبوا إدخال مصر في الحظيرة العربية ومشاركتها في معارك العرب وإعلانها أنها جزء من الأمة العربية، ومع أن فضل هؤلاء في هذا الموضوع لا ينكر أبداً بل هو موضع تقدير كبير، فإن من الحق أن نقول إنهم ليسوا هم من فعل ذلك، بل جاءوا هم ووجدوا مصر في قلب الأمة العربية وفي صميم معاركها، فاستمروا في هذا المسار وأكسبوه كثيراً من البريق.

إن أول من تبنى قضية فلسطين من المصريين واعتبرها جزءاً من همه وموضوعاً أصيلاً من مواضيعه الكفاحية هو مصطفى النحاس، عندما كان رئيساً للوزارة المصرية سنة ١٩٣٧. وكانت مصر قد عقدت معاهدتها مع بريطانيا ودخلت عصبة الأمم، فأوعز النحاس لمندوب مصر في العصبة أن يتبنى قضية فلسطين في جلسات العصبة ويدافع عنها.

ولأجل أن نقايس بين موقف مصطفى النحاس وبين موقف من جاءوا بعده يكفي أن نقول إنه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أخذ الإنكليز يُصفّون مخلفات الحرب ويتخلصون منها ببيعها بأبخس الأثمان. وكان من ذلك فرقة مدرعات كاملة عرضوا على إسماعيل صدقي رئيس الوزراة المصرية يومذاك أن تشتريها الحكومة المصرية. وكان من أسموا أنفسهم (السعديين) مشاركين في تلك الوزارة وكان رئيسهم محمود فهمي النقراشي عضواً فيها، فرفض إسماعيل صدقي هذا الطلب، وقال لماذا نشتري فرقة مدرعات فنحن لن نحارب أحداً. قال هذا لأن فلسطين لم تكن في ذهنه أبداً.

وهكذا ضاعت الصفقة البخسة الثمن من العرب لأن إسماعيل صدقي وحكومته لا يرون لهم علاقة بفلسطين. ويقدّر بعض العسكريين العرب ما كان يمكن أن يكون لهذه الفرقة المدرعة من نتائج حاسمة لو أنها دخلت مع الجيش المصري في معاركه في فلسطين مع اليهود.

هكذا كانت نظرة بعض المصريين والحكم المصري لفلسطين، وهكذا رأوا أن الجيش المصري لا يحتاج إلى فرقة مدرعات بخسة الثمن لأنه لن يحارب أبداً.

ولكن النحاس كان يرى عكس ذلك في تبنيه قضية فلسطين.

وإذا كانت خطوة النحاس هي الخطوة الأولى، فقد خطت مصر في عهد الحكم المسيطر عليه فاروق الخطوة الكبرى نحو عروبة مصر، واعتبار شعب مصر جزءاً من الأمة العربية التي تعتبر قضية فلسطين قضيتها.

ففي أوائل سنة ١٩٣٩ وقد بدت طلائع الحرب العالمية الثانية، وبدا أن لا بد من وقوعها، أراد الإنكليز أن لا يدخلوا تلك الحرب، وهم في عداء مستحكم مع العرب، بسبب قضية فلسطين، فدعوا إلى مؤتمر في لندن يتمثل فيه جميع العرب ليكون الحل ـ إذا وقع الحل ـ حلاً عربياً جماعياً.

ولما كان النحاس قد أدخل قضية فلسطين في صلب القضايا المصرية، وأصبحت مصر من العرب المسؤولين عنها، فقد دعيت مصر إلى حضور هذا المؤتمر مثلما دعيت كل الحكومات العربية. وكان فاروق هو المسيطر على الحكم المصري في تلك الفترة، وقد كانت هذه السيطرة تتم له حين يستطيع إقصاء الوفد عن الحكم والإتيان بوزاة منتمية إلى (أحزاب الأقلية) كما كان يعبر عنها يومذاك، وهي حزب الأحرار الدستوريين وحزب السعديين ومن إليهم التي تصل إلى الحكم بإرادة فاروق بعد تزوير الانتخابات والتلاعب بإرادة الشعب.

ولكي يبدي فاروق اهتمامه بهذا المؤتمر وتبنيه له انتدب له فيمن انتدب اثنين ينتميان إليه شخصياً ويمثلانه هو بالذات أكثر مما يمثلان الحكومة، وهما الأمير محمد عبد المنعم أحد أمراء الأسرة المالكة وابن الخديوي السابق عباس حلمي، وجعله رئيساً للوفد، وكان سبب اختياره له أن وفدين عربيين آخرين هما الوفد اليمني والوفد السعودي كان يرئس كلاً منهما أمير من أمراء الأسرة المالكة، فأراد أن يبزهما في تبني القضية الفلسطينية وأن يدل بأنها من اهتمام أسرته المالكة بالذات.

والرجل الثاني الذي اختاره هو رئيس الديوان الملكي علي ماهر، وبذلك كان حضور فاروق الشخصي في الوفد حضوراً بارزاً.

وإذا كان الأمير محمد عبد المنعم هو رئيس الوفد المصري فإن المحرك الفعلي لهذا الوفد هو علي ماهر، وقد كانت مواقف علي ماهر في إدارة الوفد مواقف عربية أصيلة بارعة.

ومن مواقفه يومذاك أن الإنكليز عرضوا على العرب أن يسمحوا بدخول ٧٥ ألف يهودي إلى فلسطين خلال خمس سنوات وبعد ذلك تمنع الهجرة.

وكانت قضية هجرة اليهود إلى فلسطين هي أهم شيء في نظر العرب، فرفض الوفد الفلسطيني هذا العرض بشدة فسايرته الوفود العربية كلها في هذا الرفض، والوحيد الذي قبل العرض ولم يساير الوفد الفلسطيني كان علي ماهر، وأدى الأمر إلى حصول تشاد بينه وبين الوفود العربية، ولكنه ما زال بهم حتى وافقوه.

ويقول علي ماهر فيما تحدث به بعد فشل المؤتمر وانفضاضه:

«كنت أريد أخذ إمضاء بريطانيا على صك رسمي يحدد الهجرة ويغلق أبواب فلسطين، ولا خوف بعد ذلك على البلاد... فلما قلنا للإنكليز إننا نوافق على اقتراحكم ونقبل هجرة العدد الذي تطلبونه، إذا بهم ينكلون ويعلنون فض المؤتمر، وبذلك صحت نظريتي في الإنكليز».

والحقيقة أن الإنكليز كانوا يريدون أن ينسبوا فشل المؤتمر إلى العرب فعرضوا الاقتراح المذكور لاعتقادهم أن الوفد الفلسطيني سيرفضه وستسايره الوفود العربية، وهذا ما حصل، ولكن علي ماهر أفسد خطتهم، وأظهر أنهم هم الذين لا يريدون حل قضية فلسطين إلاّ وفق ما يريد اليهود.

أما الخطوة الكبرى نحو تعريب مصر وإبرازها عربية صريحة، واعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية فهي الخطوة التي خطاها مصطفى النحاس، يوم كان رئيساً للوزراء سنة ١٩٤٣. فدعا الحكومات العربية إلى ما أسماه (مفاوضات الوحدة العربية)، وهي أول مرة ينطق بها مصري بهذه الجملة (الوحدة العربية) باعتبار مصر جزءاً من تلك الوحدة.

نطق بها النحاس لا في مجلس خاص ولا في تصريحات عابرة، بل نطق بها باعتباره رئيساً للوزارة المصرية، وكان نطقه بها في مجلس ممثل للشعب المصري.

ففي ٣٠ آذار/مارس سنة ١٩٤٣ ألقى صبري أبو علم وزير العدل المصري في مجلس الشيوخ باسم مصطفى النحاس بياناً رسمياً قال فيه وهو يتحدث عن دعوة الحكومات العربية للمفاوضات:

« ...وانتهيت من دراستي إلى أنه يحسن بالحكومة المصرية أن تبادر باتخاذ خطوات رسمية في هذا السبيل فتبدأ باستطلاع آراء الحكومات العربية المختلفة فيما ترى من آمال، كل على حدتها. ثم تبذل جهودها للتوفيق والتقريب بين آرائها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ثم ندعوهم بعد ذلك إلى مصر معاً في اجتماع ودي لهذا الغرض حتى يبدأ المسعى للوحدة العربية...».

ومن الطريف في هذا الموضوع أن النحاس في بيانه هذا، وهو يدعو للوحدة العربية، سمى العرب: (الأمم العربية). إذ ختم بيانه بقوله:

«وإني أسأل الله أن يلهم السداد قادة الأمم العربية...».

وذلك من رواسب الماضي الذي كان يعتبر العرب أمما لا شعوباً يجمعها جميعاً اسم (الأمة العربية). ويبدو أنه وُجد من نبه إلى هذا الأمر فقد زالت بعد ذلك كلمة: (الأمم العربية) وحلّت محلها كلمة (الشعوب العربية).

ومما يجب ذكره أن النحاس اعتبر فلسطين كواحدة من الدول العربية، فدعا مندوباً عنها للمشاورة والمذاكرة كأي مندوب لأي دولة عربية. وقد جرى هذا لأول مرة.

وإذا كان الأمر قد انتهى بعد ذلك إلى قيام الجامعة العربية لا (الوحدة العربية)، فذلك لعوامل من أهمها العامل اللبناني.

ولكن يكفي النحاس أنه أقام الجامعة العربية التي كانت، برغم عيوبها، المظهر البارز لأمة عربية واحدة منها مصر.

أما إدخال مصر في صميم العمل العربي الواحد إلى حدّ إراقة الدم المصري إلى جانب الدماء العربية الأخرى المراقة في سبيل هدف واحد وقضية واحدة فقد كان العامل فيه هو الملك فاروق.

أقول هذا، وأنا من أشد الناس مقتاً لفاروق، ومن أكثرهم استبشاراً بزوال عرشه، ولكنني كما مقته في الحق فإن الحق وحده هو الذي يحملني على إنصافه حيث يجب الانصاف.

وذلك أنه عندما قرر العرب دخول جيوشهم إلى فلسطين سنة ١٩٤٨ أعلن النقراشي رئيس الوزارة المصرية أن مصر لا شأن لها بذلك، وأن أقصى ما يمكن أن تفعله هو أن ترسل قطعة من جيشها إلى الحدود مع فلسطين كنوع من المظاهر التأييدية المعنوية لا أكثر من ذلك. وفي خريف سنة ١٩٤٧، وخلال دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة، بدا الاتجاه نحو تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية فيها، فكان على العرب أن يعملوا في ميدانين: ميدان هيئة الأمم المتحدة لمنع اتخاذ قرار بالتقسيم، وهذه المهمة كانت موكولة إلى وفود الدول العربية وما يقومون به من اتصالات مع وفود الدول المختلفة أعضاء الهيئة[1]. أما الميدان الثاني فهو ميدان القوة العسكرية في حال إقرار التقسيم، أي أن يحال بالحرب دون تحقيق التقسم وقيام دولة اليهود، ولدرس الوسائل المؤدية إلى إحراز القوة العسكرية المطلوبة دعي مجلس جامعة الدول العربية إلى عقد دورة لبحث الأوضاع السياسية وشتى نواحي القضية الفلسطينية ومناقشات الجمعية العامة للأمم المتحدة بشأنها، وبصورة خاصة لدراسة موضوع الدفاع عن فلسطين.

وانعقد مجلس الجامعة في ٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٧ في عاليه بلبنان، وحضرته وفود عن جميع الدول العربية على أعلى المستويات، فيهم عدد من رؤساء الوزارات ووزراء الخارجية والدفاع.

وعندما تناول المجلس بالبحث موضوع الدفاع عن فلسطين تحمس عدد من أعضاء الوفود، لا سيما صالح جبر رئيس الوزارة العراقية ورئيس الوفد العراقي ونادوا بوجوب تدخل الجيوش العربية النظامية لإنقاذ فلسطين. وفي غمرة الحماسة التي سادت المجلس وقف محمود فهمي النقراشي رئيس وزراء مصر ورئيس وفدها إلى الجامعة حينذاك وقال مخاطباً المجلس:

«أرجو من الإخوان الاتزان والتفكير السليم وأن لا يقروا اليوم أمراً لا يستطيعون تنفيذه غداً. إني أرجو من حضرات المجتمعين وبصورة خاصة من أعضاء وفد فلسطين أن يعلموا بأن مصر لن تتدخل عسكرياً في فلسطين ولن تخوض غمار حرب دفاعاً عنها، ولكنها مستعدة أن تساهم مع سائر الدول العربية في عملية جدية ومعقولة للدفاع عن فلسطين وإنقاذها. أقول هذا بصراحة وصدق لكي لا ينخدع أحد بمظاهر الحماسة التي انطلقت في هذا المجلس».

وظل هذا رأي النقراشي وحكومته.

ثم توافد بعض قادة العرب إلى مصر للتداول مع حكومتها في هذا الأمر، فكان أن حسم الملك فاروق الموضوع بأن أرغم النقراشي وحكومته على تبديل موقفهما، وكما قلنا من قبل فإن حكومات (أحزاب الأقلية) كان فاروق هو الذي يفرضها على الشعب، وكان هو الموجه والحاكم الفعلي فيها، فلم يسع النقراشي وحكومته إلاّ الخضوع لأوامر فاروق.

وصرح فاروق تصريحاً قوياً في هذا الشأن، وكان مما قاله ما معناه: أن موقفنا من دول العالم سيكون حسب موقف كل منا من قضيتنا وحربنا.

وكان تصريحه هذا ـ ويؤسفني أني لا أحتفظ بنسخة من نصه ـ يبرزه ملكاً عربياً كأعرق الناس في العروبة وأشدهم التزاماً بكل أمر من أمورها حتى دخول الحرب من أجل ذلك.

وبعد نشر الطبعة الأولى من هذه الذكريات، قرأت مذكرات مصطفى النحاس التي والتي نشرها جريدة «النهار» البيروتية، وقد جاء في القسم المنشور في العدد الصادر في ٣ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٩٥ أن الملك فاروق دعا يومذاك مراسل «اليونايتدبرس»، وأفضى إليه بحديث قال فيه:

«إن مصر ستمد العرب بكل مساعدة عسكرية واقتصادية حتى تخرج اليهود من فلسطين. وإني لن أقبل قيام دولة صهيونية على حدود مصر ومن أجل ذلك لا بد من استعمال القوة».

ومن المؤسف أن موقف فاروق هذا استغل بعد ذلك لمحاربة سمعته أبشع استغلال، فنسب إليه ما سموه بقضية (الأسلحة الفاسدة) وزعموا أنه هو الذي دبّر أمرها واشتراها مع علمه بفسادها جنياً للمال. وصدقهم الناس وتداولتها صحافتهم ومجالسهم في كل مكان، ونسي هؤلاء الباهتون أن أمجاد الجيش المصري حين يحقق أمجاداً بانتصاراته هي أمجاد لفاروق قبل أن تكون أمجاداً لغيره، وأن محن ذلك الجيش هي محن لفاروق. وأن أمجاداً كهذه الأمجاد لا يبيعها فاروق ولا غير فاروق ممن هو في منزلته أو دون منزلته بحفنة من الجنيهات، وأن تلك المحن لا يشتريها أي إنسان لنفسه مهما كان شأنه.

هكذا يكتب التاريخ لا سيما تاريخ العرب والإسلام في كل زمان!

أقول هذا، ويعلم الله أنني من أشد الناس مقتاً لفاروق ـ كما كررت القول ـ ومن أكثرهم استبشاراً بسقوط عرشه، ولكن الحق فوق كل شيء فإذا مقتنا فاروق لسيئاته، فعلينا أن لا ننكر حسناته.

ومن مواقف فاروق العربية التي تذكر له تدبيره لجوء عبدالكريم الخطابي بطل ثورة المغرب على الإسبان، تدبير لجوئه إلى مصر. وقد روى محمد علي الطاهر قصة هذا اللجوء لإحدى الصحف بما نلخصه فيما يلي:

عزمت فرنسا سنة ١٩٤٧ على نقل الأمير عبد الكريم وأسرته من منفاهم في جزيرة (رونيون) في المحيط الهادي إلى جنوب فرنسا. يقول الطاهر:

«في ذات يوم أظنه ٢٣ أيار/ مايو سنة ١٩٤٧ تلقيت برقية من صديق لي في عدن هو السيد حسين الأهدل يقول فيها: إن الأمير عبد الكريم الخطابي أبحر من عدن إلى فرنسا في باخرة ذكر اسمها، فتأملت تلك البرقية وأخذت أتصور صوراً شتى لغرض صديقنا من إرسالها».

ثم يقول الطاهر:

«كلفت أحد أصدقائي وهو يشتغل في القصر الملكي كاتباً عند رئيس الديوان، بأن يستفهم من هنا وهناك أين يسهر الملك فاروق في ذلك المساء ومتى يعود، وفي أي قصر ينام في تلك الليلة، فعاد وهو يقول إن الملك سيسهر كعادته في (مربع الأوبرج) ويغادره حوالى الثانية صباحاً إلى قصر القبة.

وفي منتصف الليل أبرقت إلى الملك فاروق بقصر القبّة أقول له إن الأمير عبد الكريم الخطابي مجاهد الريف العظيم وأسير فرنسا سيمر بقناة السويس في الباخرة (كاتومبا) يوم ٣٠ أيار/ مايو سنة ١٩٤٧. ثم ناشدت الملك فاروق أن ينقذ الأمير وأسرته من الأسر، وأن ينزله في كنفه».

ويسترسل الطاهر قائلاً:

«وفي صباح اليوم التالي طلبت من صديقي أن يذهب إلى مدير قصر القبة ويستفهم منه عن مصير البرقية. وبعد ساعات عاد وهو يقول إن الملك فاروق وصل بعد الثانية صباحاً فوجد رئيس الحرس ينتظره، فسلمه البرقية. وإن فاروق قال: ابعثوا إلى رئيس الوزراء ورئيس الديوان الملكي بأن يحضرا قبل الظهر لمقابلتي».

ويكمل الطاهر حديثه: أترك الكلام عما جرى بعد ذلك للوزير كريم ثابت المستشار الصحافي للملك فاروق لأنه كان يعيش في صميم القصر. وكانت حكومة الثورة قد سجنت كريم ثابت بعد ترحيل فاروق فخطر لها أن تستفيد من معلومات كريم ثابت عن أمور الملك الداخلية فطلبت منه أن يدوّن لها أهم ما كان من ذلك التاريخ، فكتب ذكرياته فنشروها في جريدة «الجمهورية» تباعاً. وقد قال عن قضية الأمير عبد الكريم في العدد الصادر في ٢ أيار/ مايو سنة ١٩٥٦ ما نصه:

«... فلولا برقية تلقاها الملك فاروق لما عرف أن عبد الكريم سيمر بمصر إلاّ بعد مروره بها، أو لما خطر له أن يقدم على ما أقدم عليه. فقد أبلغه مرسل البرقية أن عبد الكريم بطل المغرب سيمر بالسويس يوم كذا في الباخرة كذا في طريقه من منفاه إلى فرنسا. واستحلفه باسم العروبة والجهاد في سبيل الله أن يعمل على إنقاذه وإنزاله في مصر واستضافته فيها ليعيش هو وأهله تحت حماية مصر وضيافته.

وكذلك عرفت البرقية الملك فاروق بالنبأ والخطة التي تتبع لإنقاذه في آن واحد، فأعجبته الفكرة وقرر تنفيذها فوراً، فدعا إليه الأميرالاي محمد حلمي حسين وأمره أن يقابل الأمير عبد الكريم سراً عند وصول باخرته إلى ميناء السويس، ويبلغه أنه أوفده إليه ليقترح عليه الالتجاء إلى مصر والاحتماء بملكها.

واتصل حلمي بك بالقصر الملكي تلفونياً من السويس وأبلغه أنه اجتمع بعبد الكريم وكاشفه بموضوع مهمته خلسة فوعده بالتفكير فيه والرد عليه عند وصول الباخرة إلى بور سعيد.

وفي بور سعيد صعد الأميرالاي حلمي حسين بك إلى الباخرة مرة أخرى ـ وكان قد سبقها بالقطار ـ ليقف على رأي الأمير الخطابي، فقال له الأمير إن رأيه استقر على قبول دعوة الملك مع الشكر والامتنان. وعند ذلك لقنه حلمي بك تفاصيل التمثيلية التي مثلت بعد ذلك لكي تستطيع السلطات المصرية أن تقول إن عبد الكريم وشقيقه الأمير محمد وضعاها أمام الأمر الواقع بالتجائهما للملك»(انتهى).

ومن الظلم الفاحش ما جرى على من بقي ممن شاركوا فاروقاً في مسؤولية إدخال مصر في تلك الحرب ومنهم إبراهيم عبد الهادي الذي أعقب النقراشي في رئاسة الوزارة المصرية.

كانت أولى التهم الموجهة إلى إبراهيم عبد الهادي وسيق بسببها إلى المحاكمة وحكم عليه من أجلها ـ كانت بهذا النص:

«أتى أعمالاً تعتبر خيانة للوطن وضد سلامته في الداخل وساعدت على تمكين الاستعمار بالبلاد، وذلك أنه خلال سنة ١٩٤٨ أثناء توليه رئاسة ديوان الملك السابق عمل على تنفيذ أهوائه بأن زجّ جيش مصر في معركة فلسطين قبل أن يتخذ الجيش أهبته لخوض غمارها».

وفي هذا اعتراف صريح بأن فاروقاً هو الذي أدخل جيش مصر في معركة فلسطين.

ومع أنني أنظر إلى إبراهيم عبد الهادي خلال توليه الحكم نظرة ملؤها الكره والتقريع لما جنت يداه من مظالم ومغارم، واعتبر سجنه بعض ما يستحقه من دهره، فإنني أنكر على من عدوا مشاركته في مسؤولية إدخال مصر في الحرب الفلسطينية تهمة يجب أن يسأل عنها وإن غلّفوا ذلك بغلاف عدم الاستعداد للحرب.

وعلى هذا الأساس يجب أن يحاكم جميع من يخسرون الحروب بحجة أنهم دخلوا الحرب دون الاستعداد لها.

وإذا كان الذين أشركوا مصر في حرب سنة ١٩٤٨ يجب أن يحاكموا على هذا الأساس، فما هو الشأن إذن في الذين استُدرجوا بطيشهم ورعونتهم وغوغائيتهم وخفتهم وقصر نظرهم إلى حرب سنة ١٩٦٧.

هذا استطراد كان لا بد منه ونحن نمر بذكر حرب سنة ١٩٤٨ وموقف العراق منها.

بعض الحقائق

قلت إن حكومة النقراشي دخلت الحرب بغير إرادتها، وكان من سوء الحظ أن قيادة الجيش المصري عهدت إلى (المواوي) وهو، كما قيل عنه، قد يصلح لكل شيء ولكن لا يصلح لقيادة تلك الحرب، فكان همه التقدم وإذاعة البلاغات عن توغل جيشه في فلسطين تاركاً وراءه المستعمرات اليهودية الحصينة، وقد أدت خطته إلى توزيع الجيش هنا وهناك وجعله قطعاً مشتتة يبعد بعضها عن البعض الآخر مما سهل على اليهود الانقضاض على تلك القطع، تعاونهم مستعمراتهم المنتشرة وراء الجيش المصري، مما أضاع على هذا الجيش بسالة ضباطه وجنوده وجعلها عبثاً.

لما استبدلوا بالمواوي بعد ذلك القائد فؤاد صادق الذي كان كفياً في القيادة استطاع أن يصمد بجيشه صمود الأكفياء.

وقد استغل النقراشي هزائم الجيش المصري ليتخلص من الحرب فتلقت منه الحكومة العراقية برقية مطوّلة تعرض الوقائع دون أن تحدد المطالب، بل أحاطت ذلك بغموض مقصود مما كان موضع استغراب، ولا شك أن الحكومات العربية الأخرى تلقت مثل هذه البرقية، ولكن لا شك أيضاً أن المقصود بالبرقية هو العراق أولاً لأن قوته كانت هي الأولى.

وقد كانت الحكومة العراقية تشرك في كل الشؤون الفلسطينية خلال الحرب السفير اللبناني كاظم الصلح، ومنه عرفت أمر البرقية وما تلاها من أحداث.

فبعد تلقي البرقية، عقدت الوزارة العراقية جلسة برئاسة الأمير عبد الإله دعت إليها فريقاً من الخبراء العسكريين وشهدها جانبياً كاظم الصلح، وبعد طول تذاكر تقرر الرد على البرقية بما معناه: إننا لم نعرف ما هو المطلوب منا ولا ما ستقرره مصر في هذا الشأن لنحدد موقفنا، وقد افترضنا ثلاثة احتمالات (وهنا يذكرون الاحتمالين الأولين)، ثم يصلون إلى الاحتمال الثالث وهو مواصلة القتال، ويقولون (العراقيون) إن هذا رأينا الذي نشير به، ولئلا يطول الوقت بتبادل البرقيات فإننا أعددنا العدة لكل الاحتمالات ومنها الاحتمال الثالث فصدرت الأوامر إلى قطعات جيشنا في فلسطين ليكون على تمام الأهبة لإنجادكم حيث تطلبون، كما بدأنا هنا بإعداد نجدات لإرسالها فوراً إلى فلسطين. وفي اللحظة التي نتلقى بها جوابكم ينفّذ كل شيء.

وكنا نحن ننتظر في السفارة اللبنانية القرار العراقي وإذا بالسفير يصل حاملاً إلينا صورة عن نص البرقية.

وأكرر القول هنا أنني في تلك الأيام لم أهتم بتسجيل النصوص والوقائع، ولكنني أؤكد كل التأكيد أن نص البرقية لا يخرج عن المحتوى الذي ذكرته.

وبعد أن اطمأننا إلى ما جرى مضينا إلى منازلنا، وفي الصباح كان كاظم الصلح يتصل بوزارة الخارجية ليعرف الجواب المصري، ومضى النهار دون أن يصل الجواب، ثم لم نلبث أن عرفنا أن حكومة النقراشي أذاعت من إذاعتها في القاهرة نص برقيتها زاعمة أنها بقيت دون جواب، فدهشنا لذلك، وأدركنا أن النقراشي يمهد للانسحاب من الحرب متذرعاً بخذلان العرب له، وأنه حين أرسل برقيته كان يحسب أن الجواب العراقي سيكون مائعاً فيتمسك به ويجعله من مبررات استسلامه، ولكن لما وجده حازماً صارماً تجاهله وزعم أنه لم يتلق جواباً.

وبالفعل لم تطل الساعات حتى أعلن النقراشي قبول حكومته للهدنة واستعدادها للمفاوضات وذهب وفدها إلى رودس وجرى ما جرى(٢).

الجيش العراقي

كان قرار دخول الجيوش العربية إلى فلسطين لإبطال التقسيم والحؤول دون قيام الدولة اليهودية منعشاً لآمالنا فعلقنا تلك الآمال على الجيوش المتحفزة وعلى ما يمكن أن تحققه من نصر يحفظ للعرب وطنهم وشرفهم.

ولقد طلب مني أحد الأصدقاء من الضباط العراقيين أن أنظم نشيداً ينشده جنوده في زحفهم المرتقب، وليدرك القارىء مدى ما كانت تجيش به نفوسنا من طموحات النصر أذكر هذا النشيد هنا وهو:

تـــل أبـــيـــب تـــل أبـــيـــب ... جـــاءك الـــيـــوم الـــعـــصـــيـــب
لـــن نـــذوب ... أو يـــواريـــك الـــلـــهـــيـــب

* * *

لا قـــرار فـــي الـــديـــار ... أو يـــوافـــيـــك الـــدمـــار
الـــفـــرار لـــلـــبـــحـــار ... ســـدت الـــيـــوم الـــدروب

* * *

الجنـــود فـــي الحدود ... لـــن تحـــيـــد أو تـــبـــيـــد
ســـنـــعـــيـــد بـــالحديـــد ... حـــقـــنـــا الماضـــي الـــســـلـــيـــب

* * *

يـــا عـــلـــم لا تـــضـــم ... وتـــرنـــح فـــي الـــقـــمـــم
فـــالـــهـــمـــم كـــالـــضـــرم ... والحفـــاظ كـــالـــلـــهـــيـــب

* * *

إن لـــي مـــن عـــلـــي ... صـــولـــة المســـتـــقـــتـــل
فـــاحـــمـــل تـــنـــجـــل ... غـــمـــرة الـــهـــول الـــرهـــيـــب

الـــرجـــال كـــالـــرمـــال في الـــســـهـــول والجبـــال
لـــلـــقـــتـــال لـــلـــنـــضـــال كـــلـــنـــا داع مـــجـــيـــب

* * *

لـــن يـــســـود لـــن يـــســـود في فـــلـــســـطـــين الـــيـــهـــود
يـــا أســـود لـــلـــحـــدود دونـــكـــم تـــل أبـــيـــب

* * *

تـــل أبـــيـــب تـــل أبـــيـــب جـــاءك الـــيـــوم الـــعـــصـــيـــب
لـــــن نـــــؤوب أو يـــواريـــك الـــلـــهـــيـــب

وزحفت الجيوش وتوهجت مع زحفها آمالنا، وتعلقت قلوبنا بكل خطوة تخطوها، ولم يخف بعض أصحابنا عدم ثقتهم بما يجري، وكانوا يخشون مكر اليهود وطول استعدادهم لهذا اليوم، كما كانوا يتخوفون من سطحية العرب وهوجهم في مثل هذا الموقف، ويتحدثون عن خطوات اليهود المدروسة المحكمة منذ حلَّت طلائعهم في فلسطين، وعن ارتجالات العرب في كل ما فعلوا.

كان بعض أصحابنا يقولون هذا بجمجمة وتخافت وبحسرة وألم. ولكن الناس ـ جميع الناس ـ ونحن منهم، أُخذوا أول الأمر بما يذاع عن التقدم والتوغل، ولم يُؤخذوا بالحذر والتخوف.

ثم أخذت الأنباء تتوالى وفيها ما يريب، ثم صار فيها ما يخيف، ثم صار فيها ما يبعث على اليأس.

وأذكر أني كنت أسير يوماً في شارع الرشيد على قدمي، وصدف أن كان مروري أمام أحد المتاجر في اللحظة التي كانت فيها إذاعة الشرق الأدنى تبدأ بإذاعة الأخبار، فتوقفت لأستمع أخبارها، فإذا أول خبر تذيعه هو احتلال اليهود لمدينة (جنين)، ولن أنسى أبداً وقع هذا الخبر عليَّ.

ثم بعد ذلك كنا نستمع إلى أخبار إذاعة بغداد، فإذا بصوت المذيع يجلجل معلناً أن (جنين) في قبضة القوات العراقية، وأن هذه القوات تطارد العدو في أنحاء (المثلث)، واسم المثلث في ذلك الحين يعني ما يعنيه اليوم اسم (الضفة الغربية)، وهم يقصدون به مثلث نابلس، جنين، طول كرم.

وبالرغم من أن الإذاعة العراقية كانت رصينة إلى حد ما، فلم تكن تكثر من التبجح الباطل، وكانت أخبارها أقرب إلى الثقة بها، فإننا حسبنا أول الأمر أن هذا الخبر يراد به تهوين النازلة بالادعاء بحصول ما لم يحصل... هذا فضلاً عن أن أخبار إذاعة الشرق الأدنى كانت دائماً هي المصدر لأخبار الحرب الحقيقية باعتبارها غير منتمية لأحد الفريقين.

وهي إذاعة قوية أنشأها الإنكليز في قبرص وحشدوا لها طاقة كبرى: إخبارية وثقافية، فكانت هي المسيطرة على مسامع المتعطشين إلى الأخبار، فلم يكن من المعقول أن تذيع خبر سقوط جنين في حين أنها لم تسقط.

ثم لم تلبث الحقائق أن انجلت: فلم تكن إذاعة الشرق الأدنى كاذبة، ولا كانت إذاعة بغداد هي الأخرى كاذبة.

وذلك أن اليهود فاجأوا جنين بقوات كثيفة ولم تكن فيها إلاّ حامية عراقية لا يتجاوز عدد أفرادها العشرات فاستطاع اليهود النفاذ إلى مداخل جنين مما اعتقد معه مراسلو الشرق الأدنى أنها سقطت بأيديهم.

ولكن الحامية العراقية القليلة العدد ظلت تتصدى لليهود وتعيق تقدمهم، وفي الوقت نفسه أرسلت استغاثة إلى القائد العراقي عمر علي الذي كان يسير بقواته في اتجاه آخر. وتلقى عمر علي الاستغاثة فغير اتجاهه وأسرع إلى جنين فتلقاه اليهود بقواتهم، وصمد لهم عمر علي بقواته وتصارعت القوتان بالأسلحة النارية ثم تغامستا بالحراب.

وتلألأت الحراب العراقية وتضرجت بالدم، دم اليهود الذي طالما اشتاقت هذه الحراب لأن تتضرج به، وجاءتها الساعة التي وضعتها وجهاً لوجه أمام أعدائها الألداء المتوحشين، وهذه هي فرصتها لتنتقم لمجازر دير ياسين، ولتعيد إلى الشرف العربي شموخه ورفعته، ولن تضيع هذه الفرصة أبداً.

وأحسن البطل عمر علي قيادتها وأحسنت هي الاستجابة له. وانجلى الأمر عن الهزيمة الماحقة لليهود بعد أن ارتوى الصعيد العربي بدمائهم وانتثرت جثثهم في أطرافه من كل ناحية.

وخاب أمل اليهود في الاستيلاء على الضفة الغربية فسلمها الجيش العراقي للعرب سنة ١٩٤٨ عربية خالصة، وأعادها إليهم عزيزة مكرمة. ثم سلّمها العرب لليهود سنة ١٩٦٧ ذليلة مهانة.

ومن مآسي الدهر العربي أو مهازله أو فواجعه، أو ما شئت من نعوت، أن البطل عمر علي، بطل إنقاذ الضفة الغربية، وحامي حمى جنين ونابلس وطول كرم، سيق بعد ذلك في يوم من الأيام مقهوراً مصفداً منكوس الرأس ليحاكمه السفيه فاضل عباس المهداوي فيتلقى منه ومن السفيه الآخر ماجد محمد أمين الشتائم والإهانات. وباسم من؟ باسم من سموها محكمة الشعب وأسموا سفيهها الأول: رئيساً، والثاني مدعياً عاماً، وسمي فيها البطل عمر علي (مجرماً) يحكم عليه في ١٩٥٩/٤/٦:

حكمت المحكمة على المجرم اللواء الركن المتقاعد عمر علي بالإعدام شنقاً حتى الموت.

ثم تتفضل المحكمة بأن توصي القائد العام للقوات المسلحة (أي سيد السفيهين عبد الكريم قاسم) بتخفيف العقوبة إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.

وفي الجلسة التي عقدتها محكمة المهداوي في ١١ شباط/ فبراير سنة ١٩٥٩ استمراراً لمحاكمة عمر علي، لخّص هذا البطل ـ خلال دفاعه عن نفسه ـ أحداث معركة جنين بما يلي:

«في أيار/مايس سنة ١٩٤٨ استدعي فوجي إلى فلسطين وفي صباح اليوم الثاني من وصول الفوج إلى فلسطين أحرزنا ظفر جنين الأول يوم ٣ حزيران/ يونيو ودمرنا سبعة أضعاف من قوتنا من خيرة القوات الإسرائيلية التي حاصرت حامية جنين والتي استولت على المدينة وكانت في حالة التقدم للإحاطة بالقوات العراقية الأخرى المرابطة في منطقة نابلس طول كرم».

إلى أن يقول:

«وكانت نتيجة ذاك النصر السامي المبين أن امتلأت مواقع المعركة لأول مرة بمئات من جثث قتلى الصهاينة وأكداس من مختلف الأسلحة والأعتدة والتجهيزات. وأنقذت حامية جنين من الحصار وأرجعت منطقة جنين إلى أهلها واحتفظنا بالقسم العربي من فلسطين».

ثم يقول:

«هاجمتُ القوات اليهودية المرابطة في منطقة شمال جنين وبعد معركة دامت ٢٤ ساعة تمكنا من تطهير هذه القرى إلى ثمانية كيلومترات شمال وشرق جنين حتى تمّ لنا سحقهم في كل من معسكر (جلحة) و(صندوله) وقرية (عرانة) و(عربونة) وتلال (مزاد)، وتركوا مرة أخرى وراءهم مئات القتلى ومختلف الأسلحة وكميات كبيرة من الأعتدة وأخلوا مدينة (العفولة)».

وإننا، استطراداً وللعبرة نأخذ هنا ما كتبه عبد المنعم الخطيب في إحدى الصحف عن نهاية المهداوي:

«عندما حلّقت الطائرة التي كان يقودها الطيار منذر الونداوي فوق بغداد وبدأت بقصف وزارة الدفاع في الساعة الثامنة وخمسين دقيقة صباح الجمعة ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٣ كان عبد الكريم قاسم في بيته في العلوية يحلق ذقنه. وعندما سمع دوي انفجار أول قنبلة تسقط على وزارة الدفاع لم يعرها أي اهتمام. إلاّ أنه، مع سقوط القنبلة الثانية، استفسر من مرافقه الخاص، فأخبره بأن هناك طائرة تحلق في سماء بغداد وتلقي القنابل جهة وزارة الدفاع. أكمل حلاقته على عجل وارتدى بزّته العسكرية وسارع بالخروج إلى مقر قيادته في وزارة الدفاع. وبدلاً من أن يتجه مباشرة إلى الوزارة، قام بجولة تفقدية في شوارع بغداد وبعض الأزقة والأحياء الشعبية ليطمئن إلى الحالة هناك. وكان يلاقى، في كل حارة زارها وفي كل زقاق دخله، بالتصفيق والترحيب من الرجال والنساء والأطفال. والكل كان يهتف بحياة الزعيم، والموت لأعدائه، وبسقوط الاستعمار. فاطمأن إلى أن الوضع طبيعي، وقال لمرافقه بأن هذا الطيار أحمق وسينال عقابه العادل، وتوجه إلى مكتبه في وزارة الدفاع.

حين وصل إلى وزارة الدفاع وجد أن بعض كبار ضباط الجيش قد سبقوه إلى هناك، وفي مقدمهم عبد الكريم الجدة، آمر الانضباط العسكري وآمر موقع بغداد، والعقيد عباس فاضل المهداوي رئيس محكمة الثورة، وطه الشيخ مدير الخطط العسكرية، واللواء أحمد صالح العبدي الحاكم العسكري العام، والعقيد وصفي طاهر المرافق الأقدم لقاسم، والمقدم جاسم العزاوي السكرتير الخاص لقاسم. وكان عبد الكريم الجدة في الساحة الأمامية لوزارة الدفاع رابضاً على مدفع مضاد للطائرات يحاول عبثاً أن يصيب الطائرة المهاجمة، أما العقيد وصفي طاهر فكان يتنقل بين مكتب قاسم في الطابق الأول وباب وزارة الدفاع شاهراً مسدسه بيده وقد فقد أعصابه وسيطر عليه الغضب والخوف والسخط والهلع.

استمر القصف الجوي على وزارة الدفاع، كما تابعت محطة الإذاعة العراقية إذاعة بيانات ومراسيم الثورة الجديدة وأناشيد وطنية وأهازيج شعبية وخطب حماسية تبشر الناس بنجاح الثورة والقضاء على قاسم وزمرته. وعلى نقيض ذلك كانت محطة التلفزيون العراقية تعرض صور عبد الكريم قاسم تسبقها بكلمة حماسية وترافقها بأقواله وتعقبها بأناشيد وطنية وأهازيج شعبية تسبح وتمجد بالزعيم.

أصاب القصف الجوي بعض البنايات التابعة لوزارة الدفاع، تهدّم السور الخلفي الذي يفصل بين وزارة الدفاع وقاعة الشعب وبهو الأمانة. كما قتل عبد الكريم الجدة، آمر موقع بغداد، وهو يقاتل، وخرّ صريعاً على المدفع المضاد للطائرات، وبقيت جثته في مكانها إلى اليوم التالي. كما أصيب العقيد وصفي طاهر في الممر الذي يفصل بين مكتب قاسم وقاعة مجلس الوزراء في وزارة الدفاع بطلق ناري أودى بحياته.

اعتقد قاسم أن الشعب إذا ما سمع صوته فسيهبّ إلى نصرته ويقضي على هذه الحركة. فقام بتسجيل كلمة وجهها إلى أفراد الشعب العراقي يحضهم فيها على الثورة على المعتدين «عملاء الاستعمار» والمحافظة على مكاسبهم التي يتكالب عليها الاستعمار وأذنابه، وأن النصر سيكون حليفهم بإذن الله. كان صوته متحشرجاً ومخنوقاً يغلب عليه الانفعال، جافاً ومبحوحاً لأنه كان يريد أن يعلو بصولته على دوي القنابل والانفجارات من حوله. وسلم شريط التسجيل إلى سكرتيره الخاص المقدم جاسم العزاوي، الذي كان يثق

به ثقة عمياء، ليوصله إلى إذاعة سرية خارج وزارة الدفاع لتذيعه على أبناء الشعب، خرج المقدم المذكور من وزارة الدفاع وسلم الشريط إلى مجلس قيادة الثورة الجديد بعدما انضم إليهم.

شرع قاسم في الاتصال تلفونياً بقيادة الفرق وثكنات الجيش يسأل عن ضباطه ورفاقه في السلاح وزملائه في النضال، فكان يأتيه الجواب إما بأن من يسأل عنه غير موجود، أو سيلاً من الشتائم ورخيص الكلام وهجر القول.

إستمر إطلاق النار من دون انقطاع حتى الساعة الرابعة مساء، فأخذت المقاومة في وزارة الدفاع تضعف تدريجياً. كما استولى الثوار الجدد على محطة التلفزيون قبيل الظهر. وبات الناس مقتنعين بنجاح الثورة وهزيمة قاسم. وما إن أقبل المساء وبدأت الشمس تميل نحو الغروب حتى بدأ بعض الضباط المحيطين بالزعيم قاسم بالتسلل، الواحد بعد الآخر، خارج وزارة الدفاع. وكان يلاحظ ذلك إلاّ أنه آثر تجاهله وغض النظر عنه. إلاّ أن الأمر الذي لم يستطع السكوت عنه، أو يقبل به، هو عندما شاهد اللواء أحمد صالح العبدي، الحاكم العسكري العام، مهرولاً بجسمه المتهدّل وكرشه نحو السور المتهدم متوجهاً إلى بناية بهو الأمانة الذي تهدم بدوره بفعل القصف الجوي، خارج وزارة الدفاع فسارع قاسم الخطى خلفه صائحاً: إنني أعرف أنك غير شجاع ولكني ما كنت أتصورك بهذا الحد من الجبن. وحال المرافق الأقدم للواء العبدي المقدم عبد الستار الجنابي بين الزعيم واللواء الهارب وصرخ بوجه الزعيم قائلاً: إرجع سيدي! وكان المقدم الجنابي يمت بصلة قربى إلى اللواء العبدي.

إنصاع قاسم ونكص على عقبيه وكبت غضبه وهو يرى الخيانة تحيط به من كل حدب وصوب، ففقد صوته، ولم يستطع الكلام ولم يفه ببنت شفة منذ تلك اللحظة إلى صباح اليوم التالي. وبقي قاسم يتنقل بين الساحة الأمامية لوزارة الدفاع ومكتبه وأروقة وممرات الوزارة حتى الليل. كما لم يتناول أية وجبة طعام، وإنما اكتفى بشرب كوب من ماء الحنفية. ومع حلول الظلام توجه مع مرافقه قاسم الجنابي تاركاً وزارة الدفاع ودخل إلى قاعة الشعب من السور الخلفي المتهدم. وجلس على كرسي خشبي في أحد الصفوف الأمامية لقاعة الشعب وبيده «راديو الترانزيستر» الصغير، الذي كان دائماً معه، يستمع إلى بيانات ومراسيم الثورة وتشكيل الوزارة الجديدة. أما مرافقه قاسم الجنابي فجلس خلف قاسم بصفين أو ثلاثة. بعد فترة قصيرة انضم إليهما العقيد عباس فاضل المهداوي وطه الشيخ وأخذا مكانهما إلى جانب الجنابي خلف الزعيم. بقي الأربعة على هذه الحال إلى الصباح من دون أن يتبادلوا أي كلام أو حديث أو تعليق. وكان لا يعكر هذا الصمت القاتل سوى أصوات الانفجارات ودوي الرصاص الذي ينهال على بناية وزارة الدفاع. وعلى رغم توقف إطلاق النار من المدافعين عن وزارة الدفاع لم يقتحمها قادة الثورة الجدد، وإنما اكتفوا بصب حمم مدافعهم ودباباتهم من بعيد طوال الليل.

في الصباح الباكر غادر عبد الكريم قاسم قاعة الشعب إلى مكتبه في وزارة الدفاع، ومن هناك اتصل بمجلس قيادة الثورة الجديد المنعقد في دار الإذاعة والتلفزيون وأبلغهم برغبته في تسليم نفسه إليهم. وإثر هذه المكالمة دخلت دبابة يقودها أحد الثوار العسكريين فصعد إليها قاسم وهنأ قائد الدبابة بنجاح الثورة، وتوجّهت الدبابة إلى دار الإذاعة والتلفزيون، حيث كان مجلس قيادة الثورة مجتمعاً برئاسة العقيد عبد السلام عارف. وقد بادر قاسم الرئيس عارف بالقول: أريد أن أذكرك بأننا كنا قد أقسمنا اليمين على القرآن الكريم على أن لا يقتل أحدنا الآخر مهما كانت الظروف والأحوال. وإنني قد التزمت بهذا القسم، فلم أنفذ القرار بحقك عندما أصدرت المحكمة الحكم بإعدامك. فأجابه العقيد عبد السلام عارف رئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس الجمهورية الجديد: إنني لست ديكتاتوراً مثلك. إن القرار بالحكم بإعدامك قد اتخذه مجلس قيادة الثورة وليس لي عليه سلطان.

ثم جيء بالعقيد عباس فاضل المهداوي، وطه الشيخ وقاسم الجنابي إلى دار الإذاعة والتلفزيون. وما إن شاهد الثوار الجدد العقيد الهداوي حتى استقبلوه من الباب الرئيسي بالشتم والضرب والركل حتى قضى

نحبه وهو لا يزال في الساحة الأمامية لدار الإذاعة والتلفزيون. ولم يكن بمقدور قاسم أن يعمل أي شيء للدفاع عن ابن خالته المهداوي سوى صرخات خافتة مخنوقة: لا. لا.

أدخل كل من عبد الكريم قاسم وطه الشيخ وقاسم الجنابي إلى قاعة الموسيقى العربية في محطة الإذاعة والتلفزيون وأجلسوا على الكراسي المعدة للعازفين وربطت أيديهم خلفهم، بعد أن طلب إليهم أن يعصبوا عيونهم قبل إطلاق النار عليهم تنفيذاً لحكم الإعدام الصادر. فرفض عبد الكريم أن يعصب عينيه وكذلك الآخران. وما إن رفع الملازم عبد المنعم حميد رشاشه استعداداً لإطلاق النار، حتى دخل الطيار حردان التكريتي فصاح بقاسم الجنابي: ماذا تفعل هنا؟ أخرج فوراً. فقام الجنابي وخرج من القاعة وهو بحالة ذهول. وسمع في تلك اللحظة دوي رصاص الرشاش من خلفه.

وهكذا أهدرت مرة أخرى، ولن تكون الأخيرة، حياة حاكم للعراق. ظهر على حين غرة، ومن حيث لا يدري، على مسرح العراق، وسلطت عليه الأضواء وسط دهشة الجميع واستغرابهم، فكان ملء السمع والبصر. ثم اختفى مثلما جاء فجأة ومن دون سبب. والمؤلم المفجع في هذه الحياة أنها ذهبت سدى فلم تصلح حتى أن تكون عبرة لمن جاء بعدها.

في دار المعلمين الريفية

لم يستطع مرور الزمن أن ينسيني أيام الحلّة، وكنت قد صممت على أن أتابع حياتي التدريسية فيها ولا أنتقل منها إلى مكان آخر، ولكنني فوجئت في ابتداء العام الدراسي الثاني بنقلي إلى دار المعلمين الريفية التي تقع في منطقة الرستمية من ضواحي بغداد فلم أشأ أن أعترض على ذلك، فواصلت العمل فيها، وكانت تقع على ضفة نهر ديالى في موقع جميل تحوطه المروج الخضراء والشجر الغضيض.

وكما أوحت الحلّة شعراً فقد أوحت مثله الرستمية، وكان كله حنيناً إلى الأوطان والأحباب.

وإذا كانت القصيدة اليائية المتقدمة المنظومة في الحلة تفيض أسى ولوعة، فالحقيقة أنها لا تمثل حياتي في الحلّة التي كانت بِشراً وسروراً وبهجة، ولكنها تمثل فترة معينة من تلك الحياة، هي فترة وصولي الأولى إلى الحلّة إذ كان لم يمض شهر على وصولي إليها حتى أتى العيد وكنت لم أمتزج بأحد من أهلها فشعرت بالغربة الأليمة والشوق الشديد والوحدة الموحشة، فكانت تلك القصيدة من وحي ذلك كله.

وإني لأظلم الحلَّة إذا كانت القصيدة اليائية تمثل حياتي فيها، وإنما تمثلها بعض التمثيل القصيدة اللامية التي آسف لفقداني لبعض أبياتها.

ومن وحي شواطىء (ديالى) في الرستمية هذه الأبيات:

سقت سرح (الدواوير) الغوادي ... وجاد رياضها المطر السكوب
تحب النفس مغناها ويهوى ... مسارحها الفؤاد ويستطيب
فكم راق العيون بها شروق ... وطاب على محانيها غروب
وفي تلعاتها كم رفّ ثغر ... وكم خفقت بواديها قلوب
يعاودنا إذا خطرت حنين ... وإن ذكرت يهيج بنا وجيب
أسرح التين هل في الواد شاد ... وهل في السفح غرّيد طروب
وهل تمشي إليك على الليالي ... (سروب الغيد تتبعها سروب)

أتزهو بعدنا ثم المغاني | أيحلو السفح والوادي الخصيب
خلت تلك الخيام فلا محبّ | يعاطيه الهوى فيها حبيب
وعطلت المرابع بعد أنس | وصوّح بعدنا الروض العشيب
ذكرناكم على شطّي(ديالى) | فطاب لنا بذكركم النسيب
وكنتم في النوى ريحان قلب | على شحط النوى وجداً يذوب
نأيتم فالمنازل موحشات | وبنتم فالربيع بها جديب
لئن طابت لياليكم فليست | لياليناً لبعدكم تطيب
وإن تردوا المناهل صافيات | فإنا في مناهلنا نلوب
إذا عذب الفرات لوارديه | يغص به على النأي الغريب

وكذلك كان مما أوحت به الرستمية بعد فراقها والرحيل عنها هذه القطعة التي فقد بعضها ولم يبق منها إلاّ هذا الذي أذكره هنا، وهو حنين إليها وإلى ديالى خاصة وإلى العراق عامة:

دالت الدنيا علينا يا ديالى | فهجرنا «الشط» والماء الزلالا
وتركنا في محانيك الظلالا | وارفات تملأ الوادي جمالا
كم أطلنا في النوى عنها السؤالا | وسهرنا الليل شوقاً وهياما

* * *

أين في «الفيحاء» عن عيني النخيل | أين وادي دجلة أين السهول
وديالى العذب فياضاً يسيل | أين بغداد وشاطيها الجميل
يا ليالي الشط والنأي طويل | أذكري ما عشت صبّاً مستهاما

* * *

أين عن عيني وادي «الرستميه» | أين سحر الصبح فيها والعشيه
أين روضات مغانيها الندية | ولييلات محانيها الوضيه
لم تزل نفسي على البعد وفية | تعشق الشط وتهواه مقاما

وأحسب أن هذه أول مرة يذكر فيها ديالى والرستمية في الشعر العربي.

كانت دار المعلمين الريفية طرفة من الطرائف، فيها يجتمع المئات من التلاميذ القادمين إليها من كل قرية في العراق، من زاخو إلى الفاو كما يعبرون في العراق. فيهم العربي القادم من الشمال والجنوب[٣] والوسط. وفيهم التركي القادم من منطقة كركوك. وفيهم الكردي القادم من كردستان. وكان تدريس قواعد اللغة العربية وآدابها لهذه المجموعات مهمة من أشق المهمات، ولكنها في الوقت نفسه تشتمل على أنواع من الطرف المضحكة.

وكان التلاميذ الأكراد والأتراك يأتون إلينا وكل محصولهم من اللغة العربية هو أنهم أصبحوا يحسنون

النطق بها، وكان علينا أن نعلم هؤلاء قواعد اللغة العربية وآدابها. وهنا كانت المشاق وما يتخللها أحياناً من الطرف.

وقد حدثنا أحد زملائنا من مدرسي اللغة العربية أنه اختار للاستظهار قصيدة الشاعر المصري علي الجارم التي يقول في مطلعها: «بغداد يا بلد الرشيد» وأنه بعد أن فسّر للتلاميذ ألفاظها وشرح معاني أبياتها، وأكد في الشرح على معنى (لوح الوجود) الوارد ذكره في القصيدة، وسأل التلاميذ هل فهمتم معنى لوح الوجود فأجابوا بالإجماع أنهم فهموه. فسأل أحد التلاميذ: أين هو لوح الوجود؟ وصدف أن كان المسؤول تلميذاً كردياً، فأجابه التلميذ: موجود في الإدارة.

ويعني بالإدارة مكتب المدير.

ومثل هذا كان يحصل دائماً.

على أننا نظلم التلاميذ الأتراك والأكراد إذا اعتبرناهم وحدهم في هذا المستوى من المعرفة باللغة العربية وآدابها. فقد كان بين التلاميذ العرب من هو أعرق في الجهالة من هؤلاء. والتلاميذ الأكراد والأتراك معذورون لأن اللغة ليست لغتهم. ولكن ما عذر التلاميذ العرب؟

لقد كان جهدنا منصباً على أن يعرف هذا الخليط من التلاميذ مواقع الرفع والنصب والجر من الأسماء، ومواقع الرفع والجزم والنصب من الأفعال، وقد كانت هذه المهمة من أصعب المهام وأشقّها، وكانت تحتاج منّا إلى صبر وجلد وتحمل، وكنا بهذا الصبر والجلد والتحمل نحقق الكثير من النجاح، ومن الطبيعي وهذا الحال حالنا وحال تلاميذنا أننا كنا نبتعد بهم عن تعقيدات النحو لأنها ستحملهم على كره هذا الدرس واستثقاله وتنفرهم منه، بينما كنا نسعى لتحبيبه إليهم وجعلهم يألفون دروسه، وأما في الأدب فقد كنا نختار لهم من الشعر ما كان سهل الفهم واضح المعنى صريح الألفاظ.

مدرسة الفقراء

لقد كانت دار المعلمين الريفية مدرسة الفقراء، والقرويين منهم بصفة خاصة، فهؤلاء لم يكن باستطاعتهم، بعد أن يتمّوا دراستهم في قراهم، أن يتحملوا الإنفاق على أنفسهم خارج قريتهم ليتابعوا الدراسة الثانوية، لذلك كانوا يقبلون إلى دار المعلمين الريفية التي تتكفل بمساكنهم وطعامهم وملابسهم.

ثم تضمن لهم، بعد أربع سنوات، تعيينهم في القرى معلمين براتب خمسة دنانير لكل منهم. وقد كان الوصول إلى قبض هذا الراتب حلمهم الذهبي الذي يتشوقون إلى تحقيقه، فالواحد منهم الذي ولد في الفقر ونشأ فيه وأمضى طفولته وصباه محروماً، والذي لم تجتمع لأبيه في يوم من الأيام خمسة دنانير كتلة واحدة، كان حلمه كما كان حلم أهله أن يروا في آخر كل شهر خمسة دنانير تنهل عليهم متدافعة بين أيديهم.

وإذا كان بين هذا الخليط العجيب من التلاميذ من ذكرنا من أمره ما ذكرناه، فقد كان فيهم العديد من المتفوقين بل النوابغ. وقد كان يحزّ في نفسي أن أتصور ضياع هذه المواهب غداً في حياة القرى النائية وفي تعليم صبيانها، فأخذت على نفسي إنقاذ من أستطيع إنقاذه منهم. وقد كان طريق فريق منهم



في دار المعلمين الريفية

معبداً، وهم الأذكياء من غير أصحاب المواهب الأدبية، فلم يكن عليهم إلاّ أن يصبّروا أنفسهم على تحمّل الفقر سنين أخرى، وأن يرضوا بالتخلي عن قبض خمسة دنانير في كل شهر عما قريب، وأن يرجئوا ذلك إلى مدة أبعد كي يقبضوا لا خمسة دنانير، بل أضعافها، وذلك بأن يتقدموا إلى امتحانات الشهادة المتوسطة التي يؤهلهم النجاح فيها إلى دخول دار المعلمين الابتدائية، الأعلى درجة، والأكثر راتباً عند التخرج منها.

ثم إذا كانوا يستطيعون أن يكونوا أكثر صبراً وتحملاً، أن يتقدموا إلى امتحانات الشهادة الثانوية عند تخرجهم من دار المعلمين الابتدائية، التي يؤهلها نجاحهم فيها إلى دخول دار المعلمين العالية (الجامعية) وبذلك يصبحون مدرسين في المدارس الثانوية ذات الرواتب المرتفعة.

وفي هاتين المرحلتين سيكون مضموناً لهم المسكن والمأكل المجّانيين، على ما هو عليه الحال في دار المعلمين الريفية.

ثم إذا وطنوا النفس على الصبر الأطول وجدّوا واجتهدوا فقد يرسلون في بعثات علمية حكومية إلى الخارج فيرجعون بشهادة الدكتوراه التي يصبحون بها أساتذة جامعيين.

لقد أغرى هذا الحال فريقاً قليلاً فوطدوا العزم على تحقيق ما يدعو إليه، فوصل بعضهم إلى دار المعلمين الابتدائية وتخرج منها، ولكنه لم يطق الصبر أكثر من ذلك فوقف عند هذا الحد. وواصل بعضهم السير وراض نفسه على الصبر، فتخرجوا من دار المعلمين العالية.

وصبر الأقل الأقل منهم فعادوا بشهادات الدكتوراه من جامعات أوروبا وأميركا.

وقد كان من ألطف ما صادفني أن بعض من عرفتهم تلاميذ في دار المعلمين الريفية عرفتهم فيما بعد وهم طلاب في دار المعلمين العالية أيام تدريسي فيها بعد ذلك.

أما أصحاب المواهب الأدبية، فقد كان الأمر معهم صعباً كل الصعوبة، ولم أتمكن إلاّ من إنقاذ واحد منهم فقط. وقد كان فيهم من يمكن أن يكون في قابل أيامه من أبرع الكتّاب سواء في الصحافة أو القصة أو الأدب أو تاريخ الأدب.

ومشكلتهم أنهم إذا أرادوا التخلي عن دار المعلمين الريفية، فلم يكن أمامهم مواصلة الدراسة في دار المعلمين الابتدائية ثم دار المعلمين العالية، بل كان عليهم أن يبدأوا في شق طريقهم الأدبية منذ الآن، وذلك بأن يلتحقوا بمؤسسة صحفية تكتشف مواهبهم تدريجياً حتى يكون لهم فيها المكان المؤهلين له، وهذا لم يكن ميسوراً، وكان إذا تيسر لا ينتج إلاّ راتباً قليلاً لا يكفي النفقات اليومية، وهذا ما لم يكونوا يجرؤون على الإقدام عليه.

ولكثرة ما واصلت تشجيع أحدهم، صادق الأزدي، جاءني في يوم من الأيام وقال إنه وجد عملاً في إحدى المؤسسات الصحفية براتب شهري قدره ثلاثة دنانير ولكنه عمل لا يتصل بالكتابة في الصحيفة بل ببعض شؤونها الأخرى، لذلك قرر رفضه لأن الدنانير الثلاثة لا تعني شيئاً في الحياة البغدادية التي عليه أن يحياها، ولأن عمله لن يكون تحريرياً تبرز فيه مواهبه.

فأنكرت عليه رفضه، وقلت له اذهب الآن فاقبل العمل بشرط أن تبدأ منذ الأسبوع الأول من مباشرتك العمل بأن تكتب فيما يتصل بالشؤون الصحفية، وتقدم ما تكتبه إلى رئيس التحرير رأساً، وأؤكد لك أنه ما إن يتأكد رئيس التحرير بأنك صاحب هذه الكتابة حتى ينقلك إلى التحرير في الجريدة وحتى يتضاعف راتبك ثم يتضاعف.

وبالفعل فإن راتب الدنانير الثلاثة لم يكن إلاّ شهراً واحداً، إذ أصبح في الشهر الثاني خمسة، ثم تضاعف وتضاعف، ثم جاء وقت أصبح فيه صادق الأزدي رئيس تحرير جريدة يومية من أكبر جرائد بغداد، وفي الوقت نفسه كان صاحب مجلة أسبوعية سياسية من أكثر المجلات رواجاً وشهرة.

والوفاء العراقي الأصيل كان في صميم صادق الأزدي فلقد لقيت من وفائه ما هو حري بابن الرافدين دجلة والفرات.

ومن بين الذين أعياني أمرهم كان غانم الدباغ، فإن غانماً هذا كان أديباً موهوباً لا سيما في القصة، وقد حاولت إنقاذه من المصير الذي سيصير إليه معلماً قروياً منبوذاً في قرية قصية موحشة تقتل فيها النفس قبل المواهب، وقد عزّ عليَّ أن تخسر العربية مثل هذا الكاتب المبدع، فحاولت شتى المحاولات دون جدوى.

وكان من أهم عوامل الفشل هو جبن غانم نفسه، وهو جبن لا يلام عليه، فقد كان يصعب عليه التخلي عن الحياة المطمئنة التي يحياها الآن خلياً من هموم المطعم والمسكن والملبس... التخلي عن ذلك إلى

المجهول... وقد كان شبح الفقر الذي ظلّ يلاحقه منذ وُلد إلى هذه الساعة، كان هذا الشبح يلوح له في الأفق القريب والبعيد فيرتجف رعباً منه فينهار كل طموحه.

وتخرج غانم الدبّاغ من دار المعلمين الريفية وعيّن معلماً في قرية من قرى الموصل وراح يتناول الدنانير الخمسة في آخر كل شهر، وتركت أنا العراق في المرة الأولى، ثم عدت إليه بعد سنتين. وكان اسم غانم الدبّاغ لم يفارق مخيلتي، فكان أول ما فكرت به أن أعرف مصير هذا الكاتب المبدع، وكان كل ما أعرفه عنه أنه يعيش في قرية من قرى الموصل، ولكن لا أعرف في أي قرية هو. فأرسلت له رسالة جعلت عنوانها باسم مدير معارف الموصل ورجوته فيها أن يتفضل بإرسالها إلى صاحبها، ففعل، وجاءني جوانب غانم، فإذا هو في قرية اسمها (الموالي)، وأن لقبه صار معلم أول، بعد أن كان مجرد معلم. وأنني أنشر هنا نص هذه الرسالة لما فيها من دلالات وذكريات:

الموالي (من قرى الموصل)

في ١٩٤٧/١/٣١

«أستاذي:

تحية طيبة. حمل إليّ البريد رسالتك وأنا في شوق لها، وحملت لي سطورها هذا الخط الحبيب إلى نفسي والذي كثيراً ما هداني إلى محجة الصواب أيام الدراسة... وكيف لا يهفو قلبي إلى ذكراك وهي عاطرة في ذهني كعطر الأنسام، وشهد الله أن ضميري ليحمل آلاماً ثقالاً من هذا الذي قد لا يكون عقوقاً، ولكنه نوع من الإهمال الذي يسيطر على مجرى حياتي في شتى صورها وألوانها... فليس غيابك أمداً خارج العراق ورجوعك إليه، ولحاقي وراء خبز الحياة في أطراف الصحارى، ليس كل هذا قد محا الصورة الهادئة الوديعة المستقرة في ذاكرتي عنك... لا والله، وليشهد قلمي المضطرب الآن، بين يدي، أنه خطّ لك رسائل ولكن لأقرأها أنا فقط.

وحياتي!؟ حياتي في هذه البقعة المقفرة!؟ إنها فراغ هائل عميق وجسد يتهافت على بعضه، ونفس حائرة في طواياها بين الضجر والألم وقد خلقت منها المقادير حلقة مفرغة لا تستقر على حال من الهدوء والطمأنينة، وأيام الصبا والشباب تذهب بها دورة الزمان المجنونة نحو الفناء والاضمحلال لتستقر بها في ظلمات من الحيرة المبهمة والقلق الصامت المكتوم!

لا يؤنسني فيها إلاّ ألحان المزمار... فهذا أعرابي يناجي صاحبته على أنغامه والقرية نائمة على الظلام... إن هذا الصوت الذي ينساب في أنغام ساذجة ليشجيني كما يؤلمني. إنه يفتح في القلب جراحات عميقة ينكأها في الصميم. إنه يكاد يرهق سمعي ويهد أعصابي المكدودة.

وأيام الشتاء تقبل على القرية، ما أفظع لياليها! وأنا بين جدران أربعة يعبق في جوها أريج الطين وعطر الأرض النفاذ، وقد فغرت ثقوب الكوخ أفواهها، والريح ترسل عويلاً يمتد ويتلوى في أنين خافت... والليل مظلم كئيب يقطع سكونه نباح الكلاب ثم تذوب أصواتها بعيداً في الفضاء.

السكون العميق يلفّني، ويطغى على حواسي، ويبعث في أذني هذا الوشيش الناعم الذي ليس إلاّ صدى الرهبة العميقة، وتحت ضربات الريح العابثة يئن الباب وقد كلت أخشابه المتداعية فيرسل صريراً خافتاً... لقد نامت القرية وهجع سمّارها، وذو القلب المعنّى لا يهجع، والقلم لا ينقطع عن الصرير فيخط ذوب هذه النفس الحبيسة!

وأحسبني أطلت عليك وأثقلت في ثرثرة قد لا تكون في الواقع إلاّ صدى لما أعاني، وإلاّ شكوى أبثها لمن يتسع قلبه الكبير لشكاتي.

لقد هصرتني هذه الأعوام الثلاثة وأحالتني بشراً تبدو على فمه البسمة الكئيبة، وينشج قلبه بالبكاء... وبكاء القلب من أمر البكاء.

أيامي هنا يا صفي القلب، ضنئ للقلب والعقل والروح... وكبت للرغبات وموت للآمال... أيامي تضيع بين دُمى من البشر تقسو حتى في نظراتها.

ولا يجيب صراخي المكبوت إلاّ صداه المعذب، ولا أسمع إلاّ قهقهات القدر تتسع وتتضخم في تهاويل بشعة، فتحيلني إلى صخرة صمّاء وقد تبلدت في نفسي عواطف الإنسان الشاعر، وشاب قلبي الفتى في غير أوانه.

أشعر كأن جسمي وروحي معاً يريدان الانطلاق من هذا الجحر الأعتم يريدان العالم الحر الفسيح، يريدان الحياة بين الناس، بين أنس الصداقة، بين لهو الخلق وصخب البشر... ولكن!!

لم يبق في جعبتي من لذة العيش وأحلامه الرغيدة إلاّ هذه الذكريات أسدر سابحاً في بيدائها التي عفت عليها الأيام... أناجيها إذ أخلو إلى نفسي، وأستعيدها فترق لها روحي وتطيب، نعم لم يعد لي من لذة الحياة وهناءة العمر إلاّ هذه اللحظات التي عبرت شاطئ حياتي كالوهم، وقد أتساءل أحياناً أعشت فيها حقاً!؟».

المفتش

في يوم من الأيام دخل علينا الصف مفتش اللغة العربية بهجت الأثري، دخل بجسمه الطويل ولكن غير العريض وبعمامته البيضاء المشدودة على الطربوش الأحمر وبنظّارته المتلألئة، دخل متعاظماً يتكلف الوقار والهيبة، فكانت أسئلته للتلاميذ أسئلة لا يراد بها إلاّ التظاهر بالعلم والتفوق، وإلاّ محاولة أن يجد ثغرة ينفذ منها إلى التجريح، وإلاّ أن يجد وسيلة يقول فيها أنه كتب تقريراً.

وكان مركّب النقص عند هذا الفريق من المفتشين الذين لم يعرفوا شيئاً من الدراسات الحديثة، والذين يعلمون أنهم دون من (يفتشونهم) علماً وتجربة، والذين نشأوا على حب الاستعلاء دون أن تكون لهم كفاءات الاستعلاء، كان مركب النقص هذا عندهم يحملهم على ركوب المراكب الخشنة والتعامل بغِلظة وفظاظة محاولة لستر نقصهم.

لم يجد بهجت الأثري ما يسأل به التلاميذ من مواضيع النحو إلاّ الإعلال والإبدال وأمثال ذلك من المواضيع المربكة التي كنا نتجنب الخوض فيها مع التلاميذ لئلا يتيهوا فيما لا يجوز أن يتهيوا فيه، وكنا نمر بها في تدريسنا لماماً ونتجاوزها دون التعمق والإيغال. لأنه كان حسبنا من أولئك التلاميذ أن يصلوا معنا إلى إتقان المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والمجزومات. أما متى تقلب الواو ياء، ومتى تقلب الواو والياء همزة أو ألفاً، ومتى تقلب الواو والياء تاء، مضافاً إلى الإبدال، فقد كنا نعتبرها أموراً ثانوية مشوشة لأذهان التلاميذ بدون طائل، وأنه ينبغي العناية بها مع التلاميذ الذي يتقنون قواعد اللغة إتقاناً جيداً لا مع التلاميذ الذين يجهلون أبسط قواعد اللغة. وقد كان بين التلاميذ من لهم قابلية تفهم تلك الأمور وكانوا قلة، فكنت أخصهم بأوقات خارج أوقات الدرس أشرح لهم فيها ما لا يفيد شرحه لمجموع التلاميذ.

قلت إن بهجت الأثري لم يجد من مسائل النحو ما يسأل به إلاّ تلك المشاكل، هذا في النحو وأما في الأدب فقد كان أمره أعجب وأغرب وأضحك: لقد كان سؤاله الوحيد أن اختار تلميذاً وصدف أن

كان كردياً من النوع الذي يجيب عن مكان (لوح الوجود)، أنه في الإدارة وسأله: هل للشمس حاجب؟

لقد تاه المسكين أي تيهان، إنهم لم يدرسوه في دروس الأدب العربي ما إذا كان للشمس حواجب وعيون وآذان وآناف أم لا. فما هذه الورطة؟

لقد كان صاحبنا المفتش الهمام يقصد على ما يبدو بيت الشعر الوارد في قصيدة البحتري التي يصف بها بركة سامراء والتي يقول فيها: «وحاجب الشمس أحياناً يضاحكها»، فبدلاً من أن يسأل التلميذ عن معنى البيت وينتظر تفسيره له، لم يجد وسيلة ليقال إنه كتب تقريراً أو أبدى رأياً، ولا طريقاً للغمز واللمز سوى هذا الأسلوب في السؤال الذي كان موقناً بأنه سيربك التلميذ فيكون ذلك منفذه إلى ما يبغي.

وكما دخل بهجت الأثري متعاظماً متشامخاً، خرج وقد ازداد تعاظمه وتشامخه.

ومن الطريف أن الدكتور زكي مبارك، وقد كان يوماً مفتشاً للغة العربية، اعترف في بعض ما كتبه بما كان يتعسف به أساتذة هذه اللغة إرضاء لحافز التسلط في نفسه، وأورد أمثلة طريفة على ذلك.

ولكن إذا غلب حافز التسلط على الدكتور مبارك فإن وراءه دكتوراه من جامعة القاهرة ودكتوراه من جامعة السوربون، ووراءه كتاب «النثر الفني» وأمثاله، فماذا وراء بهجت الأثري؟

من أيام دار المعلمين

ومن أيام دار المعلمين المعدودة يوم الفيضان الرهيب الذي طغى فيه ماء نهر ديالى حتى أغرق معسكر الرشيد المجاور لنا، ثم أخذ يمشي إلينا مهدداً لنا بالغرق، وقد كان لنزلاء المعسكر منفذ إلى بغداد أنقذهم من الموت غرقاً أما نحن فقد أصبحنا محصورين بالماء من كل جوانبنا ولا منفذ لنا حتى جاءت ساعات أيقنا فيها بالهلاك لولا أن الماء اتجهت قوته باتجاه (الزعفرانية) فمشى إلينا ضعيفاً متباطئاً مما أنجانا منه.

وفي حالات اليأس تلك وقف واحد منا وأخذ ينشد قصيدة مالك بن الريب التي رثى نفسه بها، وهي التي تقول فيها:

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه ... وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
تذكرت من يبكي عليَّ فلم أجد ... سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر خنذيذ يجر عنانه ... إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

فقلت له: لا ينبغي أن نرثي أنفسنا بشعر غيرنا، بل علينا أن نرثي أنفسنا بشعرنا، وأخذت أرتجل قصيدة طريفة أهملها من كتبها، ولم يبق عالقاً منها في ذهني سوى هذين البيتين:

فليت طريق النهر لم تجر فوقه ... مياه تريك الموت أحمر قانيا
تذكرت من يبكي عليَّ فلم أجد ... سوى الكتب والأقلام حولي بواكيا

الهوامش:

(١) يحسن هنا أن نشير إلى موقف السعوديين في هذا الموضوع: يروي فارس الخوري الذي كان مندوب سوريا في هيئة الأمم المتحدة عندما عرضت قضية فلسطين على الهيئة، وكانت أميركا تحمل لواء الدعوة إلى تقسيم فلسطين وقيام دولة اليهود، وكان العرب يناضلون لمنع ذلك ـ يروي فارس الخوري في مذكراته أنه حين كان يحاول إقناع رؤساء وفود الدول بتأييد حق العرب في فلسطين ومنع التقسيم ـ قال له مندوب كولومبيا: لماذا تسألوننا الوقوف إلى جانبكم وقضيتكم في يدكم. إن هذا الرجل وحده، وأشار إلى فيصل بن عبد العزيز السعودي لو ذهب إلى البيت الأبيض وهدّد بقطع البترول وكان جاداً في تهديده لانقلبت سياسة أميركا رأساً على عقب ولوقفت منكم محايدة إذا لم تقف مؤيدة. إن القضية في أيديكم وحدكم وأنتم تدركون هذه الحقيقة فلماذا تتجاهلونها؟!

ويستطرد فارس الخوري فيقول بأنه اجتمع أكثر من مرة بالأمير فيصل بن عبد العزيز رئيس وفد بلاده لدى الأمم المتحدة وقال له أرجوك أن تكتب إلى والدك برجائنا وإلحاحنا بقطع البترول عن أميركا، والأفضل لو يقطعه فعلاً مع التهديد بعدم إعادة ضخّه ما لم تصن الحقوق العربية صيانة كاملة في فلسطين. وإنه أكد للأمير فيصل أن هذا العمل سوف يساعد إلى حد كبير في جعل الأميركان يفكرون ألف مرة ويترددون قبل أن يقدموا على عمل فيه إجحاف بحقوق عرب فلسطين.

ويقول فارس الخوري إنه التقى بعد أيام بفيصل وسأله عن جواب والده على ذلك الاقتراح فأرسل يديه في الهواء علامة اليأس.

وينهي فارس الخوري كلامه بقوله: فكان أن خسرنا قضية فلسطين (**فارس الخوري وأيام لا تنسى**، الصفحة ٣٠٥).

وقد كانت هذه مواقف السعوديين في كل أدوار ثورة فلسطين وأحداثها، فمما يرويه المناضل الفلسطيني أكرم زعيتر في يومياته عن ثورة فلسطين سنة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ أنه بلغ من تنكر عبد العزيز بن السعود لفلسطين وثوارها أن منع جريدته (**أم القرى**) التي تصدر في مكة حتى من مجرد ذكر أخبار الثورة وأخبار رجالها فقد قال أكرم زعيتر في الصفحة ٤٢٦ من كتابه ما نصه:

«أتابع منذ مدة جريدة أم القرى التي تصدر في المملكة السعودية. وقد اشتهيت أن أقرأ فيها كلمة واحدة عن فلسطين وثورتها. وكنت قد أشرت إلى هذا باستغراب في جريدة العمل القومي، ولفت نظر الأستاذ محمد علي صاحب الشورى المقروءة في البلاد العربية إلى هذا، فكتب في (شوراه) عدة مرات.

«وكتبت في العمل القومي تحت عنوان (جائزة) كلمة أنهيتها بقولي: إنني أقدم جائزة هي اشتراك سنة في هذه الصحيفة أو في أي صحيفة أخرى لمن يكتشف كلمة فلسطين في جريدة أم القرى.

«واليوم قرأت في العدد ١٤٥٦ من جريدة **«النهار»** (بيروت) المؤرخ في ١١ آب/ أغسطس ١٩٣٨ مقالاً افتتاحياً بقلم صاحبها الأستاذ جبران التويني، حياه الله جعل عنوانه: (بعد زيارة وزير المستعمرات لفلسطين، أم القرى تنشر أخبار الحرب في إسبانيا والصين ولكنها لا تنشر حرفاً واحداً عن مآسي فلسطين).

«وقد ختم الأستاذ التويني مقاله بقوله: أمامنا العدد الأخير من أم القرى وقد ملئت صفحاته الثمان بأخبار نجد والحجاز وأخبار الحرب في الصين والحرب في إسبانيا، وليس فيه كلمة واحدة عن المآسي التي تقع في فلسطين، أفلا تستحق فلسطين العربية في نظر أم القرى أن تذكر حوادثها على الأقل كما تذكر حوادث إسبانيا والصين، وماذا يقول الناس عندما يشهدون هذا الإهمال الفاضح لعرب فلسطين في جريدة تصدر في معهم العروبة؟!».

(٢) في سنة ١٩٤٩ صرح عبد الرحمن الرافعي وزير التموين في حكومة حسين سري أنه لم يكن من مصلحة مصر الحرب مع اليهود وأن الجامعة العربية كانت ضرراً على مصر.

(٣) كما كان فيها تلاميذ من اليمن وحضرموت.

الفصل السادس

في القضاء

وفي هذه الأثناء كانت الحرب العالمية الثانية قد أعلنت وحلّت الهزيمة بفرنسا وفقدت سيطرتها الفعلية على سوريا ولبنان واضطرت إلى الموافقة على قيام حكم يضعف فيه نفوذ المستشارين الفرنسيين ويكون للوطنيين فيه الكثير من التأثير، لذلك رغبت في دخول القضاء، فكان أن عينت حاكماً لمحكمة النباطية.

وقد تمت هزيمة فرنسا بذلك الشكل المهين وأنا في بغداد، فكانت أنباء توالي الهزائم الفرنسية ومعها القوى الإنكليزية تبعث في نفوسنا الفرح العظيم، ثم كانت الهزيمة النهائية التي سلمت فيها فرنسا ووقّع مندوبوها على التسليم، فبلغ سرورنا مداه.

وكانت شماتتنا بالغة بالجنرال (غاملان) القائد العام للجيوش الفرنسية، الذي كانت فرنسا قد عيّنته سنة ١٩٢٦ قائداً عاماً لجيشها في سوريا ولبنان ليخمد الثورة السورية. وكان لما ناله من الذل والعزل أطيب الوقع في نفوسنا[١]، فنظم أحد رفاقنا الظرفاء أبياتاً بذيئة الألفاظ لا يمكن ذكرها هنا، ولكنها مضحكة، فيها الشماتة بفرنسا والهزوء بها. ومن أطرف ما فيها ذكر دخول إيطاليا الحرب بعد تضعضع فرنسا، فقد ذكر ذلك ببيت واحد يغرق السامع فيه بالضحك بعد أن يتحمل بذاءة ألفاظه، وكان فريق من اللبنانيين يلقب فرنسا بلقب الأم الحنون لذلك جاء مطلع الأبيات هكذا:

أكلت أمك الحنون ..... ها ودهاها من هتلر ما دهاها

وأرى أن لا بأس بذكر البيت المتعلق بدخول إيطاليا الحرب بعد تبديل كلمتين فيه:

(نالها) من أمام وجهاً لوجه وأتى (الدوتشي) (فنال) قفاها

والضمير في (نالها) إلى هتلر. والدوتشي هو لقب موسوليني.

وإذا كنت أبيح لنفسي ذكر هذين البيتين وفيهما ما فيهما، فذلك لتصوير ما كان يعتلج في النفوس تجاه فرنسا وأفاعيلها في سوريا ولبنان. وإني لأكتبهما وأنا أخجل كل الخجل، طالباً من القارىء الوقور أن يقدر ظروفنا يومذاك.

وجئت النباطية التي تكاد تعتبر قاعدة جبل عامل، وإذا بي وجهاً لوجه أمام مشاكل سخيفة وقضايا تافهة هي شغل الناس الشاغل، وإذا عليَّ أن أنغمر في هذه المشاكل وأنشغل في هذه القضايا، وإذا هي عملي اليومي ليلاً نهاراً، نهاراً بسماع أقوال أصحابها، وليلاً بتدوين الأحكام.

وإذا بقلمي الذي اعتاد أن يدوّن خواطري وأفكاري ودراساتي، يدون ما لا صلة له بذلك، يدوّن نتيجة الخصام على الأرض والتقاتل في القرية، والتشاكس بين المتزعمين.

وإذا بي لا أجد فسحة لقراءة كتاب في التاريخ وبحث في الأدب وقصيدة من الشعر، وإذا عليَّ بدلاً من ذلك أن أقرأ الكتب الجافة والمجلات السمجة: كتب القوانين، ومجلات أحكام المحاكم. فضاقت نفسي بذلك.

لا سيما وأن منطقة النباطية كانت مجالاً لتنافس ثلاث أسر متنافسة على وجاهة البلاد ومتزاحمة على مقاعدها النيابية، وكان لكل أسرة أنصارها المتصارعون يومياً والمتعادون دائماً والمتقاتلون أسبوعياً.

دعاوى طريفة

وكان الأمر لا يخلو أحياناً من دعاوى طريفة وأخرى مضحكة. فمن ذلك دعوى خلاصتها أن عاملاً يشتغل في حيفا أرسل مع أحد أبناء بلدته (سترة) لأخيه الموجود في البلدة والذي كان هو الآخر يشتغل في حيفا، وقد رأى ناقل السترة أن يتجمل بها في القرية قبل أن يسلمها لصاحبها فلبسها وصار يخرج بها وعرفها الناس عليه وفيهم المرسلة إليه. وبعد شهر أوصلها إلى صاحبها، فلما رآها عرف بها (السترة) الملبوسة من المرسلة معه فأقام عليه دعوى يطالبه بتعويض عن الأيام التي لبس بها السترة، وكان لا بد من تعيين جلسة للنظر بالدعوى، فلما رأيتها أمامي حسبت أن الباعث عليها غضب فوري لا يلبث أن يزول فيرجع المدعي عن دعواه، لذلك ابتدأت بها ووجهت إلى المدعى عليه كلمة تأنيب على تصرفه بما ليس له، وحسبت أن في ذلك ما يكفي لرضا المدعي فينتهي الأمر.

ولكن تبين أن المدعي جادّ كل الجد في دعواه وأنه قد سمى شهوده في حال إنكار المدّعى عليه استعمال (السترة)، ولم تُفِدْ كل محاولاتي في رجوعه عن دعواه. وطال الأخذ والرد، وأمامنا سيل من الدعاوى علينا إنهاؤها.

وكان علينا للسير في الدعوى أن نستدعي الشهود وأن نعين خبيراً يحدد ما يستحقه المدّعي من تعويض، وكان ذلك أمراً مضحكاً.

وثار غضبي بشكل لم أعهده في حياتي، لا سيما على منصة القضاء التي كنت أتغلب فيها على كل ما يثير الغضب؟ خوفاً من تصرف يبعثه الغضب، ففتحت في الحال تحقيقاً سألت فيه المدَّعى عليه: هل سافرت إلى فلسطين بجواز سفر؟ فقال: لا.

وسألت المدعي: ألم تسافر قبل اليوم إلى فلسطين؟ فقال: سافرت أكثر من مرة. فقلت: هل كان معك جواز سفر في آخر مرة؟ فقال: لا.

وبذلك يجب محاكمتهما بتهمة اجتياز الحدود بصورة غير قانونية.

فقلت للمتداعيين انتظرا إلى ما بعد انتهاء الفصل بالدعاوى لإكمال التحقيق معكما، فانتظرا.

ولما انتهيت من الدعاوى ثابت إليَّ نفسي وتذكرت أن الأمر سينتهي بكل منهما إلى حبس شهر ودفع غرامة خمسين ليرة، بعد إحالة دعوى أحدهما على محكمة بنت جبيل لأنه اجتاز الحدود من منطقتها، ودعوى الآخر على محكمة مرجعيون. وكان ما سجل في المحضر قد سجل ولا يمكن تبديله، فأصبح همّي الآن إنقاذهما من السجن والغرامة، وبعد تفكير قليل رأيت أن أجعل تاريخ اجتيازهما الحدود في زمن يشمله العفو الذي كان قد صدر قبل مدة.

وفي أثناء ذلك لقيا من أفهمهما ما سيلقيان من السجن والغرامة، فلما دخلا عليَّ، الواحد بعد الآخر، قال المدعي: لقد تنازلت عن الدعوى، وقال المدَّعى عليه إني مستعد أن أدفع التعويض.

ولكن كان ما كتب قد كتب.

ولما سألت كلاً منهما عن تاريخ عبوره الحدود حدد التاريخ الصحيح، وهذا التاريخ لم يكن مما يشمله العفو. فقلت: لا، إنك عبرتها بالتاريخ الفلاني. وسجلنا ذلك.

ولم يسعهما الاعتراض، وهما لا يعلمان السر في تغيير التاريخ، وربما حسباه إمعاناً في أذاهما.

ومن طرائف دعاوى الاختلاف على الإرث هذه الدعوى التي تريك مدى ثروات الفلاحين وقيمة ما يتركونه من تركات يتنازع عليها بعدهم الورثة:

فقد أقامت فاطمة مدلج دعوى على مواطنتها عليا حسن من قرية كفر رمان تطالبها فيها بحصّتها من مخلفات زوجهما المشترك يوسف أحمد حمزة. ومن العجيب أن هذا الزوج الذي سترى مقدار ما خلفه من ثروة لم يكن قانعاً بزوجة واحدة، بل كان له زوجتان.

أما المدّعى به فهو كما جاء في ورقة الدعوى: ما جرى تحريره بمعرفة محكمة النباطية الشرعية وهو: بقرة شراكة مناصفة مع داود سليمان في مزرعة الجرمق (أي نصف البقرة لداود سليمان، ونصفها الثاني لزوج صاحبة الدعوى).

حمار شراكة مع البصار مناصفة، طنجرة كبيرة مع غطاها، طنجرة عربية بدون غطا، وثلاثة لحف وثلاث فرش، لكن صغير للعجين (لَكَن: بفتح اللام بدون مد، وفتح الكاف) هو (الوعاء الذي يعجن فيه العجين)، وطاستان صغيرتان، وصحن، وكيلة حليب، وكرسي قش، وخمسة فناجين قهوة بدّاوية، وإبريق شاي، وثلاثة فناجين شاي، وغلاّية قهوة، وجاروشة، وغربال، وخرج شعر.

ومن طرائف الدعاوى الجزائية دعوى مستوحاة من البلاغات الحربية التي كانت تصدرها الدول المتحاربة، إذ كنا في عنفوان الحرب العالمية الثانية، وهذا نصّها:

إن المدّعى عليهم قاموا بهجوم عام، من الجهات الأربع بتاريخ نهار الأحد الواقع في ١٧ تموز/ يوليو الساعة السابعة زوالية صباحاً، على الحاكورة الشرقية المزروعة من قبلي. وبهذا الهجوم السريع والمفاجىء سيطروا على الحاكورة وأخذوا يقلعون البطاطا والبندورة واللوبيا والباذنجان... إلى آخر ما جاء في الدعوى.

ولو أن بلاغاً صادراً عن مقر أحد الجنرالات في هذه الحرب، لما كان أكثر دقة في تعيين الزمان والمكان وتصوير نوعية الهجوم... من هذا البلاغ الادعائي الطريف.

ولكن إذا كانت البلاغات الحربية تنتهي دائماً برد المهاجمين على أعقابهم، وتكبيدهم أفدح الخسائر، وإذا كانت تحاول أن تضع أصحابها مواضع المنتصرين، فإن هذا (البلاغ) من مصلحته أن يكون متواضعاً معترفاً بالهزيمة:

فالمهاجمون عادوا جميعاً ظافرين! وإذا كانت المصلحة الحربية تذكر دائماً القيام بهجوم معاكس، فإن مصلحة صاحب هذا (البلاغ) لا تذكر إلاّ الاستسلام وكثرة الجرحى.

وتلقيت يوماً بلاغاً من رقيب مخفر الدرك في إحدى القرى لأتخذ ما يقتضي اتخاذه من إجراءات جزائية بحق من وردت أسماؤهم فيه.

وإذا عنوان البلاغ هكذا: (حفل غناء ورقص بدون إجازة).

ولقد دهشت لهذا العنوان واستغربت أمره، فإنه لم يبلغني أن أم كلثوم ولا محمد عبد الوهاب ولا غيرهما قد حضر أحد منهم إلى قرية من قرى هذه المحكمة للطرب والغناء. ولم أسمع أن أحداً دعا إلى حفلة راقصة في هذه الدساكر المنتشرة على رؤوس التلال وسفوح الجبال. بل الذي أعرفه أن أهالي هذه الضياع لهم من شقائهم وسوء علاقاتهم مع حكوماتهم ما يصرفهم عن التفكير في شؤون الرقص والطرب!

إذن ما شأن حفلة الغناء والرقص التي يذكرها محضر الدرك؟

أتراها فتحاً جديداً في الحياة القروية غاب عنّا أمره؟!

وأين كنت أنا لأطير إليها ولو كانت مخالفة للقانون؟

ورحت أقرأ المحضر فإذا فيه ما يلي بالحرف الواحد:

«أثناء وجودنا أمام المخفر سمعنا ضوضاء وغوغاء، فتوجهنا فشاهدنا ما يزيد على الأربعمائة شخص من رجال ونساء جالسين على الكراسي ومنهم ناس على الحجارة والقسم الآخر واقفون. وهناك ثلاثة رجال من الغجر ومعهم امرأة غجرية يعزفون على آلات الطرب وينقرون على الطبول والدفوف والمرأة ترقص ومقيمين بذلك حفلة غناء ورقص، وذلك قرب مقهى عبد النبي. فطلبنا صاحب المقهى فحاول الاختفاء ولدى سؤاله عما إذا كان لديه رخصة بإحياء هذه الحفلة أجاب سلباً. وبناء على ما ذكر صار تنظيم هذا المحضر».

وبهتُّ عندما أنهيت قراءة هذا المحضر، وعرفت ما هي الحفلة التي عناها، وهذه خلاصة الحكاية:

مرّ جماعة من الغجر المتجولين في القرى، فنقروا على الدفوف وضربوا بالطبول، فاجتمع عليهم أهل القرية وفرحوا بما رأوه وسمعوه من رقص وعزف وغناء. فتساءل صاحبنا رقيب مخفر الدرك عما إذا كان لدى صاحب المقهى الذي اجتمع الناس بقربه رخصة بإحياء هذه الحفلة (حفلة الغناء والرقص) كما سمّاها، فخشي صاحب المقهى العواقب فتوارى في بادىء الأمر، ثم استسلم صاغراً ذليلاً ليحاسب على

جريمته الشنعاء... وهي اجتماع الناس لمشاهدة الرقص والاستماع إلى الغناء بجوار مقهاه دون أن يكون معه إجازة، مع أن أكثرهم، باعتراف المحضر، إما واقفون على أقدامهم أو جالسون على الحجارة.

وسألت عمّا جرى في ذلك اليوم المشؤوم في القرية الوادعة، فعلمت ما يلي:

حين قبض البواسل على صاحب المقهى لمحاسبته دبَّ الذعر في أهل القرية المجتمعين هناك فلاذوا بالفرار، وخاف الغجر فأمعنوا في الركض... وانفختت الدفوف وتفرق العشّاق.

وهكذا تحولت الحفلة البريئة اللطيفة إلى حزن.

وأعجب صاحبنا رقيب المخفر بنفسه لأنه كان أميناً على تطبيق القانون... حريصاً على إبادة الرقص والغناء والفرح... إذا كانت بدون رخصة.

وكثرت التوسلات، وعظم الرجاء، ليصفح ويعفو ويغفر... ولكنه أبى ورفض وثبت في رفضه وإبائه... فتشتت الناس وساق «المخالف» سوق المجرمين ليرتدع كل من يفكر بعد ذلك بأن يفرح أو يغني أو يضحك.

شهود الزور

ومن المؤسف أن شهادة الزور كانت متفشية، وكان ذلك من أعظم ما يضللني ويجعلني أتردد في الأحكام المستندة إلى شهادة الشهود، فما يدريني أن هؤلاء الشهود يشهدون بحق أو بباطل، وفي دعوى واحدة جاء ثمانية شهود يشهد كل أربعة منهم بما يناقض شهادة الأربعة الآخرين.

فقد كان موضوع الدعوى يتعلق فيما إذا كانت الأرض مزروعة حمصاً أو قمحاً، فشهد أربعة بأنها كانت مزروعة قمحاً وشهد أربعة أنها كانت مزروعة حمصاً، فكيف تطمئن إلى مثل هذه الشهادات التي تتكرر في كل يوم.

وقد عمدت إلى الاتصال باثنين من الفقهاء الموثوقين عندي هما الشيخ علي حلاوي في قاقعية الجسر، والشيخ محمد علي نعمة في حبّوش، فكنت أبعث فأسألهما سراً عما يعلمان من أمر الشهود، وهذا أشبه بما كان يعرف في القديم بتزكية الشهود. فكان يخبرني كل منهما بما يعلم من أمر الشاهد المسؤول عنه، وكانت لهما اتصالات بالقرى المجاورة لقريتيهما ويعرفان الكثير من أحوالها.

بيوع الأرض

ومما واجهني في الأيام الأولى لبدء العمل، فأربكني كل الإرباك، هو أن بيوع الأرض في قرى جبل عامل يتم تسجيلها على ورقة يوقعها البائع، ويوقع معه فقيه القرية وثلاثة أو أربعة من القرية بصفتهم شهوداً على البيع، فتصبح هذه الورقة البسيطة أوثق وثيقة.

وجاءت الحرب العالمية الثانية فارتفع سعر الأرض وهبطت قيمة العملة الورقية فكشر الطامعون من البائعين عن أنيابهم فتقدموا بدعاوى يطالبون بها باسترداد الأرض واستعدادهم لإعادة ما قبضوه من

الثمن. وكان هذا البيع باطلاً في نظر القانون، لأن بيع الأرض لا يتم بهذه الطريقة البسيطة، بل له شروط غير مجتمعة في هذه البيوع القروية.

فكيف أسمح لنفسي أنا بأن أحكم برد الأرض المباعة إلى بائعها، وسلبها من مشتريها بعد أن يرد إليه الثمن الذي أصبحت قيمته أقل من نصف ما كانت عليه أيام البيع.

وبعد أسبوع من بدء عملي في القضاء كان أمامي أكثر من عشرين دعوى في هذا الموضوع، فأجلت هذه الدعاوى إلى أكثر من شهر لعلّي أجد في هذه المدة حلاً. ووجدت الحل فالقانون كان معرّباً عن القانون الفرنسي، وفيه نص بأن الأرض تنتقل من مالك إلى مالك فيما تنتقل به (بمفعول العقود). والشارع الفرنسي حين وضع القانون كان ينظر إلى الواقع الفرنسي حيث تجري عقود بيع الأرض في الدوائر الحكومية وبموجب عقود ووثائق حكومية، لا في ديوان فقيه القرية وبموجب وثيقة قروية تحمل تواقيع الفقيه وبعض أهل القرية. لذلك لم يقيد العقد بأي قيد.

وما دام مفعول العقود غير مقيد بشيء وغير مشترط فيه شيء، فهذا عقد صريح واضح. وليس العقد إلاّ إيجاباً وقبولاً، والإيجاب والقبول هما أساس هذه الورقة القروية التي يستند إليها هذا المشتري القروي.

وصدرت الأحكام على هذا الأساس، ولكي أضمن عدم وجود ثغرة فيها تنفذ منها محكمة الاستئناف، فقد عللت كل حكم تعليلاً دقيقاً مفصلاً، مبيناً فيه فيما بيّنت تقاليد القرى وعرفها في مثل هذه البيوع. وقد كشفت لي هذه الدعاوى عن حقائق كثير من الناس المتظاهرين بالصلاح، فقد كان بعضهم في أول من طالب بإعادة الأرض إليه.

وجاءني أحدهم وكان ذا مظهر وقور من عمامة وجبة ولحية وسن متقدمة، فاستقبلته في المنزل ظانّاً أنها زيارة شخصية، ولكن تبين أنه هو الآخر يريد استرداد أرضه معلّلاً ذلك بأنه باع الأرض وأرسل بثمنها ولده إلى أفريقيا مهاجراً في طلب الرزق، وأن ابنه لم ينجح في مهجره، كأن مشتري الأرض مسؤول عن نجاح ابنه وعدم نجاحه.

ورحت أنتظر قرارات محكمة الاستئناف، فإذا بها تقر أحكامي فارتحت عند ذلك كل الارتياح.

ثم إذا بي أفاجأ بشيء جديد: ذلك أن معظم المشترين كانوا قد بدأوا يسيئون الظن بالناس، ويشعرون بأن طلائع ضياع الثقة قد أطلت، وأن الزمن آخذ بالتغير، لذلك احتاطوا لحفظ حقهم بأن ضاعفوا ذكر الثمن في ورقة البيع. فإذا كان الثمن الحقيقي مثلاً ألف ليرة، ذكروه في ورقة البيع ألفي ليرة، وذلك زجراً للبائعين عن أن يقدموا على طلب إعادة الأرض إليهم خوفاً من دفع الثمن المضاعف الذي أقروا في الورقة بأنهم قبضوه.

ولكن هذا الاحتراز لم يفد شيئاً لأن ثمن الأرض قد ازداد أثناء الحرب أكثر من الضعف، كما أن النقد الورقي قد هبطت قيمته، لذلك فإن البائع كان مستعداً لأن يدفع ضعف ما قبضه من ثمن أرضه على أن يستردها.

لقد فوجئت بأن هؤلاء البائعين قد أقاموا دعاوى جديدة يقولون فيها بأنهم لم يقبضوا ثمن أرضهم المسجل في ورقة البيع كاملاً، وأنهم يطلبون تحليف الشهود اليمين بأنهم دفعوا هذا الثمن بتمامه.

وقد كان هذا تدبيراً شيطانياً بارعاً، ورأيت أنا أن المشترين سيكونون بين أمرين: إما أن يحلفوا يميناً كاذبة فينجوا من دفع ثمن الأرض مضاعفاً، أو أن يتورعوا من حلف هذه اليمين فيغرموا المال.

ولكنني وجدت الحل لذلك بأن حددت نص اليمين على هذا الشكل: «أحلف بالله العظيم أن ذمتي بريئة من ثمن هذه الأرض».

وقد حاول أحد المحامين الاعتراض على هذا النص، ولكني لم أبال به، وهكذا نجا المشترون من دفع ثمن ما اشتروه مرتين، ونجوا من حلف اليمين الكاذبة.

وعلى ذكر اليمين، فقد حدث مرة أن وقعت في إحدى القرى وقعة دامية استعمل فيها السلاح الناري وأدى إلى وقوع جرحى مشرفين على الموت، فحضر من صيدا قاضي التحقيق والمدعي العام وبعد أن بدءا التحقيق في القرية القريبة من النباطية جاءا يكملانه في مكتبي واستدعي الشهود والمدعى عليهم واحداً واحداً. وكان قاضي التحقيق يحلّف الشهود اليمين المعتادة، فيحلفوها، والله أعلم بعد بصحة شهادتهم أو زورها.

وكنت أعرف أنا أن الكثيرين يرون أن اليمين التي يحلفها الشاهد هي يمين باطلة، لأن لا يمين شرعاً على الشهادة، وحالف اليمين في مثل هذا الموقف ليس منكراً ليصح تحليفه اليمين، لذلك كانوا لا يبالون بأن يحلفوا يمين الشهادة، ثم يشهدوا بما يشاؤون مستهينين بشهادة الزور، ومن يستهين بشهادة الزور لا تهمه تلك اليمين.

وبدأ أحد الشهود يؤدي شهادة خطرة ستؤدي، إذا كانت كاذبة، إلى اتهام بريئين تهماً جنائية كبيرة. وكنت شبه موقن بأنه يشهد زوراً فاقترحت على المدعي العام وعلى قاضي التحقيق بأن يوقفا الشاهد عن إكمال شهادته، وأن يتركا لي تحليفه يميناً خاصة يكمل بعدها شهادته فوافقا على ذلك.

فقلت له قل: إني بريء من الله ورسوله محمد بن عبد الله ومن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء والحسن والحسين وباقي الأئمة الإثني عشر إذا كان ما أشهد به غير صحيح.

فبدا عليه الاضطراب والتململ والتردد، ولما رأى المدعي العام وقاضي التحقيق، ما بدا عليه أصرّا بأن يردد ما أقوله له، ففعل. ثم ظهر التراجع واضحاً عما أدلى به من قبل.

وبعد ذلك صار المدعي العام وقاضي التحقيق بعد أن يحلّفا الشاهد اليمين المعتادة يطلبان إليَّ أن أحلّفه اليمين الخاصة.

وهذا نظير ما ذكره محمد سيرجية عما جرى له عندما كان قاضياً للتحقيق في إدلب حينما شكك بشهادة الشهود في إحدى القضايا فسأل أحد العارفين بأحوالهم قائلاً له: كيف تجرّأ الشهود على حلف اليمين الكاذبة أمامي، فكان جواب المسؤول: إحنا البدو نعتبر أن الحكومة عدوة لنا وقد جرى العرف عندنا على جواز الحلف كذباً أمام الأعداء وهم موظفو الحكومة، ولو كان ذلك على القرآن العظيم، فإذا

شئت أن تكتشف الحقيقة، فيجب عليك أن تحلّف الشهود اليمين التي يقدسونها وبالطريقة التي تعارفوا عليها. وفي هذه الحالة يجب أن يحلفوا أمامي بصفتي زعيم عشيرتهم اليمين التالية: «وحق العود والرب المعبود وسليمان بن داود اللي صبغ العبيد واللي ليّن الحديد واللي رفع السما من غير عمود».

ويقول القاضي سيرجية إنه فعل ما أشار به زعيم العشيرة فذكر الشهود عند ذلك الحقيقة ورجعوا عن شهاداتهم السابقة.

خلافات القرى

وكانت إحدى القرى مشهورة بنزاعات أهلها المنقسمين إلى أسرتين متنافستين، وكانت الدعاوى بينهم لا تنقطع، وقل أن يخلو أسبوع دون أن يكون لدى المحكمة دعوى من تلك القرية.

وجاءنا يوماً أن شجاراً عنيفاً عاماً حدث فيها اشترك فيه جميع رجال الأسرتين وأدى إلى جرحى كثيرين، فذهبت ومعي ضابط الدرك وبدأت بإجراء التحقيق، ثم أمرت بتوقيف كل من ورد ذكره في التحقيق وفي الطليعة رئيسا الأسرتين، وشمل التوقيف معظم رجال الأسرتين، ولم استثن من التوقيف إلاّ الشيوخ وسقنا الجميع إلى سجن النباطية وكان عبارة عن غرفة واحدة.

وبعد أن صار الجميع في السجن قلت لهم: لن تخرجوا من هنا إلاّ متصالحين، فأصروا على عدائهم أسبوعاً واحداً، ولما ضاق بهم االأمر في السجن أخذوا يتعاتبون ثم انتهى بهم الأمر إلى المصالحة التامة، فأرسلوا إليّ أن تمّ الصلح بيننا فأفرجت عنهم، ومنذ تلك الحادثة لم نعد نسمع شيئاً عن خلافاتهم وانقطعت دعاواهم عن المحكمة.

مبدأ وطني

وكان من مشاكلي في المحكمة، مشكل عقائدي لا قضائي، هو أننا كنّا في ذلك الوقت لا نؤمن بالكيان اللبناني، وكنا نرى أن منطقتنا (جبل عامل) قد ألحقت به غصباً وبالقوة الفرنسية، وكانت أهدافنا الوحدة السورية في المرحلة الأولى، ثم الوحدة العربية في المرحلة الثانية.

لذلك لم نكن نقر تسمية جبل عامل باسم (لبنان الجنوبي) أو (الجنوب) باعتباره جنوب لبنان، ونرى أن كلمة (الجنوب) تعني عندنا جنوب الجزيرة العربية أي اليمن.

وعندما توليت أمر محكمة النباطية كان لا بد لي من أن أرسل بين الوقت والآخر مذكرات إلى المدعي العام الذي كان لقبه (مدعي عام لبنان الجنوبي) أو إلى غيره من الدوائر التي كانت تحمل كلها صفة (لبنان الجنوبي) أو (الجنوب).

وكان مما لا يتفق مع مبادئي الوطنية أن أعترف باسم (لبنان الجنوبي) أو (الجنوب) إسماً لجبل عامل وأن أسجل هذا الاعتراف على أوراق رسمية موقعة مني.

ولم يطل أمر إيجاد الحل، فكانت رسائلي الموجهة إلى المدعي العام تصفه بهذه الصفة: (مدعي عام صيدا)، وكذلك الموجهة إلى غيره في الدوائر الرسمية.

ولم ينتبه أحد إلى ذلك وظل الأمر مستمراً حتى تركت محكمة النباطية.

ثم عدنا بعد ذلك نؤمن بلبنان العربي المنضم إلى الجامعة العربية، وإن ظللت حتى الساعة أرفض استبدال اسم (الجنوب) باسم (جبل عامل)، وقد عبَّرت عن هذا الرفض في كثير مما كتبته في الصحف، وليس لهذا الرفض علاقة بالكيان اللبناني، بل هو حرص مني على هذا الاسم التاريخي الذي عاش على الزمن منارة من منارات العلم والأدب، على أنه كان لي في هذا الموضوع مشكل آخر، فقد كنت أبعث بمقالات إلى مجلة «الرسالة» المصرية، ومن الطبيعي أن أوقع تلك المقالات مضيفاً إلى التوقيع اسم البلد الذي أقيم فيه وهو النباطية. وقد كان اسم النباطية وحدها لا يعني شيئاً لقراء «الرسالة» خارج لبنان، فلا بد في التعريف بها من ذكر اسم القطر الكائنة فيه، وقد كان محرماً عندي أن أذكر النباطية مضافة إلى لبنان، وفكرت طويلاً في هذا المشكل، وأذكر أن المقال الأول المعد لإرساله إلى مجلة «الرسالة» بقي مطوياً عندي أكثر من شهر لأجد الحل. وأخيراً جازفت بأن ذكرت النباطية مقرونة باسم (بلاد الشام). ولم ينتبه أحد من (الرسميين) لذلك لأن هؤلاء ليسوا من قرّاء مجلة «الرسالة».

من الأحكام

ومن طرائف الأحكام القضائية التي أصدرتها الحكم التالي:

وهذا نصه:

أساس ٢١٩

قرار ٢٣٤

المدعي الحق العام

المدعى عليه علي يوسف الحايك ـ عدشيت

باسم الشعب اللبناني

في المحاكمة العلنية تبين أن ما نسب إلى المدعى عليه علي يوسف الحايك من عدشيت هو أنه كان يحرث الأرض على رأس بقر وحمار، وأن في هذا عدم رفق بالحمار ينطبق على القرار ٣٠١٦.

وحيث إنه قبل أن تعلن العقوبة التي يستحقها المدعى عليه، علينا أن نرجع إلى النص القانوني الذي استند إليه الدرك في تجريمهم للمدعى عليه، فإن المادة الأولى من القرار ٣٠١٦ تصرح بأنه يعاقب من ثمانية إلى ستة أشهر، وبجزاء نقدي من ليرتين إلى خمس وعشرين ليرة، كل من يسيء معاملة حيوان بلا ضرورة، أو بإتيان عمل غير جائز للبلوغ إلى غاية مقبولة، سواء كان بضربه أو بتعذيبه وكل من يحمل حيواناً على القيام بعمل يفوق مقدرته أو يؤلمه إلى آخر ما جاء في المادة المذكورة.

فهل ينطبق هذا النص القانوني على عمل المدعى عليه؟

إن هذه المحكمة تجيب على هذا بكلمة «لا»، وهي مطمئنة إلى هذا الجواب. فالمادة القانونية تنص على أن يكون هناك إساءة للحيوان، وأن تكون هذه الإساءة بلا ضرورة، فهل في الحراثة على الحمار إساءة إليه؟

إذا كان المشترع يقصد الإساءة المعنوية، أو بعبارة أوضح الإهانة، فلا شك أنه ليس في الحراثة على الحمار

إهانة له، بل ربما كان فيها تكريم له، وذلك برفعه عن مستوى بني جنسه الحمير وقرنه إلى فصيلة أعلى هي البقر!

ومهما يكن من أمر، فمن ذا يستطيع أن يقول إن وضع النير على العنق هو أكثر إهانة من الركوب على الظهر؟ وإذا كان المشترع يقصد الإساءة المادية، فأغلب الظن أن لا فرق عند الحمار بين أن توقره بالأحمال الثقيلة، وبين أن تشد إليه المحراث. بل ربما كانت الثانية أقل مشقة وأخف كلفة. وعلى كل فمرجع ذلك إلى الحمار وحده وما دام الحمار عاجزاً عن إيضاح هذه النقطة فتظل موضع شك وفي حالة الشك لا بد من مراعاة جانب المدعى عليه.

وحيث إن الشرط الثاني الذي تشترطه المادة إلى جانب الإساءة، هو أن تكون الإساءة بلا ضرورة. ونحن نفهم من الضرورة أنها هي التي تلجىء الإنسان إلى الإقدام على ما أقدم عليه. فأية ضرورة ملجئة أكثر من ضرورة هذا الهرم، ذي الأطمار البالية والفقر المدقع، وأية ضرورة أعظم من ضرورة هذا الفلاح المتهدم الذي يعلن في المحكمة أنه فقد ثوره، فعجز عن شراء غيره؟

وحيث إنه بعد أن رأينا هذه الفقرة لا تنطبق على حال المدعى عليه، فهل تنطبق عليه الفقرات الأخرى؟ إن الفقرة الثانية تنص على أن يأتي الإنسان عملاً غير جائز لبلوغ غاية مقبولة.

وحيث إن القانون لم يحدد الجواز وعدم الجواز، ولم يوضح كيف يكون العمل جائزاً، فنحن لا نستطيع أن نقول إن عمل المدعى عليه غير جائز بل نرى فيه الجواز كل الجواز: فلاح فقير يموت ثوره، ولا يملك نقوداً، بل يملك حماراً، فينتدب حماره العتيد مكان ثوره الفقيد، إلى أن يفرجها الله عليه، فيفرجها هو على الحمار. فأي شيء في هذا غير جائز؟

وحيث إنه بقي علينا أن نرى الفقرة التي تقول: «كل من يحمل حيواناً على القيام بعمل يفوق مقدرته أو يؤلمه». ومن ذا الذي يستطيع أن يبين لنا ما إذا كانت الحراثة تفوق مقدرة الحمار أو تؤلمه أم لا؟ فالحمار الذي يحمل أثقل الأحمال وأضخم الرجال، لا يمكن أن تفوق الحراثة مقدرته. والحمار الذي لا تؤلمه الحبال المشدودة لا تؤلمه كذلك الخشبات الممدودة.

وحيث إن المحكمة فضلاً عما تقدم، ترى للقضية وجهاً آخر، فهي تتساءل: أيهما في نظر القانون أبعد عن الرفق، أهو أن تقذف بهذا العجوز إلى ظلمات السجن، أم أن يحرث هو على الحمار.

أما هذه المحكمة، فترى إنقاذ جسم هذا الشيخ الفقير من الحبس وجيبه من الجزاء، أقرب للرفق من إنقاذ الحمار من الحراثة، ما دام الحمار إذا لم يحرث، فسيحمل. وترى أن حبات من القمح يزرعها المدعى عليه على حماره، فتخرج سنابلها وتؤتي أكلها، فيكون فيها في هذه الأيام السود لقمة لجائع وبلغة لفقير، هي أجدى على القانون وعلى المجتمع من إلقائه في السجن وتغريمه بالجزاء وإراحة حماره!

لذلك، حكمت ببراءة المدعى عليه حكماً وجاهياً، قابلاً الاستئناف، وأعطي وأفهم علناً.

الحاكم: حسن الأمين

وكان المأخوذ به في المحاكم الحكم على من يحرث على الحمار.

في طريق الاستقالة

وفي خلال العمل في محكمة النباطية كان الصهاينة نشطين في عمليات تهريب اليهود إلى فلسطين، ذلك أن الإنكليز كانوا يسمحون للصهاينة بإدخال عدد محدود من اليهود يبلغ عشرات الألوف كل عام، وهذا ما كان يسمى يومذاك بالهجرة القانونية، ولكن الصهاينة كانوا يعملون على إدخال المهاجرين إلى فلسطين زيادة عن العدد المسموح به، وذلك بتهريبهم عبر الحدود البرية من لبنان، فتنبهت لذلك، ومع أن سلطتي في المنطقة هي سلطة قضائية بحتة، ولا سلطة إدارية لي لأتدخل في هذا الموضوع فقد صممت على أن أحارب هذا التهريب بكل وسيلة، وكانت السلطة الإدارية يومذاك تتمثل بضابط للدرك، ولم يكن هذا الضابط ممن يهتمون بهذه الأمور، ولكنني استطعت أن أحمله على التعاون معي في مقاومة تهريب اليهود، وطلبت إليه أن ينظم دورية ليلية تراقب مداخل النباطية، لأن الطريق الوحيد للمهربين هو طريق النباطية، ففعل الضابط ذلك. وفي أول ليلة تولت فيها الدورية عملها قبضت على قافلة من السيارات كانت منطلقة باليهود إلى الحدود الفلسطينية، وكان بينهم يهود من أوروبا ويهود من العراق ويهود من سوريا، نساءً ورجالاً وشباناً، فأوقف الدرك القافلة وساقوا الجميع إلى السجن بمن فيهم اللبنانيون سائقو السيارات التي كانت تقل اليهود.

وبكر الضابط إلى منزلي ليخبرني بما جرى وليقول لي إنه كان عند حسن ظني فنفذ جميع تعليماتي.

ومن العجيب أنه لم يكد الضابط يخرج حتى فوجئت وأنا على باب منزلي برجلين غريبين كانا على وشك الدخول عليَّ إلى المنزل، فتقدم أحدهما وعرّف بنفسه بأنه صاحب فندق شهير في بحمدون وقال إن رفيقه عراقي، فحسبت الرجل العراقي ممن سمع بي أيام إقامتي في العراق وأنه جاء يزورني، إذ كثيراً ما كنت أسعد بزيارة بعض العراقيين ممن عرفتهم في العراق وممن لم أعرفهم، فحسبت القادم واحداً منهم فهممت بالعودة إلى المنزل، ولكنني شعرت بأن صاحب الفندق ورفيقه مرتبكين جداً وأنهما يحاولان الكلام، ولا أدري كيف أحسست في الحال بأن الأمر يتعلق بالقافلة المقبوض عليها، فاستفسرتهما فاعترفا بذلك. ولوّح الفندقي بالمال فطردتهما طرداً قبيحاً.

والذي حيّرني هو أن القافلة قُبض عليها حول انتصاف الليل، فكيف بلغ الخبر لليهودي في الفندق وكيف استطاع هو والفندقي الحضور خلال هذه المدة القصيرة. فأدركت خطر الشبكة الصهيونية وامتداد جذورها وتنظيم أمورها التنظيم الرهيب.

ومضيت إلى المحكمة فوجدت أمامي ملف القضية وكان الضابط قد نظمه وتركه بتصرفي. ولم أكد أبدأ بقراءته حتى طُرق الباب ودخل عليَّ صديق حميم، فعجبت من دخوله، وكانت عادتي مع موظفي المحكمة أن لا يسمحوا بدخول أحد عليَّ صباحاً، أيّاً كان طالب الإذن بالدخول، وذلك أني علمت بأن بعض محترفي الوجاهة في القرى كانوا يوهمون المتداعين بأنهم يستطيعون التوسُّط لهم عندي في دعاواهم، فكانوا يغتنمون فرصة وجودي في الصباح قبل خروجي إلى كرسي الحكم فيدخلون عليَّ ولا يتكلمون بشيء سوى المجاملات والاستفسار عن الصحة والراحة وما أشبه ذلك، حتى إنهم لا يجلسون بل إن الواحد منهم يتكلم بمثل هذا الكلام ثم يمضي مسرعاً، فيقابل أحد المتداعين ويطمئنه بأنه توسّط

لديَّ في قضيته فإن جاء الحكم لصالحه أوهمه بأن ذلك كان نتيجة توسّطه، وإن لم يجيء لصالحه قال له بأن القضية صعبة جداً.

ولقد رابني دخول هؤلاء عليَّ في الصباح وبعد التحري علمت الحقيقة فمنعت أياً كان من الدخول عليَّ في الصباح، لذلك بدوت ممتعضاً من دخول هذا الصديق، فقال إنه وجد صعوبة في الدخول عليَّ وإن الموظفين لم يسمحوا له بالدخول إلاّ بعد أن أقنعهم بأنه ذاهب إلى دمشق وأني ربما رغبت بأن أوصيه بشيء لوالدي. ثم دخل في الموضوع بدون مقدمات وقال بأنه مفوض بأن يدفع لي مبلغاً ضخماً حدّده، وأن هذا المبلغ قابل للزيادة فيما إذا تساهلت في قضية اليهود، فطردته شر الطرد.

وقبل الإفاضة في الحديث عما جرى، لا بد لي من أن أوضح للقارىء أن أي تساهل في شأنهم لا يخشى معه من أية مسؤولية.

وأني لو أطلقتهم في الحال وحدّدت يوماً يحضرون فيه جلسة محاكمتهم، لما كان في ذلك أي مؤاخذة، وإن أردت أن أتشدد قليلاً فأطلقهم بكفالة كان ذلك صحيحاً أيضاً.

ومع رغبتي في التشديد عليهم كنت أعلم أن إمكانية هذه الرغبة محدودة جداً، وأني لو حكمتهم بأقصى العقوبة وهو ثلاثة أشهر ومائة وخمسين ليرة لبنانية على كل واحد منهم لأمكنهم استئناف الحكم، وبذلك يخرجون عن يدي، وكنت واثقاً أن محكمة الاستئناف ستطلقهم بمجرد وصولهم إليها. لذلك أردت أن أستعمل أقصى ما يسمح به لي القانون من التشديد عليهم قبل أن يطلق غيري سراحهم، وكانت وسيلتي الوحيدة لذلك هي أن أقرر محاكمتهم موقوفين، فيبقون في السجن حتى يوم محاكمتهم والحكم عليهم، وبعد ذلك فليفعل بهم غيري ما يشاء.

وكما دهشت لسرعة وصول الخبر إلى ذويهم في بحمدون، دهشت لسرعة اهتدائهم إلى اسم صديقي النباطي واختياره هو بالذات للتوسط لديَّ. وأدركت أن الشبكة الصهيونية ستتسع وتمتد ولن تتركني هادئاً لحظة واحدة، لذلك أسرعت في الحال إلى الاتصال هاتفياً بالمدعي العام في صيدا فيكتور عيسى ولم يكن مع الأسف ممن يثيرهم ذكر اليهود والصهيونية، لذلك لم آت على ذكر هذا الاسم، بل أثرت في نفسه المنطق القانوني فقط فقلت له إننا في منطقة الحدود التي يكثر فيها تهريب الناس إلى الخارج، وإن تحت يدي الآن قافلة كانت تحاول اجتياز الحدود تهريباً وإني رأيت أن أتشدد مع أفرادها فقررت محاكمتهم ومحاكمة أدلاّئهم وسائقي السيارات موقوفين فهل أنت موافق على ذلك؟ فقال: نعم ما تصنع وضروري أن تتشدد في الموضوع.

سألته هذا السؤال وسمعت منه هذا الجواب وأنا أعلم علم اليقين بأنه بعد أيام سيكون في طليعة من يطالبني بالتساهل معهم!

ولم يمضِ يومان على توقيفهم حتى انهالت عليَّ التدخلات من كل جانب وجاءتني الوساطات والبطاقات والرسائل من بيروت ممن لم يكن يخطر ببالي أن يتوسطوا في مثل هذه الأمور، بل في غيرها من الأمور، واشتد الضغط من كل ناحية.

وكنت في كل يوم أزداد علماً بمدى امتداد الأخطبوط الصهيوني ومدى إحكام أمره في كل ناحية.

وفي اليوم الخامس من توقيفهم صحّ ما توقعته فاتصل بي مدعي عام صيدا هاتفياً وكلمني بشيء من الخجل طالباً إليَّ التساهل وإطلاق سبيل الموقوفين بكفالة!

فأجبته بكل هدوء بأني لا أرى ذلك وسأحاكمهم موقوفين... ومضى يومان آخران كان الضغط فيهما لم ينقطع، وإذا بالمدعي العام يعاود الاتصال بي مصرّاً على التساهل، وهنا تركت هدوئي وتكلمت بكثير من الصخب وقلت له: ليس معنى اتصالي بك من قبل أني مقيد برأيك، وقد أبديت رأيك أولاً ثم بدّلته ثانياً، وأنا لست ملزماً بالعمل بالرأي الثاني.

فأجابني بكل صراحة: إن بيروت تضغط عليَّ لأكلمك وأنا أفعل بناء على ضغطها، ولم أسأله عمن يعني ببيروت، بل قلت له: إنني غير مستعد للإصغاء لهذا الضغط، وأقفلت سماعة الهاتف.

وبعد يومين كانت بيروت نفسها تتنازل فتكلمني: فلما نوديت إلى الهاتف حدست بأن الطالب هو بيروت، وإذا بالمتكلم مدعي عام الاستئناف، وقال بأنه يكلمني بلسان الرئيس الأول ألفرد ثابت.

واصطلاح الرئيس الأول كان يطلق على رئيس محكمة التمييز، ولم يكن يومئذٍ ما اصطلح على تسميته بعد ذلك (مجلس القضاء الأعلى) بل كان مكانه من يسمى (الرئيس الأول) لذلك كان ذكر اسمه مخيفاً، لقوة سلطته واتّساع صلاحياته، وكان اسمه أوقع في نفوس القضاة من اسم وزير العدلية، لأن وزير العدلية ليس بدائم في وزارته فهو يتبدل بتبدل الوزارات وما كان أكثر تبدلها في لبنان. أما الرئيس الأول فهو القابع الدائم فوق كرسيه.

وطال النقاش بيني وبين مدعي عام الاستئناف، ولم أتزحزح عن موقفي، ثم قال: إن الرئيس يريد أن يكلمك بنفسه، وبدا صوته أول الأمر هادئاً حيياً، ولما لم ألن عاد مرتفعاً على شيء من الوقاحة، فارتفع صوتي على صوته ولكن على شيء من التهذيب. ثم أقفل السماعة.

وكنت قد حدست بما سيجري فدعوت ضابط الدرك ليكون الشاهد على المحادثة، وذلك أنه كان للهاتف اليدوي يومذاك سماعتان يتكلم المتكلم من إحداهما ويسمع في وقت واحد، ويضع الثانية على أذنه الأخرى ليكون الصوت أكثر وضوحاً، فأعطيت السماعة الأخرى إلى الضابط فكان يسمع كل ما يقال، ولما ارتفع صوتي على صوت الرئيس الأول هال الضابط هذا الارتفاع ـ وهو الموظف المتدرج في وظيفته من رتبة إلى رتبة، والمعتاد على الانصياع لرؤسائه ـ هاله أن يرتفع صوتي على صوت الرئيس فأخذ يشدّني من سترتي ويقول لي راجياً: طوّل بالك... طوّل بالك.

ومنذ ذلك اليوم توقف سيل الضغوط، ولم أعين جلسة للمحاكمة إلاّ بعد ورود السجلات العدلية التي كان علينا طلبها من بيروت، فلما وصلت حددت موعد الجلسة، وجاء يوم المحاكمة فكان يوماً مشهوداً في النباطية احتشد فيه الناس ليروا النتيجة بعد أن شاع أمر الضغوط، كما حضر عدد من محامي بيروت وصيدا للدفاع، ومما أسفت له حضور من كنت أعتقد أنهم لا يمكن أن يكونوا مدافعين عن الصهاينة. وكان قد مضى على توقيف المدعى عليهم أكثر من شهر، وكان هذا أكثر ما أستطيع فعله، ثم أصدرت الحكم على كل واحد من الجميع بأقصى العقوبة وهو ثلاثة أشهر ومائة وخمسين ليرة لبنانية. وكان بين الموقوفين فتى عراقي من آل شماش وهي أسرة من أغنى أغنياء اليهود فلما سمع الحكم أخذ يبكي، والله

وحده يعلم كم تفعل الدموع في نفسي، وكيف أضعف أمامها وأحنو على أصحابها مواسياً مشاركاً، والله وحده يعلم أي قلب بين جنبي، قلب ينفعل للمهمومين وينفطر للموجعين.

ولكن الدموع المترقرقة هذه المرة من العيون الصهيونية كان لها في نفسي أثر غير الأثر الذي عرفته من قبل، ولأول مرة في حياتي أجد للدمع مثل هذا الشعور اللطيف! ماذا؟! أتبدلت إنسانيتي؟! أتحجرت عاطفتي؟! أعدت رجلاً غير الرجل الأول الحسّاس المرهف الحسّ؟!

أبعد أن كنت أبكي للدموع، عدت أنا نفسي أثير الدموع!

وتطلعت في حناياي، وجلت في أعماقي، وتلفتّ في خاطري، وحدقت في وجداني، فرأيت أني لا أزال ذاك الرجل العريق في إنسانيته، الرجل الذي يبكي للباكين!

الرجل الذي لا يطيق احتمال الدمع في عيني إنسان، بل يحس وكأنه شهب من نار تنصب على جوانحه!

وأدركت للتو أن إنسانيتي وحدها هي التي جعلتني أستطيب الدمع هذا النهار! وأنني وأنا أفجر الدموع في هذه العيون الصهيونية إنما أحاول أن أحبسها في عيون الألوف من العرب الذي سيبكيهم هؤلاء الأوغاد على أرضهم وأهلهم.

وبمجرد صدور الحكم استأنفه المحامون، فكان علينا أن نرسل المحكومين موقوفين إلى صيدا، وشاقني أن أتتبع أمرهم. وكان الفصل صيفاً، ورئيس محكمة صيدا وأعضاؤها متفرقون في مصايفهم بسبب العطلة القضائية، فواحد في بلدة سير الضنيّة في الشمال وواحد في بلدة روم في الجنوب، وآخر في البترون، وبسحر ساحر جمعوهم في نفس اليوم من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، فلما اجتمعوا نظروا في طلب إخلاء السبيل المقدم إليهم من المحكومين الموقوفين فقرروا بالإجماع إخلاء سبيلهم فانطلقوا أحراراً يعاودون محاولة الوصول إلى فلسطين، وقد وصلوا إليها ـ ولا شك ـ مع من وصلها.

وهنا قررت أن أستقيل من القضاء.

وبينا أنا أتهيأ لتقديم الاستقالة وألملم أوراقي وأستجمع أموري صدر قرار بنقلي إلى محكمة زحلة فانتدبني رئيسها لإشغال محكمة راشيا، ثم أرسلت استقالتي ولم أنتظر قبولها، بل تركت العمل بمجرد إرسال الاستقالة.

وفي خلال ترددي على راشيا نظمت القصيدة التالية:

على القنن الشماء في الثلج نازح ... تغاديه أبكار الأسى وتراوح
وفي التيم من عليا البقاع متيم ... رمته براشيا الخطوب الفوادح
وحط به في لجة البعد والنوى ... زمان كما يهوى اللئام منافح
على التيم تضويني الهموم فأغتدي ... وفي الصدر من جمر الصبابة لافح
وأنظر حولي لا حبيب أبثه ... هواي ولا خل بهمّي أصارح
لك الله يا قلبي أمضتك صابراً ... سوانح هم في النوى وبوارح

غـرام وشـوق واضـطـهـاد وغـربـة أصـخـر أصـم هـذه أم جـوانـح

* * *

تـطـلـعـت أبـغـي مـن أحـبـاي نـظـرة فـحـالـت جـبـال دونـهـا وأبـاطـح
وأشـرفـت مـن شـم الـرعـان فـهـزنـي لـعـيـنـيـك شـوق يـا (هـنـيـدة) فـاضـح
وأطـلـلـت فـي الـتـيـم الـبـعـيـد فـراعـنـي عـلـى الـتـيـم أنـي عـن ديـارك نـازح
متى تـسـنـح الـغـيـد الحسان استفزني إلـيـك مـن الـغـيـد الحـسـان سـوانـح
وإن هـبـت الأنـسـام صـبـحـاً أثـارنـي إلـيـك مـن الأنـسـام فـي الـصـبـح نـافـح
وإن لاح بـدر الـتـم أهـفـو لأنـه بـحـسـنـك بـدر الـتـم فـي الـلـيـل لائـح
وأسـتـاف أعـراف الخزامـى لأنـهـا بـطـيـبـك أعـراف الخزامـى فـوائـح
وأعـشـق فـي الـدوح الـطـيـور لأنـهـا بـصـوتـك فـي الـدوح الـطـيـور صـوادح
عـلـى كـل روض مـن صـبـاك مـشـابـه وفـي كـل حـسـن مـن سـنـاك مـلامـح
أبـثـك فـي الـتـيـم الـبـعـيـد خـواطـري وأشـكـو تـبـاريـح الـهـوى وأطـارح
وأهـوى عـلـى الـتـيـم الـبـعـيـد لـو آنـنـي إلـيـك مـع الـركـب المغـذيـن رائـح
تـكـاد بـوادي الـتـيـم مـن لـوعـة الأسـى تـغـالـب عـيـنـي الـدمـوع الـسـوافـح
تـطـول لـيـالـيـنـا عـلـى الـتـيـم إنـهـا لـيـال بـأوقـار الـهـمـوم روازح
ومـا كـان وادي الـتـيـم فـي الـنـفـس زاهـراً ولـكـنـه فـي الـنـفـس أسـود كـالـح
شـعـاب حـبـاهـا الـلـه خـيـر مـحـاسـن ولـكـنـهـا عـنـد المشـوق مـقـابـح
تـطـل عـلـى الـوادي الـثـلـوج نـواصـعـاً فـتـشـرق فـي الـوادي الـذرى والـبـطـائـح
وتـلـمـع فـي الـسـفـح الـصـخـور كـأنـهـا دراري فـي سـود الـربـى ومـصـابـح
وتمـرع بـالـزرع الـسـهـول نـضـيـرة وتـعـبـق بـالأطـيـاب فـيـهـا الـروائـح
لـقـد كـنـت قـبـل الـيـوم بـالحـسـن شـاديـاً ولـكـنـنـي فـي الـتـيـم بـالحـسـن نـائـح
فـهـيـهـات أن تحـلـو لـعـيـنـي سـاعـة مـطـالـع حـسـن فـي الـقـرى ومـسـارح
سـتـخـمـد فـي الـتـيـم الجـمـيـل نـفـوسـنـا وتجـمـد عـن وصـف الجـمـال الـقـرائـح

الهوامش:

(١) في الجنرال عاملان هذا يقول أحد الشعراء الثوار خلال الثورة السورية:

ألا لـيـت شـعـري هـل أبـيـتن لـيـلـة ولـيـس بـسـوريـا مـقـر لـغـمـلان

الفصل السابع

إلى مصر

وكانت استقالتي في أواخر شهر شباط/فبراير سنة ١٩٤٥ وكانت قد بلغت أخباري أصدقاء لي في العراق فدعوني إلى الحضور إلى بغداد، فأجبتهم، ولكنني فضلت أن يكون ذلك في مفتتح السنة الدراسية. وكنت لم أزر مصر بعد، فرأيت أن أقضي ما تبقى من شهور السنة حتى أوائل الصيف في مصر.

فسافرت من دمشق في القطار إلى حيفا، ومنها انتقلت إلى القدس، فيافا، ثم إياباً إلى حيفا.

وفي تلك الرحلة أدركت حقيقة التغلغل الصهيوني في فلسطين ومقدار ما أعده اليهود من وسائل للإستيلاء عليها. كما أدركت الفوضى العربية في مقاومتهم، والتنظيم في جهودهم وحياتهم، فكان حزني عظيماً على قطعة من وطني استحكم فيها هؤلاء الغرباء الذين ينذر وجودهم بشرّ مستطير...

واستأنفت السفر بالقطار من حيفا إلى القاهرة فعبر بنا صحراء سيناء حتى انتهينا إلى قاهرة المعز الباذخة.

وفي القاهرة آثرت العزلة والاستمتاع بمعالم المدينة، والتغلغل في الأوساط الشعبية المصرية وما فيها من ظرف وطرافة.

وكان أول الظرفاء صاحب الفندق الذي آواني لليلة واحدة، وذلك أنني سألت قبل سفري صديقاً دمشقياً أقام فترة في مصر عن فندق أنزل به فأعطاني اسم (فندق ريش).

فلما وصلته كان مظهره الخارجي لا بأس به، ولكنني لما دخلته تبين لي عدم صلاحه، ولما كنت متعباً بعد ليلة في القطار، رأيت قضاء ليلة فيه على أن أغادره في الصباح.

فطلبت من صاحبه إعطائي غرفة بسرير واحد، فأجاب بأن لا غرفة عنده بسرير واحد. فقلت إني أستأجر السريرين معاً، فأبى ذلك متعللاً بأنه إذا رفض قبول أحد زبائنه فسيذهب إلى فندق آخر يعتاد بعد ذلك عليه فيفقد هو أحد زبائنه الدائمين. فاستسلمت للأمر الواقع على أمل أن لا يأتي أحد. ولكن لم أكد أستلقي على الفراش حتى فوجئت بقادم لم يكد يغمض عينيه حتى اندفع بشخير رهيب فلم أنم طول الليل.

وفي الصباح عنفت صاحب الفندق على ذلك وذهبت فحجزت غرفة في فندق الكونتيننتال وعدت إلى فندق ريش لأخذ متاعي.

فسألني صاحب الفندق عن الفندق الذي سأنتقل إليه فأخبرته بأنه فندق الكونتيننتال، وسألته أليس هو أحسن من فندقك؟

وهنا بدت النكتة المصرية، فأجاب: الكنيف هناك أحسن من هنا. ثم قلت له: ثم لا يوجد هناك من يشخِّر.

فقال: حتى لو كان يشخِّر، دا شخيره يبقى مزيكة.

وفي فندق الكونتيننتال لاحظت أن أحد المولجين بالمصعد يبدو على عكس زملائه عابساً صامتاً لا يجامل الزبائن لا بإشارة ولا بكلمة.

فاستغربت أمره وخطر لي أن أستطلع أحواله، فسألته يوماً: أنت اسمك إيه؟ فبدا الغضب على وجهه لهذا الفضول، ولكنه لم يستطع إلاّ الإجابة، فقال بنفور: محمد.

وفي صباح اليوم الثاني فاجأته قائلاً بكل رقة: صباح الخير يا محمد. فلان قليلاً، وأجاب: صباح الخير. ولكن الغضب والنفور لم يفارقاه لحسبانه ذلك فضولاً مغيظاً.

ولاحظت أنه يحمل دائماً في يده جريدة أو مجلة. وكانت جرائد الصباح تصلني دائماً إلى الغرفة فحملتها معي وفاجأته كما بالأمس قائلاً: صباح الخير يا محمد، خذ هذه الجرائد واقرأها.

فلان كل اللين، وأجاب: صباح الخير. شكراً. وشعرت أن هذا الكلام صادر من أعماق قلبه.

وفي الغد سبقني هو بقول: صباح الخير، وأخذ الجرائد شاكراً.

ثم صرنا صديقين حميمين وتبين لي أنه على جانب كبير من الذكاء وخفة الروح والاطلاع.

وكانت نقمته وعبوسه بسبب ما يراه في الفندق الكبير من بطر وكبرياء واستعلاء وتأمّر، في حين أن نصيبه من الفندق خدمة البطرين المتكبرين المستعلين المتأمرين.

وكانت الحرب العالمية الثانية في أيامها الأخيرة، وكان رئيس الوزارة المصري في ذلك الوقت أحمد ماهر. وكان محمد هذا يكرهه كرهاً شديداً. وفي يوم من الأيام أعلنت مصر الحرب على ألمانيا أسوة بغيرها من الدول التي أخذت تتسابق لإعلان الحرب لكي يكون لها مكان في مؤتمر السلم القادم.

فاغتاظ محمد غيظاً شديداً من إعلان الحرب على ألمانيا، فسألته: ولماذا هذا الغيظ؟

فأجابني بهذا الجواب الحكيم الرائع:

ده لا حرب دين ولا حرب وطن، اللي يموت فيها يموت فطيس.

وفي المساء اغتيل أحمد ماهر، فسألت محمداً عن الأخبار فاختصر الموقف بهاتين الكلمتين: اتلخبطت خالص.

وقد كانت له تعليقات على نزلاء الفندق وتحركاتهم هي غاية في الطرافة والحكمة والسخرية.

فمن ذلك أني كنت أجلس غير بعيد عن المصعد، فخرجت من المصعد الهابط ثلاث سيدات تجر كل منهن وراءها كلباً بمقود، فأيقنت أنه لا بد لمحمد من تعليق على هذا المشهد. فسألته: إزّاي الحال يا محمد؟

فقال:

ولا مؤاخدة من سيادتك، زيّ ما أنت شايف، نطلّع كلاب وننزّل كلاب (بتشديد اللام في نطلّع، والزاء في ننزّل).

وفي القاهرة نظمت القصيدة التالية:

صُورتُها

أصورتها أين الحبيبة والهوى … وأين ليالي الدل والبسمات
أصورتها أين العشايا زواهراً … وأين تلاقينا على الشرفات
وأين على الشبّاك مجلى جمالها … ومشرقها الوضاء في الغرفات
غداة تثنّى في الرحاب طروبة … وتختال في أترابها الخفرات
وترنو بعينيها إليَّ صبابة … فتكسر من لحظي ومن نظراتي
أصورتها أين الخمائل غضة … وأين سنا الأحباب في الربوات
وأين على الروضات مطلع سربهم … ومسراهم الزاهي إلى الحرجات
أصورتها لم يبق غير تصوّر … لفتنة عينيها وللوجنات
لقد أطبق الهم المبرّح وانطوى … فؤادي على الأشجان والحسرات
أراك فتهتاجين كامن لوعتي … وتذكين من وجدي ومن لهفاتي
وأنظر عينيها عليك هوامداً … وعهدي بها بالحب مؤتلقات
أصورتها ما كنت ناقعة الحشا … إذا ثارت الأشواق مضطرمات
فأين كلألاء الصباح جبينها … وأين شذا أعرافها العطرات
وأين من النائي البعيد خدودها … وأين الثنايا الغرّ مبتسمات
وأين كمخضلّ الورود شفاهها … تروي غليل القلب بالقبلات
لقد كنت أشكو الوجد وهي قريبة … فكيف أداوي الوجد في غرباتي
وكانت على قرب المزار مروعة … فكيف وقد صرنا معاً لشتات
هنيدة! أن تأسي عليَّ فإنني … فقدت بأدواء الزمان أساتي
وأن تحملي همّ الفراق فإنها … تقضى على الهم الطويل حياتي
يراوغني الدهر اللئيم لعلها … تلين، ولكن لن تلين قناتي
عدمنا على الدهر الكرام فما به … سوى معشر غلف القلوب جفاة
يوارون بالترحيب كامن غدرهم … ويخفون لؤم النفس بالبسمات

تضيع لديهم كل نفس عزيزة ... ويشقى بهم في الناس خير أباة

* * *

تلفتّ استجلي جمال أحبتي ... على البعد فارتدّت أسى لفتاتي
وددت لو ان الصبح يحمل عرفهم ... إليّ مع الأوراح والنسمات
وإني على الوادي أطالع حسنهم ... وألحهم في السفح والذروات
ذكرتك في (النيل) البعيد فلم يطب ... على (النيل) ليلي ساهراً وغداتي
وشارفت أزهار الربى فتجهّمت ... بعيني أزهار الربى النضرات
وطالعت في السهل النخيل فما حلا ... لبعدك عني منظر النخلات
لأنت على الصبح الجميل جماله ... وأنت سنا الآصال والغدوات
إذا الفتيات الهيف رنّحها الهوى ... لويت عناني عن هوى الفتيات
فهل كنت بعدي بالغدير ملمة ... وهل جزت بالوادي وبالشجرات
وهل نعمت منك الرياض بنظرة ... وطالعتها بالبشر والبسمات

القاهرة آذار/مارس ١٩٤٥

الفصل الثامن

إلى العراق مرة ثانية

وقبيل ابتداء السنة الدراسية سافرت إلى بغداد.

كانت أسر عراقية محافظة تتجنب إرسال بناتها إلى التعليم العالي المختلط، فتقرر إنشاء فرع لهذا التعليم يقتصر القبول فيه على الطالبات فقط، وأطلق عليه اسم «معهد الملكة عالية» واختُرت لأكون أستاذاً في هذا الفرع، فكان عهدي الثاني في العراق.

من ذكريات معهد الملكة عالية

من ذكريات معهد الملكة عالية المظاهرة التي قام بها طالباته عندما بدت بوادر تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ وشاركهن فيها طالبات الثانوية القريبة من المعهد. فقد تجمع الطالبات في باحة المعهد وعزمن على القيام بالمظاهرة وأصررن على أن أكون معهن، ولخشيتي أن يندس في المظاهرة بعض المندسّين فيفسدون غايتها لم أجب طلب الطالبات، ولكنهن أصررن على أن أكون معهن كل الأصرار وكانت حماستهن فوق أن تقاوم، فقلت لهن سأسير معكن، ولكني في هذه الحال سأكون المسؤول عن كل ما يجري في المظاهرة، ولا أحسب أن فيكن من ترضى بالإساءة إليّ، لذلك سنحدد الشعارات فلا تتعدى فلسطين وقضيتها، ونحدد طرق السير فلا تتعدى شارع الرشيد وما إليه ثم الوصول إلى دور السفارات التي أيدت العرب في هيئة الأمم المتحدة ورفضت التقسيم. فكان صوتهن واحداً بالموافقة، وقلت سأسير أنا في أول المظاهرة فحيث اتجهت تتجه المظاهرة، على أن يكون السير في صفوف منظّمة. وهكذا كان.

وكنت بين الحين والآخر أترك المقدمة وأرجع إلى الوراء لملاحظة الهتافات، فإذا ما توجست منه قد وقع، إذ سمعت صوتاً يصرخ: ماذا تريدون؟ فتجيبه بضعة أصوات: الحرية والخبز.

فأسرعت نحو صاحبة الصوت وبمجرد وصولي إليها كان صوتها قد انطلق: ماذا تريدون؟ وكنت قد صرت وراءها تماماً، فأهويت بكفي على رقبتها صائحاً: نريد أن تخرسي.

وإذا بها تراني فخجلت وانطوت على نفسها.

وكان من السفارات التي وصلنا إليها: السفارة التركية، لأن تركيا يومذاك أيدت العرب في رفض

التقسيم، ولن أنسى حماسة الطالبات التركيات المنتميات إلى محافظة كركوك أمام السفارة التركية عندما وقعت عيونهن عليها، وهتافاتهن العالية باللغة التركية بمجرد أن رأين العلم التركي يرفرف فوقها.

وطلبت إلى إحداهن أن تخطب باللغة التركية باسمنا، شاكرة تركيا وأن تطلب إلى السفير رفع هذا الشكر إلى حكومته، ففعلت.

ومن وحي تلك المظاهرة وشدة تأثري بها كانت القصيدة التالية:

ردد علـيَّ حديثهنه … وأعد لسمعي ذكرهنه
يا من يسائل كيف هنه … أوما رأيت جموعهنه
لما مشين غواضباً … يذكي العزائم مشيهنه
متوثبات لا تلين … على الخطوب قناتهنه
أكرم بهنّ وقد نفر … ن ثوائراً أكرم بهنه
هجن الحماسة فالتظت … منا النفوس المستكنه
ومشت رجال للنزال … يثيرها إنشادهنه
إيه فلسطين الشهيدة … لو سمعت هتافهنه
وشهدت في سوح الكرامة … والإباء نداءهنه
يدعون للحرب العوان … وللفتوح رجالهنه
ويثرن بأس الثائرين … إلى النضال ببأسهنه
إيه فلسطين الشهيدة … لو شهدت دموعهنه
يبكين لا جزعاً ولكن … الأسى يهتاجهنه
فيلذن بالدمع الغزير … يرد غرب همومهنه
قرّي عيوناً إنهنّ … بنات يعرب إنهنه
الواثبات إلى الظبى … الثائرات إلى الأعنه
هنّ الحمائم يبعث الشجـ … ـو الكمين هديلهنه
فإذا غضبن فهنّ لبـ … ـوات يصنّ عرينهنه
هنّ الحرائر مثل ما … ء المزن طهراً خلقهنه
وكما يضوع المسك طيباً … في المحامل ذكرهنه
هنّ الكرائم حيّ في … يوم الفخار كرامهنه
قد أنجبوهم للعلى … فازدانت العليا بهنه
إني سأذكر ما حييت … على الزمان جهادهنه
ومعاهداً قد زانها … آدابهنّ وعلمهنه
هيهات تنسيني الليالي … المنسيات دروسهنه

نازك الملائكة وبدر السياب

تلك الفترة كانت فترة انطلاقة ما سمي بالشعر الحديث، وبدء ظهور شعرائه، نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي ولميعة عباس عمارة وبلند الحيدري.

كانت نازك الملائكة قد تخرجت حديثاً من دار المعلمين العالية (كلية التربية) وبدأت التدريس الثانوي، وكان بدر شاكر السياب طالباً في الدار نفسها وكانت في بغداد مجلة أسبوعية بإشراف فريق من خريجي الجامعات الأميركية سدت فراغاً كبيراً في الثقافة العراقية ولكن لم يكن للمشرفين عليها صلة بالشعر أو تفهم له، وكنت بين الحين والحين أزورهم في مكتب المجلة، وفي يوم من الأيام جاءهم البريد، وكان من بين ما فيه رسالة فضها المسؤول عن إدارة تحرير المجلة، ولما رأى ما فيها، قال: ما زالت هذه (البنت) تشغلنا برسائلها وما تقول إنه شعر، ثم نحى الرسالة مع ما لا ينشر وألقى بها مع غيرها من المهملات في (دُرج) من أدراج مكتبه.

فلما سمعت منه كلمة (شعر) طلبت منه إعطائي الرسالة لعلمي بانعدام خبرته بالشعر، ولما أخرجت الرسالة من ظرفها وبدأت أقرأ ما فيها إذا بي أمام شعر من أعذب الشعر وأرقاه، منطلق بأسلوب جديد رائع.

فقلت له: أعطني ما عندك من أمثال هذه الرسالة، فأخرج رسالتين، كانتا تحتويان على مثل ما احتوت عليه الرسالة التي بيدي من الشعر العذب الرقيق الجديد الأسلوب.

فصممت على نشر هذه القصائد، ولما لم يكن في بغداد يومذاك من الصحف إلاّ الجرائد اليومية رأيت أن لا أدفع هذه القصائد الثلاث، قصيدة بعد قصيدة، إلى جريدة من تلك الجرائد ليقيني بعدم اهتمامها بمثل هذا الأمر وعزمت على إرسالها إلى المجلة التي انطلق منها أول ما انطلق كبار شعراء العراق: الشبيبي والشرقي والجواهري، لتنطلق منها أول ما تنطلق هذه الشاعرة العراقية الجديدة المبدعة.

أما المجلة فهي مجلة «العرفان» التي كان يصدرها في صيدا الشيخ عارف الزين، وهو من أصحاب الذوق السليم في فهم الشعر وتقديره، فأرسلت له أولى القصائد، فلم تلبث مجلة «العرفان» أن وصلت إلى بغداد ـ ولها فيها قراء كثيرون ـ ففوجيء الناس بهذا الشعر الجديد وبصاحبته الشاعرة المجيدة.

وفوجئت الشاعرة نفسها بنشر قصيدتها في مجلة لم ترسلها إليها. ثم تابعت إرسال القصائد الثلاث فنشرت كلها، وكان ذلك أول شعر ينشر لنازك الملائكة.

ولما رأت نازك شعرها منشوراً في «العرفان» دون أن تعلم كيف وصل هذا الشعر إليها، أخذت هي نفسها ترسل قصائدها إلى «العرفان»، فكان ذلك مفتاح شهرة نازك. ومعظم ما نشر في أول ديوان شعري ينشر لنازك، بل يمكن القول إن كل ما نشر فيه، كان مما نشرته مجلة «العرفان».

أما السياب فقد كان طالباً في دار المعلمين العالية، وكنت أدرّس فيها، ولكن في غير الفرع الذي يدرُس فيه هو، فعلمت أن في الدار طالباً شاعراً، ثم علمت أن ديواناً صغيراً صدر له باسم «أزهار ذابلة»،

واطلعت على هذا الديوان، فإذا بي أمام شاعر ينبيء ديوانه هذا بأنه سيكون من فحول الشعراء المجددين فكتبت، تعريفاً به وبديوانه، مقالاً في جريدة «الأخبار» اليومية، كان أول ما يكتب عن السيّاب.

وكانت شهرة السيّاب في ذلك الوقت لا تتعدى بعض رفاقه الطلاب، فلفت المقال الأنظار إليه وأخذ يتألق يوماً بعد يوم حتى وصل إلى ما وصل إليه.

وإنني حفظاً لتلك الذكريات الشعرية أنشر المقال كما هو فيما يلي:

ديوان «أزهار ذابلة»!

«ديوان شعر ملؤه غزل» هذا أول شطر يستقبلك وأنت تفتح الصفحة الأولى من ديوان الشاعر الملهم بدر السيّاب الذي شاء أن يسميه «أزهار ذابلة» فتقرأ أول ما تقرأ هذا المطلع الجميل فتتساءل في نفسك أكان هذا تعريفاً بالديوان ومقدمة له؟!

أجل ديوان شعر ملؤه الغزل ولكن أي غزل، أذاك الغزل التقليدي الفارغ الذي لا يزال يطغى حتى اليوم على قرائح الكثيرين من شعرائنا؟ أم ذلك الغزل الداعر الذي يباهي به بعض نظّامينا، أم ذاك الغزل الباهت الذي يحاول أن يصور فيفشل في التصوير؟

ديوان شعر ملؤه غزل! غزل مبدع خالق لا يحاول أن يجري على سنن غيره ولا أن يحتطب من ها هنا وها هناك بل يغرس البذرة بيده ثم يتعهدها بعد نبتة غضة وزهرة خضلة ثم ينشرها للناس عبيراً فواحاً، ويعرضها جمالاً جذاباً يغريك بالاستزادة من التطلع والتأمل.

غزل حي مشبوب يتحدث إليك حديث الروح للروح لا حديث الجسد الجسد، حديث العاطفة للعاطفة لا حديث المادة المادة، يحدثك عن القلب والضمير لا عن اليد واللسان، عن اللواعج والهواجس لا عن النزوات والعربدات.

غزل وهّاج تشيع الظلال والألوان في كل مشهد من مشاهده وصورة من صوره، ألوان وظلال انتزعها من احمرار الوردة واسمرار الشفة وابيضاض الجبين، ووضح الفم وتألق القمر وتأجج العاطفة!

كم كان موفّقاً باختيار هذه القصيدة قصيدة أولى للديوان، هذه القصيدة التي تعطي الفكرة الصحيحة عن (السياب) لمن لا يعرف السياب وشعر السياب وقد كان من المصادفات الطريفة أنها كانت القصيدة الأولى التي أقرأها له قبل أن يطبع ديوانه، وقبل أن يصل إلي شيء من شعره وقبل أن أعرفه، فعرفتني به معرفة ما أنكرتها بعد أن قرأت ديوانه وعرفته من قريب، وهذه القصيدة وحدها ديوان شعر يفيض بالأحاسيس والصور والعواطف، فكم هو عذب رقيق، وكم هو واقعي صادق حين يصف العذارى وهن يقرأن ديوانه متسائلات عمن يهوى: «كل تقول من التي يهوى» ثم حين يقول:

ولــربـمــا قــرأتـــه فـــاتـــنـــتـــي فـمـضـت تـقـول: مـن الـتـي يـهـوى؟

تقرأ العذارى اللائي استعرن ديوانه منه متنقلاً بينهم، تقرأ ديوانه تلك العذارى فتسائل كل منهن نفسها عن تلك التي استحقت من الشاعر هذه العاطفة، ثم يرتفع التهامس من النفوس إلى مجالسهن فيتساءلن بينهن عنها، وتقرأه فاتنته فتتساءل أيضاً من التي يهوى؟

أحسب أن في قوله: «كل تقول من التي يهوى» صورة زاخرة بشتى الفكر والأخيلة، صورة تتمثل فيها الحرقة والأمل المكبوت، والغضب العاصف، والتأنيب المر، فالتي توقن أنها ليست المعنية بالشعر ولكنها تجهل الحقيقة تقول من التي يهوى؟ والتي تأمل أن تكون المعنية تقول من التي يهوى؟! كل واحدة تقول وهي تقرأ الديوان من التي يهوى؟ وفي قول كل واحدة منهن تتمثل نية الأخرى وفكرتها وصورتها، وهكذا يجمع هذا الشطر مشاهد شتى من العواطف الإنسانية ويبلغ الذروة حين يتحدث عن فاتنته وهي الأخرى تمضي وتقول من التي يهوى؟ ونحن لا ندري أكانت في الواقع تعلم أم لا تعلم، وسواء علمت أنها هي التي يهوى أم جهلت فإن التساؤل يرسمها لنا على حاليها، ويعطينا إياها على الافتراضين، فقد تكون عالمة ولكنها تتجاهل تجاهل العارف إدلالاً وتباهياً وقد تكون جاهلة فتتساءل تساؤل المهموم في حين أن من حقها أن تشيع الغبطة فيها!

هكذا يمضي السيّاب في قصيدته كلها بل في ديوانه كله. فهو مثلاً يتحدث عن العذراء التي بَعُد حبيبها فقرأت الديوان فأذكرها الديوان بحبيبها النائي وما صاغه لها من الأشعار وما همس به لها من العواطف:

ديــــوان شـــعـــري رب عـــذراء أذكــرتــهــا بــحــبــيــبــهــا الــنــائــي

وربما تبادر إلى الذهن أن فكرة الغزل هي وحدها الفكرة المسيطرة على الديوان، بينما الواقع أن الغزل هو باب من أبواب الديوان وهو الباب الأهم، وفيما عدا الغزل ففيه من التفكير الدقيق، وصور الحياة المنوعة الشيء الكثير، فهو مثلاً في «خواطره الحائرة» متشائم حائر يتساءل: ماذا وراءك يا حياة تساؤلاً يطري وراءه أعذب الصور وأدق الخيالات كما هو الحال حين يتحدث عن الغصون الشاحبات التي اعتادت الحفيف وقد أقبل عليها الشتاء وتركها الخريف فتطلعت للأول تطلع الخائف، وودعت الثاني وداع الآسف ثم تمثل لها الصحو الشغيف والموقد المجنون فتساءل مع الغصون ألإلى احتراق أم رفيف نهاية الغصون. ومن أعظم ما يثيره أن لا تنظر حواء إلى الحب نظرته العالية فيغضب غضبته العاتية على (المحبوبة المدنسة) ويصرخ صرخة الموتور المغيظ «أتحب خائنة وأنت الشاعر» ثم تتكرر غضباته وتزداد صيحاته ولكنه في هذه المرة يعزي نفسه بأنه ليس أول من خانته حواء:

خانتك حواء فاستبك الفؤاد لظى إن كـنـت أول مـن خـانـتـه حـواء

* * *

هذه كلمة سريعة في هذا الديوان الفريد أقولها وأنا موقن مع الموقنين بأن لكل مسمى نصيباً من اسمه وأن هذا (السياب) قد ولد في أفق الشعر أول ما ولد بدراً، وأنه شذّ عن السنن الطبيعية فلم يبدأ هلالاً ثم تدرج إلى البدرية، وإذا كان الشاعر القديم قد قال:

وإذا رأيــت مــن الــهــلال نموه أيـقـنـت أن سـيـصـيـر بـدراً كـامـلاً

فماذا نقول نحن وقد رأينا هذا الشاعر أول ما رأيناه بدراً نامياً. (انتهى)

ذكريات طالبية

ومن تلك الذكريات أن طالبتين من طالبات مدينة الموصل تخرجتا من المعهد وذهبتا إلى مدينتهما على

أمل التعيين في التدريس، وكانتا من الأوائل المتفوقات، فإذا بهما تصطدمان بما يصطدم به كل الناس في البلاد العربية ـ وربما في غيرها ـ بالوساطات النافذة التي هي أكثر فعلاً من التفوق والتقدم، فتعينت رفيقاتهما المتأخرات عنهما كل واحدة منهن في بلدتها، وعرض عليهما التعيين في أماكن نائية.

وإذا بي أفاجأ بوصول الرسالة الآتية إليّ. وإني لأذكرها بحروفها لما تدل كل جملة فيها على أسلوب معين ومعنى معين:

«حضرة الفاضل أستاذنا السّيد حسن الأمين الأكرم،

بعد التحية والسلام والسؤال عن صحتك وأحوالك متمنين لك حياة طيبة تحف بالنعيم والرفاه،

إننا خريجات معهد الملكة عالية لهذا العام. لقد ضاقت بنا الأحوال وانسدت أمامنا الأبواب من جهة تعييننا، وقد لاقينا من الصعوبات أشدها في هذه المدة، فلجأنا إلى حضرتك الفاضلة لتسعفنا بهذه القضية وتمد يد المساعدة إلينا. والواقع الذي شجعنا على إرسال كتابنا هذا هو سمو أخلاقك وصفاء قلبك وحنانك الأخوي تجاهنا.

وها نحن لا نزال رهن الدار غير ملتحقتين بمدرسة ما. مع العلم أننا من المتقدمات، ومن حق المتقدمات التقدم ولا سيما الثانية والثالثة، مع العلم أن معظم المتخرجات اللواتي معنا قد عُيّنَّ بمراكز ألويتهن. أمِنَ العدالة أيها الأستاذ أن تتعيَّن المتأخرات وتؤخر المتقدمات؟

أين العدالة وأين نجدها؟

عندما نراجع الدوائر المختصة يقدمون لنا قضاءين واقعين في أقصى الحدود العراقية قرب الحدود الإيرانية والتركية. أهذا هو جزاء المتقدمات؟

أمثال ... (وهنا تذكران أسماء بعض الطالبات المتأخرات) قد عيّن في مركز لواء كركوك منذ شهرين. أما نحن فيعدوننا من يوم إلى يوم. ولم نحصل على فائدة من هذا الانتظار، واتضح لنا أخيراً أن وعدهم فاشل وأصبح لا أمل للتعيين عندنا.

فنرجو من أستاذنا الفاضل أن يسعفنا وينجدنا في هذا الموقف الحرج ويسعى لتعييننا في مدارس مدينتنا (الموصل) أسوة ببقية رفيقاتنا، وجزاء لانتظارنا وتفوّقنا ولك منا جزيل الشكر وفائق الاحترام».

١٩٤٦/١٢/٩

طالبتاك المخلصتان: لطفية مجيد لاوند

فاطمة أحمد سلطان

لقد رأيت في هذه الرسالة ضرباً من الوفاء لا تكليفاً بمهمة متعبة، لذلك تقبلتها بكل ترحيب وعزمت على إنجاد الفتاتين مهما كلفني ذلك من جهد ومراجعة، بل وتوسل.

لقد كان شيئاً طبيعياً أن ترسل مثل هذه الرسالة إلى أستاذ عراقي في المعهد، فالطالبتان عراقيتان، والأستاذ العراقي أولى بأن يُستنجد به في هذا الاهتضام...

أما أن تستنجد الطالبتان العراقيتان الموصليتان بأستاذهن اللبناني لإنقاذهما من مأزقهما فهو غير الطبيعي وغير المنتظر.

ولكن هذا ما وقع! لقد كان الوفاء وحده، الوفاء العراقي الأصيل هو الدافع لذلك.

إنني نشرت الرسالة بنصها، مع ما فيها من ثناء عليَّ، وهذا ممجوج عندي، ممجوج أن ينشر الإنسان

بنفسه الثناء على نفسه، وقد يرى القارىء في الكلام الآتي شيئاً من الثناء على النفس وهو أشد مجاجة عندي. ولكني متحمل لهذه المجاجة لأنها ستوصلني إلى ذكر ما أكبره من الوفاء العراقي.

لقد تذكرت هاتان الطالبتان وهما في محنتهما ما كانت تلقاه الطالبات مني من الرعاية لأمورهن والعناية بشؤونهن، فكانت رسالتهما إعلاناً لذلك، وكان تكليفي دليلاً على أنهما تحفظان لي ذلك.

ومن هنا قلت إني فهمت الرسالة وفاءً لا إشغالاً لي بما ينبغي أن يشغل به غيري.

فانطلقت متصلاً بكل من له تأثير من أصدقائي، فكانوا يستغربون اهتمامي بطالبتين موصليتين هذا الاهتمام الشديد، بل إن نافذاً عراقياً في وزارة المعارف لم يتردد بأن يتكلم بما يدل على أن من الفضول أن يهتم أستاذ لبناني بطالبتين عراقيتين.

ولم يكن الأمر سهلاً ومضى الوقت ولم نصل إلى النتيجة، ولم أجب الطالبتين على رسالتهما لأني أردت أن يكون الجواب مقروناً بالنجاح.

ولم تحسب الطالبتان عدم إجابتي لهن إهمالاً مني، ولا خطر لهما أن طول المدة ناتج عن عدم العناية بأمرهما. لذلك أرسلتا رسالة أخرى كلها أمل واستحثاث.

ولما تحقق ما نريده كتبت لهما جواباً وقلت لهما لن يطول الأمر أكثر من يومين أو ثلاثة حتى يصلهما أمر تعيينهما. وقد كان ذلك.

وكانت إحداهما، لطفية، غير قوية في النحو، وكان يربكها التمييز بين (لا) النافية للجنس و(لا) النافية للوحدة. فلم أزل بها في الدرس حتى استقام الأمر لها، لذلك ختمت كتابي متسائلاً ممازحاً: كيف حال لطفية الآن مع (لا)؟

فجاءني منهما جواب تقولان فيه:

لقد تحقق رجاؤنا بفضل مساعيك فشكراً لك على عنايتك بأمرنا وألف شكر. ابتدأنا بمباشرة العمل يوم ١٩٤٦/١٢/٣١.

ثم تسترسلان في ثناء طويل، وأخيراً تختتمان رسالتهما قائلتين: إن لطفية لا تزال تتذكر (لا) النافية للجنس و(لا) النافية للوحدة والفرق بينهما وهاك أمثلة على ذلك:

لا النافية للجنس: لا خير في علم لا ينتفع به.

لا النافية للوحدة: لا رجل في البيت بل رجلان.

ومن تلك الذكريات أن المتخرجات كن يطلبن إليّ أن أسجل لهن كلمة تبقى ذكرى لعهد الدراسة، كما كان بعض من لم يتخرجن يطلبن مثل ذلك. فمما سجلته للمتخرجات هذه الكلمة:

«لطفية المفتي من الطالبات اللواتي أذكرهن بكل خير لما تجلى لي فيها من الروح الأدبية الصحيحة، فقد لفت نظري لأول مرة عندما كلفتها مع رفيقاتها وكنّ في الصفّ الأول أن يصفن سفرهن وعودهنّ في عطلة العيد، فكتبت عن ذلك قطعة جميلة. ولم أكن أحسب أن فيها موهبة شعرية حتى فاجأتني في أواخر هذا العام بشعر فيه كل مزايا الشعر الصحيح.

على أن لطفية تجمع في شخصها المتناقضات، فهي تنثر وتنظم، ولكن بينها وبين سيبويه وقواعد سيبويه عداء مستحكماً فهي لا تبالي أن ترفع المنصوب وتنصب المرفوع، وهي قدر ما تتذوق الأدب وتهضمه، لا تتذوق النحو ولا تهضمه!

وإذا ما تذكرت دائماً نثرها العذب وشعرها الحسن، فإني إلى جانب ذلك سأتذكر دائماً أجوبتها النحوية الطريفة التي لا تربطها بالنحو رابطة ولا تجمعها به صلة! وسأذكر دائماً أيام الصف الثاني (الفرع الإنكليزي)، صف لطفية وزميلاتها، وما كان في ذلك الصف من خُلق كريم وأدب رفيع وكسل متواصل...» ا.هـ.

ومما سجلته لغير المتخرجات هذه الكلمة:

«تصرمت الأعوام وتوالت الأيام، وها هي السنة الثالثة في معهد الملكة عالية آخذة بالانسلاخ، وعما قريب تنقضي السنة الرابعة فينتشر هذا الجيل الكريم من الفتيات بعد أن يكون قد عبَّ من موارد العلم ما عبّ، وغداً لا يبقى من كل هذه السنوات إلاّ أطياف تتراءى من وراء الزمن، فأية أحاسيس يمكن أن تلتمع في الذهن لمن قدر له أن يقف من هذا الجيل الصاعد موقف المعلم؟

غداً عندما نعود فنضرب في آفاق الأرض وقد أصبح لكل منا وجهة هو موليها، غداً عندما يفصلنا عن تلميذاتنا ما لا يحصى من الأبعاد والأزمان، غداً سنتذكر أنه كان لنا في سالف الأيام تلميذات جمعن إلى رصانة الخلق رجاحة العقل، وضممن إلى التهذيب العلم الجم، وسنذكر أنه كان لنا بعض اليد في إعدادهن لمستقبلهن العتيد، غداً ستكون هذه الذكرى من أحب الذكريات إلى خواطرنا.

وإذا كنت لن أنسى أيام العراق ما حييت فإنني لن أنسى ـ على الأخص ـ أيام معهد الملكة عالية، ولن أنسى فتياته اللواتي ملأن نفسي ثقة بمستقبل الفتاة العربية وأفعمن جوانحي اعتزازاً بها وإكباراً لها. وقد كانت نجلاء الخطيب في الطليعة.

وإذا كان لي ما أحثها عليه فهو أن لا تهمل موهبتها الأدبية وأن تعمل على استكمال قريحتها النثرية والشعرية.

ولا عجب أن تجيد وهي سليلة بيت طلع منه الشعر والأدب» ا.هـ.

آخر الذكريات

قبل يومين من تاريخ كتابة هذه الذكريات كانت آخر ذكرياتي في معهد الملكة عالية، وعندما أقول من يومين، فليس معنى ذلك أن تاريخ هذه الذكرى يعود إلى ما قبل يومين، بل إن تاريخها يعود إلى سنين بعيدة، فكم قد مضى من سنين على تركي معهد الملكة عالية، وكم تقلبت بي الأحوال بعد مغادرتي العراق. ومع ذلك فإن هذه الذكرى تعود إلى ما قبل يومين:

في مطلع السنة الدراسية الثانية في معهد الملكة عالية كان عدد طالبات الانتساب إلى المعهد أكثر مما يستطيع المعهد استيعابه في الصف الأول، لذلك تقرر تأليف لجنة تتولى غربلة طالبات الانتساب من حاملات شهادة الدراسة الثانوية.

وتألفت اللجنة من ثلاثة أساتذة عراقي ومصري ولبناني هو أنا مع وجود عميدة المعهد.

وعهد إليَّ بسكرتيرية اللجنة فكان بيدي السجل الذي نكتب فيه أسماء المقبولات. وكانت طريقتنا في الغربلة أن نطرح أسئلة عامة على الطالبة نختبر بها شخصيتها وذكاءها وعمق ثقافتها واطّلاعها العام، إلى أمثال ذلك.

ودخلت إحدى الطالبات فسألناها عن اسمها فقالت: م.س.ع، ولا أريد هنا أن أصرح باسمها إذ لعلها تطّلع صدفة على ما أكتبه هنا وأنا ولا أريد أن تعرف حقيقة ما جرى بشأنها، ولا بد لي من أن أقول إنها لم تكن على شيء من الجمال، فطرحنا عليها ما شئنا من الأسئلة فإذا بها تجيب أعلى إجابة، وإذا بها كذلك تتوقد ذكاء، وبرزت شخصيتها القوية منذ ساعة دخولها.

ولما كان في اسمها الذي ذكرته حرف (س) إذ إن اسم أبيها سلمان فقد ظهر أنها لا تستطيع أن تنطق (السين) نطقاً صحيحاً، بل تلفظها وكأنها (ثاء).

ولما خرجت أخذت القلم لأسجل اسمها بين المقبولات بعد أن أدّت ما طلب إليها أداؤه أحسن أداء، لاعتقادي أنها ستكون مقبولة بالإجماع، إذ كانت طريقتنا أن نقرر القبول أو الرفض بأكثرية الأصوات، وكانت العميدة تفضل عدم الاشتراك بالتصويت وتترك لنا نحن الثلاثة أن نقرر ما نشاء، وحتى هذه اللحظة لم تختلف آراؤنا فكانت قراراتنا بالإجماع.

ولما أخذت القلم استعداداً لتسجيل اسمها اعترض الأستاذ العراقي بشدة، وقال إن فيها عيباً يمنع قبولها وذلك أنها لا تحسن النطق بالسين نطقاً صحيحاً، وهي ستغدو في المستقبل مدرّسة في التدريس الثانوي وعيبها هذا سيقلل من احترام الطالبات لها فيجب رفضها.

وانضم الأستاذ المصري إلى الأستاذ العراقي لا لشيء إلاّ لأنه في رأيه الأقوى فهو ابن البلد وأنا الغريب عن البلد، فتأييده للعراقي أضمن لمصلحته.

وأصررت أنا على قبولها وقلت لهما: لقد أدَّت ما يطلب منها تأديته أحسن أداء، فما ذنبها إذا كان الله قد خلق في لسانها هذا العيب؟ ثم لمن تتركان مستقبلها وأنتم ترون أنها غير مقبولة للزواج على الأرجح، أترميانها في الشارع وهي الذكية المثقفة أحسن ثقافة؟

وقلت لهما عن عيبها: إن كفاءتها ستغطي هذا العيب، وقد كان في لسان أحد أساتذتنا في الجامعة عيب أشد من هذا العيب، ذلك أنه وهو مسترسل في الكلام يصاب فجأة بما نسميه نحن (الوأوأة) إذ يعجز عن النطق وتظل شفتاه تتحركان بتصويت (وأ، وأ، وأ)، ويستمر ذلك لحظات وأحياناً دقائق. ولكن كفاءته كانت فوق أن يؤثر عليها هذا الضعف وأقوى من أن تقلل من احترامه في نفوسنا.

فلم يلتفتا لذلك وأصرا وأصررت، وأكملنا عملنا وخرجنا، وخرجا هما، وهما يعتقدان بأن الأمر قد انتهى وأنها رفضت بأغلبية الأصوات، وخرجت أنا وأنا مصمّم على قبولها بالرغم من كل شيء، إذ إن رفضها كان جريمة أعظم من أن يتحملها ضميري، وكنت مستعداً للاستقالة من عملي في التدريس إذا كان لا بد من رفضها لأنني لا أقوى أبداً على أن أكتب بيدي قرار رفضها، وصممت على تحمّل مسؤولية قبولها ولو أدى الأمر إلى إغضاب العميدة. وكانت الوسيلة إلى ذلك هي أن أضع اسمها مع المقبولات وأتخذ في الحال إجراءات إعلان أسماء المقبولات مما يجعل الجميع أمام الأمر الواقع الذي لا يستطيع أحد نقضه.

فأول ما فعلته أن طلبت إلى أحد الفراشين أن يعلق القائمة على باب المعهد كما هي العادة، ثم أرسلت نسخاً عنها إلى الصحف وإلى الإذاعة.

وفي المساء كان المذياع يذيع أسماء المقبولات وفيهن (م.س.ع)، وفي الصباح كانت الصحف تنشر أسماءهن وفيهن اسمها.

ولكن ذلك لم يلفت الأستاذ العراقي فلم يسمع الإذاعة ولا قرأ الصحف، وإنما استرعى انتباهه في الصباح رؤية القائمة معلقة على الباب فقرأها فإذا بالاسم الذي أصرّ على رفض قبول صاحبته موجود بين الأسماء فدخل صائحاً معربداً قائلاً بأن هذه فوضى وعدم احترام للنظام، ومثل هذا الكلام، وكنت أنا أسمع صياحه مرتاح الضمير قرير العين.

وكل ما كنت أحاذره هو غضب العميدة وما يجره من مشاكل ومتاعب، ولكن تبين أن العميدة كانت في قرارة نفسها راضية عما فعلته بعد أن شهدت بنفسها كفاء (م.س.ع) لذلك سكتت ولم تعلن الرضا ولا أظهرت الغضب. وفي نهاية العام الدراسي وإعلان نتائج الامتحان كانت (م.س.ع) الأولى بين جميع الطالبات في مختلف فروع الدراسة.

ومضت الأيام وكرّت الأعوام ونسيت أسماء جميع الطالبات وغابت صورهن عن ذهني، إلاّ اسماً واحداً هو (م.س.ع) وإلاّ صورة واحدة هي صورتها وهي تستمع إلى محاضراتي في الدروس بإصغاء واستيعاب.

وما زالت الأيام تكر والأعوام تمضي، وإذا بي أقرأ وأنا في بيروت قبل يومين من كتابة هذه السطور خبراً في مجلة بغدادية بأن (م.س.ع) قد نالت الدكتوراه بدرجة جيد جداً من جامعة بغداد.

وداع العراق نثراً

يوم عزمي على ترك العراق كتبت في الصحف ما يلي:

منذ أربع سنوات عندما تناءت عن عيني مشاهد الشام وغابت معالم السهول والجبال واحتوتني الصحراء بوحشتها تلفّتّ إلى الوراء منشداً:

فقلت لقلبي حين خف به الهوى ... وكاد من الوجد الممض يطير

فهذا ولما تمض للبين ليلة ... فكيف إذا مرت عليك شهور

وأصبح أعلام الأحبة دونها ... من الأرض غَول نازح ومسير

ورحت أمعن في القفر الأجرد واجماً مكروباً، وطفقت أمشي في البيد ساهماً مطرقاً أفكر فيما أنا مقدم عليه من عمل جديد ونأي جديد حتى طلعت (الرطبة) بأضوائها المتلألئة فكانت ابتسامة الصحراء القطوب وضحكة الأمل الخابي بل كانت بادرة الخير في هذا السفر المضني. وقد أشرقت نفسي لإشراق الرطبة فحسبته إشراق الراحة بعد العناء والنور بعد الظلام، ولم أدرِ أنه إشراق عهد من أعذب عهود حياتي وتألق زمن من أحلى أزمان عيشي حتى بدت نخلات (الرمادي) وتلألأت صفحة (الفرات) وأطل سواد (الفلوجة) ولمعت مآذن (الكاظمية) وظهرت معاهد بغداد، وماجت غوارب دجلة وزخر شارع الرشيد فكانت حياتي العراقية التي ينطوي الزمن ولا تنطوي من ذهني وتنمحي الأيام ولا تنمحي من خاطري ويتلاشى العيش ولا تتلاشى من ضميري!

أربعة أعوام في العراق نزلت فيها بغداد والحلة، وجبت فيها كربلاء والنجف والكوفة وعفك والديوانية والناصرية ورحلت إلى البصرة وأبي الخصيب والقرنة والفاو وشاهدت الرافدين من ملتقاهما حتى مصبهما وتنقلت في الغراف وحواضره ونزلت بعقوبة وكركوك وأربيل والسليمانية والموصل بل تغلغلت في صميم الأرياف والقرى فبت في العنبكية ووصلت إلى شفاثا والأخيضر.

أربعة أعوام في العراق توالت عليّ فكانت أزهر صفحة في دهري وأنضر صورة في ذهني وأجمل مشهد في نفسي، وعندما آذنت هذه السنون بالزوال ومالت إلى الانطواء وعندما ختمت حياتي العراقية ومشيت أعاود قطع الصحراء آيباً كما عاودته ذاهباً - إذا بي وقد (تناءت عن عيني مشاهد العراق وغابت معالم السهول والجبال واحتوتني الصحراء بوحشتها) أتلفت إلى الوراء منشداً:

ولو قال لي الغادون ما أنت مشتهٍ ... غداة جزعنا الرمل قلت أعود

أتطلب يا قلبي العراق من الحمى ... ليهنك من مرمى عليك بعيد

ترى اليوم في بغداد أندية الهوى ... لها مبدىء من بعدنا ومعيد

وإذا بي بعد أربع سنين عند تركي (الرمادي) وتخليفي ورائي سواد الفرات أقف الموقف الأليم نفسه الذي وقفته عند تركي (ضمير) وتخليفي ورائي خضرة الغوطة وإذا بالحنين الذي ملك عليَّ نفسي وأنا أفري الصحراء قاصداً العراق يملك عليّ نفسي وأنا أفري الصحراء عائداً من العراق وإذا بالشوق الذي أضناني وأنا أهجر الشام وأؤم العراق يضنيني وأنا أهجر العراق وأؤم الشام وإذا بي لا أكاد أدري أين هو ترابي، أفي قمم (قاسيون) وذروات لبنان وسهول الغوطة أم هو في قمم (حمرين) وسهول (الرافدين)؟ وإذا بي لا أكاد أعلم أين هم أهلي وصحبي أعلى ضفاف الليطاني وبردى والحجير أم على ضفاف الفراتين وديالى والغراف؟ فإذا ما حنَّ الناس إلى أرضهم وأهلهم حننت إلى أرضين وأهلين وإذا ما اشتاقوا بلادهم وقومهم اشتقت بلادين وقومين.

لقد غابت بغداد عن عيني ولكن بغداد لا تغيب عن نفسي فلا أزال أرى دجلة متدفقاً بين الرياض والمروج ولا أزال أبصر نخيلها متمايلاً مع النسائم والأرواح ولا تزال صورها الحلوة تتعاقب في خاطري غضة طرية الألوان.

ولقد انطوى العراق عن ناظري ولكن العراق لا ينطوي من ذهني فلا أزال أشاهده ناضر الصفحة زاهر الجبين ولا أزال أتطلع إلى الرافدين يشقان أديمه الأخضر ولا أزال أطل على ضفافهما الكاسية العامرة فأرى الدوح الفارد والأيك الدائح وأنظر جموع الفتيان وصفوف الشيوخ والكهول.

لقد بعد العراق عن بصري ولكن العراق لن يبعد عن قلبي.

وداع العراق شعراً

ثم نشرت القصيدة التالية:

إني عهدتك في النوى متجلدا ... هيهات هذا اليوم أن تتجلدا

أرق الدموع فلست أول شاعر ... يبكي الأحبة والديار توجدا

لمن الدموع تصونها إن لم تكن … لفراقهم ولمن تجود بها غدا
ودع شذا بغداد ودع دجلة … والألمعية والبسالة والندى
لن تبصر النخل النضير ولن ترى … في الجزرتين سناءها المتوقدا
هفت النواظر للعراق فلم تبن … خضر الضفاف ولا النخيل بها بدا
نأت الرصافة واختفت أعلامها … والكرخ عن عيني أوغل مبعدا
بغداد غابت وانطوى نخل الربى … والشمل شمل الأوفياء تبددا
هيهات بعد اليوم وجدك ينقضي … هيهات شوقك أن يلين ويبردا
تلك الضفاف وكم مرحت بظلها … شغفاً وكم حن الفؤاد وكم شدا
النخل كالوسنان أسبل جفنه … والنهر كالسكران هاج معربدا
والورد كالجذلان يبسم ثغره … والطير كالولهان يهتف منشدا
والظل كالهيمان مد ذراعه … شوقاً وعاوده الحيا فترددا
قل للأحبة والديار بعيدة … هيهات قلبي بعدكم أن يسعدا
الصبح يعلم كم هفوت مروعاً … والليل يدري كم سهرت مسهدا
هذا الفؤاد المستهام بحبكم … هيهات يخمد حبه إلاّ الردى
بيني وبينكم القفار قصية … ما أطول المسرى عليَّ وأبعدا
ما زلتم أدنى إليَّ ولم تزل … أيامكم أهنا لدي وأرغدا
تلك الشواطىء ما نسيت عهودها … تلك الخمائل ما جحدت لها يدا
يا نخل ما أبهاك عندي منظراً … يا ماء دجلة ما ألذك موردا
سأظل أرسل في هواك قصائدي … سأظل بالحب الوفي مغردا
سأظل بالنخل النضير متيماً … سيظل قلبي في الهوى متبغدا

نخيل العراق

ثم القصيدة التالية:

حي النخيل سهولة وهضابا … والشاطئين مضارباً وقبابا
واملأ من الحسن البهي نواظراً … ظمأى إلى الحسن البهي سغابا
تهواه في نور الخميلة وادعاً … وعلى العباب مواثباً غلابا
ظلاً على الوجنات رف ومنهلاً … وعلى الشفاه الحالمات سرابا
هذا النخيل وما اذّكرتُ عهوده … إلا اذّكرتُ أحبة وصحابا
كم قد وقفت عليه أتلو حسنه … شعراً وأقرأ ضفتيه كتابا
يوحي الحياة جمالها وجلالها … والعيش حرباً والزمان غلابا
يعلو على هوج الرياح وينتخي … كالثائرين مطامحاً ورغابا

ويـرق عـاطـفـة ويـعـذب مـبـسـمـاً ويــطــيــب ظــلاً وارفــاً ورحــابــا
ودنـا فـكـان عـلـى الـبـسـيـطـة روضـة وعـلا فـكـان عـلـى الـسـمـاء سـحـابـا
ولـكـم نـزلـنـاه فـكـان عـلـى الأسـى بـشـراً وكـان عـلـى الأوام شـرابـا
هـذا الـنـخـيـل تـبـاركـت عـذبـاتـه مـا كـان أروع حـسـنـهـا الخلابـا
تـسـمـو عـلـى هـام الـفـضـاء غـدائـراً وتـرف فـي عـين الـسـمـا أهـدابـا
وتميـس فـي كـف الـنـسـيـم عـرائـسـاً وتـصـول فـي أيـدي الـريـاح حـرابـا
يا نخل طبت على السهول مناظراً وعـذبـت فـي أرج الـصـبـا أطـيـابـا
وفـتـنـتـي فـإلـى ظـلالـك يـنـتـمـي قـلـبـي وتـهـوي نـظـرتـي إعـجـابـا
وملأت نـفـسـي فـي الحياة بـشـاشـة ولـطـالمـا مـلـئـت أسـى وعـذابـا
أهوى على التلعات فجرك والضحى والـبـدر سـال عـلـى الـغـصـون وذابـا
وأهـيـم بـالـشـاطـي الـنـضـيـر وأشـتـهـي فـي الـضـفـتـين ربـيـعـك المخـصـابـا
كم قد هفت نفسي إليك وناشدت فـي الـبـعـد نـهـرك دافـقـاً والـغـابـا
يـا نـخـل وافـاك الـربـيـع وأقـبـلـت أسـراب حـسـن تـقـتـفـي أسـرابـا
قـد عـاد لـلـربـوات نـاضـر حـسـنـهـا وزهـت ربـاع كـنّ أمـس يـبـابـا
الـنـهـر يـشـدو لـلـريـاض قـصـائـداً تـنـسـي المغـرد لحـنـه المطـرابـا
ويـسـيـر بـين الـضـفـتـين مـغـمـغـمـاً ويمـر مـذعـور الخطـى وثـابـا
والـزورق الـغـافـي تـرنـحـه الـصـبـا فـتـمـايـل الأعـطـاف فـيـه طـرابـا
أهـلاً بمـنـضـور الـربـيـع ومـرحـبـاً بـالـزهـر يـنـسـج لـلـريـاض ثـيـابـا
ويـعـيـد لـلأرض الموات حـيـاتـهـا ويـرد لـلـدنـيـا صـبـاً وشـبـابـا
أيـقـظ عـلـى الـنـخـلات غـافـيـة الـشـذا واسـتـنـهـض الأزهـار والأعـشـابـا
وأذع لـنـا سـر الـورود نـضـيـرة وانـشـر لـنـا الـنـسـريـن والـعـنّـابـا
أطـلـع لـنـا فـي كـل أرض روضـة وبـكـل أفـق مـن سـنـاك شـهـابـا
يا نـخـل قـد طـال الـفـراق فـهـل تـرى بـعـد الـفـراق لـنـا إلـيـك إيـابـا
سـنـظـل نـذكـر فـي ربـاك صـحـابـة هـيـهـات نـبـغـي بـعـدهـم أصـحـابـا

أعذب أيام حياتي

إن أيام التدريس في العراق كانت أعذب أيام حياتي، ولم أر قبلها أو بعدها أياماً تضاهيها في ذلك، سواء عهد التدريس الثانوي في ثانوية الحِلّة ودار المعلمين الريفية، أو عهد التدريس الجامعي في معهد الملكة عالية، ودار المعلمين العالية. أستثني من ذلك الأيام التي بدأت فيها أجزاء «دائرة المعارف الإسلامية الشيعية» تبرز إلى الوجود جزءاً بعد جزء، ثم اكتملت بمجلداتها الكبار، ثم طبعت طبعتها الخامسة.

لقد فاقت أيام «دائرة المعارف» بسعادتها كل الأيام، إذ حققت فيها حلم الحياة، ولا أزال أنعم بسعادة تحقيق هذا الحلم وأطمح إلى الاستزادة منه، بما أضيفه كل آن من زيادات على ما أُنجز.

وسبب عذوبة أيام التدريس العراقية ثلاثة أشياء:

أولاً: مطابقة العمل في التدريس لميولي سواء منها الأدبية أو التاريخية..

ثانياً: ما انطبع عليه العراقيون من الوفاء. وهو الخصلة التي تسمو على كل خصلة في الإنسان، فما رأيت كالعراقي وفاء، والوفاء ينير النفس مهما ادلهم فيها من ظلام. وأنا الذي ذقت العقوق والجحود والغدر في وطني أمرَّ مذاق، لم يكن يحلو في نفسي شيء كالوفاء.

ثالثاً: ما لقيته ممن تعاملت معهم من تقدير للإخلاص في العمل والكفاءة فيه، وما داموا هم مخلصين أكفياء فقد كان طبيعياً أن يقدروا الإخلاص والكفاءة.

حين يكون تعاملك مع المدراء: عبد الوهاب الركابي، وجعفر الخياط، ورشيد سلبي ومع العميدة (أمة السعيد)، فلن تشعر أبداً بالغبن.

ولكن حين يكون تعاملك مع ألفرد ثابت، وأنيس صالح، وفكتور عيسى، فستشعر بالغبن، فتسعد وأنت مدرس بعيد عن وطنك، وتشقى وأنت قاضٍ في صميم وطنك.

أضحكتنا ورب ضحك بكاء ... فترة من زماننا عمياء
خلقت من خشارة الناس رهطاً ... عرفت بعد خلقه الآباء
لمة من بني الشوارع عاشت ... حيث عاش الأعيار واللقطاء
حشرات طلعن من طبقات الأرض ... لما استتبّت الظلماء
وجراثيم حين لاءمها الما ... ء تفشّى من سمهن الوباء

وشتان بين أن يكون وزير الوزارة التي ينتمي عملك إليها رجلاً مثل الشيخ محمد رضا الشبيبي ونجيب الراوي، وبين أن يكون رجلاً مثل حبيب أبو شهلا.

وما أسعدك يوم يكون النافذ في محيطك الذي تعيش فيه رجلاً مثل سعد صالح، وما أشقاك يوم يكون هذا النافذ مثل أحمد الأسعد وعادل عسيران.

وكذاك اعتلاء من ليس أهلاً ... للمعالي مصيبة وبلاء
كيف لا ترقبن كل عثار ... من قصير عليه طال الرداء
مطرق إن مشى كمن شغلته ... لحلول المشاكل الآراء
لو تصفحته وجدت ثياباً ... فوق جسم كأنه المومياء
مجدباً كالسباخ من كل خير ... جل ما في جرابه الكبرياء
أوترجو من المغايض زهراً ... ونبات المغايض الحلفاء
وكذا يبطر الرخاء خفيف الوزن ... من حيث لم يسعه الإناء
رب داء ترى من العار شكواه ... وشكوى يثنيك عنها الإباء

لقد كانت العميدة أمة السعيد والمدراء عبد الوهاب الركابي وجعفر الخياط ورشيد سلبي: الواحات الخضر في صحراء حياتي الوقيد.

وكان الشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ علي الشرقي وسعد صالح ونجيب الراوي: الظلال الوارفة التي طالما وقتني لوافح الهجير.

ألا طبتم وأنتم أحياء في دوركم ومكاتبكم، الدور والمكاتب التي كانت فيها كلمة: «أهلاً وسهلاً» أشهى من الماء الخَصِر للظامىء الحران، والتي كانت تنبعث من أعماق قلوبكم لا من مظاهر شفاهكم.

وطبتم وأنتم أموات في أجداثكم، الأجداث التي انطوت على أشرف ما تنطوي عليه الأجداث من شهامة ومروءة ونخوة.

وإذا كان قد حال بيني وبينكم بعد الديار، ثم المقابر التي احتوتكم وستحتويني، فلن يحول شيء دون أن أردد ذكركم بالجميل وأنا حي، وأن تردده هذه الأوراق على الدهر وأنا ميِّت.

الفصل التاسع

البحث والتأليف

كنت خلال إقامتي في النباطية أغتنم بعض أوقات الفراغ فأكتب بعض البحوث التاريخية والأدبية وأنشرها في مجلة «الرسالة» القاهرية الأسبوعية، وكانت يومذاك أوسع المجلات العربية انتشاراً، ومما نشرته فيها مناقشتي لعباس محمود العقاد في بعض ما ورد في كتابه «عبقرية الإمام»، وقد بلغ من دقة تلك المناقشة وصوابها وتهذيب عباراتها، أن العقاد المعروف بعناده مع من ينتقده وشدته على من يناقشه، وعدم تحمله لأية ملاحظة ـ أن العقاد هذا سلّم لأول مرة في حياته الأدبية، وربما لآخر مرة ـ سلّم بصواب ما اعترضت به عليه في العدد التالي من مجلة «الرسالة» الصادر في ١٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٣، وجعل عنوان ردّه «خلاف يستحق الاختلاف»، وهذا العنوان وحده كاف بتسليم العقاد بصحة ملاحظاتي.

وصدف أن نشرت «الرسالة» في العدد نفسه الذي نشرت فيه مقالي ـ نشرت مقالاً للعقاد يرد به على شيخ أزهري كان قد ناقشه في بعض ما ورد في كتابه «الصديقة بنت الصديق»، فحمل العقاد على ذلك المناقش حملة شعواء بقلمه الجبار، فقال بعض أصدقائي مخاطباً لي: انتظر دورك في العدد القادم! فرددت: لا أحسب ذلك واقعاً، لأني أظن أن العقاد إنما كان يهاجم منتقديه لأنه يستشعر من خلال كلامهم التعريض به والإقلال من شأنه، ويعتقد فيهم سوء النية لا حب الوصول إلى الحقيقة، لذلك كان يعاملهم بما كان يعاملهم، وأظنه هذه المرة سيلمس العكس، وسترون... وصح ما توقعته فكان جواب العقاد منصفاً كل الإنصاف.

وواصلت وأنا في بغداد النشر في «الرسالة» وفي الصحف العراقية ومجلة «العرفان» اللبنانية.

واستمرت حياتي الجديدة في بغداد أربع سنين دراسية: رأيت بعدها أن عليَّ أن لا أفارق والدي بعد أن بلغ تلك السن العالية وبدأ الضعف يتسرب إلى جسمه، فلزمته معاوناً له في إعداد موسوعته الكبرى (أعيان الشيعة) حتى توفي بعد سنتين (سنة ١٣٧١هـ = ١٩٥٢م).

الانصراف إلى البحث والتأليف

ألقت وفاة والدي عليَّ عبئاً ثقيلاً، فقد وجدت أمامي موسوعة «أعيان الشيعة» وقد وصل فيها الوالد إلى

نهاية حرف السين في خمسة وثلاثين جزءاً، وترك بقية المواد مسودات أكثرها مشوش، وبعض التراجم لم يكتمل، وبعضها لم يكتب أصلاً، فعكفت على تنسيق المسودات وضمها بعضها إلى بعض وإلى إكمال ما لم يكتمل من الترجمات، وكتابة ما لم يكتب منها. وبعد كفاح أكثر من أربع سنين نشرت الجزء السادس والثلاثين من «أعيان الشيعة» مبدوءاً بحرف الشين، وكان المفترض أن يتواصل السير مطرداً، ولكنه كان كثير التعثر لما يعترضه من الصعوبات المالية، وظللت أكافح وأناضل حتى كمل «أعيان الشيعة». ثم خرج بعد ذلك بطبعته الحديثة الأنيقة.

وكنت مع ذلك عاكفاً على مواصلة البحوث التاريخية متخذاً من مجلة «العربي» الكويتية، أوسع المجلات العربية انتشاراً، مجالاً لقلمي مظهراً خفايا التاريخ الإسلامي ومصححاً كثيراً من الأغلاط الشائعة التي هي على عكس ما اشتهرت به، متناولاً بعض البحوث التي تنشر بما فيها من الأضاليل، بالنقد والنقض، وظل الدكتور أحمد زكي رئيس تحرير «العربي» يحثّني على المتابعة إذا استشعر مني تباطؤاً، إلى أن توفي وقامت الأحداث اللبنانية سنة ١٩٥٧ وانقطع خروج الرسائل البريدية من لبنان طيلة سنتين كاملتين فانقطعت صلتي بمجلة «العربي». كما أخرجت كتاب «الغزو المغولي» وهو أول دراسة مستوفاة لتلك الأحداث التاريخية الرهيبة حوى من التفاصيل والإيضاحات والتصحيحات ما جعله من أوسع المراجع للاطلاع على عصر الطاغيتين جنكيز وحفيده هولاكو، وقد طبع مرتين. ولما أريد طبعه للمرة الثالثة رأيت أن أتوسع به بإضافات كثيرة جعلته يزيد على الضعفين من حجمه الأول مما غيّر موضوعه فأسميته «المغول بين الوثنية والنصرانية والإسلام». كما صدرت لي الكتب التالية: «صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين»، وكتاب «الرضا والمأمون وولاية العهد» وكتاب «الوطن الإسلامي بين السلاجقة والصليبيين» وكتاب «سراب استقلال في بلاد الشام» وكتاب «الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي» وبين يدي الآن كتاب (غارات على بلاد الشام).

كما أصدرت «الموسوعة الإسلامية» وقد أردت منها أن تكون مرجعاً موجزاً يسهل الرجوع إليه سواء لطالب العلم وللعالم والباحث.

واهتممت بتاريخ (جبل عامل) الأدبي فأخرجت في هذا الموضوع كتاباً في تاريخه العسكري والشعري.

دائرة المعارف الإسلامية الشيعية

على أن أهم منجزاتي هو إصدار «دائرة المعارف الإسلامية الشيعية» التي كان الدافع لإصدارها هو قراءاتي في «دائرة المعارف الإسلامية» التي كتبها المستشرقون بعدة لغات أجنبية ثم ترجمها المصريون إلى اللغة العربية، فقد رأيت في دائرة المعارف هذه من الأخطاء الفظيعة التي كان الدافع إليها سوء النية ككل ما كتبه «لامانس» اليسوعي البلجيكي[1]، والأخطاء التي كان الدافع إليها الجهل وقلة الاطلاع مما كتبه غيره من المستشرقين.

ورأيت أن مترجمي دائرة المعارف إلى اللغة العربية قد علقوا على الأخطاء المتعلقة بغير الشيعة بما يصححها، وتركوا الأخطاء المتعلقة بالشيعة بدون أي تعليق، ما عدا تعليقاً واحداً للشيخ أحمد محمد شاكر في بحث التقية كان منصفاً فيه كل الإنصاف.

بل إن بعض المعلقين المصريين لم يكتفوا بشرور المستشرقين، وإنما زادوا تلك الشرور شروراً بما افتروا به في تعليقاتهم عن الشيعة.

والعجيب فيهم أنهم استعانوا ببعض شيوخ الخوارج، كالشيخ إبراهيم طفيش ليعلقوا على ما كتب بشأن الخوارج، ولم يفكروا بالاستعانة ببعض علماء الشيعة ليعلّقوا على ما كتب بشأن الشيعة، مع أن ما كتبه لامانس وغير لامانس عن الشؤون الشيعية وعن رجال الشيعة هو الأحق بالتعليق لفظاعة ما فيه وعظم افتراءاته.

هذا فضلاً عن مواضيع شيعية يجب أن تكتب وتبحث في دائرة المعارف، ولكنها لم تكتب ولم تبحث.

وعندما أخذت في تدوين تعليقاتي وجدت أنه قد تجمع لديَّ مادة غزيرة فحرت كيف أنشرها، وأخيراً قررت أن أصدر «دائرة المعارف الإسلامية الشيعية»، فصدرت وطبعت حتى الآن خمس طبعات.

وهنا لا بد من الرد على الذين ظلوا يأخذون عليَّ تخصيصي المواضيع الشيعية التاريخية بالعناية، ويرون في ذلك أمراً مذهبياً، وأكتفي في الرد عليهم بإعادة نشر مقطع من الحديث الطويل الذي أدليت به لمجلة «العالم»، وهو المقطع المتعلق بهذا الموضوع وهو:

«وهنا لا بد لي من أن أشير إلى من طالما اعترضوا على اندفاعي للدفاع عن حقائق اعتبروها شيعية، ورأوا في ذلك اتجاهاً مذهبياً. لهؤلاء أقول: إن الدفاع عن تلك الحقائق لم يكن لأنها شيعية، بل لأنها حقائق، مجرد حقائق زيفها المزيفون جهلاً أو عمداً، فكان دفاعي عن الحقيقة وحدها. والدليل على ذلك أني دافعت بالحماسة والاندفاع نفسهما عن حقائق زيفت ولم يكن لأصحابها علاقة بالشيعة، كحقيقة الملك المظفر قطز بطل معركة عين جالوت. ففي أذهان الناس جميعاً أن قائد المعركة هو الظاهر بيبرس. وآخر ما قرأته من ذلك كتاب فيليب حتي وآخر ما سمعته من أسابيع هو قول أستاذ تاريخ في بلد عربي، سأل المتسابقين في التلفزيون عن اسم قائد معركة عين جالوت فعجزوا عن الإجابة، فقال لهم: هو الظاهر بيبرس.

وهذا القول لا نصيب له مطلقاً من الحقيقة التاريخية. ومن المؤسف أن كل ما يتعلق بمعركة عين جالوت قد شوّه تماماً. والذي قاد المعركة بل الذي لولاه لما جرت أصلاً ليس الظاهر بيبرس. إنه الملك المظفر قطز. والواقع أنني لم أتحمس لأحد كما تحمست للملك المظفر قطز ولم أكتب عن أحد أربع مقالات كما كتبت عنه وهو ليس بشيعي ولا علاقة له بالشيعة. بل لأن هذا الرجل ظلمه التاريخ والمؤرخون بصورة فظيعة. لقد أهملوه تماماً في حين أنه هو الذي لولاه ما جرت معركة عين جالوت وهو الذي قادها وهو الذي انتصر فيها!

وهذا مثل على تزوير الحقائق التاريخية وعلى ظلم المؤرخين للرجال من أمثال الملك المظفر قطز. وأنا عندما تبينت لي هذه الحقائق التي أوردها على سبيل المثال كان لا بد من التحمس للملك المظفر قطز وإعادة الاعتبار إلى موقفه وقراره وقيادته وانتصاره في معركة عين جالوت. مع أنه ـ كما قلت ـ ليس بشيعي فالانتصار للحقيقة وحده هو الدافع».

الهوامش:

(١) كتب فردينان توتل اليسوعي في العدد الصادر في ٨٧/٥/٢٠ من جريدة **«النهار»** البيروتية بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاة لامانس ما يلي: «كتب الأب هنري لامانس (١٨٦٢هـ - ١٩٣٧م) عن رجال الحملات الصليبية فذكر الفلمند أجداده من شدوا الرحال إلى الأراضي المقدسة جنوداً وأمراء وخرجوا من سهول الشمال البلجيكي، فهجروا الأهل وتركوا المال وتفرقوا، ووجهتهم الجهاد في سبيل الله واليوم الآخر.

وإن تلك العاطفة النبيلة التي دفعت السواد الأعظم من رجال الغرب إلى قبر المسيح إنما هي دبت في قلب الفتى، وأوحت إليه التضحية بحياته وبما فيها من مواهب منَّ بها الرحمن عليه، ليسير جندياً، لا بالسيف والرمح، شأن الصليبيين، ولكن بالقلب، فيفتح فتوحات العلم» (انتهى).

هذا ما كتبه اليسوعي فردينان توتل عن اليسوعي لامانس، ولم يكن كلام أصدق في وصف مهمة لامانس من هذا الكلام. فالمهمة التي جرّد الصليبيون سيوفهم لتحقيقها، هي المهمة نفسها التي جرّد لامانس قلمه لتحقيقها. ومن ذلك جميع ما كتبه في دائرة المعارف الإسلامية.

الفصل العاشر

لبنانيات

بشارة الخوري في مذكراته

نشر بشارة الخوري مذكراته باسم «حقائق لبنانية»، وقد حاول في هذه المذكرات الظهور بمظهر البطل، ولكنه عجز عن إخفاء الحقائق، فلا بد له من الاعتراف بأن الفرنسيين اختاروه عند احتلالهم البلاد لتنفيذ سياستهم الاستعمارية في البلاد فعينوه أميناً عاماً لحكومة لبنان، وهو يعترف بأن لا قيمة لما يقرره إذا لم يوافق عليه حاكم المنطقة الفرنسي الكولونيل نياجر.

وعندما يصل إلى ذكر اعتقال الفرنسيين لأعضاء مجلس الإدارة الذين كانوا حقيقة طلاب استقلال، ورأوا بصفتهم النيابية الممثلة للشعب اللبناني تمثيلاً صحيحاً أن يجاهروا بطلب هذا الاستقلال وأنهم غير مستطيعين ذلك في ظل الحراب الفرنسية في وطنهم، قرروا التسلل إلى دمشق ومنها إلى حيفا ليركبوا البحر إلى أوروبا مطالبين بالاستقلال فاكتشف الفرنسيون أمرهم فاعتقلوهم.

عندما يصل بشارة الخوري إلى ذكر هذه الحادثة ـ وكان يومذاك في خدمة الفرنسيين أميناً عاماً لحكومة لبنان ـ يقول:

> «اطلعت على الوثيقة التاريخية التي ضبطت مع الأعضاء المعتقلين، ولا شك أني كنت أوقّع عليها بيدي لولا احتواؤها على وجوب الخروج من لبنان والتوجه إلى دمشق لملاحقة المطالب الواردة فيها مما يثير اللبس».

بمثل هذا القول يريد بشارة الخوري أن يبرر خدمته للاستعمار الفرنسي في الوقت الذي كان الأحرار يناضلون من أجل الاستقلال.

ونحن نقول له: وماذا منعك من أن توقع وثيقة أخرى لا تحتوي على وجوب الخروج من لبنان وتواجه بها الفرنسيين وأنت في بيروت دون الذهاب إلى دمشق؟!

إن الذي منعك أنك كنت في خدمة الفرنسيين ورجلاً من رجالهم المؤتمرين بأمرهم والمنفذين لسياستهم.

سياسات لبنانية

كان من سوء حظ لبنان أن الذين قفزوا فيه إلى السلطة واستولوا على زمام الحكم في عهد الاستقلال

كانوا ممن قضوا حياتهم السابقة في خدمة الاستعمار الفرنسي مستهدفين مصالحهم الشخصية، لا يفهمون من المنصب إلاّ أنه مغنم شخصي يجب أن يفوزوا فيه بأكثر ما يمكن من المغانم، وأن فكرة (الدولة) والتخطيط لإنشائها وتركيز قواعدها على أسس سليمة تكفل تطورها من حسن إلى أحسن، إن هذه الفكرة لم تكن في ذهن أحد منهم.

وفي الطليعة من هؤلاء بشارة الخوري الذي سار في ركاب الفرنسيين منذ حلُّوا في البلاد، فتدرج في وظائفه من أمين عام إلى قاض، إلى وزير للداخلية، إلى رئيس للوزراء، يأتمر في كل ذلك بأوامرهم وينتهي عما ينهون عنه، ويطبق سياستهم الاستعمارية التي سموها (الانتداب). ولم يُعرف في طول تلك الفترة أن كلمة (الاستقلال) خرجت من فمه، أو عنَّ له مفهومها على بال. وظل كذلك إلى أن انتهى الأمر إلى أن يتنافس مع إميل إده على منصب رئاسة الجمهورية التي كانت في ذلك الحين مجرد وظيفة كبيرة تابعة لإدارة المفوض السامي الفرنسي، وراح هو وإميل إده يتسابقان على كسب رضا «ده مارتيل» وما يمثل منصبه من تسلط فرنسي، ولا يستطيع بشارة الخوري أن يزعم أنه كان له يومذاك برنامج يختلف عن برنامج منافسه، أو أن له شروطاً تباين شروطه، أو أنه نطق بكلمة واحدة تتنافى مع الاستسلام للفرنسيين. فقد كان هو وإميل إده فرسي رهان في تنفيذ المخططات الاستعمارية توصلاً إلى المناصب والنفوذ.

وكان لا بد للمفوض السامي الفرنسي (ده مارتيل) من أن يختار بين رجليه الاثنين المتنافسين، وكان ده مارتيل هذا مستهتراً وكان متعلقاً بزوجة أحد القناصل في بيروت، واستطاع إميل إده أن يضمن تأييدها ففرضته على ده مارتيل. وماذا يهمّ ده مارتيل إذا كان إميل إده رئيساً للجمهورية أو كان بشارة الخوري ما دام كل واحد منهما طوع إشارته، ولكن إذا كان، في اختيار أحدهما إرضاء للفاتنة الجميلة، فعند ذلك يكون الأفضل هو اختيار من تختاره وهكذا كان ففاز إميل إده على بشارة الخوري.

ويئس بشارة الخوري من المنصب، ومع ذلك فلم يخرج عن عبوديته للفرنسيين، وكل ما فعله أنه كان يردد كلمة (الدستور)، وأي قيمة لدستور في ظل الحكم الاستعماري، وما فائدة العمل بالدستور الذي وضعه الفرنسيون وعملاؤهم إذا كان على العامل به أن ينفذ في العمل به إرادة الفرنسيين؟!

وكان ترديده لكلمة الدستور مخرجاً لتخبطه بعد فشله في منافسة إميل إده، ولو أنه كان هو الذي اختاره ده مارتيل لما عنت له كلمة الدستور ولا خرجت من شفتيه، وكان حلالاً كل الحلال أن يسير كما سار إميل إده. ولو أن إميل إده كان هو الفاشل لوجد هو الآخر شيئاً يتشبث به ويدعيه!

وما دمنا قد تعرضنا للمنافسة بين إميل إده وبشارة الخوري، وذكرنا كيف أن الفصل في اختيار رئيس الجمهورية كان في أيدي الخليلات الجميلات، فإننا نرى أن نذكر شيئاً مما يتعلق بذاك الأمر قدّر لنا أن نشارك فيه، نذكره لنرى كيف كانت تقرر مصائر الأمور.

لقد كنت في تلك الأيام مرتبطاً في العمل الوطني برياض الصلح وكنا نعمل في خط واحد لمقاومة الفرنسيين ومحاربة انتدابهم، وكان رأينا متّفقاً فيما يتعلق بانتخابات رئاسة الجمهورية، وهو أن لا مصلحة وطنية تدفعنا لتأييد أحد المرشحين ما دام منهجهما واحداً: هو الاستسلام للفرنسيين، فوقفنا في

أول الأمر موقف المتفرجين، ثم لما تبين أن قرار دي مارتيل قد استقر على اختيار إميل إده، ارتأى رياض الصلح أن نناصر بشارة الخوري نكاية بدي مارتيل، فلم أوافقه أول الأمر على هذه الفكرة، ثم لما رأيت أن في رأيه بعض المنطق عزمنا على خوض المعركة إلى جانب بشارة الخوري لا لشيء إلاّ أن في ذلك نوعاً من المعاكسة للسلطة الفرنسية.

وكانت تربط رياض الصلح بنائب طرابلس أمين المقدم رابطة قربى وصداقة متأصلة، فأرسل له من ينبئه بأنه واقف إلى جانب بشارة الخوري وأنه يأمل من قريبه وصديقه الحميم أن يكون له الموقف نفسه.

فأقر أمين المقدم رياض الصلح عيناً وأرسل إليه أنه ليس من المعقول أن يكون له موقف يناقض موقفه، وأنه يستطيع أن يطمئن إلى ذلك وأن يطمئن من يشاء. واتصل رياض ببشارة الخوري وأنبأه أنه حين يحسب أنصاره فله أن يحسب منهم أمين المقدم.

ثم أخذت الأمور تتبلور وأخذ الكر والفر يجريان من هنا وهناك، حتى استقر الحال على تعادل الكفتين. وكان هذا التعادل متعمداً من ده مارتيل لأنه أراد أن يأتي إميل إده ضعيفاً وكان المجلس مؤلفاً من خمسة وعشرين نائباً، فإذا إلى جانب إميل إده إثنا عشر نائباً، وإلى جانب بشارة الخوري العدد نفسه، وبقي كل منهما يحتاج إلى نائب واحد ليفوز بالرئاسة، وكان النائب المجهول الموقف، والذي لا يدري أحد إلى من سينضم فيرجح الكفة هو أمين المقدم. وكان بشارة الخوري مطمئناً إلى وعد رياض الصلح، ورياض الصلح مطمئناً إلى وعد أمين المقدم، ولما لم يبق لحلول يوم الانتخاب إلاّ أيام، أرسل رياض الصلح إلى أمين المقدم طالباً إليه وجوب الحضور إلى بيروت، فأجاب أمين أنه سيحضر صباح بعد الغد.

وخطر لرياض الصلح ولجماعة بشارة الخوري أن يرسلوا إليه من يتلقاه قبل الوصول إلى بيروت وأن يوصلوه رأساً إلى بيت رياض، فتولى هذه المهمة النائب محمد العبود وخرج يتلقى أمين المقدم.

وجئنا إلى بيت رياض مبكرين بانتظار وصول أمين المقدم، ومر الضحى وارتفع النهار ولم يصل أمين المقدم، ومر الظهر وصرنا على مشارف الأصيل ولم يصل أمين، وطال انتظار محمد العبود ومن معه فملوا الانتظار وجاؤوا بعد الأصيل وحدهم إلى بيت رياض، وكثر التساؤل عما أخّر أمين المقدم، وبينما نحن في حيرة من الأمر، إذا بقادم حوالى الغروب، يفاجئنا بأن أمين المقدم هو الآن في بيت إميل إده، وقد وصل إليه بعيد شروق الشمس مصحوباً ببعض أعوان إميل إده الذين رافقوه من طرابلس ومضوا به رأساً إلى بيت إميل إده، ومنعوا أياً كان من الاتصال به فضلاً عن الإصرار على عدم خروجه من البيت...

ثم تبين أن المساعي قد حوّلته إلى صف إميل إده، واختُلف في تحديد هذه المساعي فقيل إنها الضغط الفرنسي، وقيل إنها المال، وقيل إنهما معاً.

وخاف إميل إده من أن يتبدل رأي أمين المقدم تبدلاً جديداً، لذلك حجزه في البيت ومنع من أن يتصل به أحد.

وأسقط في يد بشارة الخوري ويئس من الفوز، وكان لم يبق لموعد الانتخاب سوى يومين فقط. وهنا خطر لأحد أصدقاء رياض الصلح من أبناء النباطية رأي هو أنه يمكن استجلاب بهيج الفضل إلى صف

بشارة الخوري إذا أمكن أن يؤمن له مبلغ كبير من المال، وقال إن بهيجاً ضعيف الشخصية وفقير فيمكن إغراؤه بالمال، ولما عرض رياض الفكرة عليَّ أشرت برفضها، وقلت فيما قلته في تعليل أسباب الرفض: إن ضعف شخصية بهيج الفضل الذي يراه المشير سبباً في قبوله العرض، أراه أنا سبباً في رفضه له، وذلك أن موقفاً كهذا، وانقلاباً كهذا الانقلاب الحاسم من صف إلى صف يحتاج إلى أعصاب قوية، وإرادة حازمة، وإلى رجل يستطيع اتخاذ المواقف الحاسمة، وبهيج الفضل عكس ذلك تماماً.

وأصر الحاضرون على تنفيذ هذه الخطة وصادفت هوى في نفس رياض، فلم يكن بد من تنفيذها، فأرسل رياض رجلاً من قبله إلى بيت بشارة الخوري الذي ظل يتابع اجتماعاته الليلية مع جماعته في منزله، وقال لهذا الرجل أن يقابل خالد شهاب ويعرض عليه الفكرة.

فعاد الرسول يقول إنهم مستعدون أن يدفعوا مبلغاً إذا كان بهيج الفضل مستعداً أن ينتخب بشارة الخوري، وأنهم يدفعون أقل إذا وضع ورقة بيضاء أو غاب عن الجلسة.

فلما جاء هذا الجواب بقي التفكير بمن يفاتح بهيج الفضل بذلك، وكان بهيج محتجزاً مع المحتجزين في بيت إميل إده وممنوعاً من الاتصال بأحد أو اتصال أحد به. وذلك أن إميل إده خاف من الضعاف وتأثير المؤثرين عليهم فأبقاهم بضعة ليال في بيته يأكلون وينامون ولا يخرجون.

فقال أحد أبناء النباطية إن للدكتور بهجت الميرزا الطبيب في النباطية تأثيراً قوياً على بهيج الفضل وإنه وحده يستطيع إقناعه، وأردف هذا القول بقول آخر: وهو أن فلاناً ـ يعنيني ـ هو الذي يستطيع إقناع الدكتور بهجت الميرزا بالقيام بهذه المهمة.

فرفضت أنا أول الأمر هذا التكليف، ولكن رياضاً ما زال بي ملحاً على إجابة هذا الطلب حتى اضطررت إلى الموافقة طالباً أن يصحبني رياض التامر الذي كان حاضراً في المنزل.

فاستأجرت ورياض التامر سيارة توصلنا إلى النباطية وتنتظرنا فيها ثم تعيدنا إلى بيروت على أن ندفع لصاحبها خمس ليرات ورقية. وجئنا الدكتور بهجت الميرزا، وتركت لرياض التامر أمر محادثته وإقناعه وكان رياض ذكياً فأحسن الحوار واقتنع الميرزا بالمجيء معنا والقيام بالمهمة، وعدنا به إلى بيروت وأنزلناه من السيارة في مكان يقصد منه إلى بيت إميل إده، وقصدت ورياض التامر بيت رياض الصلح، ولما نزلنا من السيارة مددت يدي إلى جيبي وأخرجت محفظة نقودي لندفع أجرة السيارة فلم يكن فيها إلاّ ليرة واحدة، وكان التامر قد فعل ما فعلت فلم يكن عنده أكثر مما عندي، فحرنا في الأمر، وكان لا بد لنا من الدخول على رياض الصلح فصعدنا إليه فاستطال سائق السيارة غيابنا فأطلق بوق سيارته إطلاقاً متتابعاً، فأدرك رياض الصلح الأمر فقال: السائق لم يأخذ أجرته؟ كم هي الأجرة؟ قلنا خمس ليرات. فإذا برياض الصلح نفسه لا يملك هذا المبلغ ففكر هنيهة ونادى خادمة المنزل وقال لها اذهبي إلى فلان ـ وكان من آل دوغان صاحب دكان قريبة من منزل رياض ـ واستديني لي منه خمس ليرات، فذهبت وعادت بالليرات الخمس.

وهكذا ونحن نحاول أن نلعب بمقدرات البلد، وأن نرشو بألوف الليرات الذهبية، كنا لا نملك خمس ليرات ورقية!

أما ما كان من أمر بهجت الميرزا فإنه عاد إلينا خائباً، ولم نسأل عن سبب خيبته، هل لأنهم منعوه من الانفراد ببهيج الفضل، أم لأن بهيجاً رفض العرض.

ولما تمَّ بعد ذلك انتخاب إميل إده كنت ورياض الصلح نخرج في صباح ثاني يوم الانتخاب من منزله فلما بلغنا المنعطف الموصل إلى محطة الناصرة، إذا بنا نرى أمين المقدم مقبلاً في اتجاهنا، فلما وصلنا قال لرياض إنه قادم لزيارته، وكنا غير بعيدين عن منزل رياض فعاد معه إلى المنزل، وتركتهما أنا وغبت أكثر من ساعة وعدت إلى منزل رياض فأخبرني بأن أمين المقدم جاءه معتذراً وإنه قال له: إنني حين كتبت اسم إميل إده وذهبت لأضع ورقتي في صندوق الاقتراع مررت بمقعد إميل إده وأريته الورقة وقلت له إني أنتخبك لأن رياض الصلح أمرني بذلك.

ولم يخب رياض الصلح في موقف كما خاب في هذا الموقف. فهو لم يكن يريد أن يتظاهر بمناصرة بشارة الخوري، ولكن خصوم بشارة عرفوا ذلك، كما أن أنصار بشارة اتهموه بأنه لم يكن مخلصاً في مناصرته لهم وأن أمين المقدم لا يمكن أن يخرج على إرادته.

وجاءت الحرب العالمية الثانية، وكانت هزيمة فرنسا وسيطرة الإنكليز وحلولهم محل الفرنسيين في سوريا ولبنان مع مشاركة لجماعة ديغول. وكان الإنكليز قد صمموا على إقامة (إسرائيل) على أن يرضوا السوريين واللبنانيين بإقامة حكم وطني فيهما، فآثروا التعاون مع بشارة الخوري في لبنان، ولو أن إميل إده هو الذي فشل في الوصول إلى رئاسة الجمهورية في عهد دي مارتيل لكان هو الذي يختاره الإنكليز، ولمثَّل الدور الذي مثَّله بعد ذلك بشارة الخوري. ولكن صحَّ في بشارة الخوري قول: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم».

والخلاصة أن بشارة الخوري وصل إلى رئاسة الجمهورية، وكان الحكم الاستقلالي ففهمه بشارة الخوري تسلطاً شخصياً ولم تعن له فكرة (الدولة) ببال، ولم يفكر لحظة واحدة في التخطيط لها، بل انصبَّ همّه على كسب الأعوان والأنصار الذين يستطيع بهم إطالة حكمه وتركيز تسلطه. وكان طريقه في ذلك ذي شعبتين: الأولى أن يضمن في المجلس النيابي مجموعة يستطيع بها أن يسيطر على المجلس. والثانية أن يضمن في الأوساط الشعبية مجموعة تدعمه عند الحاجة إلى الدعم الشعبي.

وفكر طويلاً في السير في الشعبة الأولى فهداه التفكير إلى أن اختار فريقاً من النواب الذين لا مطامح لهم إلاّ استغلال النفوذ، فاستصفاهم لنفسه وأطلق أيديهم في مناطقهم يفعلون ما يشاؤون، يقربون من يشاؤون وينبذون من يشاؤون، يعطون من يشاؤون ويمنعون من يشاؤون. لا سيما ثلاثة منهم كان أحمد الأسعد أحدهم.

أما السير في الشعبة الثانية فكانت إغداق الأموال على المحاسيب والأنصار وإباحة أموال الدولة لهم، وإليك مثالاً عما عرفناه مما كان يجري:

فقد حدّثني أحد كبار المقاولين الذين كانوا يتعهدون تنفيذ مشاريع الدولة الكبرى في شق الطرق، أنه أُعلن عن إجراء مناقصة لمشروع ضخم تقدر نفقاته بالملايين، فتقدم كعادته للاشتراك في المناقصة، فجاءه

بعض المنتمين إلى الحكم يطلب إليه بأن لا يشترك، فقال كيف لا أشترك وهذا عملي، فقال: إني أنصحك بأن لا تشترك، فقال: إني لا أقبل نصيحتك وسأشترك، فتركه ومضى.

وفي اليوم الثاني استدعاه وزير الأشغال العامة وكرر عليه النصيحة فأبى قبولها، فقال الوزير، وكان يومئذٍ أحمد الأسعد: إني أقول لك بصراحة تامة، إنك إذا أصررت على الاشتراك في هذه المناقصة، فستحرم منها حتماً، وستحرم في المستقبل من الاشتراك في أية مناقصة، وسنجد ألف وسيلة لحرمانك.

فتململ المقاول وتضجر واستنكر. فقال له الوزير: إفهم ما أقول لك، ولأني لا أريد لك أن تخسر المقاولات في المستقبل فإني أزيدك صراحة: إن لرأس كبير في الدولة رجلاً يريد أن يغدق عليه مبلغاً كبيراً من المال، وهذه أفضل طريقة لتحقيق ذلك، فيتقدم وحده للمناقصة بدون منافس، وبذلك يحصل على المال بأسلوب قانوني لا مؤاخذة فيه... أفهمت الآن؟ فقال: لقد فهمت... ثم انسحب من المناقصة، ورسا المشروع على المحظوظ وحده، وفاز بالملايين بأسهل طريقة!

أحمد الأسعد وعادل عسيران

قلنا إن بشارة الخوري اختار فريقاً من النواب لا سيما ثلاثة للسير في الشعبة الأولى من طريقه وأن أحد أولئك الثلاثة كان أحمد الأسعد.

وهنا لا بد من بعض الحديث عما كان من أمر هذا الشخص وأمر منافسه عادل عسيران، وعما عانى منهما جبل عامل، وما جنياه على هذه البقعة العزيزة.

ومن العجائب أن سلفي هذين الاثنين وهما كامل الأسعد عمّ أحمد الأسعد، وعبد الله عسيران والد عادل عسيران قد اتفقا على الشر فارتكبا مجتمعين جريمة من أقذر الجرائم هي وشايتهما أثناء الحرب العالمية الأولى بالزعيم العربي المناضل عبد الكريم الخليل عند جمال باشا وترتيبهما من يشهد عليه ويدينه، مما أدى إلى شنقه وشنق غيره من أحرار العرب مما ليس هنا مكان تفصيله.

ثم اختلف خلفاهما حين آل الأمر إليهما على اقتسام الغنائم والاستئثار بالأسلاب وتنابذا وتعاديا في ذلك، فشقي بهما جبل عامل وضاعت حقوقه واهتضم أهله وامتهنت كرامته على أيديهما.

لقد سلّط بشارة الخوري أحمد الأسعد على جبل عامل وحكّمه في البلاد والعباد ووضع كل قوى السلطة في خدمته للانتقام من كل من يقف في وجهه.

فكان من فظائع بشارة الخوري أنه سلّط على بقعة مليئة بذوي المروءة والنخوة والشهامة وكرم النفس، سلّط عليها من هو صفر من هذه الصفات:

لولا زمان خؤون في تصرفه ودولة ظلمت ما كنت إنسانا

ولم تكن أي معاملة تجري في دوائر الحكومة لأي إنسان إذا لم يأتِ بتوصية من أحمد الأسعد، فطغى هذا وبغى، وقد كان يمكن أن يستغل هذا الموقف لمصلحة البلاد وأهلها، ولكنه كان أتفه من أن يفكر في ذلك!

وبينما لم يستطع أحمد الأسعد في أول انتخابات حرة تجري في البلاد في ظل الحكم المزدوج إنكليزياً

وفرنسياً خلال الحرب العالمية الثانية، لم يستطع إلاّ أن يكون واحداً من قائمة تضم ستة نواب، ولكي يتضح لك الأمر يكفي أن تعلم أن القائمة كانت تضم كلاً من محمد الفضل وعلي العبد الله وعادل عسيران وكاظم الخليل ورشيد بيضون، وليس بين هؤلاء واحد يمكن أن يكون محسوباً على أحمد الأسعد، بل كان كل واحد منهم مستقلاً بنفسه عن الآخرين. بينما كان الأمر كذلك في أول انتخابات حرة، إذا بالأمر ينتهي بعد أن سلط بشارة الخوري أحمد الأسعد على البلاد والعباد أربع سنوات ينتهي إلى أن الذي جاء في الانتخابات الحرة منفرداً، يجيء في هذه الانتخابات على رأس قائمة من المطاويع ينجح كل أفرادها ويسقط خصومه كلهم!

وعندما سقط بشارة الخوري وجاء عدوه كميل شمعون، قرب إليه عادل عسيران منافس أحمد الأسعد، وسلّطه على البلاد والعباد تسليط بشارة الخوري لأحمد الأسعد، وإذ بأحمد الناجح على رأس قائمة في انتخابات بشارة الخوري، يسقط في انتخابات كميل شمعون، وينجح عادل عسيران.

وكما طغى أحمد الأسعد في عهد بشارة الخوري، طغى عادل عسيران في عهد كميل شمعون.

وضاعت البلاد ومصالحها وكرامتها وكرامة أبنائها بين الطاغيين.

وقد كان في جبلة عادل عسيران في الأصل جبروت وتكبر وعجرفة وغرور، ثم جاءه المنصب والمال فزاده ذلك على هذه الصفات استعلاء على الناس، لذلك تحاماه كل من يحس بكرامته وشخصيته، مثلما تحاموا منافسه أحمد الأسعد.

وقد اضطر أحد الكرام بعد أن أوقعه الزمن في متاعب لم يكن له قبل لها، لأن يلجأ إلى عادل عسيران مستنجداً به، وكان هذا الكريم شاعراً فعاد بخيبته من عجرفة عادل واستعلائه وجبروته، عاد ناظماً هذه الأبيات الثلاثة:

علقت آمالي على عادل ... فلم أجد عدلاً وإحسانا

أوقفني الدهر على بابه ... والدهر قد يوقف أحيانا

فرحت استعطف ذا غلظة ... وأسأل اليسر «عسيرانا»

وهذا هو شأن العامليين، يكون الشعر حاضراً عندهم في كل ما ينوبهم من أحداث.

ولم تكن هذه الأبيات الثلاثة هي كل ما قاله شعراء جبل عامل في عادل عسيران، فقد سبق له أيام كان مضطهداً من بشارة الخوري أن كان يصاحب الشاعرين موسى الزين شرارة وعبد الحسين عبد الله، فلما تولى كميل شمعون وزال عنه الاضطهاد وأصبح رئيساً للمجلس النيابي، صدف أن كان الشاعران يقفان معاً، فإذا بهما يريان سيارة عادل عسيران مقبلة باتجاههما، فكان من الطبيعي عندهما أن يحييهما متذكراً مواساتهما له في أيامه الماضية، ولكنه مرَّ دون أن يلتفت إليهما ودون أن يتنازل فيحييهما ولو من بعيد، فارتجل عبد الحسين بيتين نترك أولهما ونذكر الثاني:

لقد مر (الرئيس) ولم يسلم ... على موسى ولا العبد الفقير

وكما كان عادل عسيران موضوعاً للشعراء العامليين، كان كذلك أحمد الأسعد، ويؤسفني أن لا يحضرني الآن شيء مما قيل فيه[1].

ومما يختلف فيه أحمد الأسعد عن عادل عسيران أن أحمد الأسعد كان مقراً بقدر نفسه فلا يتفيهق ولا يتشدق بالوطنية، في حين أن عادل عسيران كان في أول المنتخبين لمرشح الصهاينة ومرشح رئيسهم (بيغن) لرئاسة الجمهورية اللبنانية (بشير الجميّل).

ثم لما جلا الإسرائيليون عن لبنان إذا بعادل عسيران منتخب مرشح الصهاينة لرئاسة الجمهورية إذا بعادل عسيران هذا، يعود متشدقاً متفيهقاً بالوطنية.

ندوات أدبية في شقرا

كانت قد أقيمت في بلدة شقرا حسينية كبيرة رحبة، فرأيت أن نتخذ منها قاعة محاضرات، فكنت بين الفينة والفنية أدعو أبناء القرى المجاورة إلى حضور محاضرة فيها تتعلق بتاريخ جبل عامل الأدبي والسياسي.

وفي إحدى المرات دعوت إلى مهرجان شعري عاملي احتفالاً بمرور ألف عام على ذكرى الشريف الرضي. فاحتشد لذلك مجموعة من شعراء جبل عامل الشبان، وتوسعنا في الدعوة لحضوره توسعاً كبيراً، وكان مأمولاً أن يكون من أعمر المهرجانات الشعرية العربية وأبعدها صدى.

وقبل اليوم الموعود لإقامة المهرجان بيوم واحد، وبينما كنت في الصباح في بيروت أعدّ حقيبتي للذهاب إلى شقرا للإشراف على إعداده، إذ بأنباء الصباح تذيع أن اجتياحاً إسرائيلياً للحدود قد بدأ، وأن الاجتياح قد تجاوز قرى الحدود موغلاً في أعماق الجبل، وكانت شقرا فيما شمله الاجتياح، وهكذا تعطل المهرجان، وكنت قد أعددت كلمة الافتتاح وأعقبتها بالقصيدة التالية:

شقراء ما برح الهوى غلابا ... شقراء ما زالت نواك عذابا
هذي التلال الخضر كم لذ الهوى ... فيها وكم عذب النضال وطابا
(والحومة) الخضراء والوادي وما ... ضمت خياماً في الذرا وقبابا
وظلال (شوّاثا) ومن ساروا بها ... (أسراب حسن تقتفي أسرابا)
شقراء إن تغب الجسوم فإنما ... شوق الأحبة في النوى ما غابا
يتلفتون لعل في أرج الصبا ... من واديك على الصباح ملابا
ولعل منك على البعاد تحية ... ولعل منك على الكتاب جوابا
شقراء ما زلنا بحبك فتية ... متوقدين حماسة وشبابا
إن شاب هذا الشعر هماً فالهوى ... غضّ وقلبي في المنى ما شابا

* * *

شقراء كرمت (الرضي) وطالما ... كانت رباعك للرضي مثابا
كم غرد الشادي به ولكم هفت ... في ناديك قلوبنا إعجابا

فهنا على الذروات رفّ قصيدة ... وهناك في الندوات شع كتابا
وهنا ترقرق بالهوى أغرودة ... وهنا تألق بالإباء شهابا
في الليل للسمار منه منادم ... يجلو الهموم ويطرد الأوصابا
ويعيد للقلب المشتّ يقينه ... ويرد للغاوي هدى ومتابا
هو في الهداية والتقى علم الذرا ... وهو المجيب إذا الصريخ أهابا
هو في القريض منارة الساري إذا ... عمّ الظلام وكل نور غابا
هو في الإباء إذا النفوس تخاذلت ... طود يطل إلى العلى وثّابا
شقراء كرّمت الرضي وطالما ... كان الرضي لكل فضل بابا
تلك الحجازيات والغرر التي ... كانت لكل متيّم محرابا
شقراء كم غردتها أنشودة ... وتلوتها في الناديين خطابا
ولكم بكيت لدمعه في كربلا ... يرثي الهدى والأهل والأصحابا
أهلاً بألوية القريض ومرحباً ... بالوافدين أحبة وصحابا

ندوات شعرية

وفي بيروت كنت أدعو بين الحين والحين إلى منزلي لتكريم بعض الشعراء العرب الوافدين إلى بيروت فيستجيب للدعوة شبان عامليون مع غيرهم من المدعوين، فيعود الأمر ندوة شعرية عربية قوامها الشعر العاملي. وفي الصورة بعض شهود إحدى الندوات.



ويبدو جلوساً: الشاعرة العراقية نازك الملائكة والشاعر المؤرخ الدكتور إبراهيم بيضون. ووقوفاً من يمين القارىء الكاتب يوسف أبو حلقة فالشاعر محمد يوسف مقلد فالشاعر الناثر جورج جرداق فالشاعر المهجري إلياس فرحات فالشاعر المهجري جورج صيدح فحسن الأمين فالشاعر إبراهيم بري

في المؤتمرات العلمية

دعيت للمشاركة والمحاضرة في بعض المؤتمرات العلمية منها:

١ ـ المؤتمر العلمي العالمي الذي دعت إليه جامعة خراسان في مدينة (مشهد) لمرور ألف سنة على ميلاد أبي جعفر الطوسي، وقد حضرته وفود من أنحاء العالم الإسلامي ومن المستشرقين وأساتذة الجامعات الغربية المهتمين بالدراسات الإسلامية.

لقد نجح المؤتمر كل النجاح، وكان موضع إعجاب جميع المنصفين، وكان للشيخ محمد واعظ زاده الخراساني أمين عام المؤتمر فضل كبير في هذا النجاح.

٢ ـ الملتقى التاريخي الذي دعت إليه وزارة الثقافة التونسية لدراسة التاريخ الفاطمي، وانعقد هذا اللقاء في مدينة (المهدية) العاصمة الفاطمية التي بناها الخليفة الفاطمي عبد الله المهدي، وسمي لقاء (القاضي النعمان) وهو عالم الدولة الفاطمية وقاضيها.

وقد حدث لي شيء طريف في وصولي إلى العاصمة تونس. فقد حددت للسفارة التونسية في بيروت يوم سفري بعد أن طلبوا مني ذلك ليخبروا به تونس، وليكون مندوب منهم في وداعي. وكنا في تلك الأيام نعيش الأحداث اللبنانية الأليمة ودوي الرصاص ينطلق من كل مكان، وفي فترة هدأ فيها الدوي وكان ذلك قبل الموعد المحدد لسفر الطائرة بساعتين، رأيت أن أبكر في الذهاب إلى المطار فذهبت وأنهيت معاملات السفر ثم مضيت إلى قاعة المسافرين. وبعد ذلك جاء مندوب السفارة فلم يجدني بين المسافرين المتهيئين لإنهاء معاملاتهم، فاعتقد أني عدلت عن السفر في هذا اليوم فرجع إلى السفارة دون أن يرسل (التلكس) إلى تونس منبئاً بموعد وصولي[٢]. ولما هبطت في مطار تونس لم أجد أحداً في انتظاري فتعجبت من ذلك ورأيت شرطياً فقصصت عليه الأمر فمضى بي إلى رئيسه في مخفر المطار الذي رحب بي واتصل بمحافظ المطار ـ كما يسمونه هناك ـ فدعاني إلى مكتبه ولا أدري مع من تهاتف، ثم قال لي بكل أدب: إنهم يسألون هل معك بطاقة الدعوة؟ فسألته: مع من تهاتفت؟ فقال مع رؤسائه. فقلت إن الأمر لا يتعلق برؤسائك، إنه يتعلق بوزارة الثقافة.

وكان قد مضى علينا أكثر من ساعتين في أخذ ورد، وكان المساء قد دنا، ولا أحد من وزارة الثقافة بمكتبه، ولا أدري بمن اتصل بعد ذلك، ثم قال لي: بعد قليل يكون هنا مندوب وزارة الثقافة وهم يأسفون جداً لما حصل، ثم وصل المندوب معتذراً متعجباً من عدم وصول الخبر إليهم، ثم مضى بي إلى الفندق، وقال إن مكان انعقاد الملتقى هو مدينة المهدية وستأتي في صباح الغد سيارة لتوصلني إلى المهدية.

وفي الصباح سافرت إلى (المهدية) وأنزلونا في فندق (المهدي).

ولقد شعرت في المهدية وفي فندق المهدي بانشراح نفساني كبير، وعدت إلى الماضي البعيد إلى العصور الأولى للدولة الفاطمية لا سيما عصر الخليفة العظيم المعز لدين الله وعصر شاعره المبدع محمد بن هاني الأندلسي.

هذه الدولة التي لم تلق دولة من ظلم الناس مثلما لقيت، ويكفي أن أعدى أعدائها هم الذين كتبوا تاريخها فسعوا إلى طمس فضائلها وتشويه محاسنها واختلاق المساوىء لها.

وكنت عندما أسير في شوارع المهدية، وأتذكر أن هذه الدروب كانت دروب المعز وهذه المسالك هي التي كان يسلكها، وأنه من هنا انطلق لتحقيق الوحدة العربية الكبرى التي حققها هو ومن تلاه، محاولاً أن يعيد بها وحدة العالم الإسلامي.

ثم أتذكر كيف أن الجيش الفاطمي قد استرد من البيزنطيين ما احتلوه في شمال بلاد الشام، ثم ردّهم في محاولاتهم المتكررة لاحتلال بلاد الشام كلها، ثم صدّهم مرتين عن محاولتهم الوصول إلى القدس.

وأتذكر الأسطول الفاطمي العظيم الذي أصبح سيد البحر المتوسط فهزم البيزنطيين في البحر كما هزمهم الجيش في البر.

وأتذكر قصائد ابن هاني في وصف المعارك البرية والبحرية وانتصاراتها العظيمة، لا سيما قصيدته في وصف الأسطول، وقصيدته في معركة (المجاز).

وأتذكر أن كل ذلك كان انطلاقه الأول من هنا، من المهدية، من بين هذه البيوت المتراصّة حولي، ومن على هذه الطرق الممتدة أمامي.

ثم أتذكر ذلك الوهج العلمي المتألق الذي شعّ على العالم الإسلامي من قاهرة المعز والذي عبّر عنه المؤرخ المصري الدكتور محمد كامل حسين بقوله في بعض ما قال: «فالقاهرة الفاطمية أصبحت مطمح أنظار العلماء، ومحط رحال الطلاب. وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر أن تنتزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية».

وأتذكر ما جناه الجانون على ذلك التاريخ بأحقادهم وعصبياتهم وافتراءاتهم، فيتجاذبني في المهدية عاملان: عامل الزهو بوقوفي على مرابع الفاطميين الأولى، وعامل الأسى على ما انصب على تاريخهم المجيد من ظلم وبغي.

وانعقد اللقاء في جلسته الأولى، وكانت السفارة التونسية قد سلّمتني قائمة بعناوين الموضوعات التي ترى وزارة الثقافة أن يبحثها المحاضرون، فاخترت منها هذا العنوان: «المهدية قاعدة حكم وعقيدة».

وجعل المشرفون على اللقاء محاضرتي المحاضرة الأولى حيث افتتحوا بها الملتقى، فتحدثت فيها بإيجاز لا يسمح الوقت بأكثر منه عن المهدية قاعدة الحكم والعقيدة-مدعماً أقوالي بما لا يُستطاع نقضه من الوثائق التاريخية الثابتة.

ولم تكن قاعة المحاضرات واسعة لأن الدعوة كانت مختصة بطبقة معينة من المثقفين لا سيما في التاريخ. وأشهد أن الحاضرين قابلوا المحاضرة بمنتهى التقدير وصفقوا لها طويلاً معترفين بحقائقها المجلوة أمامهم، وقد جرى بعدها نقاشات طويلة كانت تستزيد التفصيل في بعض ما أوجزت به فأزيد تفصيلاً وإيضاحاً.

وكان بين شهود الملتقى وزير الداخلية طاهر بلخجة لأنه من أهل المهدية، فدعانا إلى وليمة فخمة، وتنوع الحديث فقلت موجهاً الكلام إليه في الدرجة الأولى: إنه لشيء مسر أن تنتبه تونس إلى تاريخ الفاطميين فتحاول إنصافه ومن أولى منها بذلك، وعسى أن يكون هذا اللقاء الخطوة الأولى في سبيل الإنصاف.

فلم يعجبه هذا الكلام ورد عليه: بأن في الأمر سلبيات وإيجابيات. فلم أشأ أن أسأله عن هذه السلبيات لأني أعرفها حق المعرفة، وهي سلبيات لا يمكن تحويلها إلى إيجابيات بعد أن ترسخت في النفوس مهما كان لديك من حجج دامغة. وأدركت عقم البحث فسكت.

ودعانا والي المهدية إلى وليمة حضرها رئيس الجمهورية الحبيب بورقيبة، وكنت قد لقيته سنة ١٩٤٧ في بغداد في حفلة تكريم أقامتها له نقابة المحامين حين كان يطوف البلاد العربية في سبيل استقلال تونس، فتحادثنا هناك ملياً وقارنا بين الاستعمار الفرنسي في سوريا ولبنان وبينه في تونس، وقلت له يومذاك: أرجو أن نلتقي في تونس وقد نالت استقلالها. وكان الفرنسيون قد رفضوا إعطائي سمة دخول (فيزا) عندما طلبتها وأنا في باريس، فقلت له: سيأتي اليوم الذي أطلب فيه هذه السمة من السفارة التونسية وأدخل تونس.

ولم أشأ ونحن على المائدة وكنا نجلس متقابلين أن أذكره بهذا لأنه اليوم في عالم آخر لا يذكر فيه شيئاً من ذلك الماضي.

وتذكرت ما جرى للأديب العراقي مشكور الأسدي الذي كان في القاهرة طالباً في جامعتها عندما كان الحبيب بورقيبة لاجئاً إليها، شريداً معدماً يكاد لا يجد قوت يومه، وكيف أنهما تحابّا وتصافيا فكان الحبيب يلزمه ولا يفارقه لا سيما على وجبات الغداء التي لم تكن تتجاوز يومياً صحناً من الفول المدمس الذي كان الحبيب يرى حصوله عليه نعمة يتمنى دوامها.

وقد كان مشكور الأسدي مغتبطاً بما صار إليه رفيقه القديم من رئاسة ونعيم ونفوذ، وكان يمني النفس بأن يزور تونس يوماً ليرى رفيق البؤس في أسعد أيامه.

وجاءت الفرصة وذهب مشكور في مهمة صحفية فأعرض عنه الحبيب وتجاهله، لأن رؤيته له ومجالسته تذكره بالأيام السود وهو لا يريد أن يتذكرها.

٣ - مؤتمر أدباء العرب ومهرجان الشعر العربي الذين انعقدا معاً في بغداد، وقد دعيت إليه شاعراً لا ناثراً فألقيت فيه قصيدة باسم لبنان هي الآتية:

حب يظل على المدى متجددا ... وهوى يعود به الوفاء كما بدا
بغداد يا حلم النفوس إذا هفت ... شوقاً ويا لحن المحب إذا شدا
الوجد فيك كما عهدت ولم يزل ... شوق الأحبة ما عرفت توقدا
من رافديك كما تبسم دجلة ... عبر الضحى وكما الفرات تنهدا
بالحب بالعهد الوثيق وبالوفا ... صفنا القلوب مودة والأكبدا
كم كان طيفك للأحبة مسعفاً ... إن لج شوقهم وذكرك مسعدا

هذه العروبة في مواكب زحفها … هبت إليك تجمعاً وتحشدا
صوت من الأدب الرفيع يشدهم … ونداء صدق في حماك ترددا
صوت (الرضي) إذا ترنم بالهوى … وإذا استجاش إلى الوغى وإذا حدا
صوت تردده الشعاب وتنتخي … قمم الجبال تحفزاً وتوعدا
للثأر للمجد المهيض لساعة … في ضفة الأردن تنتظر العدا
يا هاتفاً في الواد عزّ مجيبه … ومنادياً في السفح طال به الندا
من ضفة الأردن يصرخ داعياً … ومن المهامه والذرا مستنجدا
من مطلع (النقب) العزيز مذلّلاً … بيد العدا ومن الحمى مستعبدا
من أربع هانت فلا متصبر … بعد الهوان بها ولا متجلدا
يا هاتفاً ما اليأس يخفت صوته … ومنادياً للثأر ما نادى سدى
لن يشرب النقب الرحيب ويرتوي … يوماً بغير دم اليهود مبددا
تلك الربوع المعرقات عروبة … تأبى لها النخوات أن تتهودا
هذا العراق وما رأيت كمجده … أبقى على مر الزمان وأخلدا
سل في البيان العبقري أمثله … من رتّل الآيات فيه وجوّدا
البصرة الفيحاء أبصر ثغرها … في ظلمة التاريخ يلمع فرقدا
وجرير يهتف بالغرام ويثني … صوت الفرزدق بالمفاخر منشدا
كانت على الأيام أسطع كوكب … علماً وأزهاه تقىً وتعبدا
إني لأسمع في الخيال هتافها … وأرى مواكبها تؤم المربدا
والكوفة الخضراء ألمح وجهها … عبر الزمان نضارة وتوردا
في كل زاوية تريك حضارة … وبكل ركن ثم تبصر معهدا
رعت البيان فضيلة ومحبة … وحوته حين حوته في الدنيا هدى
يا كوفة الجند استطالت عزة … وشأت طريفاً في الحياة ومتلدا
جددت سالفة المنابر شاعراً … فذّ القريض وناثراً متفرداً
من قبتيك ومن منارات العلى … شعت على الكون الهداية فاهتدى
حييت أرضك مهطعاً لجلالها … ولثمت تربك خاشعاً متعبدا
متخيلاً نور (الإمام)، ووجهه … جلّى بمشرقه الضلال وبدّدا
أعلى ميادين الكفاح بطولة … وأنار داجية الظلام تهجدا
أرنو إلى الأطلال علّ بها سناً … من نور غرته وعلّ بها صدى
إني لأستوحي الطلول فخارها … شرف الكتاب ومجده والسؤددا
والألمعيون استفاض حديثهم … بحراً تدفق بالمعارف مزبدا
متحلقين على الحقيقة ما رأوا … في دهرهم إلا الحقيقة مقصدا

ذكرى (عليّ) في رحابك غضة | وسبيل نهجك لا يزال موطّدا
لا تتركي القصد القديم فربما | كان القديم تقدماً وتجدداً

وفي هذا المهرجان لقيت الشاعر اليمني إبراهيم الحضراني فأنست به كل الأنس، وعرفت منه الكثير من شؤون اليمن، ومما عرفته شيوع قصيدة (الأزرية) هناك وأن الكثيرين يحفظونها عن ظهر قلب وقد أنشدني هو ما يحفظه منها.

كما أنشدني قصيدة تمثل حنين اليمنيين إلى النجف ومن في ثراه وأتذكر منها هذين البيتين:

آن أن تلثم الشفاه البقاعا | بعد أن شاقت القلوب سماعا
قد رضعنا هوى مغانيك | أطفالً وهمنا بها أيفاعا

٤ ـ المؤتمر الإسلامي العالمي الذي دعا إليه الداعي الفاطمي محمد برهان الدين إمام البهرة في بومباي بالهند.

والبهرة هم بقايا الحكم الفاطمي الذين انتقل معظمهم إلى الهند واستقروا فيها وصار اسمهم (البهرة) ورئيسهم سلطان البهرة. والسبب في تخليهم عن اسم (الإسماعيليين)، أن الذين انشقوا عن الفاطميين بقيادة الحسن الصباح، ثم خرجوا عن العقيدة بإلغائهم الواجبات الإسلامية وإدخالهم في عقيدتهم ما يتناقض مع الإسلام، والذين عرفوا في الماضي باسم (النزاريين)، ثم في هذه العصور باسم (الآغاخانيين) ـ إن هؤلاء قد انتحلوا اسم الإسماعيليين واشتهروا به وأصبحوا لا يعرفون إلاّ به، وهم على ما هم عليه من العقائد المتناقضة مع عقائد الفاطميين وإسلامهم ومذهبهم، لذلك رضي بقايا الحكم الفاطمي باسم (البهرة) ابتعاداً عن النسبة إلى من انتحلوا اسم الإسماعيليين.

والحقيقة أن هؤلاء الإسماعيليين (النزاريين) (الآغاخانيين) كانوا من أكبر العوامل التي استغلها المستغلون لتشويه عقيدة الفاطميين، إذ نسبوا إليهم عقائد النزاريين في حين أن النزاريين كانوا أعدى أعداء الفاطميين، وفي حين أن عقيدتهم ظهرت بعد زوال الفاطميين.

وكانت دعوة سلطان البهرة لعقد هذا المؤتمر الإسلامي الكبير محاولة لتبيان حقيقتهم، فحشدوا له من استطاعوا حشده من كبار رجال الفكر الإسلامي. وحسبك أنه كان من حاضريه شيخ الأزهر الحالي واثنان من شيوخه السابقين ومفتي الديار المصرية، مضافاً إلى المصريين الآخرين من أساتذة جامعيين ومثقفين ومقرئين، إلى غيرهم من أمثالهم من وفود البلاد الإسلامية والعربية.

ولكن الحقيقة أن كل ذلك لم يفد شيئاً، فالأموال الكثيرة التي أنفقت والجهود الكبيرة التي بُذلت لم تغير من التهجم على كل ما يمت إلى التشيع بصلة، فقد كنت أسمع بأذني ما كان يتناول به بعض الضيوف العرب لا سيما من أبناء الخليج مضيفيهم من الطعن والتجريح وسيىء القول. وصدف أن واحداً من هؤلاء الضيوف شاقه أن يحضر صلاة الجماعة في مسجد البهرة مؤتماً بسلطان البهرة نفسه فرأى من صلاتهم وخشوعهم وتسبيحهم ما أعاده إلى فطرته السليمة فعبر

عن ذلك في كلمة ألقاها في أحد الاجتماعات قائلاً فيها ما معناه: إنه تخيل نفسه يصلي مؤتماً بكبير من كبراء أئمة المسلمين السالفين.

وبعد انتهاء الاجتماع والعودة إلى الفندق لقي من تأنيب الآخرين وتقريعهم له على هذا الكلام ما كنت أسمعه بأذني، ولم يفد دفاعه عن نفسه بأنه كان أمام مشهد إسلامي رائع يجلو حقيقة البهرة الفاطميين، لا ما يتقوله عليهم المتقولون وأنه رأى من واجبه أن يعلن الحقيقة كما هي بعد أن رآها بنفسه. وكان الرد عليه بأن مجرد حضوره إلى مسجدهم وصلاته معهم هو شيء لا يغتفر، فكيف بثنائه عليهم.

وقد برهن البهرة في هذا المؤتمر عن كفاءة في التنظيم وعن تعاون وتعاضد عظيمين وعن كرم في الإنفاق والبذل فنفقات المؤتمر كانت باهظة لا تقوم بمثلها إلاّ الدول.

وكانت مناظرهم داخل الفندق شيباً وشباناً ذاهبين آيبين مشرفين على الصغيرة والكبيرة، واضعين أنفسهم في تلبية طلبات الضيوف، كانت مناظرهم تدعو إلى احترامهم وحبهم.

٥ ـ الموسم الثقافي الذي كانت تدعو إليه سنوياً وزارة الإعلام والثقافة في دولة الإمارات العربية المتحدة، وكان يدعى إليه كل عام واحد ممن تختارهم تلك الوزارة ليحاضر في العاصمة (أبو ظبي) وفي الجامعة بمدينة (العين)، وكنت ممن دعوا فألقيت هناك محاضرتين تاريخيتين.

٦ ـ مؤتمر نهج البلاغة الذي انعقد في طهران. ومن حسن المصادفات إنني التقيت فيه كلاً من الشيخ محمد نجف والشيف مهدي الأنصاري والشيخ محمد رضا الأنصاري. والأول منهما من أحفاد الشيخ محمد طه نجف أحد كبار أعلام النجف في عصره ومن أساتذة والدي عندما كان طالباً في النجف، وقد كان والدي يردد ذكره دائماً في مجالسه مثنياً عليه كل الثناء، ذاكراً تتلمذه عليه بكل خير. ولقد سررت بلقاء حفيد أستاذ والدي لا سيما وهو على صفات تليق بمن ينتسب إلى ذاك الجد الكريم وكذلك كان سروري بلقاء الأنصاريين بعد أن عرفت أنهما من سلالات الأشعريين الذين عمرت بهم (قم) علماً وإيماناً وكفاحاً، وكان هذان الأشعريان الأخوان صورة عما حدثنا عنه التاريخ عن أسلافهما من العلم والإيمان والشهامة والإخلاص وحسن الخلق.

٧ ـ مؤتمر قداسة الحرم وأمنه المنعقد في طهران. وقد حضرته وفود من جميع أنحاء العالم الإسلامي ما عدا بعض البلاد العربية، وقد تجلّت فيه الرابطة الإسلامية العميقة التي تشد المسلمين بعضهم إلى بعض بجميع ألوانهم ولغاتهم، فكانوا في هذا المؤتمر يبدون أمة واحدة تجمعها عاطفة واحدة وآمال واحدة.

وكان من أبرز مظاهره سيادة اللغة العربية بين وفود أفريقيا السوداء، فرأينا وفد نيجيريا مثلاً يلتقي وفد السنغال فتكون كلمة: «السلام عليكم» فاتحة اللقاء، ثم يتحاوران بلغة القرآن.

٨ ـ مؤتمر الشهيد السيد حسن المدرس الذي انعقد في طهران بمناسبة مرور خمسين عاماً على استشهاده.

٩ ـ مؤتمر الفكر الإسلامي السادس المنعقد في طهران، وكان موضوع بحوثه: «حقوق الإنسان في

الإسلام» وغير ذلك من المؤتمرات لاسيما في إيران ومنها مؤتمر الشيخ المفيد ومؤتمر جمال الدين الحسيني المعروف بالأفغاني...

مع الناشرين

باشرت طبع ونشر مخطوطات «أعيان الشيعة» بما تجمع لديَّ من مال قليل، واستمررت هكذا مواصلاً النشر في فترات قد تتقارب وقد تتباعد بحسب ما يتيسر من المال.

وكان لا بد لي في هذه الحال من التعامل مع أصحاب المكتبات ودور النشر سواء منهم من كان في لبنان أو العراق أو إيران أو مصر. وقد تكشفت لي في التعامل مع هؤلاء أعجب الأعاجيب من استحلالهم أكل المال الحرام، فالواحد منهم لا يحجم عن ذلك ما استطاع إليه سبيلاً.

وعلى العكس منهم أصحاب هذه المهنة من الغربيين، فقد تلقيت يوماً طلباً من مكتبة في مدينة (وسبادن) في ألمانيا تطلب فيه إرسال عدة مجموعات من الكتب، فأعرضت عن إجابة الطلب بعد تجاربي مع من طلبوا أمثال هذا الطلب في لبنان والعراق وإيران، فإنهم بعد أن يصلهم ما يطلبون يمتنعون عن إرسال الثمن، مطمئنين إلى أن من يطالبهم بعيد عنهم لا يصل إليهم.

وبعد مضي فترة حدثت صديقاً لي ذي تجارب في هذا الموضوع، فحثني على إرسال ما تطلبه مكتبة (وسبادن)، لأنها بمجرد أن تستلم الكتب المطلوبة سترسل الثمن في الحال، وهكذا كان، وتكررت طلباتها وتكررت إجابة هذه الطلبات.

ثم وقع لي حادث غريب إذ إنني تلقيت طلباً من مكتبة جامعة برنستن في أميركا فأرسلت لها ما طلبت فأرسلت لي الثمن، ثم عاودت الطلب فأرسلت لها أيضاً ما طلبت، وكان ثمن ما طلبته في المرة الثانية أكثر من ضعف ثمن ما طلبته في المرة الأولى. وكانت الطلبات تأتي موقعة من (رودلف ماخ) ومكتوبة بلغة عربية سليمة. وانتظرت وصول الثمن فلم يصل، فأرسلت رسالة تذكير، فلم أتلق أي جواب وتكرر التذكير وتكرر الامتناع عن الإجابة.

وحدثت صديقاً لي أقام فترة في أميركا بهذا الأمر، فقال لي: إن رودلف ماخ هذا هو يهودي، فعند ذلك زال العجب.

وأستطيع أن أقرن هذا اليهودي الأميركي بمن يتظاهرون بالورع ويتسمّون بالأسماء الدينية من الناشرين بائعي الكتب ومشتريها متخذين من تلك الأسماء وسيلتهم لخداع الناس بمظاهرهم وأسمائهم. فمن سموا مؤسستهم (الدار الإسلامية) في بيروت، وزيد فرحات الذي أطلق لحيته وضخّم عمامته ومن تسمى باسم سيف الله في قم وأشباههم هم قرناء (رودلف ماخ) اليهودي الأميركي، وقس على ذلك.

الهوامش:

(١) مما يذكر لراشد عسيران شقيق عبد الله عسيران وعم عادل أنه وقف موقفاً نبيلاً كله رجولة وشهامة حين أرادته السلطات التركية أن يشهد على عبد الكريم الخليل ورضا الصلح أمام المجلس العرفي في عاليه، فقد أبى أن يتهمهما ونفى ما نسب إليهما وأصرَّ على براءتهما. وقد كان اعتماد السلطات في تسميته للشهادة أنه شقيق عبد الله الذي وشى بعبد الكريم الخليل ورضا الصلح، وعلى أن عداء شديداً كان قائماً في صيدا بين آل الصلح وآل عسيران. ولكن راشد عسيران أبى إلاّ أن يكون رجل المروءة والنبل فتمرد على السلطات ووقف إلى جانب الأحرار.

وكم لهذا الرجل الذي عاش في الظل من مكرمات.

(٢) عرفت ذلك بعد رجوعي إلى بيروت.

الفصل الحادي عشر

قصائد منوعة(١)

أشواق

يا ويح قلبي كم يلقى وكم يجد   وكم تكابد هماً هذه الكبد
لمن أرتِّل أشعاري وأنظمها   ومن يقرض أبياتي وينتقد
كتمت حبك في صدري فضاق به   صدر بجمر نواك اليوم يتقد
إن تغف عينك عن همي فإن لها   عيناً يطول عليها بعدك السهد
الدار بعدك لا تحلو مطالعها   ولا يطيب لعيني في الهوى البلد
والكون بعدك لا حسن ولا أرج   للمستهام ولا نعمى ولا رغد
يا سرحة الحب لا ماء الصبا غدق   بعد الرحيل ولا طير الهوى غرد
هذه الحياة فلا ظل ألوذ به   على الهجير ولا ريا فابترد
أين المرابع بالسمار حافلة   وأين أحبابنا من بعدنا قصدوا
هل شاقهم بعدنا للحب شائقة   يوماً وهل وجدوا بعض الذي نجد
وددت لو طالعت عيناي مطلعهم   وشاهدت في الربى الروض الذي شهدوا
وإنني في الجبال الشم أرقبهم   وإنني أرد الماء الذي وردوا
هيهات يعذب عيشي بعد بينهم   أو أستطيب غراماً بعدما بعدوا
أين (الرويس) وروضات الحمى أنفاً   والذروتان وصداح الربى الغرد
وثغر (ظمياء) خلف الروض مبتسم   وشعرها الجعد حول الوجه منعقد
ووجنتاها وقد مال الدلال بها   كالجمرتين بنار الحسن تتقد
يا شط دجلة والذكرى تؤرقنا   قد طال فيك على أشواقنا الأمد
هل في ظلالك للأشجان مطرح   أم في ضفافك للحران مبترد

ضاقت عليَّ سهول الرافدين جوى ... بعد الأحبة والآكام والنجد
واستوحش الشط لا تروي مناهله ... قلباً يلوب ونفساً كاللظى تقد
يا من حفظنا على بعد عهودهم ... لا ينسينَّكم أيامنا البعد
القلب في الحب لا يهفو لغيركم ... ولا يثير سواكم شوقه أحد

بعقوبة

«هي مدينة عراقية تقع على نهر ديالى ويخترقها فرع منه يسمى نهر خريسان (تصغير خرسان)».

هيا بعقوبة الزهر ... ويا ريحانة الدهر
أحب جمالك الشعري ... وأعشق جوك العطري
أفيضي الحسن ريانا ... ومدّي الظل فينانا
فقد ترويـن ظمآنا ... يعاني غلة العمر
ديالى نهرك العذب ... عليه رفرف الحب
وطاب الزهر والعشب ... على حافاته الخضر
أزاهير وأثمار ... وروضات وأنهار
وفي الضفات سمّار ... تناجي مطلع البدر
على روضاتك الفيح ... نضت أشجانها روحي
وفي الأجراف والسوح ... عرفت مطالع البشر
أحب ربيعك الضافي ... ومورد مائك الصافي
ألا يا ليت ألافي ... معي في ضفة النهر
أيا مجلى الأزاهير ... ويا مغدى الشحارير
ويا مثوى المغاوير ... عليك تحية الشعر

ذكريات شعرية

ومن ذكريات بغداد هذه الذكرى الشعرية في ساعة من ساعات الأصيل على ضفاف دجلة في الكرادة الشرقية(٢):

كرادة الشرق البهيج تألقي
حول الضفاف الزاهرات وأشرقي
هيجت أشجان الفؤاد الشيق
لما طلعت بكل حسن مونق
يا ليت أحبابي بسفحي جلق
يدرون ما يلقى المحب وما لقي



كم يستطاب على شواطيك السمر
وتلذ لي فيك الأصائل والبكر
كم يستثير كوامني ضوء القمر
ويهيج تحناني الظلام المعتكر
ما أجمل الصفصاف والنخل النضر
متدلياً بالزهر يعبق والثمر



حول الضفاف أزاهر تتفتق
ومفاتن تجلى وحسن يشرق
وعلى العباب مراكب تتألق
ومواكب تشدو هوى وتصفق
يا نهر: كم يحلو عليك الزورق
مترنحاً بيد النسائم يخفق



النهر منضور الضفاف مُنَوّر
تزهو عليه الباسقات وتثمر
والليل معطار النسائم مقمر
يلهو الجمال بضفتيه ويسمر
سمراء رنحها الدلال وأسمر
يلويهما كالغصن حب مسكر



ما أروع الشط المرقرق ساجيا
طوراً وطوراً بالأواذي طاغيا
كم كان في الهم الطويل عزائيا
ولكم لمست بضفتيه شفائيا
ما أعذب الملاح يغدو شاديا
ويروح في الليل البهيم مناجيا



ملاح: يا حلو الشمائل أنشدِ
ما شئت من لحن الغرام ورددِ
يهتاجني في الليل زورقك الندي
ويبل شدوك غلة القلب الصدي

أنا سامع بفؤاديَ المتوجد
فاهتف بلحنك في الضفاف وغردِ

●

أنا في الضفاف على شجوني مفرد
لا طلعة تحنو عليَّ ولا يد
الأمس أضواني فهل يضوي الغد
أفكلما خلق الأسى يتجدد
يا ليل هل يدري هناك الهُجّد
إني بوادي الرافدين مسهّد

على عباب البحر الأبيض المتوسط

ذكرتكم والهم في الليل مركب ونفسي على جمر الأسى تتقلب
ومن دوننا بحر إذا ثار موجه تخال الجبال الراسيات توثب
أأحبابنا نمشي على الهم بعدكم ونألف أشجان الحياة ونصحب
وعهدكم ما لان في البعد عهدنا بلى إنه في البعد أمضى وأصلب
تطالعنا الذكرى على كل وجهة فندنو وإن شط المزار ونقرب
رمتنا على هوج البحار مقادر تصعّد ما شاءت بنا وتصوّب
إذا ما ظلام الليل أرخى سدوله علينا وعم الكون في البحر غيهب
وزمجرت الأمواج غضبى ثوائراً وماجت أواذي تضج وتصخب
وأقفرت الدنيا فلا السفح ناضر ولا النهر رقراق ولا الروض معشب
ورحنا على الأمواج نطفو وتارة نخال بأنا للحضيض سنرسب
ذكرتكم في وحشتي وتلفتت لأرضكم عيناي تشكو وتعتب
أأحبابنا النائين لا كانت النوى ولا كان يوم عنكم نتغرب
ذكرتكم والبحر بيني وبينكم فكدت لذكراكم من الوجد أنحب
طلعنا بآثينا على الصبح نجتلي محاسن ما أبقى الزمان المخرب
فلاحت على (الأكربل)[٣] منها مشاهد يحار لها فكر اللبيب ويعجب
وذكرني الشام الحبيبة موقف على قمة «الأكربل» عال وملعب
فحن فؤادي المستهام وهزني إلى أرض أحبابي خيال محبب
وعدنا إلى اللجات نسبح فوقها حيارى بقفز ما لنا فيه مهرب
إذ ما مضى الصعب الممض رأيتنا نحاذر أن يأتي على الأثر أصعب
إذا ما تلفتنا على اليم لم نجد سوى لجج يعيا بهن المجرب
فآناً تضيق النفس فيها وتارة ألذ من الحلم النضير وأرحب

وطوراً تراها العين أشأم منظر | وطوراً تروق الناظرين وتعجب
ومالت إلى الغرب الغزالة ترتمي | على شفق كالنار أو هو أعجب
وسارت فبخرّ باللجين مفضض | يشع وأفق بالنضار مذهب
وذابت على الأمواج فالماء جمرة | شرارتها نجم يندّ وكوكب
ذبيحة حد السيف فالكون واجم | لمأتمها والأفق منها مخضب
وصرنا على بحرين ماء وظلمة | يسير بنا فلكان وجد ومركب
توالى علينا الهم لا الماء ينقضي | ولا الصبر يأتينا ولا الليل يذهب
إذا ما انتهى يوم علينا تعاقبت | ليال وأيام تمضّ وتكرب
ومرت على الليل البهيم «صقلية» | كما مرّ بالإشراق والزهو موكب
تفيض على الشطين نوراً وبهجة | فتزهر ضفات وتلمع أهضب
فيا لك مرأى في «مسينا»[٤] كأنه | على ظلمات البحر أهل ومرحب
تبسم ثغر الليل فيه وطالما | توالى على الإدلاج وهو مقطب
وطالعنا الصبح الأغر بجذوة | على فوهة البركان[٥] تلظى وتلهب
تسيل كما سالت من العين عبرة | يؤججها بالوجد قلب معذب
ثلاثة أيام تمر ولا نرى | سوى الماء يعوي في البحار وينعب
فأين الجبال الشم نأوي لظلها | وأين الفرات العذب نسقي ونشرب
وأين سهول الغوطتين نضيرة | وأين على بغداد صبح ومغرب
رباع على قلبي ألذّ من الهوى | وأشهى من النعمى وأندى وأطيب
ألا أيها البحر المديد تحية | يشيد بها قلبي وفاء ويطنب
صحبناك لا قالين عهداً تصرمت | عليك لياليه يلذ ويعذب
أننسى على الأمواج صبحاً كأنه | وجوه الحسان البيض بل هو أعذب
وعصراً جلاه للنواظر مبدع | أظل له أني تلفتّ أعجب
وأنسام ليل حين تسري ندية | نهيم لمسراها وننشى ونطرب
ألا أيها البحر المديد أذاكر | صحاباً تغنوا بالجمال وأعجبوا
تلاقوا كما مرت رؤى فمشرّق | طوته الليالي هائماً ومغرّب
صحبناك حراً لا يهون ولا يني | على غمزات الدهر والحر يصحب

على السين

فؤادي لن تراعى ولن تلوبا | فقد همّ المسافر أن يؤوبا
غداً يا قلب نقطعها جبالاً | منضرة ونطويها سهوبا
غداً نلقى الربوع غداً نراها | ونبصر ثمة الوجه الحبيبا

ألا تـلـهـيـك يـا قـلـبـي الـلـيـالـي ... تـفـيـض بـشـاشـة ورؤى وطـيـبـا
تـطـلـع هـل تـرى إلاّ ضـحـوكـاً ... وإلاّ لاهـيـاً فـيـهـا طـروبـا
نـزلـت (الـسـين) لا يـروي غـرامـاً ... وجـئـت (الألـب) لا يـهـدي نـسـيـبـا
تحـن إلـى الـربـوع ورب صـحـب ... تـنـاسـوا أو نـسـوا الـعـهـد الـقـريـبـا
تحـن إلـيـهـم فـي «الـسـين» نـضـواً ... وتـذكـرهـم بـبـاريـس كـئـيـبـاً

ليلة سهاد

طال السرى وبشير الفجر ما بانا ... يا ويح طرفي يقضّي الليل يقظانا
يـهـفـو إلـى نـخـلات الـشـط نـاضـرة ... ويشتهي الرند والصفصاف والبانا
إذا اسـتـقـرت عـيـون الـنـاس روّعـه ... في الليل أن حبيب النفس قد بانا
يـا سـاهـريـن لـيـاليـكـم عـلـى دعـة ... ما زلت بعدكم بالهم سهرانا
أرنـو لأرضـكـم والـبـعـد دونـكـم ... فـأسـتـحـيـل تـباريـحـاً وأشـجـانـا

إلى جدث والدي

مـشـوق عـلـى (بـاريـس) روعـه الـبـعـد ... وأورث حـنـايـاه الـكـآبـة والـوجـد
إذا ضـحـك الـسـمـار هـاجـت شـجـونـه ... وإن شـدت الأوتـار يـبـكـيـه مـا يـشـدو
يحـن إلـى الأحـبـاب شـطـت ديـارهـم ... ويـهـفـو إلـى الأوطـان غـيـبـهـا الـبـعـد
تـثـيـر مـآسـيـه عـلـى الـشـام تـربـة ... ويـشـجـيـه مـا يـشـجـيـه فـي جـلـق لحد
فـيـا نـائـيـاً لم يـنـسـنـي الـنـأي طـلـعـة ... تفيض بها النعمى ويزكو بها السعد
ويـا غـائـبـاً مـا غـبـت عـنـي سـاعـة ... ولا انطوت الذكرى ولا انصرم العهد
حـرام عـلـى قـلـبـي الـسـرور وإنمـا ... يـطـيـب لـه مـن بـعـدك الـهـم والـسـهـد
ويـا جـدثـاً فـي الـشـام أنـت لـي الـهـوى ... وأنـت لـي الـنـجـوى وأنـت لـي الـقـصـد

هواجس پارانا Parana

«پارانا» نهر جميل يخترق مدينة الروساريو الأرجنتينية فتتمثل فيه أروع مناظر الطبيعة». وقد وقفت عليه ساعات، وكنت قادماً إلى الأرجنتين من بغداد:

يـا قـلـب روعـك الـنـوى مـا روعـا ... تـغـفـو عـلـى سـفـر وتـصـحـو مـزمـعـا
فـي كـل يـوم فـرقـة لـو أنـهـا ... مرت على قلب الصفا لتصدعا
طـال الـنـوى يـا ويـح أيـام الـنـوى ... مـا كـان أقـسـاهـا عـلـيّ وأوجـعـا
كـم لُـذت بـالـبـدر المـنـيـر أبـثـه ... شـكـوى الـنـوى لـو أنـه يـومـاً وعـى
ولكم أطفت على الضفاف مناجياً ... ولـكـم لجأت إلـى الـصـبـا مـتـضـرعـا
وتـفـجـر الـقـلـب الجـلـيـد تـشـوقـاً ... واسـتـسـلـم الـعـزم الأبـي تـوجـعـا

والليل كم عرّيت فيه عواطفاً ... موجتها لولا التجلد أدمعا
حييت «پارانا» المرقرق والدجى ... بغلائل القمر المنير تبرقعا
وسلاسل الأنوار مرت مثلما ... مر الخيال الحلو ليلاً مسرعا
والساهرون مضوا على غلوائهم ... يتمايلون على الشواطىء رتّعا
والساهرات كأنهن كواكب ... منثورة أو كنّ منها أسطعا
أشواطىء «الپاران» ما أزكى الربى ... وشّى الربيع صدورهن فأبدعا
تلك الخمائل قد ذكرت بحسنها ... حسناً بدجلة كان أزهى مطلعا
إن رفت الأشجار حولك غضّة ... وترقرق النهر الخصيب وأمرعا
وطلعت بالحسن المدل كأنما ... شطاك بالغيد النواهد رصعا
فلقد أثرت بي الحنين وطالما ... حنَّ الفؤاد لدجلة وتطلعا
أنا إن هفوت إلى رمالك ساعة ... وشممت عرف نسيمك المتضوعا
لم أنس دجلة والهوى ولياليا ... كانت ألذ من النعيم وأمتعا
ذاك النخيل على الضفاف كأنه ... سرب الحسان على الضفاف تجمعا
أطلقن للنسمات خضر ذوائب ... وأبحن للأطيار ثغراً أمنعا
حييت «پارانا» تحية شاعر ... يهوى الجمال ويستجيب إذا دعا
النهر والروض النضير سميره ... والطير بالشجو المثير مرجّعا
والسحر في نجل العيون وفي اللمى ... والطهر في الخد الأسيل مشعشعا
أشواطىء «الپاران» حسبك في الهوى ... أن قد شربت هواك جاماً مترعا
كم قد لويت عن الغرام أعنتي ... وثنيت طرفي عن رؤاه ترفعا
يا غادة «الپاران» أذكيت الهوى ... لولاك هذا القلب ظل ممنعا
أسلمت للعينين صعب مقادتي ... ومشيت للخدين أسعى طيعا
إن ضاق فهمي عن لغاك فإنما ... قلبي يعي ما كان قلبك قد وعى
أشجى الأغاني ما يردد حبنا ... أشهى الأماني ما نعيش لها معا
قلب پارانا وشاطىء دجلة ... ما زال بالحب العنيف موزعا

إلى نيليدا شرارة

هي شاعرة أرجنتينية من أصل عربي من جبل عامل، عايشت قضية العرب (فلسطين) وتحمست لهم في صراعهم مع الصهيونية وتغنت ببطولتهم وأمجادهم حتى كانت الكارثة العام ١٩٤٨ وضاعت فلسطين فانقلبت يائسة منهم ناقمة عليهم. ولما التقيتها في مدينة (الروساريو)، كانت تشكو مرّ الشكوى وتوجهت إليَّ بعدة قصائد إسبانية ترجمت لي إلى اللغة العربية، فتوجهت للشاعرة بهذه القصيدة:

غنيتِ بالشعر آفاق الهوى طرباً ... وللكرامة هجتِ الشرق والعربا

قمرية الدوح أنت اليوم شادية
أم أنت لبوة غاب تنتخي غضبا

لا يوهننك ما أودى بموطننا
فيوم ثارتنا الحمراء قد قربا

هذي فلسطين إن نامت فوارسها
وكوكب العز فيها بالهوان خبا

فلا وعمرك لم تخمد عزائمنا
ولا نزلنا على حكم العدا رهبا

هيهات نهجع عن (حيفا) مصفدة
أو أن ننام عن (اللطرون) مغتصبا

غدا نطالع بالرايات قانية
(عكا) ونفتح (باب الواد) و(النقبا)

أما وحقك إنا لم نزل عرباً
ملء الأكف ندى ملء النفوس إبا

هبّت عليَّ من (الروسار) نافحة
كانت ألذ من الأحلام عرف صبا

وهيمنت في حنايا النفس خافقة
تذكي الفؤاد وتوحي الشعر والأدبا

وطالعتني في الأسحار هازجة
فكدت ألمس من زهوي بها الشهبا

(نيليد) فيك من الأعراب واشجة
أكرم بها حسباً أعظم بها نسبا

كم قد وفيت لها أسمى الوفاء فما
هانت لديك ولا أنكرتها سببا

أذكيت شعرك بالآمال واثبة
حتى قرأنا على أبياتك اللهبا

وصحت بالعرب والآفاق داجية
صوتاً ينير لنا الأجيال والحقبا

أثنيت بالنثر والأشعار معجبة
وكنت أنت بنا الإكبار والعجبا

الموعِد (القدس) يا (نيليد) ثائرة
(واللد) مضطرماً (والواد) مضطربا

فنضدي الزهر للأبطال ظافرة
ونظمي الشعر بشراً وانثري الخطبا

وحدة في جزيرة برمودا

وحدي أقلب ناظري هنا
وأسائل المجهول أين أنا

الحلم مرَّ فليت لي جفناً
من بعده يستعذب الوسنا

والأغنيات هوت وما اكتملت
ألحانهن ولا انتظمن غنا

يا طلعة كانت لنا أملاً
غضاً وكانت في النوى وطنا

مدت إليَّ يداً تطوقني
والكون بالأحلام طوقنا

والخد رفّ فما تشاء شذا
والثغر شعّ فما تشاء سنا

المهرجان وأين سورته
مرّت وأين مضت رؤاه بنا

عيناك حالمتان تسعره
وجداً وتنديه هوى وهنا

ويفيض صدرك بالحنان فما
أشكو الجوى إلاّ هفا ودنا

المهرجان مضى فليت لنا
من بعده أملاً وليت لنا

وحدي أقلب ناظري هنا
وأسائل المجهول أين أنا

وحدي أغالب لوعة غلبت
وحدي أصارع بالأسى الزمنا

يا ليت أحبابي وقد بعدوا — يدرون ما يلقى الحبيب هنا
سكنت حواشي الليل غير أسى — في صدري الحران ما سكنا
أرنو لعل على الدجى حلماً — قلب الحبيب له هناك رنا
هذا الجمال ولست أنكره — ما كان قلبي فيه مفتتنا
أجد الربى والبحر منفرداً — والغيد والأمواج والسفنا
قفراً يضج بخاطري شجناً — صحراء تزخر لوعة وضنا

رعشات

أطل الصباح ولم ترجعي — وأظلم ليلي ولم تطلعي
تكاد إذا هاجت الذكريات — تفجر من لوعة أدمعي
رويت فؤادي هوى عارما — أظل الحياة به حالما
فأنّى رنوت وأنّى مشيت — أرى وجهك المشرق الباسما
إلى المهرجان مشينا معا — نخال النجوم لنا مهيعا
ونحسبنا حلماً شارداً — ولحناً بثغر الهوى ممتعا
خبا النور وانتشر السامر — وغاب الندي فلا حاضر
ولا خدك الحلو يحنو عليّ — ولا نهدك القلق الثائر
رأيتك فاهتز قلبي جوى — ومرّ بنفسي خيال النوى
سأرحل عنك بعيداً فمن — يهدهد بعدك هذا الهوى
جفونك نديانة بالدموع — وفي شفتيك النداء الصريع
وقلبك يصرخ هل من رجوع — ويعلم قلبك أن لا رجوع
يداك تلوح خلف القطار — وعيناك تشخص عبر القفار
وصوتك أخفاه عني المدى — ولم يبق منك سوى الأدّكار
مضيت على لوعتي مطرقا — أرى أن ليل الأسى أطبقا
وأن العهود العذاب انقضت — ولم يبق من أمل في اللقا
سأنأى إلى عالم مبهم — ودهر كليل الأسى مظلم
وحسبي حين تضج الهموم — وتطغى الفواجع أن تبسمي
سأنأى وحبك يهدي خطاي — وطيفك في البعد يذكي هواي
سأسأل عنك الدجى والصبا — ليشرق ليلي وتزكو صباي
سأنأى ولم ترو منك العيون — ولا بحت يوماً بحبي الكمين
سأنأى ويبقى الهوى نغمة — على الثغر أو حلماً في الجفون
أيمضي الزمان ولا نلتقي — ويظمى هوانا ولا نستقي
وتبقين في الغرب هيمانة — وأمشي بشوقي إلى المشرق

سأوهي بحبك عزم السنين ... نجيّ الهيام أليف الحنين
ترفين في خطرات الخيال ... فأهتف باسمك هل تسمعين؟؟
سأرنو إليك وراء الغيوب ... سأسأل عنك الضحى والغروب
سأسأل عنك الربى والشذا ... سأسأل عنك الصوى والدروب
سأسأل أين مضت ساده ... وأين استقلت بها الهاجره
سهرت على حبّها ذاكراً ... كما سهرت ليلها ذاكره
سأحيا بحبك غض الجنان ... رحيب الحياة نضير البيان
سيبقى غرامك في الخالدين ... ويفنى الزمان وأهل الزمان
سأرنو لعل سناك يبين ... وأعلم أن السنا لا يبين
سأهتف باسمك أن ترجعي ... وأعلم أنك لا ترجعين

الصحارى

إني لتصبيني الصحارى سمحة ... وتروقني فيها الظبى والأينق
ويهيج وجدي الليل في تلعاتها ... ويهزني فيها الصباح المشرق
وتثيرني والنخل أتلع جيده ... عصفورة فوق النخيل تزقزق
ومواكب يشدو جرير حولها ... طرباً ويهتف بالفخار فرزدق
وتشوقني والذاريات عواصف ... نار القرى بين البيوت تحرق
شبت لمقرورين يصطليانها ... «أعشى» أضرّ به السرى «ومحلق»
والطلعة السمراء لوحها الضحى ... ولوى معاطفها الغرام المحرق
وربابة الراعي الطروب ونغمة ... يشدو بها في الليل صب شيق
وتثير أشواقي وتبعث صبوتي ... أطلال رامة والنقا والأبرق
وأحن للعرب الذين تحدروا ... منها فسادوا في الورى وتفوقوا

الحنين إلى الرويس

سقياً لأيام الرويس فطالما ... كانت لأدواء الفؤاد دواء
نلقى الجمال الغض في ذرواته ... وعلى السفوح الماء والخضراء
ويشوقنا الإصباح في أفيائه ... ونطيب حول كرومه إمساء
قد جئته قلباً ينوء بدهره ... همّاً ويرزح شقوة وعناء
عبست له الدنيا فلم يرَ باسماً ... للناس إلاّ أن يكون رياء
رضي الشجون من الحياة صحابة ... ومن الزمان همومه خلطاء
حتى إذا برز الرويس وأقبلت ... دنياه تزخر متعة ورجاء
بعثت هوى القلب القديم وهيجت ... للحب فيه الوجد والبرحاء

وجلت لنا الحسن الرفيع وأطلعت ... في كل أفق كوكباً وضّاء
يتألق الجبل الأشم به سناً ... والسفح والوادي الأغن سناء
وطلعت يا ظمياء في مرح الصبا ... وجهاً أغرّ ومقلة نجلاء
وكسوت ذروات الرويس بشاشة ... وملأت واديه الظليل هناء
ودعوت للحب المبرح والجوى ... قلباً خلياً من هواك فجاء
أحببت أفياء الرويس وإنما ... أحببت من حبي لك الأفياء
فالليلة القمراء فيه لم تكن ... إلاّ بوجهك ليلة قمراء
والروضة الغناء ما كانت لنا ... إلاّ بحسنك روضة غناء
لم يحل لولاك الرويس ولم يطب ... أرضاً ولم يعذب لدي سماء
قد كنت بهجته وكنت رواءه ... فسما بعيني بهجة ورواء
تمشين في الأرجاء عاطرة الشذا ... فتعطرين بعرفك الأرجاء
ويطل وجهك في السجوف كأنما ... ألق السعادة في السجوف تراءى
وأراك في غسق الزمان فأجتلي ... نور الضحى من مقلتيك أضاء
يا أيها الجبل الأشم أسامع ... نجوى يرددها الفؤاد وفاء
إني لأطرح في ذراك كآبتي ... وأرد عن قلبي بك البأساء
وأحب سفحك ما حييت وأشتهي ... بعد الرحيل تلالك الزهراء
وتهيجني ظمياء فيك ملاحة ... وتثير أشواقي لها إغراء
كانت لياليناعليك ضواحكاً ... أبداً وأيام الهوى غراء
أرشفتنا العذب الزلال على الظمأ ... ومنعتنا الاكدار والأقذاء
ولمست في واديك غرّ مباهجي ... وعرفت تحت ظلالك السراء
إن تحبني العيش الرغيد فلن أني ... أشدو بذكرك في الحياة غناء
وأرتل الشعر الرفيع منمقاً ... بجمالك الإنشاد والإنشاء

حنين

أتذكر سمراء (الفراتين) أم سلت ... عهود محب ما تناسى لها عهدا
أقام على الذكرى يناجي خيالها ... ويسأل عنها الروض والنهر والوردا
ويلمح في الأشعار طيف جمالها ... ويقرأ فيها اللحظ والثغر والخدا
أتعلم سمراء (الفراتين) أنني ... وفيت لها قرباً ولم أسلها بعدا
تراءت على الدنيا فكانت رواءها ... وكانت بها النعمى وكان بها الرغدا

صخرة

هي يا فؤادي صخرة صمّاء ... لا ظلها دان ولا الأنداء

لمعت عـلـى حـر الأوام كـأنـهـا بـهـجـير عـيـشـك واحة خـضـراء
ورأيـتـهـا فـي الـبـيـد فـارتـد الـظـمـأ ريّـاً وشـاعـت بـسـمـة ورجـاء
ألـق يـذوب عـلـيـه مـن نـور الـضـحـى قـبـس ومـن زهـر الـربـيـع رواء
أضـنـتـك يـا قـلـبـي الـقـفـار مـحـيـلـة وشـجـتـك أشـبـاح بـهـا نـكـراء
حـتـى إذا أبـصـرتـهـا قـلـت المنـى رفـت وقـلـت تـبـلـجـت نـعـمـاء
هـي يـا فـؤادي صـخـرة صـمّـاء لا ظـلـهـا دان ولا الأنـداء
فـاظـمـأ كـمـا شـاء الـهـوى فـبـريـقـهـا وَقْـدٌ ودفـق ظـلالـهـا رمـضـاء
يـا صـخـرة الـوادي الـنـضـير وطـالما قـد سـال مـن قـلـب الـصـخـور الماء
وضـننت لا ظـل ولا أنـداء وقـسـوت لا مـاء ولا خـضـراء

أشواق

سلي الليل هل أشجاه غير ملاحني وهـل هـزّه إلاّ هـواي وتـهـيـامـي
وهـل غـرّد الـوادي بـغـير قـصـائـدي وهـل نـضّـرت أدواحـه غـير أنـغـامـي
سـلـي الـلـيـل ريـان الـنـسـائـم هـل روت نـسـائـمـه شـوقـي إلـيـك وآلامـي
ذكـرتـك يـا «ظـمـيـاء» فـيـه مـسـهـداً فكنت على الذكرى نشيدي وإلهامي
وطـارت إلـى الـشـطـين نـفـسـي ورفـرفـت على النخلات الخضر روحي وأحلامي

يوم جلا الفرنسيون عن لبنان ونحن في بغداد

أأبـحـر الـقـوم عـن لـبـنـان وابـتـعـدوا أغادروا الشاطىء الساجي وما قفلوا
أيـن المعـاقـل بـالأعـتـاد زاخـرة وأيـن حـولـهـم الأجـنـاد والخول
وأيـن زهـوهـم بـالجـيـش مـنـتـصـراً في «ميسلون» وما تاهوا وما جذلوا
وأيـن «روجـيـه» يـرمـي الـنـار مـغـتـبـطاً بـأن جـلـق بـالـنـيـران تـشـتـعـل
يـهـتـاجـه الحـقـد نـشـوانـاً فـإن خـمـدت فـيـهـا الحـرائـق أذكـاهـا لـه الـشـمـل
وهـزّه الـبـشـر والـنـيـران طـاغـيـة عـلـى المقـاصـير والـبـارود يـعـتـمـل
والـبـيـض مـرهـفـة والخـيـل مـرسـلـة والجـنـد سـادرة فـي الـهـول تـقـتـتـل
ولـلـقـواذف أنـى تـرتـمـي حـمـم ولـلـمـدافـع أنـى تـنـتـحـي شـعـل
تـسـاءل الـقـوم لما جـاش جـائـشـهـم ألـلـشـآم بمـا تـرمـى بـه قـبـل؟
أتـسـكـتـين عـلـى الـعـدوان ضـارعـة لـلـظـالمين أتـسـتـخـذي أتـنـخـذل؟
وأقـبـل الـنـاس يـلـقـون الـوغـى كـشـفـاً ويـصـطـلـون مـنـايـاهـا وهـم عـزل
فـأسـفـر الـصـبـح والـطـغـيـان مـنـدحـر والـظـالمون بـصـبـر الـشـام قـد خـذلـوا
أنـا صـمـدنـا لـهـم فـي الـروع لا خـور عـنـد الـلـقـاء ولا جـبـن ولا وجـل
فـالـيـوم نـهـتـف والـدنـيـا مـهـلـلـة يـا لـلـبـشـائـر إن الـقـوم قـد رحـلـوا

يا ساري الريح والأفراح قائمة ... ماذا وراءك كيف الصحب؟ ما فعلوا؟
عج بالرياض التي طابت مطالعها ... ولذّ للعين منها مربع خضل
واحمل إلينا من الذروات نافحة ... تروى بعاطرها الأشواق والغلل
كيف الأحبة في الوادي وسامرهم ... كيف الشواطيء والكثبان والقلل
أنى تطيب ليالينا وقد بعدوا ... عن العيون وأنى تعذب الأصل
إنّا لنذكرهم والشوق مضطرم ... والقلب مضطرب والدمع منهمل
ونستديم هواهم إن هم قطعوا ... ونستزيد هياماً إن هم وصلوا
ما كان يشغلنا عن ذكرهم طرب ... بعد الفراق ولا يهتاجنا غزل
هيهات بعدهم نهفو لغيرهم ... أو أن تثير هوانا الأعين النجل
أيذكرون ليالينا التي سلفت ... أم عادهم بعدنا النسيان والملل

وفاء

وفينا وإن كان الوفاء عذابا ... ألا ضل من خان العهود وخابا
تراءى لنا الينبوع ثراً ولم نكن ... لنحسب تلك البارقات سرابا
ولاح فأحيا في الهجير جوانحاً ... ظماء إليه في الهجير سغابا
يموج على الصحراء رياً وروضة ... ويلمع في الليل البهيم شهابا
حدونا إليه الركب أنضاء غلة ... تراه وقد عزّ الشراب شرابا
وسرنا إليه والمهامه دونه ... يزيد بعاداً إن نزده طلابا
تضيق لياليّنا فإن لاح ماؤه ... بدت فيه آفاق الحياة رحابا
ونيأس في الدنيا فإن عنّ ذكره ... تعود لنا الدنيا منى ورغابا
ألا يا صفاء النبع هل جفت الربى ... وهل عادت الروضات فيك يبابا
وهل صوّح الوادي فلا الطير حوماً ... عليك ولا أهل الصفاء طرابا
ألا يا صفاء النبع والنبع دافق ... يسيل كما سال النضار مذابا
ويجري على الرضراض ورداً ونرجساً ... ويسري إذا هبّ النسيم ملابا
أنلقى عليك الحسن همّاً وكربة ... ونبصر أضواء الجمال ضبابا
أتكدر يا نبع الصفاء لظامىء ... وتلقي على الروض النضير حجابا
وتنضب إذ همّ المشوق برشفة ... وتيبس إذ عاد المشوق وآبا
أنبع الصفاء الثرّ لا زلت دافقاً ... تفيض فتوناً في الهوى وشبابا
ولا زال نوار الخمائل ناضراً ... عليك وأغصان الربيع رطابا
سنرعاك يا نبع الصفاء أحبة ... وفيين إن لان الأنام صلابا
إذا ذكروا السلسال فاضت قلوبهم ... حنيناً ورفت لوعة وعذابا
فلا تذكر الغدر الممض فربما ... لقيت من الوافين فيك عجابا

سلام على الينبوع لا جف ماؤه ... ولذّ على ورد الهيام وطابا
وإن ينضب الينبوع يوماً فإننا ... سنرويه من ماء الوفاء عبابا

حماسة وأمل واستنجاد

العام ١٩٤٨ كنا في بغداد وكانت البلاد العربية تضطرم اضطراماً بما شاع عن العزم على تقسيم فلسطين وإقامة الدولة الصهيونية.

وتتابعت أخبار معارك العرب الفلسطينيين مع الصهاينة دفاعاً بطولياً عن وطنهم العزيز. كما تتابعت أخبار الحماسة السورية، وكانت النفوس تفور بالأمل وتتفجر بالعزائم. فكانت هذه القصيدة من وحي كل ذلك:

ردّت عليَّ مباهج الأعياد ... وطوت حدادي بعد طول حدادي
بشرى تجاوبت الربى بدويها ... ومشت على الأغوار والأنجاد
طلعت من الشامات تهزج بالهنا ... وتضج بالتغريد والإنشاد
غنّت بها مصر وردّد صوتها ... طرباً ندي الصيد في بغداد
وتهللت بطحاء مكة وازدهت ... بالبشر ثم حواضر وبوادي
وتألقت في قاسيون مرابع ... خضر وضجت بالسرور نوادي
الناعمات الغيد بعد وجومها ... متضاحكات للحياة شوادي
يهتفن للحرب العوان ثوائراً ... ويهجن بأس الفتية الأنجاد
فيجيبهن رصاص أبطال الحمى ... متتابع الأبراق والإرعاد
فتميد في البر المديد جباله ... ويسيل بالنيران قلب الوادي
يا ليتني في الشام أرتاد الذرى ... وأهيم في الأجزاع والأسناد
أستاف عرف أحبتي وأراهم ... متسابقين لغارة وطراد
وأشارك الغازين فيها غزوة ... عربية الإصدار والإيراد
أغدو على الثكنات ثم مصاولاً ... وأروح بين الخيل والأجناد
أمطالع النسمات ما هبّت صبا ... إلاّ ذكرت بها نسيم بلادي
وتطلّعت نفسي إلى ذرواتها ... وهفا لواديها البهيج فؤادي
وتمثلت لي الصافنات مغيرة ... وسمعت صوت الجحفل المتنادي
يمشي لنابلس الأبية صارخاً ... القوم قومي والبلاد بلادي
أحمي بنيران المدافع حقها ... وأذود عنها بالرصاص العادي
من يستبيح حماي من يسطو على ... حقّي ومن يلوي رفيع عمادي
صمتاً فقد نطق الرصاص وحسبنا ... أن الرصاص إلى القتال ينادي
في سفح نابلس لهيب معارك ... وعلى جبال القدس صوت جهاد

كل يلوذ بنخوة عربية ... كل يردد صرخة استجاد
يا ثائراً بالنار يحمي أرضه ... ويذب عنها جاهداً ويفادي
لم يستكن للغاصبين ولم يدع ... علجاً يدوس مراقد الأجداد
أنشدتني لحن الرصاص وربما ... أشجاك في ليل الوغى إنشادي
قد صغت فيك الشعر حراً ثائراً ... يذكي الجبان ويستهيج الهادي
أرنو إليك فمن لظاك قصائدي ... نظمت ومن قاني دماك مدادي
إن فاتني بالأمس يومك إنني ... أهفو إليك بعدتي وعتادي
فلعل لي يوماً بجنبك يرتوي ... فيه من الثارات قلبي الصادي
ولعلني ألقاك في رهج الوغى ... ولعلني أمشي إلى استشهادي
ردد على الأسماع أنغام الظبي ... نارية الترجيع والترداد
قل للغفاة عن القتال ألم تروا ... ماذا يراوح (قدسكم) ويغادي
أأموت في كف اللئام وأنتم ... حولي ولم يهززكم استنجادي
أأرد عن وردي أأقتل صابراً ... بيد اليهود أتستباح بلادي
يا نائمين على الحرير وما دروا ... أنّا ننام على فراش قتاد
متلفعين دم المعارك ما لنا ... إلاّ الحصا في القفر ظهر وساد
نغدو على النيران يذكيها لنا ... غدر اللئام وخسّة الأوغاد
ونبيت لا ندري أنصبح بعدها ... أم أن عين الموت بالمرصاد
يا نائمين وما دروا أنّا هنا ... لسنا نذوق اليوم طعم رقاد
إخواننا والدهر فرق بيننا ... مدوا لنا منكم يد الإنجاد
هذي منازلنا الشوامخ ترتمي ... هدماً على الفتيات والأولاد
تتصاعد الأنّات في جنباتها ... وتطيح بالهامات والأعضاد
هبوا إلينا بالبنادق بالظبي ... بالمال بالأرواح بالأعتاد

ربيع السيوف

وجاء الربيع والمعارك تترى في فلسطين، والفلسطينيون يقاتلون، ونحن نعيش في بغداد الأمل والحماسة والاستنجاد نفسه، وبغداد والعراق كله يتلظى إباء وحمية، فجاءت هذه الأبيات وكأنها متممة للقصيدة السابقة:

حيّيت طالعة الربيع وإنما ... أزكى ربيعنا ربيع جهاد
ثارت به يافا وهبّت غزّة ... وتصايح الأجناد بالأجناد
قومي ربيعهم السيوف وعيدهم ... في كل واد صرخة استشهاد
زانت دماؤهم الجبال ونضرت ... أشلاؤهم وجه التراب الصادي
سل عنهم ريا السهول وطيبها ... وغضارة الأغوار والأنجاد

هل غير محمر الدماء زهورهم | وغناؤهم غير الرصاص الشادي
لو أنهم ملكوا السلاح لنازعوا | جبارة الدنيا زمام قياد
أربيع طبت ففي نسيمك عبقة | من صوت كل مناضل ذواد
وعلى رياضك من جراحة يعرب | في القدس طاقات من الأوراد
أربيع لن تهتاج غير حماستي | بجمالك الزاهي وغير ذيادي
هيهات تلويني إليك مشاهد | خضر وقومي للقتال تنادي
لا الزهر فواح العبير يهزّني | في الواديين ولا النسيم الغادي
يا منشداً غر القصائد هاتها | من فيك شعراً ملهب الإنشاد
حدث عن الأبطال عن غزواتهم | عن كل مقدام وكل جواد
حدث عن الوطن الذبيح وأهله | كم يستغيث ويرتجي وينادي

آمال

وجاء قرار مجلس الأمن بالتقسيم، وقال العرب «كلا» وأعدوا العدّة للتدخل العسكري بعدما ناضلوا بالقول في مجلس الأمن:

أعيا البيان وخاب فيك المنطق | النار أجدى في الكفاح وأصدق
طيبي فلسطين الأبية واسلمي | وطناً له يعنو الزمان ويطرق
لا تيأسي فعلى يمينك فيلق | ملء الربى وعلى يسارك فيلق
اليعربيون الأباة تواثبوا | من كل فج للوغى وتدفقوا
يهتاجهم للبأس أروع مشئم | ويهزهم للأريحية معرق
نسلتهم الصحراء أبطالاً إذا | ساروا إلى غاياتهم لم يلحقوا
قولو لمن ملأ الزمان تشدقاً | بالعدل أين العدل يا متشدق
أمن العدالة أن تقسم أرضنا | ويباد فيها قومنا ويمزقوا
وتبيت ترتع في حماك مسوداً | وحماي للشذاذ نهب مطلق
أيبيحهم وطني الكريم وأمتي | متزلف لنوالهم متملق
أين المواثيق العذاب وأين ما | قد نمقوا فيها وما قد زوقوا
صبراً فلسطين الصبور لقد دنا | يوم يمض الظالمين ويرهق
المغرب الأقصى المروع هاجه | أن تستضامي عنوة والمشرق
ستثور مصر والعراق ومكة | ستهب عمان إليك وجلق
ستغص بالقتلى السهول وترتوي | قمم الجبال من الدماء وتغرق
يا نسمة الشام الحبيبة هدهدي | روحاً بصالية الجوى تتحرق
أنا في هواي بجلق متبغدد | وعلى الفرات ودجلة متدمشق

فتحملي من (قاسيون) نوافحاً يشفى بعاطرها الفؤاد الشيق
واتلي عليَّ من الحمية قصة يزهو بها وجه الإباء ويشرق
أمشت دمشق إلى النضال أأقبلت منها الزواحف والخيول السبق
أسرت إلى الثغر المنيع أأسرعت للفتح تحتوش العدى وتطوق
يا نسمة الشام الحبيبة عللي قلباً على الوجد المبرح يخفق
يرنو إليك وشوقه متضرم ملء الضلوع ودمعه مترقرق
هبي عليَّ من الجبال لعلني أستاف عرف الظاعنين وأنشق
الواردي الماء الفرات وما دروا أنّا نغصّ على الفرات ونشرق
والعاتبين وما دروا أنّا لهم أوفى على العهد القديم وأوثق

حديث الرزايا

وأطلت أخبار الرزايا فاستسلمت حيفا ثم يافا وتتابع الاستسلام، ولكن الأمل ظل يعيش بتهيؤ الجيوش العربية لدخول فلسطين.

يا نفحة من رياض الواد طالعة ونسمة حملت ريا فلسطينا
تروي حديث الرزايا عن منازلنا وتحمل الدمع من أجفان أهلينا
عن مطلع النار في (حيفا) وما شربت أرض (الجليل) دماء من أضاحينا
من السفوح من الذروات دامية من المروعين فيها والمذودينا
ما كان عرفك إلاّ صرخة حملت للثائرين هتاف المستثيرينا
ولا أريجك إلاّ الحقد مضطرماً ولا عبيرك إلاّ النار تذكينا
إنْ يلونا الغدر عن آمالنا زمناً أو يثننا الوهن حيناً عن أمانينا
ففي الجوانح عزم من فواجعنا وفي النفوس عرام من مآسينا
تلك المرابع كم طافت فوارسنا فيها وكم رغمت فيها أعادينا
وكم هتفنا على ذرواتها مرحاً وكم رتعنا على الضفات شادينا
وكم صبونا بها حباً وعاطفة وكم جنينا بها ورداً ونسرينا
وكم أطافت بها أكبادنا شغفاً وكم أرقنا دموعاً من مآقينا
تلك المرابع نفنى دون حوزتها ونستميت بها في الهول غازينا
قل للميادين والأيام غالبة نظار نملأ بالقتلى الميادينا
ونفعم الجو طيارين إن نفروا إلى السماء أحالوها براكينا
نظار تطلع في الدنيا كتائبنا على المعاقل تجتاح الصهاينا

مناجاة حيفا بعد استسلامها

شواطىء حيفا عليك السلام سلام الأباة سلام الكرام

لـئـن نـام عـن ثـأرنـا الخائـرون
فـهـيـهـات عـن ثـأرنـا أن نـنـام
أحـيـفـا الأبـيـة طـال الـنـزوح
فكيف الشطوط وكيف السفوح
أهـانـت عـلـى الخطب مـلـتـاعـة
أدانـت لـفـاتحـهـا المستبيح
إذا هـبّ فـي الـلـيـل منـك الـهـواء
ذرفـنـا عـلـيـك دمـوع الإبـاء
ولـذنـا بـأسـيـافـنـا ثـائـريـن
وسـرنـا فـلا نـنـثـنـي لـلـوراء
يـلـبـيـك منّا الـكـمـيّ الـعـنـيـد
ويهتف باسمك صوت الشهيد
ونـصـرخ فـي الـهـول مستقتلين
سـنـحـفـظ أوطـانـنـا أو نـبـيـد
لـئـن عـثـرت بـبـنـيـك الجدود
وكـانـوا الأبـاة وكـانـوا الأسـود
فـصـبـراً تـوافـيـك أسـيـافـنـا
لـوامـع تـفـري هـوادي الـيـهـود
سـنـرجـع بـعـد الـغـيـاب الـطـويـل
فـتـشـرق حـيـفـا ويـزهـو الجليل
فـصـبـراً تـصـبـحـك أعـلامـنـا
خـوافـق فـوق الـربـى والـسـهـول
يـهـوذا خـسـئـت فـلـسـت لـنـا
نـظـيـراً نـخـضـب مـنـه الـقـنـا
سـيـاط الإسـار وذلّ الـسـبـا
عـلـى عـارضـيـك وعـار الخنـا
لـئـن حـكـم الـدهـر أن تـغـتـدي
خـصـيـمـاً يمـد يـد المعتدي
فـزلـة هـذا الـزمـان الـلـئـيـم
سـتـغـسـلـهـا كـفّـنـا فـي غـد

يا نخل دجلة والفرات

أهــلاً بـــإشـــراق الملاك
قـد كـان حـلـمـاً أن أراك
يـا عـاشـق الـلـيـل الـطـويـل
تـبـاركـت فـيـه رؤاك
تـهـوى الـنـجـوم لـوانـهـا
لـثـمـت عـلـى شـغـف ثـراك
وعـنـادل الـروض الـنـضـيـر
تـود لـو كـانـت صـداك
بـوركـت مـا عـشـق الـدجـى
ووفـى لـه أحـد سـواك
يـا عـاشـق الـلـيـل الـطـويـل
ومـا سـلـوت ومـا سـلاك
أتـقـر مـوجـتـك الـطـلـيـقـة
والـدجـى عـان هـنـاك
هـيـهـات مـا جـلـى الـدجـى
إلاّ شـعـاع مـن سـنـاك
كـلا ولا عـبـق الـقـريـض
الـعـذب إلاّ مـن شـذاك
إن الـذي خـلـق الـبـيـان
الـعـبـقـري لـه اصـطـفـاك
مـن لـي عـلـى درب الـقـريـض
بـأن أسـيـر عـلـى خـطـاك
لم تمـل إلاّ الـسـحـر شـعـراً
حـيـنـمـا تمـلـى يـداك
غـرّد فـإن قـلـوبـنـا
تـشـدو المنـمـق مـن غـنـاك
أهـلاً بـسـلـسـال الـقـريـض
الـعـذب يـجـري فـي مـداك

يا نخل دجلة والفرات ... لكم هفوت إلى لقاك
وتطلعت نفسي إليك ... لعلها يوماً تراك
يا نخل دجلة ما نسيت ... على النوى أبداً هواك

كنا في باريس عندما ذاع أن العرب كسروا احتكار السلاح، وأنهم اشتروه من الشرق بعد أن منعه عنهم الغرب، وأن وفداً غربياً جاء يعالج الأمر ويسأل العرب ماذا يريدون، وأن الغرب في ضجة من هذا الأمر:

يستفهمون وقد بحّت حناجرهم ... ويسألون وقد أعيو وقد تعبوا
ما تطلبون؟ وقد كنّا نطالبهم ... حتى مللنا وحتى ملّنا الطلب
تلك (اللقيطة) شدتم من دعائمها ... حتى استقامت على أجداثنا القبب[٦]
هذي حرابكم منها هم طعنوا ... وذي سيوفكم منها هم ضربوا
النار في شرفات القدس لاهبة ... وفي شوارع حيفا القتل والسلب
دور الأعزة في يافا وفي صفد ... ذلّت لفاتحها الأطلال والخرب
تهفو لغائبها شوقاً وعاطفة ... حتى تكاد بها الأحجار تنتحب
وتستكين إلى الشكوى مناجية ... وترتجي عودة النائي وترتقب
في دير ياسين ثأر لا تنام له ... منّا العيون ولا ينسى له طلب
عزلاً نقابل بالأجساد ناركم ... لا الصبر يعصمها منكم ولا الهرب
واللاجئون على الأبواب ما طعموا ... إلاّ الهوان بأيديكم وما شربوا
ثاراتنا الحمر فيكم كاللظى حنقاً ... وحقدنا المر كالبركان يلتهب
هذا السلاح الذي تحمي بوارقه ... يوم الكريهة ما خطوا وما كتبوا
هبّت على النخوات الحمر ثائرة ... وجلجل البأس فيها والتظى الغضب
وماجت البيد بالتكبير وانطلقت ... بعد الهوان إلى ثاراتها العرب

حماسة ورثاء

كان الإعداد يجري في دمشق للقتال في فلسطين سنة ١٩٤٨ ونحن في العراق فإذا بدمشق تفاجأ بوباء الكوليرا:

أيروع أمنك يا دمشق وباء ... وتمضك الأوجاع والأرزاء
«لا در درك يا زمان أهكذا» ... ختلاً تغال الحرة الشماء
أكذا تموت الأسد في آجامها ... أكذا تبيد على الكناس ظباء
تهوي الفوارس ما نضت سيفاً ولم ... يرفع لها فوق الخميس لواء
وتطيح واهية العزائم بعدما ... رجفت بماضي عزمها الغبراء
يا ويح قلبي كيف قومي في الحمى ... كيف الأحبة ثم والعشراء

إني لأذكرهم على أهوالها ... فيكاد يغلب ناظري بكاء
كانت تثير مفاخري أنباؤهم ... واليوم تبعث حسرتي الأنباء
أمشارف الشامات هل أرج الذرى ... زاك وهل ريا السفوح رخاء
أعلى الظلال الوارفات بشاشة ... وعلى المروج الحانئات رواء
هل في محاني الغوطتين كعهدنا ... للواردين مباهج وهناء
أم نابها الداء الممض وراعها ... قدر يروع إذا أتى وقضاء
تلك البطولة كم زهت بجمالها ... سوح الوغى وتباهت الهيجاء
كم رفرف النصر الممنع فوقها ... كم ذلّ حول قبابها الأعداء
تلك البطولة في دمشق فريسة ... للموت تنهش قلبها الأدواء
وا لهفتاه لثائرين تحملوا ... للحرب عن أوطانهم وتناؤوا
يتلفتون وفي الصدور لواعج ... تذكي الهموم وفي النفوس مضاء
يتساءلون عن الديار ورزئها ... كيف الأبوة ثم والأبناء
حتى إذا ثار النضال تواثبوا ... للنار لا خور ولا إعياء
صبراً دمشق وما استكنت لظالم ... يوماً ولا هانت بك العلياء
ذل الطغاة على حماك وسمتهم ... خسفاً به يتصاغر الكبراء
بأس على الهول المروع صابر ... وحمية ملء الحمى وإباء
قد كان شعري في بنيك حماسة ... واليوم شعري في بنيك رثاء

شاكية

ويح الحياة أأنت اليوم شاكية ... هم الحياة وهذا الحسن ظمآن ١
أوجهك العذب أشجان مبرحة ... وقلبك الغض بالآلام بركان
ظمياء والشعر مثل السحر منطلق ... من فيك والحسن في عينيك فتّان
وفي جبينك من نور الصبا ألق ... وللجمال على خديك ألوان
أتحزنين ومنك البشر مطلعه ... وتظمئين ومنك الكون ريان
وتشتكين تباريح الأسى ولكم ... زالت ببسمتك الغراء أحزان

عودي

عودي إليَّ فصوت الحب يدعونا ... ونغمة الشعر لم تبرح تنادينا
تهوى الرياض على شوق تواعدنا ... ويشتهي السفح والوادي تلاقينا
سنملأ الكون شعراً من صبابتنا ... ونترع الدهر عطراً من تناجينا
عودي إليَّ فلم أبرح كما علمت ... هذي النجوم محباً فيك مفتونا
ألقى الجمال على عينيك مزدهراً ... وفي جبينك استجلى التحاسينا

غضب ورضا

لما التقينا على نار من الغضب ... تذكي الجوانح بالتقريع والعتب
قالت أأنت نجي الليل والشهب ... أنت المعنّى بنا أم أنت ذو الطرب
تشدو بشعرك لا وجد ولا حرق ... على الغرام ولكن فتنة الأدب
أنت الفراشة من زهر إلى ثمر ... طول الحياة ومن جد إلى لعب
أنا الفراشة يا ظمياء هائمة ... وليس وجهك غير النور واللهب
ثم افترقنا وبسمات الرضا نغم ... في الثغر أو حلم نديان في الهدب

الخامس من حزيران

حدثت حرب الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧ وأنا في مدينة كراتشي فكان من وقع أنبائها هذه القصيدة:

جل المصاب عن البكاء فكفكفي ... دمع الذليل وعبرة المستضعف
يا أمة هانت فكم من شامت ... في يومها الداجي وكم من مشتف
لهف العروبة والعروبة جذوة ... أورى على الحدثان من أن تنطفي
للثائرين استسلموا لمذلل ... للشامخين تذللوا لمعنف
لمقاتلين تقصفت هاماتهم ... في القدس تحت الراعد المتقصف
للمطعمين استطعمت راحاتهم ... واستعطفت في الروع من لم يعطف
للمسجد الأقصى لمحراب الهدى ... للطائفين على البراق لعكف
خفت الأذان على المآذن وانطوى ... في المسجد الأقصى نداء المصحف
وهوى على المحراب خفق نعالهم ... وطغى على الترتيل صوت المعزف
لا تلكم الجمع الحسان ولا صدى ... آياتها للعابد المتقشف
يا أمة نامت على أحلامها ... أودى اليهود بعزك المتغطرف
وهويت من وقفات مجدك والعلى ... لأمض مما عرف الورى من موقف
شدّي على الغمرات لا تستيئسي ... وامضي على الهبوات لا تتوقفي
إن يعنف الخطب الملم فداوه ... من عزمك الماضي بخطب أعنف
يا نشء يا أمل النفوس ويا سنا ... ما انفكّ يبرق في الظلام المسدف
لا تجز عن فرب يوم عاصف ... تختال فيه بكل سيف مرهف
ولرب يوم للعروبة ثائر ... ولرب يوم بالفخار مفوف
القدس يجأر بالشكاة مذلة ... ويهود بالنصر المؤزر تحتفي
والمسجد الأقصى يطأطىء راغماً ... والقوم قومك بالتصايح تكتفي
يا نشء جدّ فلا اصطبار ولا ونى ... يا نشء لا تغرر ولا تتعسف

إيلات ...

بعد فاجعة الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧ كنت في لندن فحملت لنا الأنباء خبر اشتعال الدارعة اليهودية (إيلات) بالنار المصرية، في عرض البحر وهي تحاول الدخول في المياه العربية:

إيلات! صوتك في الظلام الأبعد ... أورى من العزمات ما لم يخمد
نار تشب على البحار كأنها ... في الخندس الداجي منارة معبد
سالت على الأمواج تحرق أهلها ... وتريهم أن القيامة في غد
نار ولا نار المجوس كرامة ... ولظى ولا برد النعيم المخلد
خشعت لها النفس الكريمة وارتوى ... بعد الأوام بوهجها القلب الصدي
هي — إن قنت — إلى الإله محجتي ... ولها — على الإسلام — طول تعبّدي
إيلات! أي يد رمتك بنارها ... نار الجحيم وأي همة سيد
للخير، للضيف الملم، لنخوة ... للهول، للبأس الشديد لمعتد
ردتك عن باب الكرامة وارتمت ... بالنار توقد فيك ما لم يوقد
وأرتك ما لم تبصري في غارة ... يوماً وما لم تشهدي في مشهد
نذر من الثارات إن هبت غداً ... وردت بإسرائيل أشقى مورد
إيلات! أي المغرقين قذفتهم ... في اليم بين محرق ومبدد
صفر من النخوات إلاّ أنهم ... ملء البرود نذالة المتهود

عزاء

ذكرتك في تباريح المصاب ... ووجهك بعد ذاك النور خابي
ذكرتك والأسى يذوي شباباً ... فداه بكل نازلة شبابي
فليت جراح قلبك في فؤادي ... وليت عذابك المضني عذابي
أيا ألق الرجاء بليل يأسي ... ويا أسنى الأماني والرغاب
لقد كنت البشاشة في حياتي ... وأنت اليوم همي واكتئابي

صامتة

لا تصمتي فبياني منك منبثق ... ومن عيونك وحي الشعر منطلق
كم قد شكتك ليالي الوجد صامتة ... وكم أفاض الأسى واسترسل القلق
لا تصمتي ولغات الحب ناطقة ... أحنى الأحبة من إن عوتبوا نطقوا
رفت عليك صباباتي وما برحت ... بنار حسنك هذي النفس تحترق
ناجيت قلبك أستجلي كوامنه ... لو أن قلبك في شكواه ينطلق

من الذكريات

في السابع من تموز سنة ١٩٩٠ نشرت جريدة «السفير» البيروتية ترجمة قصيدة للشاعر الصهيوني افرايم تسيدون هذا نصها:

«لن نحاور»

يا مردخاي غور

سأقص عليك قصة

حتى لو تخلت المنظمة عن ميثاقها

حتى لو حول ياسر عرفات

اسمه في احتفال رسمي

ليكون موشيه

وحتى لو تخلى الفدائيون عن أسلحتهم وعقيدتهم

وأرسلوا بطاقات التهنئة

لكل بيت يهودي

في رأس السنة العبرية

حتى لو شاركتنا المنظمة

في بناء المستوطنات لليهود القادمين الجدد

وحتى لو أعلنوا أمام الملأ

أن الضفة الغربية أرض يهودية

وحتى لو قامت نساء فتح

بنسج قبعات الصوف لجنود إسرائيل

وحتى لو استقبل أهالي الضفة

جماعات غوش أمونيم بالأغاني

والزغاريد وحتى لو اعترفوا بالدولة اليهودية

وقدموا لنا كل أموال التبرعات التي يتلقونها

وحتى لو التزم ياسر عرفات أمام الملأ

بأننا الذئب وهم الغنم

وحتى لو نقلوا اللاجئين إلى القطب الشمالي

ورفعوا رايات الهزيمة أياماً وليالي
وحتى لو تحولت سيوفهم
إلى أقلام ومساطر
فلن نجالسهم أبداً
ولن نحاور.

فرددت عليه بالقصيدة التالية:

لا سلم

لا سلم حتى تستباح دياركم … بشبا القواضب والبنادق والمدى
وتدك بالبارود تل أبيبكم … ويعود مغناها لظى متوقدا
ونردكم في الخافقين أذلّة … ونعيدكم أنّى تكونوا أعبدا
بالفيلق العربي يزحف هادراً … ويكر في رهج المعامع منشدا
ثارات يعرب لن تطل دماؤها … ولظى الحفائظ لن يبوخ ويخمدا
شدوا ففي حيفا المراح على السرى … غلساً وإن على ثراها الموعدا
إن يظمأ الوطن الجريح فلن تُرى … إلاّ دماهم للعطاشى موردا
يا شاعر السوءات دونك فارتقب … يوماً من الويلات مرّاً أسودا
لا .. لن تحاور بل تكمم صاغراً … وتقاد للجلاد ثم مصفدا

مؤتمرات القمة

في أواخر شهر أيار/مايو سنة ١٩٩٠ عقد في بغداد ما يسمونه مؤتمر القمة فعلقت على عقده بهذا المقال:

يوم وصل اليهود إلى ضفة القناة سنة ١٩٦٧ فيما أسموه بحرب الأيام الستة، ووقفوا هناك متطلعين إلى ما وراء القناة من سهوب شاسعة وآفاق بعيدة كانت في متناول أيديهم فيما يحسبون، لو أنهم تجاوزوا هذا الماء الفاصل بينهم وبينها وما كان أسهل عليهم أن يتجاوزوه بعد أن تمزق كل شيء، وانهارت القوى... القوى كلها، ما كان منها مادة صلدة تموج وتمور على وجه الصعيد، أو كان معنى، كامناً في الصدور!

يوم وصل اليهود إلى ضفة القناة بجيشهم المنتشي بخمرة النصر الهين وجلسوا يستريحون هناك، كان كبراؤهم يجلسون على مقاعدهم وراء مكاتبهم ينتظرون رنين الهواتف المؤذنة بالاستسلام لهم، والمعترفة بالواقع المرير الذي ضاع معه كل شيء.

ولكن الهواتف لم ترن وطال صمتها، وإذا بالصوت الذي حسبوه سيصلهم ذليلاً خانعاً على سماعات الهواتف، إذا به يجلجل في الآفاق صارخاً في وجوههم بلاءاته الثلاث: لا... لا... لا. كانت لاءات

قمة (الخرطوم) يومذاك هي التي تتمثل فيها شمائل العرب: شمماً وحمية وقوة عزم وبسالة. كانت هي مظهر هذه الأمة الممتدة بعشرات ملايينها من المحيط إلى الخليج... كانت هي الرد الحاسم على الذين تباشروا بوصولهم إلى جدار هيكل سليمان ليخطوا الخطوة التالية التي تحتويهم من النيل إلى الفرات.

الرؤوس التي نكسها صدى أنات الهزيمة على رمال سيناء وصخور الجولان عادت ترفعها صرخات النخوة في أجواء الخرطوم.

وانتظر العرب، وانتظروا فإذا باللاءات تتقلص وإذا بـ(لا) الأولى تتحول إلى (نعم).

ولم ينتظروا تحول (اللاءين) الأخريين إلى (نعمين)، إذ إن التحول الأول محاهما.

واجه هذا الوطن في تاريخه سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) يوماً كيوم وصل اليهود إلى ضفة القناة في سنة ١٩٦٧.

بل لنا أن نقول إن ذاك اليوم سنة ١٢٦٠ كان أشد هولاً من يوم سنة ١٩٦٧ فإذا كان اليوم الثاني نتج من هزيمة واحدة فإن اليوم الأول كان ناتجاً من سلسلة هزائم متتابعة أضاعت الوطن في معظمه ولم تبق لبنيه امتداداً يلوذون به ليتهيأوا.

كان الوطن يومذاك في مواجهة الغزو المغولي المدمر الذي اجتاح الوطن الكبير بلداً بعد بلد حتى بلغ أبواب مصر نازلة طلائعه في مدينة غزة.

وعند ذلك أرسل هولاكو، إلى حاكم مصر الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي إنذاراً رهيباً حمله واحد وأربعون رجلاً من الرجال الغلاظ الشداد، هذا نصه: «إن الله تعالى قد رفع شأن جنكيز خان وأسرته، ومنحنا ممالك الأرض برمتها، وكل من يتمرد علينا ويعصي أمرنا يقضى عليه مع نسائه وأبنائه وأقاربه والمتصلين به وبلاده ورعاياه، كما بلغ ذلك أسماع الجميع. أما صيت جيشنا، الذي لا حصر له فقد بلغ الشهرة كقصة رستم وإسفنديار.

فإذا كنت مطيعاً كخدم حضرتنا، فأرسل إلينا الجزية، وأقدم بنفسك لطلب الشحنة، وإلاّ فكن مستعداً للقتال».

هذا هو الإنذار المخيف الذي حمله الواحد والأربعون مغولياً إلى الحاكم المصري، وهذا هو التهديد المروع الذي وصل إلى القاهرة.

وقد كانت كل جملة في هذا الإنذار صحيحة صادقة، فقد دانت لهم ممالك الأرض، وكل من تمرد عليهم قضي عليه وخربت بلاده. وكبراء الناس قد صاروا خدم الحضرة المغولية.

وهبط الوفد مصر جباراً متكبراً، يزلزل بروعته العزائم ويوهي الهمم. هبط مصر وهبط معه تاريخ أسود من الانتصارات الكاسحة، وماض بشع من التسلط المهول، كانا كافيين للتسليم والخذلان.

كان الأمر أخطر من أن يقطع به إنسان واحد، وكانت مصر آخر معقل، فإذا هوت لم تقم بعدها قائمة. لذلك لم يجرؤ رجل فرد، مهما أوتي من سداد الرأي وقوة العزم، أن ينفرد بالقرار.

وهنا كانت الدعوة إلى ما يمكن أن نسميه «مؤتمر قمة»، مؤتمر قمة لا بمقاييسنا في هذا العصر، بل بمقاييس ذلك الزمان.

لم يكن المدعوون إليه من أصحاب الجلالة والفخامة والسمو والسيادة، ممن لم يكن لهم وجود يومئذٍ، بل كان المدعوون إليه حكام المناطق المصرية، وأمراء الجيش، مضافاً إليهم من انهزموا أمام المغول من حكام البلاد الأخرى ولجأوا إلى مصر.

دعا إلى مؤتمر القمة هذا، ملك مصر سيف الدين قطز. وقد حفظت لنا بعض المصادر ما يمكن أن نسميه محضراً لما جرى من النقاش والتداول في الجلسة الوحيدة التي عقدها المؤتمرون.

افتتح المؤتمر الملك المصري متكلماً بصراحة يقتضيها الموقف الخطير الذي وصلت إليه البلاد، فقال:

«لقد توجه هولاكو من طوران إلى إيران بجيش جرار، ولم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته، واستولى على جميع البلاد، ثم جاء إلى دمشق ولو لم يبلغه نعي أخيه لألحق مصر بالبلاد الأخرى، ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي (كيتو بوقا)، وهو كالأسد الهصور والتنين القوي في الكمين، وإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته، فيجب أن تتدبروا الأمر قبل فوات الفرصة».

لقد كان الملك سيف الدين قطز يعرف أن أكثر المؤتمرين انهزاميون قد استولت عليهم الرهبة من المغول، وأنهم ميالون إلى التسليم، ولم يكن هذا من رأيه، بل كان رأيه المقاومة والقتال، وخشي إذا طرح الأمر على التصويت أن ينتهي التصويت إلى صالح الانهزاميين.

لذلك بدا من كلمته أنه هو الآخر ميال إلى التسليم، فاطمأن الانهزاميون إلى قراره، فلم يحزموا أمرهم ويكتلوا قوتهم بل ظل موقفهم مائعاً بعض الشيء كما سنرى في الآتي من القول:

وقد كان في المؤتمرين رجل واحد قوي النفس، لم تؤثر في قوته انتصارات المغول المتتابعة، ولا أضعف يقينه التهديد والوعيد، فلما لمس ليناً في موقف رئيس المؤتمر، ولمح في كلمته أمارات الانهزام النفسي، تصدى له بقوة وحزم. هذا الرجل هو ناصر الدين القيمري الذي رد على كلمة الرئيس بما يلي:

«إن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر هي الآن كلها في قبضة هولاكو، فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس في ذلك عيب وعار، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل. إنه ليس بالإنسان الذي يطمأن إليه، وهو لا يفي بعهده وميثاقه، فإنه قتل فجأة خورشاه، وحسام الدين عكة، وصاحب أربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق، فإذا سرنا إليه فسيكون مصيرنا مصيرهم».

فلم يرد أحد من الانهزاميين على ناصر الدين القيمري وتركوا أمر مصاولته إلى رئيس المؤتمر بعد أن صار في ظنهم أنه في صفهم.

وبالفعل تولى الرئيس بنفسه الرد على القيمري. وانحصر النقاش في المؤتمر بين الاثنين القويين: سيف الدين قطز، وناصر الدين القيمري.

فرد الرئيس على القيمري قائلاً:

«إن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع. وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً ويباباً. وقد قضي على جميع من فيها. من حرث ونسل، فلو أننا تقدمنا لقتالهم فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها. وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا، واحداً من ثلاثة: الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن. أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر، وذلك لأنه لم يمكن أن نجد مقراً لنا إلاّ المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة».

يبدو الملك سيف الدين قطز من هذا الكلام على أعلى مستوى من الحنكة والدهاء السياسي، بل يبدو دبلوماسياً قديراً يعرف كيف يناور ويحاور، ثم يحتفظ بالموقف السليم الثابت لآخر لحظة، هي اللحظة الحاسمة.

لقد قال إن أمامهم ثلاثة خيارات: الجلاء أو التسليم أو الحرب. ثم برهن أن الجلاء غير ممكن، وقد كان عليه، بحسب ظاهر الحال، أن يبين رأيه في الخيارين الآخرين، ولكنه لم يفعل.

إنه أراد أن لا يفاجىء الانهزاميين برأيه في وجوب المقاومة لئلا يهبوا في وجهه هبة واحدة وهم أكثرية الحاضرين.

بل ترك ذلك لناصر الدين القيمري ليزداد الانهزاميون اطمئناناً إلى موقفه هو.

لقد أسقط هو الخيار الأول (الجلاء)، فكان لزاماً على ناصر الدين القيمري أن يتولى إسقاط خيار التسليم، وقد كان ذلك، فرد القيمري قائلاً بحزم وثبات:

وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم إذ إنه لا يوثق بعهودهم.

وهنا التفت الرئيس إلى الإنهزاميين ليقولوا كلمتهم، فقالوها ولكنهم شفعوها بكلام أبطل مفعولها. وكان ذلك نتيجة المناورة البارعة التي قام بها الرئيس العظيم سيف الدين قطز، والتي أوهم فيها الانهزاميين أنه من رأيهم.

كان جواب الانهزاميين رداً على كلمة القيمري متوجهين بها إلى رئيس المؤتمر:

ليس لنا قدرة ولا طاقة على مقاومتهم، فمر بما يقتضيه رأيك.

لقد كانوا يعتقدون أنهم بكلمتهم هذه يسلحون الرئيس بسلاح قوي ليقرر التسليم مستنداً إلى رأي الأكثرية، وكانوا يتصورون أنه ينتظر كلمتهم هذه لتكون حجته فيما يعزم عليه من الخضوع للمغول.

لقد كان في الواقع ينتظر كلمتهم ليحزم أمره في القرار، ولكنهم وقعوا في الشرك الذي نصبه لهم ببراعته ودقة مخادعته. لم ينتبهوا أنه استدرجهم لتكون كلمتهم ذات شقين، وأنه أصبح حراً في أي شق شاء من هذين الشقين.

لقد قالوا بالتسليم، وفي الوقت نفسه قالوا له: «فمر بما يقتضيه رأيك».

فأمر بما يقتضيه رأيه، فقال:

«إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد وإلاّ فلن نكون ملومين أمام الخالق».

أمام هذا الجواب الحازم صمت الانهزاميون، ألم يقولوا له: «مر بما يقتضيه رأيك». إنه ينفذ ما طلبوه إليه.

إذا كان مؤتمر الخرطوم سنة ١٩٦٧ قد انجلى عن ثلاث (لاءات)، انمحت كلها مع الأيام، وصار يحل محلها في كل مؤتمر (نعم)، فيكون جواب الأعداء عنها: (لا).

إذا كان الأمر كذلك فإن مؤتمر القاهرة سنة ١٢٦٠ أوجز الجواب بـ(لا) واحدة، لم يكتبها بالحبر الذي تمحوه الأيام، بل كتبها بالدم الذي لا تمحو الأيام ما يكتب به. كتبتها سيوف (عين جالوت).

مستدركات أعيان الشيعة

أكتب هذا الكلام الآن في التاسع من شهر شباط/فبراير السنة ١٩٩٣م (شعبان ١٤١٣م) وبين يدي أربعة مجلدات من «مستدركات أعيان الشيعة». وفي المطبعة يُهيّأ المجلد الخامس للصدور، وعلى رفوف المكتبة إلى يميني الأغلفة الصفراء مملوءة بمواضيع المجلد السادس التي لا تزال تزداد يوماً بعد يوم حتى تكتمل بما يملأ هذا المجلد.

إنني منذ بدأت العمل بعد وفاة والدي بإعداد مسودات «الأعيان» غير المطبوعة ـ إعدادها للطبع، كان أقصى ما أطمح إليه أن أستطيع تنسيق تلك المسودات وإخراجها مطبوعة، وذلك مطمح كان تحقيقه يبدو بعيد المنال.

أولاً: لأن إعداد تلك المسودات وتنسيقها وضم مواد كل ترجمة إلى مجموعة واحدة، لم يكن من الأمور السهلة.

ثانياً: هب إني استطعت ذلك فقد كان إخراج تلك المسودات مطبوعة يحتاج إلى أموال كنت لا أملك شيئاً منها. ولم يكن من المستطاع العثور على مغامر من المتاجرين بالكتب يقدم على بذل كثير من المال على أمر غامض النتائج.

كنت أفكر كيف أستطيع إكمال طبع «أعيان الشيعة». أما أن يكون لـ «أعيان الشيعة»المطبوع مستدركات فذلك أمر لم يدر في خلدي أبداً.

ولكن التصميم الصارم، والعزم الصامد أخرجا «أعيان الشيعة» في طبعة كاملة لا تقل إتقاناً عن أشهر الموسوعات العالمية في أرقى بلاد الغرب.

وظننت بعد ذلك أني سأستريح بعد أن حققت الحلم الذي كان عدم تحقيقه هما منغصاً للحياة طيلة أكثر من عقدين من السنين.

وقد كان ما تحملته خلال تلك السنين في تحقيق حلم الحياة ـ كان شيئاً يهد العزائم، كان بعض ما فيه: الخيبة ممن تحسب أنهم من الذين لا تخيب عندهم الآمال الطيبة.

ومن بعض ما فيه محادثة الجفاة الغلاظ، ومناشدة الجهلة الأغبياء، والتواضع لمن لا يستحقون إلاّ التكبر عليهم والترفع عن مجالستهم.

كان ما لقيته شيئاً لا أحتاج معه، بعد إنجاز ما أنجزته، إلاّ للعزوف عن مخالطة الناس، والانكفاء إلى التأمل ومناجاة النفس، والخلود إلى الراحة الكاملة.

وكانت المطالعة سلواي الوحيدة، وكانت تمر بي خلال المطالعات بحوث وأخبار في غاية الأهمية، تتعلق بمن سجلت تراجمهم في «أعيان الشيعة»، فكنت آسف لأني لم أر ذلك قبل طبع الكتاب لأضيفها إلى تراجم أصحابها مشيراً إلى أنها مما استدركته على الترجمة، كما حصل ذلك مراراً خلال طبع الكتاب.

وفيما أنا منكب على المطالعة وقعت لي دراسة في إحدى المجلات تتعلق بالفيلسوف (أفضل الدين الكاشاني)، المعروف بأفضل المرقي، فعدت إلى «أعيان الشيعة» لأرى ما سجل فيه عنه، فإذا ما هو مسجل قليل، لأن تفاصيل أخباره لم تكن قد وصلت إلى مؤلف (الأعيان)، وليس ذلك مستغرباً فصاحب «الأعيان» لم يكن مستطيعاً أن يحيط بكل شيء، وحسبه فضلاً الوصول إلى ما وصل إليه.

فأفرزت مكاناً في محفوظاتي في المكتبة لترجمة أفضل الدين للرجوع إليها عند الحاجة، دون أن يكون في خاطري أي تفكير في مستدركات لأعيان الشيعة.

على أن ذكريات مرارة ما لقيت في إنجاز طبع «أعيان الشيعة» والوصول به إلى طبعته الأنيقة، إن ذكريات هذه المرارة أخذت تتقلص أمام الحلاوة التي أخذت أحسها من تداول «الأعيان» في أيدي الناس.

وإن انطباعات الغصص التي كابدتها، صارت تمحوها يوماً بعد يوم هذه الجرعات من الهناء التي كانت تعتادني من رؤية مجلدات الكتاب براقة على رفوف خزائن الكتب.

وشيئاً فشيئاً لم يبق في النفس إلاّ الشعور بالسعادة فأنستني كل ما مر، وفي هذه الغمرات الهانئة وجدتني مثقلاً بهمّ جديد هو همّ مرور الزمن بعيداً عن أي إنتاج، وعدت كما قال المتنبي:

وما في طبه إني جواد　　أضرّ بجسمه طول الجمام

لقد طال الجمام بعد طول العناء، فعاد هذا الجمام أشد على النفس من كل عناء، فهيا إذن إلى العناء من جديد شفاء من طول الجمام.

على أن شكواي لم تكن من العناء الجسدي، بل كانت من العناء النفسي في محاولة التعاطي مع من كان التعاطي معهم عناء للنفس دونه كل عناء!

أما الآن فلا عناء نفسياً لأن الإقبال على «أعيان الشيعة» جعل المعرضين بالأمس يقبلون اليوم.

وهنا تذكرت ترجمة أفضل الدين الكاشاني، وتذكرت من ماتوا بعد موت مؤلف «الأعيان» فلم يترجموا في «الأعيان» لأنه كان من طريقته أن لا يترجم للأحياء.

تذكرت ذلك فقمت إلى محفوظات المكتبة فاستخرجت منها ترجمة الكاشاني وأعددت لها إضبارة

خاصة كتبت على ظاهرها بخط عريض «مستدركات أعيان الشيعة»، وأفرزتها ناحية، فكانت هذه الترجمة نواة «المستدركات»، وكانت هذه الإضبارة أساس ما توالى بعدها من إضبارات، امتدت حتى أعطت حتى الآن خمسة مجلدات(٧).

أوائل العام الخامس والثمانين

إنني الآن في أوائل العام الخامس والثمانين من العمر، فكم ستمتد الحياة من السنين بعد هذا العام؟ بل الأحرى أن أتساءل كم ستمتد من الأيام والشهور؟ فبعد الخامسة والثمانين هل يمكن الطمع بسنين.

إن امتدادها إلى هذا الحد، إلى الخامسة والثمانين، مع الاحتفاظ بالصحة والنشاط والطموح والفكر لشيء كثير. فالأتراب ماتوا، والرفاق فنوا أو عجزوا!

وأنا لا أزال قائماً، والقلم في يدي أسطر به ما أسطر من بحوث «المستدركات» طوراً، ومن بحوث «دائرة المعارف الإسلامية الشيعية» طوراً آخر... فإلى متى سيدوم ذلك؟

اللهم هب لي ما تشاء من السنين أو الشهور أو الأيام، وسيكون إعظامي لهبتك أن لا أنفقها إلاّ في رضاك، ولا أحسب أن شيئاً يرضيك أكثر من تسطير صفحات مجيدة من تاريخ الأمة التي قلت عنها في كتابك العزيز: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»: أمة العرب وأمة المسلمين.

إن ما سجل في «أعيان الشيعة» ومستدركاته، وما سيسجل، وإن ما سجل في «دائرة المعارف الإسلامية الشيعية» وما سيسجل، ليس ـ كما قد يبدو من العنوانين ـ موضوعاً طائفياً، أو دراسة مذهبية أو بحوثاً فئوية.

إنه نشر لصفحات مطوية من أنصع صفحات تاريخ العروبة والإسلام، وتسجيل لأخبار من أنقى أخبار هذه الأوطان التي عاش فيها العرب والمسلمون.

في أول الطريق

الإضبارة النحيلة التي ضمت ترجمة واحدة، والتي استهلت باسم أفضل الدين الكاشاني، كنت أحسب أن ليس من السهل تضخيمها، وكنت لا أستطيع تقدير الزمن الذي يقتضيني لجعلها مستهل المستدركات المطبوعة. ولكن الأيام كانت تمر متنقصة من العمر، مزيدة في الإضبارة.

وحين تشعر أن الأيام تنتقص من عمرك وتسوقك إلى الموت بلا جدوى، وحين تغيب الشمس فتحس أنك خطوت خطوة إلى الفناء بلا أثر خلفته وراءك.

حين يكون الأمر كذلك يكون للحياة مرارة العلقم، ويكون طلوع الشمس وغروبها، طلوعاً للبلاء الذي لا غروب له.

لقد ذقت ذلك سنين من حياتي، يوم أبيت أن أخنع لواقع الدنيا في هذا الوطن، هذا الواقع الذي يجعلك وأنت الأنوف الأبي ـ يجعلك تقف موقف صاحب الحاجة أمام اللئام، أميي الفكر الذين أوصلتهم أحط الطرق إلى أن يكونوا قاضي الحاجات...



مع نخبة من علماء طهران الأفذاذ هم من يمين القارىء الشيخ محمد الجليلي، الشيخ عيسى الأهري، الشيخ محمود وحدت. والجالسون هم: الشيخ أبو ذر بيدار، السيد إبراهيم علوي، الشيخ عبد الرحمن واثقي. ويؤسفني أنه لم يكن موجوداً ساعة التصوير نظيران لهم هما السيد أبو القاسم ياسيني والسيد أبو الفضل اليعقوبي. ومجالسي معهم في منازلهم هي من أخلد المجالس في ذاكرتي وأطيبها في نفسي. إنها مجالس علماء مفكرين مخلصين أوفياء.

فآثرت الحرمان على الدنو منهم والوصول إلى أبوابهم.

فكان عليّ أن تمر أيامي خواء، وأن تنقضي حياتي هباء، وأن تشرق الشمس ولا جديد في شروقها، وأن تغيب فيطلع الأسى من مغيبها.

أما اليوم فللشمس أن تطلع ما طلعت، فإنها تطلع ويطلع معها أمل جديد، وتغيب فيشرق مع غيابها عمل عتيد.

ها هي الإضبارة التي كانت وحيدة تصبح إضبارات، وها هي ترجمة أفضل الدين الكاشاني التي كانت مفردة تصبح لها أخوات وأخوات!

كانت ثاني ترجمة أكتبها للمستدركات ترجمة المفكر العربي الكبير محمد شرارة الذي كان لم يمض على وفاته وقت طويل، وكم شعرت بارتياح نفسي وبهجة روحية، وأنا أخط سطور ترجمة هذا الرجل الذي أعطى أمته أفضل ما يعطي الرجال لأممهم. وكم حمدت الله لأن عملي الذي اخترته لنفسي هو تسطير تاريخ الرجال لأستطيع أن أعطي الرجال المستحقي العطاء ـ أن أعطيهم بعض حقهم!

ثم تلت ترجمة محمد شرارة ترجمة الشاعر العاملي إبراهيم شرارة الذي هو من صانعي النهضة الشعرية في جبل عامل في هذا العصر، وممن عرفتهم المنابر العاملية في مختلف ندواتها، سواء في أفراحها أو أحزانها، رفيعي الصوت في استنهاض الهمم، بليغي القول في استصراخ العزائم.

وإعداد ترجمة إبراهيم شرارة والحصول على بعض شعره كانا مثالاً لما كنت أعانيه من أقرباء بعض من أريد أن أذكرهم في المستدركات، فبعض هؤلاء الأقرباء كان يماطل ويطاول في حصولي على ما أريد، ثم كان يبدو وكأنه يمن عليّ بما يعطي إذا أعطى.

ولم يكن شقيق إبراهيم شرارة وحده الذي عانيت منه ما عانيت، ثم بعد انتظار أكثر من سنة لم يصلني منه شيء، بل وصلني ما أريده من قريب آخر لإبراهيم.

لم يكن شقيق إبراهيم شرارة وحده في ذلك بل كان له نظائر، ولكنهم قلة وفي المقابل كان هناك من بلغهم عملي، فأسرعوا هم من أنفسهم لإمدادي بما أريد سواء من كان منهم في لبنان أو العراق أو إيران أو الهند أو باكستان أو أفغانستان.

وكانت خطتي في المستدركات ذات ثلاث مناح:

١ ـ تراجم من توفوا بعد وفاة مؤلف «أعيان الشيعة».

٢ ـ إضافات إلى من ترجمهم، ثم وجدنا لهم ما يجب أن يضاف إلى تراجمهم.

٣ ـ تراجم القدماء الذين فات المؤلف ذكرهم.

وأخيراً صدر الجزء الأول من المستدركات على نسق الطبعة الجديدة من مجلدات الأصل: «أعيان الشيعة»، ولكن بعدد من الصفحات أقل.

وقد كانت قلة عدد الصفحات مفروضة علينا، إذ لم يجتمع لدينا من التراجم في المجلد الأول أكثر مما اجتمع، فآثرنا أن نُخرج ما اجتمع على أن ننتظر اجتماع أكثر مما اجتمع.



مع رجل العلم والعمل الشيخ علي أصغر مرواريد في مكتبة مؤسسته العلمية الكبرى (بياد انقلاب)

ولكننا حددنا بعد ذلك عدد صفحات كل مجلد، على أن لا نتجاوزها ولا نقلل منها، لكي تصدر المجلدات في حجم واحد ما عدا الأول الذي كان محكوماً علينا أن نخرجه بعدد الصفحات التي خرج بها.

دائرة المعارف

لم يشغلني العمل في «مستدركات أعيان الشيعة» عن التفكير في إكمال «دائرة المعارف الإسلامية الشيعية»، إذ إنني اقتصرت في إخراجها على ثلاثة مجلدات فقط. وكنت قد أعددت إضبارة خاصة لمواضيع جديدة للدائرة اجتمع فيها العديد من المقالات المتنوعة. وقررت أن أسير بالعملين معاً في وقت واحد.

ومن أجل ذلك كان لا بد من الانتقال إلى مختلف البلاد العربية والإسلامية للإتصال بالاختصاصيين واستكتابهم، والبحث في المكتبات العامة والخاصة، ومشاهدة كثير من المواقع مشاهدة عيانية. وكان ذلك متعذراً عليَّ لافتقاري إلى المال الذي لم أكن أملك منه شيئاً.

السفر إلى طهران

وكان أول مكان يجب أن أسافر إليه هو إيران. وكان لي صديق في طهران كان قد أقام مدة في بيروت مع أسرته وأولاده الذين ألحقهم بمدارس بيروت، وانصرف هو إلى العمل الذي كان يتعاطاه في طهران وهو حصوله على وكالات لبعض الشركات اليابانية واستيراد منتجاتها إلى تجار في بيروت، وبقي في بيروت إلى أن نشبت أحداث لبنان سنة ١٩٧٥ فاضطر إلى العودة إلى طهران.

وكانت أخباره قد انقطعت عني. وبدا أنه كان يتابع أخباري، وعلم من بعض المسافرين إلى طهران من بيروت بنبأ تفكيري بالسفر إلى طهران وترددي في ذلك. وكان يعرف عملي في «أعيان الشيعة» وفي «دائرة المعارف».

وفي مساء أحد الأيام رنّ الهاتف في منزلي، وأخذت السماعة فإذا بالصديق الطهراني يقول إنه يسكن وحده في شقة مستقلة وإن أسرته تفرقت في منازل متعددة، ولا يوجد غيره في مسكنه الجديد ويدعوني للإقامة معه طيلة وجودي في طهران مهما طال هذا الوجود، وأعطاني عنوان منزله ورقم هاتفه، وقال إنه في انتظاري.

وغادرت إلى طهران ووصلت منزل الصديق الذي قابلني بالترحيب وأعدَّ لي فراشاً على الأرض بدون سرير لأنه هو نفسه كان بدون سرير.

ولما لم يكن في البيت نساء، فكان أمر الطعام يقع علينا، وفي اليوم الأول تناولنا طعام الإفطار من (حواضر البيت) من حليب وشاي، وقبلت دعوته لتناول الغداء في المطعم الذي يرتاده، كما قبلت دعوته لتناول العشاء.

وابتداء من اليوم الثاني كان عليَّ أن أتدبر أمر الطعام اليومي. ولم يكن في إمكان طاقتي المالية تحمل نفقات مطاعم الدرجة الأولى التي يتنوع فيها وحدها الطعام الجيد حسبما يرغب الآكل من تنوع

الأطعمة النباتية واللحومية مضافة إلى أطباق الأرز. ولو كان الأمر أمر أيام معدودة تنقضي في الإقامة لكان يمكن تحمل أعباء نفقات تلك الأيام. ولكن الإقامة ستطول شهوراً، وما استطعت ادخاره من المال ينوء بتحمل تلك الأعباء.

فأقنعت مضيفي بأن نتناوب عمل طعامنا في المنزل بأيدينا يومياً، فأتولى أنا عمل الطعام في يوم ويتولى هو عمله في يوم. على أنني كنت لا أعرف من اللغة الفارسية إلاّ بضع كلمات، وأعرف الأعداد من الواحد إلى العشرة، لذلك كان يسهل عليَّ شراء «الخضروات» والفواكه، فأثمانها كانت معلقة عليها، فكان يكفي أن أشير إلى النوع الذي أريده وأحدد رقم الكيلو الذي أريد.

أما اللحم فكان شراؤه يحتاج إلى تفاصيل لا أعرف النطق بها بالفارسية، لذلك كان رفيقي هو الذي يتولى شراء اللحم ليوم نوبتي ويوم نوبته. وكنا قبيل النوم نحسب نفقات اليوم ونتقاسمها.

أما أنا فكان منهجي أن أنطلق في الصباح للتفتيش في المكتبات عن المصادر الفارسية التي تفيدني فيما أريده من مواضيع، فإن كان المصدر في مكتبة تجارية اشتريته، وإن كان في مكتبة خاصة استعرته وصورت ما أريد. ثم أذهب إلى مترجم اتفقت معه على الترجمة لقاء أجر معين.

كما كنت أجمع بعض المعلومات الشفهية وأدونها، وكذلك أستكتب بعض الأكفياء.

ثم أعود إلى البيت فأجمع ذلك كله وأعود أكتبه من جديد لا سيما المترجم منه لعدم سلامة اللغة المكتوب بها سلامة تامة.

أكلة شعبية

وفي يوم كان هو يوم نوبتي في عمل الطعام، عكفت فيه على تدوين موضوع من أهم المواضيع التاريخية، وكنت قد عثرت من أجله على مصادر قيمة عربية وفارسية. وبدأت الكتابة بعيد الظهر وانطلقت فيها كل الانطلاق، واستمر العمل وقتاً طويلاً، بدون أن أشعر بملل أو كلل لأهمية الموضوع وانشراحي الكامل للعمل فيه.

فأنساني ذلك أنني لست كاتب دائرة معارف فقط، بل إنني (طبّاخ) أيضاً وإن عملي ليس على المكتب وبين الأوراق والأقلام فحسب، بل في المطبخ أيضاً وبين القدور والمقالي.

ونظرت في الساعة فإذا هي في وقت متأخر، وتذكرت أن رفيقي سيحضر بعد قليل ومعدته متهيئة للطعام، ثم إنني أنا نفسي قد بدأت أشعر بالجوع، فرميت القلم من يدي، وألقيت الأوراق جانباً، ونهضت مسرعاً إلى المطبخ، فحرت فيما يمكن أن أطبخه، وما يمكن أن يخرج طعاماً ناضجاً في أقل وقت ممكن، ففكرت في اللحم فاستبعدته لأن اللحم يحتاج إلى تقطيع وتشذيب واقتضاء وقت أطول وعمل أشق.

والتفت فرأيت أمامي باذنجانة من النوع المدور الكبير، فعمدت إلى تقطيعها وأعددت المقلى وملأته بالزيت ووضعته على النار وأخذت أرمي فيه قطع الباذنجان فتئز أزيزها المعهود، فيتطاير من المقلى على يدي ما يتطاير من رذاذ الزيت المغلي.

ولم يكن الباذنجان المقلي وحده طعاماً يبيّض الوجه أمام الرفيق، بل كان لا بد من شيء آخر يضاف إليه، يمكن إيهامه به أنني أعددت طعاماً مقبولاً فعمدت إلى الأرز ووضعته في القدر على النار وقررت أن أخترع نوعاً من الطعام غير معروف، أوهم فيه الرفيق أنه (أكلة لبنانية) شعبية، وأني أردت أن أذيقه طعاماً لبنانياً طريفاً لم يعرفه وهو في لبنان.

وبعد تفكير لم يطل كثيراً عمدت إلى قطع الباذنجان المقلي فوضعتها في قدر الأرز وأخذت أخبطها مع الأرز فتنخبط فيه فيخرج من ذلك مزيج عجيب، الله وحده يعلم ماذا سيكون طعمه.

ولما أدركت أنه نضج صببته في الأطباق، فخرج لا هو بالمائع ميوعة الحساء، ولا بالجامد جمود الأرز، بل كان شيئاً بين هذا وذاك. ولم أشأ أن أذوقه، بل تركت شرف تدشين آخر اختراع في الطعام للرفيق العزيز.

ولكنني لا أنكر أن شكله ولونه أعجباني، فقد كان شكله المدور في الأطباق المدورة، ولونه المتشابك بين الابيضاض والاسمرار وشيء من الاحمرار، شكلاً لا ينقصه الجمال. أعجبني المنظر فشغلني عن التفكير في المخبر، وعن أن العبرة في الطعام لا بمنظره بل بمخبره، ولا بشكله بل بمذاقه.

وكنت ـ عند انشغالي بالقلي ـ وأنا أبصر الزيت يغلي في المقلى، وأبصر الباذنجان يتحول من ابيضاض ناصع إلى سمرة داكنة مؤطرة بالسواد الفاحم ـ كنت أحاول أن أروّح عن نفسي فأحوّل في ذهني الموقف من موقف (قلي الباذنجان) إلى موقف شعري أبصر فيه وأسمع انفجار فقاعات الزيت الممزوج بماء الباذنجان، وأشاهد تحول الأشياء من لون إلى لون، فأكدّ إحساسي لأخلق من ذلك جواً شاعرياً يعزيني ـ بالوهم ـ عما أنا فيه.

ولكن تطاير رذاذ فقاعات الزيت بنارها المحرقة على يديَّ كان يوقظني من الحلم الشاعري الموهوم. وإن التحديق في قطع الباذنجان الآخذة في التحول من البياض إلى السمرة والخوف من أن تتحول هذه السمرة إلى اسوداد، كان يردني إلى الحقيقة المريرة!

وفي لحظة من من اللحظات طافت على وجهي ابتسامة حزينة، كأنها تقول: إن اليد التي كانت تكتب ما تكتب، تقلي الآن الباذنجان...

وإن الذهن الذي كان يوحي ما يوحي، ضائع الآن بين التأكد من نضج الباذنجان وعدم نضجه، والخوف من زيادة هذا النضج إلى حد الاحتراق!

وجاء الرفيق العزيز، وإذا قست الأمر على نفسي فهو الآن جائع، لأنني أنا الآن في حالة جوع عارم. وفي الحال وضعت طبقين من (الأكلة اللبنانية الشعبية)، واحداً أمامي وواحداً أمامه.

وإذا كان الأخوان المصريون يمهدون لأكلاتهم الجيدة قائلين: ستأكل أصابعك وراءها، فإني في أعماق نفسي كنت أحس بأن صاحبي سيعض أصابعه ندماً على أن جعلني اليوم طباخه!

ومهدت للأمر بمقدمة تناسب الحال، تحدثت فيها عن الأكلات الشعبية، وأن لكل بلد خصائصه في

ذلك، فما يعجب الآكل في هذا البلد، قد لا يعجب الآكل في بلد آخر. قلت ذلك خوفاً من ردة الفعل عند الرفيق.

وشرحت حرصي على إذاقته من الطعام ما لم يذقه أبداً، محاولاً التباهي بذلك.

وكنت متكلاً ـ في نفسي ـ على ما هو عليه من الجوع، فإذا كان الطعام غير جيد، فالجوع الذي هو فيه سيلهيه عن عدم جودة الطعام، فيلتهمه غير مبال.

وأخذ اللقمة الأولى ووضعها في فمه، وأكون مبالغاً إذا قلت إنه كان على وشك أن يتقيأ، وأنا لا أحب المبالغة في الوصف. ولذلك أقول: إنه لم يكد يجيل اللقمة في فمه الجولة الأولى حتى قام في الحال فلفظ ما في فمه في سلة الزبالة، لاعناً الأكلات الشعبية لا في لبنان وحده بل في العالم كله.

ضيوف آخرون

في تلك الأيام التي كنت أتناوب فيها وصاحبي الإيراني صنع الطعام، وأنام في منزله على فراش رقيق على الأرض الصلدة، وأقدم له تلك الأكلات الشعبية، متحملاً ذلك في سبيل إخراج الموسوعات التي فيها ما فيها من تسجيل مفاخر للبلد الذي أنزل فيه.

في تلك الأيام كان ذلك البلد يستضيف لبنانيين آخرين فينيمهم لا على الأرض الصلدة في المنزل المتواضع، بل في الأسرة الفاخرة على الفرش الوثيرة في الفنادق المترفة، ويطعمهم لا الأكلات الشعبية الباذنجانية بل الأكلات الشعبية (الفسنجونية) لأن أولئك يتقنون التبخير ويتفوقون في التطبيل والتزمير. وهم لطول ما أكلوا على شتى الموائد يعرفون ـ كما يقول المثل العربي ـ يعرفون من أين تؤكل الكتف...

ونحن لا نعرف حتى كيف يؤكل الباذنجان!

محني الظهر مطأطىء الرأس

كنت في أحد الأيام على موعد للقاء أحد مقتني المكتبات في منزله، وذلك لمراجعة ما قيل لي من أن في مكتبته الكثير من المصادر المفيدة، فخرجت مع الرفيق العزيز إلى أحد مواقف الحافلات (الأوتوبيسات) لنمتطي أحدها إلى المنزل المقصود.

والانتقال داخل طهران مشكلة من المشاكل المضنية، فلاتساع العاصمة وكثرة سكانها وتباعد أطرافها، كان التنقل داخلها مضنياً، فهذا التنقل محصور بواسطتين: الحافلات، أو التكسيات. أما الأولى فهي دائماً مزدحمة، وللحصول على مكان فيها لا بد من أن يقف الناس في صفوف طويلة قد يبتعد مداها أحياناً ابتعاداً أي ابتعاد.

هذا في مواقفها الرئيسة التي تنطلق منها انطلاقها الأول. أما في مواقفها في طرق سيرها في الشوارع ففي كثير من الأحوال لا يفيدك الوقوف في الصفوف ولا التكتل غير المنتظم، لأن الحافلة تمر ممتلئة امتلاء لا خلاء فيه لموضع قدم، فإذا لم يكن أحد يريد النزول منها فإنها لا تقف لأنه لا فائدة من وقوفها ما دام يتعذر الصعود إليها في أكثر الأحيان، أما (التكسيات) فإنه مع وجود العدادات فيها، فإنه لا فائدة من استعمال العدادات، ولا فائدة في أكثر الأحيان من إيقافها لأنها دائماً تنقل أشخاصاً مختلفي

المقاصد، فهي تمر دائماً مملوءة، فإذا مر أحدها وفيه فراغ فعليك أن تعين له الجهة التي تقصدها فإذا كانت على طريقه أخذك وإلاّ تركك. ويندر جداً أن تجد (تكسياً) فارغاً فتحدد له الجهة التي تقصدها فينقلك إليها. فلذلك أنشئت مكاتب لشركات تتفق كل واحدة منها مع مجموع سيارات تقف في مكاتبها، لتنتظر من يهاتفها ويعين لها عنوانه فتذهب السيارة إليه وتنقله إلى حيث يريد. وأجور هذه السيارات أجور باهظة لا يستطيع كل أحد تحملها.

وكنت أحياناً أضطر لاستئجار واحدة منها، وذلك عندما كنت أريد السفر إلى إحدى المدن وأكون مضطراً للوصول إلى أماكن تجمع حافلات نقل الركاب إلى المدن، وهي تجمعات في أطراف طهران البعيدة.

فكان صاحب المكان الذي أكون فيه يهاتف شركة من الشركات القريبة فيرسل لنا سيارة لتوصلني إلى مكان تجمع حافلات المدينة التي أقصدها. وأجور هذه السيارات لا مساومة فيها ولا تحديد لها فهي متروكة لتقدير السائق، وعليك أن لا تعترض أي اعتراض. والأجور التي يفرضها السائق إنما يفرضها على أنها موزعة بينه وبين الشركة، وعلى أساس أنه سيعود بسيارته فارغة. ومن هنا كانت أجورها الباهظة.

وفي إحدى المرات دفعت لسيارة أوصلتني من المنزل الذي كنت فيه إلى تجمع حافلات مدينة قم سبعين توماناً، في حين أن ما دفعته للوصول من طهران إلى قم كان سبعة توامين.

وقفت مع الرفيق العزيز في موقف الحافلات في الشارع على أمل أن تقف حافلة فنجد فيها مكاناً أو يمر (تكسي) فنجد فيه مكاناً، ولكن الحافلات كانت تمر مملوءة، و(التكسيات) تجتاز مشحونة والساعة تتقدم عقاربها نحو وقت الموعد مسرعة، وأخذ هذا الوقت يزاحمنا. وفجأة لمحت حافلة من الحافلات الأهلية الأصغر حجماً من الحافلات الحكومية ولمحت فيها فراغاً يتسع لوقوف اثنين فأهبت برفيقي لإيقافها والصعود إليها، فكان ذلك، وصعدنا وانحشرنا بين المنحشرين، فإذا بهذه الحافلة الأهلية كمعظم مثيلاتها واطئة السقف بحيث لا يستطيع الواقف أن يقف فيها إلاّ وهو محني الظهر مطأطىء الرأس.

وكان المكان الذي نقصده بعيداً، وهكذا وقفنا كغيرنا من الواقفين وقفتنا هذه. ومن أعجب الأعاجيب أن تصنع مثل هذه الحافلات بسقوف واطئة، مع اليقين أنها ستحتوي دائماً مجموعة من الواقفين.

وبينما كانت الحافلة تسير ونحن في وقفتنا الصعبة، طغت على وجهي الابتسامة الحزينة نفسها التي طغت عليه وأنا أقلي الباذنجان، وكأنها تقول:

هكذا يتنقل المؤرخ وهو يسعى لتسجيل أمجاد شعب هذه العاصمة، هكذا يتنقل في شوارعها محني الظهر مطأطىء الرأس!

مؤتمر الشيخ المفيد

تلقيت دعوة لحضور مؤتمر علمي يعقد في مدينة قم احتفالاً بمرور ألف عام على وفاة الرجل الكبير الذي اشتهر بلقبه العلمي (الشيخ المفيد) وفي اليوم الخامس عشر من شهر نيسان/ أبريل سنة ١٩٩٣ كنا نأخذ السيارات من بيروت إلى دمشق ومنها نأخذ الطائرة إلى طهران.

ووصلنا ليلاً إلى مطار طهران وانتقلنا منه في السيارات إلى قم وقضينا الليل في الفندق المعد لنزولنا مع بقية المدعوين من الأقطار الأخرى.

وقد كان هذا المؤتمر التجربة الأولى لرجال الحوزة العلمية في قم، إذ إن القائمين به هم من أطلقوا على أنفسهم اسم «جماعة المدرسين»، والمقصود بالمدرسين: مدرسو الحوزة.

وقد أثبت المشرفون على إعداد المؤتمر وتنظيمه وإدارته جدارة عالية في هذا الأمر، وبرهنوا على أنهم أكفياء للقيام بمثل هذه المهمات التي لا عهد لهم بها من قبل. وكان المؤتمر ـ بفضل جهودهم ـ ناجحاً، سواء بالإقبال على حضوره أو فيما كتب له من بحوث، ما ألقي منها على الحاضرين وما لم يلق.

وفي الوقت الذي دعيت فيه إلى المساهمة في مؤتمر الشيخ المفيد في قم، أنبئت أننا مدعوون أيضاً إلى مؤتمر تذكاري لعالم الفلسفة الإسلامية الشهير الشيخ هادي السبزواري . وقد أنبئنا بذلك قبل يوم واحد من موعد السفر من بيروت. لذلك لم يكن مستطاعاً إعداد دراسة عن السبزواري.

ولكنني مع ذلك صممت على تلبية الدعوة لأن لسبزوار في ذهني صوراً تاريخية زاهية، ويكفي في ذلك أن منها انبثقت حركة (السربداريين) في قرية غير بعيدة عن المدينة نفسها، هذا فضلاً عما يتيحه لي حضور المؤتمر من لقاءات ومشاهدات فيها الكثير من الفائدة.

ومضوا بنا بعد انفراط عقد مؤتمر الشيخ المفيد ـ مضوا بنا من قم إلى طهران حيث قضينا يوماً وليلة فيها، وفي أصيل اليوم الثاني انتقلنا في الطائرة من طهران إلى مشهد، فلم نبرح مطارها، بل مضينا في الساعة السابعة مساء في يوم ٢٢ نيسان/ أبريل ١٩٩٣ في السيارة قاصدين مدينة سبزوار، مصحوبين بالسبزواريين الذين انتدبوا لاستقبالنا في المطار.

وكان الذين لبوا دعوة مؤتمر سبزوار من غير الإيرانيين قليلين لا يجاوزون بضعة أشخاص بينهم السيد (شجيرو كامادا) أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة طوكيو.

سرنا في جادة عريضة لها اتجاهان في السير يفصل بينهما وسط مخضوضر، وعلى جانبيها شواهق البناء، ووراء الشواهق البساتين النضيرة.

كنا نسير في مدينة مشهد في جادة من جوادها المتمادية في العرض والطول، ولم نلبث أن تركنا الجادة منحرفين إلى اليسار في طريق ضيق تمتد فيه الأشجار ووراءها البساتين ثم انحرفنا إلى اليسار أيضاً ولكن في طريق عريض تتكاثف الأشجار على ضفتيه، وتمثل هذه الأشجار طلائع للبساتين التي وراءها.

ولم يلبث الشجر أن توارى وصارت الأرض جرداء تتخللها البيوت المبثوثة هنا وهناك وهنالك، ثم امتدت إلى يسارنا تلال ترابية لها أشكال الأهرام. ثم انقطع العمران وصرنا في سهول مديدة أكسبها فصل الربيع خضرة يانعة، على أنها ليست سهولاً منبسطة تمام الانبساط، بل فيها ما يرتفع وفيها ما ينخفض. ترتفع في أكثرها وتنبسط في أقلها، لا سيما على جانبي الطريق حيث تصبح تلالاً متتابعة.

ثم بدأ الظلام يرخي سدوله، وأخذت بعض الأنوار تلتمع في السهل الواسع، هي أنوار معامل وأنوار سيارات، وقل العمران، ثم انعدم كل الانعدام.

إنها سهول زراعية مديدة لا مكان فيها لغير النبات، فلا قرى ولا دساكر ولا مزارع ولا سكان، وهذا يبدو جلياً مما يرين عليها من ظلمة داجية لا تلمح خلالها بصيصاً من النور. اللهم إلاّ الأنوار المتماوجة بيضاء في مصابيح السيارات القادمة وحمراء في مصابيح الذاهبة.

ولم نلبث أن لمعت إلى يسارنا أنوار متكاثفة بعيدة علمنا أنها أنوار قرية (جمال ده)، ثم تلتها أنوار قرية أخرى ثم إلى يميننا قرية (فخر داود).

إننا منذ خروجنا من مطار (مشهد) نمشي في سهول خراسان ونشق البراري التي تعاقب على شقها منذ صدر الإسلام من نحس الآن ذكراهم في مسيرنا الليلي الداجي هذا. ومهما استغرقَت في الحاضر وتطلعت إلى الآتي، فإنك وأنت في ليل سهول خراسان ستراك مشدوداً إلى الماضي!

لله ما يثير في النفس هذا الظلام الدامس تارة، والموشى بالمصابيح تارة أخرى ـ لله ما يثير في النفس حين تعي أنه الظلام الذي طالما جازته أحداث هي من تاريخك في الصميم.

ومضت السيارة توغل في الحاضر، ومضيت معها أوغل في الغابر!

ثم طلعت إلى يسارنا أنوار قرية (ديزباد) العليا، ثم إلى يميننا أنوار (علي آباد)، ثم تتابعت أنوار الدساكر والقرى.

هذا الطريق الذي نسير فيه هو في الحقيقة طريق طهران ـ مشهد، فنحن حين خرجنا من مشهد في هذا الطريق كنا نعود راجعين من حيث أتينا، راجعين باتجاه طهران.

ذلك لأن لا مطار في (سبزوار)،فمن أجل الوصول إليها لا بد أولاً من تجاوزها بالطائرة وصولاً إلى مشهد، ثم العودة إليها بالسيارة من مشهد.

بعد أن كانت الأنوار تبدو بعيدة عنا في عرض السهل، رأينا الآن أنوار مزرعة قرب الطريق ثم أنوار استراحة يفيء إليها المسافرون المتعبون القادمون براً من طهران إلى مشهد. ثم تتابعت بعد أنوار قرية (حاجي آباد) الملاصقة للطريق ـ تتابعت أنوار القرى القريبة والبعيدة، وتكاثرت بحيث قرب بعضها عن بعض.

وبعد حوالى الساعة كنا نخترق أول شارع من شوارع مدينة (نيسابور)، فبدت أنوار نيسابور ممتدة على الجانبين. وظللنا نمشي في جادة طويلة عريضة مضاءة، إلى أن انقطع نور الجادة، وابتعدنا عن النور، فبدا لنا أننا خرجنا من نيسابور.

لقد خرجنا فعلاً من نيسابور، وما بات يلوح لنا من أنوار قريبة أو بعيدة إنما هو أنوار الضواحي.

وفي هذه الساعة الليلية الخراسانية، وفي هذا الطريق الحضاري المديد، وفي هذا الزمن المنتمي إلى السنين الأخيرة من سني القرن العشرين، لم أستطع حيال هذه الأنوار التي تدنو حيناً وتنأى حيناً، وتتكاثف مرة وتتفرد مرة، لم أستطع إلاّ أن أتمثل بالشعر العربي المنتزع من صميم البداوة ابتداء من الشعر الجاهلي فما بعده. هذا الشعر الذي كانت تشغله أنوار النيران المتفردة في أعراض السهول فيستلهمها أعذب الشعر وأرقه.

لم أملك نفسي من أن أنشد وأنا مغمور بليل خراسان مندمج في سهول نيسابور.

إلاّ أن أنشد الشعر العربي المستوحى من ليالي الجزيرة والمستلهم من فيافي الدهناء وسهوب الدخول وحومل إلاّ أن أنشد:

لمعت نارهم وقد عسعس الليل ... ومل الحادي وحار الدليل
فتأملتها وفكري من البين عليل ... ولحظ عيني كليل
وفؤادي ذاك الفؤاد المعنى ... وغرامي ذاك الغرام الدخيل
ثم قابلتها وقلت لصحبي ... هذه النار نار ليلى فميلوا

على أن هذا النور لم يكن نور (ليلاي) لأقول لصحبي: هذا نورها فميلوا بي إليه، فنور (ليلاي) هناك بعيد.... بعيد...

وهكذا ظللنا نمشي بين نور وظلام حتى كانت الساعة قد بلغت حوالى التاسعة فإذا أنوار سبزوار تشع أمامنا ممتدة في عرض السهل، ثم كنا ندخلها منحرفين إلى الشمال في شارع مشع هو سوق من أسواقها، ثم كنا نوغل في شوارعها التي كان بعضها يعج بالحياة في تلك الساعة من الليل.

ومضوا بنا إلى مكان نزولنا، فدخلنا مبنى حسبنا أول الأمر أنه فندق كغيره من الفنادق، ولكن مظاهر ما فيه كانت غريبة، وأول غرابة بدت لنا هي أن جلوسنا إلى مائدة العشاء كان على مقاعد خشبية مستطيلة، إلى موائد هي الأخرى خشبية مستطيلة، مما لا تعهده الفنادق، وكان كل شيء في غرفة الطعام غريباً.

ثم كشفوا لنا الحقيقة الطريفة عندما كانوا يهيئوننا للانتقال إلى غرف النوم.

ليس في مدينة سبزوار فنادق فلا يزال أهلها على الفطرة الكريمة القديمة التي تأبى إلاّ أن يستقبلوا ضيوف المدينة في بيوتهم. ولما كان ليس من المعقول أن يستضاف هذا العدد الكبير من المشاركين في المؤتمر في البيوت، لذلك ارتأى المشرفون على المؤتمر أن يكون نزول الضيوف في (القسم الداخلي) لجامعة سبزوار، فأفرغوه من الطلاب وأحلوا الضيوف محلهم فبعد غرفة الطعام (الطلابية) مضوا بنا إلى غرف النوم (الطلابية) التي كانت أسرتها ذات طبقات ثلاث يؤلف كل سرير طبقة.

فكان هذا الحل أفضل حل لهذه المشكلة (السبزوارية). وأشهد أننا لم نشكُ شيئاً يخل بالراحة، بل كنا بذلك مغتبطين مأنوسين.

على أن هناك من قال إن هذا الحل لم يكن لأن سبزوار تخلو من الفنادق، بل لأن القائمين على المؤتمر هم مجموعة من الناس محدودة الإمكانات المالية، فلا تستطيع تحمل نفقات الفنادق للعدد الكبير من المدعوين.

وقد اجتمعنا نحن غير الإيرانيين في غرفة واحدة اتسعت لنا جميعاً بفضل طبقات أسرتها.

مؤتمر السبزواري

استمر المؤتمر يومين تعقد في كل يوم جلستان جلسة قبل الظهر وجلسة بعد الظهر. والجلسة عبارة عن

محاضرات يتناوب على إلقائها المدعوون للمشاركة في المؤتمر، وكانت كلها باللغة الفارسية، ولا مكان للترجمة الفورية هنا، وذلك لأن المؤتمر كان معقوداً للإيرانيين وحدهم، ولم يكن في النية دعوة أحد من خارج إيران ولكن عندما عرف القائمون على أمر المؤتمر بتطابق الوقت بين المؤتمرين: مؤتمر قم ومؤتمرهم في سبزوار، وأن موعد المؤتمر السبزواري يصادف بعد نهاية المؤتمر القمي كلفوا القائمين على مؤتمر قم أن يدعوا بالنيابة عنهم المدعوين إلى مؤتمر قم.

وبعد انتهاء مؤتمر الشيخ المفيد خُيّر الضيوف بين زيارة أصفهان وبين الذهاب إلى سبزوار، فاخترنا نحن القلة الذهاب إلى سبزوار.

وفي الجلسة الأخيرة للمؤتمر رأيت أن من حق الداعين لنا أن نشاركهم بكلام عن مؤتمرهم، وأنه ليس من الإنصاف أن نظل ساكتين فلا يكون لنا على منبرهم صوت من الأصوات.

وهنا عنّت لي فكرة المشاركة في المحاضرات لا بحديث عن السبزواري، بل بحديث عاطفي عن سبزوار.

فإن علي بن المؤيد الذي دعا محمد بن مكي (الشهيد) هو خراساني سبزواري، إذ هو آخر الملوك السربداريين الذين قامت حركتهم أول ما قامت في قرية من قرى سبزوار قريبة منها. ثم تمركزت الحركة أكثر ما تمركزت في سبزوار.

فعلي بن المؤيد داعي الشهيد الأول محمد بن مكي هو في حقيقة الأمر سبزواري.

ومعلوم أن الشهيد اعتذر عن إجابة دعوة علي بن المؤيد، وأرسل له كتاب «اللمعة» ليكون دليلاً لطالبي الاسترشاد والهداية.

فقررت أن تكون كلمتي المرتجلة مستمدة من هذه الوقائع فطلبت من صاحبي السبزواري الذي انتدب لمرافقتي مدة إقامتي في سبزوار الأستاذ صاحب علي أكبري رئيس قسم اللغة العربية في جامعة سبزوار أن يصحبني إلى منبر المؤتمر ليترجم ما أقوله جملة جملة.

وأرسلت إلى مدير الجلسات أطلب الكلام، فأعلن اسمي ومشيت إلى المنبر مع الأستاذ أكبري فكان خلاصة ما قلته: إن بيننا نحن في جبل عامل وبينكم أنتم في سبزوار رابطة لا تنقطع على مدى الدهر، هي كتاب «اللمعة» الذي كان اقتراحاً سبزوارياً وتنفيذاً عاملياً.

وإذا كان تعذر على الشهيد محمد بن مكي أن يلبي دعوة أسلافكم، فها أنا آتيكم من جبل عامل ملبياً دعوتكم حاملاً إليكم تحية العامليين.

ولم أكن أتوقع أن يكون لكلامي ما كان له من الأثر على السبزواريين الذين هبوا من مقاعدهم يهتفون بأعلى أصواتهم بالصلاة على محمد وآل محمد، والهتاف بالصلاة على محمد وآل محمد هو المتعارف عليه في مثل هذه الاحتفالات للتعبير عن التقدير والاستحسان، أما التصفيق فلا مكان له.

ولكن السبزواريين لم يكتفوا بالصلاة على محمد وآل محمد، بل أعقبوها بعاصفة من التصفيق الحاد الطويل.

والواقع أن ذلك كله كان تحية لذكريات الماضي المرتبطة بالحاضر، تحية للسربداريين ولآخر ملوكهم علي ابن المؤيد داعي العالم العاملي الكبير، وتحية لهذا العالم المستشهد في سبيل الحق والصدق والإخلاص، وتحية لبعث هذه الذكريات في هذه الليلية السبزوارية الوفية.

لقد كانت ليلة سبزوارية عاملية.

في طهران مرة ثانية

في الأيام الأخيرة من شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٦ كنت أعد العدة للسفر إلى طهران سعياً وراء مصادر لـ «دائرة المعارف» الشيعية و«مستدركات أعيان الشيعة»، ثم كنت في مطار بيروت أصعد الطائرة الموصلة إلى مدينة (دبي) في دولة الإمارات العربية المتحدة، لأصل بعد دبي إلى طهران.

وإذا كنت في سفر سابق إلى طهران قد لبيت دعوة طهراني بسيط دعاني لأشاركه السكن في منزله المتواضع الذي صار يسكنه وحده بعد تفرق أولاده عنه، وذلك لعلمه بعجزي المالي عن السكنى في الفنادق مدة طويلة.

هذا الطهراني الطاهر الذي بلغني منذ أسابيع أنه توفي، والذي لم أذكر اسمه عندما دوّنت قصتي معه في فصل سابق من (الذكريات)، والذي أطنبت في الحديث عن (الأكلة الشعبية الباذنجانية) التي أعددتها لعشائي وعشائه... والتي لم يكد يضع اللقمة الأولى منها في فمه حتى أسرع إلى (سلة الزبالة) فقذفها من فمه في السلة!

هذا الطهراني أذكر اسمه اليوم بعد وفاته، إنه مهدي رويان رحمات الله عليه... إذا كنت في السفر السابق قد لبيت دعوة مهدي رويان ونزلت في منزله أنام مثله على الأرض الصلدة فوق الفراش الرقيق، وأتناوب وإياه صنع طعامنا، فيطبخه كل يوم واحد منا، فإنني في هذا السفر ألبي دعوة رجل العلم والعمل والإخلاص الشيخ محمد واعظ زاده الخراساني، لا لأفيء إلى منزل متواضع، ولا لأنام على الأرض الصلدة ولا لأتناوب طبخ الطعام، ولا لأقلي الباذنجان، ولا لأمتطي الحافلة الواطئة السقف فتسير بي محني الظهر مطأطيء الرأس. بل لأنزل منزلاً هو في حقيقته قصر منيف، ولأنام في الفراش الوثير على السرير، وليأتيني الطعام إلى غرفتي لا



مع الحاج مهدي رويان

(أكلة شعبية باذنجية)، وإنما ما لذَّ وطاب مما يخرجه المطبخ الإيراني بذوقه الرفيع!

ولا لأتنقل في شوارع طهران بالحافلة الواطئة السقف، بل في السيارة المترفة التي أستدعي سائقها فيسرع ملبياً متنقلاً بي حيث أريد من المنازل والمكاتب والمكتبات!

أما لماذا كان هذا، اليوم، وكان ذاك بالأمس؟! فلأن رجلاً من طراز الشيخ محمد واعظ زاده الخراساني مرَّ في بيروت والتقينا، وكان يعلم حاجتي للمصادر فيما أدوّن في مستدركات أعيان الشيعة وفي دائرة المعارف، وكان يعرف أن هذه المصادر موفورة في إيران، ويعرف رغبتي في الاطلاع على هذه المصادر.

وكان هو يشرف في طهران على هيئة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وكانت هذه الهيئة قد أعدت فيما أعدت من مبانيها مبنى يستقبل الباحثين ويضمن لهم الإقامة المريحة لينصرفوا إلى بحوثهم ودراساتهم.

فدعاني لأن أكون ضيف المؤسسة.

الهوامش:

(١) للقارىء أن يعود إلى القصائد التي مرت خلال الكتاب في ذكر الذكريات.

(٢) الكرادة الشرقية من ضواحي بغداد.

(٣) الأكروبول في أثينا ومن قمته يرى الناظر أثينا كما يرى دمشق من قاسيون.

(٤) مضيق مسينا.

(٥) بركان سترومبلي.

(٦) المقصود بالقبب قصور الأعداء التي قامت فوق أجداث العرب.

(٧) كان هذا قبل العمل في المجلدات: السادس والسابع والثامن والتاسع التي هي الآن في أيدي القراء.

القسم الثاني:

الترحال



حسن الأمين

الفصل الأول

الترحال إلى العراق(*)

صباح الغوطة

تحركت السيارة بنا حوالى الساعة الخامسة صباحاً مخترقة شوارع دمشق الغافية في تلك الساعة الباكرة ثم خرجت بنا من دمشق، فجلت بطرفي إلى ما حولنا من فتون الطبيعة وروعة جمالها، فكانت مشاهد الغوطة تمر أمام العيون مراً سريعاً لا تستطيع معه النفس التملي من محاسنها الرائعة، فاجتزنا دوما وحرستا ومستشفى القصير.

وكانت كروم العنب تغطي السهول حولنا على مسافات شاسعة، ثم انقطعت الكروم فجأة وبدت الأرض جرداء كالحة فكانت تظهر إلى يسارنا سلسلة تلال طويلة وإلى يميننا سهول واسعة تلوح فيها عن بعد قرى مبثوثة هنا وهناك، ثم اختفت القرى ولم يبق أمام عيوننا إلاّ السهول إلى اليمين والتلال إلى اليسار حتى لاحت لنا قرية ضمير وما هو غير قليل حتى كنا نخترقها ونجتازها.

وبعد الخروج من ضمير تلفتّ إلى الوراء ملقياً النظرة الأخيرة على مغاني الغوطة ومعاهد دمشق التي غابت وراء الموامي.

فقلت لقلبي حين خف به الهوى ... وكاد من الوجد المُبِرّ يطير

فهذا ولمّا تمضِ للبين ليلة ... فكيف إذا مرّت عليك شهور

وأصبح أعلام الأحبة دونها ... من الأرض غَول نازح ومسير

لقد انقطع العمران بعد ضمير ودخلنا في البادية فكنا نبصر إلى اليمين سهولاً لا آخر لها وإلى اليسار على بعد تلال متصلة ظلت ترافقنا حتى دخلنا مرحلة (أبو الشامات) وهي مخفر يقوم في الصحراء فيه مركز للدرك السوري ومركز للجمرك فتوقفنا هناك ريثما أخذت جوازات السفر للتأشير عليها.

في الصحراء

ثم قمنا بعد ساعة إلى السيارة مستأنفين السير في عرض بادية الشام التي كسرت سَورتها هذه السيارات

الجبارة فقربت أبعادها وذلّلت صعابها، ولم يكن أمام العيون سوى هذا السهل الأفيح تتخلله تلول كثيرة نراها على بعد منتشرة إلى يميننا ويسارنا.

وفي وسط هذه الصحراء الهائلة التي أصبحنا في صميمها، والتي كنا نحسب أن لا أثر للحياة فيها، كنا نبصر رعاة تسوق أباعرها في هذا البر الأقفر فما ندري كيف جاءت وأين تعيش وأين تذهب وأين منازلها وأهلها؟ وإذا كان الجو اليوم معتدلاً فكذلك كنا نبصرها يوم اجتزنا الصحراء في حمارة القيظ.

ولقد ذكرت وأنا أتطلع إلى ذلك الراعي البدوي غير الحافل بما في الحياة من نعيم حضري ورفاه مدني، والضارب في قلب الرمال مرحاً طروباً يحدو لإبله ويشدو لسائمته، ذكرت ذلك الأعرابي الذي سألوه كيف تفعل في البادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله؟

فقال: وهل العيش إلاّ ذاك... يمشي أحدنا ميلاً فيرفضّ عرقاً كأنه الجمان ثم ينصب عصاه وينشر عليها كساه فتهب الريح من كل جانب فكأنه في إيوان كسرى!...

وتغلغلنا في حشا الصحراء فكانت المشاهد الواحدة التي لا تتبدل تبعث في النفس السأم والضجر حتى بدا لنا تل صغير تقوم في رأسه بنية يخفق فوقها علم عرفنا من الصوى المنصوبة على الطريق أن اسم المكان (السبع بيار) وأنه مركز (التلغراف اللاسلكي) فكان مظهراً واضحاً من مظاهر حضارة هذا القرن التي اجتاحت كل شيء حتى حطت في هذه البوادي المتمردة تخضعها لأمرها، وتنزلها على حكمها.

ظللنا نشق الصحراء فما يتغير فيها منظر فنحسب أننا لا نبرح مكاننا وأننا لا ننفك في البقعة التي طلعنا منها، وفجأة لمحنا نصبين متوازيين يقومان على نشز من الأرض قيل لنا إنهما سمة الحدود بين الشام والعراق وإننا بعدهما ندخل الأرض العراقية. وما لبثنا أن وقفنا عليهما هنيهة نتطلع إلى هذه الأحجار التي يراد إليها أن تفصل بين أراضي العرب، وما تصنع الأنصاب والأحجر أمام وحدة الشعور وارتباط القلوب...

وشعرنا بعد اجتياز الحد العراقي بزمن أن تبدلاً طرأ على الجو وأن شيئاً من الحرارة أضحى يشوب هذا الهواء اللطيف، ولكنها حرارة ظلت خفيفة لا تؤثر شيئاً.

وهنا أيضاً في هذه المهامه الموحشة كنا نبصر عن بعد أذواداً من الإبل حولها نفر من البدو، ووالله لقد حيرنا هؤلاء الأعراب. فكيف هبطوا هذه الأرض؟ وهل في هذا الموات عمران وحياة؟ لقد قطعت السيارة عن آخر نقطة من الحياة في أرض الشام الساعات الطوال، ولا يزال بينها وبين أول نقطة للحياة في أرض العراق الساعات الطوال، فبين هؤلاء الرعاة وإبلهم وبين العمران أيام أي أيام وليال أي ليال فعن أي شِعب صدرهم وإلى أي جزع وردهم؟

إنه لا بان هنا يحطهم في ظلاله التهجير ولا أراك يرميهم إليه حر السموم فمن أين يقبلون، وإلى أين يمضون؟!

في الليل

ومضت السيارة لا تلوي على شيء وكنا نتطلع بلهفة إلى الأمام علّ طلائع الحياة تطل من خلف

السهوب فتذهب بوحشة النفس ونصب الجسم. وكنا قد أمسينا على أبواب الغروب ثم أظلنا الليل بجلبابه الواسع فزادنا وحشة ونصباً. ولم نلبث أن لاحت لنا في جوف الليل أنوار الرطبة الحمراء السامقة فكانت خير أنيس. ثم انكشف الظلام عن أنوارها البيضاء، ثم ولجناها مستبشرين متهللين وكانت مقاهيها جياشة بركاب السيارات التي سبقتنا إليها وكانت أصوات الحاكي تشق الفضاء والركاب يتناجون طربين ضاحكين. وللرطبة فضل أي فضل على قاطع الصحراء فهي الأمل الباسم في ذلك العبوس المريع.

ثم قمنا على صوت النفير إلى السيارة تشق بنا فحم الليل، فما لبثنا أن هومنا واستسلم أكثرنا للكرى فكنا نصحو ونغفو حتى طالعنا الفجر فالشمس، فكانت مشاهد جد جميلة. وإذا بنا نبصر طريق السيارة قد تبدل من رمال وحصى إلى أسفلت معبد ثم كنا بعد قليل في الرمادي قاعدة لواء الديلم العراقي وتركنا الرمادي قاصدين بغداد فكانت أشجار النخيل تطالعنا في السهول المنبسطة أمامنا فتبعث فينا الانشراح. ورأينا الفرات لأول مرة فهز مرآه النفوس فكان يسايرنا حيناً ثم يختفي حتى بلغنا جسر الفلوجة الجميل، وخرجنا من الفلوجة إلى أرض صحراوية خلنا معها أنا عدنا إلى الوراء ثم أخذنا في طريق مزفت كان يقربنا من دار السلام.

ثم لاحت مآذن الكاظمية وقبابها، ومعاهد بغداد ومنازلها.

الرحيل عن بغداد في القطار

أخذت بغداد تتوارى وراء الليل، وتنطوي خلف السجف السود، وغاب ضجيجها عن الآذان وبعدت صورتها عن العيون، ولم يبق منها سوى هذه الأضواء الكهربائية تتعالى ببياضها الناصع وحمرتها الوهّاجة، ثم تأخذ بالاختفاء قليلاً قليلاً حتى لا نعود نبصر سوى الظلام الدامس يطبق من كل ناحية. وما هو أن يمضي القطار ممعناً في الإدلاج حتى تتتالى شتى المشاهد، وتحول الظلمة الكالحة إلى بصيص من النور يتجلى في هذه المصابيح التي تنير المحطات القروية في (الدورة) (وهور رجب). ثم نعود إلى السدف الغاسق حتى تلوح لنا أنوار (المحمودية) المتلألئة، ولم نزل ننقلب من حال إلى حال ومن ظلال إلى نور حتى بلغنا بلدة «المسيب» وشع في وجوهنا ألقها الوقاد، ومن ذا الذي يمر بالمسيب ولا يمر في ذهنه جسرها الجميل وبيته الشعري الشعبي الخالد الذي أودع فيه ناظمه حلاوة اللفظ وعذوبة المعنى ورقة العاطفة:

عـا جـسـر المسـيـب سـيـبـونـي   حـبـاب قـلـبـي مـن مـشـوا مـا ودعـونـي

الغناء العراقي

وقد كان الوقوف على المسيب كافياً لأن يحرك الألسنة التي كانت ساكنة حتى الآن، وأن يطلق الشفاه التي لم تكن قد انطلقت بعد. فما هو أن غادرها القطار حتى تعالت الأناشيد من كل مكان حاملة عواطف القلوب ومشاعر النفوس، وحتى ارتفعت الأغاني مرددة أفضل الألحان وألطف الأنغام. ولا أعرف غناء أوقع في النفس وأجمل في السمع من هذا الغناء العراقي العذب ولا شدواً يهز الفؤاد ويهيجه كهذا الشدو الريفي البديع، ففيه من عمق المعنى وقوة التركيب، وحسن الإيقاع ما يفوق أي غناء عربي شعبي. وهل أبلغ من هؤلاء الفتيان يهتفون من الأعماق في سواد هذا الليل وسجو هذا الكون وسريان هذا النسيم:

هـب يا نـسـيـم الريح من وادي الحباب   والـقـلـب مـن فـرقـاك شـيّـب وهـو شـاب

وهل هناك من هو أشد حاجة مني لأن يهتف بالنسيم ليهب عليه من وادي الأحباب؟ وهل هناك قلب شيّب وهو شاب مثل هذا القلب؟

ازدحام

طاب لي الجلوس بين هؤلاء الريفيين المسافرين، ولذَّ لي مقامهم وأصباني إنشادهم، ورحت أتطلع في هذه العربة الزاخرة وقد حملت ما تنوء به العربات من الأمتعة والبشر، فتكدس الرجال والنساء والأطفال على المقاعد فغصت بهم فوقفوا على أرجلهم حتى لقد استحالت العربة إلى كتلة بشرية متراصة الأجزاء وانتثرت الأمتعة على الأرض انتثاراً عجيباً، فبعد أن ضاقت الرفوف بما حملت من الحقائب واللفائف والأكياس، وضع الراكبون أمتعتهم الضخمة في أرض العربة فشغلت كل فراغ فيها وحالت دون كل

حركة وأخذت الأصوات المتنافرة تتصاعد من كل زاوية، فهنا عراك وصياح وتزاحم على المقاعد، وتشاجر على المجالس ونداءات للباعة المتجولين الذين يتنقلون مع القطار من محطة إلى محطة، فيهبطون من القطار القادم ويصعدون مع الآيب، وصياحات للشحاذين المتجولين الذين يرون في القطار سوقاً رائجة فيتفننون باستدرار عطف الراكبين بأساليب منطقية وأشكال مقنعة فيقول أحدهم مثلاً:

فلس من كل واحد ...

فلس يا إسلام مو طلب ...

وحقيقة فإن فلساً من كل واحد لا يكون بالنسبة لهذا الواحد مطلباً مهماً، ولكنه بالنسبة لهذا السائل ثروة ضخمة حين تجتمع الأفلاس كلها، فكم من آحاد في هذه العربة إذا اقتنعوا بهذه المقدمة المنطقية عادوا على السائل بأعظم النتائج... أرأيت كيف أنه حتى المستعطي لا يستعطيك إلاّ بالحجج والبراهين...

وهاهنا جنود يهتفون ملء حناجرهم بأغانيهم الريفية الجميلة ويصفقون بقوة أكفهم مترنحين سروراً بقرب لقاء أهلهم، وها هنا طلاب يرتلون أناشيدهم المدرسية ثم يهيج بهم الحنين إلى أريافهم فيندفعون بـ (البوذيات) و(البستات) فتنتشي النفس طرباً، ويهتز الفؤاد حنيناً.

النور والنار

ظلت المحطات تتعاقب علينا الواحدة بعد الأخرى فيقف القطار على بعضها ولا ويقف على البعض الآخر، حتى لاحت لنا أنوار (السّدّة) تشع في ذاك الغسق البهيم، ثم وقفنا عليها ونزلنا نتمتع بالهواء الطلق، ونستجلي مشاهد الليل الرائعة، ونتزود من ألبان السدة اللذيذة. ونزل مسافرو كربلاء لينتقلوا إلى القطار الآخر، فعلت للجميع ضجة توقر الأسماع، وامتزج صياح الركاب بضجيج الباعة نساء ورجالاً، وتجاوبت السهول بهذه المجموعة الفريدة من الأصوات الصّاخّة. ولم نلبث أن سرينا من السدة متلفتين إلى أنوارها حتى غابت وراء المفاوز، وتلاشت في الأبعاد، فرحنا نرسل أبصارنا إلى الأمام متشوفين إلى ما يطلع علينا من بين هذه الحنادس وما يفجأنا من خلال هذه الموامي فما كنا نرى إلاّ ظلاماً متلاحقاً، ولا نلمس إلاّ برداً لاذعاً حتى انجلت لنا من قلب النخيل نار تتوهج شعلها ويتألق لهبها ويتسامى دخانها...

هذه هي النار التي طالما تغنى بها أجدادنا في أشعارهم وفاخروا بها في مجامعهم. هذه هي نار القِرى التي طالما أوقدها أسلافنا لترشد السارين وتصلي المقرورين وتشبع الجائعين، بل هذه هي النار التي قال حاتم الطائي يطلب من غلامه إيقادها:

أوقد فإن الريح ريح صر ... والليل يا موقد ليل قر
علَّ يرى نارك من يمر ... إن جلبت ضيفاً فأنت حر

وهذه هي النار التي عناها الأعشى وهو يثني على المحلق:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار في اليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق

وما يدرينا أي مقرورين يصطليان هذه النار المضطرمة في هذا اليفاع، وأي كريم يبيت عليها في هذا الليل الأليل، فلعل وراء هذا الدخان سيداً من أكرم السادات المطاعيم المناجيد لا ينقصه إلاّ شاعر كالأعشى يشيد بناره ويتمدح بسجاياه، ولعل عند النار شاعراً إذا لم تكن له فصحى الأعشى فإنه له معاني الأعشى وقريحة الأعشى يتغنى الساعة بهذه النار، ورب هذه النار. هي ذي النار التي افتخر الفرزدق بأن أباه غالباً كان يوقدها فرسم لنا هذه الصورة الشعرية الفائقة:

وركب كأن الريح تطلب عندهم ... لها ترة من جذبها بالعصائب
سروا يخطبون الليل وهي تلفهم ... على شعب الأكوار من كل جانب
إذا ما رأوا ناراً يقولون ليتها ... وقد خصرت أيديهم نار غالب

وإذا كان ركبنا المغذ لم تلفته هذه النار وهو يخبط الليل خصر الأيدي فكم من ركبان يتحرقون للوصول إليها، وكم من ناس يتطلعون في جوف الليل ليروها، وكم من عفاة إذا أبصروها قالوا ليتها نار فلان...

لا تزال هذه المرابع منابت الكماة المساعير والفرسان المغاوير ولا تزال نار القِرى تضرم هنا للتائهين وتوقد للنازلين، ولا تزال حيثما سرت هنا وأنى قصدت تلق الجواد الكريم والبطل العظيم، ولا تزال العروبة في هذه المضارب حية بكل ما فيها من رجولة وكرم ونجدة وبأس.

ورحت في عدو القطار أتلفت للنار وأملأ عيني من سناها وذهني من ذكراها حتى غيبها السير وأنأتها المراحل وتلاشت في المنائي السحيقة:

تلفتّ حتى لم يبن من دياركم ... دخان ولا من نارهن وقود
وإن التفات القلب من بعد طرفه ... طوال الليالي نحوكم ليزيد

ذكريات الحلة

وظل القطار يطوي بنا مراحل الليل حتى كان يقبل على مرابع الحلة. فها هي محطتها تتوهج أمامنا فتستثير في النفس ذكرى تلك الشهور التي قضيتها في الحلة منذ أعوام فجعلت لي منها موطناً ثانياً أشتاقه وأحن إليه. وما ذكرت الحلة إلاّ وهفت نفسي إليها وتطلعت إلى ذاك الماضي الجميل الذي حفل بنا على ضفاف النهر، وجانبي الجسر، وظلال النخل. ولم تستطع الأيام أن تمحو من الذهن تلك الصور المشرقة التي تتعاقب عليه كلما تذكر الحلة، فكم من أماسي حالمات تمضت أمام ذاك الماء الدافق، وكم من آصال زاهيات توالت تحت ذاك الشجر الغض...

لقد كنت أرنو بقلبي إلى الحلة وأنا بعيد الشقة عنها، وها أنذا الساعة على قيد خطوات منها فأنّى لي بالصبر على لواعج الشوق، وأنّى لذكرياتي أن تقر وأنا أتنشق نسيمها وأبصر أنوارها وأتلمس أرضها... فها هنا في هذه المحطة كنا نلتقي مسافرين إلى بغداد أو آتين منها. ومن ها هنا كنا كل مساء نسير تحت هوادي النخيل في السبيل الظليل، وفي هذه المعابر الحالية كنا نغور في جمال الطبيعة وبهجة الأرض ونضارة الكون، ومن ها هنا كنا نقصد إلى طياتنا طربين ضاحكين...

تسعة شهور قضيتها في الحلة كنت فيها كل صباح آخذ طريقي من ذاك المنزل الصغير سائراً على ضفة النهر فأود لو طال الطريق وبعدت الشقة لأزداد تملياً من هذه المشاهد وتمتعاً من هذه المباهج.

تسعة شهور كنت أصيل كل يوم فيها أقف على الجسر وقد انعطف أمامي النهر وانحنت فوقه الأشجار وانعكست الأنوار وأحمرّ الأفق وصفا الجو وبدت الحلة جنة من الجنان...

أيتها الحلة الجميلة: تتوالى الأيام فما أزداد إلاّ حنيناً إليك، حنيناً إلى الشواطىء وقد ضمتنا طرفي النهار وزلفاً من الليل، حنيناً إلى الماء المنساب وقد روى الأرض فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

من الليل إلى الصباح

لم يلبث القطار إلاّ قليلاً ثم مشى يهدر في سواد الليل متنقلاً بنا من مرحلة إلى مرحلة حتى بلغ الديوانية، وكان النعاس قد أخذ يراود أجفاننا، فأغلقنا النوافذ واستسلمنا للنوم، ولم نستيقظ إلاّ على نور وضاء يبهر أبصارنا وإلاّ على نداءات تتعالى صارخة:

- شاي ... شاي ... شاي

- شاي وبيض ... شاي وبيض ...

وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل فعرفنا أننا الآن في السماوة، وأن هذه الأنوار أنوار محطتها الفخمة، ثم عدنا للنوم ولم نعِ إلاّ على المنادين ينادون «أور». هذه أور، فانتفضت من مضجعي مسرعاً وأخذت حقيبتي ونزلت من القطار أستقبل البرد اللاذع والهواء الجاري، ونظرت في ساعتي فإذا هي حوالى الخامسة، فلم أكد أسمع صوت المنادي ينادي على سيارته حتى نزلت من القطار إلى السيارة التي مضت بنا في طريق نقطعه أخاديد وحفراً، ونجتازه أرضاً سبخة جرداء ثم صرنا بين النخلات. وما هو غير قليل حتى لمعت لنا أضواء الناصرية ثم كنا نعبر جسرها الخشبي المتأرجح ونطلع على شوارعها الوهاجة المقفرة.

وقبيل الساعة السادسة كانت تقف بنا السيارة أمام أحد المقاهي، فإذا بجمهور محتشد في المقهى لم يكد يرى السيارة مقبلة حتى تعالى صياحه مستفهماً: سوق؟؟ شطرة؟؟ فلم أستطع أن أفهم ما الذي ساق هذا الجمع لقضاء الليل في هذا المقهى بانتظار سيارة تمر به لنقل بعضه إلى الشطرة وبعضه إلى سوق الشيوخ. وأقبل واحد على السائق وقال له بكل برودة: ما تروح الشطرة ولك؟ فأسرعت في النزول من السيارة لأكون بعيداً عن هذه الأسئلة والأجوبة. ووقفت تلقاء السيارة وشاهدت كيف صعد الراكبون ثم عادوا فتركوها وكيف تكرر ذلك بسبب مزاج السائق وتحكمه، فأدركت أن مثل هؤلاء السائقين، سواء كانوا في الناصرية أو بغداد أو دمشق أو القاهرة، لا تصح مخاطبتهم إلاّ بتلك اللهجة الباردة لمن يستطيع أن يخاطبهم بها.

مقهى حبيب الله

حرت أين أذهب في هذه الساعة المبكرة وأطللت على المقهى فلم أجد فيه ما يغري بالجلوس، ولكنني كنت مضطراً للجلوس بعد ذاك الليل المتعب فدخلت «مقهى حبيب الله» موطناً النفس على قضاء هذه

الفترة فيه. وقد كان يضم صنوفاً شتى من الناس لا أدري ما الذي حملهم على المكوث فيه إلى هذه الساعة. فها هنا جندي مستلق على المقعد الخشبي الطويل وقد غطى وجهه بمعطفه واستغرق في نوم عميق. وهناك جنود منتشرون على المقاعد يتجاذبون أطراف الحديث. وهنا عجوز يتدثر بفروته الضخمة. وهنالك أفراد وجماعات ملتفون بعباءاتهم وقد غاب أكثرهم في تفكير طويل لعله نتيجة السهر أو الهم أو الجهد. أما أرض المقهى فكانت يوماً ما مبلطة ولكنها اليوم مغطاة بطبقة كثيفة من الطين وأعقاب لفائف التبغ، وعيدان الكبريت وعلب الدخان والورق الممزّق، وصاحب المقهى يخطر بكوفيته المعقوفة فوق رأسه و«دشداشته» الملوثة وسترته القذرة و«وزرته» الحمراء المربوطة في وسطه وهو يخشخش في كيس الفلوس ويصيح بين آونة وآخرى بلهجة الآمر المسيطر: شاي... عبيد، شاي...

وتتطلع إلى «عبيد» فإذا هو صورة مشوهة عن أستاذه يحمل أقداح الشاي ويدور بها على الجالسين. ولم تنقطع الحركة خارج المقهى بل كانت تزداد باقتراب النهار فتسمع ضجيج العربات والسيارات وصياح الذاهبين والآيبين، ولكن الصوت الذي كان يعلو على كل صوت هو صوت صاحب المقهى يصيح:

ـ شاي هنا شاي ...

صباح الناصرية

سئمت نفسي هذا المقهى وخرجت أتنشق الهواء وأفتش عن «الشط»، فمشيت قليلاً وكان الفجر قد بدأ ينبثق، فاهتديت إلى النهر فإذا بالنسيم يحرك أمواجه ويهز صفحته فتنبعث من ذلك حركات رائعة وأصوات عذبة. وكانت تتألق إلى يميني سلسلة أنوار وهاجة ويناوحني في الضفة المقابلة النخيل الكثيف المتعالي في الجو، وتغطي السماء سحب شفافة وتهب نسمات لطيفة فانتقلت إلى جو شعري بهيج وسبحت في عالم سحري رفيع، وشعرت أني في موقف من أجمل مواقف الطبيعة وأسناها. وكانت الناصرية ساجية هادئة لا تحس فيها إلاّ أصوات الديكة صائحة صارخة وإلاّ صوت موحد يهتف من الأعماق: الله أكبر... ثم أخذ أفراد يقبلون على النهر وقد شمروا عن أذرعهم استعداداً لإسباغ الوضوء والإقبال على الله. ثم سرت في شارع يوازي النهر فكانت العربات قد بدأت تصل ناقلة القادمين في القطار فترن جلاجلها ويعلو ضجيجها في ذاك السكون الرهيب. وكانت آحاد من القرويين تقبل مسرعة بأقدامها الحافية وعباءاتها السابغة وقد التف كل بعباءته وجرى جرياً أشبه بالركض. ثم أخذ النهار يتجلى رويداً وشوراع الناصرية تبدو بتناسقها وتنظيمها الدقيق، وأخذت الطرقات تحفل بكثير من الوجوه التي كان معظمها من القرويين المقبلين على أقدامهم من المحطة وقد حمل كل منهم أمتعته على رأسه. وتقدم مني كهل يتنكب خرجاً أحمر فبدرني بتحية الصباح العذبة وما أعذب تحية الصباح ينطق بها الفم العراقي قائلاً: صبحك الله بالخير. فرددت لصاحبي التحية بمثلها فسألني ألا تعرف لي الجندي سليمان؟ وقد كان من البديهي أني لا أعرف لا الجندي سليمان ولا الجندي داود، وأعجبتني سذاجة هذا القروي الذي يحسب أن شهرة الجندي سليمان قد امتدت حتى وصلت إلى أي إنسان يلقاه في عرض الطريق، ولكن لسوء الحظ كانت هذه المرة لم تصل بعد إلى هذا السائح الذي هبط الناصرية منذ حين... ولقد

شعرت بأسف لأني سأرد هذا الملهوف خائباً، ولأني لا أقدر أن أخفف من لوعة هذا الغريب المشوق... فتركني ومضى ينشد سليمانه عند غيري...

أيها الإنسان المجهول: لقد كنتُ غريباً مثلك، وإذا كنتَ أنت مشتاقاً إلى سليمان، فكم لي من أنا مشتاق إليهم، وإذا كنت أنت ستلقى شائقك عن قريب فإني لن ألقى شائقي عن قريب، وإذا كانت تفصلك عن سليمانك خطوات فإني تفصلني عن أحبائي بواد وفلوات.

لا أدري ماذا كانت نظراتك إليَّ وأنت لا تجد عندي سؤلك ولا أدري عقيدتك بي وأنت تبتعد عني، ولا أعلم أثري في نفسك... أما نظرتي إليك فكانت الإشفاق والمواساة. وأما عقيدتي فيك فكانت عقيدة الإخلاص والحب. وأما أثرك في نفسي فقد رأيتك زميلاً لي في الحنين والشوق ونسيباً في اللوعة واللهفة، فهجتني إلى أودائي النائين وخلصائي النازحين وأحبائي البعيدين ودياري الشاحطة...

نهار الناصرية

عدت من تجوالي فوصلت قريباً من مقهى «حبيب الله» وكان الصبح قد تبلج والنهار قد أطل وكثرت الحركة في الأسواق والشوارع، واصطفت على باب المقهى بائعات «القيمر» بأرديتهن السوداء وعباءاتهن الفضفاضة. فهذه عجوز درديبس لا تدري وأنت تنظر إليها أيهما أشد اسوداداً، عباءتها أم وجهها، تفترش الأرض في رأس الشارع وتستند إلى عمود الكهرباء واضعة يدها تحت ذقنها مفكرة تارة ومتفرّسة تارة في وجوه المارة علَّ من يقبل منهم على «قيمرها» وخبزها. وفي الطرف الآخر بنية صغيرة صفت أمامها قناني الحليب ورتبت أوعية «القيمر» وأقراص الخبز والتفت بعباءتها وأتقنت الدعاية لبضاعتها تغري الشارين بمنطق عذب وألفاظ جميلة تتجلى فيها براءة الطفولة وسذاجتها فتسمعها تهتف:

تعال خويا هذا خبز زين.

تعال هذا القيمر خويا.

ولم نر بداً من العودة للجلوس في المقهى، فوجدنا تجديداً في فرشه. فبعد أن كانت مقاعده مفروشة بالحصير فقط إذا بنا نراهم يفرشون فوق الحصير بسطاً صغيرة، ولكن الواقع أن ذاك الحصير كان خيراً من هذه البسط لأن الأقذار تظل أقل علوقاً به من البسط. وكنا قد شعرنا بحاجتنا إلى تناول الصبوح فكان علينا أن نختار بين «القيمر» وبين «الكاهي»، ففضل رفيقي «الكاهي» وقصد بنا إلى بائعه ودخلنا دكانه فما إن رآنا شاب من الجالسين حتى شعر بأننا غرباء عن البلدة، فقام عن مقعده هاشاً مرحباً مظهراً كل إكرام دون أن تربطنا به أية معرفة سابقة. وهكذا تبدو الشمائل العربية في سكان هذه البلدة على أفضل وجوهها. ولا تختلف دكان «الكاهي» عن المقهى من حيث النظافة والأناقة، ولكن الذي يروقك هو هذه الرشاقة التي يعالج بها البائع «كاهيه»، وهذه اللباقة في رق العجين ودفعه بالفرن ثم تقطيعه وصب القطر عليه، فلا تستطيع إلاّ أن تتأمل فيه متعجباً من خفته وحركاته. ولو قدر لهذا الكاهي أن يباع في غير هذه الأماكن، وأن يُقدّم في مطاعم نظيفة متقنة لكان من أعذب الأطعمة وألطفها، ولكن كل شيء في هذا الدكان لا يفتح قابليتك ولا يثير شهيتك فتأكل كمن فرض عليه الأكل فرضاً وتسرع في الخروج ما استطعت إلى الإسراع سبيلاً.

وبعد خروجنا رحنا نجول في الأسواق فبلغنا سوقاً قيل لنا إن اسمه «الصفا» كانت المرأة هي وحدها التي تسيطر عليه. فهي هنا في هذا السوق التاجرة التي تبيع كل شيء: تبيع الرز والسمك والصوف والقرب والبيض والنفط والدجاج والبصل والفجل والعباءات، بل هي التي تبيع حتى البقر.... ووصلنا سوق اللحم فإذا المرأة هي أيضاً التي تصول وتجول هنا ولكن مشترية لا بائعة، ولم نشاهد رجلاً واحداً يشتري اللحم بل كانت النساء هن الشاريات الوحيدات، وفي الأسواق الأخرى كنا نراهن بائعات شاريات.

وقد لاحظنا أن الناصرية تقوم على الضفة اليسرى من الفرات محرومة من التشجير مما يجعلها عرضة للغبار الهابي. وأما الضفة اليمنى فكلها بساتين نخل وليس فيها من العمران سوى المحطة والثكنة والمطار وشركة النفط وإدارة الأنواء الجوية.

إلى سوق الشيوخ

كان لا بد لنا في سبيل الوصول إلى سوق الشيوخ من أخذ سيارة من هذه السيارات الكبيرة التي كانت واسطة النقل الوحيدة في هذه المناطق، فاستقلت بنا واحدة منها من الناصرية في متوع الضحى، وعبرنا الفرات على الجسر الخشبي الرجراج وانطلقنا في أرض سبخة بيضاء، ليست في الواقع إلاّ صحراء قاحلة تحوطها من أطرافها مجموعات من النخيل. ولم نلبث أن صرنا بين النخيل والزروع، وصرنا نعبر على القرى القصبية المنتشرة في السهل ثم صارت تتبدل مشاهد الأرض من حولنا. فها هنا سباخ إلى يميننا ونخيل إلى يسارنا، وها نحن نعود بين النخيل والمزارع.

والشيء الذي يلفت النظر، أن النخيل مهمل في هذه الأرض. فترى مثلاً هناك نخلتين، وهنالك نخلات، ووراءهما بستان حافل، ولا شك أن هاتين النخلتين وتلك النخلات ليست إلاّ بقية غابة مضت بها الأيام وتركت هذا الأثر الذي يدل على ازدهارها الخالي. وما زال الطريق يتعاقب على هذه الحال، فمن سباخ إلى نخيل إلى مزارع إلى قرى قصبية وبالعكس، حتى أقبلنا على مخفر «الخضر» وهو مخفر أشبه ما يكون بالحصن الحصين. وكان يحرسه شرطي ويرفرف عليه علم عراقي، ثم لاحت إلى يميننا قبة على تل قيل لنا إن اسمها قبة «أم العباس»، ولما اجتزناها بدا لنا في عرض السهل نخيل سوق الشيوخ يغطي وجه الأفق. وكنا نسرع إليه فوق طريق مرتفع تحيط به مستنقعات واسعة كأنها البحيرات وكنا نرى البط الأسود يسبح فيها. ثم اقتربنا من قلب النخل حتى بدت لنا «السوق» وأول ما أبصرنا فيها بيوت القصب التي ظلت تسايرنا حتى هنا. ومع أنه كان بيننا وبين انقضاء المطر أيام وأيام، فقد كانت الوحول في البلدة على صورة غريبة.

نزلنا من السيارة ودخلنا من أحد المداخل متجهين إلى قلب البلدة. فكان إلى يسارنا «السّيف» محاطاً بسور من القصب وإلى يميننا بضعة بيوت. ومن طريق قصيرة نفذنا إلى ساحة الصفا وهي ساحة واسعة تبدو كمعرض لصنوف منوعة من الحاجات لا يشترط في بائعيها أن يكونوا من أصحاب الدكاكين الثابتة، بل إن الكثيرين منهم من الذين ينقلون بضائعهم بأيديهم ويقصدون الساحة حتى إذا ما أمسى المساء كانت البضاعة قد نفدت، وما لا يكون قد نفد يعودون به إلى بيوتهم. وقد رأيناهم نساء ورجالاً

يشغلون الساحة ويفترشون وحولها فوق القش والحصران ومعظم البائعين من النساء، فهن هنا في ساحة الصفا كما في الناصرية سيدات التجارة. وتستدير حول الساحة مقاعد المقاهي ممتلئة بالجالسين من ضروب الناس. وفي الزاوية الجنوبية من شرقي الساحة يتفرع سوق يفضي إلى الأبنية الحديثة ويتصل بالشارع المؤدي إلى الثكنة. وفي الزاوية الشمالية تبدأ أسواق البلدة ومتاجرها، وأما في غربي الساحة فيبدأ شارع ينتهي إلى محلة الإسماعيلية وهي محلة معظم بيوتها من الطوب والقصب.

وإذا كانت وحول البلدة وإهمالها يشغلان تفكيرك، فإنك لتنسى كل ذلك حينما تلتقي بأبنائها الكرام الذين يتحلّون بنزعات أدبية تسود جميع طبقاتهم. وفي عقيدتي أن سوق الشيوخ من هذه الناحية بلدة عجيبة حقاً فأنت أينما سرت ظفرت بأديب وشاعر.

شعراء في كل مكان

فها نحن وقد انتهينا في أحد الأيام من ساحة الصفا وانتقلنا إلى داخل البلدة نقبل على دكان يهدر في خارجها موقد النفط وتمتد حولها حبال مثقلة بالأثواب، وتبدو في داخلها علب الأصباغ مصفوفة في كل جانب، وعلى جدرانها الأوتاد الموقرة بالعباءات من كل ما ثقل وزنه وقل ثمنه، أما الدكان نفسها فضيقة واطئة لم تظفر جدرانها بنعمة الجص أو الكلس فضلاً عن الطين، بل برز آجُرُّها وانكشفت شقوقها وانتثر ترابها ووقف في وسطها كهل إن دلَّ مظهره الخارجي على شيء فإنما يدل على جفاف الطبع ونبو الذوق والانقطاع إلى مهنة الصباغة انقطاعاً لا يصله بأي شيء غيرها. فهو بثوبه الأسود ونظارته المائلة وعقاله الغليظ وكوفيته الدكناء وبهذا العود الضخم الذي يديم فيه تحريك قدر الأصباغ وبهاتين اليدين المسودتين اللتين لا ترتفعان عن القدر إلاّ لتمتدا إلى ثوب معلق أو عباءة مدلاة. هو بكل ذلك وبهذه الأكياس المنتفخة المنتشرة في أرض الدكان وبهذه الأغراض المبعثرة في أطرافها لا يمثل لك إلاّ واحداً من هؤلاء الكادحين الذين انقطعت كل صلة بينهم وبين الحياة العامة، اللهم إلاّ بمقدار ما يعود إلى عملهم الخاص وإنتاجهم المحدود. ولكن ما قولك إذا حييت هذا الصباغ وبدأت الحديث معه فإذا هو ينقلك إلى عالم آخر غير عالم الصباغة والألوان... وإذا ما حسبته فيه جفاف طبع ونبوّ ذوق ينقلب إلى حسن ذوق ورقة طبع، وإذا وراء هذه النظارة المائلة عينا شاعر وخلف هذا القباء الأسود قلب فنان، وفي هاتين اليدين الملطختين بنان أديب.

هذا هو عبد الحميد السنيد الصباغ الذي يعكف في النهار على عود غليظ يحرك به القدر الملتهب، والذي يحمل العباءات إلى قدر فيصبغها وينشرها على الحبال ويتنقل من العلب إلى الأثواب إلى القدر إلى الحبل ويمضي يومه في هذه الدكان الضيقة الواطئة حتى إذا خلا إلى نفسه استبدل القلم الدقيق، بالعود الغليظ. والورق اللطيف، بالثوب الصفيق. والدواة الهادئة، بالقدر المتضرم. وأخذ يكتب:

أصوغ من درر الألفاظ ما عجزت	عن مثله العرب الأمجاد والعجم
(لونت) فيها المعاني المنتقاة بأصبا	غ القريحة فازدانت بها الكلم
(صهرتهن) (بقدر) الفكر فانبعثت	نار الشعور لها من تحته ضرم
فالقدر والكوز والداغوش يشهد لي	والنيل والجوهر الألوان والوضم

هذا هو عبد الحميد السنيد يعيد إلى أذهاننا ذكرى أولئك الشعراء المهنيين الذين كانوا ينظمون في مهنهم مصورين حياتهم ومجتمعهم، كالخباز البلدي والسراج الوراق والجزار والحداد، وغيرهم ممن حفلت كتب الأدب بنتف من شعرهم وشيء من سيرهم.

وعبد الحميد لا يكثر من النظم في مهنته، بل ينصرف إلى المواضيع الأخرى التي ألفها الشعراء من مدح وغزل ورثاء وهجاء وحكم فهو يقول مثلاً:

اسكبي الحب والهوى ... خمرة توقظ النفوس
نحن في الكون كالرؤى ... في ضمير الكرى نجوس
إنما الناس للنوى ... تتغذّى بها الرموس
غير أننا بمستوى ... عالم النور كالشموس

تركنا الشاعر الصباغ، وخلفنا دكان عبد الحميد السنيد وموقده الوهاج، وأثوابه المعلقة وأكياسه المحشوة وعلبه المتناثرة ومشينا في شارع واسع مشقوق حديثاً.

ثم انتقلنا من الشارع الجديد إلى سوق مسقوف، وقفنا فيه أمام مكتبة للمطالعة يديرها شاب قصير القامة نحيل الجسم يرتدي الكوفية والعقال والقباء قدمه إليَّ رفيقي قائلاً الشاعر حمدي آل حمدي. وهكذا فلم نترك الشاعر إلاّ لنصل إلى الشاعر. وإذا كان حمدي يعمل اليوم بعمل يتصل بموهبته الشعرية فقد كان إلى فترة خلت يعمل كاتب عرائض. ولكنه كان يستجيب إلى رغبة القريحة فينظم الشعر بين الحين والحين. وكم كان مظلوماً هذا الشاعر وهو يجلس إلى منضدته وأمامه أقلامه وقراطيسه مصغياً إلى ثرثرة الزبائن وسخافات طالبي الكتابة، وحبذا لو أنه كان قد نظم ما يصور تلك الحياة الجافة، وما أحسب أنه قد فعل.

ثم مشينا قليلاً وإذا برفيقي يستوقفني أمام دكان عطار ليس فيه ما يميزه عن غيره من أولئك العطارين الذين لا يهفون إلاّ إلى حديث البيع والشراء، ولا يصغون إلاّ إلى صوت الدرهم والبضاعة. وقد كنت أظن كل شيء إلاّ أن يكون هذا العطار هو الآخر شاعراً... ولكنه كان شاعراً كزميليه الآخرين. ذلك هو سالم الحسون. ومن دكان سالم الحسون مشينا في أسواق متداخلة كلها على نسق واحد من طغيان الوحول وانتشار المقاهي حتى انتهينا إلى سوق الخياطين، فوقف رفيقي وقدم إليَّ خياطاً ينزوي وراء ماكنته وأدواته ويتوارى خلف المخيط من كل نوع وقال لي: الشاعر جعفر حسين الشابندر. أهذا الخياط أيضاً شاعر؟ وهل في هذه الدكان ما يوحي الشعر ويحرك الخيال؟ وهل في هذه الحياة ما يهيج القريحة ويذكي الشاعرية؟ إنه شاعر كزملائه وكغيره من المغمورين الذين لا تكاد الحياة تشعر بهم، ولا يكاد يسمع لهم صوت ولا تتبين حركة. بل هو واحد من عشرات ينطوون على أنفسهم وراء متاعب الزمن، ومصاعب العيش، متطلعين إلى موكب الحياة الصاخب بنفوس حساسة وقلوب حية وشعور فياض، ولكنهم يكبتون الحس والحياة والشعور ويواجهون حقائق الدنيا الصلدة متخاذلين متقاعدين. وما أكثر ما في هذا الوادي من مواهب دفينة، وكنوز خفية، وما أكثر ما تجن هذه السهول من ذكاء وقاد وألمعيات فائقة.

يهجو بعضهم بعضاً

أما هؤلاء الشعراء فإنهم، وقد حرموا الاتصال بالعالم الخارجي وحالت أعمالهم دون ارتباطهم بالحياة الأدبية وراء بلدتهم، فقد كونوا لهم من أنفسهم مجامع أدبية يتناشدون فيها أشعارهم، واستغلوا المناسبات لنظم قصائدهم فنظموا في المديح ونظموا في الرثاء، واتصل بعضهم بالصحف الإقليمية ونشر فيها، وعكفوا على لون طريف من الشعر لا يعدو في حقيقته هذا الهجاء الذي يقصد به المداعبة البحتة، فإذا عرضت لأحدهم حادثة اتخذوا منها موضوعاً شعرياً فمدح بعضهم بعضاً، وهجا بعضهم بعضاً. فمن ذلك مثلاً: أن أحدهم عبد الحميد السنيد بنى داراً متواضعة فدعا زملاءه ودعا غيرهم معهم إلى الاحتفال بتدشينها، فأعدوا له القصائد المشتملة على المدح والتهنئة طوراً وعلى الهجاء والمداعبة طوراً آخر، واتفق أن الدار تقع بين جارين يدعى أحدهما ثقيل والآخر علقم فلم يفت سالماً الحسون أن يشير إلى ذلك مستغلاً هذا الجوار للغمز من صاحب الدار، فقال في قصيدته:

يا طالب المعروف يمم بابها ... وبجانب الدهليز يا راجي ارتمِ
فهناك تحسبك انتقلت فجاءة ... من هذه الدنيا لقعر جهنم
قد شرفت قدراً بأقدس بقعة ... مذ شيدت بين الثقيل وعلقم

ثم يختم القصيدة بهذا البيت الاعتذاري:

لكنها مني إليك دعابة ... يوحي بها فكري فيلفظها فمي

ويقول شاعر آخر:

لم لا يكون مباركاً بنيانها ... وهي الحمى للعلم والآداب
نطحت بهذا المجد السحاب فسمها ... في الناس إحدى ناطحات سحاب

على أن الشاعرية في سوق الشيوخ لم تقتصر على هذه الطبقة وحدها، فهناك طبقة أخرى هي طبقة الموظفين الذين استطاعوا الوصول إلى وظائف «كتابية» بسيطة، فانتقلوا إلى صف الرجال الرسميين وجلسوا وراء المناضد يتقارعون بالشعر ويهجو بعضهم بعضاً ويمتازون بالإقذاع في الهجاء مما يعيد إلى الذهن تلك الصور الشعرية المرة التي كان يتقابل بها شعراء الأهاجي على أروع الأشكال وأمض الألوان ومعظم هذا الشعر لا يمكن نشره ولا يجوز ذكره، ومن هذه الطبقة الرسمية عبد الحسين جاسم الذي مرّ اسمه ولكنه على ما يظهر لم يشترك في معارك الهجاء، بل إن بطليها هما عبد الصاحب ليلو وخيوّن راشد، وهما كاتبان في القائمقامية يجلسان متقابلين إلى منضدتين قذرتين في غرفة واحدة، وحولهما ركامات الأوراق الرسمية مما لا يمت إلى شاعريتهما بصلة فيضيقان ذرعاً بالحياة وأهل الحياة، ومن أخف أهاجيهما قول عبد الصاحب:

إن خيون بن راشد ... فاسد من نسل فاسد

وقول خيون:

عفا الله الكريم عن الليالي ... وعن عمر تقضي في يباب
أبين الأدعياء يضيع ... شعري وتزري مقولي زمر الكلاب

إلى الجبايش

كان في نيتي عندما جئت سوق الشيوخ أن أواصل السير منها إلى الجبايش بعد أن تردد اسمها على ذهني كثيراً وبعد أن حدثت عنها أحاديث شتى، وقد كان جميع المتحدثين عن (الجبايش) يتحدثون عنها وهم يقصدون الغض منها وتصويرها بالصورة المنفرة، ولكن هذا الغض وهذا التنفير كانا هما الحافز الذي حفزني على أن أقصد الجبايش وأمتع النفس بما سمعته عن موقعها العجيب وحياتها النادرة.

فقد قيل لي إن الجبايش عبارة عن مجموعات من بيوت القش والبردي والقصب تقوم وسط الماء كجزائر صغيرة، وأن لكل بيت زورقاً ينقل أهله في زياراتهم وحاجاتهم، وأن الجبايشين يعيشون عيشة أشبه بعيشة الأسماك فهم في مائهم منقطعون عن العالم إلاّ من يقصد أحياناً في القوارب إلى البلدان الأخرى، وإن أقصى بلدة يبلغونها هي سوق الشيوخ من جهة والقرنة من الجهة الثانية.

بل إن معلماً في سوق الشيوخ صورهم لنا بصورة الإنسان الأول الذي لم يرَ شيئاً من الحياة، فقد حدثنا أنه كان في مدرسته في الجبايش وإذا به يسمع في خارج المدرسة لغطاً وضجيجاً، وإذا بجبايشي يدخل عليه مسرعاً طالباً منه إخراج الأطفال ليشتركوا في هذه المشاهدة النادرة وليروا المنظر الذي لا يتسنى لهم بعد اليوم أن يروه ويبصروا الشيء العجيب الذي لم يبصره آباؤهم من قبل. وأسرع المعلم فأخرج الأطفال وهو يحسب أن قنبلة ذرية تعرض في الجبايش، وإذا لم تكن قنبلة ذرية فهي من هذا القبيل مما يشتهي أبناء هذا الجيل أن يشاهدوه. ولما أطل بتلاميذه إذا بعجيبة القرن العشرين التي أثارت الأهلين وحفزتهم إلى التسابق على رؤيتها هي الفرس منقولة في مركب مائي.

ويتندرون في سوق الشيوخ عن جبايشي هبط السوق وإذا به وجهاً لوجه أمام منظر مرعب: حيوان أسود اللون طويل الأذنين ممتد الأطراف كبير الفم، وإذا بهذا الحيوان يفغر فاه فتبرز أسنان وأضراس ضخمة، وإذا بهذا الفم ينفجر عن صوت يصم الآذان فما كان من الجبايشي إلاّ أن نجا بروحه ملقياً نفسه في الماء فراراً من هذا الحيوان المخيف، وما كان الحيوان المخيف إلاّ حماراً أسود.

ولم يكن المتحدثون عن الجبايش ينسون الحديث عن بعوضها الضخم وعيشها النكد. ولكن كل هذه الأحاديث عن مناخها السيىء وعن حياتها القاسية كانت مما يدعوني إلى الرحيل إلى الجبايش لأشاهد (فينيسيا) العراق.. وما فينيسيا ومناظر فينيسيا أمام الجبايش التي إن صح ما توصف به كانت بلدة من أجمل بلدان الدنيا وموقعاً من أعجب مواقع الأرض.

وهل هناك مثل بلدة تؤلف بيوتها جزائر تعوم في الماء الدافق، وهل هناك أحسن من مساكن تقوم وسط البحيرة الروية؟ وإذا كانت الجبايش متأخرة العمران متقهقرة الحياة، فإن ذلك لن يخفض من جمالها ولن يحط من روعتها. وليس الذنب ذنبها إن لم تتحضر ولم تعرف العالم ولم يعرفها العالم، فها هي بطبيعتها الساحرة تدعو المعجبين بالطبيعة، وفي انزوائها تنادي الباحثين وتطلب الناهضين وتستصرخ العاملين[1].

التصميم على الرحيل

قلت إن نيتي كانت منصرفة إلى الوصول إلى الجبايش وعندما استطلعت أمر الوصول إليها قيل لي إن لها طريقين، فإما أن يأخذ المسافر على طريق سوق الشيوخ فيجتاز «هور الحمّار» وينفذ منه إلى الجبايش ومنها إلى المُدَيْنَة فالقرنة. وإما أن يأخذ المسافر على طريق البصرة فالقرنة فالمدينة ويركب الماء إلى الجبايش، وقد عولت على سلوك الطريق الأول، فجئت سوق الشيوخ وفاتحت صديقاً هناك في أمر السفر إلى الجبايش، فتقرر أن نأخذ زورقاً يعبر بنا تلك البحيرة العظيمة «هور الحمّار» ويحط بنا على الجبايش، ولم يبق إلاّ أن نعين يوم السفر. وقد اختلف الرواة في تحديد المسافة بين السوق والجبايش، فقال بعضهم إنها تستغرق عشر ساعات، ورفعها بعضهم إلى أكثر من ذلك وحطها بعضهم إلى الأقل، ولكنهم أجمعوا كلهم على صعوبة السفر وخطورته، واتفقوا على أنه سفر شاق مجهد. فلم يثنني ذلك عن عزمي لا سيما وقد رأيت من صديقي تصميماً وعزماً. ولكن الصديق اقترح أنه ما دمنا لن نعود إلى السوق، فمن المستحب أن نزور بعض الأماكن المجاورة للسوق التي لا تخلو من متعة وجمال وسمى «العكيكة» وحدد صباح اليوم الثاني موعداً لارتحالنا إليها.

الخوف والقلق

وفي الصباح الموعود كنا نقبل على الفرات فينادي صديقنا ملاحاً من ملاحي الزوارق المنتشرة هناك ويطلب إليه أن ينقلنا بزورقه إلى العكيكة، ثم يشير الصديق المضيف بأن نتبع الملاح، فنتبعه فيقف بنا أمام الزورق الذي سيحملنا إلى طيتنا.

وتطلعت إلى الزورق ورأيت اضطرابه فوق الماء، وتمايله في الريح، وأبصرت النهر يلعب به لعب الرجل بالنرد فهالني ما أرى، أعلى هذه الخشبات الصغيرة وفي هذه الأعواد الضعيفة سأرمي بنفسي الآن؟ وترددت بعض التردد، ولو كان شأني بيدي في تلك الساعات لعدت أدراجي ولكن شأني كان بيد صديقي، إذ بأي عذر أعتذر له عن عدولي عن السفر. فأوكلت أمري إلى الله ونزلت إلى الزورق الصغير، وجلسنا في قعره مستسلمين لمشيئة القدر. وقد صدف أن كانت الريح عاصفة تعبث بالماء وتثيره مما زاد الموقف في نظري حراجة ولكننا لم نسر إلاّ قليلاً حتى رأيت أن زوارق عديدة تنقل أناساً عديدين النقل نفسه فاطمأننت بعض الاطمئنان.

وشاء صديقنا أن يقص عليَّ بعض قصص الزوارق، فأخبرني أن زورقاً كان يعبر النهر ناقلاً سكراً في طريقه إلى العكيكة فارتطم بالشاطىء وانقلب بما فيه، فسألته: هل تحدث حوادث كثيرة من هذا القبيل؟ ولم يكن الصديق يعلم بما يخالجني من القلق، بل لم يكن يخطر له القلق على بال لأنه معتاد على هذه الأسفار المائية فأجابني بدون اكتراث: كثيراً ما تحدث حوادث من هذا القبيل...

وأردت أن أطمئن إلى مهارة الملاح. وكان ملاحنا يافعاً في مقتبل العمر فسألته عما إذا كان يمارس هذه المهنة منذ عهد بعيد؟ فأجاب سلباً وقال إنه لم يمض عليه فيها إلاّ وقت قريب، فجاء هذا الجواب ضغثاً على إبالة. وشئت أن أسري عن نفسي فحادثت الملاح الصغير وسألته عن اسمه فقال: اسمي نعيم ياسر.

فتفاءلت بهذا الاسم وبما فيه من النعيم واليسر. ثم سألته هل تعلمت شيئاً من القراءة والكتابة؟ فأجاب بأنه أميّ.

فتذكرت عند ذلك قصة النحوي الذي ركب زورقاً فسأل الملاح عما إذا كان قد تعلم النحو فلما علم أنه لم يتعلمه قال له: لقد ذهب نصف عمرك سدى. وصدف أن هبت عواصف كادت تقلب الزورق فصاح الملاح بالنحوي هل تعلمت السباحة؟ فقال النحوي: كلا لم أتعلمها، فقال الملاح: لقد ذهب كل عمرك سدى.

تذكرت هذه القصة حينما أجابني نعيم بأنه أميّ. وقلت في نفسي لو شاء القدر أن يقابلنا وجهاً لوجه وأن يتعرض لزورقنا بالخطر فإن الوحيد الذي سينتفع بعلمه هو هذا الأمي وأما نحن فإننا لن ننتفع إلاّ بمقدار ما نحسن من علم السباحة وأنا في هذا العلم أميّ...

فوق الماء

سار زورق «نعيم ياسر» يمخر بنا عباب الماء معاكساً للنهر في مجراه، وملاحه يقوده ذات اليمين وذات اليسار. فهو طوراً يجذف فيه وطوراً يضرب بعصاه الطويلة الغليظة في قعر النهر ليدفع بها الزورق، إلى أن مال إلى الضفة وسار محاذياً لها ليكون أقل تعرضاً للخطر. وقد كان الزورق يتأرجح بنا تأرجحاً لقوة اندفاع الماء واصطخاب الموج واشتداد الريح. وكانت نفسي تتأرجح معه حيثما يتأرجح. على أن انشغالي بحال الزورق لم يلهني عن التطلع إلى مناظر الضفتين ومشاهدة ما فيهما من الناس والبناء والشجر. فالنخيل يغمر جانبي النهر ويمتد كثيفاً على أوسع المساحات، وكان القرويون يسيرون جماعات وأفراداً مقبلين على السوق أو ذاهبين منها ومتنقلين من قرية إلى قرية وكانت النساء منهم يحملن على رؤوسهن أمتعتهن الضخمة والزوارق تمر بنا ذاهبة وآيبة ناقلة القرويين بين قراهم. فهي هنا وسائط النقل التي يعتمد عليها الأهلون في التنقل بين البلاد. ولم يكن مرورها بنا يختلف من حيث الكثرة عن مرور السيارات وتتابعها في أي طريق بري كثير الطروق. وما زلنا نرسل الطرف في الماء والشجر والسماء ونمعن النظر فيما أبدع الله من الجمال الباهر وما حبا هذه البقاع من سحر الطبيعة وفتونها حتى أطلت علينا من قلب الماء بناية فخمة عرفنا فيها ثكنة «العكيكة». ثم تقدمنا حتى صرنا عند متفرع الماء حيث يقبل الفرات بمجموعه فينشطر عند العكيكة إلى شطرين يمضي أحدهما إلى سوق الشيوخ ويمضي الآخر من جانب العكيكة فيشكل نهراً مستقلاً يطيف بالعكيكة من جانب ويطيف بها الفرات من الجانب الآخر فتغدو بينهما شبه جزيرة جميلة أي جمال. وما زلنا نتقدم مبتعدين عن الضفة وموغلين في قلب الماء حتى صرنا في الصميم وأصبحنا في ساحة واسعة يتشعب فيها الماء في ثلاث شعب ضخمة، فعمود الفرات أمامنا ونهر العكيكة إلى يسارنا ونهر السوق وراءنا ونحن في الوسط نمد بأبصارنا فلا نرى إلاّ ماء لا نهاية له ونخيلاً متكاثفاً إلى أبعد مدى. وما أحسب هذا المنظر الطبيعي الرائع إلاّ من أندر المناظر التي يمكن أن يظفر بها أي بلد من البلاد. وكان اشتداد الريح قد أثار الموج تحتنا فكنا مضطرين أن نقاوم بزورقنا الصغير تدفق الماء الصاخب ونعاكس اندفاعه لنصل إلى شاطيء العكيكة، فأعمل ملاحنا كل ما في ساعده من قوة وكل ما في عضلاته من نشاط ليجتاز بنا هذه المرحلة الحرجة

بعد أن بلغنا مركز الدائرة في ساحة الماء إلى أن وصلنا الضفة وخرجنا إلى اليابسة نازلين في شبه جزيرة العكيكة.

العكيكة

وعندما طلعنا إلى العكيكة ذهبنا إلى ثكنتها الواسعة المبنية حديثاً، ولم يكن على اليابسة من البناء غير الثكنة وغير المدرسة، وغير بيت مدير الناحية. وعندما مررنا بالثكنة رأينا كاتب الناحية محسن فرج. وعندما سمع عن إعجابنا الشديد بجمال العكيكة وحسن موقعها أنشد شعراً له في التذمر من العكيكة والسكنى فيها جاء في مطلعه هذا البيت:

ما في العكيكة غير الكد والسهر   والساكنون بها من أتعس البشر

وهكذا فلم نكد نخلف الشعر وراءنا في «السوق» حتى كنا نلاقيه في هذه الضواحي الجميلة. وإذا كانت العكيكة قد منيت من السيد فرج بالهجاء فما ذلك إلاّ للوحشة التي يشعر بها الموظف فيها، فلا عمران ولا حياة اجتماعية، بل إن الموظف هنا ينقطع عن الناس والحضارة، ويكابد الوحدة والانفراد، فلا عجب أن يتضجر كاتب الناحية من العكيكة وأن يهجوها هذا الهجاء ولكنني كنت أود لو أنه تحدث لنا عن جمالها ووصف لنا رياضها الندية ومياهها الروية وسهولها الغنية، ولو أنه استمتع قليلاً بالطبيعة الغضة وسرى عن نفسه بمشاهد الأنهار والأشجار والأزهار. بل كنت أود لو أن شاعراً من شعراء سوق الشيوخ وهب العكيكة شيئاً من فيض قريحته وأوقف عليها بعض شاعريته فإن فيها ما يلهب الشاعرية ويثير القرائح، وإن فيها ما يحرك النفس إلى التغني بالحسن الطبيعي أي تُغن.

أنا لا ألوم كاتب الناحية المتذمر، فإن الذي يهبط العكيكة سائحاً متنزهاً غير الذي يهبطها مقيماً مستقراً. ومن المؤكد أنه لو قدر لنا أن نمضي فيها من الوقت ما يمضي السيد فرج وأن نعمل فيها ما يعمله لتذمرنا تذمره ولشكونا شكواه. ولكنني آسف أن لا تظفر مناظر العكيكة ببيت من الشعر على كثرة ما يحيط بها من الشعراء، بل آسف أن لا تظفر سوق الشيوخ نفسها وأن لا يظفر فراتها بالقصائد الطوال في الإشادة بهذا النخيل السامق والماء الدافق والجو العابق، فإن في هذه الرباع من نضارة الأرض وازدهارها ما يستحق من شعراء السوق كل تكريم وتخليد. فمن هو الشاعر السوقي الذي سيطالعنا بقصيدة تصور لنا طبيعة السوق وكل ما فيها من زروع ومياه وأدواح وأكلاء؟ ومن هو الشاعر السوقي الذي سيجعل عنوان قصيدته «العكيكة» ثم يفيض في الحديث عن هذه الأنهار المتفرعة المتشعبة وعن تلك الخمائل المتشابكة المتكاثفة؟

بل من هو هذا الشاعر الذي سيصف لنا (المشحوف) ومسراه في الماء ومرساه في الشاطىء، وسيتغنى بهذا الزورق الجميل الذي يلتصق كل الالتصاق بحياة الناس في هذه الربوع؟

إن (المشاحيف) التي تتجمع في الصباح على جانب النهر ثم تأخذ في الانتشار حاملة الناس إلى طياتهم. إن هذه المشاحيف الجميلة التي طالما شهدت القمر يتلألأ على صفحة الماء والربيع يزدهر على حوافي الغبراء والتي طالما تمايلت بالطربين الضاحكين واهتزت بالبائسين المكدودين، إن هذه المشاحيف يجب أن

يكون نصيبها من شعراء سوق الشيوخ نصيب الإبل من شعراء الجاهلية، فيتحدثوا عنها حديث الشاعر الجاهلي عن ناقته ويطنبوا في التغني بها إطناب البدوي في التغني بفرسه، فمن هو الشاعر الذي سيخلد لنا «جندول» سوق الشيوخ بقصيدة عاطفية واقعية حساسة؟

العودة

عندما أردنا العودة من العكيكة كنت كمن استيقظ من حلم جميل على حقيقة مرعبة، فما إن فكرت بأني سأعود إلى (المشحوف) وأنه سيقلني على غارب الماء من العكيكة إلى السوق. ما إن فكرت بذلك حتى عاودني القلق ولكنه قلق اليائس الذي لا حيلة له، فإذا صح أن نرجع ونحن في سوق الشيوخ عن السفر إلى العكيكة فنتخلص بذلك من مخاطر المشحوف فكيف نفعل الآن ونحن في هذه اليابسة المحاطة بالماء ولا طريق لنا إلى هدفنا إلاّ ظهر الفرات في المشحوف. وكنت كلما خطونا خطوة إلى الضفة ازددت تفكيراً وقلقاً. ولما وصلنا الضفة كانت مشحونة بالمشاحيف وصدف أن أرست على الشاطىء سفينة آلية من النوع الذي يسير بالمحركات (الموتور) وكانت زاخرة بالناس والأمتعة، فأسرعت للصديق عارضاً عليه أن نعود بها لنجرب واسطة أخرى من وسائط النقل المائي، ووافق الصديق على الفكرة حاسباً أني حقاً أريد تجربة واسطة جديدة وغير عالم أن الخوف من المشحوف هو الذي دعاني إلى هذا الاقتراح. فصعدنا إلى ظهر السفينة وكان زاخراً بشتى الأمتعة القروية. فهنا قفة فيها بيض وخبز، وهنالك صرة فيها قدور وأوانٍ نحاسية، وهنالك قفة فيها تمر وهناك كيس فيه قمح إلى غير ذلك من أمثال هذه التي يسير بها القرويون من مختلف القرى. ومشت السفينة يدفعها محركها الصخاب ونحن وقوف على سطحها نستقبل بأجسامنا النسيم اللطيف وقد زايلنا الخوف وعاودنا الاطمئنان ووثقنا بأن مركبنا يستطيع أن يصمد للتيار، ولا ينقلب بنا في الأغوار، وهكذا حتى بلغنا السوق فكانت نزهة عذبة ورحلة جميلة.. وها أنذا في هذه الفترة التي أعكف فيها على قرطاسي مدوناً خواطري أتخيل تلك السويعات الرائعة على مشحوف نعيم ياسر، وعلى سطح ثكنة العكيكة، وفي ظهر المركب الآلي، ها أنذا أتذكر ذاك الملاح اليافع يقودنا في تلك الجنان الناضرة قيادة الحكيم الواثق بنفسه ويميل بنا من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين فيلهينا الإعجاب به عن المخاطر التي توهمناها، وتشغلنا لباقته عن المخاوف التي تخيلناها. ها أنذا أتصور تلك الفترات الجميلة التي مرت بنا بين السوق والعكيكة فأود لو كرّ الزمن كرة فأعادني إلى المشحوف النحيل فنقلني إلى النهر الظليل وسار بي في ذلك السبيل.

أين أنت يا نعيم ياسر؟ ترى أين طوح بك الزمن؟ ألا تزال تقود مشحوفك إلى العكيكة؟ ألا تزال تحمل الناس على ظهر الفرات؟

لقد مررنا بك كما مرّ بك العشرات وكما سيمر بك المئات. ولقد حملتنا كما حملت الكثيرين أمثالنا فلم نشغل ذهنك ولم نثر اهتمامك، ولم تفكر بنا لحظة واحدة، فما هو أن توارينا عنك حتى توارت عنك صورتنا وغاب ذكرنا.

أما نحن فإننا لم ننسك ولم ننس مشحوفك وكلما امتدت بنا الأيام امتدت معها ذكراك في نفوسنا وتضخمت صورتك في أذهاننا وازددنا حنيناً إليك وعطفاً عليك.

إلى گرمة بني سعيد

علم القارىء فيما سبق أن نيتي كانت منصرفة إلى السفر إلى (الجبايش)، وأننا قررنا أن ينقلنا إليها المشحوف بعد أن تعذر علينا إيجاد غيره. ولكن سفرة العكيكة بدلت رأيي فصممت في قرارة نفسي على أن لا أركب المشحوف إلى الجبايش مهما كان الأمر، وكنت كلما تذكرت اضطراب المشحوف في الموج واضطراب قلبي معه خانتني الشجاعة وخذلني الإقدام.

وهكذا فقد تراءى لي شبح إخفاق الرحلة وفشل الوصول إلى الجبايش، ولم أكن بحاجة لمن يثبط عزمي بعد أن لمست المشحوف بيدي. ومع ذلك فقد كان المثبطون كثيرين فكان كل من يسمع بهذا السفر ينهانا عن ركوب هذا المركب الخشن ويحدثنا عن المخاطر التي كثيراً ما تعرض لها المسافرون في هور الحمار. وأخيراً قررنا الذهاب إلى (گرمة بني سعيد) بالسيارة على أن ندرس هناك أمر السفر في النهر لأن (الگرمة) تقع على أبواب الهور. فخرجنا من السوق عصراً نخترق سهلاً رحباً مغموراً بالمستنقعات ومحاطاً من أطرافه بالنخيل على شكل أبدعت الطبيعة ترتيبه وتنسيقه، ولقد كنا طول الطريق نمر بالقرويات عائدات من السوق وقد حملن على رؤوسهن مختلف الحاجات وسرن بعباءاتهن السوداء حافيات الأقدام، فكن مثالاً للمرأة الكادحة التي تشاطر زوجها بؤس الحياة وشظفها وتقاسمه عناءها وترحها. ولكن الطبيعة النسوية كانت تتغلب عليهن فلا يستطيع الإرهاق الذي يكابدنه أن ينسيهن أنهن نساء قبل كل شيء وأن الزينة يجب أن تلازم المرأة وأن الحلي هي أوضح مظاهر الزينة. فكم هو طريف أن نتطلع إلى هذه المرأة وقد حملت على رأسها حملاً ثقيلاً وغاص قدماها الحافيان في التراب ولكنها مع ذلك تأبى أن تتخلى عن خلخال الفضة، وتأبى إلاّ أن تزين رجليها به.

إنها امرأة قبل كل شيء وبعد كل شيء، والزينة من لوازم المرأة حتى ولو كانت حافية القدمين مثقلة الرأس مرهقة الجسم...

كنا نقترب أحياناً من النخل فنمر بالقرى ونبصر بيوتها القصبية حتى صرنا في أبيات عشيرة (آل زياد) واجتزناها موغلين إلى مضارب عشيرة (المشيريجة). وكنت ونحن نمر بهذه العشائر ونجتاز هذه المنازل أستعيد في ذاكرتي أحاديث البطولة وقصص البسالة التي أفاض بها الناس عن أبناء هذه الديار. فها هنا في هذه المزارع المتواضعة وتحت هذا القصب الضعيف تنزل أسود الحرب وفرسان الطعن والضرب. وها هنا في هذه الخيام تسكن أقوام ما عرفت الميادين أعظم منها شجاعة وأجرأ منها قلوباً وأثبت منها نفوساً. وها هنا في هذه الحقول تقيم الجماعات التي ثارت يوماً بأقوى قوة عسكرية فنكلت بها وأثخنت ما شاء لها التنكيل والإثخان..

ثم بدت ثكنة (الگرمة) «گرمة بني سعيد» ولاح الفرات لنا، فسرنا على ضفته حتى كنا في عشيرة (بني سعيد) فوقفنا أما مقهى قصبي قائم على الضفة وترجلنا من سيارتنا فأبصرنا الثكنة قائمة على متفرع الفرات حيث يتشعب شعبتين تسمى إحداهما (شط أم نخلة) وتسمى الثانية (گرمة بني سعيد). وعندما أردنا عبور الگرمة كان لا بد لنا من مشحوف ينقلنا إلى العدوة المقابلة لأنه لا جسر يربط بين العدوتين. وهكذا انتقلنا في المشحوف، فإذا نحن أمام بيوت من القصب تتخلل النخل السامق وتنتشر هنا وهناك.

سرنا على محاذاة شط أم نخلة مارين قريباً من الثكنة فما كنا نبصر إلاّ ماء ونخيلاً يبدوان على أجمل مشهد وأعذب شكل.

بلاد الأهوار

هذه هي بلاد (الأهوار) التي كانت كثيراً ما تطرق أسماعنا فنتخيلها الصورة الشوهاء، والطلعة النكراء، ونتمثلها الجحيم الذي ما بعده جحيم... لقد رأيناها فإذا هي قطعة من الجنان، ومشهد من النعيم، وإذا فيها من روائع خلق الله وبدائع صنعه ما لم يظفر بمثله كثير من البلاد. ولكن الإنسان الذي وهبه الله كل هذا الفضل وأسبغ عليه كل هذا الخير، ومهّد له كل هذه الآلاء قدّر لها ولمن فيها هذه المرارة في العيش.

إلى تكريت

الرصافة والجسر والكرخ

خلفنا شروق الرستمية وراءنا وتركنا ذاك الجو الصافي وقد تنفس صباحه عن النسائم العابقة والظلال الوارفة والمروج الضاحكة، وسرنا منطلقين في معسكر الرشيد، ثم كنا نجتاز محلة (رخيته) وشوارعها المتسقة الجميلة وقصورها العامرة الفخمة، ثم نعبر باب بغداد الشرقي فنصل إلى مدخل شارع الرشيد هذا الأتي الزاخر بجموع الناس والمركبات والسيارات، ثم ننعطف إلى الجسر فنصل من الرصافة إلى الكرخ. والرصافة والجسر والكرخ أسماء عذبة على الأسماع حلوة في الشفاه تبعث في النفس هزة وفي الفؤاد انشراحاً، فكم كانت مجالاً لصائل ومقالاً لقائل وكم غناها شاعر طروب ومنشد أديب وكم تتالت عليها المواكب وحفلت فيها المرابع.

هذا دجلة الخالد يجري كما كان قبل مئات السنين، وهذه شطوطه ممراعة حانئة وسهوله مخضوضبة زاهرة ونخيله سامق شاهق، فكم من ذكريات تنطوي ما بين هذه العدوة وتلك العدوة وكم من أحداث يضم هذا الثرى الريان.

هذه الرصافة وهذا الكرخ وهذا الجسر. ها هي تلوح للعين فيعود الذهن إلى الماضي البعيد فتتمثل فيه مواكب الفرسان ومجالس الندمان وتتجلى فيه بغداد عاصمة الدنيا وسيدة الدهر. وتتراءى من وراء الأجيال بمجدها الباذخ وسلطانها الشامخ.

الماضي البعيد

أخذنا في السهول نشق طريقاً مطلياً بالقار وعلى جانبينا البساتين، وقد عصف بها الخريف فأذوى نضارتها فتناثرت أوراقها وبرزت جرداء عارية تمثل الكآبة والشجون، ثم كنا نمر بجانب الكاظمية ونسير محاذين للسكة الحديدية، ثم انقطع القار فكنا في طريق ترابية تتلفت في السهول الرحيبة وقد خلت من الأشجار والبساتين إلاّ ما يلوح على حواشيها في الأقاصي من النخيل الكثيف. ومضت السيارة في هذه السهول التي لا أخر لها لا تلوي على شيء حتى كنا بعد سير طويل قطعنا فيه تسعين كيلو متراً أمام جسر (حربه) أو جسر المستنصر الذي بناه على نهر دجيل، ثم فاض النهر وردم التراب الجسر إلاّ بعضه فوقفنا عليه نستعرض الأجيال ونطوي القرون ونرجع إلى تلك العهود الغابرة وما فيها من أحداث وحوادث.

أهذا هو دجيل الشهير؟ الذي يقول فيه الشاعر:

أســال بـالــلــيــل سـيــل   أم زيــد فــي الــلــيــل لــيــل

ذكـــرت أهـــل دجـــيـــل   وأيـــن مـــنـــي دجـــيـــل

وأين الآن أمواهه الدفاقة تنشر الخصب والري على المروج والبساتين وتبعث الحياة في الأرض والناس؟ وأين الحقول على جانبيه ريانة مخضوضبة، والمحاجر حواليه مورقة مونقة؟ أين الرياض والرياحين والأزاهير؟ بل أين الرواد تغص بهم الشطوط وتزخر بهم المناهل؟

أهذا هو دجيل؟ أخاديد تسفوها الرياح وحفر تسكنها الوحوش... لقد جف نهر دجيل وغار ماؤه فلم يبق منه في هذا السهل إلاّ بقايا هي خير شاهد على ما كان في هذه المرابع من حياة أي حياة ونشاط أي نشاط وجمال أي جمال. وهذا الجسر الفخم يمثل أحسن تمثيل عظمة النهر وغزارة مائته ونشاط الحياة فيه.

لقد تلمسنا قطرة من الماء ونحن نعبر نهر دجيل فلم نجد؛ فهذا خندق طويل جاف هو بقية مجرى النهر، وهذه قوائم الجسر مغموسة بالتراب، وهذا الجسر يغالب الدهر ويقاوم الزمن فينتصر ويبقى في هذا البر الأقفر رمزاً للحياة الماضية. فما أعظم ما يوحي جسر (حربه) للنفس من معان وما يثير فيها من شجون.

وإذا كان نهر دجيل قد أصبح غوراً وهذه الجنان قد عادت صعيداً زلقاً وإذا كان الزمن القاسي قد مر بأوجع الأرزاء والنوائب وبعث أمر الأحداث والنكبات على هذه البقعة العربية الغالية، فغير فيها معالم الماضي المجيد وأحال المرابع إلى بلاقع، فإنك لتغتبط حين ترى اليوم أن الموات يحيا وأن الأرض تروى وأن الحياة أخذت تدب في هذا الجسم الجبار ليعيد سيرته الأولى. ولئن جف دجيل فقد تفجر الفرات وفار الثرثار. ولئن خوى جسر حربه فقد عمرت جسور بغداد أي عمران.

إلى تكريت

تركنا جسر حربه وراءنا وعدنا نفوّز في السهول الجرداء، فنمر فيها على بقايا جداول وأقنية جافة. ويقول المؤرخون إن مجرى دجلة الأصلي أخذ بالتحول في أوائل عهد المستنصر بمشاريعه الإروائية، فكان منها نهر دجيل وجسر حربه وغيرهما، وإن السالك اليوم في هذه الأراضي ليرى بقايا تلك الأعمال الإنشائية ماثلة للعيان. وقد كنا نسير فنمر بين الحين والحين على قناة مردومة وجدول متهدم وترعة خربة حتى أشرقت لنا قبة سامراء وهاجة في الأفق وإلى جانبها الملوية صاعدة في الجو. ثم أخذت تنجلي لنا عن اليمين حتى كنا نسير على محاذاتها في الضفة الثانية من دجلة. ثم لمع النهر إلى يميننا وبان قصر العاشق أمامنا فلم نتوقف عليه، بل تركنا ذلك للإياب وأوغلنا في السير في سهول هي في الواقع صحارى جرداء وبوادٍ قفراء، حتى بدت أعلام تكريت بعد ست ساعات من خروجنا من بغداد، فصرنا هنا بين ربوات واطئة وتلال منخفضة نشق فيها طريقاً حجرية يتناثر فيها الحصى والجنادل، حتى كنا نقبل على تكريت فنرى أول ما نرى منها مقبرتها وقبابها المنتشرة، ثم ندخل في زقاق عريض انعطفنا في نهايته إلى بناية حططنا رحالنا فيها.

مشاهد تكريت

ثم خرجنا نجول في البلدة، فقصدنا إلى ما يسمى في تكريت بالجبل أو القلعة. وهو مكان تكريت القديمة المتهدمة التي لم يبق منها إلاّ ركام التراب. فصعدنا في تل كبير يقع في شمال البلد فإذا خندق

عظيم إلى غربه ربما كان مجرى النهر القديم، ووصلنا إلى قمة التل وأشرفنا على دجلة فبدت البلدة أمامنا على شاطىء النهر مبتدئة من الضفة ثم آخذة بالصعود، فرأيناها بيتاً بيتاً وكان ضجيجها يملأ الآذان فتمتزج فيه صيحات النساء بأصوات الرجال وصياح الديكة. وبالرغم من أن البلدة تبدو للناظر كبيرة الحجم إلاّ أن جميع مظاهرها قروية بحتة. وقد أبصرنا من قمة التل جبال (حمرين) تلوح نائية عن الأبصار في عرض السهول. ثم تقدمنا فأشرفنا على دجلة من تحتنا والسهول منبسطة أمامه على مد البصر، ثم أخذنا بالانحدار من طرف التل الآخر نازلين في نفق يوصل إلى النهر حتى انتهينا إلى الضفة فسرنا على حافاتها في مسالك ضيقة تنحشر بين التل والنهر، ورأينا السقائين رجالاً ونساء ينقلون الماء، الرجال منهم على دوابهم والنساء على رؤوسهن. ثم درنا حول البلدة حتى انتهينا إلى تلال عند طرفها الجنوبي فصعدنا فيها فإذا أنقاض بنيان قديم يدل على امتداد تكريت القديمة واتساعها، وبعض هذه الأنقاض منبوش تظهر فيه بقايا الجدران وآثار الدور والقصور. ثم هبطنا من التلال وخرجنا إلى ظاهر البلد وكان الغروب قد أظلنا فتطلعنا فإذا هلال العيد يشرق علينا من علياء سمائه فهاجنا منظره وعاد بنا إلى ذكرى الأهل والأوطان. ولما دجا الليل خرجنا نطوف في البلدة فكنا نمر بجماعات الأطفال وهم يستقبلون العيد بأغانيهم الحلوة وأناشيدهم العذبة ويصفقون له ويرقصون.

يا أطفال تكريت، غنوا للعيد ما شئتم واحتفوا له ما عشتم فما كنتم تدرون أنكم تثيرون سواجي الوجد وتوقظون غوافي الشوق. ثم ذهبنا إلى منزل رئيس البلدية لتناول العشاء، فدخلنا داراً جميلة في صدرها إيوان عميق مطلي بالجص أجزناه بين صفوف الجالسين إلى غرفة بجانبه تقوم على طول جدرانها أشكال أواوين معقودة الأعلى ذات طابقين على النسق المعروف في تلك النواحي وجميع الجدران مطلية بالجص الناصع البياض.

ويقوم الإيوان والغرفة على سرداب كبير عميق يؤوى إليه عند اشتداد الحر. ومن منزل رئيس البلدية قصدنا إلى مدرسة التفيض التي كانت قد أعدت حفلة سمر جميلة رقص فيها طلابها بالسيوف على أنغام (المطبق) رقصاً كله رجولة وقوة، وأنشدوا الأهازيج الشعبية والأغاني المحلية وغنوا «السويحلي» الجميل و«العتابا» الساحرة، وكم كان شاعرهم الشعبي حميد محمود مؤثراً عندما أنشد:

أريد أبكي وبكّي الطير وحداي وبكّي كل من فارق احباب

أجل أيها الشاعر لقد أبكيتنا حقاً فكنت صادقاً كل الصدق بشعرك العذب.

الأربعون

وفي الصباح خرجنا إلى مقام الأربعين لنشاهد احتفال الأهلين بالعيد، فمررنا بأطلال السور المتهدم واجتزنا بمقبرة البلدة فرأينا على شواهد القبور صوراً ونقوشاً غريبة، فأخبرنا بعض رفاقنا التكريتيين أن العادة هنا أن ينقشوا على شاهدة قبر الميت ما يشير إلى مهنته وطراز حياته. فهذا قبر منقوش عليه صورة «سدارة» فهي تشير إلى أن الميت من طبقة «الأفندية» لابسي السدارات، وهذا قبر منقوش عليه صورة خنجر ومسدس فهي تشير إلى أن صاحبه كان من الشجعان حاملي الخناجر والمسدسات إلى غير ذلك من الصور والنقوش التي لا نعرف لها مثيلاً في غيرها من مقابر المسلمين.

وكان طريقنا إلى المقام يعج بالناس رجالاً ونساء وأطفالاً وكلهم بالملابس الزاهية والأثواب الملونة قاصدين إلى تمضية العيد في الأربعين. ولما بلغنا المقام رأينا الرحاب حوله ملأى بالأهلين، ورأينا حلقات الدبكة عامرة زاخرة. وكما يفعل القرويون عندنا في احتشاداتهم في المواسم والأعياد في مقامات الأنبياء والأولياء طربين دابكين هازجين، كذلك يفعلون هنا. ففي كل مقام ومزار يجتمع الناس في الأعياد من شتى النواحي ويحتفلون بالعيد احتفالاتهم القروية المعتادة. وقد رأيناهم في الحلة ونواحيها يقصدون إلى مقام النبي أيوب بن علي وها هم يقصدون إلى مقام الأربعين وسنراهم غداً يقصدون مقام السيد محمد في (بلد) ونواحيها.

أما مقام الأربعين فهو بقايا غرف وسراديب متهدمة يظهر أنها قديمة العهد وتقوم في وسطه قبتان بسيطتان وتحت إحدى القبتين غرفة فيها قبر ضخم ذو ارتفاع عالٍ، قيل لنا إنه قبر من يسمى عمر بن جنيد. أما القبة الثانية فتحتها غرفة لا قبور فيها.

وقد كنا نحسب أن للأربعين مقامات عندنا في بلاد الشام فقط، فإذا بنا نجد لهم هنا مقامات أيضاً ففي دمشق في جبل قاسيون مقام للأربعين وفي صيدا وبيروت، وههنا في تكريت وكذلك في الموصل وهيت ولعل في غيرها أيضاً... فمن هم هؤلاء الأربعون الخالدون الذين تركوا لهم في كل مدينة مقاماً ومزاراً؟

بقايا سامراء

تركنا تكريت عند الضحى وأخذنا في طريق صحراوية عائدين نقصد سامراء حتى بلغنا قصر المعشوق الذي يقول فيه البحتري:

لا زال معشوقك يسقى الحيا ... من كل داني المزن واهي الخروق
فما خلونا مذ رأيناه من ... فتح جديد وزمان أنيق
أشرف نظاراً إلى ملتقى ... دجلة يلقاها بوجه طليق
وطالع الشمس على موعد ... يمثل ضوء الشمس عند الشروق

فترجلنا من السيارة ومشينا إلى رابية يقوم عليها القصر فاجتزنا ببقايا نهر الإسحاقي الذي كان يجري تحت القصر، ثم صعدنا في التل فإذا نحن أمام أطلال دوارس لصرح كان شامخاً مشمخراً ولا تزال بعض أركانه وجدره قائمة على ما كان عليه من فخامة وعظمة، وهو يمتد طولاً على مسافة ١٣٠ متراً وعرضاً ٩٦ متراً ولا تزال سراديبه العميقة عامرة ماثلة. وقد أشرفنا ونحن في القصر على ربوات ووهدات وفجوات وأخاديد هي أنقاض المدينة العظيمة الداثرة تلوح في هذه السهول قفراء خالية. فكم كانت هذه الأطلال مجمعاً حاشداً يغص بالجنود ويضيق بالوفود، وكم جالت في هذه الميادين مواكب الفرسان وخطرت صفوف الأجناد.

هذا قصر المعشوق نقف عليه مطلين على سامراء، فإذا نحن في خرائب وأنقاض شوهها الزمن لا ترى عيوننا حواليها إلاّ ركامات منتشرة على مد البصر تبرز خلالها بقايا القصور. فأين سامراء الزاهرة؟ وأين قصورها العامرة؟ لقد طواها هذا الثرى في أحشائه وأطبقت عليها هذه الأرض فها هي أثر بعد عين. ففي هذه الربوات الهامدة كانت تنبض الحياة جياشة صاخبة، وفي هذه الفجوات الخامدة كانت تزخر الدنيا

ضاحكة متألقة، وتحت موطىء كل قدم منا كان مجلس لأمير وندي لرئيس ومحفل لسمار ومجمع لجلاس، فما أروع الدهر وما أعظم عبر الحياة.

أيها الشاعر الجاهلي، إنني وأنا على أطلال سامراء أحييك وأترنم بشعرك وأعرف أي حس كان يقودك وأنت تقف على بقايا الطلول ورسوم المنازل تسائلها عن الظاعنين وتستعيد ذكريات الراحلين. فليس كشعرك شعر يهز النفوس ويثير القلوب، وليس كقصائدك قصائد صادقة الأداء صادقة الشعور صادقة العاطفة.

إلى سامراء

تركنا المعشوق، الذي بدلت الأيام اسمه إلى العاشق، وراءنا وسرنا إلى دجلة لنعبر إلى الضفة الثانية فوصلنا الجسر الذي نصب حديثاً هناك وكانت واسطة العبور قبله الزوارق. وصادف وصولنا موعد وصول قطار بغداد فإذا بالناس منتشرون على طول الطريق من المحطة إلى الجسر وهم قاصدون سامراء للترويح عن النفس. وعبرنا الجسر فإذا هو مزدحم أيضاً وإذا بسامراء تعج عجيجاً بالوافدين ولا بدع فالأيام أيام عطلة وعيد، وسامراء منتجع القاصدين لقداسة مراقدها وجليل آثارها وعذوبة هوائها وطيب مناخها.

وقد قمنا نجول في البلدة فزرنا المقام الذي يضم رفاتي الإمامين علي الهادي والحسن العسكري عليهما السلام. ثم انتقلنا إلى الآثار فرأينا الملوية والمسجد الجامع وقصور الخلفاء وسور أشناس وبركة المتوكل الشهيرة فإذا هي الآن حفرة مشوهة لا الآنسات تلوح في مغانيها ولا وفود الماء تنصب فيها ولا الفضة البيضاء تجري في مجاريها:

محل على القاطول أخلق داثره ... وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
تغيّر حسن الجعفري وأنسه ... وقوّض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواء دوره ومقابره

سامراء

تقع سامراء بشمال مدينة بغداد على بعد نحو ١٣٠ كيلومتراً على الضفة اليسرى من نهر دجلة. وهي قضاء تابع إلى لواء بغداد من الناحية الإدارية ومبنية على أطلال مدينة «سر من رأى» العباسية.

أسست مدينة سامراء بعهد الخليفة العباسي المعتصم بن هارون الرشيد سنة ٢٢١هـ - ٨٣٦م. وهو ثامن خلفاء بني العباس ليجعلها عاصمة جديدة، ثم وسعها ابنه الواثق وأوصلها إلى أقصى اتساعها المتوكل. إلاّ أن المدينة تركت بعد ذلك وأعاد المعتمد مقر الخلافة إلى بغداد، ولم يكن قد مرَّ عليها أكثر من أربع وخمسين سنة ملك خلالها ثمانية من خلفاء بني العباس وهم: المعتصم، والواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين، والمعتز، والمهتدي، والمعتمد.

ولا يعرف مدينة اتسع عمرانها في بضع سنوات كما اتسع عمران مدينة سامراء حتى امتد إلى مسافة ٣٥ كيلومتراً على ضفتي نهر دجلة.

قال ياقوت الحموي: «صارت أعظم بلاد الله»، وقال القزويني إنه «لم يكن في الأرض أحسن ولا أجمل ولا أوسع ملكاً منها».

ومدينة سامراء الحالية مبنية على أطلال مدينة «سر من رأى» القديمة يبلغ طولها نحو كيلومترين وعرضها نحو كيلو متر ونصف. وإذا رغب المسافر زيارة هذا البلد فيستطيع أن يقطع المسافة إليه إما بالقطار فيصلها بساعتين أو بالسيارة بساعة ونصف. والناظر لمدينة سامراء يرى هناك قبتين إحداهما مغشاة بالذهب والثانية مغشاة بالكاشي الأزرق الملون.

أما القبة الزرقاء فيقع تحتها الجامع الكبير، وسرداب بيت الأئمة. وهي مستديرة الشكل يبلغ محيطها ٤٥ متراً و٣٢ سنتمتراً، أما قطرها فيبلغ ١٥ متراً و١١ سنتمتراً.

أما القبة الذهبية فيقع تحتها ضريحا الإمامين علي الهادي وولده حسن العسكري. كما يوجد معهما في الضريح جعفر بن علي الهادي وأخوه حسين والشريفة حكيمة بنت محمد الجواد والشريفة نرجس زوجة الإمام حسن العسكري وغيرهم من آل البيت. والقبة الذهبية تقع في وسط الصحن، والصحن هذا يكون على شكل مربع تقريباً حيث يبلغ طوله من الجنوب إلى الشمال ١٤٦ متراً وعرضه من الشرق إلى الغرب ١٣٣ متراً من جهة شمال الصحن أما عرضه من جهة الجنوب فيبلغ ١١٥ متراً. وفي هذا الصحن تقع قبة الإمامين الهادي والعسكري وله خمسة أبواب والروضة مستطيلة الشكل حيث يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٥٣ متراً وعرضها من الشرق إلى الغرب ٣٧ متراً وارتفاعها ١١ متراً وفوق سطح الروضة نطاق مستدير يبلغ ارتفاعه متراً واحداً وهو من الإسمنت المسلح حيث تجلس القبة فوقه ويبلغ ارتفاعها ٤٦ متراً، وباب الروضة متجه نحو القبلة فإذا دخل الزائر إلى الحضرة يرى مقدمة الباب وهو مطلي بالذهب وفي وسطه بعض الآيات من سورة الزمر وقد وضع هذا الذهب سنة ١٣٨٢هـ. كما يرى مصراعا الباب الذهبي المطعم بالمينة الزرقاء الجميلة المنقوشة على شكل بديع جداً، كما أنهما مغلفان بالزجاج الممتاز فإذا اجتاز الزائر هذا يرى بابين آخرين ذهبيين على شكل نفيس، ويكون قد دخل إلى رواق الحضرة الذي يطوق القبة على شكل مربع حيث يبلغ عرض الرواق وطوله ٣١ متراً ويفصل بين القبة والرواق فراغ يبلغ ٣ أمتار. وفي شمال الرواق بهو كبير مستطيل الشكل يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ٣٣ متراً وعرضه ١٠ أمتار وله أربعة عشر شباكاً من الحديد. وهذا البهو خاص لصلاة النساء. وفي هذا الرواق ثلاثة أبواب تؤدي إلى داخل القبة باب من الجنوب وباب من الشرق وباب من الشمال. وهناك شباك من جهة الغرب بين الرواق والقبة، أما داخل القبة فمكتوب عليها بالكاشي الأزرق سورة (الدهر) وبعض السور الأخرى، كما مكتوب فيها بعض الأحاديث النبوية الخاصة بآل البيت عليهم السلام.

إن قبة الإمامين مطلية بالذهب الذي تبرع به السلطان ناصر الدين شاه القاجاري وذلك سنة ١٢٨٥هـ كما هو مكتوب على القبة نفسها، وهذه القبة من أكبر قباب الأئمة في جميع أنحاء العالم الإسلامي حيث يبلغ محيطها ٦٨ متراً وقطرها ٢٢ متراً و٤٣ سنتمتراً، وبالجهة الجنوبية من المقام تقع منارتان

مغشاتان بالكاشي الأزرق يبلغ ارتفاع كل واحدة منهما من الأرض إلى فوق ٣٦ متراً وأما من سطح المقام فيبلغ ٢٥ متراً، وفي داخل الصحن يوجد ٤٥ إيواناً من الغرب، و٩ من الجنوب و٢٠ من الشرق.

إلى بلدة «بلد»

خرجنا في الصباح من سامراء أيام العيد ننتحي بلدة (بلد) التي سميت حديثاً (دجيل)، فلما شارفناها رأيناها مغمورة بالرياض ورأينا الأشجار تحوطها من كل جانب، ثم كنا نقبل عليها فندخل في طريق يخترق البساتين والحدائق. ثم خرجنا إلى جادة طويلة على جانبيها الأشجار، فسرنا بين بيوت البلدة ودروبها. وبعدما تجولنا فيها قليلاً خرجنا من بين البساتين المكتظة إلى سهول جرداء. وكان اليوم يوماً عاصف الريح، وكانت الطريق غاصة بالسيارات الذاهبة والآتية من مقام السيد محمد فكنا نستقبل غباراً عظيماً يهيج علينا من كل ناحية حتى ما نكاد نبصر طريقنا، إلى أن كنا في مقام السيد محمد فرأينا الساحات حوله تزخر بالخلق نساء ورجالاً وأطفالاً جاؤوا من كل ناحية يحتفلون بالعيد فعقدوا حلقات الدبكة وراحوا يهزجون ويقفزون. وأخذ الفرسان يتبارون على صهوات خيولهم في السهول.

والريح في كل ذلك معتكرة لا تهدأ ولا تسكن، فلم نطق المكث وأسرعنا إلى داخل المقام فإذا صحن واسع في وسطه قبة خضراء تعلو حجرة مزينة بقطع من المرايا الصغيرة. وفي وسطها قبر محاط بقفص نحاسي تعلوه بعض الأعلام والقطع المزركشة وتدور حول الصحن أروقة وغرف ذات طابقين يأوي إليها الزائرون. وقد كان الصحن كما كانت الحضرة مملوءة بالناس فكنا نزاحم بالمناكب لنشق لنا طريقاً في الدخول والخروج. ولما خرجنا من الحضرة هرولنا إلى السيارة مسرعين هرباً من هذا القتام العنيف الذي لم يستطع أن يكسر من حدة الجماهير الحاشدة ولا أن يضعف من حماستها، فكان التراب الهابي يلفح الوجوه ويدخل في الآذان والأفواه ويكسو الأجسام حللاً قاتمة. كل ذلك (والمطبق) تشق أصواته أجواز الفضاء والدبكات تتماوج حلقاتها والحلبات تعدو أفراسها والباعة تعلو أصواتها والناس يروحون ويجيئون كأنهم ينشقون أعراف الزهر وأريج الورد لا غبار السهول وتراب الأرض.

أنواع من الناس

تركنا الناس في عيدهم وسرنا في أراض عارية، فكنا نلتقي بجموع القرويين صادرين واردين عن المقام وإليه تقل بعضهم السيارات وبعضهم الخيول والحمير، ويمشي بعضهم راجلاً حتى كنا في محطة بلد. وهي المحطة التي يقف عليها قطار بغداد ـ الموصل فدخلنا فيها مقهى بسيطاً صفت فيه مقاعد خشبية متداعية، فأخذنا مجالسنا فيه تحت سقف من الحصر وبين جدران طينية شاحبة. وكان المقهى مكتظاً بالناس على اختلاف أشكالهم. فها هنا جنود يتساجلون. وها هنا طلاب يتحدثون. وهناك تجار ووجهاء ومزارعون، فترى السدارة العسكرية إلى جانب الأخرى المدنية، والعمامة الصفراء والكوفية والعقال والبنطلون إلى جانب القنباز، والسترة إلى جانب العباءة، والعمامة البيضاء إلى جانب العمامة الخضراء، فتتعالى من جوانب المقهى أصوات متنافرة متباينة فهناك شبه عراك وهناك مسامرات وهناك صيحات. وتمر في هذه الأثناء سيارة فيجلس ركابها في المقهى أو تسير سيارة فيغادره ركابها.

وبعد جلسة قصيرة في المقهى قمنا متجهين إلى (سميكة). ولما أقبلنا عليها رأيناها محاطة بالبساتين فلا

يبدو من بيوتها شيء، ثم دخلنا بين بساتينها الكثيفة في طرق ملتوية تقوم على جوانبها جدران عالية من الطين اليابس حتى أطللنا على البلدة فسرنا في طريق طويل تنتشر على حافتيه البيوت وتزينه صفوف من النخيل، ورأينا نهراً جافاً قيل لنا إن الماء لا يجري فيه إلاّ أيام الفيضان العالي وفي غيره ترتوي البلدة من مياه الآبار.

وبعد قليل قمنا إلى سيارتنا عائدين إلى بغداد في تلك السهول الفيح التي تنطوي على ما يهز المشاعر ويثير العواطف من ذكريات حوافل وماض زاخر.

إلى البصرة

أفقنا في الساعة السادسة صباحاً ونحن في صحراء رملية مترامية الأطراف يجتازها بنا القطار هابطاً من بغداد ويحط على مواقف متعاقبة لم نكن نرى حولها عمراناً ولا حياة، حتى كانت الساعة قد بلغت منتصف العاشرة، فلاحَ لنا نخيل البصرة الكثيف ثم أخذت تبدو معالم البصرة وتتجلى أمام العيون إلى أن كنا نقبل على (المعقل)، فنزلنا من القطار لننتقل إلى المدينة العظيمة التي يثير اسمها في النفوس شتى الأحاسيس والذكريات. ولم نكد نترك القطار حتى تعالت صيحات سائقي السيارات ينادون: «بصرة. عشار». إذ إن البصرة اليوم هي مدينتان البصرة القديمة ويطلق عليها اسم البصرة، والبصرة الحديثة ويطلق عليها اسم العشار، وهما منفصلتان يربط بينهما طريق طويل. فاستقلت بنا سيارة من سيارات العشار ومضت من المعقل سالكة بين بنايات حديثة العهد تقوم على جانبي الشارع، ثم انقطعت البنايات وصرنا بين بساتين النخيل نشقها بالشارع القاري الجميل حتى كنا في قرية (الجبيلة) القائمة بيوتها القصبية على جانبي الطريق. وهذه القرى القصبية من أطرف المتناقضات في مدن العراق ففي صميم بغداد تنتشر بيوت القصب مجاورة لأرقى البنايات وأفخم العمران. وعلى أبواب المعقل تقوم ضاحية قصبية إلى جانب القصور. وفي طريق العشار نجتاز بالقصب هنا وهناك. إنها الحياة المتناقضة المختلفة المناظر المتنوعة الصور تراها حيثما سرت.

في مداخل البصرة

وبعد (الجبيلة) كنا في نخيل متصل تتخلله بيوت قصبية وتشقه جداول متشابكة يتحكم فيها المد والجزر الذي اشتهرت به البصرة أيما اشتهار. ثم طلعنا على أوائل المدينة فاجتزنا بيوتاً بسيطة في شارع يشاطرها البساطة قيل لنا إنه شارع (دينار). وكنا ونحن نعبر مداخل المدينة نتلفت فلا نبصر إلاّ مظاهر قروية لا تتفق في شيء مع شهرة هذا البلد، بل كانت في الواقع خيبة أمل لمن يتخيل البصرة مدينة التاريخ وثغر العراق. وأخيراً حطت بنا السيارة في ساحة (أم البروم). وإذا كان لي أن أتحدث عن هذه الساحة فيكفي أن أسميها للقارىء وأن أقول له إن كل ما فيها مستوحى من هذا الاسم العجيب. أما من هي هذه الأم التي نسبت إليها هذه الساحة وأما ما هي هذه (البروم) التي كنيت بها هذه الأم وأما ما هي تلك المناسبة التي أطلق بها هذا الاسم على الساحة، فشيء لم يصل إليه علمي على الرغم من إلحافي في السؤال! ومن ساحة أم البروم سرنا في أسواق كانت مضربة إضراباً عاماً إذ إننا في اليوم الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر من سنة ١٩٤٦، وهذا اليوم هو ذكرى وعد بلفور الذي أعلنت فيه البلاد العربية الإضراب العام فاستجابت البصرة لدعوة الإضراب فأغلق كل شيء فيها وتعطلت وسائل النقل. ولولا أن الشرطة حجزت عدداً محدوداً من السيارات لنقل الناس من المعقل إلى البصرة لعجزنا عن الانتقال. وما زلنا نتجول في الأسواق وننعطف في الأزقة حتى وصلنا شارع الملكة ثم عبرنا جسراً بسيطاً إلى ساحة فيها تمثال أسد بابل فكان إلى يسارنا مبدأ شارع (الكورنيش)، فسرنا إلى اليمين على ضفة النهر في شارع

الفرزدق وفي هذا الشارع بدأ التبدل في المظاهر العامة فبعد أن كنا نجتاز شوارع مهشمة وأزقة غير نظيفة صرنا الآن في شارع نظيف سليم ولكنه مع الأسف مشوه بما يلقي على أجراف النهر من أقذار وقمامات. ولقد كان من الوفاء للفرزدق أن تسمي المدينة باسمه شارعاً من أعظم شوارعها يذكر الزائر بشاعر البصرة العظيم الذي غنى الحياة روائعه الخالدات وكان أمة وحده في دنيا الشعر والفن... ما أعظم ما تثيره البصرة من الأحاسيس حينما يتصور السائح أنه في المدينة التي كانت يوماً مسرحاً لحوادث من أدق حوادث التاريخ الإسلامي والتي اقترن اسمها بشتى الأمجاد وشتى الأرزاء. وحينما يتخيل المسافر أنه في البلد الذي كان حيناً مدرسة جامعة يؤخذ عنها العلم والأدب وتنسب إليها الثقافات وتنمى إليها الدراسات.

في شوارع البصرة

وما أعذب ما يوحي شارع الفرزدق من ذكريات حينما تمر بالذهن أصدية الشعر متجاوبة في هذا الأفق المديد، فتتمثل المربد غاصاً بالشاعرين، والفرزدق هاتفاً بالسامعين، فتعود إلينا البصرة بماضيها الزاخر وتاريخها العامر. ولم تكن المدينة وفيّة للفرزدق وحده، بل كانت وفيّة لكثير من أعلامها الغابرين فقد سمعت فيما مرَّ أنها سمت شارعاً باسم (دينار)، كما رأينا شارعاً باسم أبي الأسود الدؤلي. ولعل هناك غير ذلك مما لم نره ولم نسمع به لأن جولتنا في البصرة كانت قصيرة وإقامتنا فيها قليلة صرفتنا عن التعرف إلى كثير من محاسنها ومفاتنها. وإذا كنت قد سجلت بعض ما رأيت مما لا تستحبه فيها العين فإني لم أتعمد ذلك بل كانت المصادفة وحدها هي المتحكمة، فوقع نظرنا أول ما وقع على ما لم نكن ننتظره في المدينة التي شد ما شغلت خيالنا وملأت أذهاننا. وما كان لي إلاّ أن أكون صادقاً في التصوير غير كاذب في الرواية وإلاّ ففي البصرة من جمال الطبيعة ما يزري بكل مكان، وفيها من المحامد ما تفوق به كل بلد، ولكن ضيق الوقت أعجلنا عن الاستزادة منها، فقضينا بضع ساعات في الاستراحة من تعب الطريق. ولما جاء العصر كنا نشد الرحال للرحيل عن البصرة إلى ملتقى الرافدين في القرنة، فالمعذرة إلى أصدقائي البصريين.

إلى القرنة

وخرجنا من البصرة عصراً في السيارة عائدين من شارع دينار المهشم ذي الأخاديد والحفر، ثم اتصلنا من شارع دينار بالشارع الآخر الصقيل الجميل الذي تدرج فيه السيارات مرحة لا تعيقها نقرة ولا تصدمها حفرة. وهكذا الحظوظ تنزل بالشوارع والبنيان كما تنزل بالإنسان والحيوان. وبعد قليل كنا نترك طريق المعقل وننحرف إلى اليسار في طريق قاري يخترق السهول الرحبة التي كانت تمتد إلى أقصى البصر ثم كان السواد يطلع علينا في الأبعاد فيسد الأرض الفضاء. وكنا نستقبله جارين إليه فيزداد أمامنا وضوحاً وجلاء. وبعد خمس عشرة دقيقة انقطع القار وصرنا في طريق محطم يرطم السيارة ويهزها هزاً عنيفاً دراكاً، وكانت السهول من حوالينا تثير في نفوسنا الإشفاق على ما كان قد نالها من نكبات الفيضان وأرزائه. فبالرغم من طول المدة المنقضية على الفيضان فإن آثاره الباقية لا تزال تشير إلى ما كان عليه من شر مريع، ثم صرنا في قلب السواد نشق النخيل ونجتاز الزروع

موغلين في هذه السهول الجميلة التي لا نهاية لها. وبعد ثلث ساعة كنا نعبر جسراً خشبياً على نهر «القرمة» (قرمة علي) وهي فرع كبير من فروع الفرات يتشعب من هور الحمّار ويصب في شط العرب. واستمر طريقنا نخيلاً متصلاً وقرى قصبية ممتدة حتى كنا نعبر جسراً على نهر (الماجدية) وكان النهر جافاً لأن الماء كان في حالة الجزر. وكنا كلما تقدمنا في السير ازداد الطريق تلفاً وخراباً. وبعد ساعة كان شط العرب يلمع إلى يميننا ثم يختفي في المنعطفات ثم يعود فيطلع وهكذا دواليك. وبعد ساعة وثلث الساعة كنا نعبر نهر الشافي المتفرع من الفرات، وكان الليل يمشي إلينا وئيداً ثم عمنا الظلام، وكنا قد أمسينا في نخيل القرنة، وما هو أن تلألأت أمامنا الأنوار حتى أيقنا أنّا صرنا على مقربة من ملتقى الرافدين، وأنّا سندخل «القرنة» بعد قليل.

في جنة عدن

وهكذا كنا نقبل على الفرات فنعبره على جسر خشبي عائم ونحط في «القرنة» الجميلة، فنلقى فيها نفراً من أكرم الأخوان كانوا بالأمس طلابنا فأصبحوا اليوم أصدقاءنا الذين نعتز بصداقتهم ونفاخر بوفائهم. وكان التعب قد بلغ منا منتهاه، وكانت أجسادنا مكدودة لسهر الليل وعناء النهار. فما هو أن استقر بنا المقام حتى كان أعذب ما نناله إغماضاً نستسلم فيه للراحة والقرار. وفي الصباح كان فتيان القرنة الأنجاد يحيطوننا بعواطفهم ويبذلون لنا خير ما يبذله الكريم النبيل من رعاية وعناية وإعزاز، فصحبونا بجولة في البلدة أعادت لنا ذكرياتهم العذبة وأيامهم الغابرة ورجعت بنا إلى العهد الذي كنا نلقاهم به في المدرسة فنتوسم منهم أنبل المقاصد وأشرف المطالع. وها هم الساعة حولنا يحققون ما رجوناه فيهم فإذا هم هم رجال بكل ما في الرجولة من حيوية ونجدة وبأس. وسرنا في شارع يوازي دجلة وتفصله عنه البنايات والمقاهي والدكاكين، ثم انكشف أمامنا دجلة ساجياً قاراً ترسو فيه سفينة وتعبره أخرى تضرب صفحته بمجذافيها وتثير سكونه بحركتها، وكانت الضفة المناوحة شجراء بالنخيل الغضيض الممتد إلى كل ناحية. وقادنا التجوال إلى الشجرة العجيبة التي تحاك حولها شتى الأقاويل وتثار فيها مختلف الأحاديث وهي خشبة يابسة ملقاة على ضفة دجلة كانت يوماً ما شجرة غضة ثم أصبحت حطبة صلبة وهي بشكلها الحاضر قديمة العهد لا يعرفها القرنيون المعمرون إلاّ على هذه الحال، ويطلق عليها أهل القرنة اسم شجرة إبراهيم الخليل. وحدثونا أن الإنكليز والأميركان يقصدونها على الدوام ويقطعون منها قطعاً صغيرة يحتفظون بها في رحيلهم، وقد رأينا محفوراً عليها أسماء إنكليزية كثيرة كما رأينا أمامها لوحة مكتوب عليها بالإنكليزية عبارة ترجمتها «جنة عدن الحقيقية». وحدثنا شاب قرني من دار المعلمين العالية أن أحد أساتذته الإنكليز قال إنها برأيهم شجرة آدم وإن اسمها «شجرة الحياة». ومهما يكن من شيء فإن أمرها وأمرهم معها غريب، وليس لدينا ما يمكن أن نتحقق منه حال هذه الشجرة. ومن الشجرة مشينا إلى ملتقى النهرين ووقفنا في الزاوية نبصر كيف يعتنق الرافدان بعد طول مسير. ولا أحسب مشهداً يثير في النفس ما يثيره هذا المنظر الرائع الذي شد ما هفونا إليه، فها نحن الساعة في القرنة التي يمتد فيها دجلة ويمتد الفرات ليمتزجا ويؤلفا النهر العظيم «شط العرب». ويقوم على الملتقى تماماً بين دجلة من جهة وبين الفرات من الجهة الثانية نادي الموظفين، وقد أنشىء أول ما أنشىء من القصب، ثم استبدل ببنائه الحجري الحالي. وفي تاريخ تشييده الأول يقول عالم القرنة شعراً «في ملتقى النهرين ناد من قصب». ثم

تركنا النادي ومشينا إلى الجسر فكانت تمر عليه مجموعات وأفراد من القرويين نساء ورجالاً حفاة الأقدام. وفي رأس الجسر من الطرف الآخر مقهى قصبي ولكنه منسق تنسيقاً جميلاً وهو مؤلف من غرفة مستطيلة وإيوان وجميع جدرانه القصبية عبارة عن مشبكات معينية أو مربعة منعقدة فوقها عقود بديعة وأسطوانات لطيفة. وهكذا فإن الذوق يستطيع أن يخلق من مثل هذا القصب عملاً فنياً يثير الإعجاب. وهذا الطراز من البناء القصبي رأيناه منتشراً في عدة مقاهٍ هناك، ويمتاز هذا المقهى بنظافة نادرة لا مثيل لها حتى في مقاهي المدن، نظافة في مقاعده وأرضه وجدرانه.

الأساطيل الشراعية

وقد كان من الطريف أن تطلب ماء فيسألونك: أتريد ماء من دجلة أم من الفرات؟ وقد رأينا الشاربين يفضلون ماء دجلة ويخصونه بالطلب، وبينا نحن جلوس إذ انقطع الجسر تمهيداً لعبور السفن التي كانت قد تجمعت على الناحيتين، فاحتشد الناس على رأس الجسر أشكالاً منوعة ينتظرون عقده ليعبروا إلى طياتهم فكانوا يؤلفون مجموعات متنافرة. فهذه عجوز محناة الشعر تحمل على رأسها قفة صغيرة رأت أن الأمر سيطول فجلست على الأرض ساكنة ساكتة تنتظر الفرج، وهؤلاء أطفال عمش العيون قذرو الآناف متسخو الملابس حفاة الأقدام يتكتلون ترقباً للعبور، وهؤلاء رجال يلتفون بعباءاتهم ويجلسون القرفصاء متطلعين إلى الجسر بعيون ملت الانتظار وسئمت الصبر. وكان قد التقى على الجانبين مجموعات من السفن كانت تنتظر فتح الجسر فازدحم جو النهر بالأشرعة البيض، وأقبلت السفن من الناحيتين خفاقة العذبات تمخر النهر بشكل جميل أخاذ يعيد إلى الذهن صورة رائعة لما كان يتخيله للأساطيل القديمة، فما تملك نفسك عن الانغماس في هذا الجو الشعري الواقعي الخيالي فترسل عينيك تتملى وتتملى من هذه المباهج الطبيعية الفاتنة.

لله ما كان أجمل تلك المراكب يزحم بعضها بعضاً على صفحة الماء ويواكب بعضها بعضاً في الفضاء. وما كان أروع تلك الأشرعة تتماوج مع النسيم وتخفق في الجو فتبعث القوة والمرح في السفن وأصحاب السفن. وما كان أطرف مراقب الجسر وهو يقف بقامته الفارعة على فم الفوهة ملقياً أوامره كأنه أمير من أمراء البحر وقائد من قواد الأساطيل، صارخاً ملء فمه لينبه أرباب السفن إلى المد القادم بعد الجزر:

ـ المدة، المدة، المدة.

وعندما كثرت الحركة في النهر، واندفعت السفن عابرة في الفوهة من كل ناحية ازداد اهتمامه واشتدت حماسته وراح يلقي الأوامر يميناً وشمالاً صائحاً: ازرقوا واحد واحد ـ ذب للقاع ـ ادفع ادفع ـ مدمردي ـ حط مرديك بالدوبة ـ على كيفك ـ يا لله أبو دوبة ـ حيل شوية رد لها ـ أبو القنب إلزم شوي. لقد كان يقود السفن من موقفه أدق قيادة، ويسيرها من مكانه أحكم تسيير فيلتفت إلى الأمام وإلى الوراء ويصرخ باليمين وباليسار وبين كل فترة وأخرى يكرر تحذيره: المدة، المدة، لأن امتداد الماء بعد الجزر يحول المجرى ويعيق سير السفن. ثم ارتفعت الصيحات من كل ناحية، وتعالت الصرخات من كل سفينة، وازداد الهرج والمرج، وأقبلت السفن الشراعية من أعلى النهر زاخرة بأكياس «الخلال» وبالبواري المنقولة من ناحية «المدينة» إلى البصرة، وسارت الزوارق حاملة المسافرين، وطلعت السفن الأخرى من

الناحية المقابلة حاملاً بعضها «الطابوق» وغير الطابوق. ولعل من أطرف ما في هذا المشهد تلك الأعلام التي كانت تضعها بعض السفن في مقدمها، فهذه تحمل علماً أسود وتلك علماً أبيضَ ممزقاً، إلى غير ذلك من الألوان والأشكال التي لا رابط لها. وقد كان مما يكدر صفاء الموقف أولئك التعساء الذين كانوا يغالبون مجرى الماء بسفنهم وقد علقوا الحبال بأكتافهم ومشوا على اليابسة يسحبون السفن سحباً محنيي الظهور مطأطأي الرؤوس يهتزون في كل خطوة اهتزازاً رتيباً إيقاعياً يكاد يقطع القلوب الحساسة، وكانت سفنهم هذه تحمل مختلف الأحمال عدا عما تقله من الناس نساء وأطفالاً وشيوخاً عائدين بعد انتهاء عملهم من قطف التمر في البصرة. وهكذا ففي الوقت الذي يفكر فيه الناس باستخدام الطاقة الذرية في تسيير السفن لا نزال نحن نجرّ سفننا بالحبال، ولا نزال نستخدم أكتافنا في تسيير السفن من أقصى مكان إلى أقصى مكان.

استمر فتح الجسر نصف ساعة أغلق بعدها فركض الناس من الجانبين متدافعين بالمناكب وخرجوا من الجسر يملأون الطريق أمامنا ويستبقون فيه، فكان منظر الرؤوس المتواثبة منظراً عجيباً، فمن رؤوس متوجة بالقفف والحلل وصفائح التنك، إلى رؤوس تزينها العقل والكوفيات إلى هامات تغشيها العباءات الصفر أو السود. ولم يلبث هذا الجمع الحاشد أن ذاب في مثل لمح البصر وغاب متغلغلاً في مطاوي الأزقة والأسواق.

القرنة يوم زرناها

القرنة اليوم، بالرغم من أنها مركز قضاء، لا تزال بدائية، فهي بأزقتها وأسواقها ومعظم بيوتها قرية بسيطة كل البساطة، لم تأخذ من العمران والتجديد إلاّ بأتفه نصيب. وأنا أؤمن بأن القرنة بموقعها الممتاز ومزيتها الفريدة يمكن أن تكون بلداً فذاً في العراق إذا لقيت التفكير الجدي والعمل المثمر، ولعلها ملاقية ذلك إن شاء الله.

مع الشريف الرضي والشهرزوري

طلعنا من القرنة عند الأصيل وسرنا في تلك البوادي الواسعة نلتفت يميناً فنرى النخيل يغمرها كثيفاً متشابكاً، ونلتفت يساراً فنرى الأرض جرداء قاحلة. وبعد دقائق كنا أمام قرية «النهيرات» وقد أدهشنا أن نرى معظم بيوتها مبنية بـ «الطابوق» بعد أن اعتدنا رؤية القرى مبنية بالقصب أو الطين. ثم انقطع النخل وصرنا بين حقول من الذرة تمتد حوالينا على مرمى البصر. وبعد خمس عشرة دقيقة كنا في منازل بني مالك القصبية نعبرها لنواجه بعدها دجلة فياضاً متدفقاً. وبعد أن كانت نضارة الذرة تبهجنا عادت السهول مجدبة في الجانبين لا تخرج إلاّ نباتاً برياً غليظاً يغطيها من كل مكان. ولم تستقر الأرض على حال، بل كانت تتقلب بين الحين والحين من إجداب إلى إمراع، ومن عمار إلى يباب، حتى كنا بعد ساعة كاملة نطالع في الأفق سواد «العزير»، ثم كنا نحاذي دجلة فنمر بقرية «السطيح» القصبية، ثم نعبر جسراً حديدياً مقاماً على أحد الجداول فنناوح بلدة العزير التي بدت لنا قرية قصبية يغمرها النخيل وتتوسطها قبة خضراء يستقر تحتها مزار العزير. وما زلنا نشق السهول فنرى القرى مبثوثة في كل ناحية حتى كان الغروب يطرقنا، وكانت الشمس تميل جانحة إلى الإياب، فترتمي في أتون مضطرم يضرج

حواشي الأفق باللهب القاني، ثم عمنا الظلام وأطبق علينا الليل وأصبحنا في ظلمة حالكة تتوهج خلالها النيران البعيدة فتثير في النفس شتى الهواجس وتبعث أفانين الصور. وكما هزتني النيران وأنا في قطار البصرة السريع منذ عام، وعادت بي إلى الماضي العربي الجميل ومثلت لي نيران الأجداد بكل ما كان يزهو حولها من أريحية وشعر وفروسية، فكذلك هزتني اليوم هذه النيران تتألق في هذه السهول العربية الجميلة، وكذلك رجعت بي إلى ذلك الشعر الجميل الذي كانت هذه النار ملهمة أصحابه ومثيرة قرائحهم. فكم من شاعر فنان قد تغنى بهذه النار، وكم من حبيب ولهان شدا بهذا السنا، وكم من فارس مغوار تمدح بهذا اللهب...

لقد كانت السيارة تنهب الأرض موغلة في السير وعيناي تتماوجان يمنة ويسرة متطاولتين إلى النيران، وذهني يرتد إلى الغابر متذكراً ما كان قد روي من شعر النار، فأتخيل الشريف الرضي وهو يرحل متلفتاً إلى نار الأحباب، ويظل متلفتاً حتى تغيب عن عينيه وحين تستعصي عليه رؤيتها يتلفت بقلبه، ويطول تلفت ذاك القلب، فيقول الشريف الرضي:

تلفتّ حتى لم يبن من دياركم — دخان ولا من نارهن وقود
وإن التفات القلب من بعد طرفه — طوال الليالي نحوكم ليزيد

ألاّ ما أدرانا أن لا تكون هذه النار هي نفسها النار التي تلفت إليها الرضي، وأن لا تكون هذه الديار هي التي أوقدت تلك النار وما أدرانا أن لا يكون هذا السبيل هو نفسه السبيل الذي عبره شاعر العرب الوجداني فأوحى إليه ما أوحى.

لشد ما هاجني هذا الليل البهيم، ولشد ما شغل خيالي وأذكى عاطفتي فطفقت أردد الشعر تلو الشعر، فهذا «الشهرزوري» يتحدث عن النار على طريقته الصوفية. وما لنا ولطريقته الصوفية فنحن نأخذ شعره على ظاهره ونقرأه على ما هو عليه فيشجينا ترديده. ألا رحمك الله أيها الشاعر الفريد فلقد كانت أبياتك سميري تلك الليلة، أعدتها وأعدتها وترنمت بها ما شاء الترنم:

لمعت نارهم وقد عسعس الليـ — ـل ومل الحادي وحار الدليل

وهذه نارهم تلمع وقد عسعس الليل، على أن الدليل لم يحر والحادي لم يمل، ولكنهم من هم هؤلاء الذين لمعت نارهم في هذا الليل؟ إنهم لا يعنيهم من أمرنا كما لا يعنينا من أمرهم شيء، إنهم يبيتون خليين على نارهم الموقدة بين البيوت ونبيت شجيين على نارنا الموقدة في الصدور!

لقد تأملنا نارهم وأنشدنا مع الشهرزوري:

فتأملتها وفكري من البيـ — ـن عليل ولحظ عيني كليل
وفؤادي ذاك الفؤاد المعنى — وغرامي ذاك الغرام الدخيل

ولكننا لم نستطع أن ننشد معه:

ثم قابلتها وقلت لصحبي — هذه النار نار ليلى فميلوا

لقد مال إليها الشاعر الفذ بعد أن تخلى عن أصحابه ولاموه فأنشد من أعماق قلبه:

فتجنبتهم وملت إليها والهوى مركبي وشوقي الذميل

إلى قلعة صالح

ولقد كنا ندنو من قلعة صالح، ولكننا لم نلمح في الليل أثراً يدل على بلدة قريبة، فلا أضواء ولا مصابيح ولا شيء يرشد إلى المعالم. وفجأة مال السائق بسيارته إلى اليمين تاركاً الجادة العامة وأوغل بين النخل فإذا بالأنوار تلمع من فروج النخيل، وإذا بنا بعد ساعتين من خروجنا من القرنة نقف أمام دجلة لنعبر في الزوارق إلى قلعة صالح، وجاءنا حمال مضى بأمتعتنا من السيارة إلى الضفة وصاح:

ـ بستوق.

فلم نفهم أول الأمر ما يعني ولكننا أدركنا أخيراً أن «بستوق» هو اسم الملاح الذي يراد منه نقلنا إلى الضفة الثانية، فنزلنا في زورقه، ومشى بنا عابراً دجلة حتى حطَّ على رأس شارع عريض خرجنا نشقه حتى وصلنا إلى منزل مضيفنا الكريم السيد طه العيدي الذي كان غائباً في مزرعته، فاستقبلنا أقرباؤه استقبال العربي الكريم. وما هو غير قليل حتى أقبل رب البيت بقامته القصيرة وجسمه الممتلىء وأثوابه الداكنة وبندقيته الجميلة هاشاً باشاً مرحباً فأعاد إلى ذهني صورة حية لسيد من أولئك العرب المطاعين المطاعيم الذين كان الجود والبسالة خير ما يتحلون به ويتفاخرون، وتصورت نفسي في ديار واحد من أولئك الكرام الذين حفلت كتب السير والأدب بذكر أريحياتهم والتحدث عن حمايتهم. لقد نقلني طه العيدي من الحاضر إلى مئات السنين إلى مضارب أجدادنا الأولين بكل ما كان في تلك المضارب من رجولة وألمعية وأريحية.

البلدة الصدرية

لقينا في المنزل ضيفاً بصريا فسألنا عن البلاد التي زرناها، وامتد الحديث إلى قلعة صالح، فقلنا لقد رأيناها جميلة ونحن نقبل على أنوارها من النهر، فقال إن قلعة صالح كالصدرية تماماً، تعجبك إذ تواجهها، فإذا استطلعت مؤخرها بدا لك مختلفاً عن مقدمها، فأعجبنا هذا التشبيه وقلنا له: سنرى على ضوء النهار انطباق تشبيهك على الواقع أو عدم انطباقه. وعلى الرغم مما كان ينتابنا من التعب فقد خرجنا ليلاً لنتعرف على قلعة صالح، حتى وصلنا إلى دجلة في طرف البلدة، وكان القمر يتوهج، والنجوم تتألق، وأصوات المكائن تهدر في سكون الليل فيجعل ذلك كله المشهد على كثير من الروعة. وفي الصباح خرجنا إلى ظاهر البلدة، فإذا بنا كلما ابتعدنا عن الشاطىء ازدادت البلدة تأخراً حتى كنا ننتهي إلى بيوت قصبية بسيطة لا تشبه في شيء بيوت الشاطىء الحديثة العامرة، وهكذا يبدو تشبيه البصري صادقاً إلى حد بعيد وعندما عدنا مستقبلين مجموع البلدة تراءت لنا وقد أحاط بها النخيل من أطرافها الثلاثة وانفرج عن الطرف الرابع وتلألأت فوق النخيل السحب البيض الشفافة تكون مشهداً بديعاً لا ينسى، وقد كنا نعود في شارع مستقيم عريض ينتهي إلى دجلة، ولكنه ليس على حال واحدة، فهو يخرج من الضفة مطلياً بالقار حتى يتوسط البلدة، وهناك ينزع قاره وتتبدل حاله أو بالأحرى هناك يبدأ الوجه الآخر للصدرية على حد تعبير رفيقنا البصري، وهذا الشارع ينتهي بشارع آخر يوازي النهر، وتقوم عليه الدور الجديدة والدوائر الرسمية، وهو في الواقع وجه الصدرية.

إلى العمارة

خرجنا من قلعة صالح ضحى ننتحي مدينة «العمارة» وفي النفس حنين، إليها أي حنين وكانت السيارة تسرع بنا في المهامه الفيح ونحن نتطلع بقلوبنا إلى الأمام مستافين من وراء الأبعاد عبير العمارة الفواح مستجلين من خلف الموامي حسنها الريان: لقد كانت العمارة تملأ أفئدتنا وتشغل أذهاننا وكان جمالها يحلق بنا في أجواء شعرية تستثير كوامننا وتهتاج سواجينا، وها نحن الساعة نمشي إليها في البراري الرحيبة بشوق ملحّ ثائر. فما أعذب هذا الصباح الذي سيؤول بنا إلى البلد الجميل ويحطنا على الضفة الرائعة وما أزهى هذه الساعات التي لا يشغلنا فيها شاغل عن التفكير في العمارة ومفاتنها! كانت السيارة تشق طريقاً لا يختلف في شيء عما ألفناه بين القرنة وقلعة صالح. فبينا نحن في سهول لا زرع فيها إلاّ ما أنبتته الطبيعة من الأعشاب البرية إذا نحن بين قرى ومزارع ونخيل، وبينما نحن لا نرى دجلة إذا به يطلع علينا ثم يتوارى. وهكذا دواليك حتى كنا بعد خمس عشرة دقيقة نترك طريق العمارة وننحرف في طريق (المجر الكبير) فبدا لنا نخيلها من بعيد وتراءت أمامنا أعمدة الدخان ترتفع حتى ليخيل للناظر أن مدينة صناعية تطالعه بمداخن مصانعها، ولم يكن ذلك الدخان إلاّ دخان معامل الطابوق في المجر. وكنا ونحن نسير نلتقي بزرافات ووحدان من القرويين ذاهبين أو آيبين في الطريق البعيد، وكانوا يبدون بمظاهر متباينة متفاوتة. وكم يلفتك مثلاً هذا القروي المديد القامة وقد شمّر عن ساقيه السوداوين العاريتين وعقد دشداشته في وسطه وتمنطق بالخنجر وألقى العباءة فوق رأسه وسار لا يلوي على شيء ولا يبالي بشيء.

المجر

كان قد انقضى على خروجنا من القلعة أربعون دقيقة، فإذا بنا نقبل على المجر الكبير فندخل في جادة مستقيمة على جانبيها بعض الأشجار. وبعدما وقفنا قليلاً في ناديها رجعنا مارين من جادة أخرى رأينا فيها حديقة عامة على قسط وافر من التنسيق والجمال، وكذلك أبصرنا مدرستها الجميلة المشجرة فانطبعت للمجر في ذهننا صورة لطيفة. ولكننا لم نكد نترك السيارة ونقبل على سوقها حتى رأينا ما يناقض تلك الصورة، فهو ضيق مظلم مسقوف بالبواري وتتفرع عنه أسواق عرضانية أسوأ منه وأقبح. على أنه قيل لنا إن فيها سوقاً آخر أحسن حالاً ولكننا مع الأسف لم نره. وكان علينا أن نبرح المجر دون إبطاء فقمنا إلى السيارة لنعود إلى طريق العمارة.

الرفقة المجهولون

وكنا قد نعمنا في السيارة برفقة مرحين طروبين وهبهم الله حناجر قوية، فكانوا منذ خروجنا من القلعة يواصلون الإنشاد ويتابعون التغريد. وأنا إنسان يهزه الشدو العراقي وتشجيه الأغاني الريفية، وكانت حالتي النفسية في تلك الساعة تقتضيني إنشاداً عاطفياً عذباً فوجدت بغيتي في هؤلاء الرفقة، فما كان أشجى عميدهم وهو يهتف من الأعماق:

هذا نصيبك يكثر نحيبك ... بعد هيهات يرجع حبيبك

أيها الرفقة المجهولون، يا من أحسنتم الصحبة ورعيتم حق الألفة ويا من كنتم في ذلك السفر الجميل أفضل الخلان وأكرم الأخوان، يا من رأيتم انشراحنا لما تنشدون فأعدتم وأعدتم وما مللتم لأنا كنا نحب الإعادة ولا نملّ!

أيها الرفقة المجهولون الذين التقينا بهم على غير موعد فكانوا هناء النفس وعزاء الروح. من أي القرى أنتم؟ وفي أي المنازل عشتم؟ ومن أي المطالع طلعتم؟ لم نعرفكم بالوجوه ولكن عرفناكم بالأرواح فكنتم أصدقاءنا الذين لا ننساهم ورفاقنا الذين سنظل نذكرهم ما عاودنا الوجد وأثارنا الحنين وملكنا الشوق. أين أنتم الآن؟ أي ماء تردون؟ وفي أي ظل تنزلون؟ أوما تزالون تنشدون:

هـــذا نـــصـــيـــبـــك يـــكـــثـــر نـــحـــيـــبـــك

أم إن الأيام أنستكم هذا النشيد المؤثر؟ أما نحن فلن ننفك نردده ولن نبرح ننشده. أتذكرون ذاك السفر الجميل؟ وتلك الساعات العذبة؟ وذاك الرفيق الواجد؟ أم أن الزمن محا كل ذلك من أذهانكم؟ أما نحن فسنظل نذكركم وسنبقى نحن إليكم ولن ننسى تلك الرحلة الطيبة وتلك الصحبة الكريمة.

ألا ... سلام عليكم أياً كنتم وأينما كنتم سلام أرسله إليكم على هذه الأوراق التي تعرف هي وحدها أي وجد ينتابنا وأي حنين يهتاجنا.

في العمارة

طلعنا من المجر الكبير نعاود السير في السهول الواسعة، فكنا بعد خمس عشرة دقيقة في مفرق (السعدية). ومنه أخذنا الجادة العامة الموصلة إلى العمارة حتى كنا نعبر جسراً خشبياً على نهر المجر الكبير المتشعب من دجلة. وبعد سير غير قليل عبرنا جسراً خشبياً آخر على نهر المجر الصغير وأبصرنا حوله الزروع والنخيل بعد أن كنا لا نرى إلاّ نبات «الطحمة» الشوكي الغليظ. وظل النخل يرافقنا إلى يميننا حتى العمارة، ثم لاح سواد العمارة منتشراً على مد البصر فهز نفوسنا مرآه وأبهجها. وبعد ساعتين من خروجنا من القلعة كنا نقبل على العمارة فتلوح لنا في ظاهرها القصور البيضاء محاطة بالنخيل، ثم تأخذ بالانجلاء قليلاً قليلاً وتبرز بتناسقها البديع وتنظيمها الحسن ونمعن نحن في السير فنخلف القصور إلى يميننا بعيدة عنا، ثم نصل إلى جسر العمارة فنعبره إلى المدينة الجميلة ونميل إلى اليمين في شارع عريض تقوم على جانبيه مدارس ومستشفيات وبيوت، ثم نتصل بشارع آخر في ظاهر البلدة وفيه نرى القصور والدور الجميلة التي كانت لاحت لنا عند إقبالنا على العمارة. ثم عدنا في الجانب الثاني من الشارع إلى داخل البلد حيث رحنا نجول في العمارة مستطلعين أحوالها، فأخذنا سبيلنا في شارع دجلة حتى انتهينا إلى طرف البلدة: وهناك أبصرنا انشعاب دجلة إلى شعبتين تحمل إحداهما، وهي الكبرى، اسم الكحلاء وتحمل الثانية اسم دجلة وتدوران حول البلدة كل واحدة من طرف حتى تغدو العمارة بينهما شبه جزيرة نهرية. ومن هناك سرنا في شارع الكحلاء حتى انتهينا إلى جسر الكحلاء. وفيما نحن نسير في هذا الجانب على ضفة الكحلاء كان دجلة يسير من الجانب الآخر، فيمتد النهران كذراعين بضتين تحتضنان عروس البلدان (العمارة)! ولما طلعنا على الجسر كانت تعبره طوائف منوعة من الناس فيها الفارس والراجل وراكب الحمار ومعتلي الدراجة والحافي والمنتعل. وفي الشاطىء الثاني رأينا قرية عصرية حديثة

تختلط فيها بيوت القصب بأعمر القصور ولم نلبث أن عدنا عابرين إلى شارع بغداد فكنا نصادف صنوفاً شتى من البشر معظمها قروي المظهر حافي الأقدام بما في ذلك النساء والرجال، ومعظمهم يحمل على الرؤوس والأكتاف الأمتعة الضخمة والعياب الثقيلة، وتقوم على جانبي هذا الشارع البيوت تخالطها بعض الدكاكين وتتفرع عنه شوارع عرضانية منسقة أحسن تنسيق. ومن شارع بغداد انعطفنا لليسار سائري في سوق عام يضم الخضر والفواكه والأرز والطحين كان أهم ما يلفت النظر فيه خلوه من الصياح والعراك والنداء على غير المألوف في مثل هذه الأسواق التي عهدناها توقر السمع بنداءات الباعة السمجة وصياحاتهم الثقيلة! ثم دخلنا سوق القصابين وهو بناية مسقوفة طويلة تكاد تبدو كدكان واحدة كانت تنتشر فيها أعمدة خشبية ضخمة أعدت لتقطيع اللحوم ويقف في جوانبها رجال غلاظ شداد يمسك كل منهم بساطور، ويتهيأ مستعداً حاضراً، ومنه خرجنا إلى سوق آخر متصل به. وهنا فقط سمعنا البائع ينادي على خياره... وكان النساء والأطفال يفترشون الأرض حلقات حلقات لبيع الخبز ويشاركهم الجلوس بائع الكبة وقد وضع قدره على الأرض يغري الجائعين بكبته ويستحث المشترين إلى مائدته. وفي نهاية هذا السوق يتفرع سوق الصفارين ثم تستقبل سوقاً مسقوفاً كبيراً هو سوق البلدة العام وكانت معظم دكاكينه مغلقة لأننا كنا في عيد الأضحى، وهو سوق طويل جداً مسقوف بعضه بالتوتيا وبعضه بالخشب وبعضه بالعقود الآجرية. وهو ينتهي بدجلة ويتفرع عنه شارع المعارف وقد سمي بهذا الاسم لقيام معظم المدارس فيه وقد طغى اسم المعارف حتى على بائع المرطبات فسمي دكانه (مرطبات المعارف). وشارع المعارف خير مثال لأزقة العمارة المتناسقة المنظمة، وحتى «الداربين» التي هي في غير العمارة أسوأ مثال للأزقة ـ حتى هذه الدرابين تراها في العمارة مستقيمة غير مظلمة! وإذا تميزت العمارة بتناسق أزقتها وانتظامها فإن هذه الأزقة لم تتميز مع الأسف بالنظافة. فعندما تصل مثلاً إلى الزقاق الذي يفصل محلة القادرية عن الصابونية ترى مجارير الدور تجري مكشوفة وسط الزقاق بروائحها الكريهة ومناظرها النابية فضلاً عن الحفر والأتربة التي تطغى عليه. وهكذا قل عن بقية الأزقة والطرقات فهي عريضة منظمة مستقيمة ولكنها غير نظيفة. وكثير منها لا مثيل لعدم نظافته حتى في أقصى القرى. وهذا شارع دجلة وهو شارع رئيسي ومع ذلك فأرصفته كلها نقر وحفر وفي نهاية الزقاق الذي يفصل القادرية عن الصابونية لجهة الشرق ساحة واسعة رأينا معداً فيها أراجيح العيد وملاعبه. وفي هذه الساحة تقوم المراثب العامة (الكاراجات) والساحة تتصل بالمقبرة المنتشرة في السهل. وفي أحد جوانب الساحة محلة كاملة من القصب وهي عبارة عن طرق وأكواخ حتى لتراها قطعة من صميم القرى. وهكذا يبدو التناقض العجيب. على أن هذه المحلة القروية القصبية تتمتع بأنها تقع على شارع معبد يشق محلة (السنية). وعندما كنا نمشي في هذا الشارع قبيل الغروب من الشرق للغرب كان أفق البلدة يبدو أدكن غائماً للدخان والغبار الكثيفين. ولما انحرفنا في الشارع الذي يشق محلة القادرية كنا نرى فيه بيوت القصب إلى جانب الدور والقصور. وفي مفترق الطرق على هذا الشارع رأينا المطاعم السيارة فهذا البائع يضع أمامه موقد النفط وقد اعتم (بيشماغه) ووضع القدر على النار وأشعل سيجارته وربط في وسط خرقة حمراء يهتف: خوش كبه يا ولد، بعشرة وبعانه.

وإلى جانبه بائعة ملتفة بعباءتها الثخينة تهتف بالكبة أيضاً، وحولهما بائع «الشكرلمة» ينادي على بضاعته

وبائعات اللبن والخبز ساكتات صامتات. ولا أدري لماذا كن يسكتن ولا يشاركن في النداء والتدليل على حسن لبنهن وخبزهن، أكان ذلك لأنهن مقتنعات باقتناع الجمهور بجودة ما يعرضن أم كان ذلك استخفافاً منهن بأساليب الدعاية الفارغة وإرادتهن مواجهة الناس بالحقائق دون التهويل، أم كان ذلك لأن النهار يعلن بالرحيل وهن مهمومات مكروبات لكساد بضاعتهن فلا يقوين على الصراخ.

لقد كانت فلسفة الحياة بكل ما فيها من تهويش وترغيب واستهتار واستسلام للواقع ووقوع في الغيظ وبكل ما ينطوي عليه الناس، لقد كان كل ذلك يجتمع في تلك المجموعة من البائعين والبائعات!

ثم طلعنا إلى شارع دجلة في أوائل الغروب ومنه سرنا إلى الشارع الآخر الذي كان يعج بالمتنزهين العائدين، فإذا بنا وكأنما انتقلنا إلى بلد آخر فهناك الغبار والأقذار وهنا النظافة والجمال وهناك «الدشاديش» والعباءات والعقل والكوفيات والحفاء، وهنا أعظم مظاهر الرشاقة والأناقة في الرجال والنساء، وهناك دور تخالطها الصرائف وهنا قصور تمازجها الحدائق، ولا يفصل بين هنا وهناك إلاّ بضع خطوات، إنك لتشعر هنا بأنك في أحدث مدينة، بعد أن كنت تشعر هناك بأنك في أقدم قرية!

ليل العمارة

غشينا الليل ونحن في شوارع العمارة حتى انتهينا إلى جسر دجلة، وكان الليل قاراً والماء رهواً والنخيل ساجياً، وشعلة من نور الكهرباء تتلألأ من الشمال وسلسلة من الأضواء تتألق من الجنوب، فوقفنا وأطلنا الوقوف لا تكاد عيوننا تمل هذا المشهد الجميل. ورأينا الجسر خالياً إلاّ من قروية عابرية مع صديقتها تحملان على رأسيهما الأطباق وفي صدريهما ما لا يعلمه إلاّ الله من الهموم والمتاعب، وإلاّ من سيارة تعكر الهدوء بمزمارها الصخاب، وإلاّ من قرويّة عجوز تأخرت في المدينة فأسرعت تهرول بحملها لتلحق بالسابقات! ومن الجسر عدنا إلى شارع دجلة فإذا بالباعة المتجولين قد انتشروا على جانبيه وأوقدوا مصابيحهم البترولية، فامتدت على طول الشارع. وأوقد بعضهم نار المطابخ السيارة فكانوا أصنافاً منوعين فهذا يصيح كبه... كبه وذاك يصرخ سيفون... سيفون وآخر ينادي على الحَب، وغيره يعرض الحلويات. وهكذا عاد شارع دجلة سوقاً ليلية عامرة. وقد أردنا في تلك الساعة مقهى يقع على النهر لنقضي فيه شطراً من الليل متمتعين بجمال دجلة، ولكننا لم نجد مثل هذا المقهى لأن المقاهي كلها بعيدة عن الماء وهكذا تضيع على العيون والنفوس متعة من أبدع المتع!

في طريق الكوت

طلعنا قبيل الظهر من العمارة حاملين لها في نفوسنا ذكريات لا يمحوها الزمان، فهذا الاسم العذب سيظل يتردد على أفواهنا ويجول في أذهاننا. وسنظل نهفو إليه متغنين بجماله مفتونين بمحاسنه. وسنبقى له ذاكرين مهما تناءت بنا الديار وتباعد المزار.

وعبرنا جسر الكحلاء موغلين في السير ثم اجتزنا نهر المشرح المتفرع من الكحلاء فكنا في قرية (الديبسات) القصبية القائمة على رأس جسر المشرح الحديدي، ثم صرنا في السهل المديد الذي كان يتجلى لنا ببياضه الناصع منتشراً إلى أيماننا إلى ما لا نهاية له ومتصلاً إلى شمائلنا ببساتين النخيل البعيدة.

ثم انقطع النخيل وعادت الأرض موشاة بأعشاب برية خضراء وصفراء داكنة، وكان دجلة يلمع أحياناً إلى يسارنا ثم يختفي. وكنا حتى الآن نسير في أرض موات لا زروع فيها ولا نبات إلاّ ما أخرجته الطبيعة، فكم من ثروات دفينة في هذا الصعيد الزلق وكم من حياة خامدة في هذا التراب القاحل. وبعد ساعة وخمس وأربعين دقيقة كنا نترك الجادة العامة وننحرف إلى (علي الشرقي) فندخل في طريق عريض تقوم على أحد جانبيه دكاكين تافهة وينتهي الطريق بساحة واسعة خضراء تكسوها أشجار ضخمة معمرة يستظل بها باعة متنوعون، وبالقرب منها مزار يقوم في باحة رحبة محاطاً بالأشجار هو مزار «علي الشرقي» وأقبلنا على داخل المزار فإذا هو قبر داخل قفص نحاسي وجدران مكسوة بالكاشي الأبيض. وكان المزار مشغولاً بجماعة من الزائرين القرويين معظمهم من النساء. وفي طرف باحة المقام تقوم بيوت من القصب الذي تلقاه أينما سرت في العراق. والوقوف في رحاب «علي الشرقي» أمر محتوم ـ على ما يظهر ـ للمسافرين من العمارة إلى الكوت إذ لا بد بعد ذاك السفر الطويل من مراح يستجم به المسافرون ويتناولون به طعامهم ويتهيأون لاستئناف السفر بهمة ونشاط، فأقبلنا على المقهى نحاول الجلوس فإذا هو شبه مغارة يحتلها «جب الماء» وبضعة أعواد يقال لها مقاعد فأخذنا مكاننا في الخارج على باب المقهى موطنين النفس على احتمال هذا المكروه الذي شاء السائق أن يسميه استراحة، ولم يخطر لنا في العمارة أن نتزود بطعام للطريق فكان لا بد من تناول الطعام في هذا المكان وقمنا إلى البائعين نستطلع طلع طعامهم فإذا هناك التمر واللحوم تكسوها طبقات كثيفة من الذباب والغبار، ولم يكن في هذا المنظر ما يفتح القابليات وإذا بنا نقع على البيض والخيار فكان فيهما منجاة لنا من الجوع الطويل! ولعل أطرف ما في المقهى هو صاحبه واسمه (ماشاف) فهو طريف في كل شيء، طريف حين يستقبلك معتداً بمقهاه القذر، مفاخراً بشايه الوسخ، طريف حين يغضب عليك إذا صببت الماء في أرض المقهى لئلا تشوه نظافته! طريف بهذا الاسم الغريب (ماشاف) وإذا صح أن لكل مسمى نصيباً من اسمه فأحسب أن لـ «ما شاف» هذا أكبر نصيب من اسمه فهو بلا شك «ما شاف» النظافة و«ما شاف» القراءة و«ما شاف» أشياء كثيرة مما يحب أن «يشوفه» إنسان اليوم!

إيه يا «ما شاف»! يا رب ذاك المقهى العجيب: مهما كانت الأشياء التي ما شفتها كثيرة فبحسبك أنك «شفت» شتى صنوف البشر فيها المتقشف المخشوشن والمترف (المنعوعم) وفيها المتعجرف المترفع والهش البش اللين. فكانوا جميعاً يميلون إليك وينزلون عليك فتفرض نفسك عليهم ويتحكم «شايك» بأذواقهم وماؤك بأفواههم وقذارتك بنظافتهم واستهتارك بأناقتهم، ثم يرحلون عنك غير مكترث بهم كأنك «ما شفتهم وما شافوك»!

لم نطل المكث عند «ماشاف» فما هي غير دقائق حتى عدنا للسيارة نشق بها تلك الأرض الموات وهل أعجب من أن تكون هذه السهول مواتاً مع أنها تمتد على ضفاف دجلة؟ وهل أغرب من أن يظمأ هذا الثرى وبينه وبين الماء خطوات... لم نلبث أن صرنا على محاذاة «علي الغربي» فبدت لنا القبة والبلدة على الضفة المقابلة، ولم يكن على هذه الضفة غير بعض بيوت قروية طينية ومقهى بسيط وعدد من الدكاكين المهدمة، وهنا علمنا من الشرطة أننا صرنا في منتصف طريق الكوت وأننا قد اجتزنا في سيرنا مائة كيلومتر، وبعد أن كانت الأرض مواتاً عدنا نرى على جوانب الطريق بعض حقول «الشلب» تتخلل

ذاك الموات الواسع كما عدنا نرى بين الفينة والفينة قرى ودساكر هنا وهناك. وبعد انقضاء خمس ساعات على خروجنا من العمارة كنا نقف مقابل بلدة «الشيخ سعد» الواقعة على الضفة الأخرى، وقد أبصرنا في موقف السيارة بعض الأهلين فسألنا واحداً منهم عن اسم مدير الناحية فقال: إنها الآن بلا مدير لأن المدير استعفى منذ أيام وعقب على ذلك قائلاً إن كل مدير يأتي إلى الشيخ سعد لا يلبث أن يستقيل لأن أهلها مشاغبون، فاحتج أحد الحاضرين على هذا القول مدعياً أن هذا المتكلم من غير أهل البلدة فلا يمكن الأخذ بقوله. وكادت تحدث مشادة بين الفريقين فتركناهم وقمنا إلى سيارتنا نعاود الجري فبدت لنا جبال إيران تعممها الغيوم فأدركنا أننا الآن على مقربة من الحدود الإيرانية، وأوغلنا في السهول القاحلة المتشابهة لا نبصر فيها إلاّ نبات (الطحمة) الغليظ إلى أن جاءنا الليل. ثم أشرقت لنا من بعيد أنوار الكوت وبعد سبع ساعات كنا ندخل الكوت، ولم نشأ أن نضيع الوقت سدى بالالتجاء إلى الراحة بعد جهد الطريق بل فضلنا أن نجول في البلدة ونتمتع ليلاً بمشاهدة دجلة ومشاهدة السد، فمشينا إلى حيث يقوم ذاك المشروع الإروائي العظيم، ووقفنا عليه والماء يهدر من فوهات السد رهيباً جباراً والقمر يضفي على الماء غلالة فضية شفافة وكل شيء ساكن ساج يصغي إلى الماء الصاخب ويرنو إلى النور الهادىء.

ثم عدنا إلى شارع جميل يوازي دجلة وتقوم على جانبيه القصور الحديثة، كما رأينا مقابل السد شارعاً فخماً تزينه الحدائق والرياحين وتقوم فيه بيوت موظفي الري.

في الكوت

ليس في الكوت ما تختلف فيه عن غيرها من عواصم ألوية العراق، بل هي على ذلك النسق الذي رأيناه من قبل في الألوية الأخرى وهي تشارك بعض البلدان في هذا البون الشاسع بين أجزائها المختلفة. فبينما ترى على شارع دجلة الجديد ومتفرعاته أحدث مظاهر العمران والجمال إذا بك في الأماكن الأخرى تشاهد أتعس مظاهر التأخر والخراب، وإذا كنت قد قلت إن الكوت تشبه غيرها من المدن فهذا لا يعني أنها لا تتميز بشيء ولا تختص بخواص، فأنا لم أشاهد في غير الكوت منظراً يعدل الكوت في جمال ذاك المنظر في ضوء القمر على سد الكوت كما أني لم أشاهد في غير الكوت أسواقاً تسقف بـ (الجنفيص) والبواري!

وهذه الفنادق العجيبة التي تحمل أجمل الأسماء ولكنها تنطوي على أقبح الصور، وهل أعذب من صباح الخير تفاجئك في مطالع الصبح ولكنها كانت سمجة حين فاجأتنا مكتوبة على لوحة في باب فندق شاء صاحبه، من باب تسمية الشيء بضده، أن يسميه فندق صباح الخير مع أنه ليس فيه لا من الفندق ولا من الصباح ولا من الخير شيء! وفندق الفرح الذي يشرف على مجرى القاذورات ويقع في طريق من أوسخ ما يمكن أن تراه عين! أليس من المفارقات أن تجري من تحت الفندق القاذورات في بلد يجري فيه دجلة؟ أحسب أن فرحاً لا يمكن أن يدخل على قلب نازل فندق الفرح، ومن العجيب أن هذه الفنادق لم يختر لها إلاّ هذا الشارع الذي لا تبصر فيه إلاّ وحولاً وقمامات، بل لا تبصر فيه وفي فروعه إلاّ مستنقعات! أجل مستنقعات! وعدا فندق صباح الخير وفندق الفرح ففي نهاية الشارع يقع فندق الزهور

ومنزل الوطن، أما فندق الزهور فهو مثل الفندقين السابقين بينه وبين الزهور عداء مستحكم وبون شاسع وهو مع ذلك يحمل اسمها ومن أطرف ما فيه أن شبابيكه مرقعة بقطع من التنك. وأما منزل الوطن فهو وحده الذي سمي تسمية صادقة فهو منزل الوطن بكل ما في هذا الوطن من تقهقر وشقاء وعدم اعتناء بالنظافة وعدم مبالاة بالصحة.

إلى بدرة

كنا ننوي الرحيل من الكوت إلى (بدرة) فأخذنا سيارة محطمة لم يكن ميسوراً غيرها في هذا الطريق وخرجنا قبيل الظهر عائدين في الطريق نفسه الذي دخلنا منه إلى الكوت ثم انحرفنا بعد قليل إلى اليسار في طريق صحراوي يشق بيداء هي طوراً جرداء عارية بيضاء وطوراً مكسوة بالهشيم الأصفر وآناً مغمورة بنباتات رمادية اللون. وقد كان كل ما فيها يشبه صحراء الشام فكنت أتخيلني مسافراً في طريقي إلى دمشق وبعد ساعة وثلث الساعة لاحت لنا (جصان) تكتنفها الأشجار في غمرة تلك الصحارى القاحلة فكانت واحة غضة في ذلك المحيط اليابس. وبعد خمس عشرة دقيقة من رؤيتها وصلناها فإذا بالنخيل يطيف بها من جانبيها وأما هي نفسها فتقع على تل أجرد لا يخالطها عشب ولا شجر، فاجتزناها مخلفينها إلى يميننا وأخذنا في الطريق الصحراوي من جديد، فمررنا بقرية صغيرة فيها مزار تعلوه قبة ويحيط بها قليل من النخل قيل لنا إن اسمها (علي اليثربي) وإن هذا الاسم أطلق عليها نسبة لصاحب المزار الذي قال لنا أحد الحاضرين إنه ابن الحسن المثنى. ومنذ طلوعنا من (علي اليثربي) بدا لنا سواد بدرة وظهرت كأنما تقع في سفوح الجبال، هذه الجبال الإيرانية التي رأيناها بعيد خروجنا من الكوت، وسنرى عندما نصل بدرة أن بين بدرة وبين الجبال مسافات شاسعة، لم يبرح طريقنا صحراوياً محضاً وليست هذه القرى في الحقيقة إلاّ واحات توشي هذه الصحارى، وتنضر هذا الجفاف. وقد كنا ونحن نجتاز تلك البراري المديدة ونبصر سرابها ونشاهد رمالها ونطالع واحاتها ونلتقي بيداتها نستعيد في أذهاننا ما تركه لنا شعراء العرب من شعر بدوي جميل وصفوا به كل هذه المشاهد التي نبصرها الساعة فكانوا في شعرهم أصدق الشعراء وأوفى الأدباء! إني لأستعرض الآن في فكري تلك الصور الرائعة التي أبدع تصويرها شعراء الجاهلية الأفذاذ ومن جاء بعدهم من شعراء البادية، وإني لأتمثل الآن جمال تلك الأعشاب التي وصفوها عرضاً أو قصداً فأجدها أجمل الأعشاب وأزكى النباتات، وإني لأعرف الآن أي شيء أوحى لذاك الشاعر القائل من أبيات جاء فيها:

أقول لصاحبي والعيس تهـ ... ـوي بنا بين المنيفة فالضمار

وجاء فيها:

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

فإنني والسيارة تهوي بين بدرة وجصان وتجتاز أرضاً شبيهة كل الشبه بأرض ذاك الشاعر لا يحلو لي إلاّ ترديد أبياته فأجدها من أكمل الشعر وأحبه إلى النفس وإنني وأنا أتمتع من شميم هذه الأعشاب البرية المماثلة لعرار نجد، أهتف بنفسي من أعماق قلبي: تمتع من شميم هذه البادية التي أنبتت أجدادك بادية مثلها. وإنني وأنا أخلف هذه المرابع وأترك هذه المواقف لكي أعود فأخلفها راجعاً وأقف عليها آيباً لأذكر

أولئك الشعراء الذين وقفوا واستوقفوا يدفعهم إلى ذلك الوفاء المحض والحنين الصادق لأرض تركوا في كل منبت ومضرب ومورد منها شطراً من قلوبهم وقطعة من نفوسهم فحق لهم أن يقفوا عليها ويستوقفوا ويطيلوا الوقوف والاستيقاف. وإنني وإن لم يكن لي في هذه الأرض إلاّ خطوة عابرة وإلمامة مسرعة ولم تربطني بها إلاّ رؤية خاطفة وزورة جارية، وإنني وأنا أعبرها عائداً، ليطيب لي أن أهتف بالشعر الجاهلي وأن أتوسل بخليليّ ليقفا قليلاً لنحيي تربة أقلتنا فترة وأسعدتنا هنيهة! سيظل شعرنا الجاهلي أجمل شعر وأصدق شعر وسيظل شعراؤنا الجاهليون أحب الشعراء إلى قلوبنا لأن قلوبنا مفعمة بالوجد زاخرة بالعاطفة مملوءة بالحنين.

طلعنا على بدرة بعد تلك الصحراء القاحلة فإذا هي إلى يميننا فوق التل محاطة بالبساتين من كل جانب وأقبلنا عليها محاذين لها في السير حتى صرنا أمام المخفر الحديث وبيوت الموظفين الجديدة التي تقع مقابل بدرة ويفصلها عنها سهل (الكلال) ونهره. وقد أنشئت هذه البيوت لتؤمن للموظفين شيئاً من الرفاه، فأقيمت فيها الحدائق وغرست الأشجار وبنيت على طراز معقول، وظللنا في طريق شجيرة نتقدم إلى البلدة حتى كان شطر من بساتين النخيل العظيمة إلى يسارنا، والبلدة والشطر الآخر من البساتين إلى يميننا بيننا وبينها الكلال وصعدنا إلى البلدة فكنا فيها بعد ساعتين ونصف الساعة من خروجنا من الكوت.

نحن هنا في منطقة لا تشبه ما ألفنا قبل اليوم في تجوالنا العراقي، فإننا إذا استثنينا مناطق الشمال التي تتميز بخصائص واضحة نرى أن جنوب العراق ووسطه هو مناطق متشابهة متماثلة تغنيك رؤية إحداها عن رؤية غيرها. ولكننا الآن وقد خرجنا من الكوت ومررنا بجصان وعلي اليثربي وطلعنا على بدرة شعرنا أننا نبصر شيئاً جديداً لم نبصر مثله فيما مررنا به من حواضر العراق ودساكره وقراه. فمنظر جصان يمثل لك قرية عاملية بحتة، فهي بهذا التل الذي تقوم عليه وهذا الطراز من الأزقّة والبيوت، وبكل مظاهرها لا تشبه في شيء قرى العراق بل تشبه قرى جبل عامل في بلاد الشام كل الشبه، وكذلك القول عن بدرة فهي دسكرة عاملية لا تختلف عن دساكر جبل عامل إلاّ في مياهها الجارية، وفيما عدا ذلك في الدروب الضيقة والأزقة الملتوية والصعدات والنزلات في الطرقات وطريقة البناء وشكل الأبواب والشبابيك ومرابط الدواب على الطرق وملقى القمامات ومواقع التنانير... في كل ذلك وغيره تشبه دساكر تلك النواحي، وبدرة بلدة عجيبة فيها من الطرائف الشيء الكثير فمن طرائفها أنها تقع على تل يشرف على نهر الكلال. وهذا النهر يفيض شتاء كلما نزل المطر فترتفع مياهه دفاقة صخابة فترتطم بالتل الترابي فتهدمه شيئاً فشيئاً وتبتلع من أطراف البلدة في كل عام أجزاء حتى صارت البلدة مهددة بالزوال. وعندما يفيض النهر تنقطع بدرة عن الدنيا انقطاعاً تاماً عدة أيام لأن مياه النهر تغمر السهل الرحيب وتجري فيه مالئة له فيستحيل عبوره وتصبح السراي ومراكز الحكومة وأماكن الموظفين في العدوة الثانية منعزلة عن بدرة كل الانعزال وتتعطل مصالح الناس. وبعد بضعة أيام عندما تأخذ مياه النهر بالانخفاض يلتجىء الناس إلى الدواب لتخوض بهم الماء واصلة إلى مراكز الموظفين في السراي.

ومن طرائفها هذه اللغة الغريبة التي يتكلمها أهلها دون غيرهم من سائر الناس فهي لغة مزيج من العربية والفارسية والكردية لا يفهمها العرب ولا الفرس ولا الكرد، بل لا يفهمها أحد إلاّ البدريون وحدهم

الذين لا يتجاوز عددهم الثلاثة الآلاف النسمة، ومع أن حولهم كثيراً من القرى القريبة فإن هذه اللغة لم تتجاوز بدرة ولم تصل حتى إلى قرية (العقر) مثلاً التي لا تبعد عن بدرة غير اثنين من الكيلومترات ولا إلى قريبة (سيد صفر) التي تبعد المسافة نفسها، ولا إلى قرية (قلعة شاير) التي لا تبعد إلاّ كيلومتراً واحداً فإن القريتان الأولى والثانية تتكلمان العربية والقرية الثالثة تتكلم الكردية ولا يفهم سكان تلك القرى شيئاً من لغة بدرة وكذلك لغة جصان فإنها العربية وحدها. ولعل أطرف الطرائف أن يطلع من بين هذه اللغة العجيبة شعراء بالعربية فقد كنا نتحدث مع شبابها فإذا بالحديث ينجر إلى الشعر وإذا بنا نعرف أن أحد الحاضرين ينظم الشعر وإذا به يتلو علينا القصيدة تلو القصيدة، وإذا به يصور في شعره جفاف الحياة في بدرة وما تعانيه هذه البلدة من مرارة في العيش وتأخر في الحضارة فتكون صورته صادقة صحيحة لا يلمس صدقها وصحتها إلاّ من يزور بدرة ويستطلع أحوالها عن كثب:

يكفيك معرفة عن بعض محنتها ... أن قد رأيت عياناً شكلها البالي
كأنها وحشة إن مر زائرها ... يمر فيها على نؤي وأطلال
كأنما البعث فيها حلَّ موعده ... والناس سيقت حيارى تحت أغلال
من شدة العجز لا يشكون حالتهم ... كأن أفواههم سدت بأقفال
أفكارهم خليت من كل تبصرة ... قلوبهم خليت من كل آمال
نقضي الليالي في خوف وفي فزع ... من كل داء غريب الشكل قتال
أمراض لم يروِ عنها الطبّ من خبر ... إلاّ الفناء بها من دون آجال
فلو تراها إذ الأمطار هاطلة ... يستصعب السير فيها بين أوحال
يشقى بها المرء حتى لا قرار له ... يمسي ويصبح ملقى كاسف البال
قد مضه الداء حتى لا حراك به ... كأنه بشر في وضع تمثال
تلقى البيوت وقد مالت جوانبها ... كأن رمتها حديثاً كف زلزال
تبكي المشارق فيها كل خاوية ... تواصل الهم آصالاً بآصال
كأنها وهي ترثي سوء طالعها ... من التعاسة لم تظفر بأمثال

ذاك هو السيد عبد الصاحب شكر مدير مدرسة بدرة الذي استطاع نهر الكلال بفضله أن يذكر بالشعر وأن يكون له شاعر يقول:

إن الكلال على ضآلة شأنه ... يهديك شاعره الثناء جميلا

والگلال (بالكاف المفخمة) نهر ينبع من إيران ويمتد إلى بدرة فينقسم في ظاهرها بضعة عشر قسماً يجري أحدها تحت بدرة ويحتفظ باسم الكلال ويجري آخر في قلبها ويحمل اسم (نهر قيطاز) ويتفرع إلى فروع تدير المطاحن وتروي البساتين. وإذا كان نهر الكلال هو مصدر البهجة في بدرة إذ بمائه تمرع الحقول وتنضر الحدائق ويحيا النخيل فإنه في الوقت نفسه مصدر الانقباض في تلك البلدة الغريبة فهو نهر فيه كل ما في الأنهار من ماء صافٍ وجمال زاهٍ وري وخصب، ولكنه إلى كل ذلك أجاج لا يستساغ لذلك يضطر الأثرياء والموظفون لأن يجلبوا الماء العذب إما من بلدة منصور آباد الإيرانية أو بلدة

الكوت العراقية. وهكذا فالأرض وحدها هي التي تستمتع بالكلال وإنه لاستمتاع عظيم استطاعت بدرة به أن تكون ذات بساتين من أعظم البساتين وأن تخرج ضروباً منوعة من الأثمار. وقد قيل لنا إن في بدرة ما يزيد على مليون نخلة تخرج أجود أنواع التمر العراقي وبعد النخل يأتي من فواكهها الرمان فهو فيها كثير جيد.

أصيل بدرة

عنَّ لنا عند الأصيل أن نخرج في نزهة على الأقدام إلى الضواحي فهبطنا عن البلدة إلى سهل الكلال وعبرنا الماء على أعواد من النخيل، فصرنا وسط السهل الرحيب نسير فوق الجنادل والحصا، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب، ونحن حيالها نسرح أبصارنا في ذلك الفضاء الجميل، متطلعة إلى شواهق النخل وما فيها من روعة وجمال، ولم نلبث بعد اجتيازنا طريق السيارات أن كنا في أرض محروثة نستقبل فيها سلسلة تلال قليلة الارتفاع يسميها البدريون (تل العقر) ويحيطونها بهالة من الأساطير والأعاجيب. وبعد قليل كنا نسير خلال التلال فإذا نحن أمام قبة يطلقون عليها اسم (مقام علي) وحولها بضع عشرة شجرة قديمة العهد لا يعرف تاريخها أحد، ويقابل المقام تل كبير عالٍ هو عبارة عن سلسلة تلال مرتبط بعضها ببعض وفي سفحه تقوم قرية (العقر) وإليها ينسب التل أو هي تنسب إلى التل، ثم صعدنا في التل حتى بلغنا ذروته فانكشفت أمامنا سهول لا نهاية لها إلى الجنوب والغرب والشمال وكانت بدرة شرقي التل وشرقيه الجنوبي تمتد ببساتينها الفيح، وأما إلى الشمال الشرقي فكانت تبدو جبال (بشتكو) الإيرانية البعيدة المتعالية كما كانت تبدو وراء البلد الجبال الإيرانية الأخرى. ويبدو من مظاهر التل وحفره وأخاديده وتلاله أنه كان في القديم بلدة عامرة، وربما كانت البلدة تقوم في الأصل عليه ثم انتقلت إلى مكانها الحالي كما يزعم البدريون، وإن كانوا يسبغون على هذا التحول ثوباً أسطورياً وينسبون اسم بلدتهم إلى امرأة صالحة كان اسمها (بدرية) كما ينسبون المقام إلى علي بن أبي طالب والعقر إلى إبراهيم الخليل. ومن ذروة التل تقدمنا قليلاً فأشرفنا على قرية العقر ثم انحدرنا نازلين إلى القرية مجتازين أزقتها وخارجين منها صوب الحقول في اتجاه بدرة فمشينا بين البساتين في طريق ضيقة تكتنفها جدران طينية عالية وكنا نلتقي ببعض القرويات حاملات على ظهورهن في (الشكبان) أثقل الأحمال وبعضهن راكبات على الخيل فارسات بارعات وإذا كنا هنا التقينا بالنساء القرويات فإنّا طيلة مكوثنا في بدرة وتجوالنا فيها لم نبصر في أزقتها أية امرأة بل إن بعضهن عندما لمحننا صباحاً في الطريق أسرعن متواريات داخل البيوت.

تقاليد بدرية وشعر بدري

ومما عرفناه من عادات بدرة أن أطفالها يرسلون إلى جبال الأكراد في (بشتكو) ليربوا هناك بعيدين عن أهلهم، ويبقى الطفل هناك سنتين أو ثلاث سنين حتى يشب وينمو. ومن عاداتها أنه إذا مات الميت توقد النيران على قبره ثلاث ليالٍ متواصلات ويعللون ذلك بأنه حفظ للميت من طروق الحيوانات لقبره ونبشه. وقد ذكرت فيما مر، الشعر الذي نظمه عبد الصاحب الشكر واصفاً فيه حالة بدرة ولم يكن هو وحده الذي ينظم الشعر، بل لقينا شاباً لا يزال في مطالع الشباب يتدفق شاعرية فياضة وحساً مرهفاً

ويتطلع حواليه فلا يرى إلاّ ما يمضه ويرهق شعوره فينفجر عن شعر رقيق كله أسى عميق، ولا بدع أن يأسى (صاحب ياسين) وهو يعيش في هذا الجو المثقل الذي لا يبعث إلاّ الكآبة في صدر الشاعر الحساس، ولا بدع أن لا يجد في ريفه ما يجده الناس في أريافهم من دعة وانطلاق وأن يتحدث عن هذا الريف قائلاً:

الريف أوغل فاقد الأنفاس في صمت رهيب
والليل أمعن في الجهامة والكآبة والقطوب
وأنا هنا في غرفتي الخرساء منفرداً أذوب
متململاً جزعاً أصيح ولا مغيث ولا مجيب

ثم يتساءل في توجع وحرقة عما إذا كان سيدوم على هذا الضرب من الحياة وعما إذا كان سيظل هكذا متعرضاً في الريف لأذى الريف دون أن يناله من نعمائه نصيب:

أأدوم في هذا العراء كأنني شوك الصحارى
يلقى الهجير وبرد كانون ويتشح الغبارا
متحملاً جوب الفلاة وهولها القاسي اضطرارا
ويدوسه الساري المغذ فلا رثاء ولا اعتذارا

على أنه في ذلك غير عقوق للريف ولا متجن عليه فهو يعترف بأنه مهده الحبيب ولكن هذا المهد هو الذي تنكر لفتاه فوأد أحلامه:

يا ريف يا مهدي المحبب قد وأدت رؤى شبابي
وغمرتني بالخسر والحرمان أسود والعذاب
وحبوتني بالليلة الظلماء والسحب الغضاب
والوحدة الخرساء تنهش مهجتي نهش الذئاب
وتركتني كالتائه الظمآن أفرد في اليباب
وصمت صمتك يا لمأساتي ألا يعنيك ما بي

هذه الصورة هي صورة صادقة لما يمكن أن يكون عليه شاعر مرهف الحس يحيا حياة كتلك الحياة، وصاحب ياسين هو مثال حي للألم المرير الذي لا يجد تنفيساً له إلاّ الشعر. وتتعدد شكاوى هذا الشاعر وتبدو بألوان شتى فهو يهتف:

بقايا ضباب وطيف اغتراب ومحض اكتئاب يمد الجناح علي خافقي
سأبقى أسير ولا أستشير ولا أستدير لأمسي ولا أرجي غدي

على أن الشاعر لا تشغله آلامه عن التفكير في آلام وطنه فهو كما يأسى على ما في نفسه يأسى على ما يصيب شعبه من نكبات ويفاخر بهذا الشعب في معرض الفخار:

سامع الأنباء لو كنت ترى — حشدهم بين افتراق والتقاء
لرأيت الشعب في غضبته — كيف يجني النصر خفاق اللواء

إلى الموصل

بين السهول والجبال مضى القطار ضحى من بغداد ينحو بنا شمال العراق ويشق تلك التنائف الرحبة التي تنتشر على مد البصر حاوية خير ما يروق العين ويبهج النفس. فما هو أن تركنا بغداد الخالدة حتى اختفى العمران فما نبصر أمامنا إلاّ السهول المديدة يلمع فيها بين الفينة والفينة نهر (ديالى) ثم يختفي وتطلع فيها بعض الأحيان قرى ومزارع مبثوثة على ضفاف النهر حتى بدا لنا سواد (بعقوبه) يغطي وجه الأفق على مسافات شاسعة. ولم نلبث أن عبرنا جسراً على ديالى ثم كنا بين البساتين العارية إلاّ من طلائع الأزهار. ثم وقفنا على محطة بعقوبه قاعدة لواء ديالى وأبصرنا القليل من الأبنية لأن المحطة تقع بعيداً عن البلدة. ثم كانت السهول الخضراء تمتد أمامنا أنى تلفتنا فيعدو القطار ويعدو فلا يدرك لها طرفاً، فها هنا عن اليمين نرسل الطرف فيتيه في نضارة السهل الرحيب وها هنا عن اليسار تلوح في حواشي السهول أشجار النخيل الباسقة صاعدة في الجو.

المقداد! ها هي محطة المقداد، وتلفت فإذا قبة إلى يسارنا حولها مقبرة وبالقرب منها قرية يحوطها النخيل وما حسبت للمقداد مقاماً في هذه السهول وما أدري هل يعني سكان هذه النواحي بصاحب المقام المقداد بن الأسود أم يعنون مقداداً آخر، وأعرف أن للمقداد مقاماً في الغوطة قريباً من دمشق.

ألا سلام على المقداد الصحابي الجليل والوفي النبيل، سواء أكان يثوي هنا أم يثوي هناك، وسواء أكان لا يثوي هنا أم لا يثوي هناك. ثم لاح سواد (شهربان) التي سميت (المقدادية) ودخلنا بساتينها نتطلع إلى أزهارها المتفتحة وبينها زهور المشمش وغير المشمش من مختلف الأشجار، وما هو أن خرجنا من شهربان حتى لاحت لنا لأول مرة في العراق مناظر الجبال (جبال حمرين) فإذا بنا كأننا نسير في سهل البقاع مستقبلين جبال لبنان. وكان قد صحبنا من شهربان عدد كبير من الجنود المأذونين. ولما وقف القطار على محطة (منصورية الجبل) التي تقع في سفح الجبل هبطوا منه إلى ثكناتهم وقد كانت مناظرهم تثير الإعجاب والحماسة. وكان القطار حتى الآن يسير محاذياً للجبل ثم تغلغل في شعابه الصخرية يفري أحشاءه فرياً فكنا بين الحين والحين نرى نهر ديالى يتدفق إلى يسارنا فيرافقنا ثم يختفي. وما راعنا إلاّ ظلام دامس يطبق علينا... ماذا؟ هل نحن في في ظهر البيدر ندخل في أنفاقه المظلمة! فها نحن ندخل نفقاً حالكاً فما نخرج منه إلاّ لندخل في نفق آخر، ثم نخرج منه فيكون الجبل إلى يميننا والنهر إلى يسارنا يسير متعرجاً في السفوح المناوحة فيعيد إلى الذهن منظر الليطاني وتلويه في سفح الشقيف. لقد تباعدنا الآن عن تلال الجبل وعدنا للسهل الأخضر نمر على المحطات والقرى المنتشرة على طول الطريق حتى كنا في (قره غان) التي سميت (جلولاء) الواقعة على ضفة ديالى والمحاطة بسلاسل التلال فعبرنا جسراً حديدياً ضخماً رأينا منه الثكنات والبلدة على النهر بشكل جميل. وبعد مسير طويل أصبحت سلاسل الجبال تنتشر على يميننا والسهول تنبسط أمامنا فكان سيرنا هنا يشبه السير في سهل الزبداني لولا أن الجبال تبدو هنا جرداء خالية وهناك كاسية آهلة، ثم طغى الليل بديجوره الحالك فغابت

عن عيوننا السهول والجبال وعمنا السدف فما نبصر بصيصاً إلاّ على مواقف القطار بين الحين والحين حتى لمحنا وسط الظلام سلسلة أنوار منتشرة وأعمدة اللهيب تتعالى أمامنا وكانت تتجلى كلما أوغلنا في السير إلى أن كنا نقف في محطة (كركوك) مدينة النفط.

كركوك

وفي الصباح خرجنا نطوف في البلدة فإذا هي من أهم المدن العراقية سعة وعمراناً فيها الجواد المنسقة والأسواق الجديدة والفنادق الكبيرة، ولكن إلى جانب هذه المظاهر العمرانية الحديثة تقوم مظاهر القدم في كثير من الأحياء والأسواق والدروب.

ويخترق كركوك فرع من نهر (العظيّم) ويسمونه هناك نهر (جاي) وهو ينضب في الصيف وينقطع ماؤه وعليه جسر جميل يوصل طرفه إلى تل عظيم يشرف على النهر. ويقوم على التل حي كبير من أحياء البلدة يسمونه (القلعة) كان في الماضي قلعة البلدة فاستحال اليوم بعد أن ذهبت قيمة أمثال هذه القلاع إلى بيوت ومساكن، فمشينا إلى التل وصعدنا في زقاق هو عبارة عن درج انتهينا منه إلى أعلى التل ورحنا نسير في القلعة.

وقد طفنا دروب القلعة فهبطنا وصعدنا حتى وصلنا إلى مدرسة دينية رأينا فيها فريقاً من الطلاب الشيوخ يدرسون بالعربية ويفسرون بالتركية ثم انتهينا إلى مقام النبي (دانيال) فإذا هو زاخر بالنساء فلم نستطع الدخول إليه ورأينا عليه منارة قديمة العهد، وشاهدنا من بابه قبراً ومنبراً في الداخل ورحنا نحاول الوصول إلى الطرف الثاني من القلعة فاجتزنا الأسواق ثم وصلنا إلى (القيسرية) وهي تشبه الخانات التجارية في دمشق من حيث إنها بناية واحدة، ولكنها تختلف عنها بأن داخلها أسواق متعددة لأصناف متنوعة من البضائع فتخرج من سوق لتدخل في سوق آخر.

وبعد ساعات أخذنا السيارات نؤم ينابيع الثروة وعماد حياة الأمم في العصر الحاضر، نؤم آبار النفط فكانت أعمدة اللهيب تتسامى أمامنا ضاربة في عنان الجو، ثم كنا بين التلال نقف أمام النار الأزلية التي لا تنطفيء والتي يطلق عليها الأهلون هناك الاسم المقدس (باباكركر) فرأينا منظراً عجيباً: ناراً تنبع من قلب التراب ولهيباً يفور من صميم الأرض لا تطفئه الثلوج ولا تخمده الأمطار ولا تزيده الأيام إلاّ ضراماً.

وغير عجيب أن يقدسه الأقدمون وأن ينحنوا لجلاله فإن مشهده رائع رهيب ولم يقل تقديس المعاصرين له عن تقديس الأقدمين. وإذا كان الأقدمون قد قدّسوه لأنهم رأوا فيه قوة خارقة لم تدرك كنهها عقولهم، فإن المعاصرين يقدسونه لأنهم رأوا فيه قوة خارقة أدركت كنهها عقولهم. وشتان بين التقديسين... ثم أخذنا في طريق بين الربوات وكانت آبار النفط تبدو حوالينا وروائح النفط تنتشر في الفضاء، فكنا نميل إلى الآبار ونقف عليها ونتملى من مشاهدتها، ثم صرنا وكأنما نسير في طريق تبنين فوق قرية اليهودية في جبل عامل وكان كل شيء يذكرنا بذلك المكان. فهذا التراب الأحمر وهذه الحقول الخضراء وهذه القطعان المنتشرة وهؤلاء الحراثون وتلك التلال. ثم وصلنا إلى أعمدة اللهيب المتصاعدة من فم الأنابيب ثم واصلنا السير إلى معامل التكرير الضخمة.

إلى السليمانية

وفي الأصيل كنا نودع كركوك منتحين السليمانية، فكنت أتلفت إلى الأمام فما أحسبنا إلاّ نهبط في طريق بانياس إلى جديدة مرجعيون مستقبلين الجبال العاملية. ثم كنا نسير بين تلال صخرية غير شاهقة وكانت الينابيع الشتوية تتدفق على طول الطريق، ثم صارت التلال ترابية حصوية ثم كنا في مكان عالٍ انكشفت لنا فيه الأباطح الخضراء على مرمى العين تتخللها الوهاد والربى والأخاديد بشكل بديع. ثم أخذ طريقنا بالصعود وكانت التلال تحوطنا من كل جانب فنجتاز بأجمل المشاهد وأحسنها. وكنا نرى أصنافاً من الناس تقطع الطريق، فهذا مكاري يسوق دابته وهذان رجلان على حماريهما وهذا رجل على قدميه وتلك مواشٍ في رؤوس التلال وهذان فارسان على فرسيهما وهؤلاء حراثون في الحقول. ولكننا لم نبصر في كل ما اجتزناه من الروابي والهضاب أثراً للأشجار.

أما الآن فقد صرنا نرى في الأودية حول مجاري الماء أشجاراً عارية جرداء، وقد استمر طريقنا صعوداً حتى وصلنا إلى المنعطفات، فكأنما نحن في (عقبة الطين) بطريق دمشق نجتاز منعطفاتها (وأكواعها). ولم نشعر إلاّ والطريق يعود إلى الانحدار، ثم يرجع إلى الصعود فإذا نحن أمام قرية (قره نجير) التي تشبه قرية مسعدة في طريق القنيطرة، وبالقرب منها على رأس تل مخفر للشرطة وعندها مسيل ماء حواليه أشجار جرداء. ثم رحنا في صعود مستمر، ثم انحدرنا وكنا أمام قرية (باشملاغ) هذه هي نيحا جبل عامل بموقعها وبيوتها وهذا مسيلها يجري متدفقاً... وفي الواقع أن باشملاغ لا تختلف في شيء عن مزرعة نيحا في جبل عامل، فهذه البيوت القليلة المتواضعة وهذه الهضبات المنتشرة وهذا المسيل الجاري كل ذلك يمثل نيحا أتمَّ تمثيل. واستمر طريقنا في الصعود وكان بين الحين والحين ينحدر قليلاً ثم يعود للصعود إلى أن كنا وكأننا في وادي القرن، ثم خرجنا من بين التلال التي ظلت حتى الآن ترافقنا طول الطريق، فإذا بنا نحسب أننا خرجنا من وادي القرن إلى سهل البقاع، فبدت أمامنا بلدة (جمجمال) كما تبدو هناك بلدة مجدل عنجر تماماً ثم سرنا في السهل الرحب الأخضر حتى دخلنا جمجمال ثم خرجنا منها إلى السهل الواسع وعدنا للصعود والسير بين التلال الحمراء فلاحت أمامنا تغطيها الغيوم. وكنا نصعد ونهبط بين أجمل المناظر وأعذبها حتى بلغنا سفوح الجبال الصخرية، ورحنا نشق طريقنا فيها إلى أن آذننا الغروب بسواده الغاسق. وظللنا نسير بين الروابي حتى كنا في قرية (تينال) الواقعة في السفوح وإلى جانبها مخفر كبير للشرطة. ولم نبرح نشق الرعان شقاً في سواد الليل ونصعد ثم نصعد في الثنايا حتى انتهينا إلى رأس عقبة كأداء لاحت لنا فيه أنوار السليمانية تشع في السدفة، فاتخذنا طريقنا إليها سرباً حتى كنا في السهل ندنو من السليمانية قاعدة اللواء، ثم عبرنا جسراً لم نتبينه وسط الظلام كنا بعده ندخل السليمانية في مدخل جميل وضاء. وفي الليل أمطرتنا السماء مطراً غزيراً لم ينقطع حتى الصباح وأشرقت الشمس في جو صاح فصعدنا إلى سطح الفندق نتبين معالم السليمانية، فإذا بالمحادل تنتشر على الأسطحة في كل مكان كما هو الحال في قرانا، ولكن المحادل هنا ليست من الحجارة بل من جذوع الأشجار الضخمة. أما المواعيص فمن الحبال وتلفتنا حوالينا فإذا بالجبال تحيط بالسليمانية وكان بعضها مكللاً بالثلج، ثم خرجنا نتجول في البلدة فإذا أزقتها وأسواقها قروية بسيطة ورأينا اليهود في الدكاكين يشاركون الأكراد بطراز ألبستهم فلا يتميزون عنهم إلاّ في القليل. ثم خرجنا إلى ظاهر البلدة

نمر على الينابيع المنتشرة، ونشاهد الحقول الخضراء والسفوح النضرة، والجبال العالية وفي الواقع إن السليمانية من أجمل المدن مناظر.

وحوالى الظهر تركنا السليمانية سائرين بين الربوات الخضراء والحقول الممرعة تحوطنا الجبال من جميع الجهات، وما حسبت إلاّ أننا نسير في طريق صور ـ تبنين لا سيما بعد هذا المطر الغزير الذي أجرى الينابيع الشتوية فتدفقت في الطريق والمعابر تمثل لنا جبالنا وما فيها أتمّ تمثيل. وكانت قمة جبل (بره مكرون) تتلألأ أمامنا باذخة في العلاء وقد كللتها الثلوج الناصعة وعممتها الغيوم الكثيفة ورحنا نصعد ونهبط حتى كنا في كركوك ندخلها ثانية لنغادرها إلى أربيل والموصل.

إلى أربيل والموصل

ولم نطل المقام في كركوك بل سرنا عند الأصيل متجهين إلى أربيل مركز اللواء المسمى باسمها، فكان الطريق بين تلال وهضاب تلوح فيه أمامنا في الأقاصي الجبال الشوامخ. ثم خرجنا من بين التلال إلى السهول الخضراء التي لا يرى لها الطرف آخراً فكانت ساعات من أجمل الساعات لا تبصر العين فيها إلاّ جمال الطبيعة ضارباً في المروج والحقول بأعشابه وأزهاره وأعرافه ونسائمه. ولقد جذبتنا هذه المشاهد ولكن إلى جانب ما كان فيها من جمال جذّاب كان فيها شيء آخر أبعد أثراً في النفس وأكثر التصاقاً بالفؤاد. كان فيها غير الجمال وغير الجاذبية كان فيها هذا الذي يهيج سواجي الضمير وكوامن القلب.

وإذا تنفست الصبا ذكر الصبا ولياليا مرت بوادي الأجرع

وبعد حين كنا على ضفة (الزاب الصغير) فعبرنا عليه جسراً حديدياً أوصلنا إلى بلدة (آلتون كوبري). ولما وصلنا طرف البلدة الثاني إذا نحن على جسر آخر حسبنا معه نهراً جديداً أمامنا فوقفنا لنشاهد البلدة والنهر، فإذا بالزاب يتشعب عند مدخلها إلى شعبتين تدوران حول آلتون كوبري ثم تلتقيان في طرفها الثاني فتكون بينهما جزيرة صغيرة.

خرجنا من البلدة نسير خلال الروابي، ثم صرنا إلى السهل الواسع. وما عتم الليل حتى احتوانا بظلامه الضافي. وكنا نجتاز بكثير من القرى والمخافر حتى ظهرت أنوار أربيل تشع في السهل، ثم دخلناها تحت وابل من المطر الغزير. وفي الصباح خرجنا نجول في البلدة وقد رأينا فيها تلاً كبيراً يشبه تل كركوك يسمونه هنا أيضاً القلعة كان في السابق حصن البلدة الحصين، أما اليوم فهو حي كبير من أحياء البلدة بنيت منازله ببقايا العمران القديم. ولما صعدنا إليه إذا هو كثير الشبه بما رأينا في كركوك فالأزقة هنا كما هي هناك ضيقة. ثم قصدنا إلى منارة أربيل الأثرية التي تقع في ظاهر البلدة وسط السهل وهي شاهقة الارتفاع ذات قاعدة ضخمة، ويصعد إليها في درجين اثنين وفيها بقايا الكاشي الجميل الذي كان يزينها في الماضي. وقد أحيطت اليوم بسياج حديدي لمنع العبث بها.

بعد أربيل

خرجنا من أربيل ضحى اليوم الثاني لوصولنا، وكان الطريق هنا كما كان هناك في سهول خضراء بعيدة المدى. وكنا نلمح إلى يميننا ويسارنا الجبال مغطاة بالغيوم. كما كانت التلال الخضراء تنتشر أمامنا بل

كنا في خضرة حانئة لا حد لها. ثم كان الطريق في صميم التلال يهبط ويرتفع باستمرار إلى أن كنا في قرية (الجالوق) التي تنتشر بيوتها على ربوتين متناوحتين. ثم ظهر إلى اليمين (الزاب الكبير) متلوياً بين الربى ثم اختفى إلى أن طلع أمامنا براق الصفحة لماع الأديم. وبعد أن عبرنا جسراً صغيراً كنا على ضفة الزاب الكبير، النهر التاريخي الشهير، فاجتزنا عليه جسراً حديدياً فخماً كنا بعده في قرية (الكلك) الواقعة على الضفة الثانية. ومن النهر صعدنا في سفح تلال حصوية لم نلبث بعدها أن عدنا إلى سيرنا الأول بين الربوات الجميلة حتى كنا أمام نهر الخازر نجتاز جسره الحديدي، ورحنا نمعن في السير فنمر على القرى والمزارع والسهول حتى لاحت معالم الموصل ومغانيها فدخلنا (أم الربيعين) متشوقين.

في الأرياف العراقية

بعقوبة والضواحي

نزلنا في محطة (بعقوبة) من القطار القادم بنا من بغداد، فلم نرَ فيها سوى بعض المقاهي والبنايات الحديثة أما البلدة فبعيدة عن موقف القطار. ورحنا نمشي إليها على ضفاف نهر (خريسان) بين البساتين الجميلة وتحت أفياء النخيل والبرتقال، ثم عبرنا قنطرة على نهر خريسان وأخذنا في طريق مطلي بالقار نسير خلال بنايات البلدة حتى كنا في مدرستها الابتدائية وهي من أجمل مدارس العراق حدائق وأشجاراً وأزهاراً، ثم انحدرنا بين البساتين الزاهرة ننشق أريجها العذب ونستمتع بمنظرها الحسن، إلى أن انتهينا إلى نهر ديالى، فإذا على الضفة اليمنى أمامنا تلال ترابية منتشرة في وسطها قبة قيل لنا إنها تسمى مقبرة الشريف. أما الضفة اليسرى فكلها بساتين ممتدة على طول النهر تحوي مختلف الأشجار والأثمار، وقد رأينا بين أشجارها شجر التين الذي نراه لأول مرة في العراق فضلاً عن أشجار البرتقال التي تشتهر بها بعقوبة وتصدرها إلى جميع نواحي العراق. وفي الواقع فإن بعقوبة بلدة البساتين تغمرها من جميع الأطراف وتتخلل بيوتها وساحاتها، فحيثما تلفت وأينما توجهت ألفيت أيكاً دائحاً وشجراً باسقاً وجنائن زاهرة ورياضاً زاهية. وليست المدينة وحدها شجراء، بل إن ضواحيها وقراها كلها على هذا النسق البديع وتشتهر من قراها عدة قرى بجمال الطبيعة وكثافة الأدواح وكثرة الفواكه. وطالما ترددت على مسامعنا أسماء (بهرز والهويدر وخرنابات). وطالما ذكرت لنا بساتينها البرتقالية ومناظرها الطبيعية فكان من همنا بعد أن صرنا في بعقوبة أن نراها فقصدنا إلى الهويدر تقلنا العربات بين البساتين الخضراء، فكنا أحياناً نسير على خريسان وأحياناً يطلع لنا ديالى ثم يختفي حتى كنا نسير على ضفته فكان يبدو لنا عميق المجرى بعيد الغور لارتفاع الأرض على جانبيه، إلى أن وصلنا بعد خمس عشرة دقيقة إلى الهويدر فمشينا إلى النهر وبلغنا ظلال بساتين البرتقال العظيمة التي تنتشر على أوسع المساحات وتملأ الضفاف والسهول.

الخالص والعنبكية

كنا نعبر بالسيارات نهر الخالص ونمشي بين الحقول الخضر ثم البساتين النضر حتى دخلنا بلدة الخالص المغمورة من كل أطرافها بغابات النخيل الواسعة، فمشينا في شارع يشق البساتين وتقوم على جانبيه الأشجار. وهو بالرغم من ضيقه شارع جميل مظلال ينتهي في طرف البلدة إلى البساتين ويتصل بالطريق المؤدي إلى دجلة ومعظم البنايات الرسمية قائمة فيه؛ ففيه دار الحكومة ودوائر التجنيد والجمرك والبريد والري والنادي وغيرها.

وبعد تناول الغداء تركنا الخالص متجهين إلى صميم الريف العراقي إلى منازل عشائر العنبكية لنقضي ليلة ريفية بين أولئك العرب الأنجاد الذين لا يزالون يحتفظون بأنبل خلال العرب، من بأس ونجدة وكرم

وشهامة. فخرجنا بين البساتين المكتظة وغابات النخيل الشاهقة ثم عبرنا نهر الخالص وأخذنا في الأباطح الخضراء الممتدة على مرمى العين بأجمل المناظر وأزهى المشاهد، فكنا نمر على كثير من القرى والأقنية والنهيرات. وكان نهر ديالى يطلع ثم يغيب وكنا نرى على ضفته اليسرى الشجر الأخضر المكتظ والحرجات الباسقة المتصلة. وكان الأصيل قد أدركنا فلطف النسيم ونضرت الأرض وصفا الأفق وتجلت الطبيعة بأجمل أشكالها وأنصع ألوانها. وكنا حيثما تلفتنا نرى مجموعات من النخيل ترتفع برؤوسها وسط تلك المروج الفيحاء كأنها جزائر سوداء في ذاك الخضم الأخضر. ولم تلبث السهول أن انقلبت من تلك الخضرة الزاهرة إلى لون أجرد لا أثر للنضارة فيه ولم يبق حوالينا إلاّ نخل نراه من بعيد ينحني على القرى القصبية والطينية المبثوثة هنا وهناك. وكنا نمشي حتى الآن في طريق غير مشقوقة بل في طريق رسمت معالمها عجلات السيارات، أما الآن فقد صرنا نشق السهول في طريق لا معالم فيها أبداً وإنما نمشي متخللين هذه البراري في غير ما طريق خاص، بل جاعلين منازل العشائر أمامنا ومتجهين إليها نستدل بها عليها، حتى كنا نقبل على منازل الشيخ عاصي فوعرت الطريق أمام السيارات، فاضطررنا للنزول وبيننا وبين المنازل دقائق معدودات، فمشينا إليها مترجلين فأقبل أهلوها مرحبين بطلاقتهم العربية. وذهبنا رأساً إلى المضيف فجلسنا في خارجه وأمامنا السهول الرحيبة تسرح فيها عيوننا، واجتمع شيوخ العشيرة وشبابها في حلقة واسعة حولنا وأديرت أكواب القهوة وأقداح الشاي وتعالت أصوات التأهيل والترحيب منبعثة من أعماق الصدور. ولما أقبل الليل كان القمر بدراً ينير ليلتنا الفريدة ويضيء لنا تلك المرابع الغنّاء فيزيدها بهجة وانشراحاً. وبعد قضاء شطر من الليل في العراء أوينا إلى المضيف وهو يختلف عما رأيناه في منازل عشائر الشطرة بأنه بنيان مستطيل من الطين اليابس واللبن لا من القصب، ذو باب واطيء بدون مصراعين ولا منافذ فيه سوى كوى مسدودة بالطين تفتح أيام الصيف وتسد في الشتاء.

وفي ضحى اليوم الثاني خرجنا من منازل العشيرة على ظهور الخيل، وكنا أربعة وثلاثين فارساً حتى وصلنا ضفة ديالى بعد ساعتين من السير الجميل البهيج، انطلقت فيه الحناجر بالحداء البدوي والأهازيج الريفية. وكان علينا أن نعبر النهر في قارب معلق بسلك بين الضفتين فتركنا الخيل ونزلنا في القارب إلى العدوة اليسرى التي كانت تلوح لنا غابة كثيفة البساتين ملتفة الأشجار مفتحة الأزهار على عكس الجانب الأيمن الذي كان حقولاً خضراء لا بساتين شجراء. ولما صرنا في الضفة خرجنا نمشي على الأقدام في طريق جميل بين البساتين الزهرة والظلال الوارفة مدة خمس وأربعين دقيقة إلى أن كنا أمام بلدة (أبو صيدة) فصعدنا إليها في مرتقى فإذا هي ككل بلاد تلك الناحية جزيرة في بحر من الشجر الطامي ومنها قصدنا في العربات إلى محطة (أبو جسرة) لنأخذ القطار إلى خانقين.

خانقين

نزلنا خانقين الجميلة ومشينا إليها نتمتع بحسن موقعها وطيب مناظرها، وهي بلدة محاطة بالرياحين تقوم على ضفتي نهر الوند فيقسمها إلى قسمين: أيمن وأيسر. أما الأيمن فيحمل اسم البلدة خانقين والأيسر يحمل اسم (حاجي قره) ويصل بين الجانبين جسر حجري كبير يرتكز على إحدى عشرة قنطرة والجانب الأيمن يقوم على مرتفع مشرف على النهر فتطل نوافذه وشرفاته على أجمل المشاهد وأبدعها. فالنهر

منساب تحته والبساتين منبسطة أمامه، ولكنه قديم البناء عتيق الأزقة. أما الجانب الأيسر فهو قسم البلدة الحديث فيه البنايات الرسمية والحدائق والشوارع الجديدة. وعندما تعبر الجسر يملأ أذنيك ضجيج النهر وخرير مائه لأن الماء ينحدر في مجرى منحرف أنشيء من الإسمنت ليمنع تآكل الأرض تحت الجسر.

معامل تكرير البترول

خرجنا من خانقين نقصد معامل تكرير البترول العظيمة التي اشتهرت بها خانقين، واقترن اسمها بها فمشينا بين البساتين الكثيفة، ثم طلعنا إلى حقول القمح الجميلة فتراءت لنا من بعيد الجبال العراقية والإيرانية. وظللنا نقطع الأراضي حتى كنا بين ربوات متصلة الحلقات تنتشر بخضرتها الحانئة إلى يمننا فكانت شبيهة بمواقع (الضهور) في شقراء من جبل عامل وكان نهر الوند يلوح إلى يسارنا ثم يختفي حتى بدت لنا أعمدة المعامل وبناياتها الضخمة. ثم دخلناها نتعرف إلى العمل الجبار الذي يجري هنا فيدر الخير والحياة ويبعث القوة والنشاط فكنا نبصر النفط الخام كيف يفصل إلى أسود وأبيض ثم نبصر الأبيض كيف يفصل إلى بترول وبنزين كما كنا نمر على النيران المستعرة في المعامل فيهولنا تأججها، كما كانت روائح الكبريت والبترول والبنزين يمتزج بعضها ببعض فتملأ الآناف متضوعة في الجو.

ويشرف موقع المعامل على نهر الوند وتحوطه الربوات الخضر من كل جانب كما تقابله كثير من القرى القائمة على التلال المطلة على النهر. وكانت الأرض كلها غضة خضراء والأزاهير الطبيعية مفتحة الأكمام، والشقائق مبثوثة خلال الخضرة باحمرارها القاني. وأخيراً عدنا إلى خانقين وفي النفس من هذه المشاهد أثر أي أثر.

في حدود إيران

وعند الأصيل تركنا البلدة إلى المنذرية على حدود إيران، فخرجنا في السهول الخضر الممتدة إلى أقصى الطرف متطلعين إلى الرواسي البواذخ ضاربة في الجو أمامنا وحوالينا، ثم كنا نسلك طريقاً مطلياً بالقار نشق فيه السهول الرحيبة التي كانت تتخللها الربى والآكام الخضر، إلى أن كنا في صميم الربوات يفريها طريقنا فرياً فتبدو حوالينا شتى الأعشاب والحشائش وقد كنت أحسبنا نسير في الهضاب العاملية لتوافق نباتها مع ما نرى هنا تمام الموافقة. فها هنا الشوك الكبير الحجم والأقحوان المفلج والخبيز الأخضر والدحنون الأحمر، كما هناك. ثم وصلنا المنذرية فكنا أمام مخفر فيه دائرة للجوازات وأخرى للجمرك وأمامه على رأس تل عالٍ مخفر للشرطة وأبصرنا أمامنا قنطرة صغيرة تفصل بين الحدين العراقي والإيراني، ورأينا على قيد خطوات منا وراء القنطرة الرعاة الإيرانيين بمواشيهم ثم صعدنا إلى المخفر العراقي في التل الشاهق فبدت لنا (خسروي) وفيها المخافر الإيرانية بأبنيتها الفخمة ودوائرها الكثيرة. كما انبسطت أمام عيوننا السهول والتلال والفجوات والأخاديد والأودية والجبال إلى ما لا يدرك الطرف له آخراً، وكانت كلها بثوبها الأخضر الريان تتألق بين أيدينا نضرة غضة تروق الناظرين.

ليل خانقين والإياب

في الليل خرجنا نطوف في خانقين وكانت تلك الليلة ليلة النوروز، فأبصرنا الأطفال يحملون المشاعل

احتفاء به ويهتفون له بالكردية شتى الهتافات، كما أبصرنا أصحاب الدكاكين يضيئون الشموع في دكاكينهم ابتهاجاً بعيد الربيع.

وفي اليوم الثاني خرجنا من خانقين في القطار، فكان طريقنا كله في تلال وسهول خضر كما كنا نبصر القرى على رؤوس الروابي ونرى جبال إيران المعممة بالثلج ونرى الوند يبدو ثم يختفي إلى أن كنا في (قره غان) التي سميت حديثاً جلولاء ومنها في السهول الفيح إلى بغداد.

على أطلال الأنبار

ذكريات

لواء الدليم هو أول ما كنا نرى في دخولنا إلى العراق قادمين من دمشق. فبعد تلك الصحراء القاحلة تطلع لنا (الرطبة) فتنعش النفوس وتحيي الآمال ثم نعود إلى الصحراء ووحشتها حتى تطل نخلات الرمادي ويلمع وجه الفرات فنعلم أننا دخلنا حقاً في الحياة من جديد، وأننا خلفنا وراءنا البادية الكالحة بكل ما فيها من سأم وضجر. وعندما ندخل (الفلوجة) ونعبر جسرها البديع نعرف أننا أصبحنا من بغداد على قاب قوسين، وأنه لم يبق بيننا وبينها إلاّ هذه المرحلة القصيرة.

وأي شيء أحب إلى النفس من أن تلوذ بأفياء النخيل وتسرح على ضفاف دجلة بعد أربع وعشرين ساعة متصلة تقضيها في ذاك الدو المفزع قلقة مستوحشة. لذلك كان للرطبة وللفلوجة وللرمادي في الأذن رنة موسيقية لمن فوّز من دمشق إلى بغداد فما هو أن يهتف الهاتف: الرطبة حتى نتخيل الأنس بعد الوحشة والصفاء بعد الكدر والراحة بعد الجهد، وما إن يصيح الصائح: الرمادي حتى نتصور الأفياء الوارفة والماء الرقراق والخضرة الحانئة، وما هو أن يقول القائل: الفلوجة، حتى نرى الفرات ورياضه ودجلة ومروجها وبغداد ومباهجها.

لواعج الشوق

لا أدري أي دافع دفعني إلى اختيار لواء الديلم لرحلتنا حينما أرادني أصدقائي على رحلة قصيرة خارج بغداد، فقد خطر لي أول ما خطر: الفلوجة والرمادي.

وإذا كنت لم أتغلغل في صميم الفلوجة والرمادي فأنا على الأقل لا أجهلهما وكان الأفضل أن نختار وجهة لم تطرقها أقدامنا بعد فنتعرف إلى ناحية أخرى من نواحي العراق. ولكنني اخترت الفلوجة والرمادي إما لأنها أسماء طالما كانت عذبة في السمع، أو لأنها تذكرني وأنا أقطع الطريق إليها باليوم الذي كنت أقطعه وأنا على طيتي إلى أرض الأهل والخلان، فإذا ما فاتني أن أصل أرضهم اليوم فلا أقل من أن أعبر طريقها فأستاف من وراء البيد عبيرها وأتطلع من خلف السباسب إلى نسيمها.

هذه هي السيارة تخرج بنا من بغداد وقد حان الأصيل فنشق (شارع دمشق) ونعبر جسر (الخر) في طريق مطلية بالقار، وها نحن نتجه صوب دمشق فنذكرها أكرم الذكرى وتصبو إليها قلوبنا من هذه العدواء الشاحطة وفية حافظة.

في الطريق

وبعد قليل تفترق طريقنا إلى شعبتين، إحداهما تذهب إلى الحِلّة وكربلاء والثانية تمضي إلى الفلوجة. فنتبع الثانية سائرين في سهول لا حد لها، فنرى إلى يميننا خضرة مبثوثة هنا وهناك وإلى يسارنا بيوتاً

قروية ونمعن في السير فتنقطع الخضرة وتختفي البيوت، ونمسي في سهول جرداء لا عشب فيها ولا نبت ثم لاحت إلى يميننا (عقرقوف) بتلها الشامخ وفيها يقول أبو نواس في رحلته إلى مصر:

رحلن بنا من عقرقوف وقد بدا   من الصبح مفتوق الأديم شهير

ثم بدت مزارع (أبي غريب) فكنا نسير بين حقول خضراء ونشق طريقنا بين أشجار الكينا على الجانبين ثم عدنا إلى السهول العارية والأراضي القاحلة حتى انتهى طريق القار بعد ساعة من خروجنا من بغداد وصرنا في صحراء موحشة لا أثر للحياة والحضارة فيها. وما هو غير قليل حتى طفّلت الشمس للإياب واحمر الأفق أمامنا فتتابعت أمام عيوننا أجمل المشاهد، ثم لاح سواد الفلوجة من خلال حمرة السماء وبدا بارزاً تحت الغسق القاني، وإذا بنا نعود إلى طريق القار فنشعر أننا دنونا من الفلوجة وبعد قليل أقبلنا عليها وقد غابت الشمس ووقب الليل.

الفلوجة

وحططنا رحالنا وقمنا نتهيأ للجولان في البلدة، فكانت معظم أسواقها مقفرة خالية ومقاهيها جياشة زاخرة وأصوات المذياع تتجاوب في الساحات والشوارع. ثم وصلنا إلى الجسر الفخم الذي لم يكن للفلوجة أن تظفر بمثله لولا وقوعها على طريق بغداد ـ دمشق. وكنا نستمع إلى خرير الماء تحت الجسر وقد علا ضجيجه في سكون الليل البهيم، ونتلفت على جانبي الفرات فنرى أنوار المئذنة الجميلة تتلألأ على صفحة الماء ونبصر خلال الدياجي الحالكة الأضواء الشاحبة مبثوثة على الضفتين. كما نرى أنوار مطار (سن الذبان) تلمع أمامنا في الأبعاد. ولما وصلنا طرف الجسر الثاني كانت الضفة الثانية خالية من العمران لأن البلدة تقوم على الضفة الشرقية ولا تمتد إلى الضفة الغربية.

عدنا من الجسر ورحنا نجوب البلدة ونتجول في أزقتها المستقيمة، ثم دخلنا مقهى واسعاً من مقاهيها، فرأيناه غاصاً بالجالسين الذين كانوا يؤلفون مجموعة متباينة من الأزياء. وكان الزي السائد هو الكوفية والعقال فوق العباءة السوداء أو الحمراء وبين كل مجموعة ترى سدارة تحتل مكانها بين العقل الكثيرة.

في الأنبار

وفي الصباح قمنا نتهيأ للسفر إلى (الأنبار) عاصمة السفاح والمدينة التاريخية الشهيرة. فخرجنا في السهول الواسعة نجتاز بربوات إلى يميننا وحقول خضراء إلى يسارنا، ونلمح قرى منتشرة حيث تلفتنا. ثم كانت الربوات إلى يسارنا والأباطح الجرداء منبسطة على مد البصر أمامنا حتى كنا بعد خمس عشرة دقيقة على أنقاض الأنبار، فقصدنا أول ما قصدنا إلى القبر الذي يسميه سكان تلك النواحي (أبا فياض) فدخلنا باباً إلى ساحة مملوءة بالأتربة ومحاطة بسور يدور عليها من جوانبها الأربعة، وفي وسطها بنية فوقها قبة كبيرة حولها عدة قباب صغار ودخلنا باب البنية إلى قبو مستطيل وصلنا بعده إلى باب ولجناه إلى حجرة مظلمة في وسطها قبر تقوم عليه القبة الكبيرة. وجميع هذه الأبنية مهشمة مشوهة وهي بسيطة لا أثر للفن والزخرف فيها. ومن قبر أبي فياض مشينا إلى جهة الشمال، فكنا أمام تلال واسعة هي ركام المدينة المنقرضة، فأخذنا طريقنا فيها ورحنا نصعد ونهبط بين بقايا الدور والقصور فنرى قطع

الخزف المحطم والزجاج المكسر والحلي المهشمة. وكنا نتطلع أمامنا فنرى إلى أقصى النظر طلولاً وفجوات وأخاديد ووهدات هي كل ما بقي من مدينة الأنبار، فلا أثر للبناء ولا بقية للعمران. فإن يد الهدم عملت عملها في مخلفات المدينة فنقلت آجرها إلى الفلوجة لتبني فيه من جديد وتستعمله في إنشاء البلدة المحدثة. فذاك القصر الشامخ الذي كان مسرحاً للثراء والرفاه ومظهراً للسلطة والسيادة تنازعته أيدي الحاجة فقوضت أركانه وحملتها لتقيم بها أكواخها، فهذا الفقير يأوي إلى حجرته فإذا هي حطام القصر وبقية الأواوين، وهؤلاء السوقة يبيتون في دورهم فإذا هي مخلفات الأمراء وتراث الرؤساء.

ثم كنا أمام قبة أخرى دخلنا إلينا باباً أوصلنا إلى باب ثانٍ دخلنا منه إلى غرفة مظلمة فيها قبران متوازيان تعرف بقبر (أبي القاسم) ثم سرنا بين الأنقاض إلى قبر ثالث يعرف باسم (أبي خمرة) ولكن قبته متهدمة ولم يبق إلاّ القليل من جدرها. فمن هم يا ترى أصحاب هذه القبور الذين استطاعت قبورهم أن تتغلب على الزمن فتنقرض المدينة ويزول أثرها ويتهدم كل بناء فيها وتظل قبورهم مرفوعة العماد مشيدة الأركان يقصدها الناس في الأعياد والمواسم؟ ومن هم هؤلاء أبو فياض وأبو القاسم وأبو خمرة؟ هل هذه الأسماء أسماؤهم الحقيقية أم هي أسماء حورها الزمن ولاكتها الألسنة فوصلت إلينا بهذا الشكل؟ وهل لأبي العباس السفاح الذي اقترن اسمه باسم الأنبار قبر بين هذه القبور ومقام بين هذه المقامات؟

لقد تهدم قبر أبي خمرة ولم يبق منه إلاّ رسمه، وما ندري إذا كانت القبور الأخرى ستستطيع الصبر على قراع الدهر طويلاً، فيكتب لها من الخلود أكثر مما كتب أم أنها ستلحق بالقبر المهدوم[1]؟

ورحنا نمشي في التلال هابطين وصاعدين حتى كنا في ساحة واسعة في وسطها صخرة كبيرة أسطوانية الشكل يسمونها هناك (شمرة علي) ويروون لها قصصاً كثيرة. وكنا نبصر ونحن في رؤوس التلال نخيلاً وقرى تلوح من بعيد ونرى حوالينا المواشي سارحة في المراعي والناس منتشرين في الحقول. ثم هبطنا من التلال لنعود إلى الفلوجة. ولا يستطيع الذي يرى هذه الأطلال الدوائر وسعة انتشارها وطول امتدادها إلاّ أن يؤمن بأن الأنبار كانت من أعظم المدن وأكبر الحواضر.

العودة

عدنا إلى الفلوجة فكنا نلتقي بجماعات من الناس على طول الطريق. فهؤلاء فرسان على خيولهم يترنحون بأثوابهم الفضفاضة وعباءاتهم السابغة، وهؤلاء (حمّارون) على مطاياهم ملوحي الوجوه معفري الرؤوس، وهاتيك حطّابات منتشرات في السهول يجمعن الأعشاب اليابسة ساكنات ساكتات... فأين إنشادكن أيتها الحطّابات؟ وأين شدوكن أيتها الفتيات؟ إنه ليطيب الإنشاد ويحلو الشدو في هذه البراري الساجية فأين أنتن عن الأهازيج والأراجيز؟

ها هي الحطّابات تملأ السهل حوالينا فتذكرنا بحطّابات الجبل شاديات في الوعر صارخات في الوادي، وها هي جموع الفتيات تنتشر أمامنا فيهجن الحنين إلى أودية السكيكة والسلوقي والحجير.

البحيرة

لم نطل المكث في الفلوجة، بل غادرناها مسرعين فعبرنا جسرها الفخم، ورحنا نشق السهول الفيح

فنرى بين الحين والحين نخلات سامقات وأراض مخضوضبات حتى كنا حذاء سلاسل من التلال ممتدة إلى يميننا ومجموعات من النخيل إلى يسارنا. ثم اجتزنا بقرية حقيرة مبثوثة خلال التلال ببيوت من القصب والقش، ثم لاح لنا مطار سن الذبان الشهير إلى يميننا، فتركنا طريق الرمادي وانعطفنا نحو اليسار مصعدين بين الربوات، ثم أخذنا نسير في صحراء رملية يشقها القار. فكنا نلمح السراب براقاً أمام العيون فنتوهمه ماء زلالاً حتى إذا اجتزناه بان رملاً جافاً وأرضاً عطشى، ثم لمع لنا ماء (الحبانية) إلى اليمين فانحرف الطريق إليه ورحنا نهبط بين الربوات منحدرين إلى قاع البحيرة حتى طلعت لنا بأبنيتها الشاهقة وأمواهها الصافية وأعلامها الزاهية وزوارقها الجميلة، فكانت مفاجأة مدهشة إذ لم يكن يدور في خلدنا أننا سنلفي في صميم هذه البادية قطعة من صميم الحاضرة ولم يكن منا من يحسب أن سيجد في هذه الصحراء القاصية مثل هذا الفندق الفخم والنادي الكبير والشاطىء المنظم ومثل هذه الزوارق الفنية الحديثة.

الرمادي

تقدمنا إلى البحيرة وأشرفنا علينا من فوق تل، فبدت أمامنا إلى أقصى الطرف بأجمل المناظر وأبدعها، ثم هبطنا إليها وجلنا في شطآنها ومبانيها، ثم خلفناها وراءنا عائدين من الطريق نفسها قاصدين الرمادي فاجتزنا في طريقنا إليها بكثير من القرى والمخافر وبساتين النخيل، حتى كنا ندخلها ونجول في أسواقها وأزقتها. وهي بالرغم من أنها مركز اللواء تغلب عليها البداوة. ولولا جادتها التي تقع على طريق دمشق وما فيها من مبانٍ وفنادق ومقاه لما امتازت عن غيرها من القرى العراقية. ولكن وقوعها على هذا الطريق وعبور قوافل السيارات عليها جعل لها مركزاً ممتازاً وحسّن الكثير من حالتها.

في الليل

كنا في المساء نعود إلى بغداد ونطوي في الليل تلك المراحل النائية طياً فنتذكر كيف كان يطويها آباؤنا على ظهور الدواب، فيقطعون بين سوريا والعراق شهراً أو يزيد، ونحن اليوم بسيارتنا نسابق الطير ثم نتضجر لبعد الشقة وطول المسافة. وكانت تتراءى لنا ونحن نمعن في السير نيران موقدة وأنوار مضاءة في عرض السهول فتملأ النفس روعة وهيبة. وكانت السيارات تشق سدفة الليل بمصابيحها الوهاجة وتنير حوالينا السبل والمسالك، ويا لله ما أروع السير في الليالي الغاسقة على طرق الصحراء وما أبدع هذا الديجور الحالك تنيره النيران البعيدة والسرج الدانية وتزينه هذه الأضواء الشاحبة والأنوار المتألقة.

هذه بغداد تطلع لنا من خلف السهوب وهذا ضجيجها يملأ المسامع، وها نحن نعود فنعبر دجلة وننساب في شارع الرشيد بين ألوف البشر ومئات السيارات والمركبات.

في البلدة التي لا تطلب فيها العافية

في العراق ـ كما في كل الأقطار ـ أمثال تلتصق بمدن مخصوصة فتشير إلى ما يعتقده أهل القطر بتلك المدن وما يرون في سكانها أو مناخها من حسن أو قبح أو تميز بخلة من الخلال السامية أو المنحطة. وكثيراً ما يكون المثل ظالماً فلا يعطي الحقيقة ولا يمثل الواقع وإنما أرسله مرسل فذهب شروداً في الآفاق جارياً على الشفاه. وربما كان عادلاً يصور المكان وأهله أتم تصوير. فمن أي النوعين يكون المثل الذي تتداوله الألسنة في جنوب العراق عن (شفاثة) فتقول: «يا طالب العافية من شفاثة!» إشارة أن لا صحة ولا عافية في شفاثة وأن طالب ذلك منها طالب محال! وددت من صميم قلبي أن أرى شفاثة فيما أراه من مدن العراق وأريافه لأرى أي عامل هو هذا العامل الذي أقصى العافية عن شفاثة فجعلها مضرب المثل. ولكن أنّى لنا بالوصول إلى شفاثة وهي واحة نائية في الصحراء ودون الوصول إليها مشقات وأبعاد، ومن هم الرفاق الذين يمكن أن يجازفوا بعافيتهم فيشاركوني السفر إليها. ولكني قرأت في يوم من الأيام عن (قصر الأخيضر) ما شوّقني لزيارته وحدثني بعض الأصحاب عنه حديثاً جعلني أعزم على شد الرحال إليه لأشاهد قصر الصحراء العظيم بل لغزها الغامض. وشد ما طربت حين علمت أن الطريق إلى الأخيضر تحاذي شفاثة وأن قاصدي الأخيضر وقد أصبحوا قريباً منها يجعلون طريق ذهابهم أو إيابهم عليها. وهكذا رأيت أن هذه الرحلة ستحقق لي مطلبين: زيارة شفاثة وزيارة الأخيضر، وعندما أفضيت برغبتي هذه لبعض الأصحاب ضحكوا وصاحوا حالاً: «يا طالب العافية من شفاثة!»، فأجبتهم أني سأذهب إلى شفاثة لا طالباً للعافية ولكن طالباً للمعرفة، وسأقصدها لا مستشفياً بل مستطلعاً، ومهما يكن في مناخ شفاثة وهوائها فلن أقيم فيها إلاّ فترات لا أحسب أنها ستأخذ من صحتي أو تحطم من عافيتي.

هور الملح

لم نجتز عن بيوت كربلاء إلاّ قليلاً حتى ألفينا أنفسنا في صحراء رملية مترامية الأطراف لا طريق واضحة فيها، بل آثار لعجلات السيارات مشقوقة في الرمل تدل على الهدف المقصود، أخذت سيارتنا تشق الرمل وتطوي بنا هذه المفاوز الجرداء تحت طل من المطر الخفيف. وقد فضلنا أن نجتاز بشفاثة ذهاباً وبالأخيضر إياباً، فكنا نرسل عيوننا ذات الشمال وذات اليمين فلا نرى إلاّ سهلاً فسيحاً لا نهاية له نمشي فيه سراعاً متطلعين إلى شفاثة وشفاثة لا تبين. وفجأة ظهرت إلى يميننا سهول لماعة تتألق تحت هطول المطر، فسألنا السائق عنها فقال هذا (هور الملح) فسألناه أن يقصد بنا إليه فانتقل ذات اليمين ومشى بنا غير بعيد حتى كنا نشرف على سهول الملح من موقفنا العالي وبدت تحتنا سهول واسعة تنحط عنا كأننا فوقها في جبل عالٍ، ففكرنا هنيهة هل نهبط إليها أم لا نهبط. وقد كان المطر أكبر ما يعيقنا عن الهبوط وقد خشينا أن يزداد هطوله وأن تكون بعيدة عنا بعداً يؤذينا في الذهاب والإياب تحت المطر الغزير، لا سيما ونحن على غير استعداد للمطر، وإنما فوجئنا به مفاجأة بُعيد خروجنا من كربلاء. ولكننا قلنا في

أنفسنا هيهات أن تقدر لنا العودة إلى شفاثة فإذا لم نرَ هور الملح الآن فيستحيل أن نراه بعد الآن. وما دامت رحلتنا إلى شفاثة في أصلها مجازفة في رأي الكثيرين فلماذا لا نجازف بالنزول إلى هور الملح؟ ولم نشعر إلاّ ونحن نهوي من رؤوس التلال ركضاً غير مبالين بشيء حتى وصلنا سفوح التلال وأخذنا نجري في السهل وبعضنا يعدو مسرعاً للسبق في الوصول إلى الملح، فلما رأيناهم وصلوه ووقفوا عليه أدركنا بعد المسافة بيننا وبينه إذ لم تكن تلوح لنا إلاّ أشباحهم. ولما وصلناه رأينا أراضي واسعة تعلوها طبقات من الملح الأبيض الناصع، وقد رواها الماء فبدت وكأنها قطعة موارة بالفضة البيضاء. وعندما أردنا العودة إلى السيارة كان المطر قد تضاعف انهماره والأرض قد رويت، فأخذ الماء يقطر من ملابسنا ووجوهنا وأخذت أقدامنا تغوص في الرمال اللزجة وغطى الطين سراويلنا فلم نصل السيارة إلاّ بعد الجهد العنيف. وأصبحنا نخشى فشل رحلتنا لأن المطر الغزير يعرقل سير السيارة. وكان السائق ينذرنا بين الفينة والفينة بسوء المنقلب إذا استمرت السماء ممطرة، وأخيراً بدا لنا سواد شفاثة كما لاحت لنا حولها التلال والهضاب.

شفاثة

بعد ساعتين من مغادرتنا كربلاء كنا نقبل على شفاثة فنمر بالتلال إلى يسارنا وبخضرة جميلة وسواق دفاقة ونخيل شاهق إلى يميننا، ثم كنا في قلب النخيل وصميم البساتين نشقها شقاً فتملأ نفوسنا بهجة وانشراحاً. يا للعجب! هذه شفاثة باعثة الأدواء وممرضة الأصحاء، هذه هي البلدة التي لا تطلب فيها العافية ولا تنشد الصحة! وفيم إذن هذه الجنائن الناضرة التي تنتشر على أوسع المساحات والبساتين الزاهرة التي تكتنفها من كل النواحي وفيم إذن هذه المناظر الساحرة تحدق بالبلدة وتطيف بها من كل طرف!؟

ظلت السيارة تقطع بنا مسافة كانت كلها بساتين وجنائن تضم من الأشجار والزروع الشيء الكثير، وأبصرنا فيها الرمان والتين والعنب وغيرها من ضروب الثمر التي لا أحسبها توجد في غيرها. ثم كنا ندخل البلدة تحت الغيث المنهمر ونسير تواً إلى العين الكبريتية الواقعة في قلب البلدة فأدهشنا منظرها. وعندما نزلنا من السيارة رأينا عيناً ثرة تفوح منها روائح الكبريت ويشف ماؤها عن أقصى القعر لصفائه ونقائه وشدة زرقته، ولكنها مهشمة الجوانب مهدمة الجدران لم تنلها يد الإنسان بأقل عناية أو اهتمام، وتقوم حواليها بيوت البلدة القروية ودكاكينها البسيطة ومقاهيها المتواضعة، وتجري مياهها في سواق وأقنية داخل البلدة بخرير يملأ الأسماع. وعندما سألنا بعض مرافقينا من أبناء البلد عنها حدثونا أن في شفاثة مثلها عدداً كبيراً واختلفوا في تحديده فقال بعضهم إنه يبلغ الثلثمائة وأنزلها آخرون إلى مائة واحدة، وآخرون إلى أقل من ذلك وهذه العين باتفاقهم هي أكبر العيون ويبلغ عمقها على ما قيل لنا ستة عشر متراً. ومشى معنا فريق من الأهلين يجولون بنا على العيون فاجتزنا بعدد منها داخل البلد وخارجها، وجميع هذه العيون تتدفق أمواهها وتخرج من البلدة إلى الحقول الواسعة في سواق وأنهار تقوم على حافاتها الرياض الغناء والحقول الخضراء في مناظر من أجمل ما ترى العين ولو قدر لها أن تعمل بها يد الإنسان إصلاحاً وتنظيماً لكانت شفاثة جنة من الجنان. والمهم أن هذه العيون الغزيرة والنهيرات الكثيرة ليست ككل العيون فهي مياه كبريتية معدنية يمكن أن تستغل استغلالاً صحياً فتنشأ عليها المسابح

والمغاسل كما يمكن أن يستغل جمالها فتنشأ عليها المتنزهات الجميلة والحدائق المنظمة فتكون محجة الوافدين من كل مكان.

المطر! المطر!

لم ينقطع انهمار المطر حتى الآن، فكنا نجول على العيون والشلالات والمطاحن تحت الوابل المتدفق، فاختصرنا الكثير مما كنا نريد أن نتملى من مشاهدته، ومررنا لماماً على ما كان يجب أن نطيل الوقوف عليه. وكان أهم ما يشغل بالنا هو أمر العودة بعد أن سالت الأرض بماء السماء وأصبحت الطرق مزالق ربما أعجزت السيارة عن السير. وعندما عدنا إلى السائق حذرنا من الذهاب إلى الأخيضر ونصحنا بالعودة إلى كربلاء، لأن طريق كربلاء هو على كل حال أقل تعرضاً للخطر الداهم. ولكننا وقد صرنا في شفاثة أيصح لنا العودة على أعقابنا دون أن نرى الأخيضر. وهل يكتب لنا أن نرى هذه الأرض ثانية فنشاهد الأخيضر الرائع؟ قلنا للسائق اتكل على الله واتجه إلى الأخيضر، فقال إننا سننقطع في الطريق لا محالة لأن بيننا وبين الأخيضر مزلقة لا أحسب أننا نستطيع اجتيازها، وهبنا اجتيازها، وهبنا اجتزناها فكيف بنا من الأخيضر إلى كربلاء، وبيننا هذه الصحراء المترامية الأطراف التي لا سبيل معبد فيها ولا إنسان سالك، فإذا ما عجزنا عن السير فأنتم وحدكم ستعانون الجوع والبرد والتعب، فقلنا إذا كان الأمر أمرنا فنحن موطدو العزم على تحمل المشاق، وهل تطيب أمثال هذه الرحلات إذا لم يمازجها عناء وجهد ومشقة. ولما رأى السائق الإصرار خرج بنا من شفاثة إلى الصحراء والمطر على أشده يكاد يحجب عن عيوننا معالم الطريق، وبعد حين نبهنا السائق إلى أننا أصبحنا على مقربة من أخطر نقطة في طريق الأخيضر فإذا اجتزناها كان طريقنا إلى الأخيضر سليماً ويبقى ما بيننا وبين كربلاء، فاستعذنا بالله وأخذت السيارة تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار حتى لتكاد تنقلب وأخذت عجلاتها تدور في مكانها دون أن تتقدم وإذا تقدمت كان تقدمها بطيئاً خطراً إلى أن قدر لنا قطع هذا المكان المزعج، وأخذت السيارة تعدو إلى الأخيضر وعيون السائق تتماوج يمنة ويسرة خوف الضلال. وكان معنا شرطي أصحبتنا به إدارة شرطة كربلاء ليكون دليلنا في هذه المفازة المضلة، فكان يتعاون هو والسائق ومعاون السائق على الاهتداء إلى الطريق، وإذا بأحدهم يؤكد أننا ضللنا وأننا نتجه في وجهة لا توصلنا إلى الأخيضر، فوقفنا تحت المطر نتشاور في الأمر وقد أحسسنا لأول مرة بالخطر الحقيقي، فإنه لم يكن يهمنا أن ترتوي ثيابنا ولا أن تتعب أجسامنا ولا أن تفسد ملابسنا ما دام في ذلك تحقيق أمانينا في إتمام رحلتنا، لكن أن نضل الطريق في هذه المتاهة الموحشة وأن ننقطع عن العالم في هذه الأرض القفراء ولا طعام عندنا ولا بنزين يكفينا ولا عابر يمر بنا، فذلك أمر مخيف حقاً. وبعد مؤتمر من السائق والمعاون والشرطي قرر السائق الاتجاه إلى اليسار والاسترشاد ببعض المعالم التي زعم أنها يمكن أن ترشده فمشى غير بعيد وإذا بنا أمام بيوت من الشعر لبعض البدو الضاربين هناك، فخفناهم لأول وهلة، ولكن الشرطي تقدم إليهم ببندقيته يسألهم عن الأخيضر، فأشاروا إلى اتجاه سلكه السائق مستعيناً بالله. وبينما نحن نجد السير واجمين إذ لاحت لعيني إلى يميننا غمامة دكناء بين تلك الغيوم الكثيفة التي تغطي الأفق وترسل علينا المطر مدراراً فرحت أحدق فيها طويلاً. وكلّما أمعنا في السير ازدادت وضوحاً وجلاء، فأشرت للسائق أن يرى ما أرى فما كاد يرسل طرفه إليها حتى صاح: الأخيضر!

ها هو الأخيضر!

ومال بسيارته فرحاً مستبشراً، ثم أخذ الأخيضر ينجلي أمامنا حتى بدا على صورته الضخمة، ثم وقفنا عليه ودخلنا باحته مسرعين ما استطعنا إلى الإسراع سبيلاً، وهكذا أضاع المطر علينا ما كنا نرجوه من المكوث في الأخيضر مكوثاً نستطيع معه أن نصف الأخيضر وصفاً صحيحاً لأن نظراتنا كانت خاطفة ومكوثنا قصيراً، وكل ما نقوله إن الأخيضر على ما أبصرناه لغز من الألغاز التاريخية التي تعيي الباحثين وتحير الدارسين، فمن هو باني هذا القصر الهائل، ولماذا اختار بناءه بعيداً عن العمران، وبعيداً عن الماء والظلال، وكيف بناه بالصخر الأصم مع أن الصخر مفقود في العراق حتى إن أعرق المدن العراقية عمراناً ومدنية في التاريخ لم تبنَ إلاّ بالآجر، فدرست وبليت ولم يبقَ إلاّ التافه الذي لا يدل على شيء من عظمتها ومجدها. فالسومريون والبابليون والآشوريون عفت الأيام على مدنهم وقصورهم وتركتها ركامات في التراب، وأما الأخيضر، فلا يزال شامخ الأركان وطيد البنيان، لم تزعزعه العصور ولم تنقضه الدهور، فبابل مضت إلاّ بقايا لا غناء فيها، و«أور» ذهبت إلاّ فجوات وربوات، و«نينوى» زالت إلاّ تلالاً وأخاديد، والأخيضر لا يزال في صميم الصحراء على ما تركه بانوه من فخامة البناء، ورحابة الفناء، لا يشكو إلاّ إقفاره من قاطن وخلو مقاصيره من ساكن!

لقد قيل فيه شتى الأقاويل وكلها لا تستند إلاّ إلى الحدس والتخمين.

الإياب

تركنا الأخيضر وراءنا، وظل المطر يتدفق والبرد يشتد، ونحن لا وقاء لنا منهما، فخشينا أن نعود حقاً بالمرض فيُطلق علينا المثل، وصعدنا سيارتنا نصادم الجو والأرض. فالجو معاند بسحابه ووابله، والأرض معاندة بمزالقها ووحولها ونحن بينهما في سيارة ضعيفة نريد منها أن تفوز بنا وتوصلنا سالمين إلى كربلاء، وبيننا وبينها صحراء مديدة ومفازة بعيدة، وهذا الليل قد غشينا بسدفته الداجية فزاد في متاعبنا.

وأخذت السيارة تترنح بنا حيناً وتمضي حيناً، وربما عن لها أن تثبت فلا تبرح ولا تريم، فينزل السائق ومعاونه فيغوصان في الوحول ويشدان دواليبها بالحبال لتقاوم، وما زلنا على هذه الحال بين يأس وأمل، وعناء ورجاء، حتى لاحت لنا في الظلام أنوار كربلاء، فأيقنا بالسلامة والنجاة.

إلى الكوفة

غادرنا بغداد بعد الغروب، وتركناها في بهجة العيد ورونقه تتهيأ لاستقباله في الصباح، فالمدافع تطلق والجماهير تتحشد، والقطر غاصة، والسيارات مزدحمة.

لقد كان الليل يرخي سدوله الكثيفة على السهول الرحيبة، فما نكاد نبصر إلاّ ما هو أمامنا على أضواء السيارة، عدا ما كنا نلمحه خلال سجف الليل من أضواء السيارات الذاهبة والآيبة. وإنه لمن الخسران أن يسير الإنسان ليلاً في هذه الطرق الجميلة فلا يلمح النخيل الشاهق ولا الرحاب الفيحاء ولا الحدائق الغناء. وما راعنا إلاّ بلدة (المحمودية) تطلع لنا من خلال الحنادس وتطل بأضوائها الباهتة فندخلها متشوفين إلى سرجها كأنها بقية الحياة في جسم متهدم متداعٍ. وخرجنا من المحمودية لنجتاز البراري الموحشة القفراء فكانت أسراب السيارات تلوح منتشرة على عرض السهول فتكسبها جمالاً وروعة تهزان النفس. ولا عجب أن تحتشد الليلة مواكب السيارات فإنها ليلة العيد والناس منطلقون من أعمالهم اليومية، فهؤلاء طلاب يتركون مدارسهم وجنود يغادرون مراكزهم وهؤلاء بغداديون ملوا ضجيج المدينة وصخبها فخرجوا يتلمسون الهدوء والاطمئنان في الأرياف، وأولئك ريفيون سئموا الريف وسذاجته فتسابقوا إلى المدينة ينعمون بمتعها، فغص السهل بالسيارات المتدافعة بعد أن غص القطار بالراكبين وضاق بالمسافرين. وما عتمنا بعد سير طويل أن كنا في قرية (المحاويل) نشق شارعها الجديد ونتلفت إلى أنوارها الضئيلة وفوانيسها النحيلة، وما إن خرجنا من المحاويل حتى وقفت السيارة لا تطيق حراكاً فتلفتنا وسط الظلام إلى السائق فقال بعدم مبالاة: لقد نفد البنزين! كأن الأمر عادي، وكأن انقطاعنا في هذا الليل الغاسق لا يعني شيئاً. وبعد ردح من الزمن سهل الله مرور سيارة أعارتنا بعض البنزين فأستأنفنا السير وقد أصبحنا من مدينة الحلة على قاب قوسين. ولم يكن غير قليل حتى كانت أنوار الفيحاء تنبثق من خلال النخيل المتشابك فتشرق لإشراقها النفس ويتهلل القلب ولا غرو فللحلة أعذب الذكريات وأجمل الساعات. ومشت السيارة تعبر جسرها الجميل وتنثني منطلقة في جادتها النضيرة حتى انتهت إلى موقفها. وكانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل. وفي الصباح استقبلت الحلة العيد بطلاقة وانشراح فانصرف الرجال إلى التزاور ولعبت الأراجيح في الساحات وتجمهر الناس في المقاهي والجامع. وللحليين تقاليد خاصة في تمضية أيام العيد فهم يقضون اليوم الأول منه محتشدين في «مشهد الشمس» واليوم الثاني في مقام «عمران بن علي» والثالث في مقام النبي أيوب.

الحلة

تقع مدينة الحلة على بعد أربعة وستين ميلاً إلى الجنوب الغربي من بغداد، وعلى بعد بضعة أميال من أطلال بابل وعلى بعد أربعين ميلاً إلى الشمال الشرقي من الكوفة، وعلى موقع جميل من نهر الفرات الذي يخترقها فرع كبير منه. وتكتنفها بساتين النخيل وأشجار الفواكه.

وتسمى الحلة الفيحاء، وقديماً عرفت باسم الحلة السيفية، نسبة إلى سيف الدولة صدقة بن دبيس المزيدي الذي بناها سنة ٤٩٥هـ (بدأ بعمارتها سنة ٤٩٣هـ وسكنها سنة ٤٩٥هـ). كما عرفت باسم الحلة المزيدية نسبة إلى بني مزيد قبيلة سيف الدولة.

وكانت الحلة في وقت من الأوقات دار العلم وذلك في القرن الخامس الهجري وما بعده، وكانت إليها الهجرة، وخرج منها جماعة من أجلاء العلماء والفقهاء والأدباء، ثم انتقل التدريس منها إلى كربلاء والنجف في الأعصار الأخيرة، ثم انحصر في النجف، وكانت النجف دار العلم قبل الحلة، وبغداد قبل النجف، والحلة مركز متصرفية يتبعها الإقليم المسمى باسمها «لواء الحلة» وهو من ألوية العراق الوسطى، يقع جنوب لواء بغداد وغرب لواء الكوت، وشمال لواء الديوانية وشرق لواءَيْ كربلاء والرمادي.

وتبلغ مساحة لواء الحلة ٥٤٥١ كيلومتراً مربعاً ويبلغ عدد سكانه ٣٥٣١٤ نسمة. ويرتبط لواء الحلة بباقي أنحاء العراق بطريق برية هي طريق الحلة ـ النجف، والحلة ـ الهندية ـ كربلاء، والحلة ـ الديوانية والحلة ـ بغداد، والحلة ـ الصويرة كما يمر به خط سكة حديد بغداد ـ البصرة.

وفي هذا اللواء أربعة أقضية هي: قضاء مركز الحلة، وقضاء المسيب، وقضاء الهندية، وقضاء الهاشمية. ويبلغ عدد النواحي في هذه الأقضية عشر نواحي. ويبلغ عدد القرى في مجموع اللواء ٣٦ قرية.

وأنهر اللواء هي: نهر الهندية المتفرع من نهر الحلة وينظمه سد الهندية الذي أنشىء سنة ١٩١١ ـ ١٩١٣ ويشتمل على سد أقيم على الفرات جنوبي المسيب، ويتفرع من أمامه ستة جداول تخترق منطقة لواء الحلة أهمها: نهر الحلة ونهر المسيب الكبير ونهر الكفل ونهر بني حسن ونهر الناصرية.

وفي لواء الحلة مواقع أثرية أهمها:

بابل: وتقع على بعد خمسة كيلومترات من شمال الحلة، وترجع شهرتها إلى عهد حمورابي، وبلغت ذروة عظمتها في عهد نبوخذ نصر الثاني (القرن السابع قبل الميلاد).

كيش: وتعرف أطلالها بتل الأحيمر، وتقع على مسافة ١٥ كيلومتراً من شرقي بابل، وفيها اليوم بقايا مدينة كيش التي يرجع قدمها إلى ما يسبق تاريخ السومريين.

بورسبا: تقع على بعد ٢٥ كيلومتراً من جنوبي الحلة وتعرف باسم (برس نمرود) وهي بقايا الهيكل المكرس لعبادة الإله نابو إله العلوم والآداب.

كوش: كانت مركزاً للتلقين الديني.

تل العقير: الواقع جنوبي غربي الصويرة الذي يرتقي في قدمه إلى ٦٠٠٠ سنة تقريباً وقد كشف فيه عن آثار وبقايا معبد مصبوغ بالألوان.

وأهم منتوجات اللواء هي الشعير والحنطة والباقلاء والرز والدخان والسمسم وكذلك الفواكه ويقدر عدد أشجارها بحوالى ١٣٣ ألف شجرة وأكثرها عدداً أشجار الرمان.

وتعتبر زراعة النخيل أهم مورد زراعي في لواء الحلة حيث يبلغ عددها أكثر من أربعة ملايين ونصف المليون نخلة منها زهاء ثلاثة ملايين نخلة مثمرة.

أما الثروة الحيوانية فهي الأغنام والماعز ويقدر عددها بأكثر من ٣٠٠ ألف رأس تليها الأبقار ويقدر عددها بحوالى ٧٠ ألف رأس، كذلك الإبل فضلاً عن صيد الأسماك والطيور. وهناك منتوجات صناعية يخرجها معمل الحرير ومعامل صغيرة لصنع الكوفيات والمطاحن والمخابز ومصانع الحلويات ومعامل الكاشي. ويوجد معمل لصناعة الإسمنت قرب المسيب، وكذلك الصناعات اليدوية كصناعة الأواني والفخار وصناعة المواد السعفية والحدادة وصناعة الأواني النحاسية والصياغة والسراجة.

الحلة مركز نهضة علمية وأدبية

كانت الحلة منذ أنشأها المزيديون وأقام فيها مملكة أميرهم سيف الدولة صدقة المزيدي مقر نهضة علمية أدبية. فإنه لم تكد تقوم هذه المدينة ويستقر فيها صدقة حتى صارت مركزاً من أعظم مراكز العلم والفكر والأدب.

وقد كان ما تحلى به الأمراء المزيديون من ثقافة وأدب وكرم أكبر عامل على تركيز النهضة في مدينة الحلة. وكمثل على ذلك نذكر أن سيف الدولة صدقة لم يغفل لحظة عن أن ينشىء أول ما ينشىء في مدينته الجديدة مكتبة ضخمة يقول المؤرخون إنه كان فيها ألوف الكتب، كما كان هو ومن جاء بعده يرعون العلماء والشعراء والمفكرين ويحمونهم من الفقر، فكانوا يتدفقون على الحلة من كل مكان، حتى قال العماد الأصفهاني عن المزيديين: «ملوك العرب وأمراؤها بنو مزيد الأسديون النازلون بالحلة السيفية على الفرات، كانوا ملجأ اللاجئين وثمال الراجين وموئل المعتفين وكنف المستضعفين، تشد إليهم رحال الآمال وتنفق عندهم فضائل الرجال، وأثرهم في الخيرات أثير والحديث عن كرمهم كثير».

وهكذا بذرت بذور النهضة وتركزت قواعدها فنبغ من الأسرة المزيدية نفسها الشعراء والعلماء من أمثال سيف الدولة نفسه وابنه بدران والأمير مزيد جمال الدين المزيدي ورضي الدين علي المزيدي وعلي بن منصور المزيدي.

كما نبغت في الحلة أسر أخرى علمية كآل البطريق وآل نما وآل سعيد الذين منهم المحقق الحلي وآل طاووس وآل المطهر الذين منهم العلامة الحلي وآل معية والأعرجين وغيرهم، كما نبغ فيها أمثال محمد ابن أدريس والشيخ ورام وابن الطقطقي وصفي الدين الحلي وابن العتائقي وعلي الشفهيني، إلى مئات غيرهم من العلماء والشعراء والمفكرين.

وظلت الحلة طيلة أربعة قرون ـ من القرن الخامس إلى أواخر القرن التاسع ـ مصدر النهضة العلمية والشعرية والفكرية. ولكن تقلص الحكم العربي وسيطرة التركمان من رجال الدولة (قراقليو) ومن تلاهم واشتداد الفتن أدى إلى تقهقر الحلة واضمحلال مدارسها وتشتت مكتباتها.

ولكن الحلة لم تعدم ـ مع ذلك ـ ظهور فريق من النوابغ بين الحين والحين كانوا يردون على الحلة بقايا من مجدها العلمي.

بابل

وفي صباح اليوم الثاني قصدنا في القطار إلى أنقاض مدينة بابل وعند نزولنا من القطار سرنا في سهل رحب فاستقبلتنا سلسلة تلال ترابية هي ركام المدينة العظيمة، فصعدنا في تل منها انكشفت لنا في ذروته فجوات كثيرة منتشرة على التلال. وفي هذه الفجوات تقوم بقايا الطلول الدوارس التي كشفت عنها الحفريات العديدة، ورأينا عدة صوى تشير إلى محلات المدينة وأماكنها فواحدة تشير إلى (شارع الموكب) وأخرى إلى (باب أشتار) وأخرى إلى (الجنائن المعلقة) فسرنا في اتجاه هذه الأخيرة ولما بلغناها رأينا منظراً مهشماً وأبنية متهدمة لا تدل على ما كان لهذه الحدائق من روعة وجمال. فقد أحالها الدهر وجعل عاليها سافلها ولم تبق الأيام من عظمتها إلاّ هذه الصورة الشوهاء، ثم وصلنا إلى باب «أشتار» فإذا فيه بقايا أسوار وبنايات متهدمة وأبرز ما تحويه هو هذه الصور المنقوشة على الجدران التي تمثل حيوانات مختلفة الأنواع بصنع دقيق، وتقوم في الوسط أسطوانة مبتورة الأعلى، وأخذنا ننتقل بين الأنقاض فكنا نمر ببقايا آبار وبفجوات كثيرة متشابهة الآثار حتى انتهينا إلى أسد بابل وهو الأثر الحجري الوحيد من بابل ثم وصلنا إلى بقايا القصر الرئيسي الذي كان لنبوخذ نصر وليس له من عظمته إلاّ هذه الجدر المتهدمة والرسوم البالية. والذي يبصر آثار بابل ثم يقيسها بما كان قد رآه من آثار بعلبك أو تدمر مثلاً لا يجد في بابل شيئاً مذكوراً. ولا ريب أن طبيعة البناء في بابل وغير بابل من آثار الآشوريين والبابليين والسومريين في العراق وكونها من الآجر قد عجلت في القضاء على مخلفاتهم ولم تبق منها إلاّ هذا النزر القليل.

وراء بابل

تركنا بابل وراءنا وانحدرنا من التلال نمشي على الأقدام إلى ظلال نخيل يحيط بها حتى أدركنا قرية (كويرش) فسرنا في أزقتها وأبصرنا القرويين متجمهرين في مقهاها، ثم خرجنا من القرية وسرنا بين النخيل مرافقين لجموع القرويين الذاهبين لتمضية العيد في عمران. وكان الشط يلمع من بين النخيل إلى يميننا ثم انقضى النخيل واستقبلتنا الشمس بحرّها اللاذع حتى وصلنا إلى سفح تلال طويلة صعدنا فيها فانكشف أمامنا في رأس التل مقام (عمران) بقبتيه المكسوتين بالكاشي الأخضر. ثم ظهرت الجماهير الحاشدة في الرحبات حول المقام ترقص رقصة الدبكة أو (الجوبي) كما يسمونها هناك وتهزج وتزغرد وبدا الفرسان على خيولهم يتسابقون ويلعبون فأذكرنا هذا المنظر باحتشادات القرويين عندنا في مواسمهم في مقامات الأنبياء، وتجمهرهم أيام الأعياد في أماكن خاصة يهزجون ويرقصون فكان المشهد واحداً هنا وهناك.

بعد الحلة

ثم انحدرنا من (عمران) قاصدين الشط فأبصرناه مزدحماً بالزوارق الكثيرة التي تقل جماعات القرويين وقد رأينا أن نعود إلى الحلة نهراً، فأخذنا زورقاً مشى يشق بنا عباب الماء وكانت الضفاف حوالينا خضراء زاهية وجماهير القرويين نساء ورجالاً تملأ الطرق الظليلة هازجة شادية، وما لبثنا أن كنا في الحلة بعد مسير ساعة ونصف الساعة على ظهر الماء.

وعند الأصيل تركنا الحلة في السيارة متجهين إلى الكوفة فكنا نبصر الناس محتشدين في طرق الحلة لا سيما في (باب المشهد) مجتمع البلد في الأعياد والمواسم. وما إن خرجنا من الحلة حتى أخذنا في طريق جرداء قاحلة كان يلوح فيها من بعيد النخيل الأخضر، ثم أبصرنا إلى يميننا قبة محاطة بالنخيل قيل لنا إنها مقام النبي أيوب. وبعد سير بدا لنا سواد غطى وجه الأفق عرفنا فيه نخيل (الكفل) ثم بدت لنا منارته الشاهقة ولم نبصر من البلدة شيئاً لأنها كانت مغمورة بالنخيل بل أبصرنا مضارب شعرية منتشرة حولها ثم كنا بين النخيل نسير في ظلاله. والكفل مقدسة عند اليهود يقصدونها في مواسم خاصة ويحتشدون فيها من كل صوب.

وبعد حين أطل نخيل منتشر في عرض السهل هو نخيل قرية «العباسية»، ثم رأينا قرية العباسية إلى يميننا ووصلنا الفرات فعبرنا الجسر الحديدي الجديد المسمى (الجسر العباسي) وكنا نرى النخيل يلوح أمامنا على مسافات شاسعة، كما كنا نبصر في طريقنا بعض القرى المبنية بالطين أو القصب.

الكوفة

وبعد أمد دخلنا في قلب النخل المتكاثف وسرنا في أفيائه الوارفة، فإذا بعمارات الكوفة تطلع لنا فجأة من وراء النخل وتطل من خلف الظلال، فأي رهبة تعترينا الآن ونحن نطأ الثرى الذي طالما وطئه أبو الحسن ونتطلع إلى الأفق الذي طالما تطلع إليه، فها هنا كان علي يعسكر، وها هنا كان يخطب، وها هنا كان يعلم ويهذب. وها هي قلوبنا تخفق روعة ورؤوسنا تنحني إجلالاً إذ كنا في بلده ومقر إمرته.

أيتها الكوفة:

مهما قيل فيك فإنك حبيبة إلى القلب عزيزة على النفس، ولئن كنت بلد شبث بن ربعي وشمر بن ذي الجوشن، وعمرو بن الحجاج، فبحسبك أنك عاصمة علي وبلد الأشتر النخعي وحجر بن عدي الكندي وحبيب ابن مظاهر الأسدي وسليمان بن صرد الخزاعي وأخدانهم من كل أبي أنوف وكمي شريف.

في قلب الكوفة

وصلنا إلى الفرات، وعبرت السيارة عليه جسراً وصلت بعده إلى الجانب الآخر من الكوفة ثم انعطفت إلى اليمين في جادة معبدة مزدحمة بالناس. ثم مالت إلى اليسار في سوق مسقوف مظلم خرجت منه إلى جادة عريضة رأينا فيها إلى يميننا مدرسة الكوفة الابتدائية، وأبصرنا مظاهر العيد من أراجيح منصوبة وناس محتشدين، ثم كنا أمام مسجد الكوفة الجامع، ويقوم على بابه مقهى وبضعة دكاكين وتقع المنارة فوق الباب.

وصلنا المسجد الخالد فإذا هو ساحة رحبة تقوم في فنائها عدة محاريب تنسب إلى بعض الأنبياء ويحوط الساحة سور ضخم وتقع في وسطها فجوة محاطة بجدران أربعة وفيها غرفة وأشكال أواوين. وعلى طول جدران المسجد أواوين وغرف يأوي إليها الزائرون والمعتكفون. وفي صدر الجدار القبلي يقع محراب المسجد الذي ضرب فيه الإمام وهو مزخرف بالكاشي، وفي وسطه مشبك نحاسي، ويوحي

المحراب إلى النفس الروعة والجلال حينما يذكر الزائر أن فيه كان يقف علي يناجي ربه ثم ينثني فيلقي خطبه الرائعات وحينما يذكر أن فيه هوى الإمام مضرجاً بدمه.

ويقع في الجهة الشرقية من المسجد قبرا مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة اللذين قال فيهما الشاعر:

لئن كنت لا تدرين ما الموت فانظري إلى هانىء في السوق وابن عقيل
إلى بطل قد هشم السيف وجهه وآخر يهوي في طمار قتيل

وقبر مسلم في الطرف الشمالي ويقع في الزاوية الجنوبية قبر المختار الثقفي. وقصدنا إلى قبر مسلم فدخلنا من باب أوصلنا إلى باب آخر رأينا بعده القبر محاطاً بقفص فضي تحت قبة وجدر مزينة بعض التزيي.ن وأبصرنا هناك بعض المصلين والزائرين، ثم انتقلنا إلى قبر المختار وهو يقع داخل حجرة بلا قفص. ومن هناك عدنا إلى قبر هانىء فدخلنا إلى حجرة أوصلتنا إلى باب آخر ظهر بعده القبر يحوطه قفص نحاسي تحت قبة أقل زخرفة من قبة مسلم. ثم خرجنا من المسجد تعتادنا شتى الأحاسيس متطلعين إلى الماضي البعيد وما كان لهذا المسجد من شأن وما وقع فيه من أحداث أي أحداث.

ومن المسجد سرنا إلى قصر الإمارة المكتشفة آثاره حديثاً وهي عبارة عن جدر مهدمة وبقايا غرف وردهات، وأبصرنا قريباً منه داراً تنسب إلى علي بن أبي طالب.

ثم مضينا نجول في الكوفة فإذا حاضرها لا يتفق في شيء مع ماضيها، فهي اليوم قرية بسيطة ولكنها جميلة المناظر طيبة الهواء.

ثم خرجنا من الكوفة نسير في أرض صحراوية، وكنا نبصر عن اليمين واليسار بعض المقامات والمساجد كمسجد السهلة ومقام الشهيد ميثم التمار حتى بدت لنا قبة النجف المذهبة ومنائرها الشاهقة تلمع في الجو وتتلألأ في الأفق.

رحلة الغراف

خرجنا من الناصرية في السيارة متجهين إلى سهول الغراف وبلدانه وفي النفس حنين إليه أي حنين. فلطالما ذكر لنا الغراف بجماله وطيب هوائه وشهامة أهليه، ولطالما حدثونا عن تلك الرباع فكان الحديث عنها إعجاباً بها وثناء عليها.

الغراف! ها هي السيارة تطوي بنا الأرض إليه طياً فتدنينا من مائه الذي طالما اشتقناه وتقربنا من منازله التي طالما هفونا إليها، وها نحن ندنو من تلك المرابع النضيرة فنزداد حباً لها وافتتاناً بها!

بلى ها نحن من وراء التنائف القاصية نتطلع إلى الغراف فنتخيل فيه حسن الطبيعة الساحر وجمال الريف الباهر، ونتصور مروجه الغنّاء وحقوله الخضراء. وها نحن كلما أمعنا في السير ازددنا لبيت الأستاذ الشرقي ترديداً:

زهو القصور ونزهة الأرياف　　غرف مطلات على الغراف

طريق الشطرة

كان خروجنا من الناصرية في أراض عاطلة من كل نبت فلا أشجار ولا أعشاب ولا أزهار. وبالرغم من أننا في أواخر شهر شباط/ فبراير على أبواب الربيع فما كنا نلمح للربيع مظهراً ولا لنضرته أثراً، بل كنا حيثما تلفتنا لا نبصر إلاّ سهولاً قاحلة جرداء. ثم صرنا نعبر على كثير من الأقنية والجداول وصرنا نرى بين الفينة والفينة بعض الاخضرار متخللاً تلك السهول الواسعة. وكان الطريق منذ تركنا الناصرية مملوءاً بجماعات القرويين نساء ورجالاً بعضهم على الخيول والحمير وأكثرهم يمشي راجلاً حافي القدمين والنساء يحملن على رؤوسهن الأمتعة الضخمة. وهؤلاء القرويون يعودون إلى قراهم بعد أن تزودوا من الناصرية بما يسدون به حاجاتهم في القرى. فكانوا وقد انتشروا على طول الطريق يذكروننا بأيام (سوق الخميس) على طريق بنت جبيل في جبل عامل حيث ينتشر القرويون في الصباح ذاهبين إلى السوق وفي المساء آيبين منه. ثم كنا أمام قرية (سويج أبو دجه) أي (سويق أبو دكة) الواقعة على فرع من فروع الغراف، فتركناها سائرين على ضفة النهر حتى بدا لنا سواد الشطرة وبقي الطريق ملازماً ضفة النهر ومعاكساً له في مجراه حتى دخلنا الشطرة أول بلد من بلدان الغراف.

الشطرة

تقع الشطرة على إحدى شعبتي الغراف الكبيرتين فيخترقها النهر ويقسمها إلى قسمين شرقي وغربي، ويقوم عمران البلدة على الجانب الغربي، أما في الجانب الشرقي، فقد أقيمت في شماليه البنايات الرسمية الحديثة كالنادي والمستشفى والمدرسة ودار الضيافة. وفيما عدا ذلك، فهو عبارة عن قرية بسيطة تختلف كل الاختلاف عن الجانب الغربي، فترى هناك في الشرق بيوتاً قروية متواضعة وترى هنا في الغرب مناوحاً لها قصور الوجهاء ودور الرؤساء. كما ترى المقاهي الزاخرة والمجامع الحافلة، بينا يقفر الشرق من

كل ذلك بل إنك بينما تبصر هنا جموع المتنزهين لا تبصر هناك غير قطعان المواشي، وبينا تهدر هنا أصوات السيارات يرتفع هناك جؤار البقر وثغاء الشياه. ولقد اجتزنا الجسر البسيط الذي يصل بين الجانبين فوصلنا الجانب الشرقي وسرنا على الضفة عند الأصيل وقد طاب الهواء ولطفت الطبيعة وعذب السير حتى انتهينا إلى نهاية البلدة فانكشفت أمامنا سهول خضراء لا يدرك الطرف آخرها كما لاحت لنا أشجار (البدعة) ضاربة في الجو. ورأينا حول البلدة بقايا سور كان قد أُنشيء عليها في القديم ليدفع عنها غارات العشائر. وأبصرنا بضع نخلات قائمات على الضفة الغربية. وفي الواقع فإن الذي ينقص الشطرة هو التشجير فلو شجرت لتم جمالها وغدت عروس الغراف فهي خالية من البساتين ومحرومة من الأشجار.

وعندما عدنا من تجوالنا استقبلتنا البلدة فبرزت لنا بمنظر جميل جذاب وبدت أمام العيون رائعة كل الروعة فأدركت عند ذلك صدق الشاعر الشرقي حين يقول:

زهو القصور ونزهة الأرياف ... غرف مطلات على الغراف
تلقى الحضارة والبداوة عندها ... بإزاء أفرع أو بجنب طراف
شالت نوافدها كعين ملاحظ ... وتطابقت كجفون عين الغافي
معمورة الأطراف كم من ليلة ... بجوارها معمورة الأطراف
والنهر مضفور السلاسل فلّه ... جري النسيم وكف منه الضافي
يجري وتصدعه النسائم صدفة ... فنثاره صدع من الأصداف

إلى البدعة

قصدنا في الصباح إلى البدعة، فامتطينا الخيل ومشينا على ضفة النهر في الحقول الخضراء حتى كنا في قرية الدبات التي تسكنها عشيرة الدبات، وهي عشيرة تمتهن في هذه النواحي ما كانت تمتهنه عشيرة الحمدون في جبل عامل فتروع الناس في الليل وتفجعهم بأموالهم. وعندما كان رفاقنا يقصون علينا بعض حوادثها كنا نتذكر حوادث الحمدون ونرى تشابه وقائعهم مع وقائع الدبات. ثم كنا بين رياض البدعة وأمواهها فرأينا الناظم الذي يقسم الغراف إلى قسمين يذهب أحدهما إلى الشطرة فيروي أرضها ويروي أرض البدعة وما إليها من سهول وقرى، كما رأينا البنايات التي كانت في وقت من الأوقات مقراً لدار المعلمين الريفية وأصبحت اليوم دوائر للري.

في منازل العشائر

ومن البدعة ذهبنا إلى منازل عشيرة آل بو عليان التي تقع على ضفة الغراف، فسرنا على ضفة النهر نصف ساعة كنا بعدها في بيوت العشيرة وبين رجالها الذين أقبلوا مرحبين وقادونا إلى المضيف فدخلنا باباً إلى ساحة مسورة بجدران من الطين اليابس تقوم في وسطها بيوت من القصب أو الطين، كان المضيف أحدها فدخلنا إليه من باب ضيق قصير انحنينا بكل أجسامنا عندما دخلناه، فإذا نحن في غرفة قصبية مستطيلة تقوم على سبعة عقود من القصب الدقيق المشدود بعضه إلى بعض وقد قوّست تقويساً تاماً وغرست قوائمها في الأرض. وتغطي هذه العقود حصر من القصب يتكون منها سقف المضيف

وجدرانه، وليس لها إلاّ منفذ واحد هو الباب الضيق القصير. ولكنهم في الصيف يفتحون لها منافذ للتهوية. أما أرض المضيف فقد فرشت بالحصر القصبية وغطيت الحصر بالبسط وبنوع من السجاد يصنع في بيوت العشيرة من أصواف حيواناتها ونشرت فوقها الحشايا والوسائد المحشوّة بالصوف والمغلفة بنسيج البسط الثخين، وفي وسط المضيف، قريباً من الباب يقوم الموقد وقد امتلأ بأواني القهوة وأكوابها. ولم نكد نجلس حتى أديرت علينا أقداح اللبن المذاب بالماء (الشنينة) فكانت أفضل شارب. وبعد جلسة قصيرة قمنا عائدين إلى الشطرة. وفي هذا اليوم كنا مدعوين إلى منازل عشيرة آل بوشمخي القريبة من الشطرة، فذهبنا إليها عصراً واجتزنا المسافة بينها وبين الشطرة بثلاثة أرباع الساعة مشياً على الأقدام. فذهبنا إلى المضيف الذي لا يختلف في تكوينه عن المضيف الآنف الذكر. ولما أقبل الليل اكتظ المضيف بالسامرين فكان الرجل يدخل والخنجر في وسطه و(المكوار) في يمينه، وبعضهم مستبدلاً بالمكوار البندقية الحربية فيسلم ويجلس القرفصاء ملتفاً بعباءته الفضفاضة. وبعدما قضينا شطراً من الليل في سمر جميل قمنا نتهيأ للإياب إلى الشطرة فنادى الشيخ رجاله معدداً لهم أسماء الخيل وهاتفاً: (النواكية) و(الحمدانية)، وغيرهما. فأسرجت الخيل وخرجنا بضعة عشر فارساً يتقدمنا بضعة عشر رجلاً مسلحين بالبنادق، فمشينا نشق سواد الليل متطلعين إلى نجومه الوضاءة ومستمعين إلى أحاديث الرفاق اللذيذة حتى قاربنا الشطرة، فنزلنا عن الخيل وعاد بها الرجال إلى العشيرة، إذ لا يسمح لهم بدخول المدن بالسلاح. وسرنا نحن إلى الشطرة وتقدمنا إلى ضفاف النهر في سجو الليل وركود النسيم، فأبصرنا المقاهي حافلة بالناس ورأينا الأنوار تتلألأ على الماء بمناظر رائعة. وتجولنا قليلاً متمتعين بمشاهد الليل، كما تمتعنا بمشاهد الصباح والأصيل. وأجمل بالشطرة صباحاً وأصيلاً وليلاً.

في طريق الرفاعي

وفي الغد خرجنا من الشطرة نحو بلدة الرفاعي فكنا نمر بحقول القمح النضيرة على الجانبين. وكانت آثار التخريب تبدو في الطريق إذ لم يكن قد مضى على سلوكه إلاّ أيام بعد الفيضان الطاغي الذي خربه وقطع المرور فيه، والذي فتك بالحقول فتكاً ذريعاً، ونكب الزراع نكبة عامة. وكنا نجتاز بين الحين والحين بقرى ومزارع ونمر بركبان ومشاة يقطعون الطريق ذاهبين أو آيبين حتى كنا في بلدة الغازية أو (سويج غازي) وهي قرية حديثة منظمة تقع على ضفة الغراف الغربية ويقابلها في الضفة الشرقية القرية القديمة التي كانت تعرف باسم (سويج شكبان). وكنا ونحن نسير في السهول الخضراء نرى آثار الفيضان في الطرق والحقول كما كنا نبصر من بعيد الجموع بأعلامها وقد حشرت على الأسداد لإصلاحها وتقويتها بعد أن ضعضعها الفيضان الماضي. وكنا نمر ببعض القرى والمزارع حتى ظهرت لنا بلدة الرفاعي نسبة إلى السيد أحمد الرفاعي الذي يقوم قبره على ساعات منها. ثم كنا على ضفة الغراف والبلدة أمامنا يحتجزنا عنها النهر فأسرع أرباب المشاحيف، وهي زوارق صغيرة معدة لنقل الركاب إذ لا جسر يعبرون عليه، فنقلونا إلى البلدة في الضفة الثانية.

الرفاعي

والرفاعي بلدة جميلة ينقصها كما ينقص الشطرة، التشجير، لأنها محرومة من البساتين إلاّ بستاناً واحداً

من النخيل يقع في جنوبها. وعندما تخرج من النهر إلى البلدة ترى البنايات الرسمية الحديثة قائمة على الضفة، ثم تتقدم قليلاً فترى المقاهي منتشرة إلى يمينك. ثم يستقبلك سوق البلدة القديم الذي يخترقها من الغرب إلى الشرق، فإذا اجتزت السوق خرجت من البلدة وانتهيت إلى سهول خضراء على مد البصر. والطرف الشرقي من البلدة قروي بجميع مظاهره على عكس الغربي الواقع على الضفة وتوازي النهر جادة طويلة، ولكنها غير معبدة وينشأ فيها اليوم سوق جديد ليحل محل سوقها القديم المظلم البالي.

في طريق القلعة

قضينا في الرفاعي ليلتين نادرتين تجلت فيهما أريحية الرفاعيين ومواهبهم العقلية وأذواقهم الأدبية، بل تجلت شمائلهم العربية بكل ما فيها من جود وذكاء وحمية. وفي صبيحة اليوم الثالث قمنا نتهيأ للرحيل عن الرفاعي حاملين لها في نفوسنا أجمل الذكريات وأطيبها، متمنين لو تسمح الأقدار بمعاودة الوصول إلى الغراف والوفود على تلك المرابع الطيبة والأهلين الكرام. وكان هدفنا الوصول إلى قلعة سكر أو (الجلعة) كما تلفظ هناك، فخرجنا في أراضٍ سبخة تعلوها طبقة ملحية بيضاء ثم صرنا في أراضٍ خضراء وحقول زهراء حتى بان لنا سواد القلعة، ثم وصلنا ضفة الغراف اليمنى فنزلنا إلى الضفة الثانية التي تقوم عليها البلدة. وفي الرفاعي نقلتنا المشاحيف في الذهاب ونقلتنا (الطبكة) في الإياب وهنا وجدنا الطبكة على وشك عبور النهر فأسرعنا إليها فرأينا أنفسنا بين خليط من الناس والحيوانات تقلهم هذه الأخشاب من ضفة إلى ضفة. فالحمير إلى جانب الغنم، والنساء جالسات مع أمتعتهن الضخمة، والرجال واقفون يتحادثون. وتفترق الطبكة عن المشحوف في أن المشحوف زورق صغير مطلي بالقار يتسع لعدد قليل من الأشخاص ويسير من ضفة إلى ضفة. بالمجاذيف، أما الطبكة فهي زورقان كبيران وصل ما بينهما بألواح خشبية غطت فوهتيهما فبديا قطعة واحدة بسطح واحد، ثم ربطا إلى سلك غليظ مربوط على الضفتي،ن فإذا ما أطلقت الطبكة ساقها التيار ومسكها السلك عن أن تجري مع الماء فتمضي إلى الضفة الثانية حاملة أثقل الأحمال وجامعة فوقها هذه الصنوف المنوعة من البشر والحيوانات.

قلعة سكر

نزلنا القلعة وقمنا نجول فيها فإذا هي محاطة بالرياض والبساتين، على النقيض من الشطرة والرفاعي. وفيما عدا ذلك فهي تشبه البلدتين في أبنيتها وأسواقها وجاداتها فتقوم على الضفة بناياتها الجديدة ويخترقها السوق من ضفة النهر حتى نهايتها. وقد قصدنا إلى بساتينها النضيرة فتجولنا بين أشجارها المتنوعة وجلسنا في بستان الكواظمة متنعمين بظلاله، ونسائمه، ثم قصدنا النادي مع فريق من شبابها النابهين فتناشدوا الأشعار وأسمعونا الكثير من منظوماتهم الرقيقة. والقلعة بلدة حديثة العهد كانت في أول إنشائها قلعة من الطين تقيم فيها مفرزة من الجند لحفظ الأمن، ثم أخذ الناس ينزلونها حتى غدت مركز قائمقامية، ثم نقل مركز القائمقامية، منها إلى الرفاعي وأصبحت مديرية. وبين القلعة والرفاعي تنافس دائم شبيه بالتنافس الذي نراه في سوريا بين حمص وحماه أو في جبل عامل بين بنت جبيل وتبنين. وهذا التنافس يأخذ عند العوام شكلاً جدياً، وقد يؤدي إلى تحديات كثيرة، أما عند الخواص فهو

موضوع طرافة وتنادر. وكثيراً ما عاد هذا التنافس بالخير الكثير على البلدين حينما يكون تنافساً في السبق بالأعمال الحسنة والأفعال الحميدة. وكم وددت لو أنه اتخذ شكل تنافس أدبي يتولاه شعراء البلدتين وأدباؤهما فيطالعونا بألوان من الأدب المحلي جد طريفة.

الذكرى الجميلة

إنني الآن، وأنا أدوّن رحلتي، أستعيد في ذهني هاتيك الساعات القليلة والليالي القصيرة التي تمضت في الشطرة والرفاعي والقلعة، فأذكر بكل خير تلك البقاع الخصبة الجميلة وأولئك الأهلين الأباة الكرام الذين نزلنا بينهم خير المنازل وأقمنا فيهم أفضل مقام. قد أنسى كل شيء ولكنني لن أنسى الشطرة والرفاعي والقلعة، وقد يطغى الدهر فيمحو من ذهني صوراً جمّة من ماضيّ القصير الطويل ولكنه لن يمحو منه هذه الصفحة المشرقة التي خطتها ذكريات الغراف وأهليه.

تلفت حتى لم يبن من بلادكم ... دخان ولا من نارهن وقود
وإن التفات القلب من بعد طرفه ... طوال الليالي نحوكم ليزيد
ولو قال لي الغادون ما أنت مشته ... غداة جزعنا الرمل قلت أعود

في طريق الحي

خرجنا من القلعة عصراً نشق السهول السبخة البيضاء ونمر على كثير من القرى والمزارع وتطالعنا بين الحين والحين خضرة نضرة نبهج الناظر. وما رأيت في كل تجوالي في العراق طريقاً معموراً كهذا الطريق، فقد كانت الدساكر والقرى مبثوثة على ضفاف الغراف حيثما تلفتنا. وكنا نعبر بأقنية وجداول كثيرة متفرعة من النهر لتروي هذه السهول وتحيي هذه الأراضي. وكان الغراف يلمع بين حين وآخر إلى يسارنا ثم يتوارى عنا إلى أن كنا على ضفته نسايره حتى بان لنا سواد الحي، فاجتزنا بقصر البلاسم الفخم ثم لمحنا إلى يميننا قبة منفردة في السهول قيل لنا إن فيها قبر الشهيد سعيد بن جبير وإنهم في هذه النواحي يسمونه: سعيد. وسعيد بن جبير من أفذاذ شهداء المبادىء العالية ومن مثل الحياة العليا في قوة عقيدته وصلابة إيمانه وثبات رأيه، وهو أحد ضحايا ظلم الحجاج الذي أذلَّ العرب وقتل فيهم السجايا الشماء.

الحي

بعد ساعة من خروجنا من قلعة سكر كنا نقبل على الحي (حي واسط) التي تقع على ضفة الغراف اليسرى، فإذا هي روضة من الرياض بأشجارها الباسقة وخضرتها الحانئة، فعبرنا إليها جدولاً كنا بعده بين البساتين الزاهية ثم دخلنا البلدة وجلنا فيها قليلاً وقصدنا سوقها الكبير الذي يشقها من الشمال إلى الجنوب وتتفرع عنه على الجانبين الأزقة والأسواق الصغيرة. وعندما بلغنا آخره انعطفنا في سوق عرضاني أوصلنا إلى ضفة الغراف اليسرى، فأبصرنا على الضفة اليمنى أمامنا البساتين المتنوعة الأشجار التي تمتد على مسافة واسعة ولم نبصر عليها من العمران غير بيوت المزارعين والفلاحين. ثم مشينا مع مجرى النهر في طريق مطلي بالقار فرأينا القصور الفخمة والبنايات الحديثة قائمة على الشاطىء. والحي من أكبر أقضية العراق وأعمرها ولكنها قبل إتمام مشروع الغراف وقيام سدة الكوت كانت تعاني الأمرّين مع كل

بلدان الغراف لجفاف النهر ونضوب مائه من شهر آب/ أغسطس إلى نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر وكان يعز فيها ماء الشرب العذب فضلاً عما يروي غياضها الشجراء ورياضها الخضراء، فهجرها الكثيرون من أهلها وتقهقر العمران فيها وذوت معظم بساتينها حتى جاءها أخيراً ماء الغراف دفاقاً سائغاً لا ينضب ولا يجف.

في طريق الكوت

بعد جولة ساعة في الحي غادرناها نقصد بلدة الكوت، فسرنا عند الأصيل في طريق غير معبدة، تقوم على جانبيها صفوف من الأشجار وتنتشر فيها جماعات المتنزهين. ثم خرجنا إلى الفضاء الرحب نشق السهول التي لا تنتهي وكنا نتلفت إلى الحي فنراها غارقة في خضم من الأشجار والبساتين. وما زلنا في السهول الجرداء حتى مالت الشمس للمغيب، ثم صرنا نرى خضرة الأرض موارة في الحقول النضيرة ثم حالت الأرض سوداء قاتمة لنبات فيها أسود اللون، وكانت تلوح إلى يسارنا من بعيد رؤوس الأشرعة البيضاء، فنستدل بها على مجرى الغراف، إلى أن عمنا السدف وطغت الدياجير الحالكة، فما عدنا نرى إلاّ نيراناً تتألق بين الحين والحين في جانب السهول الواسعة حتى ظهرت لنا أنوار الكوت براقة في دجى الليل، ثم أخذت تتجلى كلما تقدمنا إليها حتى كنا على السد العظيم نعبره إلى الكوت فوق دجلة الدفاق وبين صفين من المصابيح الكهربائية الوهاجة، ثم انعطفنا إلى شارع واسع جميل يوازي النهر وتنيره في وسطه صفوف من الأنوار المتألقة وتقوم على جانبيه القصور الحديثة والأحياء الجديدة.

الكوت

لقد نالت الكوت شهرة عالمية خلال الحرب العامة الأولى حيث حوصر فيها العام ١٩١٥ القائد الإنكليزي الجنرال طاوزند مدة طويلة اضطر بعدها للاستسلام مع جيشه الكبير بعدما عانى فيها أشد الأهوال. وقد شهدنا في المدينة مقبرة إنكليزية تضم جثث قتلى الإنكليز والهنود ورأينا بعض القبور مؤرخاً العام ١٩١٥ وبعضها العام ١٩١٦، وهي واقعة في حديقة منسقة جميلة وقد اشتهرت الكوت أخيراً بسدها الكبير الذي أقيم على دجلة لينظم نهر الغراف، فلا يغور في الصيف، فكان فيه إحياء تلك الأراضي الشاسعة والنواحي الواسعة، وكان من أعظم مشاريع الري الحديث في العراق.

في طريق المتنبي

خرجنا من الكوت ضحى، فعبرنا السد وانعطفنا إلى ضفة دجلة نسير معاكسين لمجراه حتى بلغنا ناظم الغراف، فعبرناه وسرنا على ضفة الغراف اليمنى ثم خلفناه وراءنا وأخذنا في الرحاب الجرداء متجهين صوب بغداد وبيننا وبينها سباسب أي سباسب. فكنا نعبر الجداول ونجتاز القرى ونقطع الحقول حتى كنا أمام قصر أمير ربيعة الفخم. وكانت مشاهد الأرض تتبدل بين فترة وأخرى فبينما نكون بين الحقول اليانعة إذا نحن في أراضٍ قاحلة جافة. وقد ظلت هذه المشاهد تتوالى أمام العيون حتى كنا بعد ساعة على ضفة دجلة، فانعطفنا إلى اليسار نسير بين الأراضي الخضراء إلى أن بدت لنا أشجار النعمانية. ثم وصلناها ونزلنا نجول فيها ساعة فإذا هي بلدة جميلة الموقع طيبة المكان تقع على ضفة دجلة اليمنى،

وكانت تعرف باسم البغيلة، ثم بدّل اسمها إلى النعمانية لوقوعها قرب تل يسمى تل النعمان، يقال إنه كان مصيفاً للنعمان بن المنذر. ثم خرجنا بعد قليل من النعمانية نمشي بين أزهار البساتين الفواحة ولم نلبث أن لاح إلى يميننا تل النعمان ثم كنا في السهول التي لا تنتهي، وكانت هنا كما كانت هناك متحولة بين كل ساعة وأخرى من قاحلة إلى خضراء ومن عاطلة إلى زهراء. وفي هذه النواحي التي نقطعها اليوم مرَّ منذ أكثر من ألف عام أبو الطيب المتنبي متجهاً إلى بغداد في طريقه إلى الكوفة فلاقاه فاتك الأسدي وأراق دمه ودم ابنه ودماء غلمانه، لقصيدة هجائية كانت من فلتات أبي الطيب. فقد سار المتنبي بعد عودته من شيراز حتى نزل الأهواز ومنها سار إلى واسط ثم إلى جُبُّل حيث حلَّ على أبي نصر الجبلي ومن جبل سار حتى حاذى النعمانية ثم مرَّ بجرجرايا ومنها تقدم حتى قارب الصافية عند دير العاقول وبينه وبين بغداد ستةَ عشر فرسخاً وهناك طلع عليه فاتك بن أبي جهل الأسدي خال ضبة بن يزيد الذي هجاه المتنبي فحمل عليه حتى قتله.

المرحلة الأخيرة

بعد سير طويل طلع أمامنا دجلة دفاقاً متوثباً فسرنا على محاذاته يفصلنا عنه السد الطويل الذي أقيم على جانبيه ليحول دون طغيانه على السهول والبلدان، وكثيراً ما كسر السد وشقّ طريقه إلى الآمنين الوادعين فروّعهم وشرّدهم. وكان آخر العهد به قبل سنوات حين هاج وماج وحطم الأسداد وفاض على اليابسة فقطع الطرق وأغرق المزارع وقوّض المنازل، مما لم يعرف له مثيل منذ عهد بعيد على ما حدث العارفون. وهذا الطريق الذي نجتازه اليوم كان منقطعاً بسبب الفيضان إلى ما قبل أيام حيث جفَّ الماء وأمكن إصلاحه وعادت السيارات تقطعه بعدما كانت تضطر للذهاب عن طريق الحلة الطويل. وما زلنا نسير على محاذاة السد والنهر سيراً بعيداً مضجراً ترافقه الرياح المعتكرة حتى كنا في ناحية الزبيدية نخترق جادتها العريضة، وهي قرية تقع على دجلة ويفصلها عنه السد الطويل. وبعدما توقفنا فيها قليلاً عدنا إلى السير والنهر إلى يميننا يسايرنا فنمر على القرى والمزارع وقد بلغ منا السأم منتهاه بعد ما طال السير وبَعُدَ الوصول. وكنا ندنو أحياناً من النهر ثم نبتعد عنه ثم نرجع فندنو منه ثم نعود فنبتعد وهكذا إلى أن غربت الشمس وأقبل الليل، فكنا على مقربة من بلدة الصويرة فوقفت السيارة لخراب الطريق وترجلنا منها خشية انقلابها على جانب السد، ورحنا نمشي إلى الصويرة فبانت لنا بساتينها الصاعدة في الجو وأضوائها المنتشرة في السهل. ثم سرنا في طريق ينحشر بين النهر والبساتين حتى دخلنا البلدة وأقبلنا على موقف السيارات فعلمنا أن السير في الليل خطر لتلف الطريق من الفيضان وأن لا مناص من المبيت في الصويرة.

وقمنا قبيل الفجر إلى السيارة نعاود عليها السير إلى بغداد فاستقبلتنا مناظر الفجر والشروق بنسائمها الباردة وألوانها الزاهية، ومررنا بالبساتين الكثيفة وغابات النخيل الواسعة حتى كنا على ضفة دجلة نحاول عبوره إلى الضفة الثانية فهدرت أبواق السيارات تنبه رب (الثريمة) ليأتينا من العدوة المقابلة ويحملنا على سطح الماء. وبعد قليل كانت السيارة تهبط إلى (الثريمة) وكنا نحن ننزل إليها فتسير بنا من ضفة إلى ضفة. وهكذا بعد أن كانت السيارة حاملة صارت محمولة لأنه لم يكن هناك جسر يعبر عليه.

ومن الضفة الثانية سرنا متنحين الرستمية فكان الطريق معظمه في صحار قاحلة يتخللها بعض اخضرار وترى فيها أحياناً بيوت من الشعر وأذواد من الجمال حتى كنا على جسر ديالى نعبره لنصل بعده إلى الرستمية ضاحية بغداد الجميلة.

في منازل النعمان

ما زلت أطّرق المنازل بالنوى   حتى أتيت منازل النعمان
باق بها حظ العيون وإنما   لا حظّ فيها اليوم للآذان
وعرفت بين بيوت آل محرق   مأوى القرى ومواقد النيران
أمقاصر الغزلان غيرك البلى   حتى غدوت مرابض الغزلان

الشريف الرضي

ما أروع هذا البر المديد وما أجل ما تنطوي فيه من ذكريات توحي معاني الرجولة الحقة والعظمة الصحيحة، وتلهم مثل الحياة العليا من عقيدة راسخة وتضحية سامية وشجاعة فائقة ونكران للذات، ففي أفياء هذا النخيل الباسق وضفاف ذاك الماء الدافق، وفي مطاوي تلك السهول المترامية من فجوات كربلاء إلى ذكوات النجف وتلعات الكوفة تلوح أمجد صفحة في تاريخ الحمية والشجاعة والإباء وتبرز أكمل صورة للنبل والتضحية والوفاء.

هذه إلى يسارنا تلال (كنيدرة) تلوح لنا بعد خروجنا من النجف بقليل. ويقول الشيخ محمد علي اليعقوبي إنها محلة كندة الكوفية. ويا لله ما توحي كندة من الذكريات وها هي الآن أطلال دوارس وربوات هوامد، ولكنها تتجلى للذهن من خلال هذه الرمال بصورتها الحية الرائعة، وتبدو بفتيانها الحمس المساعير.

يا حجر بن عدي، يا زعيم الكوفة الشجاع وفتى كندة الأبي: ها نحن نمر بديارك الكندية فما نملك إلاّ تحية نرسلها من أعماق القلوب لذكراك الخالدة!

* *

إنك عندما ترى موقع كندة وترى موقع الكوفة الحالي، يتجلى لك مبلغ اتساع الكوفة القديمة وامتدادها وتتضاءل في عينيك الكوفة الحديثة. وما عرفت بلداً لا يتفق حاضره مع ماضيه في شيء كالكوفة، فقد اختط مسجدها ليسع أربعين ألف مصلّ وذلك عدة المقاتلة من أهلها وكانت تحوي أكثر من ثمانين ألف دار. وكانت يوماً عاصمة الخلافة تجيش بالناس وتزخر بالجند ويمتد عمرانها إلى أبعد الحدود. وكانت بعد ذلك مدينة العراق الكبرى، تحفل بالعلماء وتغص بالمنتديات ثم انكمشت وانكمشت حتى غدت يباباً مقفراً ثم قرية عادية. فأين الكوفة العاصمة من هذه الكوفة الناحية التي تضيق أزقتها وتقل بيوتها وتصغر رقعتها؟!!

وبعد حين لاح إلى يميننا بحر النجف بمائه البراق وكان الفرات في عنفوان فيضانه وقد طغى على الأرض وامتد فكسا السهول الرحيبة فبدت كبحر واسع لا حد له. ثم أخذت تظهر لنا أطلال قصر «الخورنق» ورحنا ندنو منه فعبرنا على بقايا نهر جاف لم يبق الدهر منه إلاّ شكله، فبرزت حافتاه مرتفعتين عن

الأرض فقال الأستاذ اليعقوبي إنه نهر «السدير» الذي كان يجري تحت الخورنق، ثم كنا أمام الخورنق نفسه، فإذا مجموعة أكمات ترابية فيها بقايا عمران متلاشٍ قد ذهبت به الأحداث، وما بقي منه هدمه الأتراك فبنوا به سراي «أبو صخير» وهكذا يفعل الجهل والحمق:

كم وقفة لك بالخور ... نق ما توازى بالمواقف
بين الغدير إلى السد ... ير إلى ديارات الأساقف
دمن كأن رياضها ... يكسين أعلام المطارف
بحرية شتواتها ... برية فيها المصائف

ها نحن على الخورنق والسدير تمتد أبصارنا فنرانا نشرف على بساتين النخيل وعلى حقول خضراء وغدران واسعة، وتمتد السهول والصحارى حوالينا إلى مدى بعيد.

ولقد هاج بنا الشعر ونحن في منازل النعمان فذكرنا النابغة الذبياني شاعر هذه القصور والسهول، ذكرنا الشاعر الفذ يمر برسوم الديار وأطلال الأحباب، فيقف ويستوقف ويبكي ويستبكي وما هزني شيء في الشعر كهذا الوقوف والاستيقاف والبكاء والاستبكاء الذي يخرج من أعماق الصدر ممتلأً العواطف الصادقة. وها نحن على أطلال الخورنق ومضارب المناذرة ندرك قيمة ذاك الشعور الحي الذي كان يثير صدور الشعراء، فيصورونه أروع تصوير:

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ... ماذا تحيون من نؤي وأحجار

فها نحن نعوج كما عاج النابغة لنحيي دمنة الدار ونتملى من بقايا الآثار فما نرى إلاّ النؤي والأحجار.

أقوى وأقفر من نعم وغيَّره ... هوج الرياح بهابي الترب موار

بلى لقد أقوى الخورنق وأقفر حتى ما نحس فيه أثراً من حياة ولا بقية من حركة، واندكت معالمه وغارت شوامخه وبقي في هذا البر الأقفر ركاماً موحشاً وخراباً بالياً. وكما وقف النابغة وقفنا وكما سأل سألنا:

وقفت فيها سراة اليوم أسألها ... عن آل نعم أموناً عبر أسفار
فاستعجمت دار نعم ما تكلّمنا ... والدار لو كلمتنا ذات أخبار

ولقد استعجمت الدار فما كلمتنا ولو كلّمت لكانت ذات أخبار، أي أخبار لحدثت عن اللخميين آل محرق وعن الأدب الغض في نواديهم والشعر الفياض في ديارهم، لحدثت عن شاعر الشباب طرفة بن العبد البكري طريد الأمراء وقتيل الملوك، ولحدثت عن المتلمس وصحيفته وعبيد بن الأبرص وقتلته وعن المنخل اليشكري النديم السعيد ثم القتيل الشريد، بل لحدثت عن الشاعر المتحمس عمرو بن هند وصوته المجلجل في آفاقها غضباً وحمية.

وإذا كان النابغة قد لاذ بالثمام ومواقد النيران فنحن ما وجدنا حتى الثمام وحتى مواقد النيران وحبذا الثمام لو وجدناه بل حبذا المواقد لو كانت:

فما وجدت بها شيئاً ألوذ به ... إلاّ الثمام وإلاّ موقد النار

* *

تركنا الخورنق وراءنا وانحدرنا في السهول، ثم رحنا ندنو من النخيل وكان الماء يلوح إلى يسارنا حتى كنا في بلدة «أبو صخير»، وهي بلدة جميلة حديثة العهد تقع على ضفة نهر يتفرع من الفرات، ثم خرجنا منها بين النخيل فقطعنا جدولا وسرنا بين ظلال النخيل الوارفة والبساتين الجميلة على الجانبين، فكنا نعبر الكثير من الجداول المتفرعة من الفرات. ومررنا بقرية «الكويت» ثم اجتزنا جسراً إلى بلدة «الجعّارة» التي أطلق عليها اليوم اسم «الحيرة» وهي تقوم على أنقاض الحيرة القديمة وتضم بقايا أطلالها الفخمة. وقد صعدنا إلى تل وسط البلد فيه خرائب قصر قال لنا الأستاذ اليعقوبي إنه «القصر الأبيض» وهو المعروف بأبيض النعمان.

أهذه هي الحيرة عاصمة المناذرة؟ وأين الآن قصورها الشوامخ ودياراتها البواذخ.

صبحنا الحيرة الروحاء خيلاً ورجلاً فوق أثباج الركاب

ليس في الحيرة الحاضرة من الآثار إلاّ التافه القليل، فقد تداولها الحدثان وغيرها الزمان ولم تحتفظ من ماضيها الضخم إلاّ بالاسم، وهي اليوم جميلة الموقع محاطة بالأشجار ويخترقها جدول «البديرية» فيروي أرضها.

بين مخالب الطوفان[1]

الخميس ١٠ ربيع الأول ١٣٦١هـ ـ ٢٧ آذار/مارس ١٩٤٢م

مرت بنا السيارة من الرستمية ضاحية بغداد الجميلة[2] طاوية الأرض كلمح البصر ومنطلقة إلى بغداد لنستعيض عن هذا السكون الشامل بالضجيج المتلاحق، ولنستبدل بهذه الدعة صخباً أي صخب! وكنا ونحن نمر بين صروح المدرسة الممردة، ومن خلال حدائقها الزاهرة يعتادنا خاطر مرعب يهز نفوسنا هزاً. أيمكن أن تنقلب هذه اليابسة بحراً طامياً وتعود هذه الأرض آتيا جارفاً؟ أيمكن أن يكون كل هذا طعمة للماء ونهباً للسيول؟ إن قلبي ليحدثني بالكارثة وإن التشاؤم ليطغى على عينيّ فما تبصران إلاّ حلكاً داجياً. ومهما حاولت أن أنير أمامهما الفضاء فإنهما لتأبيان إلاّ إمعاناً في الظلام فماذا وراء الغيب؟ هل الأمر كما قال ابن الرومي:

وللنفس حالات تظل كأنها ... تشاهد فيها كل غيب سيشهد

هذا هو الماء يعربد وراء السد الترابي المتداعي وها هو يلطمه بعنف فيذوب بين يديه شيئاً فشيئاً، وها هي الريح تعصف فينذر عصفها بأوخم الأمور. فهل يتمادى الحال فنمشي إلى شر حال وتنقلب الرستمية بين ساعة وساعة من جنة فيحاء إلى أنقاض وأشلاء؟

في المدينة: ولكننا نصل إلى بغداد بعد خمس عشرة دقيقة، فما هو أن نلج الباب الشرقي ونغيب في شارع الرشيد ويطوينا غمار الناس وتضمنا ضجة الآلات وصياح الخلق، وما هو أن نمشي إلى الأندية الحافلة والمنازل العامرة حتى تنطوي من أذهاننا كل تلك الصحائف السود فلا نلمح إلاّ أشراق بغداد وبهجتها، ولا نرى إلاّ حياتها وحركتها، وحتى يختفي كل حديث للطوفان ويغيب كل ذكر للفيضان. وأين نذكر السيول أفي هذه القهوة البرازيلية الزاخرة أم في (مقهى الرشيد) العامر أم في (السينما) الصاخبة أم في شوارع الرصافة المشرفة؟ لقد نسينا الفيضان وامحت صورته من رؤوسنا فعكفنا مع العاكفين على مباهج بغداد وفتونها في المنازل والأندية والروضات.

الساعة الحادية عشرة ليلاً: الآن نعود لنذهب إلى الرستمية فنلتقي في (سيد سلطان علي) عند موقف السيارات. وطالما وقفنا هنا في هذا المكان ليالي كثيرة فعندما نهبط المدينة تكون آخر كلمة بيننا قبل التفرق (في سيد سلطان علي عند إبراهيم) أما سيد سلطان علي فهو هذا المسجد الفخم الذي يقوم في قلب شارع الرشيد ويضمّ فريقاً من الشيوخ الذين يسكنون حجراته ويبيتون في غرفاته، وقد أصبح اسمه علماً على البقعة التي يقوم فيها، فصاحب سيارة (الباص) يصيح باسمه وسائق العربة يردد ذكره وأصحاب المواعيد يتلاقون أمامه، وأما إبراهيم فهو سيد موقف السيارات وسيارات الرستمية منها على الخصوص فهو الذي يشير إلى هذه السيارة أن تتقدم وإلى تلك أن تتأخر، وهو الذي لا يحوجنا إلى التفتيش والتنقيب، بل هو الذي طالما لبانا ونحن نهتف به من الرستمية فأرسل سياراته على عجل لتقل

النازلين إلى بغداد، وها نحن الآن نلتقي أمامه ونقف منتظرين بقية الرفاق لنؤوب إلى ضاحيتنا الجميلة. وما هو أن نقف قليلاً وتمر الرستمية في أذهاننا وتدور على ألسنتنا حتى نستيقظ من غفوتنا فتتراءى لنا الرستمية مهددة بالماء وحتى يعود التشاؤم إلى النفوس وحتى يتمثل الخطر على أشد صوره.

يا ألله، إلى أين نمضي فهذه بغداد غارقة في نعيمها الدافق لا تحس مما نحسه شيئاً، وها هي مصابيحها تتوهج مشرقة ضاحكة، وهذه مجامعها تتماوج بالطربين المرحين. وهذا شارع الرشيد يتلألأ بالمباهج الساحرة، ونحن وحدنا نشقه في سيارتنا واجمين لا يجسر أحدنا أن يكلم الآخر خشية أن يثير في نفسه لواعج القلق. وها نحن نترك المدينة وراءنا سابحة في أحلامها الذهبية وندخل (المعسكر) ثم نمضي حتى نكاد نبلغ (الإعدادية العسكرية)، فإذا نحن نحس أمامنا لجباً ونبصر حركة ونرى سيارات تغمر السهل بأنوارها تجيء وتذهب وتمور من هنا وهناك فتتجسم الكارثة أمام عيوننا حتى لنكاد نلمسها لمساً.

إلى أين تذهبون: كنا قرب السيارات فانتصب أمامنا فتيان مرتبكون يشيرون إلينا بالوقوف فنزلنا فرأينا رتلاً من سيارات الجيش يتدافع إليه العسكريون فصاح بنا أحدهم: إلى أين تذهبون؟ قلنا: إلى الرستمية، فصاح: إلى الرستمية؟ أخبركم مع الأسف أن لا طريق إلى الرستمية فالماء قد غطى الطرق والسهول وهو يندفع إلينا من ناحية الرستمية وها هو أمامكم فانظروا طلائعه. فإذا بأوائل الماء قد وصلت إلى قيد خطوات من حيث نقف وإذا جماعة الإعدادية العسكرية يكادون يغرقون وهم على أهبة النجاة بأنفسهم في سياراتهم الكبيرة.

ماذا؟ أتكون الرستمية قد غرقت واندفع منها الماء إلى المعسكر؟ أيكون رفاقنا وطلابنا قد أصبحوا طعمة الطوفان؟ أتكون تلك المعالم الجميلة قد طمست؟ يا للحسرة!

وتطلعنا في وجوه بعضنا متسائلين بالنظرات عما نصنع؟ أنعتبر وجود السيارة بين أيدينا الآن نعمة حرم منها أخواننا في الرستمية فنؤوب بها إلى بغداد ناجين؟ أم نعتبر بعدنا الآن نقمة حالت بيننا وبين مواساة الأخوان؟ أنغامر بالذهاب إلى الرستمية لنشاركها المصير الموجع أم نفوز بالإياب؟

كانت هذه الأفكار تتلاحق في أذهاننا دون أن تظهر على شفاهنا وكانت نفوسنا نهباً بين هذه الفكرة وتلك. وكنا لا نجهل أن للرستمية طريقاً آخر لعل الماء لم يدركه فيوصلنا إليها. وصحنا بالسائق أن يعود على الأعقاب ليعبر بنا الطريق الثاني، فما استطاع إلاّ الاستسلام لهؤلاء المجانين الذين يرون الطوفان فلا يفرون منه بل يقعون فيه!

في الرستمية: هي ذي أشجار الرستمية تحتوينا، وهذا نسيمها يطالعنا خضلاً كما عوّدنا وهذا هو السكون يجللها فلا أثر للكارثة! أتكون الرستمية ناجية؟ أجل إنها إلى الآن ناجية ولكن إلى أي ساعة تمتد هذه النجاة، فها هي مقفرة من سكانها الذين نفروا إلى الأسداد يحكمونها وها هي أقسامها خالية إلاّ من هؤلاء الطلاب المجهدين، الذين أووا إلى مضاجعهم يستعيدون بعض ما فقدوه من قوة ونشاط في كفاحهم المضني من المساء حتى هذه الساعات من الليل. لقد كانت الرستمية صورة زاخرة بشتى الألوان والظلال، بل كانت مجلى لشتى النوازع النفسية التي تعتور الناس في مثل هذه المواقف الشاقة. فالهلع والوجوم يشاركان الصبر والثبات في هذه النفوس المكدودة، ورباطة الجأش تقاسم الخور في هذه

الهمم القعساء! وما لهم لا يهلعون والطوفان يمشي حثيثاً إليهم ولا عاصم منه اليوم. وما لهم لا يجمون وهم يرون السبل تسدّ دون نجاتهم والماء يقطعهم عن الناس. فسيارتنا العائدة كانت آخر صلة بين الرستمية وبين العمران فالماء قد امتد حتى غمر كل تلك السهول وأحاط بالرستمية من كل ناحية، ولكن ما لهم لا يصبرون ولا يثبتون ولا يزال بينهم وبين الماء هذا السد الضعيف الذي يفصلهم عن المعسكر فإذا ما عملوا فيه وقووا بعض ضعفه فربما أخر الشر عنهم ساعات يحدث الله فيها بعد عسر يسراً. ولكن ما لهممهم لا تخور وهم يرون كل جهد ضائعاً فلا يسدون من ناحية حتى تضعف ناحية أخرى، وهم يرون الماء يلطم هذا التراب فيذيبه في مثل لمح البصر وما عساه أن يقاوم وقد انهار ما هو أشد منه وأقوى، ولكن ما لهم لا يكونون رابطي الجأش وفي صدورهم قلوب عامرة بالإيمان واثقة برحمة الله.

على الأسداد: مشينا إلى الأسداد نطالع فيها العمل المضني، فكنا نمر بجماعات الطلاب وهم بين حامل كيساً أو ناقل حصيراً وبين عامل بالمسحاة أو حافر بالفأس وقد كسا التراب أجسامهم وأنهك العمل قواهم، فكانت مناظرهم تحز في نفوسنا وتثير فيها الألم والأسف. الألم لهؤلاء الفتيان الذين قدر لهم أن يحملوا هذا الوقر الثقيل والأسف على هذا الجهد الذي لا نراه إلاّ ضائعاً!

أيها الليل الذي يقطعك النائمون بأشهى الأحلام والساهرون بأعذب الأنغام، ها هنا فتيان يقطعونك بأمض الأعمال وأعظم الأثقال!

في الثالثة بعد نصف الليل: لقد بلغ الإعياء مني منتهاه فلم أعد أطيق الوقوف على قدمي وبالرغم من الخطر المساور لي، يحول بين النفس وبين القرار فقد اندفعت إلى غرفتي وصعدت سلالمها متحاملاً على نفسي مفكراً بما يمكن أن يحمله لنا الليل من كوارث وما يحتمل أن ينجلي عنه الصباح من بلايا. وعندما وصلت إلى فراشي ارتميت عليه بكل ملابسي وحتى حذائي لم أنزعه إذ لم أكن أدري متى أفاجأ بالصرخة فأهب مسرعاً. فأغفيت قليلاً وكنت بين الفينة والفينة أستيقظ على صياح يتعالى من هنا وضجيج يرتفع من هناك، فأنصت قليلاً ثم يغلبني النوم حتى الصباح الباكر فإذا برنين الأجراس يدوي من كل ناحية فقفزت إلى باب الغرفة ونزلت إلى الساحة الكبرى فإذا بجموع الطلاب محتشدة بنظامها المعهود ومدير الدار واقف بينهم ينتظر اكتمال عددهم ليكلمهم فتفرست في الوجوه علّي أفهم منها عما وصلنا إليه وعما آل إليه أمر الماء فرأيت وجوماً شاملاً لم أجرؤ معه أن أسأل أحداً ووقفت أستمع إلى المدير يخطب الطلاب.

لقد كان يتكلم بنبرات مؤثرة تنفذ إلى الصميم وراح ينفخ في طلابه نشاطاً وهمة ويبين لهم الخطر المقبل ولكن عليهم أن يعملوا حتى آخر نفس فلا يجوز الاستسلام للموت دون مغالبة ومصاولة وقال لهم: إن خير ما نعمله هو أن نشرع في بناء سدة حول بنايات الدار حتى إذا جاء الماء استطاعت أن تعيقه بعض الوقت.

الساعة التاسعة صباحاً: العمل بالسدة الجديدة مستمر ونحن نشرف على الطلاب ونحرضهم ونقاسمهم مشقاتهم، وقد كان لا يزال بيننا وبين الماء السدة التي تفصلنا عن المعسكر وفي مقاومتها للماء نجاتنا وفي انهدامها غرقنا. وكان فريق منا يقف عليها مستطلعاً مترقباً وفي هذه الساعة أخذت أنباء

الشؤم تتوالى فهذا قادم يحدث بأنه رأى السدة تذوب دقيقة عد دقيقة، وذاك آخر يهمس بأنه ترك الماء على وشك الاندفاع إلينا. بل هؤلاء طلاب يهرولون صائحين لقد كسرت السدة ومشى منها الماء مندفعاً بأقصى قوته.

إذن فقد وقعت الواقعة وزال آخر حصن يحمينا من الماء، ولم يبق إلاّ هذا الخط الضعيف الذي أنشأناه منذ ساعات وما عسى أن يقف في وجه هذه القوة الزاخرة.

لقد انقطعنا عن العالم وكان لا يزال يربطنا به خط تلفوني. وهذا هو الماء يعطله الساعة فتزول كل صلة لنا بالخارج ونصبح في جزيرة يمشي إليها الماء حثيثاً. وخطر لي مع أحد الأصدقاء أن نمشي على السد المتهدم لنرى مقدار اندفاع الماء فمشينا حتى وصلنا إلى الثغرة الأولى التي اندفع منها الماء فأغرق المعسكر فإذا دوي الماء يصم الآذان وإذا على العدوة الثانية سيارات أقلت بعض القادمين من بغداد فوقفنا نتطلع إليها: ها هي لا يفصلنا عنها إلاّ أمتار وأمتار ولكن في هذه الأمتار القريبة أبعاد سحيقة تنأى بنا عن السلامة والنجاة. ثم عدنا على الأعقاب بقلوب دامية ونفوس مكلومة.

في ساعات اليأس: تساءل بعضنا هل من طعام نتبلغ به إذا طال الأمر علينا فقيل لنا إن لدينا من الخبز ما يمكن أن يكفي ثلاثة أيام ثم دعينا إلى الغداء فأكلنا ما وجدناه وكنت قد أصبحت في جسم متهدم لا يقوى على الحركة، فقصدت غرفتي واستلقيت على فراشي ممعناً في التفكير الطويل، متسائلاً في نفسي هل ننجو مما نكابده وهل يكتبه لنا الخلاص مما نحن فيه أم نذهب طعمة الماء، وتلفّت من شباكي العالي وأبصرت الماء محدقاً بنا من كل ناحية وهو يمشي إلينا وئيداً فضاقت الدنيا في عيني وحبست في صدري آهات وزفرات، وتذكرت أهلي وأخواني وأصدقائي وكيف سيتلقون نبأ هذه الكارثة فملك الأسى عليَّ نفسي وهمت في بحران من الحزن العميق.

لقد آض كل شيء ماء دفاقاً يتواثب لالتهامنا ويعدو لابتلاعنا فواحسرتاه! واحسرتاه على أنفسنا وواحسرتاه على أولئك البعيدين يوم يقال لهم إن الماء أطبق علينا!

هذا قادم يخبرنا بأن ماء الشرب قد انقطع عنا، إذ كان يأتي من المعسكر والفيضان عطّل آلات المعسكر فليس أمامنا إلاّ هذا الماء الطيني الكدر الموبوء، أعطشاً وغرقا؟!

يأس ويأس: غلبني الإجهاد فهومت تهويماً أفقت بعده مسترداً بعض راحتي ونشاطي، وكان التساؤل يتعالى من كل مكان عن سير الماء فيكون الجواب أنه ماشٍ إلينا دانٍ منا ونظرت من شباكي فإذا الماء متقدم وقد غمر الأشجار حتى ما يبين منها إلاّ رؤوسها، ولكني على كل حال شعرت بأنه أبطأ مما كنا نحسب. فبينما غمر المعسكر من أقصاه إلى أقصاه ببرهات، إذا به تمر عليه ساعات ولم يغمر الرستمية كلها وكنت أقدر أني لن أستيقظ إلاّ والماء يحيط بالبناية ويجرف ما حولها. وجاء العصر ونحن نجول حول البنايات ونمشي بين الأشجار، وقد علت وجوه الجميع كآبة خرساء تعرب عما يجول في النفوس من قنوط أي قنوط، ولكن هذه الكآبة الشاملة وذاك الوجوم المستحوذ لم يلبثا أن عادا بسمات على الوجوه وفكاهات في الأحاديث. إذ إن اليأس كان قد بلغ غايته وأصبحنا لا نرى لنا منجى ولا خلاصاً، فاستسلمنا للقضاء وسلمنا أمرنا لله ورحنا نتجاهل كل ما نحن فيه من أهوال وكل ما نحن مقدمون

عليه من روع. ورأينا أن نستقبل النازلة باسمين إذ أي شيء في الحزن والكمود، وماذا يجدي التجهم والعبوس فهذا واحد بين أخوانه منشداً قصيدة مالك بن الريب التي يرثي نفسه بها ويردد بين أخوانه:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه ... وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد ... سوى السيف والرمح الرديني باكيا

فينبري له آخر ويقول علينا أن نعارضها ونرثي نفوسنا بمثلها ولن يكون مالك أصبر على لقاء الموت منا فأهتف أنا:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... ببغداد أستجلي اللحاظ الروانيا
فليت طريق النهر لم تجر فوقه ... مياه تريك الموت أحمر قانيا
تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد ... سوى الكتب والأقلام حولي بواكيا

ولكن هذه التسرية عن النفس لا تلبث أن تتلاشى حين ننظر فنرى الماء متقدماً ومتقدماً فنعود إلى الوجوم والسكوت.

حوالي الغروب: الشمس تميل الآن إلى المغيب ونحن نمشي على بقايا هذه السدة المتهدمة والماء عن يميننا وشمالنا ونحن نعلوه في هذه الأنشاز الترابية حتى بلغنا ساحل المعسكر، فإذا الماء لا يزال في تهداره، وإذا المعسكر قد عاد بحيرة صخابة الأمواج ترتفع خلالها رؤوس البنايات الشامخة وسقوف (التوتيا) كبوارج ماخرة، وإذا أصوات الانهدام تتوالى بين الفينة والفينة فتذوب في الماء البناية تلو البناية. وكانت الشمس قد طفلت للإياب فكست الأفق غلائل أرجوانية انعكست حمرتها فوق الماء فبدا الموقف على أشد ما تكون الروعة والرهبة، وأرسلنا بأبصارنا إلى الغرب متطلعين إلى بغداد وقد حالت بيننا وبينها هذه الغوارب المزبدة فجعلتنا في دنيا غير دنياها، ويا ليت شعري أتعلم بغداد عنا شيئاً وتعرف أي موقف نقفه، وإذا كانت تعلم وتعرف فهل من سبيل لها لإنجادنا أم إننا سنظل في هذا المنقطع إلى أن يحم القضاء!

هذا هو الماء قد اجتاح كل شيء ووصل إلى سدتنا الجديدة فارتطم بها فحالت دون تسربه إلى البنايات وها نحن نعود فنعمل مع العاملين على تقويتها وإعدادها للكفاح الطويل، فكلما علا الماء من صوب أسرعنا إليه بالأكياس المملوءة فصددناه بها، وبقينا نغالبه ويغالبنا حتى جاء الليل ونحن في خطوطنا لم نتراجع عنها. ولقد عرفنا الآن سر ترفقه بالسير فإن من رحمة الله بنا أن الكسرة الأخيرة جاءت في جنوب المعسكر فكان الماء يندفع منها ضارباً في السهول الفيح غامراً البراري الواسعة حتى إذا ملأها عاد إلينا وقدكسرت حدته وتلاشت قوته وهكذا غرقت الزعفرانية الواقعة في أقصى الجنوب قبلنا ولو أن الكسرة جاءت من الشرق لغرقنا في أقل من ساعة، ومهما يكن من أمر فإن الماء عاد فقابلنا وجهاً لوجه ولم تعد أمامه سهول تحجزه عنا وها نحن ندافعه بالأيدي دقيقة فدقيقة، فنرفع من سدتنا ونخص بالعمل الشديد الأماكن التي خصّها بقوته وشدته، وقد كان وصول الماء إلى هذه السدة معناه وصوله إلى أبواب

البنايات، ومعناه أن بيننا وبين أن نغرق خطوات وخطوات فشدد ذلك من عزمنا وأثارت هذه الحقيقة من همتنا.

في الليل: أتانا الليل فكنا منقسمين على طول سدتنا نعمل على تقويتها من جميع الجهات، وقد عرفنا الآن فائدتها العظيمة، وأيقنا بأن جهودنا فيها لم تذهب سدى فلولاها لاقتحمنا الماء وتغلغل في بناياتنا. وكانت قوة الماء قد انصبت على طرف السدة الشمالي فعززنا حماته وأمددناهم بكل ما نستطيع وأطل القمر فأنار ليلنا، وكانت «هوسات» الطلاب تتعالى في سكون الليل من أقصى الرستمية إلى أقصاها، فتهز النفس هزاً. وأطللنا على المعسكر أمامنا فإذا هو موحش كامد يسوده الظلام ويغمره السكون، وقد كان إلى ليلة خلت متألق الأنوار جياش المجامع. وكنا بين حين وحين نستطلع أخبار الطرف الشمالي فنخبر عن مغالبة الماء فيه، ونحدث عن ارتفاع الماء حتى ليكاد يخترقه ولكن حراسه لا ينون في دفعه ورفع السدة فيردونه وقد كانت المحاولة شاقة إلى أبعد حدود المشقة، منهكة إلى أقصى درجات الإنهاك ولكن التفكير في الشر المنتظر من وراء انتصار الماء كان يحفز على مواصلة الكفاح إلى النهاية...

هذا ليل الربيع الشائق تعبق مروجه بأعراف العشب وأنفاس الزهر ويتألق قمره في السماء وهاج الطلعة براق الجبين... بل هذا هو الليل الذي كنا ننشده ونحلم به فأين نحن الآن عن جماله وروعته، وأين نحن عن التمتع بصفائه وإشراقه؟

لقد كنا في شاغل عن كل شيء فلا الليلة الأضحيانة ولا الربيع الطلق كان يثير في النفس ما اعتاد أن يثير! بلى لقد أثار هواجسها، وهاج كوامنها فذكرت تلك الليالي الربيعية الساحرة في ذروات الجبال ورحبات السهول!

أيها الماضي لا تثر في نفسي ودعني أنتظر المستقبل المظلم بهدوء! أيتها الذكريات لا تنبضي في قلبي ودعيني ألاقي المصير الموجع بثبات، أيتها الأماني لا تستيقظي في صدري ودعيني أقنع من الحياة بالنجاة، يا نعمة النسيان حلي في نفسي وامحي فيها الماضي والذكريات والأماني!

الساعة الحادية عشرة ليلاً: انتهت نوبتي في المراقبة وصرفت الطلاب العاملين ليحل محلنا غيرنا، وكنا قد تلاشينا كل التلاشي إذ إن السهر المتواصل والعمل الدائب قد فتكا في الأجسام. ومهما كان الإنسان جلداً قوياً فإن لجلده وقوته حداً تقفان عنده، وهذه المجموعة من الشبان قد نفدت قوتها وانتهى جلدها وهي ستعجز ولا شك عن أن تعمل في غدها ما عملته في يومها وأمسها. وقصدت إلى غرفتي وأطللت من شباكي أستقبل نسيم الربيع الخضل، وكان الضجيج يرتفع من كل مكان فإن الذين جاؤوا مكاننا كانوا لا يزالون على مرحهم واندفاعهم فكانوا يهزجون ويتنادون ويحمس بعضهم بعضاً، وقد فوجئت وأنا أصغي إليهم بصوت ناي رقيق يتعالى في جوف الليل من نفخ طالب طروب لم تصرفه الصوارف عن النفخ في نايه، فأمالني الصوت إليه ونسيت وجودي وعلقت أذناي به حتى غلبني الكرى فما أفقت إلاّ قبيل الشروق.

بعد اليقظة: أطللت من شباكي فإذا الماء قد شغل أوسع المساحات وامتد على طول السدة فهرولت مسرعاً لأخذ مكاني في المراقبة، فإذا الطلاب يتصايحون: العطش! العطش! فقد كظهم الظمأ ولا ماء

يشربون إلاّ السيل وهو مما تعافه النفس وتمجه. ولحسن الحظ فإن الخادم كان قد ملأ (القلة) والمغسلة ماء نقياً في النهار الذي فاض الماء في ليلته، وكانتا على امتلائهما فكنت بين الحين والحين أبل أوامي بقطرات منها وكان هذا القدر القليل من الماء الصافي يبدو في عيني كنزاً ثميناً لا أفرط بشيء منه، بل كنت أحرص عليه حرصي على أغلى شيء أملكه. وكان بعض الإخوان قد نالهم ما نالني فكنا موضع الغبطة من جميع الرفاق، وكان أنفس ما نقدمه للزائر هو جرعة في قعر الكأس من مائنا الزلال!

خبر شر: دأبنا على تقوية السدة ـ حصننا الأخير ـ وكنا بين وقت وآخر نسمع بأنها ثقبت فنسرع إليها ونردمها، والآن يجيئنا خبر سوء بأن السدة القديمة الشمالية التي تفصلنا عن ماء الفيضان الأصلي قد ثقبت فإذا صح الخبر فقد دهمنا وذهبت جهودنا عبثاً. وكنا كمن يأتيه العدو من خلفه فلا تفيده خطوطه الأمامية شيئاً ولكن تبين أخيراً أن الخبر مبالغ فيه وأن الأمر أيسر مما حسبنا.

خبر خير: يحدث القادمون من «ديالى» بأنه آخذ بالانخفاض وأن الأمواه الفائضة تكاد تعود إليه، فإذا كان ذلك حقيقياً فإنا على أبواب النجاة وليس على الله بكثير أن ينقذنا في آخر دقيقة، وها هي الأنباء تتوالى بالانخفاض فذهبنا إلى النهر فلم نستطع التأكد من انخفاضه لأن الماء كان يبدو راكداً، والريح قوية فلا ندري هل كان ركود الماء لمقاومة الريح له للجري أم لانخفاض النهر.

المياه تعود إلى مجاريها: هذا هو الأصيل يطالعنا ونحن وقوف على حافة النهر لا نكاد نصدق أبصارنا فإن الماء يعود إلى (ديالى) بطيئاً متثاقلاً. ومهما كان من بطئه فيكفي أنه يعود إلى مجراه الأول.

انفرج الكرب: لقد انفرج الكرب فالماء يسرع في الجري إلى النهر والنهر ينخفض أمامه، وقد أعلنونا أن الخطر قد زال وأن لا عمل هذا الليل على الأسداد وأننا سننام ملء جفوننا في الساعة التي نريدها. ولم يكد الليل يظللنا حتى أسرعنا إلى الأسرّة هانئين نفكر فيما كنا فيه وفيما صرنا إليه ونقايس بين حالنا في الليلة الفائتة وحالنا الليلة. وفي الصباح كان الماء يهوي إلى النهر هوياً ويدوي في رجوعه دوياً وكنا نقف عليه هازجين طربين.

عطشان وقلبي محروق(**)

خرجت على عادتي في كل مساء أسير على شاطىء الحلة مستافاً نوافح النخل وعوابق العشب، وشد ما راقني هذا التجوال في أمسياتي الغابرة فقد كان وحده مصدر انشراحي ومبعث نشاطي فأرى، في هذا الماء صورة «بردى» وفي هذه الأشجار صورة (الدواوير) و(وادي الملول)[3]، فأنتقل إلى غياض الغوطة ورياض جبل عامل في ساعة من ساعات الأحلام تعاودني في كل مساء على ضفة فرات الحلة الجميل.

وإذا لم يكن لي أن أجتلي الصفصاف والحور في الدواسة والربوة، ولا الملول والسنديان في «وادي السلوقي» و(قدام مشعرون) فلا أقل من أن أجتلي هذا الدوح الفارد على ضفاف الفرات. ولا عليَّ من حرج إذا ما سحرني هذا الجمال، فتمتعت به صباح مساء، ما دام الحنين يعاودني والشوق يهزني فما أنسى اغتباقات الكروم واصطباحات الحقول، وما دام هذا الجمال الشائق لا يغريني إلاّ لأنه يمثل في عيني بعض ما كنت ألتذه وأحبه في تلك المحاني والأجزاع من عشب خضل وزهر نضر وأيك دائح.

ها أنذا على الضفة الرائقة يسبح طرفي في هذا الجو العابق بضروب الأفاوية وصنوف الأعراف، وتهب عليَّ فيه من بين النخيل ريا رخاء فما أمسك نفسي عن الاستزادة من هذه الطبيعة التي وهبت هذه الرحاب الفيحاء الكثير من فتونها وجلالها فكانت رائعة جد رائعة. وها أنذا أصل إلى الجسر الجديد فيطول السير وأحس النصب يدب في قدمي فأرجع إلى نفسي كمن أفاق من تهويم، فإن ورائي أصحاباً أعزاء ينتظرون في «النادي» هذا النادي الذي يجمع بين مشتركيه في حلقات طلقة فيرفهوا عن نفوسهم بعض ما تشكوه من وحشة الانفراد والعزلة، في بلد ليس فيه من وسائل التسلية البريئة إلاّ هذا النادي.

وأقفل راجعاً إلى الوراء متطلعاً إلى القمر الجميل وقد أخذ يشق نهجه في كبد السماء، ويضفي نوره على الدروب الشجيرة فيكسوها غلائل حلوة تعيد إلى الذهن ليالي «حريبة والمطل وشواثة»[٤]. وإذا ما جمعت هذه الليلة الأضخيانة كل ما تجمعه ليالي الطبيعة من رونق وبهاء ففيها الليل الساجي والماء الجاري والروض الزاهي. وفيها القمر الوضاء والسماء الصافية، والنجوم الزاهرة ـ إذا ما جمعت هذه الليلة وكل ليالي القمر خير ما يروق العين فإنها لا تنفذ إلى القلب إلاّ بمقدار ما تهيج فيه من ذكريات، وتثير من أشجان، وإلاّ فما لأنفاسي الصعداء وما لي أسير واجماً كأني لست الطروب لجمال الطبيعة والمتهلل لإشراق القمر، وكأني لست الذي يشدو للنجوم ويغني للأشجار ويساجل الأطيار!

وما أفقت إلاّ وأنا على باب النادي أتطلع إلى أنواره المشعة وأستمع إلى ضجيج المذياع، دخلت على الأصحاب الكرام كأنما أنا عائد من توديع أخ غال وحبيب عزيز، وصاح الأصحاب متطلعين: أديروا الراديو إلى بيروت.

وماذا في راديو بيروت مما يعرف هؤلاء الأصحاب أنه يطربني؟ وما أدراهم بما في النفس من لواعج ليعلموا ماذا يذهب بها؟ لقد رأوني لا أحب أن أستمع الراديو إلاّ ساعة يحمل إلى الأذن نغم ربابة يعزف عليها بدوي أو صوت ناي ينفخ فيه قروي. لقدعرفوا ذلك فها هو الراديو يدار إلى بيروت لعل فيها الساعة تلك الألحان العربية التي تملك المشاعر.

بيروت! لقد طغى الوجد على القلب هذه العشية وثارت اللواعج في النفس هذا المساء، فتطلعت إليك بنفس منقبضة وقلب شج فهل عند شاطئك اللازوردي نسمة عطرة يرسلها على غارب الجو حاملة أدواء الفؤاد؟!

بيروت! إنني أصغي إليك بكل جارحة وأطل نحوك بكل حاسة، فماذا عند مذيعك الساعة؟

لقد فاجأتنا بيروت مفاجأة سأظل أذكرها، فها هنا على العدواء الشاحطة ومن وراء صحراء الشام ومن دون بيد دونها بيد، ها هنا في الحلة يهتف الهاتف بنا: أصغوا فها هو علي الحاج يغنيكم!

علي الحاج: ابن جبل عامل يسوقه القدر ليواسي ـ على نأي الدار وبعد المزار ـ عاملياً مثله لا صوت كالصوت العاملي يعجبه ولا شدو كالشدو القروي يطربه!

علي الحاج: من وراء البوادي يستجيب ندائي فيقف على الذروات الشم مطلقاً في الجو حنجرته لتصل أنغامها إلى سمع النازح النائي علّ فيها عزاء في اللزبة اللأواء، فهل كنت تدري يا علي الحاج وأنت تصرخ من أعماق قلبك على شاطىء البحر أن وراء هذا الأفق البعيد إنساناً كان يحييك من أعماق قلبه

على شاطىء النهر، وهل كنت تدري وأنت تتلو أنشودتك الخالدة في بيروت إني كنت في الحلة منكباً على الراديو يكاد قلبي يقفز من صدري؟

لقد وقف علي الحاج ينشد، ورحت أصغي إليه لأرى أي شيء يسمعنا الساعة، وماذا عنده من أغاريد وأناشيد تخلق بهذه الجلسة الواجمة. لقد كان موفقاً جد موفق ساعة هب ينشد:

عطشان وقلبي محروق اسقيني من بريقك ميا

أجل! عطشان وقلبي محروق! ولكن ليس لي من أناديه اسقيني من إبريقك ميا.

وداع العراق

منذ أربع سنوات عندما تناءت عن عيني مشاهد الشام وغابت معالم السهول والجبال واحتوتني الصحراء بوحشتها تلفتّ إلى الوراء منشداً:

فقلت لقلبي حين خف به الهوى وكاد من الوجد الممض يطير
فهذا ولما تمض للبين ليلة فكيف إذا مرت عليك شهور
وأصبح أعلام الأحبة دونها من الأرض غول نازح ومسير

ورحت أمعن في القفر الأجرد واجماً مكروباً، وطفقت أمشي في البيد ساهماً مطرقاً، أفكر فيما أنا مقدم عليه من عمل جديد ونأي مديد حتى طلعت (الرطبة) بأضوائها المتلألئة فكانت ابتسامة الصحراء القطوب وضحكة الأمل الخابي، بل كانت بادرة الخير في هذا السفر المضني. وقد أشرقت نفسي لإشراق الرطبة فحسبته إشراق الراحة بعد العناء والنور بعد الظلام، ولم أدر أنه إشراق عهد من أعذب عهود حياتي، وتألق زمن من أحلى زمان عيشي، حتى بدت نخلات الرمادي وتلألأت صفحة الفرات وأطل سواد الفلوجة ولمعت مآذن الكاظمية وظهرت معاهد بغداد وماجت غوارب دجلة وزخر شارع الرشيد، فكانت حياتي العراقية التي ينطوي الزمن ولا تنطوي من ذهني وتنمحي الأيام ولا تنمحي من خاطري ويتلاشى العيش ولا تتلاشى من ضميري!

أربعة أعوام في العراق نزلت فيها بغداد والحلة، وجبت فيها كربلاء والنجف والكوفة وعفك والديوانية والناصرية، ورحلت إلى البصرة وأبي الخصيب والقرنة والفاو، وشاهدت الرافدين من ملتقاهما حتى مصبهما، وتنقلت في الغراف وحواضره ونزلت بعقوبة وكركوك وأربيل والسليمانية والموصل، بل تغلغلت في صميم الأرياف والقرى فبت في العنبكية ووصلت إلى شفاثة والأخيضر.

أربعة أعوام في العراق توالت عليّ فكانت أزهر صفحة في دهري وأنضر صورة في ذهني وأجمل مشهد في نفسي. وعندما آذنت هذه السنون بالزوال ومالت إلى الانطواء، وعندما ختمت حياتي العراقية ومشيت أعاود قطع الصحراء آيباً كما عاودته ذاهباً ـ إذا بي، وقد تناءت عن عيني مشاهد العراق وغابت معالم السهول والجبال واحتوتني الصحراء بوحشتها، أتلفت إلى الوراء منشداً:

تلفت حتى لم يبن من بلادكم دخان ولا من نارهن وقود
ولو قال لي الغادون ما أنت مشتهٍ غداة جزعنا الرمل قلت أعود

أتطلب يا قلبي العراق من الحمى ليهنك من مرمى عليك بعيد
ترى اليوم في بغداد أندية الهوى لها مبدىء من بعدنا ومعيد

وإذا بي بعد أربع سنين عند تركي الرمادي وتخليفي ورائي سواد الفرات، أقف الموقف الأليم نفسه الذي وقفته عند تركي (ضمير) وتخليفي ورائي خضرة الغوطة، وإذا بالحنين الذي ملك عليَّ نفسي وأنا أفري الصحراء قاصداً العراق يملك عليَّ نفسي وأنا أفري الصحراء عائداً من العراق، وإذا بالشوق الذي أضناني وأنا أهجر الشام وأؤم العراق يضنيني وأنا أهجر العراق وأؤم الشام. وإذا بي لا أكاد أدري أين هو ترابي أفي قمم قاسيون وذروات لبنان وسهول الغوطة أم هو في قمم (حمرين) وسهول الرافدين وإذا بي لا أكاد أعلم أين هم أهلي وصحبي، أعلى ضفاف الليطاني وبردى والحجير؟ أم على ضفاف الفراتين وديالى والغراف؟ فإذا ما حن الناس إلى أرضهم وأهلهم حننت إلى أرضين وأهلين، وإذا ما اشتاقوا بلادهم وقومهم اشتقت بلادين وقومين.

لقد غابت بغداد عن عيني ولكن بغداد لا تغيب عن نفسي، فلا أزال أرى دجلة متدفقاً بين الرياض ولا أزال أبصر نخيلها متمايلاً مع النسائم والأرواح، ولا تزال صورها الحلوة تتعاقب في خاطري غضة طرية الألوان.

ولقد انطوى العراق عن ناظري ولكن العراق لا ينطوي من ذهني، فلا أزال أشاهده ناضر الصفحة زاهر الجبين، ولا أزال أتطلع إلى الرافدين يشقان أديمه الأخضر، ولا أزال أطل على ضفافهما الكاسية العامرة فأرى الدوح الفارد والأيك الدائح وأنظر جموع الفتيان وصفوف الشيوخ والكهول.

لقد بعُدَ العراق عن بصري ولكن العراق لن يبعد عن قلبي.

الهوامش:

(*) الترحال العراقي جرى بعضه ما بين سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٤٢ والبعض الآخر ما بين سنة ١٩٤٥ و١٩٤٩

(١) ليس هذا من باب (الترحال)، ولكنه من الذكريات العراقية وفيه تتمثل حالة من حالات الفيضان الذي طالما دهم العراق، أما اليوم فقد أنهت السدود مخاطر الفيضان. ويربط هذا الحديث بالترحال أنه ذكرى.

(٢) كانت تقوم في الرستمية: دار المعلمين.

(**) من ذكريات مدينة الحلة في العراق.

(٣) متنزهان في دمشق.

(٤) مكانان في جبل عامل فيهما غابات وأحراج.

الفصل الثاني

إلى الباكستان[1]

في مطار كراتشي

اللطف والإيناس هما اللذان يطالعانك في أول خطوة تخطوها في مطار كراتشي، ثم يمضيان معك أمام رجل الجمرك الذي يكتفي بإلقاء نظرة على ظاهر حقيبتك ثم يسمها بالبياض، وأمام رجل الجوازات الذي لا يشعرك بالغربة والوحشة، وأمام كل من تلقاه في مطار كراتشي من رسميين وغير رسميين.

وتتطلع عيناك في رحاب المطار فترى لغة (الأوردو) الباكستانية بحروفها العربية تتناثر في الجدران وعلى الأبواب. ولغة الأوردو هذه حفلت لا بالحرف العربي وحده، بل بالكلمات العربية الأصيلة، فعلى باب ترى مكتوباً «صحة عامة» وعلى باب آخر «مسافرون» وعلى آخر «توطن»، كما عبر في إحدى اللوحات عن السيدات بالخواتين.

وفي مكاتب المطار فتيات موظفات شأنهن شأن الموظفين فيه، ويتميزن عن غيرهن من الموظفات في البلاد الأخرى بالذوائب السود المجدولة المتدلية على ظهورهن، كما كانت هذه الذوائب تتدلى من شعور كثير ممن رأينا من فتيات سافرات.

وإذا كان توظيف الفتيات في مكاتب المطار ذا دلالة خاصة، فإن هذا ليس المظهر الوحيد للمرأة الباكستانية ففي المطار نفسه، إلى جنب السافرات كانت بعض المودعات أو المسافرات، يتجلببن بما يشبه الملاية ببرقعها المرخي على الوجه ويفترقن عن لابسات الملاية بالسراويل البيضاء المسترسلة تحت الملاية إلى القدمين.

صلاة الجمعة في كراتشي

شهدت صلاة الجمعة في مسجد كبير فرأيت شعباً مؤمناً إيماناً صافياً يقبل على الصلاة بشيوخه وشبانه وفتيانه وصبيانه، فيزدحم بهم المسجد وتضيق بهم أرجاؤه وفسحاته، ورأيت في هذا المسجد شيئاً طريفاً هو نوع من التجديد المحمود. فالعادة أن الناس إذا دخلوا المساجد نزعوا أحذيتهم ويختلف الأمر بعد



بين المستقبلين في مطار كراتشي

ذلك في بلد عن البلد الآخر، ففي مساجد العتبات المقدسة في العراق لا يحمل الناس الأحذية بالأيدي، بل يتولى حفظها لهم موظفون صار لهم من المران والحذق بحيث لا يخطئون صاحب الحذاء لدى خروجه مهما كثر الداخلون والخارجون. وعلى الخارج أن يدفع لهم ما تسمح به نفسه.

أما هنا في هذا المسجد في كراتشي فإن الأمر مختلف عن كلا الأمرين فلا يحمل الداخلون أحذيتهم بأيديهم ويدخلون بها المسجد، وإنما يودعونها عند الباب، ولكن بلا أجر يدفعونه بل إن شباناً تطوعوا بأن يتولوا حفظها، وأعدوا أرقاماً يناولون واحداً منها لكل داخل، حتى إذا خرج أعطاهم الرقم فأعطوه الحذاء، كما يفعل الداخلون إلى الملاهي في أوروبا حين يودعون معاطفهم ثم يعودون فيسترجعونها، مع فارق واحد هو أنهم في أوروبا يدفعون وهنا لا يدفعون!

هذا ما شهدته في هذا المسجد، ولا أدري إن كانت القاعدة متبعة في غيره أم لا.

وأكثر الناس هنا يعملون بمنطوق الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾ فما هو أن يدنو الظهر حتى تغلق المتاجر لا سيما القريبة من المساجد ويذهب الناس لتأدية الصلاة.

أسواق طريفة

يربط شارع البندر بشاعر روبسن في كراتشي أسواق من أطرف ما يشاهد السائح في بلد من البلاد!

فعلى طول شارع روبسن، ومن الضفة المواجهة لشارع البندر تتفرع هذه الأسواق منطلقة إلى الشارع مستقيمة تارة دون تشعبات، ومتشعبة تارة بانفراجات تختلف سعة وتتباين طولاً!

وهذه الأسواق من شرطها الضيق حتى لا تكاد تتسع لأكثر من اثنين، وهي بهذا الضيق تمتد طويلة من ضفة الشارع الأول إلى ضفة الشارع الآخر!

ومن شرطها أن أرض حوانيتها مصاطب، ترتفع عن أرض الشارع بعض ارتفاع فيجلس عليها أصحابها متربعين أو «مقرفصين» بلا مقاعد ولا مساند، مما تجد له شبيهاً في بعض الأسواق العراقية في بغداد وغيرها!

أما العملاء فلا يتكلفون الوقوف على أقدامهم، بل إن لهم كراسي مرصوصة رصاً على باب الحانوت فتراهم جلوساً عليها يناقشون ويطيلون التناقش!

وإذا عرفت أن عملاء هذه الأسواق هم النساء، لم تعجب إذا رأيت حرص التجار على إعداد المقاعد لهن. فإلى أن يقر قرار السيدة على البضاعة المختارة وإلى أن توافق على الثمن، فإن وقتاً طويلاً سينقضي مما تكل معه الأقدام الواقفة، فلا بد من كراسٍ على طول السوق الطويل مما يزيده ضيقاً على ضيق!

والنساء المشتريات هن صنوف شتى تتمثل في مظاهرها ما تعبر به مخابرها من ميول، فمن لابسة البردة الفضفاضة البيضاء التي تجلل المرأة من رأسها إلى قدميها عدا فتحتين مشبكتين عند العينين، إلى لابسة ما يشبه العباءة العراقية، إلى لابسة الساري، إلى غير ذلك مما تتباين فيه أزياء السيدات في هذا العصر!

والبضائع في هذه الأسواق كلها بضائع نسائية، فمن نسيج براق الألوان مقصب الأديم يتألق تحت المصابيح وهاجاً متلألئاً بأشكال تخلب البصر، حتى كأن السوق قد استحال إلى زينة وضاءة بما رصف

على الجدران أو علق على الحبال من ضروب النسيج الزاهي اللامع، إلى أحذية إلى عطور إلى دماج إلى بخانق، إلى كل ما يمكن أن تفكر حواء في اقتنائه، وما أكثر ما تفكر في اقتنائه!

وأغلب ما تعمر هذه الأسواق في الليل، فإذا دنا الغسق ودجا الظلام وهجعت الأسواق وقرت الشوارع، عند ذلك يدب الضجيج في هذه الأسواق ويسطع النور سطوعاً عجيباً من المصابيح القوية المتدلية من السقف. المصابيح التي يكثر عددها حتى يبلغ العشرة في الحانوت الواحد فيتألق الحانوت تألقاً تعكسه نضارة الأنسجة فيبدو كل شيء مضيئاً مشرقاً!

وها نحن في مطلع الليل، نعبر سوق جامع (كلات ماركت) من ضفة شارع روبسن في زحمة متدافعة متطلعين إلى صفوف الجالسات وقد غصن في نقاش طويل واستغرقن في تطلع عميق، وأمام كل جالسة مشترية جلس بائع يطاول ويصاول، ولم أر أبداً في حوانيت الدنيا التي رأيتها مثلما أرى في كل حانوت من هذه الحوانيت في هذا السوق من عدد الرجال الموكل إليهم أمر المساومة والبيع، فمهما عرض مدخل المخزن امتدت على عرضه المقاعد، وحيال كل مقعد من يشاغل الجالسة ويحاورها!

ومما يذكر أني عبرت سوقاً من هذه الأسواق في نهار اليوم الثاني وقد قاربت الساعة العاشرة صباحاً، فإذا السوق لا يزال شبه مقفل، وإذا بتجاره لم يفدوا إليه بعد، إلا قليل منهم، ولما تجاوزت الساعة الحادية عشرة وافتتح السوق كله ظل شبه خال من الزبائن، مقفراً من الرواد، وظلت المقاعد عاطلة لا سيدة تميد فوقها، ولا آنسة تتثنى عليها، مما أشار إلى أن ساعات الإقبال على هذه الأسواق هي ساعات الليل لا ساعات النهار!

ونفذنا ـ ولا نزال في الليل ـ من جامع (كلات ماركت) طالعين إلى شارع البندر، فإذا بالحياة هنا غيرها هناك!

فليس هنا إلاّ السيارات والركشات والتراموايات منطلقة في الليل إلى غاياتها، بينما اصطف باعة الموز وأمامهم عرباتهم ينادون على موزهم نداء متداركاً، وانتشر باعة المأكولات غير المطبوخة، هذا يضع فوق عربته مجموعة منوعة من التمر والجوز المكسور وغير المكسور، وذاك يضع الزبيب، وآخر الصنوبر الباكستاني وآخر البرتقال، وقد علّق الجميع (اللوكسات) تئز نارها ويلتهب شعاعها!

أما باعة قصب السكر فقد سهلوا على الشارين أمرهم، فقطعوه قطعاً مقشورة صغيرة لا يضيق بها الفم، وفعل مثلهم بعض باعة البرتقال، فقشروا برتقالهم وربما قطعوه فليس على المشتري أن يتكلف القشر والتقطيع!

هذا كله على ما جاوز الأرصفة من ضفة الشارع، أما على الأرصفة نفسها، فقد اقتعد الأرض باعة البوابيج النسائية والمناشف والستائر والأقمشة والحلق والبخانق والدمالج ولعب الأطفال، ونشر بعض الباعة حبالاً علقوا بضائعهم عليها!

ولعله اقتسام عادل هذا الذي يجري هنا، فالمتاجر لكبار التجار، والرصيف لهؤلاء الباعة الصغار بأموالهم الكبار بآمالهم وهممهم!

والعجيب في الأمر أن كل هذه الحركة وهذا الأخذ والعطاء والبيع والشراء تجري ليلاً في ضفة واحدة من ضفتي الشارع، هي المناوحة لشارع روبسن، أما الضفة المقابلة فخالية إلاّ من السيارات الواقعة في صف طويل.

وقطعت، ولا أزال في الليل، عرض شارع البندر إلى السوق المتفرع منه والمناوح لـ (أسواق السيدات) فكنت في شارع يعقوب خان فإذا الحياة هنا شيء يتباين مع الحياة هناك، وإذا هنا سكون لا يشوبه إلاّ صوت بائع البرتقال متمدحاً ببرتقاله المقشور، ولعل هذا البرتقالي أدرك قلة الرواد فأقل من الصياح فلم يرسله إلاّ بين الهنيهة والهنيهة، أو لعله شاء أن لا يتداخل صوته مع صوت نفير السيارة العابرة أو هدير (الركشا) الجارية، فترك لكل واحدة نوبتها وجعل له نوبة بين نوبة هذه ونوبة تلك.

وهنا في شارع يعقوب خان، وأمام حانوت جلال وتحت مكتب المحامي محمد يوسف وقفت بقرة صفراء مربوطة تقضم الحشيش اليابس، وجلس بائع (البان) على الدكة الخشبية العالية يوزع بانه العجيب، وما أعجب مضغ البان!

وحتى هنا فالبضائع النسائية هي الغالبة، ومصاطب الحوانيت هي المتعارفة حتى في حوانيت الخياطين، ولكن مكتبة (كفاية اكدمي) شذت عن ذلك، ولا بدع فتجارة الأوراق غير تجارة الأنسجة.

التخفف من الملابس

هذه القيود التي تفرض على الناس في الحر من ضرورة ارتداء السترة ورباط العنق، حتى في غير الرسميات، هذه القيود يتحلل منها الباكستانيون، فالناس هنا في الحر بقمصانهم المفتوحة العنق القصيرة الأكمام على اختلاف صنوفهم يسيرون في الشوارع ويجلسون وراء المكاتب، وإذا استثنينا بعض المرابع التي يديرها أوروبيون والتي تفرض على روادها شيئاً سخيفاً، فهي مثلاً تبيح لهم في الجلوس على الموائد نزع السترة ولكن لا تجيز لهم نزع رباط العنق! إذا استثنينا هذا وبعض ما يشبهه كانت القاعدة عامة شاملة. وتخفف الباكستانيون اتقاء للحر مما يصنع من الصوف فاتخذ معظمهم سراويل بيضاء من القطن وحده، ولكنهم لم يغرقوا في القاعدة فلم يتخذوا السراويل القصيرة التي تكشف عن الساقين.

وسائط النقل

وسائط النقل هنا طرفة من الطرف، ولن نتحدث عن السيارة والأتوبيس والدراجة مما ألفه الناس، ومما هو موجود في كراتشي كغيرها من المدن، بل إن حديثنا عما جمعته المدينة في قلبها من وسائط متباينة، فواسطة النقل التي كانت سائدة منذ ألفي سنة لا تزال تسود شوارع كراتشي مع أحدث ما أنتجته معامل النصف الثاني من القرن العشرين، فحين تركنا المطار متجهين في السيارة إلى المدينة، شهدنا على طول الطريق الجمال تجر بأجسامها الشامخة عربات النقل الكبيرة. ومع ما في هذا المنظر من مفاجأة إذ إننا عرفنا الجمل ينقل الأحمال ولا يجر الأثقال، فقد حسبنا أن الأمر لا يعدو الضواحي ولكننا منذ صرنا في كراتشي رأينا عربات الجمال بدواليبها المطاطية الضخمة تسير في الشوارع جنباً إلى جنب مع أجمل السيارات الأميركية، بل إن الجمل الذي عرفناه رزين السير متثاقل الخطو، رأيناه هنا يتخلى عن رزانته وتثاقله ويركض بالعربة خبباً وسط الشوارع المزدحمة. وهكذا فقد محت كراتشي الأسطورة القائلة بأن

الجمل سفينة الصحراء وجعلت منه عربة المدينة! وإذا عرفت أن الباكستان بلد زراعي عريق، ثم رأيت ما تنقله عربات الجمال من أحمال زراعية لا يقوى على نقلها غير عربة الجمل، أدركت أن لا غنى عن هذه العربة مهما تقدمت وسائل النقل. وغير عربات الجمال تشاهد في بعض شوارع كراتشي عربات الحمير، وإذا كان ليس بالغريب أن تجر الحمير العربات، فإن الغريب هو هذه الرشاقة والخفة التي تجر بها حمير كراتشي عرباتها، فإنك لن تجد أصغر حجماً من هذه الحمير ولكنك لن تجد أقوى منها نشاطاً ولا أسرع منها عدواً.

وهناك تكسيات الدراجات النارية (الركشا)، فقد صنعوا للدراجة عجلتين خلفيتين وصنعوا فوقهما مقعداً يتسع لشخصين، فكانتا من وسائط نقل الناس في كراتشي ولا شك أنها ابتكار حسن بل ضرورة لا بد منها.

والترام هو الآخر من وسائط النقل في كراتشي، ولكن إذا كانت المدن في العالم قد أخذت بالترام الكهربائي، فإن كراتشي قد أخذت بالترام (المازوتي) فقد استغربت أن أرى الترام يجري ولا سلك يمده بالكهرباء، ولا حربة تشده إلى السماء ثم لم ألبث أن بصرت بالدخان الكثيف ينفجر من أسفله أسود قاتماً.

وأخيراً فإن الذين ذللوا الجمال والحمير وربطوها إلى العربات، ترقل بها أرقالاً وتركض بها استعجالاً لم ينسوا أن يساووا بينها وبين ذكور البقر، فربطوها هي الأخرى إلى عربات النقل تتهادى بها بقرونها الطويلة وأجسامها الثقيلة. وإذا كانت الجمال والحمير والثيران قد ذللت لعرباتهم فمن نافلة القول أن نذكر الخيل وعرباتها.

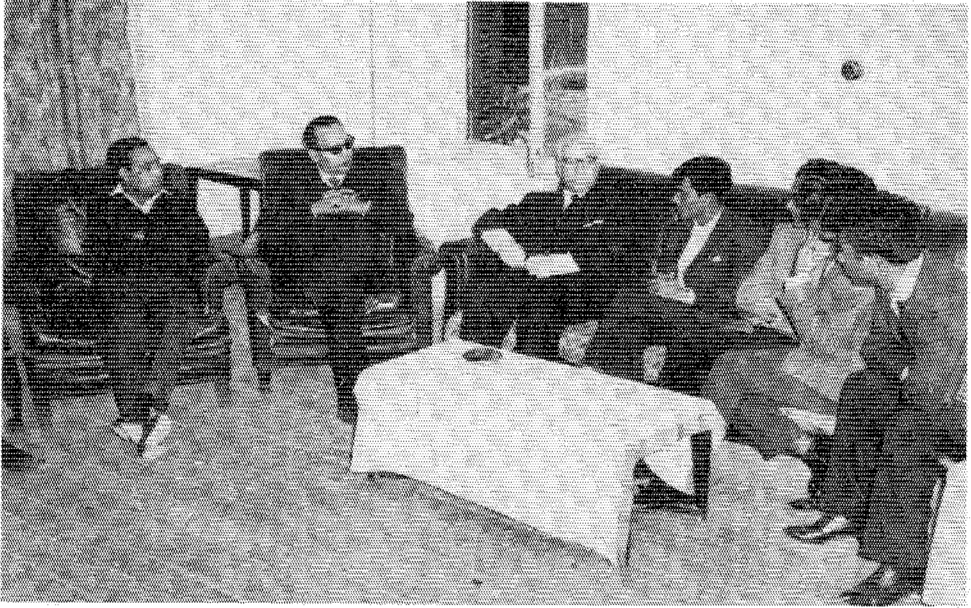
الحدائق العامة

هنا في هذا البلد حدائق عامة معشوشبة شجيرة يستمتع بها الجمهور في الآصال والليالي، وهؤلاء الفقراء الذين حرموا من حدائق المنازل، يجدون في هذه الحدائق الرحبة والساحات الواسعة، ما تستريح إليه جسومهم وتستروح فيهم نفوسهم، فتراهم في الأصيل يتقاسمون مقاعدها الحجرية ويقتعدون مرجها الأخضر، بينما يغيب بعضهم في نوم عميق طويل فوق خضرتها اللينة الرقيقة، وهيهات أن يعرف هؤلاء في عيشهم اللين والرقة في غير هذه الحدائق وفي غير عشبها النامي النضير.

وكم أحسن الذين أنشأوا هذه الحدائق صنعاً، حين أقاموها في قلب المدينة خضراء زاهية فكانت من أفضل ما أدوه من خير للطبقات الشعبية الكادحة، ثم كانت بظلها الوريف ملطفة للجو معدلة لحرارته.

الشوارع

وعدا هذه الحدائق فإن في كراتشي شوارع من أحسن ما تعرف المدن من شوارع، فهي رحيبة نظيفة مستقيمة شجراء تمضي في امتدادها بعيداً على اتساع ونضارة وحسن تنظيم، بل إن بعضها يبلغ الغاية في الرونق ويعد مثالياً في عرضه وطوله.



في نادي الصحفيين بكراتشي

وكراتشي ككل المدن الشرقية ذات وجهين حديث وقديم، وككل تلك المدن يتباين وجهاها تبايناً أي تباين، فمع تلك الشوارع تقوم الأزقة الضيقة التي تتكاثف منازلها وتتلاصق دروبها، مما نعرف له أمثالاً في مدننا العربية الكثيرة!

في الأسواق

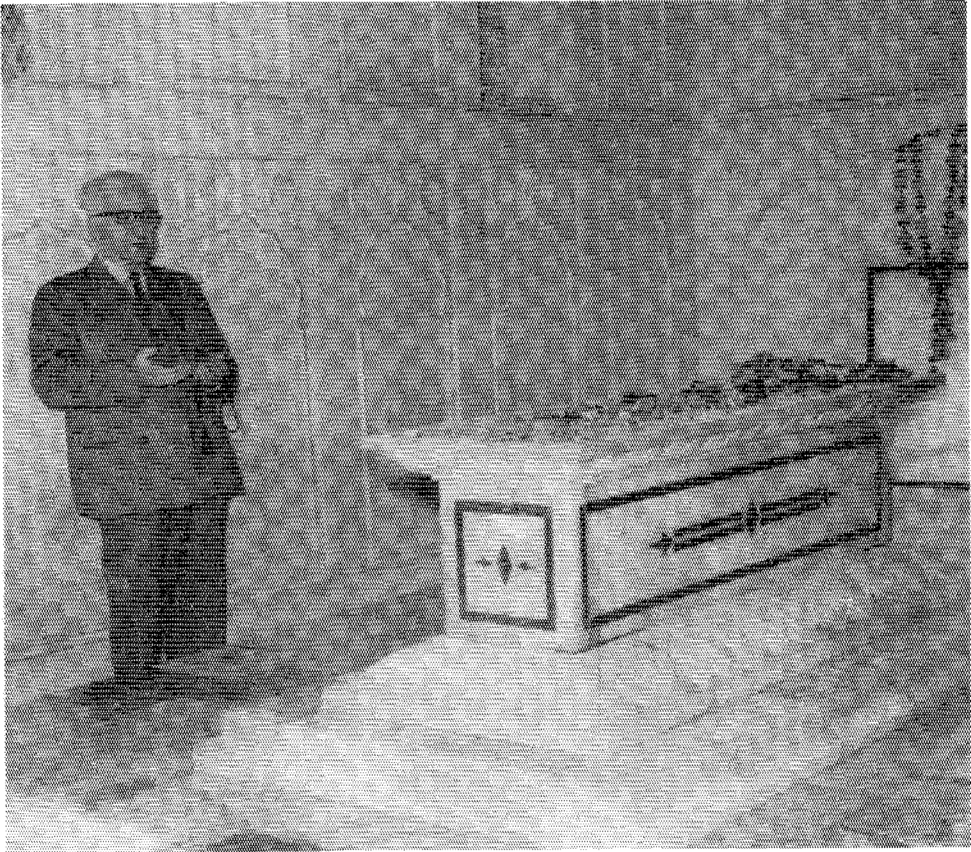
لما تجول في أسواق كراتشي ترى فعل الحروف العربية في اللغة الأوردية، مما يخيّل إليك معه أنك في أسواق عربية بحتة، فهذه اللافتات، الكبير منها والصغير، أبرزت الحروف العربية إبرازاً يشد بصرك إليها شداً فما يلبث أن تتبين هذا المزيج من اللغتين الأوردية والإنكليزية، وقد كتب بالحرف العربي فبدت فيه اللغة الإنكليزية محطمة مهشمة!

وإذا لم تعد أسماء الأعلام فإنك واجد فيها صورة عما تجده في أي سوق عربي، ما دامت أسماء الناس واحدة في كراتشي وفي كل بلد عربي، ولكن حين تتجاوز أسماء الأعلام تقع في المزيج العجيب!

ومن بين اللافتات الكبيرة، لافتة بارزة خط عليها هذا الكلام «دار الإشاعت» وماذا يمكن أن يخطر ببالك أن تكون دار الإشاعت هذه؟ أهي الدار التي تصنع فيها الإشاعات ثم تبث في الناس؟! أهذا ممكن أن للإشاعات داراً مستقلة في عاصمة من العواصم؟! وهب أن لها داراً مستقلة فهل من مصلحة أصحابها أن يفضحوها بمثل هذه اللافتة الكبرى! وفي الواقع فإن في كل بلد من بلاد الناس دوراً لا داراً للإشاعات، ولكن ليس في بلد من تلك البلاد من يعترف بوجودها فكيف به أن يشهرها هذا التشهير!

لا ليست هذه الدار (للإشاعة) بما يمكن أن يتبادر إلى ذهنك، إنها دار لما اصطلحنا على تسميته بالنشر فهي دار للنشر ككل الدور أمثالها في البلاد العربية، فهم اختاروا كلمة (الإشاعة) ونحن اخترنا كلمة (النشر) ولا نستطيع أن ندّعي أن اختيارنا هو الأقرب إلى الصواب، وإذا كانت دار الإشاعت هذه عربية محضة سواء بحروفها أو كلماتها، فليست هي العربية الوحيدة فأنت تقرأ مثلاً على إحدى اللافتات «محمد سعيد عبد الغني تاجر عطر»، وتقرأ على باب إحدى السينمات اسماً للرواية المعروضة «عشق ليلى»، ومن أسماء الأعلام التي تلفت النظر أسماء عظمة الله، إسلام الدين، شجاع الدين.

أما الصيدليات فإنهم يطلقون عليها (دواخانة) وهو كلام عربي فارسي، ولا بدع في ذلك ما دامت الفارسية والعربية من أهل الروافد في اللغة الأوردية، وقد رأيت إحدى الصيدليات تحمل هذا الاسم: (قومي دواخانه) أي الصيدلية القومية، وكذلك فهم يسمون العيادات الطبية أو المستوصفات باسم (شفاخانة)، على أن بعضهم يشتق لها اسم مكان فيطلق عليها كلمة (مطب) وهو كما ترى أسلوب عربي عريق في الاشتقاق.



على قبر محمد علي جناح في كراتشي

يوم علي في كراتشي

ليلة مولد علي بن أبي طالب(ع) في كراتشي وربما في الباكستان كلها، ليلة حافلة حاشدة، ويسمونها يوم علي، ولا تقتصر على ليلة واحدة بل تمتد عدة ليال متتابعة، فالأنوار الكهربائية الملونة وقد اتخذت أشكال السلاسل أو الحلقات أو الزوايا، تشع على مطالع المساجد وأعالي المنائر، وتزدهر على مداخل البيوت وسوامي المنازل.

هذا كله فيما عبرناه تلك الليلة من دروب وأزقة، وما نزلناه من أحياء ومحلات، ولا ندعيه لغيرها مما لم نعبره ولم نشهده.

ففي حي (كرادر) مثلاً كان هذا الحي القديم يتألق كله بالمصابيح والزينات، وكانت معابره الضيقة وشوارعه العتيقة وجدرانه المتقاربة تعبر بكل ما بدا فيها عن فرحة شعبية عارمة، وكانت مساجده محتشداً للناس العابرين إليها تحت سيل من النور الدافق.

وكان نصيبي، تلبية دعوة إلى (المحفل الجعفري) تفضلت بتشريفي بها جمعية خدام القرآن.

كان الحنان الذي أسبغته علينا طلائع المستقبلين على مداخل الزقاق، ثم أوائل المحتفلين عند أبواب الجمعية، ثم كل المجتمعين داخل البناء، كان هذا الحنان ـ وأنا معتمد أن أسميه الحنان لأن أية كلمة لا تحل محل هذه الكلمة ـ كان حنان الأخ على أخيه والابن على أبيه والأب على ابنه. كان حنان أقرب قريب على أقرب قريب، لم يكن تكريماً ولا حفاوة، لأن التكريم والحفاوة تكونان للغريب المحبوب. أما ما لقيته فكان حنان القريب على القريب!

كان الحنان حناناً عاطفياً غلاباً، توالى بعد ذلك فيما تكلم به أمين الجمعية الحاج أكبر باي تارة، وما تكلم به روح حركتها الشاب منوّر علي تارة أخرى، متكلما بالأوردية وبالكجراتية لأن لغة هذه الجماعة هي اللغة الأخيرة. فما كنت أفهم ما يقولان. هذا إذا كان المقصود بالفهم فهم الألفاظ! ولكنني فهمت كل ما أرادا أن أفهمه، فهمت كل جملة وكل لفظة لأنهما كانا يتكلمان بلغة الروح ولغة القلب ولغة الحنان! وما أغبى الذي لا يفهم هذه اللغات، وأحمد الله أني لست غبياً في عالم الروح وعالم القلب وعالم الحنان ـ إن كنت غبياً في غيرها من العوالم!

وانتهت الخطب وجاء عمل آخر، عمل يرينا ما انتهت إليه هذه الجماعة من نتائج في هذا الفصل من العام، وهي نتائج تشرف من عملوا لها وترفع رؤوسهم، فإن من رسالة الجمعية أن تعد الأطفال في مدرستها لحفظ القرآن وتلاوته مجوداً، وتعدّهم كذلك للخطابة والإرشاد في الميادين الإسلامية.

أقبل الأطفال واحداً بعد واحد، أقبل أولاً أطفال حفظ القرآن فإذا بهم يبدعون فيما تلوا ورتلوا، إذا بهم من خير حفظة القرآن ومن خير من يحمله في الصدور ويذيعه من الشفاه!

وتلاهم خطباء المستقبل، الأطفال الذين يعدّون من اليوم ليصعدوا المنابر هادين مرشدين وما كان أقربهم إلى النفس وهم يتناوبون على الكلام: فمن متحدث عن الحج، ومن متحدث عن غير الحج بكلام إذا كنت لا أفهم ألفاظه، فإني أفهم ما هو أسمى من ألفاظه.



مع رئيس جمعية المؤلفين الباكستانيين وسكرتيرها

وجاء الخطيب الطفل الذي يتحدث عن علي بن أبي طالب، فاندفع بالكلام كأنه يغرف من نهج البلاغة بلغة أوردية غير عربية، ولكن بنفس هو النفس الذي يرى علياً قدوته، ونهجه سبيله، وحسبك بمن يستمد من علي القدوة والسبيل!

وانتهى الترتيل وانتهت الخطابة، فإذا لهؤلاء الأطفال المتفوقين جوائز مالية معدة يكافأون بها على تفوقهم ويشجعون على مداومة هذا التفوق!

وكنت أحس وأنا أقدم لكل منهم جائزته أنني لا أصافح كف طفل، ولا أمد يدي إلى صغير، بل كنت أحس أني أصافح جندياً من جنود محمد، ونصيراً من أنصار علي!

ثم ختم ذلك كله ختاماً شعرياً مثيراً، إذ تفضل منور علي، هذا الشاب المتألق حماسة وحمية فأهدى إليّ كتيباً صغيراً، ضم بين دفتيه مجموعة من الشعر باللغة الكجراتية في مدائح علي ورثاء الحسين(ع).

اللغة الكجراتية التي تكتب بحروف خاصة بها، لا هي بالحروف العربية ولا بالحروف اللاتينية، بل هي حروف لا صلة لها بكلا النوعين. اللغة الكجراتية إحدى لغات القارة الهندية، جعلت خصائل علي وخصائل الحسين منها لغة دواوين تفيض بأرقّ الشعر وأعذب القريض، لغة يتلى شعرها على المنابر ويرتل في المحافل.

ولقد كان من أعظم ما عرفته أن علياً وأن الحسين لم يحييا اللغة الكجراتية وحدها، بل أحييا لغات ما كانت لولاهما لتكون حية أبداً، وما كانت لولاهما لتكون لغة تدوين وشعر وأدب.

فاللغة الأوردية نفسها، اللغة التي يتكلمها مئات الملايين في الباكستان والهند وبورما وسيلان، والتي هي اليوم لغة الباكستان الرسمية ولغة رسمية في الهند، هذه اللغة أحياها علي وابنه الحسين وكانت من قبل لغة تخاطب خليطاً من العربية والفارسية والتركية، فإن أول ما دون في هذه اللغة كان كلاماً في علي والحسين، وكان الذي رفعها إلى أعلى مراتب الشعر هم شعراء علي وشعراء الحسين!

لقد سمعت شعراً من هذه اللغة يتلى في ليلة من ليالي مولد علي، في الحفلة الكبرى التي أقيمت في حديقة باتيل وأصغيت إلى الشاعر الشاب نظر جعفري، والشاعرين الشيخين قمر جلالوي وآل رضا، لقد أصغيت إليهم مع الألوف التي أصغت فإذا أنا أمام موقف ساحر!

لم يلق هؤلاء الشعراء شعرهم إلقاء، بل كانوا ينشدونه إنشاداً يهز أوتار القلوب، إنشاداً لا نعرفه في بلادنا العربية، إنشاداً بعيداً عن الإنشاد العراقي والعاملي، إنشاداً لا أحلى ولا أعذب ولا أوقع في النفس منه!

لقد كان كل شيء في الحفلة رائعاً مثيراً، هذا الصمت الرهيب، هذه التلاوة الرخيمة للقرآن التي وقفت الجموع على الأقدام عند البدء بها ولم تجلس إلاّ عند الانتهاء منها، مما ليس له مثيل في أي بلد، هذه الخطب الرنانة، ثم هؤلاء الشعراء، شعراء علي ينشدون هذا الإنشاد الأخاذ!

لم أكن أفهم إلاّ أسماء محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين تتردد بأرق لفظ وأحلى تلاوة، وإلاّ هذا الهتاف المجلجل تصرخ به الألوف بصوت واحد نظيم: «يا علي»، تصرخ به عندما يستفزها لذلك مستحسن للشعر، فيقف على قدميه ويهتف: نعره حيدري[٢]، فتجيب الألوف بصوت واحد نظيم: يا علي!

فأحس أن الكون كله قد استحال إلى نغم سماوي رفيع، يقتبس من جلال علي، وعظمة علي، وخلق علي وبطولة علي، وتضحية علي ومن كل ما تحلى به علي بن أبي طالب من سجايا عزت على غيره ولم تدن إلّا له!

أحس أن الكون كله قد عاد يهتف من أعماقه: يا علي، مستمداً من علي ثباتاً على العقيدة، وذياداً عن الفضيلة وحماية للحق وتوثباً للكفاح وصبراً على الشدائد وحرباً للظالمين!

لقد سمعت الشعر العلوي الأوردي ينشد في حفلة ميلاد علي، فعرفت ما فعل علي وابنه الحسين لهذه اللغة.

ثم ازددت معرفة فعرفت ما فعلاه في اللغة الملتانية، إحدى لغات الباكستان التي لم يكن من الممكن لولاهما، أن تصبح لغة أدب حي وشعر خالد.

فعلى ضفاف نهر السند، من ديره إسماعيل إلى ما قبل مدينة ملتان بعشرين ميلاً يسكن ما يقرب من المليون مؤمن يتكلمون اللغة الملتانية فيمن يتكلمها، ومن بين هؤلاء خرج كبار شعراء هذه اللغة الذين هم شعراء المدائح العلوية والمراثي الحسينية، والذين يبلغ شعرهم العلوي الحسيني ما يقرب من ثلثي شعر اللغة



في الباكستان

الملتانية! هذا ما دوّن منه، عدا ما لم يدوّن بل ينتقل على الأفواه من لسان إلى لسان، ومن جيل إلى جيل!

وقد كان هؤلاء الشعراء السبب في تطوير هذه اللغة، وجعلها لغة الشعر والأدب والتدوين، ورفعها إلى مصاف لغات الآداب العالمية، بما في شعر هؤلاء الشعراء من روعة التعبير وعمق الفكرة وتدفق العاطفة وسرد القصص..

وإن شاعراً واحداً منهم هو (فداء الحسين فداء)، المتوفى منذ حوالى خمس وعشرين سنة نظم ملحمة شعرية مؤلفة من خمسمائة وخمسين بيتاً في موضوع واحد هو ذو الفقار سيف علي!

وازددت معرفة فعرفت أن اللغة السندية واللغة البنجابية واللغة البشتوية واللغة البلتية واللغة الكشميرية واللغة البلوجية، إن هذه اللغات جميعها مدينة أيضاً لعلي والحسين، مما يضيق المجال عن تفصيله الآن، وحسبك أن أمامي الساعة أسماء اثنين وعشرين شاعراً معاصراً من شعراء اللغة السندية من مدينة واحدة هي مدينة حيدر آباد، وأمامي قصائدهم في مدح علي بلغتهم اللغة السندية.

في الطريق إلى حيدر آباد

ملابس الحمّالين في محطة كراتشي تلهيك عن التطلع إلى غيرهم، فلا يلفتك إلاّ هذا الأحمر القاني الذي تراكم عمائم على رؤوسهم وتدلى قمصاناً على صدورهم وظهورهم، حتى بلغ إلى تحت ركبهم.

شيء اختصت به كراتشي، وسنرى أن حيدر آباد هي الأخرى شاركت كراتشي به، وربما شاركهما فيه غيرهما من مدن الباكستان.

والطريف في هذا التقليد (الحمالي) أنه شعار لحمالي المحطات وحدهم، فالحمالون في خارج المحطات لا تميزهم عن غيرهم في شيء، أما هنا فإنهم حمر العمائم حمر القمصان، حمرة قانية صارخة.

ومضينا من محطة كراتشي متجهين إلى السند، أو إلى عاصمته حيدر آباد في القطار الباكستاني السريع، الذي اندفع ماضياً في أطراف كراتشي الجديدة مضياً وقف فيه على محطتين. وصرف أكثر من ثلاثين دقيقة وهو لا يزال في أطراف العاصمة وتخومها.

وتوارت العاصمة غارقة في الأبعاد، وانطوت الدارات والمنازل، ولم يعد لنا إلاّ بر لا يحده الطرف، ولا تدرك مداه العين تتعاوره القرى والمزارع وتتداوله القفار مكسوة بنبات بري غليظ لا هو بالشجر ولا بالعشب، يعلو قليلاً عن الأرض بغصون تتشعب وتتشعب، متكاثفة بمحيط دائري يأخذ بالانكماش كلما ازداد علواً.

وإذا كان البر قد ظل طوال الرحلة رفيقنا الدائم وظلت سهوله المديدة مجال البصر حيثما تلفتنا، فإنه كان يتبدل ألواناً ويختلف حالات، فهو طوراً مسود الأديم بالشجر، وبما يشبه الشجر يابساً وأخضر متكاثفاً ومتفرقاً، وهو طوراً معمور بقرية هنا ومزرعة هناك، وهو آناً قصي الشجر بعيده توشي حواشيه النائية سلاسل هضاب متتابعة.

وتطلع القرية ملء العين فمن راكبي دراجتين خارجين منها، ومن حامل للحطب على رأسه مقبل عليها، وتظل القفار متتابعة بنباتها البري الغليظ أو زرعها الأخضر الغضيض أو قراها المتباعدة، وقد تلمع عمارة بيضاء من بعيد أو بيوت ناصعة من قريب، وأخرى من بعيد أما سائر القرى فشاحبة اللون، سمراء الجدران، لأن انعدام الصخر في هذه السهول حصر بناء القرى بالطين اليابس الخابي.

والطبيعة أبداً كريمة، وهي هنا أكثر كرماً لا ترميك إلى المشاهد الرتيبة بل تلونها لك، فبعد السهول الدائمة عدنا إلى التلال المتلاحقة، تلال من هنا وهناك يسرح البقر أو يعلو الشجر في بعض منبسطاتها، أو تبدو القرى ببيوت قليلة متباينة المظاهر، ثم ينفرج السهل عن التلال فتنقضي عنا ولا تبقى إلاّ السهول وحدها موشاة الحواشي البعيدة بالهضاب!

على محطة كوتري

وفي الساعة السادسة عشرة أقبلنا على محطة مدينة (كوتري) فإذا الدنيا هنا دنيا أخرى!

هنا مروج وبساتين، تتماوج في السهول غضة يانعة. وتملأ الرحاب بالنضارة والإمراع، وها هنا ماء دافق ينطلق من السد الجديد على نهر السند، فيروي المفاوز لتعود جنائن خضراء! وها نحن نمر فوق فرع من فروع النهر، القادمة من السد الكبير الذي أقيم غير بعيد عن حيدر آباد، فأحيا الأرض ورتب القنوات وعاد على هذه الديار بأزهى الخصب.

وعلى المحطة كان الناس يزدحمون وجلّهم بملابس السند الوطنية، وأبرز ما فيها العمائم الضخمة على الرؤوس، عمائم لا لون معيناً لها، بل فيها من كل لون، فيها العمامة البيضاء أو السوداء أو المخططة أو الصفراء أو البنية أو الحمراء أو الزرقاء، أو بالأحرى من كل لون يمكن أن يتلون منه النسيج، ومن شرط هذه العمائم أن تتدلى عذباتها طويلة مترامية!

وجالت عيناي في رحاب المحطة خلال الدقائق العشرين التي يقف فيها القطار، فإذا مشاهد شتى: رجال بالعمائم يقتعدون أمتعتهم، ونساء بالبردة البيضاء السابغة وأناس على الماء يتوضأون، وآخرون مقبلون على الشاي أو الفاكهة أو الحلوى، وواحد بين الجموع بطربوشه الأحمر وقميصه المنطلق فوق سرواله الأبيض ولحيته المسترسلة على صدره بلونها الفاحم، وآخرون بعمائم ولكن لا كالأولى، بل على ما يشبه اللباد المعروف عندنا في عكار.

وإذا كنا الآن في أوائل كانون الأول/ديسمبر والجو لا يخلو من الحر، فكيف به إذا أقبل الصيف لذلك عمدت الحكومة، ترفيهاً عن الناس، إلى إنشاء مستودعات مبردة للماء في المحطة، لا أدري الآن سر عملها ولكنني أعلم أنها تبيح الماء للوارد عذباً بارداً.

بعد كوتري

وبدت كوتري منتشرة أمامنا في السهل ببيوت بعضها أبيض ناصع البياض وبعضها داكن وبعضها أصفر، تتخللها الأشجار والحدائق، ثم عبر القطار بين البيوت إلى يميننا ويسارنا، والشجر المتكاثف المتعالي يكاد يغمرها غمراً.

ومضينا فوق جسر حديدي ضخم على نهر السند كان القطار يعبره في وسطه، بينما كانت تعبره في أحد جانبيه العربات المجرورة بالبقر، ثم تتالى منظر هذه العربات جنباً إلى جنب مع القطار، تتالى منظرها صفوفًا متتابعة على الطرق الطويلة.

وبعبور الجسر كنا في منطقة حيدر آباد ببساتينها وقصورها وأكواخها ورياضها وحقولها، ووراء الجسر السهول الخضر والشجر الغض يتخلل العمران على مد البصر. وفي دقائق لاحت حيدر آباد ممتدة وظهرت قلاعها التاريخية ثم كنا نقف على محطتها المنتظرة.

حيدر آباد السند

سأظلم حيدر آباد إن قلت إن ما سأسجله هو الصورة الكاملة لها، ولكن الحقيقة أن منهاجي المتشعب في

هذه المدينة الكريمة لم يدعني أتملى من كل شيء فيها كما يفرضه الواجب على السائح الكاتب، فكنت خلال عبوري السريع، سواء على قدمي أو في السيارة، ألم مشهداً من هنا ومشهداً من هناك قد يكونان هما آخر ما يذكر من مشاهد عاصمة السند النضيرة، ولكن المقادير جعلتني لا أرى غيرها فأنا مرغم على تسجيل ما شاهدت مهما كانت صورة ما شاهدت جميلة أو غير جميلة.

فأول ما رأينا الحمالين في المحطة بعمائمهم وأرديتهم الحمراء على النسق الذي رأيناه في محطة كراتشي، ثم هذه العربات الرشيقة التي لم نشاهد لها مثيلاً إلاّ في حيدر آباد وبعض أطراف كراتشي من قبل، ثم بعد ذلك في جميع المدن إلى بشاور، فهنا عربات الخيل المعروفة في كل مكان والتي أخذت بالانقراض في كل مكان، ومع هذه العربات في حيدر آباد نوع آخر طريف ذو سقف مستطيل مقوس على جانبيه، مكشوف تمام الكشف من الأمام والوراء، وبعض الكشف من الجانبين وأطرف ما فيه أن الراكبين يجلسون وظهورهم إلى السائق متدلية سيقانهم إلى خارج العربة على مستند ترتكز أقدامهم عليه!

وهذه العربات هي الأكثر انتشاراً، رأيناها في مدينة حيدر آباد ثم رأيناها خارج المدينة، ورأيناها في بلدان المقاطعة كلها.

وكما كان الجمل من وسائل النقل في جر العربات في كراتشي فهو هنا كذلك، ولكنه هنا يقوم بمهمة أخرى هي أن العربة التي يجرها الجمل تتخذ وسيلة للإعلان عن الأفلام السينمائية، وليس كالجمل شيء يلفت النظر بعربته الطويلة وقامته المهيبة، فكيف إذا وضع على جانبي العربة لوحان طويلان طول العربة وعاليان علو الجمل، وزينا بمشاهد الفيلم، ثم وقفت فتاة على العربة ترقص وتغني أغاني الفيلم، أو على الأقل إذا وضع حاكٍ (فونوغراف) بمكبّر يبلغ رأس الجمل تتردد فيه أسطوانات الفيلم!

لقد شهدنا المشهدين معاً فكانا فيما نحسب أبرز إعلانين عن فيلم من الأفلام!

القدم الشريف

ورأينا مقام قدم شريف (القدم الشريف) وهو صخرة بطول الإنسان الساجد مرتسم فيها أثر قدمين وكفين وجبين، وموضوعة داخل غرفة ضيقة قريباً من المدرسة والمسجد. دخلناها ليلاً وأبصرنا الناس عكوفاً على زيارتها وقد امتلأت بدخان البخور الممتزج بأنفاس الناس مما يصعب احتماله. ولكن الزائرين يحتملونه غير عابئين به، ورأينا بأم العين الآثار المذكورة مرتسمة في الصخرة ارتساماً لا يزحزحها قيد شعرة عن محال سجود الإنسان!

وقصة هذه الصخرة تقول بأن مؤمناً رأى في الحلم بأن علي بن أبي طالب يصلي في برية حيدر آباد على صخرة، فاستيقظ الرجل وذهب في الحال إلى المكان الذي أبصره في الحلم فما راعه إلاّ آثار القدمين والكفين والجبين منقوشة على الصخرة، فانكب عليها يقبلها ونقل الخبر إلى البلدة فنقلت الصخرة إلى هذا المكان وبني عليها بناء يحفظها وأخذ الناس يزورونها.

ولما سألت عن تاريخ هذا الحادث قال لي الشيوخ إنهم لا يعرفون تاريخاً محدداً له وإنما هكذا رواه وشاهده الشيوخ قبلهم وكذلك الشيوخ قبل أولئك الشيوخ، وهكذا إلى ما لا يحد بتاريخ.

والعجيب أن الصخرة ككل الصخر الشديد صلابة وتحجراً، أما المؤمنون فقد استراحوا إلى إيمانهم، وأما

المشككون فيجدون في هذه الصخرة ما لا تحله كل أفكارهم مهما حاولت، فكيف ارتسمت هذه الآثار على هذا الصخر الصلد ارتساماً دقيقاً لا تخطىء العين دقته وتناسقه وتوافقه مع جسم الإنسان الساجد!

إنني أعرف سلفاً كل ما سيقولونه، ولكنهم لو رأوا الصخرة ولمسوها، لأدركوا أن ليس في جميع تحليلاتهم وافتراضاتهم ما يمكن أن يثبت أمام هذا المشهد!

الشارع البارد

ومن مشاهد حيدر آباد الجميلة: هذا الشارع الطويل العريض الموصل إلى فندق السند، فقل أن تجد شارعاً بمثل هذا التقسيم وبمثل هذا الدوح المتشابك فوق الشارع تشابكاً عالياً يجعله قباباً خضراء تظلل الشارع تظليلاً بديعاً وتكسوه حلة يانعة من الفيء الوريف!

وسألت السائق عن اسم الشارع فقال إن اسمه: «الشارع البارد»، فإذا صحت التسمية لم يكن أكثر منها انطباقاً على مسماها، ففي الحر اللاهب في هذه البلاد، الحر المقيم المقعد، لا يكون في الشوارع والمعابر ما يعدل هذا الشارع برودة تسبغها عليه هذه الأغصان الوريقة الزاهية!

شاهي بازار

وكان من التقادير أن مررنا ليلاً بسوق شاهي بازار وهو من أطول ما تعرف المدن من الأسواق ومن أطرفها في وقت واحد. ومع أن الكثير من حوانيت هذا السوق كان مغلقاً، فإن ما كان لا يزال مفتوحاً منها كافياً لإبراز بعض ملامحه!

فمن تلك الملامح بائع الحليب واللبن اللذين هما الشرابان الشعبيان في هذا البلد: اللبن والحليب المثلوجان صيفاً، والحليب الساخن شتاء، فلقد أبصرنا البائع وأمامه قدر عجيب الشكل هو في تركيبه كالصاج الأسود الذي يخبز عليه الخبز المرقوق عندنا ولكنه ضخم متسع يتناسب مع إقبال الناس على الحليب، وتحت هذا القدر موقد ضخم تتوقد فيه النيران، والناس يدخلون الدكان فيبادر البائع الجالس على الأرض إلى غرف الحليب الساخن بأداة طويلة بيده ويصبه في الكؤوس صباً متداركاً، كأساً وراء كأس، والناس مقبلون عليه أشد إقبال، داخلين خارجين! أن يكون الحليب هو الشراب الشعبي المبذول، شيء عظيم حقاً، فالحليب بما فيه من غذاء قوي كفيل بإكساب الأجسام الكادحة صحة ومتانة، وكيف بأن يحقق لها طعاماً شهياً لذيذاً، وهو دليل على مكانة الثروة الحيوانية في هذا البلد.

ومضينا في السوق فكان بعض الساهرين يتخذون من حوافي دكاكينه المغلقة مجالس لهم يمضون شطراً من الليل عليها، ولا بد فهي لا تكلف شيئاً والسوق مضاء والحركة لا تنقطع من الذاهبين الآيبين الآكلين الشاربين، مما يشكل تسلية يعذب معها قضاء السهرة لمن لا يستطيع أن يقضيها في غير مثل هذا المكان المجاني! ومما يدل على أن الجالسين قد أتوا على غير تعارف، وعلى غير تواعد، بل إن الغاية وحدها هي التي جمعتهم، هو أن الاثنين أو الثلاثة أو الأربعة الجالسين على حافة واحدة لا يكلم أحدهم الآخر ولا يميل عليه، بل هم صامتون إما محدقون في المارة أو غارقون في هم عميق، ولقد أثار مرورنا وتطلعنا في

فريق منهم بعض سكونهم فتبادلوا الهمس، متسائلين ـ ولا شك ـ عمن نكون، ثم عادوا إلى الصمت الطويل!

وينتهي السوق بساحة القلعة التي تطل على الساحة شاهقة متعالية، وفي مداخل الساحة يتجمع بائعو المأكولات غير المطبوخة أمام عرباتهم وقد علقوا عليها (اللوكسات) الوهاجة فشع المكان منها نوراً قوياً.

هذا وأصوات المذياع تضج في الساحة ضجيجاً بأنغام موسيقية متباينة، فعرفنا أن الأذواق تختلف في الموسيقى فيأخذ كل بائع النغم الذي يستهويه من الإذاعة التي تعجبه، وإذا عرفت أن إذاعات باكستان الغربية كثيرة العدد عرفت سر اختلاط الألحان وتباين الأنغام.

ومضينا إلى الحوانيت الملاصقة لجدار القلعة، فكان فيها من مشاهد الطبقات الشعبية وطراز حياتها ومتاعبها وهمومها ما هو بارز في كل شيء! فلصق باب القلعة حانوت لم ندر أول الأمر لأي شيء هو، ثم عرفنا أن هذه المغارة الكئيبة هي مقهى! على الباب كان يعلق (لوكس) ينير المغارة وخارجها، وفي وسط المدخل دكة عليها قدر نحاسي فوق النار لم ندر أول الأمر علاقته بالمقهى، ثم عرفنا أن فيه الحليب الذي يضاف للشاي، وهذا من مستلزمات الشاي في الباكستان كلها، إذ لا شاي إلاّ بالأكواب، وإلاّ مضافاً إليه الحليب، سواء أقدم إليك في أزهى القصور أم في أضوى الأكواخ، وسواء أتلقيته في فندق المتروبول في كراتشي أم في مغارة باب القلعة في حيدر آباد!

أقول كان قدر نحاسي على موقد في دكة وسط باب المغارة المقهى، ووراء القدر يجلس رب المقهى بعمامته السندية متفرساً بالمارة وبنا بخاصة مستفسراً في نفسه عمن نكون، وما هي الغاية من تطلعنا إليه وإلى مقهاه وإغراقنا في هذا التطلع!

لم يكن المقهى المغارة حافلاً، فعلى الباب كان يقف عميل لم يشأن أن يكدر صفاء المقهى فآثر تناول الشاي واقفاً على قدميه خارج المقهى! وكان شارب آخر يشاركه الوقوف والشرب!

أما في الداخل فكان يجلس على مقعد خشبي طويل ومتناسب كل التناسب مع تواضع المقهى وفقره، كان يجلس عميلان آخران متقدمان في السن واحد يعتمر الطربوش وآخر الزي الباكستاني وكان الأخير يقرأ في جريدة بين يديه!

لا أدري ماذا كان يقرأ هذا الشائب الفقير في تلك الساعة في ذلك المقهى بتلك الجريدة، وأية أنباء كانت تشوقه، وأي نوع من الأخبار كان يستهويه، وأي باب من أبواب الصحيفة كان يقبل عليه!

أهو مثلاً باب الاجتماعيات؟! وماذا يهمه من هذا الباب ما دامت اجتماعياته هو محدودة المكان من الكوخ إلى المقهى المغارة! لم نرَ الكوخ الذي يسكنه لنحكم عليه، ولكن ما دام يطلب الاستجمام ـ حين يطلبه ـ في هذا المقهى وما دام هذا المقهى هو المكان الذي يسعى إليه حين يضيق صدره في البيت فنحن على علم بنوع المنزل الذي يؤويه!

لا أحسب أن باب الاجتماعيات في الجريدة هو الذي كان يقرأه تلك الساعة، فلا أصدقاء له بين من تروى الجريدة أخبار اجتماعاتهم ليهمه أن يعلم ابن من يزف اليوم إلى ابنة من؟! أو ليعلم من أقل القطار

ذاهباً إلى العاصمة أو من أقلت الطائرة قادماً من الخارج! أو ليعلم في أي مكان أقيمت الحفلة الساهرة العامرة، وفي أي نادٍ احتشد السامرون متضاحكين متعابثين!

إنه لا صلة له بكل هؤلاء ولا صداقة تشده إليهم، ولا معرفة تربطه بهم، إن صلته بهذا الشائب الآخر الجالس إلى يمينه وصداقته مع صاحب هذا المقهى المتربع حياله، وهو على علم تام بخبريهما!

ليتني كنت أعلم أي باب من أبواب الجريدة كان نزيل المقهى يقرأ في تلك الساعة!

إنك لا يمكن أن تدرك أية قلوب كانت للمستعمرين إلاّ حين ترى مستوى الحياة الذي أوصلوا الخلق إليه سواء في الباكستان أو الهند!

إن الباكستان بعد الاستقلال ليست مسؤولة عن شيء من هذا أبداً، إنها ورثت تركة مثقلة وتطلعت فإذا بمخلفات الاستعمار تتراكم أمامها، وماذا يستطيع استقلال عمره بضع عشرة سنة أن يفعل أمام ما تركه استعمار عمره عشرات السنين!

وفي هذه البضعة العشرة السنة من عمر الاستقلال عملت الباكستان بجهد المؤمن الصابر، فأنشأت السدود وشجعت المصانع وأقامت الجامعات ونشرت المدارس، وعمرت المستشفيات، وعملت جهدها لمحو آثار الماضي وإزالة معالمه في كل مكان.

مطاعم شاهي بازار

وسنرى بعد مشاهد مريرة أخرى في بلدة (هالة) وغيرها، كما سنرى مشاهد التقدم والخلق في سد نهر السند وجامعة حيدر آباد الجديدة، وعند ذلك تصح المقارنة بين ما فعل الاستعمار وما فعله ويفعله الاستقلال.

وبعد فإن سوق شاهي بازار يستحق من التأمل والملاحظة الشيء الكثير، وحسبنا الآن أن نقول إنه سوق يجمع المتناقضات، ويلم الطرائف، ويؤلف بين الغرائب.

فهو سوق طويل، جد طويل، قل أن تجد له مُشاكلاً في طوله بين أسواق المدن، ولكنه إلى هذا الطول ضيق جد ضيق، وتتفرع عنه على جانبيه أزقة ضيقة لا تكاد تتسع لاثنين معاً، وفيه تتجمع أغرب مجموعة من المتاجر المزيجة الحاوية على كل ما يمكن أن يخطر على البال، وما لا يمكن أن يخطر.

وفيه، في حانوت واحد، يجتمع المطعم والتنور وطبخ الحلوى وقلي المفلفلات وتجتمع قدور النحاس على المواقد في صف، وفي صف يرق العجين ويلقى به إلى التنور المشتعل، وتتلهب نار الموقد البترولي عنيفة لتنضج قطع الحلوى الشعبية الغارقة بالزيت المغلي، وتتلظى جذوات الموقد البترولي الآخر تحت المفلفلات!

ثم في جانب تمتد مناضد خشبية طويلة ضيقة واطئة، وعلى طرفيها مقاعد خشبية تناسبها في كل ذلك، وتشبهها في آن آخر شيء تصلح له هو أن تعد عليها مآدب شهية!

ولكنها إذا كانت في نظرنا كذلك وإذا كان هذا الحانوت المطعم المطبخ التنور مما يقزز نفوسنا، فمن نحن لتصحّ أحكامنا!

إنني حين أسبغ على نفسي إنسانيتها الضافية، وأتطلع إلى هذا المكان من خلالها، أران، أشرف مكان وأقدس موضع!

أليس هو الذي ترتمي عليه أجساد هدها الجهد وأضناها السعي، فيكون لها ملاذاً حين لا ملاذ لها، أليس هو الذي يروي أفواهاً كظها ظمأ الهاجرة وأوام العمل حين لا ري لها! أليس هو الذي يشبع معداً أخواها كد اليدين وسعي الرجلين حين لا شبع لها إلاّ فيه!

إنني أنا الإنسان أنحني بكل ما في قلبي من إجلال أمام هؤلاء النفر الطباخين الخابزين، وأتطلع بكل ما في نفسي من حنان إلى هؤلاء الآكلين الشاربين، وأرنو بكل ما في عيني من إكبار إلى هذه الجدران التي سودها الدخان، وهذه المقاعد التي غيّر لونها عبث الزمان، وهذه الموائد التي أضواها الحدثان!

إلى هذه القدور النحاسية، والأواني الفخارية، والمواعين الشعبية، إلى كل ذلك مما يمكن أن تنبو عنه العيون وتشمئز منه النواظر، وتنفر منه الألحاظ!

وإنني أحس أن حيوانيتي هي التي تتغلب حين لا أستطيع أن أؤاكل هؤلاء وأجالسهم، حين أتركهم إلى أطايب الصحاف وزواهي الموائد.

پلازا أوتيل

والحديث عن شاهي بازار لا يخلو أبداً من الطرافة فقد ضاقت الأسماء ـ فيما يبدو ـ حتى أطلق اسم (پلازا أوتيل) على مطعم وحجرات يكفي فيها أنها من صنف ومطاعم وحجرات شاهي بازار!

في منطقة حيدر آباد

مضينا صباحاً من حيدر آباد وفي نيتنا الوصول أولاً إلى مقبرة الشاعر الصوفي الكبير شاه عبد اللطيف ثم تتبع مشاهد ثانية بقدر ما تسمح به باقي النهار، وعلى طول الطريق من حيدر آباد كنا نمر بين البساتين الزاهية، ونشق خضرة نضيرة لا حد لها، وعبرنا فيما عبرنا على نهرين قادمين من السد الكبير (سد غلام محمد) خارج حيدر آباد هذا السد الذي سنراه بعد والذي هو مفخرة من مفاخر ما بعد الاستقلال.

أما على الطريق فقد تتابعت المشاهد ملونة منوعة تعبر عن طراز حياة الناس في هذه السهول، فها هنا عربات تجرها الثيران، هذه الثيران التي غلظت رقابها، وعظمت أجسادها فجعلتها جديرة بتحمل الأعباء الثقال. ومما تميزت به، هذا الارتفاع في أصل الرقبة ارتفاعاً يلفت النظر ويؤكد جدارتها بالقيام بالمهمة التي عول عليها بها الناس في أرضهم هذه! ولا أدري ما الذي يحذرونه منها حتى جعلوا حبل المقود في أنوفها فأدخلوه من فتحة وأخرجوه من الثانية وأوصلوه إلى أيديهم يحكمون به وثاقها ويضبطون به أمرها فلا تحيد ولا تتمرد!

وما أكثر المهمات التي تنهض بها الثيران في هذه الأرض إنها في ضواحي حيدر آباد وهناك في لاهور، وهنالك في كل مكان، تجر من الأثقال ما لم نكن نحسب أن البقر يقوى عليه!

إنها كما شهدناها بعد في لاهور وكما نشهدها هنا، تجر تلالاً من جذوع الشجر وهضاباً من أكياس

القمح وركاماً أي ركام من الحديد، وتجر كل شيء من كل نوع! إنها فيما بدا الأصل في وسائل النقل وما من وسيلة أخرى يمكن أن تسد مسدها.

وها هنا على طول الطريق، المشاهد الشعبية الأصيلة تتابع بشتى المنابت والمنازع، وتمر لا رتيبة بل متفرقة الصور متغايرة المطالع متباينة المدارج!

الحمير والدراجات: الأولى ترقل بالناس أرقالاً، وتخب بقوافل الركبان، والثانية تدرج بهم فرادى متسارعين!

عربات الخيل والسيارات: هذه تشغل الدرب من جانب وتلك تشغله من جانب آخر!

نساء يحملن على رؤوسهن ورجال يمشون على الأقدام، فلاحون يشذبون قصب السكر المقطوع، وقروي تنكّب عصاه معلقاً عليها متاعه ومشى إلى غايته!

ما أكثر المشاة على الأقدام رجالاً ونساء وأطفالاً، إنهم يمشون مجتمعين، اثنين فأكثر من اثنين، وثلاثة فأكثر من ثلاثة! هذا رجل يحمل الحطب على رأسه وهذا رجل يرحل بعائلته ويسوق أمامه فرسين أوقرهما بالأمتعة وأركب عليهما أطفاله ومشى وراءهما، وهذه أسرة كاملة تقتحم الطريق بأقدامها، الأم تحمل طفلاً والأب يمسك بيد طفل، وطفل آخر يمشي وحده جنباً إلى جنب مع أبويه، وهذه أسرة أخرى كانت أحسن حالاً، حمل الجمل متاعها واقتعدت المرأة ظهر الجمل ومشى الرجل وراءها يسوق الجمل! وهذا رجل عاري الأعلى أغرته الساقية فنزع قميصه وبله بالماء وأعمل فيه المخباط!

العمائم السندية هي أبداً شعار الرجال، إنهم يعتمرونها بألوان شتى.

ثم تكاثفت البساتين وعظم الشجر فأحسسنا أن هذا السهل هو حقاً روضة من الرياض. ومررنا ببلدة متياري فرأينا المسجد المتعدد القباب، ورأينا المنافذ المظللة في أعلى الأسطحة لتعدل حرارة الجو بما تحمله من الهواء إلى داخل المنازل!

ولن تعدم وأنت تسير أن تبصر أحياناً مقاهي قروية على جانبي الطريق. ولكن الذي لا تبصره أبداً هو المحاريث الآلية. إن الحراثة هنا على البقر دائماً، وهكذا فقد قدر للثيران أن تحمل وحدها أعباء الحياة هنا فهي إما تجر وراءها العربات في المدن وعلى الطرق بين المدن، وإما تجر المحاريث في الحقول والبساتين!

ولم أبصر أبداً بيوتاً وعمائر في البساتين، فما أجدر هذه البساتين أن تكون منازل لعمارها، ولعل البيوت في قلب البساتين وراء الطريق لذلك لم تبن لعيوننا!

وقبل أن نترك الجادة وننحرف إلى الطريق الفرعي رأينا في قرية (شيخات) النخل يرتفع من بين الشجر عالياً!

شاه لطيف

شاه لطيف أو بالأحرى شاه عبد اللطيف هو شاعر صوفي عريق في صوفيته مبدع في شعره، مخلص في ولائه، مضى على وفاته ٢١١ سنة ولا يزال له أتباع ومريدون يتغنون بشعره ويترنمون ببيانه، بل لا يزال

هنا بقايا صوفيين أعظم ما يهيجهم هو أن يستمعوا إلى شعره مرتلاً على أنغام الطنبور نفسه الذي كان يستمع إليه هو نفسه، والذي لا يزال محفوظاً حتى اليوم مع مصحفه وسبحته ونعله وسبحة صديقه (الفقيد ثمر). كما لا يزال محفوظاً سريره الذي كان ينام عليه ومنزله الذي كان يسكنه. وقد تعمدوا أن يجعلوا باب المنزل واطئاً لينحني الداخل إليه انحناء إجبارياً إذا لم ينحن باختياره أمام جلال الصوفية وشاعرها!

وأنا لا أعلم التفاصيل عن حياة الصوفيين وطراز عيشهم، وشكل ألبستهم لذلك لا أستطيع أن أحكم عليها من خلال الرجل الذي رأيناه فيمن رأينا من الناس هناك عند قبر شاه لطيف، والذي يقول إنه صوفي والذي يظهر بمظهر مضحك عجيب، فهو يلبس ملابس غريبة ويضع في رجليه الجلاجل وفي صدره القلادة، ثم ليثبت صوفيته يهتز كله ويحرك قدميه فترن الجلاجل، ويبدو الأمر سخرية أكثر مما يبدو صوفية!

ولا أحسب أن الصوفية العربية كانت تحتوي على شيء من هذا، ففي الصوفيين رجال تدل آثارهم على أنهم أبعد الناس عن السخف!

مقام شاه لطيف

كنا نحن نقطع الطريق هادفين إلى الوصول إلى قبر الشاعر الذي طار صيته وانتشر ذكره وعمّت أشعاره، وكنا حتى الآن نسير على الجادة الكبرى التي تنتهي إلى لاهور وإلى ما وراء لاهور حتى تصل إلى بشاور ثم إلى الحدود الأفغانية.

أما الآن فقد تركنا الجادة وانحرفنا في طريق فرعي بدت منه القبة خلال الأشجار، وبعد ساعة أقبلنا على البلدة فانجلت القبة انجلاء كاملاً، وظهرت ناصعة البياض، مشرفة على بيوت البلدة الشاحبة، وظهرت حولها عدة قباب أخرى.

ولما وصلنا استقبلنا الخدم بألبستهم السوداء التقليدية، وطُلب إلينا أن ننزع الأحذية إذ لا يصح الدخول إلى حرم الشاعر الصوفي والأحذية في الأقدام، ليس لأن الساحة الخارجية مسجد أو مصلى، فهي ليست كذلك، ولكن احتراماً للثاوي في صعيدها، أو بالأحرى احتراماً للروحانية العظمى التي سبحت فيها صوفيته الكبرى!

ونزعنا الأحذية وكنا في الساحة الرحبة فإذا فيها بعض الشجر، وإذا جماعة من المعوزين معظمهم شيوخ يجلسون ساهمين ساكتين، وبعض العائلات الزائرة تفترش الحصر برجالها ونسائها وأدواتها المنزلية.

ثم انتهينا إلى صحن المسجد فإذا للمسجد واجهة فنية من القيشاني النفيس الأزرق، أما من الداخل فهو مستطيل الشكل بسقف خشبي منقش تتدلى منه ثريات الزيت القديمة ويقوم على أعمدة رخامية، وهو من الداخل قسمان يفصل بينهما أسطوانات عريضة تشكل جدراناً من الأرض إلى السقف فيها ثلاثة مداخل تفضي إلى القسم الداخلي ذي النقوش القيشانية.

وهذا المسجد بناه الشاعر في حياته قرب منزله وقد نقش فوق محرابه بيتان من الشعر الفارسي من نظمه

تعريبهما: محمد هو سيد الدين، وقلبي ينيره سراج من حبه، وعيناي الاثنتان تفديان جواهر الإسلام الأربعة: علي وفاطمة وابنيهما.

وإلى جانب المسجد يقوم القبر تحت قبّة بيضاء ذات جدران قيشانية، ويتقدمه إيوان من القيشاني تحت أعمدة قيشانية أيضاً، وكل قيشاني هنا أزرق اللون.

ولا بد من القول بأن طراز المساجد والقباب والمآذن هو طراز سندي يختلف عما عرفناه عندنا، وهذا الطراز في المساجد يكثر في واجهاته وحول قبابه ما يمثل المآذن والقباب بشكل مصغر كل التصغير.

أما القبر نفسه فهو داخل قفص خشبي فني جميل وإلى جانبه قبر حفيد أخيه شاه جمال، والقبران مجللان بالديباج الثمين، وحول المقام قبور كثيرة بعضها في ساحة فضاء وبعضها في غرفة خاصة بينها قبر والده شاهد حبيب، وفي غرفة أخرى قبور أخرى. ومن مظاهر الحياة هنا، هو أنه حتى الأطفال يرتدون العمائم السندية!

ولقد شهدنا المقام وقسماً من البلدة يقومان على مرتفع ينحدر حتى يصل إلى بركة ماء لا تفرق عما ألفناه عندنا في جبل عامل من برك القرى المتجمعة من ماء المطر، كما لا تختلف عما يجري في تلك البرك من أنها مورد للمواشي ومغسل للأواني وغير الأواني. وقد شهدنا في بركة مقام شاه لطيف عدا المواشي الواردة واحداً يغسل رأسه وأعلى جسده، كما رأينا واحداً يغسل ملابسه، ولما استفسرنا عن أمر هذه البركة قيل لنا إنها لا تتجمع من ماء المطر كبركنا بل يرفدها ماء متصل بالنهر.

وعلى الجانب الآخر من البركة يقوم القسم الثاني من القرية، وهكذا تقع البركة بين شطري البلدة مما تختلف فيه عن بركنا من حيث إن تلك تقع دائماً بعيدة عن القرية وفي الجانب الشرقي منها على الأغلب. وإذا كانت هذه هي صورة القديم بدت فيما تقدم منها فلن نغفل الإشارة إلى الجديد الذي يدل على توغل التحسين، ففي هذا المحيط العابق بالريح الصوفية وفي هذه الأرض القروية، برز بناء شامخ يدعو إلى مزج القديم بالجديد واستخلاص كل نافع مفيد منهما، فهناك في الضفة المناوحة للمقام أقامت الحكومة مركزاً ثقافياً جعلت منه مقراً للذين يريدون دراسة الشاعر، وأنشأت فيه مكتبة وعلّقت ألواحاً صورها الرسامون الباكستانيون لقصص الشاعر ومواضيعه، فكان هذا العمل أجمل تحية لشاه لطيف وأفضل دليل على العزم على النهوض بهذه الأرض الطيبة.

إلى بلدة هالة

خلفنا وراءنا الشاعر الصوفي وقبره وقريته، بعد أن أرضينا شعورنا بتكريم الشعر بزيارة قبر شاعر من أكبر الشعراء. وإذا كانت الصوفية وكراماتها هي التي حملت من حملت على اللياذ بضريحه والتبرك بآثاره، وإذا كانت هي التي فتقت أذهان مريديه، على أن يقللوا من ارتفاع باب منزله ليحني الزائرون أجسامهم ويطأطئوا رؤوسهم، فإن الشعر وكرامته والأدب وحرمته هي التي حملتنا على الطواف بقبره وتلمس بقاياه وتتبع مساكنه!

وها نحن الساعة موغلون في السير بعيداً عنه ولكن غير ناسين له، وها نحن نقبل على بلدة (هالة)، وقبل أن نصلها لمحنا نوعاً غريباً من البيوت: بيوتاً مدورة الشكل ومبنية بالطين اليابس ومسقوفة بالهشيم بما يشبه القباب.

ووصلنا هالة، وكان اليوم يوم الجمعة فأبصرنا على باب المسجد صفين من المستعطين نساء ورجالاً وأطفالاً، ولمحنا أنواعاً من البؤس يتفطر لها القلب، وأشفقنا على الباكستان التي ترك لها الاستعمار أعباء ينوء بحملها أقوى المناكب.

وبدخولنا البلد رأينا المشاهد المتباينة، فمن خيول لا تعد مربوطة في الشوارع والأزقة إلى حمير مشدودة في الأسواق، إلى مجارير مكشوفة في الدروب، إلى جيوش هائلة من الذباب! الذي لم يستطع معه مضيفنا ابن هالة إلاّ أن يقول: قرأت أن لا ذباب في الصين فلعله هاجر من هناك إلى هنا.

إلى أسواق هي كهوف مظلمة، إلى مقاه ومطاعم هي دون المغاور والكهوف!

إذا شئت أن تعرف مدى تحمل الإنسان، ومدى تعوده على أسوأ ظروف العيش فزر أسواق هالة، أقول بعض أسواقها لأنه لم يكن لي أن أعبر أسواقها كلها بما لديَّ من وقت محدود فلعل فيما لم نعبره ما هو خير مما عبرناه، ولكن لا أظن ذلك!

وانتهينا إلى منزل مضيفنا (عبد العليم القاضي) مدير الأوقاف في هذه المنطقة، فإذا منزل يتباين مع ما أبصرناه في الدروب نظافة وتنسيقاً، ولكن ما هي نسبة أمثال هذا البيت إلى عدد البيوت الأخرى، هذا ما لا نعلم عنه شيئاً!

وجيء بأطباق الطعام، فإذا هي كلها مغطاة تغطية محكمة! وهل تعجب إذا عرفت أنه لا بد لكل طبق من غطاء محكم، وأن الغطاء يعد مع الطبق، هل تعجب من ذلك حين تمر بما مررت به من أسراب الذباب، ومن يحمي الطعام من الذباب المتسرب إلى مثل هذه الدار إذا لم يحمه الغطاء المحكم، أما حين توضع الأطباق على المائدة فإن الأيدي كفيلة بذوده عنها.

وكل الأطباق التي حوتها المائدة هي أطباق محلية الصنع تنتجها المصانع اليدوية في هالة، وهي على تنوعها، كبيرة وصغيرة عميقة وغير عميقة، من خير الأطباق، ولقد زرنا مصانعها كما زرنا مصانع النسيج اليدوية، وأبصرنا في الأخيرة الأطفال من سن السادسة فما فوق يعملون مع الرجال جنباً إلى جنب.

ولما وضعت الأطباق المليئة بالطعام، وانتثرت الأطباق الفارغة أمام الضيوف، لم أبصر الملاعق إلاّ في الأولى ثم أدركت أن الملاعق هي لنقل الطعام من الطبق المليء إلى الطبق الفارغ، فقط أما الأكل فبالأصابع وحدها.

التجديد

إذا كان في هذا الذي مر بعض المرارة، فإن الحلاوة كل الحلاوة هي أن أيام الاستقلال لم تذهب سدى، فهذا الطريق الإسفلتي الطويل على الجادة الكبرى وهذه الكهرباء التي تشع في كل مكان في القرية

الصغيرة، كما في المدينة الكبيرة، وهذه الآبار الجوفية التي ارتوت منها هالة هذا كله من صنع أيام الاستقلال. وما أقصر تلك الأيام وما أكثر ما صنعت.

والآبار الجوفية روت هالة فحفلت بها البيوت كما حفلت بها الشوارع، آبار البيوت خاصة وآبار الشوارع عامة، على أن الذي لم أجد له تفسيراً هو أنه ما دامت البئر في البيت فلماذا لا يمد أنبوب تغسل من حنفيته أيدي الضيوف، ولماذا لا يزال يستعمل في غسل الأيدي الطريقة القديمة من تكليف إنسان أن يصب الماء من إبريق على الأيدي فوق الطشت!

لقد كنت أنفر كل النفور من أن أغسل يدي بجهد خادم، يكون حظه من المائدة أن ينظف أيدي الآكلين فيفتح قابلياتهم ويثير شاهياتهم، ثم يكون له هو أن يأكل بقاياهم بيدين غير غسيلتين. وها أنا أفاجأ في هالة بهذا من جديد.

على أن طريقة غسل الأيدي فوق الطشت هنا لا تخلو من تغيير، فبدلاً من أن يوضع الطشت على الأرض فينحني الغاسل والصاب، وضع الطشت على قاعدة خشبية عالية يبقى فيها الاثنان منتصبي القامتين.

أعظم التجديد

بين (شاهي بازار) و(جامشورو) تسعة أميال وبين شاهي بازار وبين سد غلام محمد، على نهر السند أربعة أميال ونصف الميل، هذا حين نحسب المسافات بالأميال أما حين نحسبها بالحضارة فبين شاهي بازار وبين السد وجامشورو قرون من الزمن سحيقة، وأبعاد لا يحدها عد، ولا يحصيها تقدير!

في شاهي بازار، بقايا من تأخر الإنسان وجهله وفقره، وفيه من المشاهد ما لا تحب عين السائح أن تقع عليه، وفيه من البؤس ما يحز في النفس!

بائع الحليب في شاهي بازار وبائع «النهاري»، والساهرون على حوافي الدكاكين، والمقهى المغارة، والمطعم الكهف، وبلدة هالة، كل ذلك شيء لا يروقك! هذا صحيح! ولكن من أوصل بائع «النهاري» على باب قلعة حيدر آباد، وبائع الحليب في شاهي بازار، والمقهى المغارة والمطعم الكهف وأسواق هالة وأزقتها، إلى ما وصلت إليه، ومن ألبسها هذا الثوب الداكن، ومن جعلها نابية في الذوق والحس والنفس؟

إنهم الذين حكموا هذا البلد عشرات السنين، حكموه بالحديد والنار، واستنزفوا دمه، وامتصوا عروقه، حكموه وهم المتحضرون المتمدنون ليؤخروه في مجال المدنية، وليعيقوه في سير الحضارة، حكموه ليسلبوا أربعمائة مليون إنسان رزقهم ثم ليحملوا هذا الرزق إلى ٤٠ مليوناً.

أشقوا أربعمائة مليون إنسان ليسعد بشقائهم أربعون مليوناً.

إن ما في شاهي بازار وما في هالة، وفي كل مدينة شاهي بازار وفي كل ضواحي هالة ـ إن ما فيهما ليدمغ المستعمرين بالعار الإنساني الذي ما بعده عار.

ليس شاهي بازار مسؤولاً عما فيه، وليست حيدر آباد مسؤولة عن هالة، وليست الباكستان مسؤولة عن

الجميع، ولأن حيدر آباد ولأن هالة ولأن الباكستان كانت محكومة لا حاكمة، أن المسؤول هو الحكم الاستعماري الغاشم، الحكم الذي أشقى أربعمائة مليون إنسان ليسعد بشقائهم أربعون مليوناً.

إنني حين أصف هالة وشاهي بازار، إنما أصفهما وكأنهما موضعان من بريطانيا، لا من الباكستان، وأتحدث عنهما وكأنهما قطعتان من صميم لندن لا من صميم السند، وحسب بريطانيا وحسب لندن أن تكون نتيجة حكمها في عشرات السنين مثل ما رأيناه هنا وما رأيناه في كل بلد زرناه.

قلت إن بين شاهي بازار وجامشورو عشرة أميال وبينه وبين السد أربعة أميال ونصف الميل، هذا في حساب المسافات. أما في حساب غيرها فبينهما من البعد مثل ما بين الاستعمار والاستقلال.

لقد سمعت الحديث عن شاهي بازار وعن هالة، ورأيت كيف حكم الاستعمار القارة الهندية الباكستانية، فاسمع الآن الحديث عن السد وعن جامشورو، وانظر كيف يحكم الاستقلال!

الباكستان بلد زراعي عريق في زراعته، وستظل الزراعة عماده الأول مهما تقدم في ميادين الصناعة، والباكستان في معظمهما سهول واسعة تصلح لزراعة كل شيء وتنبت كل المواسم، وفي الباكستان من الأنهار ما يتدفق غزيراً ثراً ويجري إلى أبعد المسافات والمجالات، ولكنه يذهب هباء ويغور كأن لم يكن. والاستعمار لم يحاول أبداً أن يقيم السدود، وفي عمره الطويل لم يحدث أن وضع حجراً على حجر إلاّ في قلاعه وحصونه.

أما الاستقلال الطفل فهذا واحد مما بنى وأقام، هذا واحد من سعيه، هذا السد العظيم على نهر السند هو من صنع هذا الاستقلال الوليد. وليس سد السند إلاّ واحداً من كثير من السدود التي ولدت بولادة الاستقلال، وترعرعت معه وأنسلت وأنتجت ما شاء لها الإخصاب أن تنسل وتنتج.

هنا على بعد بضعة أميال من هالة ومن شاهي بازار، هنا الماء الدافق النظيم، هنا الحرجات الغضة الوريقة، هنا الخضرة الزاهية النضيرة، وها هنا فوق كل ذلك الغاز الطبيعي الذي اكتشفه الاستقلال في حقول بلوجستان وساقه أنابيب تمر هنا فيما تمر به من بلاد وعباد.

هذا السد قلب الأرض وبدل حالها، وساق إليها الخصب والإمراع بعد الجدب والقحولة.

الصحراء الجامعة

السد الذي قلب الأرض وبدل حالها، لم يكن وحده مجزياً في إنهاض هذه الدنيا الغافية على حواشي الصحارى وأحضان الماضي.

والماء الذي جرى خصباً ورياً لم يكن وحده نافعاً إذا لم ترتو الأذهان وتخصب العقول.

وكيف السبيل إلى ذلك؟ كيف السبيل إلى انبعاث جديد تبدل فيه أساليب الحياة تبدلاً يدفع بالأحياء إلى معارج الحضارة دفعاً حثيثاً؟!

لم يكن عسيراً ولا كانت المشكلة معقدة! فهناك على أرباض حيدر آباد صحراء مديدة، كان كل ما ظفرت به من الحياة قرية من الغلو أن نقول إنها قرية عامرة، وما عمران قرية تقوم على حافة الصحراء.

هناك في جامشورو حيث الصحراء النابية إلاّ على الحصى والرمال، والمقفرة إلاّ من لوافح الهجير، هناك كان الجواب، وهناك كان الحل.

فبعد أن نعمنا بمرأى السد العظيم، وأبصرنا بأعيننا ما فعل لهذه الأرض، وكيف تغلغل به متشعباً من كل ناحية، بعد هذا مضينا معجلين، وعلى مرمى البصر منا صروح تتعالى إلى أجواز الفضاء شاهقة رفيعة.

ولم يكن من الغريب أن تتعالى الصروح بين الحدائق والجنائن، وأن ترتفع الدارات على الحقول والبساتين، ولكن الذي كان يبدو غريباً أننا نمشي في صحراء مجدبة، ونقطع براً قاحلاً، قد يدل على أي شيء إلاّ أن يكون هذا الشيء عمراناً جديداً أو إنشاء حديثاً.

ولكن هذا هو الذي كان، فإن الاستقلال الجاد العامل حول هذا القفر إلى مغانٍ آهلة ومعاهد عامرة، حوله إلى جامعة عصرية أقامها على أفضل ما وصلت إليه وسائل العصر الحاضر.

المصادفة وحدها ـ فيما أحسب ـ هي التي جعلت السد غير بعيد عن الجامعة، فالطبيعة هي التي جعلت من هذا المكان صالحاً لإنشاء السدود، واختيار مكان السد لا يخضع للأذواق والآراء، بل يخضع للفن والعلم، وهذا ما حدث حتماً في اختيار مكان السد على نهر السند. ولكن هذه المصادفة كانت رائعة إلى أبعد حدود الروعة، فلو كان لمنشئي السد ومنشئي الجامعة الخيار في انتخاب أنسب مكانين لما اختاروا أنسب من أن يكون السد العظيم جار الجامعة العظيمة، جاران شاهدان على ما يمكن أن تحققه العزائم الماضية المخلصة.

ولم يكن أعذب في نفسي من أن أنتقل، في هنيهات، من ضفة نهر السند، ومن فوق سده الكبير، إلى ضفاف هذا العباب من العلم الجم.

وقد يقال: إن إنشاء الجامعات أمر طبيعي في بلد عصري متمدن، هذا صحيح، ولكن تحويل الصحارى إلى جامعات هو الشيء غير الطبيعي هو الشيء المتميز، هو الشيء المشرف، أن تتحول جامشورو من قرية غير عامرة ومن بادية مقفرة، إلى هذه الشواهق من البناء، وهذه الأواهل من الدور. أن تتحول إلى جامعة هذا هو الذي يقر عيون المخلصين.

شجون من الجامعة

ما دامت الجامعة قد قامت على الصحراء، وما دام البر المقفر هو الذي يحدق بها، فقد كان لا بد من تعمير شيء آخر غير معاهد الدرس ومختبرات العلم.

لذلك أنشئت مساكن للطلاب وأخرى للطالبات، إلى جانب مساكن الأساتذة والموظفين.

ولما كان الاهتمام منصباً في أول الأمر على كلية الطب فقد أقيمت منازل للأطباء ومنازل للممرضات، وأنشىء مستشفى كبير يتسع لخمسمائة وخمسين سريراً، جعلت كلها مجانية واستثني منها ستة وثلاثون سريراً خصصت لمن يمكن أن يدفعوا النفقات، وحتى هذه الأسرة جعلت نفقاتها زهيدة قليلة.

ومن أروع ما حوى هذا المستشفى: قسم الأطفال، فقد بذلت لهذا القسم عناية فائقة وكرمت فيها الأمومة تكريماً عظيماً، فلقد راعى المسؤولون ما ينال الطفل المريض في بعده عن أمه، فشجعوا الأمهات

على الحضور مع أطفالهن ليرعينهم ويحنين عليهم، وخصوهن بغرف يلجأن إليها إذا أجنهن الليل فينمن فيها قريرات بجوار أطفالهن.

وحين مررنا نهاراً بأسرة الأطفال أبصرنا الأمهات بجوار الأطفال المرضى، بقلوبهن الحانية وعيونهن الرانية، وهل أجدى في تمريض الطفل من يدي أمه!

وكيف تصنع الأم الفقيرة حين يضم المستشفى طفلها بدائه، هذا إذا فاز الطفل بنعمة المستشفى، ولم يهلكه المرض ولم يقتله الداء.

كيف تصنع الأم وهي أعجز من أن تنفق على طفلها فكيف إذا كان عليها أن تنفق عليه وعلى نفسها؟

ولكن هذا المستشفى الباكستاني فتح أبوابه للطفل وللأم معاً، فالطفل يطبب ويداوى ويأكل وينام، والأم ترعى وتحنو وتأكل وتنام، كل ذلك دون أن يتكبد رب الأسرة أو ربتها فلساً واحداً، لأن نظام المستشفى يفرض أن يكون كل ذلك مجانياً.

شعارات عربية

وترى على جدران الكلية حيث تلفت لوحات باللغة العربية تتضمن آيات من القرآن أو أحاديث نبوية، أما شعار الكلية فهو أيضاً باللغة العربية وهو بهذا النص: «أفضل الأشغال خدمة الناس». وقال لي الدكتور نجيب خان عميد الكلية: إن شعارات كلية الطب في أوروبا تكتب باللغة اللاتينية، وقياساً على هذا يجب أن يكون شعارنا باللغة العربية.

أما عمارات الكلية فقد أطلق عليها الأسماء الآتية: ابن سينا، الرازي، ابن النفيس، الطبري.

المستوى العام

كل ما في هذه الكلية على مستوى عال، المساكن والمطاعم وقاعات المساكن والأثاث والحدائق هذا فضلاً عن التمريض والتطبيب، ومما يستتبع ذلك من آلات وأدوات وأعمال.

الفروع الأخرى

وكلية الطب هي واحدة من مجموع كليات الجامعة، وقد بدىء بها أول ما بدىء لأن الناس إليها أشد حاجة، وتتطلع في الرحاب الواسعة فترى الصحراء وقد انقلبت إلى (ورشات) قائمة قاعدة، تعمل على إنجاز بناء بقية الفروع والأقسام.

موقع الجامعة

والجامعة كما قلت تقع في صميم صحراء، إحدى ضفتيها خضرة وغابات ووراء ذلك النهر. ثم مدينة حيدر آباد، أما الضفة الثانية فبر مقفر يمتد إلى ما لا حد له.

في محطة حيدر آباد

ودنا الرحيل عن حيدر آباد، وأزفت الساعة التي أقبلنا فيها على المحطة من جديد لنبرح هذه الأرض

الطيبة، وفي انتصاف الليل احتوتنا المحطة منتظرين قدوم القطار ليحملنا إلى الأقاصي البعيدة.

وها هنا رحت أتفرس في الناس وأجول بينهم وقادتني قدماي إلى حيث ينتظر ركاب الدرجة الثالثة، فإذا بهم قد افترشوا المقاعد الخشبية هاجعين، أو بسطوا بعض متاعهم على الأرض واستلقوا عليه نائمين. وربما اجتمع أربعة أو أكثر أو أقل على طعام لهم يأكلون، وآخرون أحضروا أكواب الشاي يترشفونها، وغيرهم عكف على (الأركيلة) ينفث الدخان.

وحتى باعة المأكولات في هذا الجانب هم من الدرجة الثالثة بأدواتهم وملابسهم ومآكلهم وسرجهم، وحتى هذا الذي علق على (بسطته) لوحة تحمل اسمه فكتب عليها محمد يعقوب خان.

وجماعة الدرجة الثالثة هؤلاء لم يهملهم الاستقلال، فإنهم وهم الكثرة الكاثرة من الشعب كانوا أجدر الناس برعايته. ففي عهد الاستعمار كانت عرباتهم وحدها المعرضة لغبار الطريق، أما اليوم فتصنع لهم عربات تمنع عنهم الغبار، وكذلك كان الحر من نصيبهم وحدهم، ولكن المراوح تعمل اليوم لعرباتهم. وتحت الإنشاء حتى عربات مكيفة الهواء لهم.

والعمائم التي رأيناها من قبل متباينة الألوان، كانت هنا الآن بيضاء ذات لون واحد، ومن بعد العمائم على الأجساد أردية سابغة هي الأخرى بيضاء.

وصعدنا القطار وأسلمنا أنفسنا إلى النوم فلم أفق إلاّ في السابعة صباحاً.

في طريق مولتان

على مطالع الصباح كنا نجوز السهول الباكستانية، هذه السهول الطويلة المديدة التي ظللنا نجوزها منذ خرجنا من كراتشي، حتى بلغنا هذا المدى، وسنظل نجوزها فيما نحن مقبلون عليه من سفر جديد.

على أن السهول هنا اختلفت عما عرفناه من قبل بين كراتشي وحيدر آباد، فهي هنا بيضاء التربة بياضاً يكون أحياناً ناصعاً، وحين تخلو من العمران فإن الشجر يتخللها ماشياً معها، وأما حين تحفل بالقرى والدساكر فإن الشجر يطبق على هذه إطباقاً يعمها فيما حولها وفيما تخللها، وكذلك فإن الزرع يحف بها من كل جانب. ولقد حسبت هذه السهول، أول مرة حين فتحت عيني عليها في الصباح، حسبتها لبياضها صحراء قاحلة، بيضتها الرمال البيض، ولكنني لم ألبث أن شهدت الشجر ثم شهدت القرى متتابعة.

لقد كانت عامرة كأحسن ما تعمر السهول: قرى وزروعاً وشجراً وقطعاناً، وكان قصب السكر يطل متشابكاً من حيث تطلعنا إليه. وكنا كلما أوغلنا في السير بدت لنا الأرض أحفل بالعمار والإخصاب، وبعد أن كان ذلك كله يلوح بعيداً عنا صار يدنو منا، وصرنا نطالع البناء والشجر والزرع على مقربة قريبة.

ويظل السهل يتتابع رتيباً عامراً ناضراً حتى بلغنا بلدة (صادق آباد) التي بدت لنا كبيرة تملأ العين. وبدت حقولها نضيرة زاهية وأشجارها كثيفة عالية تحوطها من كل صوب.

وظلت بعدها الزروع والشجر والأقنية والقرى والبلاد تتابع ما تتابع سيرنا، وظلت حقول قصب السكر تمتد وتنتشر حولنا، وظللنا في هذه المشاهد نبصر عربات البقر وقطارات الجمال على الطرق والمعابر، كما لاحت لنا حقول القطن فيما لاح من زروع.

أما عربات البقر هنا فقد كانت أكثر بدائية بعجلاتها الخشبية، وأما قطارات الجمال فقد كانت تحمل أكثر ما تحمل أكياس القطن، ولا بدع فنحن نجوز أرضاً هي من أحفل الأرضين بزراعة القطن والعناية به، وهي تعد له هذه الجمال الكثيرة العدد.

وظللنا نمشي وكأننا في مزرعة واحدة بدأت بابتداء السير ولما تنتهِ بعد، وظللنا في سهول وزروع وأشجار وقرى وحقول، وظل قصب السكر والقطن أكثر ما تنبت تلك الحقول حتى وصلنا محطة بلدة (ديره نواب صاحب) حوالى الساعة العاشرة.

وهنا طلع لنا النخل حول البلدة ووسطها كما طلعت لنا النواعير المقادة بالبقر، والبساتين المنسقة المسورة. ثم توارت النواعير بعد ذلك حول ما رأيناه من قرى وما اجتزناه من دساكر، ولبعض تلك النواعير مقاعد يجلس عليها الصبيان لحث البقر على السير!

ولم تلبث السهول أن عادت غابات كثيفة وأشجاراً متشابكة مما أزال رتابة المشهد ووحدة المنظر، وقبيل

بلدة (بهاول بور) ثم حول بهاول بور وفي سهلها الواسع بدا النخل متفرداً ولكن منتشراً، وقيل لنا إن التمر هنا من خير التمور.

وعلى الطرف الآخر لبهاول بور طلعت لنا بركة ماء كتلك التي شهدناها من قبل في شاه لطيف، رأينا الناس عليها رجالاً ونساء منصرفين إلى غسل ملابسهم، وخبطها بالمخابيط بينما امتلأت الأرض حولها بالملابس البليلة لتجف بعد الغسيل، فما حال هذه البركة وما شأن مائها!

وفاتني أن أقول لك إننا في كل ما تحدثنا عنه إنما كنا نعبر أرض البنجاب بعد أن كنا قد تخلينا عن أرض السند. وإننا الآن نسير حثيثاً إلى مدينة (مولتان).

وعلى نهر (بياس) عبرنا جسراً، وكنا في السهول وكان القطن وقصب السكر والنواعير والجمال والأقنية هي رفيقنا الدائم. وبعد بلدة مظفر آباد وعلى تخوم مدينة مولتان، كثر النخل وانتظم الشجر صفوفاً على طريق السيارات الموازي للقطار وتكاثفت البساتين ثم أقبلنا على مولتان[٣].

مولتان

شيء ما كا يشدني إلى مولتان، فمنذ مئات السنين شهدت هذه المدينة هجرة عربية قوامها جعفر بن محمد بن عبد الله بن عمر الأطرف بن علي بن أبي طالب وثلاثة عشر رجلاً من نسله، روعوا في موطنهم (الحجاز) فما استقرت بهم الدار حتى وصلوا (مولتان) فلقوا فيها الطمأنينة، واحتضنتهم المدينة وأريافها احتضاناً مخلصاً، حتى لقد سادوا فيها وملكوا وأصبح جعفر يخاطب بجعفر الملك، وتحدث عنهم مؤرخ بعد ذلك بزمن فقال: إن منهم ملوكاً وعلماء ونسابين، لسانهم هندي.

كانت ذكرى هذه الهجرة العربية تتردد في ذهني وأنا مقبل على مولتان، وكنت أتخيل جعفراً هذا وقد نزل مولتان بأهله غريباً فريداً، فلم يلبث أن أصبح ملكاً تعنو له البلدة، وتطيعه المنطقة، فبدل بروعه أمناً وبغربته وطناً وبوحشته سيادة. وكنت أتخيل الأجيال من بنيه ـ كما وصفهم المؤرخ ـ ملوكاً وأمراء وعلماء ونسابين يسمع لهم الناس ويحوطونهم بالرعاية ويمحضونهم الود، وكنت أتصور لسانهم الهندي منطلقاً بالرشد والهدى.

هذه هي مولتان مهجر جعفر وبنيه، وها هم أحفاد الذين استقبلوه ما زالوا على سيرة الأجداد حفاوة بالضيف وإعزازاً للصديق، وتكريماً للزائر.

ففي هذه الجمهرة من الصحفيين ورجال جمعية المؤلفين ونقابة المحامين، وفي تلك النخبة من بلدة (شيعة مياني) وحسينية كرديزي.

في هؤلاء جميعاً تحس شهامة الحاضر ممثلة شهامة الماضي، وتلمس اليوم روح الأمس، تحس ذلك وتلمسه لا في مولتان وحدها، بل منذ تصل كراتشي ثم تمضي قدماً إلى حيدر آباد فمولتان فلاهور فراولبندي فبشاور.

منظر مولتاني

من الحديقة العالية التي أطلقوا عليها اسم حديقة محمد بن القاسم، أطللنا على مولتان أصيلاً فكان لمنظرها البهي في تلك الساعة أثر بالغ في النفس! فإن غلالة من الضباب الخفيف كانت تجللها، وأسراباً

من الطير تحوم فوقها، وتدرجت البيوت على ما يشبه التلال، فبدت من وراء الضباب بطوابقها وكأنها نواطح السحاب.

ومن بعد ذلك بحر من البساتين يكتنفها من كل صوب، وشجر يتعالى بين البيوت في كل ناحية.

وأمام العين قبة الصوفي الكبير (شاه ركن العالم) بهندستها البنجابية الجميلة تتوثب طالعة نحو العلاء.

فندق جمعية المؤلفين

جمعيات المؤلفين في الباكستان من حسنات الاستقلال، ففي كل مدينة جمعية للمؤلفين ينضوي تحت لوائها أرباب الأقلام من كتاب وشعراء وأدباء، وتكون أشبه بنقابة لهم تجمع شملهم وتوحد كلمتهم وتحيي لهم مواسم العلم والأدب.

وفي مولتان كغيرها جمعية للمؤلفين، وهي كغيرها نشيطة في ميدانها أمينة في رسالتها. ولكن جمعية مولتان ظفرت بما لم يظفر به غيرها، ذلك أن لها فندقاً باسمها تستغله لمصلحتها وتنفق وارداته على شؤونها.

وكان موضع عجبي أول الأمر أن علمت هذا وعلمت أننا ننزل في فندقها، فكيف تيسر لهؤلاء الشعراء والكتاب أن يجمعوا ثمن فندق كهذا الفندق، فيجعلوا من إحدى غرفه نادياً لهم، ثم يؤجروا الغرف الباقية.

ولكن الأمر كان على غير ذلك، فهؤلاء لم يجمعوا مالاً ولم يدخروا نقداً، ولكن رجلاً ألمعي الذهن أريحي النفس تبرع لهم بكل ذلك فوهبهم هذه الدار وأعدها لتكون الفندق العتيد.

هذا الرجل هو الحاج حميد الدين الكاكوري، واحد ممن حملهم التقسيم من الهند إلى باكستان فهجروا أرضهم الأولى ولجأوا إلى هذه الأرض.

رأيته أول الأمر وراء مكتبه مديراً للفندق يسجل الأسماء ويوزع المفاتيح ويستقبل النزلاء، فلم أحسب أبداً إلاّ أنه رجل بسيط مأجور لا يثير في النفس أي التفات، مثله مثل عشرات الفندقيين الذي نمر بهم كل يوم، بل هو يتميز عنهم بلباسه المتواضع وهيئته البسيطة.

ولكن الدهشة كانت حين علمت أن هذا الكهل كان مالكاً للدار فوهبها لجمعية المؤلفين، ثم وهب لها جهده متطوعاً لإدارة الفندق ببساطة لا تعدلها بساطة.

أما السر في ذلك فهو أنه شاعر من أسرة كانت في الهند تستضيف الشعراء والأدباء من كل مكان، فنشأ في جو مكرم لهم. فلما هاجر وتفرقت الأسرة، أراد الوفاء لما ألفته الأسرة فلم يجد أفضل من أن يفعل ما فعل.

وترى على جدران مكتبه اللوحات الشعرية الحاوية أبياتاً من نظمه المختلف.

وراء مولتان

مثلما أقبلنا عليها نهاراً فلاحت لنا بكل معالمها، كذلك تركناها نهاراً ومضينا عنها ظهراً سائرين بين بساتينها وحقولها الخضراء.



محاضرة في مولتان

ها هو القطار يعاود بنا السير عن مولتان، وما أبصرناه منذ خروجنا من حيدر آباد، بل من كراتشي نبصره هنا على الطريق الطويل، فنحن نمشي وكان كل ما قطعناه هو حقلاً واحداً متصلاً.

وإذا اختلفت المشاهد فإنما تختلف أحياناً في التفاصيل فها هنا كما هناك: الحقول والشجر والأقنية وقصب السكر، وها هنا كما هناك عربات البقر تجوب الطرق في كل ناحية.

وبعد أرباض مولتان تفرقت البساتين وصارت شجراً متفرداً حيناً ومتكاثفاً حيناً آخر. ولم يختلف ما نبصره هنا عما نبصره هناك إلاّ في كثرة حقول الذرة، وكثرة بساتين البرتقال، وهكذا حتى أطللنا على لاهور ليلاً.

لاهور

ها هي لاهور بين أيدينا، ويا طالما شدونا باسمها قبل اليوم وهتفنا بذكرها ورنونا إليها من وراء الأبعاد فدنت من نفوسنا وقربت من قلوبنا.

ها هي اليوم بين أيدينا نحسها ونراها، وهذا ليلها الداجي يحتوينا مع كل ما احتوى في غلائله الضافية من عوالم زاخرة، هنا، على ضفاف شارع مال وحوافي سوق أناركلي، في باحات المسجد الجامع وحدائق شالامار، وردهات الجامعة وقاعات الجمعيات والمعاهد.

مشاهد لاهورية

مضيت في لاهور مستطلعاً وفي النفس ما يحثها على الاستطلاع والمعرفة، حثاً لم تعرف له مثيلاً في غيرها.

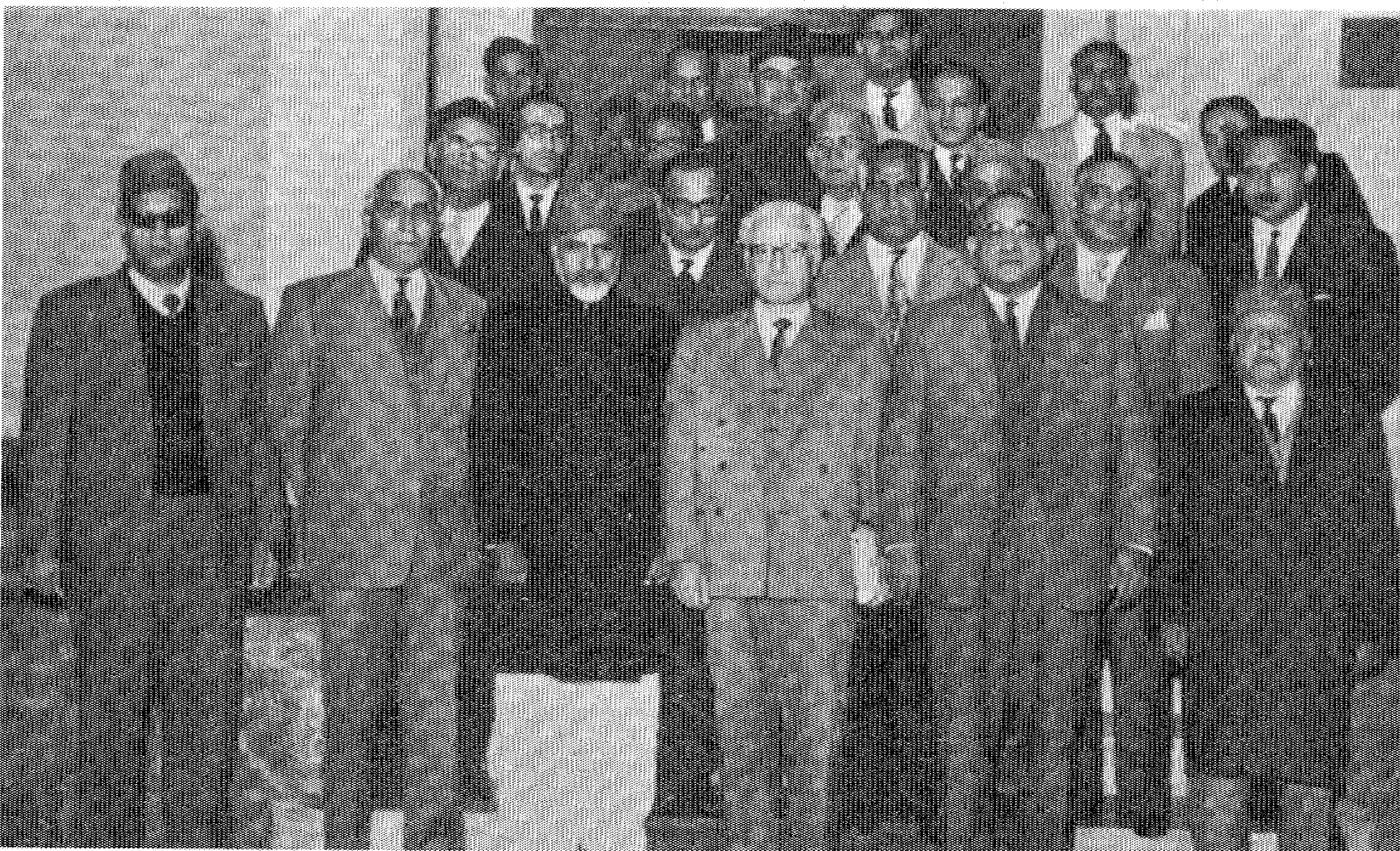
ولم يكن هذا عجباً فلاهور هي المدينة التي علمنا عن ماضيها وعن حاضرها ما لم نعلم مثله عن سواها، وها نحن الآن نمضي أول ما نمضي إلى مسجدها الجامع. ونظرة واحدة إلى هذا المسجد تنبىء بأنه أكبر مسجد عالمي، لا يعدله مسجد في موقعه وفي طراز بنائه وفي اتساعه وفي بركته وفي محاريبه وفي قبابه وفي مآذنه.

ثم هناك الباحة الخارجية بحدائقها الفيحاء، وجدرانها الأثرية، ثم يحيط بهذا كله رحاب مترامية الأطراف ومروج وحدائق على مد البصر.

ومن المسجد نمضي إلى جنائن شالامار التي بنتها نورجهان. وهي ببركها ونوافيرها وأشجارها وسواقيها وشرفاتها، وعمارها المغولي، ثم بهذا التدرج تدرجاً يجعلها على طبقات ثلاث، هي بهذا وبذلك اللون الوردي الذي اتخذت منه حجارتها تريك فناً لا عديل له في الحدائق والمتنزهات.

وإذا كانت حدائق شالامار هي بقايا من ماضٍ منقرض، فإن الحدائق هي اليوم ظاهرة لاهور البارزة، الحدائق الخاصة في المنازل والحدائق العامة في الشوارع، والشجر الكبير على الطرق، حتى إنك لتسير أحياناً فيخيل إليك أنك تسير في غابات ظليلة.

أما أطراف المدينة فتغرق في البساتين والشجر.



خارجاً من حفلة جمعية أصدقاء العالم الإسلامي في لاهور

قبر جيهانكير

وأباطرة المغول الذين بنوا المسجد الكبير وبنوا حدائق شالامار، لم ينسوا أن يخصوا أنفسهم بمقابر من صنف هذا المسجد وهذه الحدائق، فكانت مقبرة جيهانكير التي خرجنا إليها في ظاهر لاهور فعبرنا نهر (راوي) على جسرين حديديين وصلنا منهما إلى البرية بحقولها وبساتينها ونخيلها حتى بلغنا المقبرة الرحبة.

وتبدأ المقبرة أول ما تبدأ بحديقة أولى تفضي إلى حديقة ثانية، وإطلاق كلمة الحديقة هنا لا يفي بالحقيقة إذ إن الحقيقة فوق أن تحتملها كلمة حديقة، فنحن هنا في مروج ونخيل وأشجار وأزهار ونوافير وشوارع، انطلقت كلها رحيبة نظيفة متسعة وفي وسطها القبر بمسجده وحجراته ومآذنه ونقوشه ورخامه.

وعلى مقربة من ذلك مقبرة أخرى لآصف شاه، حمي جيهانكير والد زوجته نورجهان صاحبة حدائق شالامار، وعلى هذا القبر قبة على حجرة متسعة، ولكن القبة والجدران الخارجية مهملة حتى لقد تقلع قيشانيها ونقوشها دون أن تجدد، وكذلك هي من الداخل آخذة بالتقلع بما فيها الزخارف والنقوش.

وعلى جانبي القبر نوفرتان، ولكن يابستان لا ماء فيهما وهذا القبر هو الآخر يتوسط حديقة ولكنها مثله إهمالاً، فسبحان مقسم الحظوظ.

تقاليد لاهورية

لا تزال في لاهور تقاليد شعبية لم تذهب بها المدنية الحديثة فيما ذهبت به من تقاليد وعادات، ولا تزال هذه المدينة تحفل بالكثير مما ورثته عن سالفات الأزمان، ولا بدع في ذلك، فلاهور هي التي أعدها الزمن لتكون عاصمة الباكستان، لولا أنها تاخمت حدود الهند فلم تبعد عنها سوى بضعة عشر ميلاً. وهذا القرب لم يسمح بأن تكون عاصمة الدولة الجديدة، فكانت كراتشي العاصمة أولاً، ثم هي الآن تنقل إلى إسلام آباد على مقربة من راولبندي حيث تشاد مدينة حديثة على أحسن مثال.

ومن تقاليد لاهور التي بصرنا بها صدفة: الاحتفال بالعرس. فبينما كنا نسير ليلاً إذ سمعنا الموسيقى ثم رأينا العريس يعتلي فرساً وقد أردف وراءه ولداً صغيراً عرفنا أنه أخوه، وأن من تقاليد الحفل أن يردف العريس خلفه على الفرس دائماً أخاه الأصغر إن كان له أخ أصغر.

وخلف فرس العريس تسير السيارة حاملة في داخلها العروس وبعض أهلها، وقليلاً من الجهاز على ظهرها. وأما بقية الجهاز بأنواعه كالنحاس وغير النحاس، وكالسرير والكراسي وكل ما اشتمل عليه جهاز العرس، فهو محمول على رؤوس الرجال يسيرون به خلف السيارة التي تبطىء في سيرها إبطاء يتسق مع سير الفرس وسير الحاملين.

وقد رأينا هذا المشهد أكثر من مرة وفي كل مرة كانت أكف العرسان مخضبة بالحناء، وقيل لنا إنه إلى الآن لا يزال بعض الأثرياء يستأجرون فيلاً بدل الفرس للانتقال عليه في أعراسهم.

العاصمة الفكرية

قلت إن لاهور كان مقدراً لها أن تصبح عاصمة الباكستان لولا اقترابها من حدود الهند، ولكنها إذا لم تكن العاصمة السياسية للباكستان، وإذا كانت العاصمة قد تقررت في غيرها، فإن لاهور لا تزال العاصمة الفكرية.

ففيها المراكز الرئيسية لمعظم المؤسسات والجمعيات، فمن ذلك مثلاً: معهد الدراسات الإسلامية، وجمعية محبي العالم الإسلامي، ومجلس الشاعر إقبال، وإدارة تحفظ حقوق الشيعة والجماعة الإسلامية وإمامية مشن، وكل باكستان شيعة كانفرانس وحماية أهل البيت ومعهد تنمية اللغة الأوردية وجمعية خدمة الخلق وغيرها من المنظمات، التي لها فروع في الخارج أو ليس لها فروع.

الشوارع

ككل مدننا الشرقية تختلف الأحياء والشوارع في لاهور اختلافاً أي اختلاف، وتتباين مظاهرها أي تباين ففي لاهور شارع (مال) الفخم الذي يضاهي أحسن الشوارع في أرقى المدن.

وهو في الواقع ليس شارعاً واحداً بل ثلاثة شوارع في شارع واحد: شارع في الوسط تحف به الأشجار على الجانبين، ووراء كل جانب بعد الشجر شارع آخر. وفي كل واحد من الشوارع تتجمع كل لوازم الشوارع، من سيارات تسير أو تقف ومن دراجات وركشات، ومن بشر ومتاجر ومنازل.



في مدينة بشاور في احتفال جمعية المؤلفين والكتاب

والمتاجر هنا في الأناقة والفخامة على جانب كبير، وكذلك الشجر في ضخامته وعلوه ووريف ظله.

على أنك قد تجد في لاهور ما يناقض هذا الشارع، كما تجد مثل ذلك في كل بلد شرقي، وقد يوجد التناقض حتى في الشارع الواحد، كما هو حادث في شارع (راوي) مثلاً فوسط الشارع يبلغ الغاية إتقاناً، أما جانباه فقد يبتعدان عن ذلك أحياناً كل البعد.

ولكن مهما تباينت الشوارع واختلفت، فهي تتفق في شيء واحد هي أنها دائماً شجيرة يتعالى فيها الدوح وينتظم صفوفاً غضيضة ظليلة، وهذه لعمري حسنة تذهب بكثير من السيئات.

أما شارع راوي الذي ذكرته آنفاً، فهو مسمى على اسم النهر الذي تقع عليه لاهور نهر راوي. وكما ترى، فإن هذا الاسم عربي محض سمي به النهر لأنه يروي ما يروي من رياض لاهور وبساتينها وحقولها ومروجها، وليس في تسمية الأنهار أجمل من هذه التسمية المنطبقة على واقع المسمى كل الانطباق.

على أن بعض أحياء لاهور لا تزال تحمل أسماء مغولية، ولا بدع فقد قامت في هذه الأرض ممالك مغولية بلغت شأناً بعيداً في الحضارة، ومن تلك الأسماء اسم (مغول بوره) الذي يطلق على حي من أحياء لاهور ومعناه (مسكن المغول).

ولا يزال في لاهور بقايا عمرانية مغولية احتفظت بها المدينة، كالقلعة التي بناها محمد أكبر شاه والمسجد الجامع الذي بناه عالمكير وقصر المرمر الذي بنته شاه جهان، وكذلك ما لا يزال سالماً من السور وبعض أبواب المدينة القديمة.

وداع الباكستان

هذه الربوع الباكستانية الجميلة، حين يقدر لك أن تجوزها سائحاً فتمر بكراتشي ثم تمضي قدماً من خطة إلى خطة فتطالع السند عابراً من حيدر آباد حتى تخوم مولتان، ثم تمضي من معالم مولتان إلى لاهور، حيث يحملك السير إلى راولبندي طالعاً منها إلى القمم العالية في مري والنهر الجاري على حدود كشمير، ثم يؤول بك الطريق من بشاور وما وراء بشاور في قلب ممر خيبر حتى حدود الأفغان.

هذه الربوع الباكستانية الجميلة، حين يقدر لك أن تجوزها وحين تضمك بين جوانحها، مقيماً آناً وعابراً آناً ستحس كم هي حبيبة إليك.

ستحس بأن فيها من الحسن ما يجذبك إليها، ومن العواطف ما يربطك بها، ومن الإخلاص ما يشدك نحوها.

سترى أنها، وهي الأرض المديدة، تظل حيثما امتدت هي هي حسناً وعاطفة وإخلاصاً. وهي هي كرماً ووفاء وحناناً فلا تبدل الأجواء من الحر في كراتشي إلى البرد في راولبندي يبدل حالاً من أحوالها وسجية من سجاياها فهي هنا، على لوافح الهجير، جميلة كريمة، مثلما هي هناك على لواذع الزمهرير.

وهي هنا في السهل البسيط مثلما هي على الجبل الرفيع، جمالاً ونضارة، وخصباً وإمراعاً، هي هنا على هذه الأباطح كما هي على تلك الشوامخ مروءة ونجدة ووفاء وإخلاصاً.

من كراتشي إلى راولبندي جمال السهول انفساحاً بعيداً، جمال تريكه الحقول والرياض مواجة بكل أخضر يانع ينبعث من هنا وهنا، طوراً زرعاً ناجماً وطوراً شجراً عالياً. جمال أمدته بالحياة أنهار وأقنية تدفقت من السدود تدفق الشرايين في الجسد، فكان منها هذه الحياة المترعرعة.

السدود، وهل أروع ما فعلت هذه السدود الحديثة في هذه الأرض القديمة، هذه السدود التي أقامها الاستقلال على أنقاض الاستعمار، فانبعثت زهواً في كل حقل ونوراً في كل بيت وحركة في كل مصنع.

ثم من راولبندي إلى مري، من الوهدة إلى القمة، جمال الجبال شموخاً بعيداً جمال تريكه السفوح موارة بالدوح والذروات مياسة بالغاب.

وتنطلق معك التحاسين، وتمضي معك الجمالات من حيث طلعت عليها من بين الثنايا ومن خلف الشعاب حتى تبلغ الأعالي في مري، ثم تنحدر في مثل ما صعدت من شجر متواصل وغاب متكاثف، يؤلف وحدة جمالية بدأت من هناك من بعيد من تخوم راولبندي ولما تنته حتى توصلك منحدراً إلى نهر جليم.

وتتطلع فإذا الطبيعة لا تزال كريمة، والجبال ما تبرح جوادة فتود لو تستزيد، ولكن لا بد لك من أن تعود.

ومن راولبندي حتى بشاور وحتى ممر خيبر، وحتى ما وراء بشاور وما أمام بشاور من أودية غانية وأجزاع حالية وأباطح زاهية.



على حدود أفغانستان بعد اجتياز ممر خيبر مع جندي أفغاني

هذه الربوع الباكستانية الجميلة تحس، وأنت تنسلخ عنها، أن شيئاً غالياً قد انسلخ عنك.

وحين كان القطار يحملنا عائدين من بشاور إلى راولبندي، ثم منها إلى ما بعدها، وحين كانت تتردد على أسماعنا أسماء حبيبة، فنسمع على وقوف القطار: راولنبدي، لاهور، مولتان، حيدر آباد.

حين كان القطار يقف وقفاته فيصيح الصائحون بهذه الأسماء، كانت عند ذلك تتمثل لنا حقيقة ما صرنا إليه.

وهل أفجع مما صرنا إليه! إننا لآخر مرة نجوز هذه الأرض، ولآخر مرة نرى هذه المعالم، ولآخر مرة نسمع هذه الأصوات، ولآخر مرة نبصر هذه الوجوه!

ها هي بشاور تغيب وراء الأبعاد، وها هي راولبندي تنطوي عن الأبصار، وها هي لاهور لا تبين للعيون، وها هي مولتان تعود ذكرى من الذكريات، وها هي حيدر آباد تحول خيالاً في الذهن! وغداً ستعود كراتشي كما عادت هذه الأسماء كلها.

فيا أصدقائي الأحبين، في منازل بشاور ودارات راولبندي، ومعاهد لاهور ومجامع مولتان، ونوادي حيدر آباد ومجالس كراتشي.

يا أصدقائي الأحبين في الباكستان، حين تطيب لكم الأسمار وتلذ لكم المحافل، وحين تنطلقون على تلك الدروب وتجوزون تلك المغاني، تذكروا هذا الصديق الذي سيظل أبداً يردد لكم:

وإن التفات القلب من بعد طرفه طوال الليالي نحوكم ليزيد

الهوامش:

(١) كانت هذه الرحلة في العام ١٩٦٤.

(٢) نعرة: كلمة عربية، معناها: (صرخة). والمقصود بجملة (نعره حيدري): صرخة حيدرية.

(٣) أكثر ما تكتب بالواو (مولتان) وأكثر ما تلفظ بدون واو (ملتان).

الفصل الثالث

إلى أفريقيا الشرقية

هذا السفر الجوي الرائع الذي ينقلك في ساعة واحدة من بيروت إلى القاهرة، ثم في ساعات محدودات إلى أقصى الأرض! هذا السفر الجوي الرائع ستظل له منغصاته وستظل فيه برهات لها ثقل وطأتها، وعنف توقعها، وكرب الوقوع فيها!

فحين يقال لك إن موعد إقلاع الطائرة هو الساعة الرابعة صباحاً، وإن عليك أن تكون في المطار قبل ساعة على الأقل، وحين ترى أنك لن تستطيع ذلك إذا لم تكن مستيقظاً قبل ساعة أخرى! حين يقال لك ذلك ترى أنك وقعت في شر ما يقع فيه مسافر، سواء كان هذا السفر على ظهور الجمال في الأرض، أو في بطون الطائرات في السماء!

ولا مشكل ولا تعقيد في هذا عند ساهري الليل نائمي النهار، فاليقظة حتى الثانية صباحاً أمر طبيعي عندهم، والوصول إلى المطار في الثالثة ثم ركوب الطائرة في الرابعة، ثم الاستسلام للنوم إلى ما تشاء الطائرة أن تقطع من مسافات وتجوز من أبعاد، هو غاية المنى!

ولكن الكرب كربنا نحن عباد الله نائمي الليل مستيقظي النهار، فما نحن بمستطيعي السهر حتى الصباح، وهبنا استطعناه فبم نقطع ليلنا، وبم نعبر تلك الساعات الطوال مفتحي الأعين منتصبي الأجساد!

وقد كان يمكن أن نتعلل على قطع الليل إيقاظاً بأي شيء، لولا أننا لا نحب أن ننام النهار فيفوتنا الاستمتاع بمشاهد السفر، ونحرم من معرفة جديدة تعدها لنا المراحل الطويلة المقبلة، فأي خسران للعين إذا لم تقع على مناظر القارة السوداء ببراريها الشاسعة وبحيراتها الواسعة وثلوجها الناصعة! وأي خسران للفكر إذا لم يعبّ من مجرى التجارب المتدفق عبر تلك السهول والجبال والآطام والغياض!

القلق

لذلك كنت قلقاً أي قلق، وأنا أتطلع إلى الظلام الزاحف في القاهرة، وراء نهار الاثنين الرابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٤، المدني مني ساعات الرحيل! قلقاً متوجساً حائراً، فإذا واصلت الساعات

ساهراً حتى الموعد، كان حتماً عليَّ النوم فيما يقبل من ساعات النهار، وبذلك تفقد الرحلة أجمل ما فيها من التطلع إلى المجهول واكتشاف الجديد وتعلم ما لا أعلم!

وإذا شئت النوم فمن لي باليقظة في موعدها المحتوم، ومن يضمن لي أن لا تسترسل العينان في إغفاءتهما الهانئة، فلا تنفتحان إلاّ وقد متع الضحى وارتفع النهار وصارت الطائرة في قلب أفريقيا! وإذا كان الفندقي هو الضامن لذلك ـ وطالما ضمن الفندقيون ذلك فما أخطأوا الضمان ـ فمن لي بما يزيل الشكوك ويبعثر الأوهام ويعيد إلى النفس الثقة والاطمئنان! ثم ما أقسى الساعات الليلية تقطعها قلقاً متهيباً متوقعاً، لا أنت بالنائم نوماً عميقاً ولا أنت باليقظ يقظة كاملة!

هذه الجوانب المنغصة في بعض رحلات الجو، هي كما ترى منغصات يجلبها الإنسان لنفسه بيده، ولكنه غير مستطيع التخلص منها. فبالرغم من أنه ما فاتت الطائرة يوماً نائماً لنومه ولا عجزت الوسائل عن إيقاظه في موعده، بالرغم من كل ذلك يظل يخشى الخاشي أن يكون هو الاستثناء لكل قاعدة سليمة!

ثم هذا النوم في غير موعده واليقظة في غير وقتها، ثم هذا الإخلال أحياناً بمواعيد السير، كل ذلك مرهق متعب!

مع الفجر

ووصلنا المطار، مطار القاهرة، ودرجنا إلى مجثم الطائرات، وقد لفَّ الكون هدوء الفجر المطل، حتى لتؤخذ به أخذاً. وصعدنا الطائرة الرابضة إلى مقاعدنا فإذا نحن في عالم عجيب، فهنا نائمون يغطون في النوم أي غطيط، وهنا مستيقظون أرقون. وها هنا أطفال لا يعنيهم أنهم في طائرة لا في البيت فهم يتكلمون بأصوات عالية، ويحاول آباؤهم أن يكلموهم همساً، محرجين بأصوات أطفالهم التي تقض مضاجع النائمين.

وهنا نائم اتخذ من ثلاثة مقاعد سريراً وتمدد عليها جميعاً، وها هنا طفل يبكي. وها هنا رغبات متضاربة، فواحد متضايق من النور، وآخر لا يقر قراره إلاّ بالنور.

صحراء ونهر من غيم

وفي الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين تحركت الطائرة في حلك الظلام، وعلت فوق أنوار القاهرة المشعة، ثم أوغلت في الظلام الدامس! ورأيت أن لا خسران في النوم ما دام الظلام هو المتحكم وما دمنا لن نبصر شيئاً، فاستسلمت للرقاد ثم أفقت بعد ساعتين وقد انتشر النور وعم الضياء، فأبصرت ما بدا لي أنه صحراء منوعة الأشكال وما بدا أنه نهر دافق. ولكن العجب أخذ مني مأخذه وأنا أقلب طرفي بين النهر والصحراء! صحراء ونهر وكيف يجتمعان، كيف تلتقي القحولة مع مصدر الإخصاب؟ وكيف لم يستطع هذا النهر أن يحيل القفر الجديب إلى إمراع وإخصاب؟! ثم خيّل إليَّ وأنا أتطلع إلى المدى البعيد أننا مقبلون على مدينة عامرة! ولكن عاد فتكشف كل ذلك عن أنه غيم في غيم، فالغيم كون شكل الصحراء وشكل النهر يشقّها، وشكل المنازل والدور!

لوحات رائعة

ثم انطوت المناظر الأولى ولم تعد الغيوم لا نهراً ولا منازل، بل صحراء مستوية بيضاء بياض الثلج الناصع، أو بالأحرى بياض الغيم الناصع. وربما بدت في أقاصي الأفق لوحات رائعة لا تستطيع أي ريشة رسم ما يشبهها، لوحات خطها الغيم على حوافي الأفق خطاً عجيباً.

وتألقت في مطالع النهار وساعاته الأولى خطوط وظلال وألوان تشده البصر وتملأ العين بأروع ما يمكن أن تبصر من مشاهد الطبيعة. ثم انطوت الصحراء وعاد الغيم بين أبيض أو ملون بشتى الألوان.

في سماء أفريقيا

إننا نجوز سماء أفريقيا وها نحن على بعد ساعة واحدة من مدينة نيروبي، وهنا انفرجت الغيوم عن الأرض وبدت فيها الحياة وبدا الماء يتخللها. إنه ماء لا ندري حقيقته، أهو أنهار أو بحيرات أو مستنقعات؟ وبدت الخضرة ظاهرة، ولكن لم يبد أي أثر للعمران إلاّ فيما يشبه القرى.

وقد أسفت لأن مقعدي كان فوق جناح الطائرة، فلا أستطيع أن أرسل البصر مستقيماً إلى الأرض فأرى رؤية كاملة، وإنما كنت أمد البصر إلى الأمام فأرى ما هو على امتداده البعيد.

أخذت القرى تبدو بيضاء ناصعة ومنتشرة في كل صوب، وكان في بعضها ما يلتمع وهاجاً في أشعة الشمس، ثم كنا نجوز بحيرة فكتوريا الشهيرة دون أن تبدو لنا معالمها بوضوح، وبدا أن ما كنا رأيناه من مياه إنما هو متفرع عنها ومنبثق منها. ومضينا عابرين خط الاستواء منتقلين من جو إلى جو، من الشتاء وبرده إلى الصيف وحره، ولاجتياز خط الاستواء تقاليد يراعيها رجال الطائرة فيعطون المسافر شهادة بأنه اجتاز الخط وعبر عليه.

ووراء خط الاستواء كانت القرى متفرقة ببيوت قليلة وسط اخضرار يانع، والجديد فيها هنا كثرة ما يلتمع فيها على نور الشمس، ثم عبرنا فوق غابات سوداء متكاثفة بينما كان الغيم الأبيض يتكاثف إلى يميننا منفرجاً عنها، وامتدت الغابات امتداداً بعيداً، ثم أخذت الطائرة بالانحدار والدنو من الأرض، وعندما كانت الطائرة تقترب من مطار نيروبي بدت لنا الأرض تلالاً مستطيلة متتابعة بينها وهدات تمتد معها على امتدادها، ثم غطى الغيم عنا مشاهد الأرض وكانت الطائرة قد أخذت تشقه هابطة إلى الأرض هبوطاً تنخلع له القلوب تحت الضلوع، وبعد أربع ساعات من الطيران المتصل كنا على مطار نيروبي.

نيروبي

لم يكن لنا أن نشاهد من نيروبي إلاّ مطارها، وقد كانت قاعته أنيقة رشيقة، تبدو فيها المضيفات السوداوات بارعات كل البراعة وها هنا اثنتان على منصة بيزتيهما وعمرتيهما الكحليتين، وها هنا أخرى تتجول ببزتها الزرقاء وعمرتها الكحلية[1]، وها هنا الندل السود بالسراويل السود والستر البيض والطرابيش الزرق والشراريب الصفر. وها هنا البائعة السوداء بقامتها الهيفاء وثوبها الأنيق وقلادتها ذات السلسلة الطويلة المنتهية بكرة زرقاء.

وها هنا باعة غير سود بل سمر غاية في السمرة. كما أن السوداوات يختلف سوادهن بين أسود فاحم وأسود أقرب إلى أن يكون سمرة فاحمة. ولا أحسب هذا اللون جاء نتيجة التزاوج، إذ لو كان كذلك لكان أميل إلى السمرة. ولا ترى هذا النوع إلاّ في النساء، ولم نجد له أثراً فيمن رأينا من الرجال.

وتركنا أرض نيروبي إلى الطائرة الفرنسية، التي بدت لنا بلدة متحركة لكثرة ما حوت من المقاعد وما احتشد فيها من الناس، إنها بلدة متحركة ولكنها مختلفة السكان منوعة الأهلين.

مشاهد أفريقية

بعد ساعة من الطيران كنا فوق الغيوم من جديد، إنها هنا كالعهن المنفوش، إنها لا تشبه أبداً ما مررنا به من أمثالها من قبل، يا لعالم الغيوم ما أروعه وأشد إثارته حين تطل عليه من فوقه أو تراه على محاذاته، إنه من أعجب ما تعطي الطبيعة من جمال منوع. إنه ليس كذلك حين تتطلع إليه من الأرض، ولعلنا لكثرة ما ألفناه على الأرض لم يعد له عندنا هذه الإثارة!

ثم كنا نعبر فوق أرض مسودة بالنبات مشت معنا مشياً طويلاً، ثم فاجأتنا الغابات متكاثفة متتابعة، ثم أطلت رؤوس الجبال تكللها الثلوج فإذا نحن على محاذاة جبل (كليما نجارا) أعلى جبل في أفريقيا كلها، ثم كانت الأرض مستوية سوداء بالشجر والزرع، عامرة في بعض نواحيها. لقد صارت كثيرة العمران ببيوت تنفرد وتتباعد أحياناً وتتجمع وتتقارب أحياناً، وهي في كل ذلك لماعة براقة.

كان العمران يتوزع بين السهول والثنايا والتلال، وقد يخلو كل ذلك من العمران خلواً تاماً وإن لم يخلُ من السواد الزراعي، ثم فاجأنا البحر من أسفل منا ثم كنا نهبط مطار (دار السلام) فنمر بالموظفين السود يؤدون أعمالهم في الجمارك والجوازات وفي كل ما يتصل بذلك، بكفاءة يهنأون عليها، كما كان الحمّالون على كثير من التهذيب والرعاية وحسن الأداء، وكنا هنا في صميم الصيف ونحن في الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر يرهقنا الحر وتزعجنا الرطوبة. وفي مطار دار السلام أبدلنا الطائرة إلى طائرة أفريقية مما يستعمل داخل البلاد.

بعد دار السلام

خرجنا من دار السلام سائرين فوق ساحل البحر، حيث كانت تمتد منه خضرة يانعة تأخذ آفاق الأرض من كل ناحية، فيبدو فيها الشجر الغضيض غابات متشابكة أو مجموعات قد تتقارب وقد تتباعد، فتمتلىء بذلك الأرض كلها إلى أقصى البصر. وعبرنا مصب نهر كان يتقدم إلى البحر متلوياً متقوساً، وأبصرنا طرق السيارات ممتدة تحتنا بلون أحمر يدل على أن القار لم يعمل فيها بل هي ترابية حمراء بلون التراب الأحمر، ورأينا نهراً آخر أصغر من الأول ظل يسايرنا وقتاً طويلاً.

وبعد حوالى ساعة تغيرت الأرض فلم تعد ذات الشجر المتكاثف والزرع المتراصف، بل بدت وكأنما يغمرها نبات بري غليظ، كان يغطيها أحياناً ويتخللها أحياناً. ثم طلع لنا فجأة وادٍ خصيب أخضر ينحدر عن مجرى النهر وتغمره القرى والدساكر. وكنا آنئذٍ قد أخذنا ننحدر إلى مدينة (موشي) لنقيم في مطارها بحيث تدفع الطائرة بمن فيها وتأخذ من يأتيها.

ومطار موشي مطار محلي بسيط، ولكنه أنيق لطيف لا تحتاج موشي لأكثر منه للنقل الداخلي.

بعد موشي

ثم تركنا موشي وما أحاط بها من اخضرار هو امتداد لما تركناه وراءنا. ولم نلبث أن طلع لنا لون جديد من ألوان الأرض الأفريقية، هو سهول لا تشبه ما مضى، فلا هي شجر متكاثف، ولا هي نبات بري غليظ، بل شجر متناثر وخضرة متباعدة وبيوت متفردة حيناً ومتجمعة حيناً آخر، هذا كله في السهل إلى يسارنا، أما إلى يميننا فجبال شجراء خضراء. وكما رأينا الطرق الترابية من قبل رأيناها هنا تتخلل السهل وتشقه. ولم نلبث أن هبطنا مدينة (أروشا) وعبرنا مطارها المحلي ومضينا إليها.

أروشا

الصفة الغالبة في أروشا هي البساتين والشجر والاخضرار، سواء في ذلك قلب المدينة أو ما قرب من أطرافها وما بعد.

فها هنا الدوح بجذوعه الملتفة المتعاظمة، وها هنا الموز والبن، وها هنا كل ما تحوي البساتين. إنها بساتين منظمة تحوطها من أطرافها الهضاب العالية والجبال المرتفعة، وبينها جبل هو في ارتفاعه ثاني جبل في أفريقيا بعد جبل (كليما نجارا) وكانت الثلوج تعممه في عز الصيف.

وقصة الأرض والبساتين هنا من أفجع ما جنى الاستعمار على أفريقيا. فهذه الأرض الرحيبة في أروشا، وهذه البساتين اليانعة والرياض المونقة وهذا الخير المتألق على مد البصر ليس لأهل البلاد منه نصيب، بل هم محرومون إلاّ من فضلاته، بل ربما كانوا محرومين حتى من فضلاته، فما شهدناه من أحوالهم لا يدل على أنه نالهم منه حتى الفضلات.

فإن المستعمرين وهبوا الأرض لكل أوروبي طارىء بإيجار اسمي لمدة تسع وتسعين سنة، وأكثر من جاء من الأوروبيين هم الهولنديون واليونانيون، أما الإنكليز أنفسهم فلم يقبلوا كثيراً على ذلك لأن المناخ شديد الحرارة مما لا يحتملونه، لذلك اكتفوا بالسيطرة على التجارة وإغراق الأسواق ببضائعهم.

وأما أبناء البلاد، أما الأفريقيون، فإن نصيبهم من هذه الأرض الخصبة اليانعة الروية إن كانوا عمالاً فيها يتقاضون أتفه الأجور وأقلها. وقد كنا ونحن نجول بين البساتين ونطرق الدروب فيها، نرى الأطفال يرعون البقر ولا يسترهم إلاّ خرقة مثقوبة في وسطها ثقباً يتسع لإسقاطها في الرأس حيث تسقط فيه فيمتد قسم منها على ظهر الطفل وقسم على صدره وبطنه. أما الرجال فنصيبهم خرقتان خرقة مثقوبة يرسلونها من رؤوسهم على صدورهم، وخرقة يلفون بها ما بقي من أجسادهم، وقد يكتفي الرجل بخرقة واحدة كخرقة الطفل. وليس حال ملابس النساء بأحسن من هذا.

وترى الدارات الأنيقة في البساتين والمزارع للأوربيين، أما الفلاحون الأفريقيون فلهم أكواخ القش. إنها حياة بائسة فرضها الاستعمار على أفريقيا وبدأ الاستقلال الحديث بتغييرها.

مانيارا

زيارة أروشا لا تعد شيئاً إذا لم تصل منها إلى (مانيارا). ومانيارا هذه غابات عظيمة مترامية الأطراف

بقيت على طبيعتها وظلت على فطرتها. وتركت فيها الوحوش تعيش كما كانت تعيش من أبعد عهودها طليقة في البراري.

وخرجنا في السيارات من أروشا متجهين إلى مانيارا، ومنذ تركنا آخر بيت في أروشا ظللنا في رياض متصلة وحقول ممتدة، وظل الشجر والزرع والزهر رفيقنا الدائم. ثم تبدأ الأرض بعد ذلك جرداء إلاّ من بعض الشجر المتفرد ومن بقايا الزروع الشتوية الصفراء، ويظهر أن أكثر تلك الزروع هو الفاصوليا، وقد رأيناها في المدينة تشغل المعامل الكبرى بتنقيتها وتفريغها وتعبئتها، ورأينا كم يعمل في ذلك العاملات من النساء والفتيات. وتعتبر الفاصوليا من أهم الثروات في هذه البلاد.

في الغابات الوحشية

وقبيل الوصول إلى مانيارا دخلنا في غابات كثيفة ثم وقفنا عند قرية، ثم توغلنا في الغابات في طريق ترابي ضيق، وبعد بضع دقائق توقفت السيارات لتدفع ما رسم على الزائرين من مال. ورأينا في المدخل متحفاً صغيراً لمجموعة من الطيور والزواحف وبيض النعام وغيره من البيوض.

وتبدأ الغابة الوحشية ونوغل فيها مشاهدين الطبيعة كما بدأت من أول عهودها، وكما عاشت حيواناتها على حريتها وانطلاقها وتنوع أجناسها واختلاف أصولها.

الطبيعة كما خلقها الله وحشية القطين، تجمع بين اللطيف الأليف وبين المفترس العنيف. بين الغرِد المزقزق، وبين الهادر الزائر.

ها هنا البحيرة والغاب، وها هنا العصافير والطيور، ها هنا الغزلان والزرافات، وها هنا حمر الوحش والجاموس الوحشي والبقر الوحشي. وها هنا الأسود واللبوات والأشبال كل هذا طليق سارح في نواحي الغابة وسهولها ودروسها كما عهدته من أول خلقها. الأسود واللبوات والأشبال والنمور تضيق بالأرض فتصعد على الشجر العالي ملقية بأجسادها على الأغصان الكبيرة، ثم تضيق بالشجر فتنحدر إلى الأرض مضطجعة أو متهادية وئيدة!

لقد ذلل الإنسان هذه الغابة وصار يدخلها بسياراته آمناً مطمئناً، ولكن حذراً كل الحذر، فلا يباح له الدخول إلاّ بقافلة بصحبة الأدلاء المسلحين، يجولون بها حيث لا يستثيرون أسداً ولا يهيجون لبؤة، وحيث لا يسمحون للقافلة بالتقدّم أو التطلع إلاّ إلى آماد معينة.

لقد رأينا أنواعاً جمة من الوحوش كانت تسير قطعاناً كل قطيع على حدة لا يختلط بغيره ولا يدنو إلى غير أهله، وكثيراً ما رأينا حمر الوحش تترامح ضارباً بعضها بعضاً بحوافر الأرجل، وكانت عظام كثيرة تنتشر أحياناً هنا وهناك، وهي إما عظام الضعفاء التي افترسها الأقوياء، أو عظام ما مات من سكان هذا المكان الفريد العجيب. ودنا الزوال وشعرنا بالجوع، فطعمنا من زاد كنا حملناه معنا على حافة جدول يتدفق في الغابة جارياً، كما قصدنا الماء الساخن النابع من الأرض بسخونته الطبيعية. وهكذا جمعت الغابة العظيمة الشوارد من ماء وطير ووحش وشجر وبحيرة وجدول بارد ونبع ساخن.

إلى موشي

خرجنا من أروشا عصراً في السيارة بين رياض وغياض وسهول ورواب وتلال خضر وبساتين لا تجد أحسن منها ولا أكثر إتقاناً في أعمر بقعة من بقاع أوروبا، وهي تحوي مختلف صنوف الشجر مما تعرف ومما لا تعرف. ولم نسأل من هم مالكو كل هذا النعيم الأرضي والثراء الزراعي، ولكننا استناداً إلى ما عرفنا من قبل نستطيع أن نحكم بأن لا شيء من كل ذلك لأهل البلاد، وأن سادة هذا العمران المزدهر، هم من الغرباء الذين احتضنهم الاستعمار وأرخى لهم الزمام فتسلطوا على هذه الأرض وأحيوها وعمروها، ولو أنهم شاركوا أهلها بعض ما أفاضت عليهم من خير لحمدنا لهم هذا الجهد من الإحياء والإعمار، ولكن ما دام نصيب الأفريقي هو نصيب الخادم الممتهن والأجير المستضعف، فقد كان من الأفضل أن تظل على بساطتها فيجني منها أصحابها ما استطاعوا جنيه بوسائلهم ويعيشوا على ما قلَّ من خيرها ويظلوا سادتها إلى أن يحين الحين الذين يقدرون فيه على مجاراة الناس في الزرع الحديث والاستنبات الفني. وقد حان هذا الحين وجاء الاستقلال وستعود الأرض حتماً إلى أهلها.

مشاهد الطريق

أين تلك البساتين الغنّاء من هذه العجوز السوداء التي تحمل على الطريق كيسها المطوي؟ وأين تلك الجنائن من هذا الطفل الأسود بثوبه الممزق يرعى بقر المتسلطين البيض؟! وأين ذلك الثمر اليانع من هؤلاء الصبيان المتجمعين برث الثياب وبقايا الأسمال، ومن هذه الطفلة الحاملة السطل الثقيل على رأسها الضعيف، ومن هذا الصبي المثقلة يداه بدجاج المالكين؟!

هذه بعض مشاهد الطريق، كانت تمر بنا كما كان يمر أيضاً الشجر النضر، والروض الأرج، والثمر الخضل!

وهذا فتى وفتاة سوداوان لم يصرفهما البؤس عن الحب، ولم يشغلهما الهم عن الغرام فمشيا معاً بيدين متشابكتين!

وهذه سوداء جمعت ثلاث صفائح معاً وربطتها بإحكام وحملتها جميعاً على رأسها، وهذه أخرى تحمل على الرأس زنبيلاً ضخماً مملوءاً بما لا ندري، وتقل معه على ظهرها ولدها الصغير!

وهذه أكواخ هنا وهناك، هي على الأرجح بيوت عمال البساتين وزراع الأرض. وهذه قرى أفريقية ببساطتها المتناهية ومظهرها البدائي تتخلل البساتين العامرة الأنيقة!

وتلفتك كثرة المشاة على هذا الطريق، مشاة على الأقدام بينها قلة على الدراجات، وأكثر الدراجات تحمل اثنين معاً، وتلفتك كثرة الحفاة بين أولئك المشاة.

والذي لم تره أبداً في كل ما مررت به من دروب عالمية، وتراه هنا هو صور الحمير والبقر على صوى الطرق، إشارة للسيارات إلى احتمال مرور تلك الدواب على الطريق في هذه الناحية. والأوروبيون الذين يكثر تصويرهم للتلاميذ على صوى طرقهم إشارة للسيارات إلى وجود المدارس، أكثروا هنا من صور البقر والحمير على الصوى!

المرأة

والظاهرة البارزة في هذا الطريق الطويل هي حمل النساء لمختلف المتاع على رؤوسهن، فهن يمشين متهاديات بما أثقل هاماتهن من ضروب الأجناس ولا ندري أهن ينقلن ذلك بين القرى أم بين البساتين، أم من الأسواق البعيدة.

والمرأة الكادحة العاملة شريكة الجلاد العنيف في الحياة وقسيمة النضال الصعب للعيش، المرأة التي تستحق أن نعنو احتراماً لها، هي التي رأيناها هنا على هذه الدروب الأفريقية! إنها ليست من صنف أولئك المتحذلقات المتصايحات طالبات الشهرة الزائفة من كل معطار صبيغ نؤوم، لا تجد ما يشغلها إلاّ التنادي بحقوق المرأة! إنها هنا فتاة الجد وامرأة الكفاح وسيدة العمل الشريف!

الوصول إلى موشي

أما القرى الأفريقية فهي ذات بيوت مبنية من الخشب بسقوف من الهشيم، والتجديد الوحيد الذي نالته بعض بيوتها أن «التوتيا» حلّت محل الهشيم في السقف، وهو تجديد، كما ترى، محدود ومع ذلك فهو غير شامل.

وفجأة تفرد الشجر بعد التجمع ثم انقطع، ثم كنا نقبل على بلدة موشي. ونسيت أن أخبرك أن حقول البن تشغل الكثير من مساحات الأرض فيما عبرناه من حقول ومزارع.

وما هو أن صرنا على مشارف موشي حتى عدنا إلى ما كنا فيه لدى خروجنا من أروشا من بساتين ورياض وغياض، ودخلنا موشي فإذا بلدة أنيقة رحبة الشوارع عريضة الجواد، تحوطها الخضرة وتتخللها الأشجار والحدائق، وتتلألأ فيها المساجد والكنائس. وبدا أن الطوائف فيها تتنافس في إبراز معابدها، وتجلى ذلك فيما بنى الشيعة والسنّة واليونانيون الأرثوذكس.

في صميم أفريقيا الشرقية

وقضينا الليل في موشي وفي الصباح أخذنا القطار مخترقين أفريقيا في صميمها. وتهيأ القطار مزمجراً هادراً، وبدت المشاهد الأفريقية واضحة المعالم... هذا غلام أسود يحمل صفيحة الماء على كتفه ويغني مبتسماً! لا شيء يصرفه عن السرور والغناء! وها نحن نمضي بين البساتين الكثة والشجر الملتف، وها هو جبل كليمانجارا يطل من علٍ بعمته الثلجية الناصعة، هذه العمة التي لم تستطع حرارة الصيف أن تذهب بروائها وبهجتها، ولا استطاعت الشمس الوقادة أن تنقص من تكوينها. إنه يطل من علٍ ثم ينحدر بجناحين واحد إلى الشرق وواحد إلى الغرب، جناحين لا يشبهان القمة الثلجية البيضاء بل يناقضانها، وإذا كانت القمة قد ارتفعت وارتفعت تطاول جوز الفضاء، فبعدت عن الأرض وسكانها وتشكلت بغير أشكالهم. فإن أجنحة كليما نجارا، قد نزلت إلى الأرض تجاور الناس وتشاركهم سواد اللون!

هذه بعض جداول الماء تتدفق غزيرة فتروي الأرض، ما أخصب هذه الأرض: تربة منبات، وماء ثر،

فكيف لا تخصب هذه الدنيا! ولكن هذا الإخصاب لم يغن عن أهلها شيئاً، فلا هم ارتووا ولا هم اكتسوا ولا هم طعموا ولا هم سكنوا، كما يجب أن يرتوي الناس ويكتسوا ويطعموا ويسكنوا!

ها هم بأجسامهم السود جماعات وأفراداً ينحنون على الأرض عملاً وكداً، وها هم يبدون لنا جاهدين مكدودين! هذا هو نصيبهم من الحياة في أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم، وليس لهم من وراء ذلك إلاّ ضآلة الأجور!

قرى ونساء وأطفال

لقد كثر قصب السكر هنا وصار يبدو بحقوله المنتشرة الكثيرة، وبدت بيوت الفلاحين هنا قسمين متجاورين: قسماً مسقوفاً بالهشيم، وقسماً تحضر فسقف بالتوتيا. وهناك قسم ثالث: هو سقف من الهشيم المرقع بألواح الصفيح، وقسم رابع بدا في قرية (راوهولت) كله من الصفيح، ولكنه صفيح سودته الأيام! ورأينا على مداخل راوهولت الفلاحات ينقلن صفائح الماء على رؤوسهن متجهات إلى القرية، فبدا لنا أن الماء ينقل من منابعه بهذه الطريقة إلى بيوت القرية. ولقد كانت النساء عاريات الأعالي باديات الصدور والظهور، وكان آخر ما شاع من تفنن سيدات الحضارة الغربية ومقلديها حينما كنا نقوم بهذه الرحلة، هو تعرية الأعالي بحيث تبين النهود!

وشتان بين التعريتين: التعرية التي يبعثها الفقر والعمل والفطرة، والتعرية التي تبعثها الخلاعة والبطر والفجور!

وإذا كانت حضارة الغرب قد عادت اليوم إلى تعرية الأسفل وتخلت عن تعرية الأعلى فاتخذت (الميني جيب) فإن الفطرة الأفريقية ستظل فطرة لا تتصنع ولا تتكلف.

على أنه ليس هذا هو حال المرأة الوحيد، فقد كانت زينة النساء هنا في هذا الطريق غريبة كل الغرابة، فبعضهن يتزين بقرون تمتد من آذانهن، وبعضهن يحملن الآذان أطواقاً كاملة، فضلاً عما يملأن به سواعدهن وصدورهن وسيقانهن.

أما في الملابس فبعضهن بملابس كاملة ومتلفعات بمناديل ملونة، ولكنهن حافيات الأقدام أو منتعلات ما يشبه الخف. وبعضهن ليس على أجسادهن إلاّ وزرة واحدة، وعلى الكتف قطعة من النسيج، واللباس الشعبي الشائع في كل مكان والذي لا نزال نمر به، للرجال والنساء: وزرة تستر الأسفل، وقطعة من النسيج تصل ما بين الكتف الأيمن والإبط الأيسر مشتملة على بعض الظهر وبعض الصدر ومربوطة على الكتف الأيمن. وربما وضعت المرأة هذه القطعة على رأسها ولفت بها أعلى جسدها كله. أما اللواتي بدا أنهن أخذن من المدنية بنصيب فيستبدلن التنورة بالوزرة، أو يتخذن من الوزرات والأغطية ما كان متعدد الألوان! وإنك ليلتبس عليك أحياناً التمييز بين الرجل والمرأة لوحدة اللباس ووحدة التزين ووحدة الشعر!

وهؤلاء صبيان سود يحملون المساحي وغيرها من أدوات العمل ويمضون إلى حيث الجهد والكد. ولم يثر حناني شيء كمرأى الأطفال والصبيان والصبيات السود وهم إما على الطريق أو في الحقل، متطلعين ببراءة الطفولة وعذوبتها، لا سيما حين يتحملون من العناء ما يتحمله الكبار، كهذه الطفلة التي تحمل

شقيقها الرضيع على ظهرها كما تفعل أمها وتسير به غير شاكية ولا متذمرة، وكهذه الأخرى التي تحمل على رأسها ما هو أطول منها وتمضي به على الدرب ماشية بلا توقف!

ونمضي في الطريق ونمر بالجسر الضخم وقد استدارت جذوعه وأغصانه كأعظم ما تكون الجذوع والأغصان، ونجوز بالجبال الخضر وقد بلغت من الجمال والإيناع والنضرة حداً لا تفوقه جبال سويسرا، ولكن الذي ينحط لا عن جبال سويسرا فقط، بل عن كل جبال هذه القرى. هذه القرى الهزيلة التي تتخلل هذه الأرض جنباً إلى جنب مع تلك الجبال الزاهية الزاهرة! هكذا شاء الاستعمار الذاهب إلى غير رجعة!

ونمر موغلين في السير فتبدو لنا الجبال الجميلة الشجراء والأودية والسهول الخضراء، بل نرى دنيا لا أفره ولا أزهى ولا أجمل ولا أخصب منها، إنها منذ بدأنا سيرنا واحد متصل، خضل مخضوضر معشب مظلال!

وفي هذه الدنيا النضرة التي تحسب أنها أسعد الناس بأهلها، وأن أهلها أسعد الناس بها، وأنها تغدق عليهم من خيرها وترفدهم من عطائها ما يرتفع بهم إلى أعلى ضروب الحياة الرغيدة الهنية المتحضرة، تفاجأ في محطة (ماكومازي) بهؤلاء الأهل وقد بدوا بملابس أكثر بدائية مما وصفنا من قبل، حاملين ما يشبه الرماح ومتقلدين الحراب الطويلة، أما الأطفال فلباسهم خرقة واحدة تمتد من تحت الإبط إلى الكتف!

ومع أن الجبال شجيرة فلم يكن فيها عمران ولا هي مسكونة، بل إن القرى تنتشر في السهول وحدها، وتختلف القرى بين إغراق في البدائية أو إيغال في المدنية أو توسط بينهما. ورأينا بين بلدة (مازندا) وبلدة (مونبو) قرية لا يمكن أن ترى أزهى منها حتى في أوروبا بطراز بيوتها وتنسيق مظاهرها وإحاطة البيوت بسور من الشجر برتقالي اللون. أما مونبو نفسها فقد بدت بلدة حديثة متفرقة البيوت منظمة العمائم، وهي ككل ما عبرناه من بلاد تقع على قاعدة الجبل في الوادي العريض الذي ما زلنا نعبره.

أما الحكمة في اختيار السهول للمدن والقرى دون الجبال فلم نهتد إليها، ويبدو الأمر لنا غريباً كل الغرابة إذا علمنا أن الحر هنا شديد وأن التصعيد إلى الأعالي تصعيد إلى البرودة في القمم والذروات!

واستنتاجاً لما عرفناه في أروشا فلا شك أن تلك القرية الزاهية الزاهرة وما في مونبو من دارات هو ملك للغرباء من يونان وهولنديين وغيرهم!

وبعد مونبو جزنا بقرية أخرى لا تحسبها إلاّ قطعة من سويسرا سواء ببيوتها الناصعة الجدران، الحمراء الأسطحة، أو بداراتها الواقعة ـ هذه المرة ـ على التلال والمحاطة بالشجر. وتقابلها في السهل البيوت الأفريقية البدائية!

وكنا منذ بدأنا السير حتى هذه الساعة لا نزال نسير وكأننا في بستان واحد لم ينقطع، بدأ معنا أول خطوة ولا يزال سائراً بشجره الضخم ورياضه الرحبة وزروعه النضيرة، وإنك لن تجد في الدنيا العريضة مكاناً أكثر نضارة وإمراعاً من هذا المكان. وإنك لتستغرق في العجب حين تقارن بين المكان وبين السكان وبيوتهم الأفريقية البدائية!

وليس أجمل من تركيب هذه الأرض، فهي سهول منبسطة، متصلة بتلال متشابكة، تغمرها الخضرة اليانعة شجراً عادياً يتعالى من ها هنا وها هنا، ونباتاً يمتد في الثنايا والشعاب ويزحف على الأباطح والسهوب بشجر يتنوع أنواعاً يعييك تصورها، وهو طوراً طويل ناحل وطوراً كث دائح وطوراً قصير ناجم. دقيق الورق أو منبسطه أو طويله أو مدوره، متكاثف حيناً ومتباعد حيناً، وإذا تباعد فليقرب ما بينه وبين الزروع الأخرى من شجرات ونباتات. هو طوراً دقيق العود قصيره، هزيل الأغصان صغيرها، وطوراً غليظ الساق طويله ضخم الجذوع كبيرها. وهو حيناً كروي الشكل تنطوي غصونه الدنيا حتى لتكاد تصل إلى الأرض في حين تنتصب العليا صاعدة في الفضاء.

كل ذلك من شجرة إلى شجرة، ومن حقل إلى حقل حتى دنا الليل وأطبق الظلام وغاب عن العين كل مشهد.

من مومباسا إلى أديس أبابا

أوينا إلى الفراش ليلاً على أمل السفر غداً في الطائرة من مدينة ممباسا إلى مدينة أديس أبابا مارين في مدينة نيروبي. وهذا الفصل الآن هو فصل أواسط الربيع في هذه البلاد، إذ نحن في التاسع من تشرين الثاني/ نوفمبر. ونمنا والجو صحو والسماء صافية، ولا خاطر يخطر عن المطر وهطوله. وكنت أغط في النوم حين أفقت على أصوات ضربات المطر منهمراً على النوافد والجدران، وشعرت وكأن هذه الضربات منهالة على نفسي تثير فيها أشجى القلق وأمض الذعر! أليس تحثّنا الأخبار بين الحين والحين عما تفعله العواصف بالطائرات، وكيف تهوي بها إلى الأرض ملتهبة بمن فيها موردة لهم شر الموارد.

أليست هذه الأنباء دائماً أمام عيوننا وملء آذاننا؟ وها هو المطر الهاطل في هذا الليل ينذر بما سيكون عليه الصباح! فمن لي بمن يلغي السفر ويؤجل الرحيل؟! أنهون على الزمن إلى هذا الحد فنذهب أرخص مذهب، أبعد الدنيا العريضة نهوي من سماء أفريقيا إلى أرضها جثثاً هي أهون عليها من كل هين..

وغداً إذا هوينا هذا الهوي هنا على قيد أمتار من مومباسا أو نيروبي أو أديس أبابا، فمن ذا سيحمل النبأ الفاجع إلى الوطن؟ من سيعلم المقيمين في بيروت وبغداد وشقرا أن هذا العزيز عليهم قد طوته سماء أفريقيا وابتلعته أرضها.

يا للأخطار السود تزدحم في الذهن فتشرد النوم. وفجأة يبدأ الصوت الرتيب الضاج يفقد الكثير من رتابته وضجيجه، وتبدأ الضربات هينة لينة بعد أن كانت عنيفة شديدة، ويعود النوم عوداً بطيئاً إلى الأجفان بعد أن زالت الضربات وانتهت القطرات.

ولكن الأمر لم ينته ففي عميق النوم يعود فيهز الجسم هزاً هذا الماء الدافق من السماء، وتعود الأفكار السود متسربة متوغلة.

ويشرق الصبح والسماء بين مطر دافق وصحو متردد، ونمشي إلى المطار سائلين الله أن يلهم من بيدهم أمرنا أن يلغوا موعد الرحيل. وما هو أن نمضي في الطريق بين الحدائق والجنائن حتى نعود أقرب إلى التفاؤل، إلى أن نصل المطار.

ومطار مدينة مومباسا مطار محلي صغير ككل المطارات بين المدن الأفريقية ولكنه أنيق نظيف. ويقبل الحمالون فينقلون الحقائب من السيارة إلى الداخل حيث يضعونها مكانها ثم ينصرفون دون أن يرددوا على سمعك كلمات التوديع التي لا تعني التوديع بل تعني لفت نظرك إلى دفع شيء لهم، كما يفعل حمالو بيروت مثلاً! إن الحمالين هنا كما هم هناك موظفون لدى شركات الطيران تدفع لهم رواتب معينة على أن لا يزعجوا المسافرين بطلباتهم، وحمالو ممباسا يعلمون هذا فيضعون الحقائب موضعها ثم ينصرفون دون أن ينبسوا بكلمة أو يشيروا بلفتة. أما في بيروت فإن كلمات: مع السلامة إن شاء الله تصل بالسلامة... أو غيرها من الكلمات قد تعني كل شيء إلاّ الاهتمام بالسلامة! إنها تذكير لك بضرورة الدفع من طرف خفي لأنه محظور عليهم تناول شيء.

ولما رأيت حمالي مومباسا على هذا النحو من الترفع، ورأيت أن أحداً لم يدفع لهم، تذكرت أنه بقي معي قطعة نقد فضية واحدة، وأني حين أترك هذه الأرض لن تفيدني بشيء فرأيت أن أجود بها على الحمالين! فناديت الحمال فأخذ القطعة متبهجاً مستغرباً في نفسه هذا الكرم الذي يراه من أحد المسافرين على غير توقع!

والحقيقة أني كنت تلك الساعة كحمالي بيروت، حين تعني كلماتهم كل شيء إلاّ الدعاء بالسلامة، وكان تصرفي يعني كل شيء إلاّ التفكير بالكرم والجود، فأنا أردت أن أتخلص من قطعة النقد التي ستصبح حين امتطي الطائرة غير ذات فائدة لي فوهبتها للحمال!

ولكن ما إن استقرت القطعة في جيب الحمال حتى تذكرت أنه لا يزال أمامنا مرحلة تصلح فيها هذه القطعة للتعامل، وأني قد أضطر لدفع شيء وأنا لم أعد أملك شيئاً من هذا النقد، فأمامنا نيروبي وما أدرانا أن حمّاليها لا يطالبون ويلحون فنخجل، ولو علم الحمّال المبتهج الشاكر، أني كنت أود لو أستطيع استرداد القطعة منه لخفف الكثير من تقديره وتعجبه!

إلى نيروبي

وهنا في هذا المطار كما في كل مكان في أفريقيا الشرقية قلَّ أن لا تجد من لا يحسن شيئاً من العربية ولو بضع كلمات، والفضل في ذلك لعرب زنجبار الذي نشروا لغتهم في كل مكان فأجادها ناس وأحسنها ناس وألمَّ بها ناس آخرون.

وقمنا إلى الطائرة وهي من طائرات خطوط أفريقيا الشرقية ومخصصة للسفر في الداخل، وهذا النوع من الطائرات صغير الحجم ومختلف بين الغاية في الإتقان وبين العكس، وفي هذه الطائرة كان كل شيء حسناً، وبعد ساعة واحدة هبطنا مطار نيروبي ودلفنا إلى قاعة المسافرين التي كانت مزدحمة بالناس، ولم نلبث أكثر من خمس عشرة دقيقة حتى كنا في طائرة أخرى نتهيأ للسفر إلى أديس أبابا ورأينا مدرج المطار مملوءاً بالطائرات المتحفزة للمسير إلى كل جهة ثم انطلقنا إلى أديس أبابا.

أديس أبابا

يلفتك في مطار أديس أبابا أنهم يمارسون الجمارك بالصورة المتشددة، فلا بد من فتح الحقائب ولا بد من

التقليب واللمس. وعندما تقارن ما يجري في أوروبا في مطار باريس ومطار لندن مثلاً حيث يكتفون بسؤال بسيط ثم يشيرون إليك بالمرور، وبين ما يجري في مطار أديس أبابا تود لو أن الجميع اقتدوا بما يجري هناك، إذ ماذا يمكن أن يحمل المسافر مما يمكن استخلاصه من ضريبة الجمارك؟ إنه مهما حمل في حقيبته، فلن يحمل ما يضر بالموارد أي ضرر؟

ثم إن طريقة الحمالين في أديس أبابا هي كطريقة حمالي بيروت، وعلى العكس من طريقة حمّالي أفريقيا الشرقية لا سيما مومباسا فحمال أديس أبابا يبربر أمامك بكلمات إذا لم تفهمها فإنك تفهم ما تعنيه.

مدينة التلال

ومشينا من المطار في طريق المدينة فإذا جبال غير شواهق تطل على جوانب المطار، ولم نلبث ونحن نشق الطريق أن أطللنا على مجموعات متكاثفة من الشجر الغضيض تطالعك من ها هنا وها هنا، ثم كنا نشاهد المشاهد الحبشية، فها هنا على الطريق يسير الأحباش بملابسهم الوطنية التي تتميز بملاءة بيضاء يديرها الإنسان على أعلى جسده ويلتف بها فوق ثيابه بشكل خاص، ويحمل أكثرهم العصي إما متوكئين عليها أو ملقينها على أكتافهم وملقين فوقها أيديهم. وكانوا إما سائرين على الطريق أو جالسين على جانبه رجالاً ونساء بتلك الملاءات.

ثم يطالعك تمثالان ذهبيا اللون لأسد يهوذا، واحد عن يمين الطريق وآخر عن يساره ويتكرر ذلك أكثر من مرة، ثم ترى المنازل إما في منحدرات على اليمين أو في مرتفعات على اليسار، ويظل الشجر متمادياً في كثرته وتكاثفه من كل جانب، ثم تدخل المدينة نفسها، فترى البناء الجديد الكبير وترى البقر والغنم والحمير ترعى معاً على محاذاة ذلك البناء، وتوغل في المدينة فترى الشجر يعم المنازل، والأعشاب المزهرة تتعرش على الجدران، وتتلفت حيث تتلفت فترى الروابي الخضر تحيط بأديس أبابا من كل صوب.

بل إن أديس أبابا نفسها مدينة التلال والربى، فها نحن وقد استقر بنا المقام ووقفنا أمام (فندق راسي) متلفتين إلى الأعلى فنرى على مد البصر الشارع المستقيم الطويل يبدأ من السهل ثم يرتقي التلال صاعداً صاعداً حتى كأنه ليس في صميم مدينة، بل في صميم جبل مرتفع.

ولا غرو فإن مدينة أديس أبابا قد بنيت عند سفح مرتفعات أنتوتو الشاهقة، وهي تعلو عن سطح البحر ٢٥٠٠ متر مما يضفي عليها هذا المناخ المعتدل اللطيف وهو أمر مستغرب في قلب القارة الأفريقية. ولعلها بذلك أعلى عاصمة في أفريقيا كلها.

وقد تأسست المدينة منذ عهد ليس ببعيد وذلك في سنة ١٨٨٨ على عهد الأمبراطور منليك الثاني الذي بناها حول قصره المشهور باسم الزهرة الجديدة وكان أن جعلها عاصمة للدولة مكان العاصمة القديمة أنتوتو وأصبحت بذلك رمز وحدة البلاد.

المرأة

ورأينا من قبل الملاءات التي تلف أعلى الرجل لفاً خاصاً، وهذه الملاءات تلف أيضاً أعلى المرأة، وربما لفّت أعالي الفتيات، وإذا كانت ملاءة الرجل قد لا تصل إلى رأسه، فإن ملاءة المرأة تبدأ من الرأس ثم

تشمل بقية الجسم. وليس هذا لكل النساء ولكل الرجال ولكنه موجود في النساء أكثر. على أن ما هو شبه عام في النساء هو لف الرأس بمنديل يشد على الشعر المرفوع فتغدو المرأة وكأنها ذات عمامة عالية أو قلنسوة رفيعة وهذه المناديل لا لون خاصاً بها، بل لكل امرأة أو فتاة ذوقها في اختيار اللون.

والغالب على أثواب النساء هو ثوب أبيض اللهو ينتهي بحاشية من غير لونه مع منديل كبير من جنس الثوب يلتف على الكتفين حتى منتهى الظهر والصدر، وكثيراً ما يشمل الرأس فيغني عن منديل الرأس وفيه دائماً حاشية كحاشية الثوب.

والمرأة، شابة أو كهلة، تراها هنا وقد شدّت طفلها إلى ظهرها ملقية به عليه وسائرة في طريقها، وقد تحمل النساء على الظهر غير أطفالهن. قد يحملن ما ثقل وما لم يثقل من الحاجات، وفي سبل الماء في بعض الشوارع ينقل الفتيان الماء في السطل بأيديهم، وتنقله النساء بالجرة مشدودة بالحبل إلى الظهر، وفي مداخل الحافلات (الأوتوبيسات) كانت الفتيات هن قاطعات التذاكر فيما ركبنا من حافلات.

متناقضات

وتمضي في أديس أبابا فترى كيف تنحدر الشوارع حتى تصبح أحياناً كالأودية، وترتفع حتى تصبح ثنايا وطرقاً في الجبال، وتتكاثف فيما بين هذا وذاك مختلف الأشجار حتى تصبح كالغابات. كل ذلك في قلب المدينة وفي صميمها. وسنلتقي دائماً كما التقينا من قبل في طريق المطار بأفراد لفوا أجسادهم بالملاءات واستمسكوا بعصيهم وساروا يضربون بها الأرض، وقد تجد العصي حتى مع النساء.

وستجد شوارع من أحسن ما تعرف المدن من شوارع، كما ستلقى أزقة من أكسف ما تعرف البلاد من أزقة!

وساقني السير صعداً إلى حي شعبي ينتهي بأطراف المدينة، فإذا هناك أكواخ بالية تبدو للناظر كئيبة خابية كالحة، وأمضي سائراً فإذا أزقة ودكاكين وبيوت في منتهى البؤس، ودكان حلاّق كأنها كف في الجبل! وينتهي ذلك بشارع حسن في جانبه مسجد بقبة خضراء ومئذنة ذات قمة خضراء، ومكتوب باللغة العربية على أحد مصراعي باب المسجد «الجامع الأنور» وعلى المصراع الثاني «باب السلام» وعلى مدخل الباب بائعان للمسابح الملونة وللمساويك وللحجب والتعاويذ المطبوعة.

اللغة العربية

وقرب مدخل المسجد مصور كتب على لافتته بحروف عربية مهشمة «تحميض وطبع وتجسيم أي نوع من الصور الفوتوغرافية أو السندات سريعاً حسب الطلب». وليست هذه الكتابة هي الكتابة العربية الوحيدة، ففي المنطقة نفسها ترى مكتوباً على اللافتات: إلى جانب الكتابة الحبشية (عمر أمام بازار الحديث) وكذلك (الصيدلية الحديثة) وكذلك (فوتوكوبي) وكذلك (فندق بكل احترام) وكذلك (شاي الفنون العصرية) وكذلك (صيدلية) دون تسميتها.

والكتابة العربية شملت حتى فرع بنك أديس أبابا والشركة الأثيوبية للطيران والملاحة والنقل ورقم هاتفها ١٦٨٩٨... وفي الجانب الآخر تقرأ (محل بيع وإصلاح جميع أنواع الراديو) وكذلك: (هنا تباع

حزمات دارمر بالجملة) فلم أفهم المقصود من هذا الكلام، وأقبلت لأرى ماذا يباع هنا فإذا المحل لبيع الأحذية، وأن المقصود بالحزمات هو (الجزمات) وأن النقطة سقطت من الخاء دون أن ينتبه لذلك أحد. وكذلك (ماركة السلسلة. خيط للبروديري والجياكة) فلم أفهم المقصود من البروديري والجياكة، وأقبلت على المحل فإذا هو معد لبيع الخيطان، وربما كان المقصود بالجياكة: الحياكة بدون نقطة على الحاء، وأن الذي أهمل نقطة الخاء السابقة زاد نقطة هذه الحاء!

وليست هذه كل الكتابات العربية وإذا كنا رأينا هنا من كتب كلمة (صيدلية) فقد رأينا قبل قليل من كتب بالعربية كلمة (أجزاخانة)، وكذلك رأينا (مكتبة بشير لتوزيع الأدوات). والمقصود بالأدوات هنا الأقلام والمحابر والورق وما يتبع ذلك، إذا إن المكتبة لا تبيع الكتب.

والخطوط العربية كلها مكتوبة بشكل رديء، على أن مجرد وجود هذه الكتابة شيء يلفت النظر! ووجودها محصور في هذه المنطقة ولا يتعداها إلى غيرها. وقد بدا لنا من وجود المسجد ومن أشياء أخرى أنها المنطقة الإسلامية.

مسجد وكنيسة

وإذا كان المسجد موجوداً هنا فإن كنيسة تقوم غير بعيدة عنه، بل تكاد تلاصقه ويفصل بينهما زقاق غير عريض. ووجود المعبدين في مكان واحد يمكن أن يكون ذا دلالتين مختلفتين: فهو إما دليل التسامح والتآلف، أو دليل التحدي والتعصب!

ويتساوى المعبدان بأن الفقراء يجلسون على باب كل منهما، وأن لكل منهما صحناً مكشوفاً محاطاً بالشجر وإن اختلف نوع الشجر وشكل تنظيمه.

مناظر شعبية

وترى هنا كثرة الحفاة وبينهم بعض النساء، كما ترى قافلة حمير يسوقها رجل، وآخر يرقِّص قرداً! كما ترى في الأسواق الشعبية الطريفة، وترى (المخدات) (والفرشات) والحشايا معروضة بكثرة، وهي إما محمولة على الأكتاف أو مفروشة في أرض الشارع، ومن الطرائف (ماكينات) الخياطين وقد امتدت ووراءها الخياطون بصفوف طويلة على الأرصفة وهم منهمكون بالعمل، وهناك دكاكين المنتوجات الأفريقية من تروس ورماح وطبول ومنشّات وغير ذلك، ولا يكادون يرون غريباً حتى يتسابقوا على دعوته بإلحاح منادين له بالإنكليزية. وتمضي فترى الدكاكين البدائية المصنوعة جدرانها وسقوفها وأبوابها من الزنك (التوتيا) وهي تبيع المنسوجات الشعبية، كما ترى الأزقة والدروب الموغلة في البدائية غير بعيدة عن الشوارع والطرق ذات الإسفلت، وترى الأطفال خلالها حفاة ممزقي الملابس يتراكضون في الزقاق ضاحكين لاعبين، والزقاق صورة عنهم أو هم صورة عن الزقاق، ويفاجئك اسم مكتوب بالعربية (محمد الدكتور سالم مبارك باغويطة)، ثم اسم آخر (صيدلية عربية يباع فيها كل دواء عربي). وتستمر فتطالعك أزقة ومساكن وحياة لا يمكن أن تتصور وجودها في هذا العصر في عاصمة من العواصم! إن هنا أزقة

ومعابر وبيوتاً لا تدري كيف يمكن أن يعيش فيها الناس، ومع ذلك فهي مملوءة بالأطفال الضاحكين اللاعبين اللاهين!

حياة أخرى

وعندما انحدرنا في الحافلة إلى الجانب الآخر رأينا شواهق البناء ورحيب الشوارع وجديد الأسواق، واجتزنا قلب المدينة إلى الطرف الآخر منها، الطرف المفروض أنه يقابل الطرف الذي كنا فيه، فكنا وكأننا نسير في واد نضير بين التلال الشجراء والبيوت العامرة متقاربة أو متباعدة. ثم عبرنا جسراً على جدول موغلين بين الدارات والغابات المتدرجة من الطريق إلى الربوات المتعالية بأشكال جميلة!

ومضينا نبصر البناء متخللاً ذلك ومقسماً بين الفقر والغنى، والتوسط والبذخ، ومعظمه يقوم بين الحدائق أو في أطرافها، وتتفرع عن الطريق العام شوارع عرضانية إما صاعدة إلى الربوات المتمادية أو هابطة إلى الوهدات المتعاقبة، ويتخلل الأرض كلها شجر غضيض كث.

أين هنا من هناك؟! وأين الحياة هنا من الحياة هناك، إن ما كنا فيه لمهانة للإنسانية كلها، وما كنت أحسب أن الإنسان يمكن أن يتحمل الحياة ويعيش في تلك المعابر والمزالق وخلف تلك الجدر وتحت تلك السقوف، جدر وسقوف وأزقة يترفع الإنسان الكريم عن أن يربط فيها حيواناً، أو يسكن فيها ماشية أو يسوق إليها دابة!

الجانب المعتدل

وعدت في الحافلة إلى قلب المدينة وقد غابت الشمس ودنا الليل، فتركت الحافلة وسرت على قدمي منحدراً في شارع انحداراً لا يقل عن الانحدار في أي طريق جبلي وسرت بين بيوت تشغل معظمها الطوابق العليا بينما تشغل الطوابق الأرضية المتاجر والدكاكين، ولا يتعدى عدد الطوابق الاثنين عداً. وإنه ليخيل إليَّ أن هذا الشارع هو الممثل الصحيح لأديس أبابا القديمة المعتدلة، غير الموغلة في البؤس في هذا الطرف، ولا الموغلة في النعيم في ذاك الطرف.

والبيوت كلها ذات شرفات خشبية قائمة على أعمدة خشبية بحواجز هي الأخرى خشبية مشبكة تظللها سقوف من الزنك تسندها أعمدة خشبية هي امتداد للأعمدة التي تحمل الشرفات.

والشارع مزفت نظيف تصعد فيه السيارات باتجاه واحد، وتمتد البيوت بنسق واحد، ومعظمها فوقية ـ كما تقدم ـ وقد تكون أرضية وعند ذلك يكون للبيت شرفة أرضية بحواجز خشبية هي الأخرى مشبكة.

تغير

ولا يطول الشارع كثيراً، بل لا يلبث أن يقطعه شارع عرضاني يبدأ بعده التغير في الشارع ويبدأ البناء الحديث والغابات والشجر وتظل في كل ذلك منحدراً ثم منحدراً ثم منحدراً حتى تصل إلى ما أعتقد أنه الساحة الكبرى في المدينة حيث تتشعب الشوارع الحديثة، وتقوم في جانب من الساحة بناية مصر الحبشة التجاري المستديرة الفخمة، وتقوم في الجوانب الأخرى العمارات الشاهقة التي تضم مكاتب

بعض خطوط الطيران كالخطوط الحبشية والمصرية والسودانية ومركز البريد ومسرح هيلاسلاسي الفخم، وكل شيء من أحدث ما تعرف المدن من متاجر ومقاهٍ ومشارب.

ومن الحق أن نشير إلى تهذيب الشرطة في الطريق الذين تستوضحهم عن بعض ما يغم عليك فيحيونك باحترام ويجيبونك بأدب، وكذلك من الحق أن نشير إلى رقة الناس حين تستفهم وتسألهم.

الهوامش:

(١) العمرة: لباس الرأس

الفصل الرابع

إلى إيران

ما دمت لست تاجراً تخشى أن يزحمك الزاحمون في ميدان الربح إن لم تسرع الخطو وتغذ السير، وما دامت قيمة الوقت عندك هي بمقدار ما يزيدك علماً ويلهمك اطلاعاً، فإنك الخاسر أبداً حين تمتطي الطائرة في سفرك، لا سيما إذا كنت ترود الأرض المقبلة لأول مرة وتأتيها وأنت لا تعلم عنها إلاّ بالرواية والسماع.

على أن الراحة تغري، والرفاه يطمع، فما هو أن تتخيل أن بينك وبين غايتك الساعات الطوال والمراحل القصية، حتى تقفز إلى الطائرة مفضلاً الجهل مع الراحة على العلم مع التعب.

هكذا كان شأني وأنا أهم بالرحلة إلى إيران، لقد كان يعتادني خيال قرميسين وهمذان، ويداعب ذهني طيف تلك الذرى متسامية من نخلتي (حلوان) حتى أقاصي (الري)، ومن بلاد الجبل إلى سهول خراسان، وتطوف بخاطري صور مواكب العلماء والشعراء والفرسان فأهفو إلى السير على دروبهم. ولكن ما هو أن أتذكر الساعات الأربع والعشرين التي ستتقاضاني فيها هذه الطريق حتى يختفي من ذهني كل شيء ولا يبقى فيه إلاّ تصور التسعين الدقيقة التي ستكون طريقي من بغداد إلى طهران.

يا لله.. أأستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ أأستبدل الأربع والعشرين الساعة بالتسعين الدقيقة؟ ولكنني لو رجعت إلى أعماق نفسي لأدركت أن الذي هو خير هو أن أشق على نفسي لأرفه عن ذهني فأكسبه معرفة جديدة، وأن الذي هو أدنى هو هذه القفزة من بغداد إلى طهران، قفزة تحرمني من رؤية المدن والدساكر والجبال والأودية.

فها أنذا في طهران تهبط الطائرة بي ثم أهبط منها سائراً إلى العاصمة الجميلة.

على باب طهران

«خير مقدم»: بهذه الجملة ترحب بك مدينة طهران وأنت تقبل عليها من المطار قاصداً إليها في الطريق الرحب الطويل.

فإنك ما تكاد تأخذ سبيلك إلى العاصمة الإيرانية حتى تقرأ هذا الترحيب الجميل مكتوباً على اللافتة

البارزة في أول الطريق، وحينما تزور مدناً إيرانية أخرى فإنك ستجدها ترحب بك بمثل ما رحبت بك طهران، وكما تستقبلك بأول المدينة كلمة «خير مقدم» تودعك في آخرها كلمة «سفر بخير».

شوارع طهران

الشوارع الكبرى الأنيقة هي تحفة طهران، فأنت حيث سرت ستجدك أبداً في شوارع من أحدث ما عرف الناس من شوارع: الشجر الغضيض تتلألأ خضرته في الفضاء وتتراقص ظلاله على الأرض، والسواقي تنحدر مع ضفتي الشارع، والشارع يمضي طولاً إلى حيث لا تدري أين ينتهي، وعرضاً إلى حيث يموج بصفوف السيارات صفاً جنب صف.

وهذه الشوارع الشجيرة ليست وحدها نضارة طهران، فهناك الحدائق العامة الحديثة الحدائق التي تراها أينما توجهت بأشجارها وأزهارها ومروجها وشوارعها، إن بينها ما يبلغ الغاية في امتداده واتساقه وتنظيمه، بل إن (بارك شهر) كأحسن الحدائق في أحسن العواصم الأوروبية.

وقد عرف الطهرانيون كيف يستمتعون بجنائنهم هذه فإذا جاء الأصيل اكتظت مقاعدها بالجالسين، وزخرت دروبها بالسائرين.

وفي أصيل يوم جمعة شهدت «بارك شهر» وقد تحولت كتلاً بشرية افترشت الأرض رجالاً ونساء وأطفالاً، وكل أسرة أعدت «سماورها» وقدورها وطعامها وغابت في جمال الحديقة الحسناء.

ولن أنسى وأنا أذكر الحدائق والشوارع أن أشير إلى تقدير طهران لنوابغها في الشعر والأدب والعلم والحكمة، حيث سمت شوارعها الكبرى بأسمائهم، فارتفعت على الشوارع أسماء الفردوسي والخيام وسعدي وحافظ فكانت أحلى ما تحلت به تلك الشوارع.

يوم الجمعة في طهران

تعطل الأعمال يوم الجمعة في طهران تعطيلاً عاماً، ويخرج الناس إلى الضواحي القريبة في تجريش ودربند وسربند وغيرها، فإذا دنا المساء وأخذ المتنزهون يعودون ضاقت بهم السبل والمسالك فازدحموا على مواقف الأوتوبيس العائد ازدحاماً لا تعرف مثيلاً له إلاّ في ازدحام الناس مساء الأحد في ضواحي باريس. وقد ألف الناس النظام في هذه الحالات فتراهم صفوفاً منتظمة الواحد وراء الآخر ينتظر دوره في ركوب الحافلة، ولشدة الازدحام كان لا بد للشرطة من التدخل أحياناً، ولا يتعدى تدخلها إرشاد الناس إلى المداخل والمخارج الحديدية، وفيما عدا ذلك فكل إنسان يعرف مكانه فلا يتجاوزه.

وكما يقف الناس في طهران صفوفاً بانتظار الحافلة، كذلك يقفون على أبواب السينما وأبواب المخابز والحوانيت، فلا تدافع ولا تسابق ولا تزاحم.

تمازج اللغتين

لم تتمازج لغتان كما تمازجت اللغة العربية واللغة الفارسية، فعلى طوال عصور كانت أواصر الحياة تشد الشعبين بعضهما إلى بعض شداً وثيقاً في مجالات العلم والثقافة والأدب والشعر، وحسبك أن تأخذ

مدينة إيرانية واحدة ثم تستعرض من خرج منها من أعلام المؤلفين والكتّاب بالعربية. خذ مثلاً نيسابور وهي مدينة من عشرات مدن إيران، خذ هذه المدينة وحدها وعد معي: ١ ـ الفضل بن شاذان، ٢ ـ أبو بكر الخوارزمي، ٣ ـ بديع الزمان الهمذاني، ٤ ـ مسلم بن حجاج المتوفى سنة ٢٦١هـ. صاحب «الصحيح» ٥ ـ أبو بكر محمد بن إبراهيم النيسابوري المتوفى سنة ٣١٩هـ. صاحب «كتاب الأشراف» و«كتاب المبسوط» و«كتاب الإجماع»، ٦ ـ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجواهري النيسابوري المتوفى سنة ٣٩٣هـ. صاحب كتاب «صحاح اللغة»، ٧ ـ أبو الحسن محمد بن علي بن سهل الذي كان من كبار أئمة الشافعية، وأخيراً أبو حامد الغزالي.

ولنقف في العد عند هذا الحد إذ لو استرسلنا لعددنا ما شئنا أن نعد لنقف عند هؤلاء لنرى من هم وما هو أثرهم في الفقه والحديث واللغة والأدب، وما هو مكان كتبهم في المكتبة العربية الكبرى.

بل إن أديباً نيسابورياً هو علي بن عبد الله بن أحمد النيسابوري المعروف بابن أبي الطيب، أراد التغني بمدينته والإشادة بها فنظم في ذلك شعراً عربياً فقال:

فلك الأفاضل أرض نيسابور ... مرسى الأنام وليس مرسى بور
هي قبة الإسلام نائرة الصوى ... فكأنها الأقمار في الديجور
من تلق منهم تلقه بمهابة ... رفت عليه لفضله الموفور
لهم الأوامر والنواهي كلها ... ومدى سواهم رتبة المأمور

وكذلك فعل أديب آخر فقال: «ليس في الأرض مثل نيسابور، بلد طيب ورب غفور».

لذلك لم يكن عجباً أن تحتفظ اللغتان بآثار ذلك التمازج الطويل فنرى في إيران تعابير عربية خالصة، كذاك الذي كتب على مداخل المدن ومخارجها من ترحيب بالقادمين وتوديع للمسافرين، وكهذا الذي يكتب على محطات البنزين: «استعمال دخانيات أكيداً ممنوع» وكالذي يكتب على أماكن بيع الحليب ومشتقاته «لبنيات» وكالذي يكتب على حوانيت بيع ثلج المعامل «يخ مصنوعي» إشارة إلى أنه «يخ» أي ثلج مصنوع لا طبيعي.

ومن الطريف أن اللغة العربية سمت بعض المسميات الحديثة بأسماء فارسية في حين أن اللغة الفارسية سمت تلك المسميات نفسها بأسماء عربية. فقد أطلق العرب على كلمة «الكتريك»: الكهرباء، وهي لفظة فارسية محضة، بينما أطلق الإيرانيون الكلمة العربية «برق».. وقل مثل هذا في كثير من المسميات القديمة والحديثة.

على أن للغة العربية في إيران منزلة لا تدانيها فيها أية لغة أخرى، فإن تدريسها إجباري في المدارس الإبتدائية والمتوسطة والثانوية، وهي لغة التدريس لأكثر دروس كلية الشريعة والفلسفة ولبعض دروس كلية الحقوق، ولها فرع خاص في كليات الآداب. هذا فضلاً عن الألوف من الفقهاء وطلاب العلوم الإسلامية الذين يعتبرونها لغة التدريس الرسمية فيتلقون علومهم بها سواء منهم الوافدون على النجف في العراق أو المقيمون في قم وغيرها في إيران. وكم أعجبني واحد منهم وهو ينشد معلقة عمرو بن كلثوم إنشاداً جميلاً مستوعباً خصائصها مدركاً دقائقها.

في الليل

عرفنا الأسواق في المدن الكبرى خالية في المساء، فإذا انطوى النهار ودنا الليل أطبقت أبواب المتاجر وأقفرت المسالك.

ولكننا رأينا في طهران عجباً، رأينا فيها ما يختلف عما ألفناه في غيرها من العواصم والمدن، فإن دنو المساء فيها لا يشعر أبداً بأن الحوانيت ستقفل والمخازن ستسد، بل يشعر بأن حياة جديدة ستتدفق في هذه الأسواق الطويلة من شارع (لالازار) إلى شارع (استنبول) وما حولهما من شوارع ومسالك.

فما إن يقبل الليل حتى يمتلىء الطريق بالسالكين وحتى تشع الأنوار في المخازن والحوانيت، ويظل الناس في حركة وجولان حتى الساعة العاشرة، فتحس عند ذلك أن الضجيج أخذ يهدأ وأن الناس أخذوا ينصرفون وأن المتاجر أخذت تتعطل.

وهناك في الليل على مفارق شارع الفردوسي ونادري واستنبول تطرق سمعك أصوات المنادين وقد صفوا أمامهم على الأرصفة أكوام الموز ينادون عليه بما معناه: من لبنان يا موزا!

مطعم ومقهى

لم أجد كلمة خاصة بالمطعم ولا كلمة خاصة بالمقهى في طهران. فاللافتات المعلقة على أبواب المطاعم والمقاهي لا تدل على أن لكل من هذين المكانين كلمة فارسية تدل عليه، فهم يكتبون على اللافتة بالحروف العربية كلمتي «كافه روستوران».

ومن هنا تراءى لي أن ليس من كلمة فارسية تدل على المطعم ولا كلمة تدل على المقهى.

وسائط النقل

لا أحسب أن هناك مدينة تضاهي طهران في رخص وسائط النقل فيها، فإن هذا الرخص يبلغ حداً يجعلك تخجل من نفسك أن تعطي سائق التكسي الأجرة المقررة حين تقيس هذه الأجرة بما يمكن أن تدفعه في بلدك، فأنت تستطيع أن تأخذ «تكسياً» يوصلك إلى أي مكان في المدينة على أن لا تدفع أكثر من «تومان» واحد أي ما يزيد قليلاً عن نصف ليرة لبنانية. ولرخص الأجرة عمد السائقون إلى تملك أصغر السيارات وأكثرها تواضعاً[1].

وإلى جانب التكسيات فإن واسطة النقل العامة هي الحافلة (الأوتوبيس)، وهو في طهران فخم نظيف من أحدث ما أخرجته المصانع، والأجرة فيه أجرة خيالية في رخصها، فأنت بمبلغ «قرانين» اثنين تجوب المدينة كلها وبمبلغ أربعة «قرانات» تصل إلى المصيف الجميل في شمران... والقران الواحد هو جزء من عشرة من التومان.

على أن في استعمال الأوتوبيس شيئاً من العسر أحياناً، فليس الجابي داخل الأوتوبيس هو الذي يقبض منك ويعطيك الورقة، بل إن الذي يتولى ذلك موظفون يجلسون على قارعة الطريق في أكواخ زجاجية

تشويهم في الحر صيفاً فيضطرون لتركها بعيداً أو الجلوس تحت ظل شجرة أو جدار. والعسر هو أن الكوخ لا يكون دائماً قريباً منك في الموقف الذي تصعد منه، فأنت مضطر أن تقصده ثم تعود إلى حيث تصعد الأوتوبيس.

متاجر السماورات

من ألطف ما شهدت في طهران متاجر «السماورات»، ولعل مبعث هذه البهجة التي تطالع العين فيها هو أن العين لم تألف هذا النوع من البضاعة، فقد كان جديداً علينا أن نشهد حانوتاً لا شيء فيه غير السماورات تملأ الأرض والرفوف والرصيف، سماورات من كل نوع تتلألأ في وهج النهار ويبرق نحاسها الأصفر الوضاء.

وإذا كانت العين لم تألف مثل هذه المجموعة متراكمة بعضها فوق بعض، فهي أيضاً لم تر قبل اليوم مثل ما رأت اليوم من تنوع السماورات واختلاف أحجامها حتى ليكبر بعضها ويضخم بما لا يخطر على الذهن.

هذه مشاهد سريعة من طهران يلاحظها المستطرق العابر، وفيما عدا ذلك ففي طهران الكثير الكثير مما يطيب الحديث عنه ويلذ التعرف عليه.

في طريق خراسان

هاأنذا في الطريق إلى خراسان، وهذا الحلم الذي شد ما عصف بخيالي يصبح أمراً نافذاً وحقيقة راهنة.

هاأنذا على طريق خراسان، أمضي فيه كما مضى الذين تقدموني في مطاوي التاريخ فرساناً وشعراء وعلماء وأتقياء.

خراسان التاريخ: الأرض الطيبة التي بلغت تخوم الهند ثم تفتتت على نفسها ممالك ومقاطعات.

هي نفسها التي حملت عند القدامى اسم «آريان»، ثم دار الزمن فإذا لها اسم خراسان[٢]، ثم توالت الأيام فإذا الاسم اسمان، وإذا البلد بلدان، وإذا خراسان الأمس تصبح: أفغانستان الدولة الناهضة، وخراسان الولاية الإيرانية الجميلة. وحين تنقب في التاريخ ترى أن شعراءه وكتّابه ومؤرخيه سموا الدول التي حكمت ما عرف اليوم بأفغانستان دولاً خراسانية[٣] وسموا ملوكها: ملوك خراسان.

وظلت هكذا حتى القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر للهجرة، فإذا اسم أفغانستان يبرز ويشتد، فيطلق على ما هو أصغر من آريان ومن خراسان كليهما، وإن كان قد ضم بعض ما لم تكن تحويه خراسان القديمة، ولم يضم بعض ما كانت تحويه. وهذا الأخير هو خراسان اليوم[٤] وهو الذي نمضي إليه خارجين من طهران في قافلة كبرى، إذا كانت لم تشبه قوافل الماضي في كل شيء، فقد أشبهتها بعض شيء، كانت قافلتنا قطاراً طويلاً يشق المدى البعيد ركضاً لا يني وعدواً لا يهي.

دروب الذكريات

على هذه الدروب سارت قوافل المؤمنين يحدوها الشوق إلى قباب (المشهد) ومنائر (الرضا)، وعليها

مضت مواكب الفرسان برايات الظفر وأعلام الكفاح، وفيها تناشد الشعراء قصائد الحنين ومقاطع الحماسة وأبيات النسيب.

هي دروب الذكريات الروائع: ذكريات الإيمان والشعر والعلم والفلسفة والأدب.

فيها أنشد أبو تمام الطائي:

يقول في قومس[*] صحبي وقد أخذت ... منا السرى وخطا المهرية القود
أمطلع الشمس[٦] تبغي أن تؤم بنا ... فقلت كلا ولكن مطلع الجود

وفيها يقول الكلثومي:

سقى الله طيفاً بالعراق فإنه ... إليَّ وإن فارقته لحبيب
أحن إليه من خراسان نازعاً ... وهيهات لو أن المزار قريب
وأن حنيناً من خوارزم ضلة ... إلى منتهى أرض العراق عجيب

وفيها تشوق يحيى بن طالب الحنفي:

أقول لأصحابي ونحن «بقومس» ... ونحن على أثباج ساهمة جرد
بعدنا وبيت الله عن أرض «قرقرى» ... وعن قاع موحوش وزدنا على البعد

وفيها قال الحافظ بن الفرات:

لقد أصبحت منبوذاً ... بأطراف خراسان
ومجفواً نبت عن لذة ... التغميض أجفاني
إلى أرضي التي أرضى ... وترضيني وترضاني
إلى أرضٍ جناها من ... جنى جنة رضوان

وفيها أنشد العباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ... ثم القفول وقد جئنا خراسانا

أجل لقد جئنا خراسان، وها هي ذي مسالكها أمامنا نقرأها اليوم بارزة، بعد أن قرأناها من قبل صفحة من صحف التاريخ.

الصحارى

تخرج من طهران فتمر بـ (الشاه عبد العظيم) وقبته الذهبية المتوهجة، ثم بالمزارع والقرى، ثم تفاجأ بالصحراء تطالعك من حيث ما تلفتّ برمالها وحصاها وجفافها. ولكنها لا تطول فكما تفاجئك طالعة كذلك تفاجئك غابة، فلا تلبث مشاهد الخضرة أن تلوح، ويبدو فلاح يذرو القمح وقروي يسوق البقرة وساقية تجري وشجرة تعلو.

ثم تعود الأرض كما بدأت بعيد طهران مزارع وبيوتاً وحقولاً تتأرج فيها الريح بليلة النسمات.

كل هذا التحول العجيب من المدينة إلى الريف، ومن القحولة إلى الإمراع، تمَّ في ساعتين اثنتين من سير القطار. فها نحن في (كرمسار) في منتصف الساعة السابعة عشرة تبدو لنا القرية القديمة غير بعيدة مظللة بالشجرة الغضيض، ثم تتتابع القرى والحقول، وتتتابع القنوات والسواقي متشعبة في الأرض بمائها الروي.

لقد كان جميلاً هذا التعاقب للدساكر والمزارع، وهذا التقارب للقرى والحقول، فقد ظلت أمامنا متلاحقة يحدو بعضها بعضاً حتى لا تكاد تنفصل، ثم عادت تتباعد وتفترق. بل إننا بعد محطة (ده نمك) لم نعد نبصر لها أثراً، وصرنا وكأننا عدنا إلى الصحراء من جديد، فنحن الآن في سهول مديدة لا حياة فيها إلاّ نبات بري غريب يتراكم أحياناً ويتفرد أحياناً، بل لقد عدنا إلى الصحراء حقيقة لا مجازاً، ها نحن فيها، في صميمها. في رمالها وحصاها ونضوبها. وها نحن نمر فيها على محطة «سرخ دشت»، نمر دون أن نقف.

ولو كنا علمنا الفارسية لعلمنا أن المحطة الأولى (ده نمك) إنما تشير باسمها إلى حقيقة الأرض التي تقوم عليها فإن معنى ده نمك (قرية الملح)، وأن معنى سرخ دشت (الصحراء الحمراء).

لقد فاجأتنا محطة سرخ دشت وأدهشنا أن نرى في هذا البر الأقفر محطة للقطار، فلمن هذه المحطة، وأين هم الناس الذين يمكن أن يؤموها؟

وعدنا نتساءل لعل لهذه الصحراء عماراً لا نبصرهم، ولعل لهذا اليباب رواداً لا نحس بهم؟

لم يكن ما مررنا به من قبل إلاّ واحة. فها هي الصحراء الحمراء تتطاول وتتطاول، وتمتد ثم تمتد بأخاديدها ورضراضها ورمالها حتى محطة (لاهورد). ومررنا بعد ذلك بسمنان، فإذا ما وراءها هو الآخر صحراء ولكن من نوع آخر. إن الصحراء هنا تتميز بكثبانها وتلالها، بعد أن كانت قبل سمنان سهولاً مستوية. ولهذه الكثبان ولتلك التلال جمال في العين ورونق في النفس.

ودنا الليل وغابت الدنيا في السجف السود، وغبنا في الرقاد الطويل.

من جو إلى جو

وفي الصباح كانت الصحارى قد انطوت مع الليل، فلم يبق على النهار إلاّ زروع تتصل حقولها، وتتشابك محارثها، وإن تباعدت دساكرها وتناءت قراها.

ومع متوع الضحى وامتداد النهار، عرفنا أن ما جزناه من بواد، وما قطعناه من مراحل، قد أحالنا من جو إلى جو، فلقد تركنا الناس وراءنا على بيادرهم وفوق نوارجهم، ثم رأيناهم هنا يهمون بالحصاد، وعاد الهواء ليناً معتدلاً، بعدما كان قائظاً لفاح الأوار. ولا بدع فنحن نوغل في المسير شمالاً دانين من المناطق الباردة.

ولم يطل الأمر حتى كانت (المشهد) مشهد الرضا تلوح لنا، وحتى كانت قبة «الإمام» تتلألأ في الشمس بذهبها البراق.

التنظيم في المشهد

الذي تراه في عتبات العراق في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء، هو عين ما تراه في «مشهد الرضا»، فالفن الرائع هناك فوق القباب وتحت القباب، في قمم المنائر وصحون المساجد، في الأواوين والمحاريب، الفن الرائع بذهبه ومراياه وريازاته ونقوشه، بقيشانيه وأحجاره ورسومه.

الفن الإيراني العظيم سليل أعرق الحضارات وأنضج المدنيات، هذا الفن الذي حاكت يداه بدائع مقامات العراق هو نفسه الذي حاكت يداه بدائع مشهد خراسان.

لذلك لا تختلف الصورة في خراسان عنها في العراق، إلاّ في شيء واحد: هو أن نظاماً دقيقاً يهيمن هنا في «مشهد خراسان» على كل شيء فلا سبيل معه لتسرب الفوضى.

نظام دقيق يخضع له سدنة «الحضرة» وقيّموها، ويعنو له الكبير والصغير، ويسير بتدبيره كل شيء.

وبهذا التنظيم أنشىء مستشفى «الرضا». أنشىء بأموال أوقاف الإمام «الرضا»، وهي أموال طائلة كان يمكن أن تذهب هدراً، ولكن التنظيم أقام بها هذا المستشفى العظيم الذي تحس وأنت تزوره أنك حيال مؤسسة إنسانية من أنبل ما عرف الإنسان من المؤسسات، وهل أنبل في الإنسانية من أن يكون الثمانون في المائة من نزلاء المستشفى من الفقراء الذين لا يدفعون أجراً؟

إن المجانية في مستشفى الرضا هي الأساس، وفي هذا ما يرضي الإمام «الرضا» كل الرضا.

وبفضل التنظيم أقيمت مكتبة الرضا، هذه المكتبة التي تضم من روائع المخطوطات ما يندر أن يجتمع في غيرها، وحسبك أن فيها ما يعود إلى أول عصور التدوين الإسلامية، وأن فيها مصاحف بخط الإمام علي بن أبي طالب وخط ولده الحسن وبخط علي بن الحسين.

وبفضل التنظيم عمت النظافة صحن الحضرة وجوانبها وداخلها وخارجها، فلا يقع النظر إلاّ على نظافة شاملة عامة.

وبفضل التنظيم امتنع الاستهتار والاستغلال وإزعاج الزائرين، وحلَّ محل ذلك كله حرص على راحة الزائر وتوجيهه وتيسير زيارته.

والمتحدث عن «الحضرة» لا يمكن أن يهمل التحدث عن مسجد النساء المتصل بمسجد الحضرة، لقد كان غاصاً بالنساء، وكن يزدحمن فيه على الصلاة ازدحاماً ملؤه الخشوع، وما رأيت صمتاً وسكينة ترين على مكان كما رأيت ذلك في مسجد النساء في «حضرة الرضا».

عامليان في خراسان

وكذلك لا يمكن إهمال التحدث عن قبر الشيخ البهائي أو بهاء الدين العاملي كما اصطلح الناس أن ينوعوا تسميته. فهذا العالم العظيم، ابن جبل عامل الذي حمله القدر إلى إيران، ثم طاف الدنيا وعاد إلى إيران ودفن في مشهد الرضا، هذا العالم العظيم، شيّد لقبره حجرة فنية تليق بخلود ذكراه.

وهناك عاملي ثانٍ دفن في مشهد الرضا، عاملي هو الآخر عالم كبير، حملته همته من جبل عامل، من

قمم «جباع» ومن روضاتها وينابيعها، حتى حطت به على سهول «خراسان» وأرباض «طوس» وأبواب «الرضا» فكان علماً من الأعلام يتحلق العلماء حوله آخذين عنه مستفيدين منه، ثم انتهى الرجل ولم ينته العالم، انتهى الرجل العاملي إلى حفرة في تراب إيران، تحت حجارة من خراسان. ولم ينته العالم العاملي بل ظل مستمراً يعيش في كتابيه «أمل الأمل» و«الوسائل».

لقد زرت قبره وهبطت الدركات الموصلة إليه، فأحسست بوجودي كله يغيب في ذكريات هذا القبر العظيم، وألفيتني انتقل بكل شعوري من ذروة (صافي) العالية ومن سلسبيل (القبي) ومن شجرات الأودية والأجزاع في (جباع) ومن سفوح جبل عامل، إلى سهول خراسان، وأباطح المشهد وينابيع طوس ومعالم إيران، فأرى مدارج «محمد بن الحسن الحر العاملي» وملاعب صباه ومعاهد درسه ومكاتب أقلامه ومحاريب صوامعه.

سلام عليكما يا مواطنيَّ العامليّين، نزيلي المشهد وجاري الرضا، سلام عليكما في مسقط رأسيكما في جبل عامل وفي مثوى جسديكما في خراسان[7].

في نيسابور[8]

ها هي ذي نيسابور، وها أنذا أمشي إليها هابطاً من القطار، وها هي ذي جاثمة أمامي في عرض السهل بشجرها الوريق وبنيانها العريق وشوارعها الظليلة.

هي ذي نيسابور، وعلى هذا الطريق مرَّ أبو هلال العسكري وأبو منصور الثعالبي ونصير الدين الطوسي وفريد الدين العطار.

من ها هنا سلكوا، وهذا الثرى كان موطئاً لأقدامهم، وهذا الفضاء كان مسرحاً لأبصارهم!

في هذه الظلال كتب أبو بكر الخوارزمي بدائعه، وخلف هذه الأبواب أملى بديع الزمان الهمذاني روائعه ومقاماته.

تحت هذا السقف أو ذاك خُط «صحيح مسلم»، وفي هذا المنزل أو ذاك أنشىء «صحاح اللغة»، وعند هذه السرحات أو حول تلك الرحبات خرج كتاب «اليتيمة» وانتشر «التفسير الكبير».

بلى، ومن ها هنا، أو من هنالك، كان يطل عمر الخيام على الناس ويمشي مستوحياً الحياة حكمته وشعره!

ها هنا قد حلا لي أن أهتف مع النابغة:

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ... ماذا تحيون من نؤي وأحجار

وأن أنشد مع عنترة:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي ... وعمّي صباحا دار عبلة واسلمي

إن الدمنة قد تستوقفك ولو لم تكن هي منزلاً للعم أو مسكناً لعبلة، وإنك قد تهيم بالنؤي والطلل، ولو لم تكن أنت شاعراً غزلاً أو عاشقاً معموداً.

وأي دمنة أعلق بقلبك من الدمنة التي عرف ثراها أبا حامد الغزالي وأبا بكر محمد بن إبراهيم النيسابوري. وروى صعيدها حديث الفضل بن شاذان ومحمد بن علي بن سهل.

ها هي ذي نيسابور أمامي أفتحها كتاباً وأجلوها صحفاً فتفيض أمامي علماً جماً وذكرى حية، وتبعث في نفسي أشجى ما تبعثه بقايا الأحباب.

ويوم كان يهولني التاريخ متحدثاً عن نكبة نيسابور بالمغول، بعدما كان يشوقني قاصاً سير العلم والأدب والشعر فيها، لم أكن أحسب أني سألمس تلك النكبة بيدي وأحسها بنفسي وأبصرها بعيني.

ولكنني وأنا أتطلع إلى هذا الركام المتجمع، وأمشي في هذه التلال المتلاحقة، وأعلم أن ما تجمع فكان ركاماً، وما تلاصق فاستحال تلالاً، لم يكن إلاّ دور المدينة المهدومة وقصورها المنقوضة ومدارسها المنسوفة.

ولكنني وأنا أرسل البصر إلى الآماد البعيدة فأرى امتداد الخراب، أوقن أن ما حدّث عنه المحدثون في التاريخ ما كان ليصور حقيقة المأساة، وأن كل خيال يقصر عن إدراك بربرية المغول ووحشية جنكيز وهمجية هولاكو.

نيسابور الماضي

وإذا كانت ذكريات التخريب والتهديم أليمة في النفس، فإن هذا الألم ليبلغ أقصى مداه إذا كان ذلك في مدن العلم وديار الثقافة، وأي مدينة كان لها في العلم والثقافة ما كان لنيسابور؟

لقد كانت أحد المراكز العلمية الكبرى في العالم الإسلامي. فللشافعية فيها مدارس وللحنفية مدارس وللصوفية زوايا وخوانق، وكل هذا كان منطلقاً للبحث والتدقيق، ومجالاً للدرس والتدقيق.

ويستتبع وجود المدارس وجود المكتبات، لذلك زخرت نيسابور بدور الكتب، ولقد حفظ لنا ابن الأثير بعض معالم ذلك العهد العلمي المتألق وهو يقص حوادث سنة ٥٥٦هـ فقد قال وهو يروي حروب الأتراك والغز مع أمراء سنجر ومحمود بن محمد خان خاقان سمرقند: إن ثماني مدارس للحنفية و١٧ مدرسة للشافعية تهدمت وخمس مكتبات نهبت وبيعت بثمن بخس، وإن مسجد عقيل الذي كان ملتقى العلماء ومستودع خزائن الكتب الموقوفة قد خرب كله.

وهكذا فإن نكبة نيسابور بالمغول لم تكن أولى النكبات، بل كانت خاتمة النكبات، كانت الخاتمة التي انطوى بها أمر نيسابور.

ومما ينوه به من مدارس نيسابور: المدرس النظامية التي كان أبو حامد الغزالي يدرس بها، ثم تلاه بالتدريس فيها تلميذه محيي الدين محمد بن يحيى الذي انتهى أمره إلى القتل بيد الغزنويين سنة ٥٤٨هـ، فكانت الفاجعة به فاجعة كبرى، إذ إن نيسابور كانت قد شهدت إقبالاً على مدرسته قلَّ أن عرفت له مثيلاً في تاريخها العلمي الزاخر، لذلك كثر راثوه بالشعر عربياً وفارسياً مما لا يزال محفوظاً إلى اليوم.

والواقع أن فتن الغز كانت قاضية على نيسابور قضاء إذا كان شاملاً بحيث خرب المدينة وهدم مدارسها

وحرق مكتباتها ومزق علماءها، فإنه لم يكن حاسماً، فما لبثت (شادياخ) أن قامت على أنقاض نيسابور، وعادت مدينة عامرة مجمعاً للعلماء، إلى أن فاجأها المغول عام ٦١٨هـ. فكان قضاؤهم عليها القضاء الحاسم المبرم.

على أبواب نيسابور

لقد جئتها والأصيل، واحتوتني محطتها في مئات المؤمنين الهابطين إليها للصلاة، ففي محطتها يتحتم على القطار العائد من مشهد الرضا أن يقف وقتاً يتسع للصلاة، وهو تدبير إيراني لا مثيل له في أي بلد إسلامي آخر. ففي مناهج القطارات الإيرانية أن تقف في مواقيت الصلوات زمناً محدداً، وفي غرف القطار وأدلته ما يشير إلى مواعد الوقوف، فإذا هبط الهابطون للصلاة ـ كما فعلوا بجموعهم الغفيرة في محطة نيسابور ـ لم يهدروا الوقت في السؤال عن القبلة، بل إن سهماً مشرعاً في الفضاء مكتوباً عليه كلمة (قبلة) هو الدليل إلى القبلة، فمن شاء صلى في الأرض الفضاء مستدلاً بالسهم ومن شاء مشى إلى مصلى المحطة فصلى فيه، ويستوي في ذلك الرجال والنساء، فلكل مصلاه المنفرد به.

وقد يخيّل للغريب العابر أن دليل القطار وسهم المحطة شكليان، وأن لا حقيقة وراء هذه المظاهر، ولكنه ما إن يبصر الصفوف تتراص نظيمة بالمصلين، حتى يدرك أن ما قرأه وما أبصره كان الحقيقة الخالصة.

وما استهوتني صلاة كما استهوتني صلاة أولئك المؤمنين وهم يتراحمون على التطلع إلى الله مستقبلين القبلة متوجهين إلى الكعبة.

هنالك في محطة نيسابور في مصلاها وقف الإيرانيون يرتلون:

بسم الله الرحمن الرحيم، ويسألونه أن يهديهم الصراط المستقيم. وهنالك في البر المديد، تطلعت نفوسهم إلى البيت العتيق يناجونه من وراء الأبعاد ويرنون إليه من خلف الآماد.

ولقد هفوت لأن أقف في صفوفهم، وأن أرفع يدي بالقنوت كأيديهم، فما كان شيء أحب إليَّ في تلك الساعة من سجدات على ذلك الصعيد وركعات بين تلك الحشود.

فيا أيها المصلون في محطة نيسابور عصر اليوم، الخامس عشر من ذي الحجة سنة ١٣٧٨هـ: تقبل الله صلواتكم، وغفر لكم ذنوبكم، وأجزل لكم الثواب العظيم، فلقد كنتم صورة الإيمان الخالص والتقوى الصافية.

نيسابور الحاضر

شاقني السير في أزقة نيسابور، وطاب لي التجوال في أسواقها، فطفقت أمشي وأمشي في البلدة التي هي اليوم قرية كبيرة يناهز عدد سكانها الثلاثين ألفاً، لقد امتدت إليها يد التجديد فأنشئت فيها شوارع حديثة وعمرت أسواق جديدة، فإذا تعديت ذلك فأنت أمام أزقة قروية وحوانيت ريفية.

وتمضي فيها فيطلع أمامك (بازارنو)، ومعنى بازارنو، السوق الجديد، ولكن ليس في السوق الجديد إلاّ القديم المعرق في القدم، ولقد كان ولا شك في يوم من الأيام جديداً فتطاول عليه العهد فعاد قديماً، ولم

يحتفظ من الجدة إلاّ بالاسم فحسب، ولقد وددت لو تراءى لي القديم بعد أن رأيت الجديد، إذ لا أحسب أن وراء هذا الجديد مكاناً لقديم.

ها هنا في بازارنو يتجمع النجارون والحذاؤون والمنجدون، وحسبك بهذه المهن عراقة في القدم وعراقة في الجدة، وحسبك بها دليلاً على قدم هذا الجديد، وجدة هذا القديم.

وبازارنو ككل أسواق نيسابور القديمة معقود الأعلى بعقود حجرية تظلله من الشمس صيفاً وتقيه من المطر شتاء.

وترى في نيسابور (البوابات) الخشبية الكبيرة ذات الحلقات الحديدية على ما تعهده من مدن الشرق القديمة.. ترى هذه البوابات على طول الأزقة العتيقة في كل مكان.

أين اليوم من الأمس؟

ونيسابور مدينة الأعلام في الشعر والنثر والفقه والفلسفة والتصوف أين هي اليوم من كل ذلك؟

لا شك أنها آخذة من النهضة الحديثة بأوفر نصيب، ولا شك بأن موجة التعليم الجديدة تمضي فيها على أغنى مثال. وإذا كنت لا أعرف إحصاء لمدارسها فحسبي أن أشير إلى ثانوية الخيام التي كان اسمها يلوح لنا في الطريق، وأن أشير إلى مدرستها الفقهية التي زرناها في بنائها القديم المتهدم بعضه، والتي عرفت أن فيها ما يناهز المائة من الطلاب، بعضهم من المدينة نفسها وبعضهم من أقاليمها.

لقد حدثت طلابها، فإذا هم كغيرهم من الطلاب الدينيين يدرسون باللغة العربية، ويبدأون دراستهم بدراسة هذه اللغة وعلومها. إنهم يفهمون العربية ويقرأون بها، ولكن يعسر عليهم النطق بألفاظها، ولا تنطلق ألسنتهم بكلامها إلاّ حين ينتقلون لتحصيلهم العالي إلى النجف. ولقد رأيت واحداً ممن درس فيها ثم مضى إلى النجف وكان عائداً إلى بلاده ليتزوج ثم يعود إلى النجف، فإذا هو يبين بالعربية أحسن إبانة.

سألته: أتود أن تعود بعد تخرجك من النجف إلى نيسابور؟ فإذا الفتى ذو مطامح بعيدة تضيق عنها مدينته، إذ أجابني أن نيسابور بلد صغير، فأنا سأقيم في «المشهد» فهي للدين والدنيا.

وسألت في نيسابور عن الصوفية ما شأنهم اليوم وقد كانت نيسابور من أعرق مدنهم وحسبهم فيها فريد الدين العطار، فعرفت أن فيها منهم بقايا يعدون بالمئات وأنهم ـ والعهدة على الراوي الشيخ أحمد غرويان أحد وعاظ المدينة ـ لا يصلون مع الناس في المساجد العامة، بل يصلون في بيوتهم، وأن بينهم وبين الناس نوعاً من التجافي، وأنه ليس لهم في نيسابور اليوم رباط ولا خانقاه على ما هو معروف من حال الصوفيين. وأسفت أن لم يتح لي الوقت القصير أن ألقى أحداً منهم لأستزيده معرفة بأحوالهم.

وفي نيسابور بعض البهائية، كما أن فيها العديد من الأرمن النازحين إليها من أذربيجان.

ولعل من مظاهر التسامح الديني أن نيسابورياً مسلماً كان يزين دكانه البسيط بصورة للمسيح المصلوب فيها الكثير من الفن والإبداع.

وفي نيسابور تصدر جريدة أسبوعية واحدة ذات أربع صفحات صغار اسمها «رعد خراسان» يصدرها الأستاذ هادي غازي.

والعالم النيسابوري، مؤيد ثابتي، أراد أن يعيد للمدينة بعض سيرتها في التأليف فأصدر كتاباً قيماً باللغة الفارسية عن تاريخ نيسابور.

وفي نيسابور مسجدها الجامع القديم، إن تاريخه يعود إلى سنة ٨٩٩هـ ولقد جئناه وقت صلاة المغرب فرأينا فيه خمس جماعات لخمسة أئمة فاستدللنا أن في نيسابور خمسة فقهاء.

وعندما كنا في ظاهر البلدة مساء أبصرنا القرويين يعودون منها وقد تزودوا بحاجاتهم وانطلقوا إلى قراهم، بعض على الحمير وبعض على الخيل وبعض على الدراجات الهوائية، وكان ثلاثة رفاق يسيرون معاً: اثنان على دراجتيهما وواحد على فرسه.

قبر عمر الخيام

روايتان قرأتهما عن قبر عمر الخيام، وفي كل منهما ما يثير الفضول ويحفز لرؤية هذا القبر والتعرف عليه.

وإذا كانت شهرة الخيام قد طبقت الآفاق وسرت في كل عصر ومصر ما لم تسر مثله سيرة شاعر شرقي آخر... فإن هذه الشهرة إنما كانت لأن عمر كان شاعراً من طراز خاص. فرباعيات الخيام هي التي حملت اسمه إلى كثير من اللغات، وهي التي جعلت منه ذاك الرجل المشتهر.

ولكن الحقيقة أن الشعر هو بعض مواهب الخيام، وأن للخيام مواهب أخرى تفوق موهبته الشعرية. فهو قبل كل شيء حكيم، رياضي فلكي مهندس. وتغلّب الشعر على الحكمة وغير الحكمة، وعرف العالم عمر الخيام صاحب الرباعيات.

رواية السمرقندي

قلت إني قرأت روايتين عن قبر عمر الخيام:

صاحب الرواية الأولى هو أقرب الرواة عهداً بالخيام من تلاميذه المعجبين به، هو النظامي السمرقندي الذي قال إنه بعد وفاة الخيام التمس زيارة قبره فاصطحب دليلاً أخذه إلى مقبرة (الحيرة) وأشار إلى قبر عمر.

ويسترسل الراوي فيقول: إنه سمع أستاذه حجة الحق عمر الخيام يقول: «سوف يكون قبري في بقعة تلقي عليها الأشجار زهورها مرتين كل عام»، وإن السمرقندي زار القبر فوجده في حضن أشجار الخوخ والكمثرى، ووجده مغطى بالنوار الذي يتساقط من تلك الأشجار، وعندئذٍ عرف صدق نبوءته لأن كلا من هاتين الشجرتين تنبت أوراقها في موسم غير موسم الأولى.

رواية هارولد لام

وصاحب الرواية الثانية هو الكاتب الإنكليزي هارولد لام الذي قال:

«عندما كنت في إيران وجدت أن قلة من الناس تعرف قبر عمر». إلى أن يقول: «وروى لي بعضهم أن الحجاج عندما يمرون بمدينة نيسابور لا يفوتهم أن يصعقوا على قبر الخيام».

بعد الروايتين

التلميذ الوفي الذي فاته ـ على ما يبدو ـ أن يشهد موت أستاذه، وأن يشيع جنازته، ثم رأى وفاء لذلك الأستاذ أن يصطحب دليلاً يرشده إلى قبره، هذا التلميذ الوفي حفظ لنا صورة جميلة عن قبر الخيام.

ووصفه للقبر، وحديثه عنه لا يدل على أنه زاره بعد وفاة صاحبه بقليل، بل يدل على أن تلك الزيارة كانت بعد سنين قد تكون طويلة، فإلى أن يغرس الخوخ والكمثرى على القبر وإلى أن ينمو ويزهر، لا بد لذلك من عدد من السنين غير قليل. ونفهم من هذه الرواية أن الناس عنوا بالخيام بعد وفاته وأنهم حققوا له نبوءته، أو بالأحرى نفذوا وصيته، فإن هذا الذي يرويه السمرقندي عن لسان عمر الخيام هو أقرب إلى أن يكون وصية من أن يكون نبوءة، وإن كان الخيام قد أورده على أسلوب النبوءة.

لقد احترم الناس إرادة الخيام، فجعلوا الأشجار تلقي زهورها على قبره في العام مرتين.

ويهمنا أن نعرف ما هو حال القبر اليوم وإلى أي مدى ظلت نبوءة الخيام متحققة ووصيته نافذة.

زيارة الأجداث

لم أكن قد قررت الإقامة الطويلة في نيسابور بل كنت قد قررت أن أمضي فيها ليلة واحدة. لذلك رأيت أن أعجل بزيارة الأجداث التي لا تزال تحتفظ بها نيسابور، ولعلي أستطيع أن أعد من حسنات تلك الأجداث أنها كانت السبب في زيارتي لنيسابور، ولولاها لفاتتني تلك المتعة الروحية التي أحسست بها في زيارتي لتلك المدينة الخالدة، ولولاها لما عشت تلك الساعات مستغرقاً في الذكريات النيسابورية العظيمة، ذكريات الفحول من شوامخنا الأفذاذ في العلم والشعر والأدب.

على قبر العطار

احتفظت نيسابور بقبور أربعة من أعلامها وعفى الزمن على قبور الآخرين. هؤلاء الأربعة هم الفضل بن شاذان وفريد الدين العطار ومحمد المحروق وعمر الخيام. ولما تذهب إلى قبورهم تعرف امتداد المدينة ومدى ما بلغته من اتساع الرقعة قبل أن يدهمها المغول بغزوهم المدمر.

خرجنا من البلدة وقد انبسطت أمامنا السهول وبدت القباب فوق حقول القمح. وبعد أن سرنا قليلاً في طريق (المشهد) تركناه إلى طريق ترابي ترجنا فيه الحفر رجاً حتى بلغنا قبر فريد الدين العطار، فإذا هو في باحة واسعة مسوّرة بجدران من الطين اليابس، وفي الطرف الجنوبي من جدارها الغربي بضع غرف معدة مقابر لبعض الأسر. أما القبر نفسه فيقع في الطرف الجنوبي من الباحة تحت قبة خضراء من الكاشي، وعلى القبر شاهدة عمودية كبيرة قديمة العهد نقشت على جانبها آية الكرسي، وفي وسطها أشعار صوفية فارسية، والشاهدة مستندة إلى عمود مضلع في أعلاه كتابة فيها أسماء النبي وعلي وفاطمة والأئمة الأحد عشر عليهم السلام.

والعطار علم من أعلام الصوفية فضلاً عن منزلته العلمية والأدبية. وقد استشهد فيمن استشهدوا من أعلام نيسابور في الغزو المغولي الأول. ولنزعته الصوفية هذه، ولسوء ظن الناس بالصوفيين وشطحاتهم، قل تقدير النيسابوريين له وحبهم إياه، وبالتالي قلت زياراتهم لقبره، بل ربما انعدمت، واقتصرت على الصوفيين وحدهم. وأحسب أنه لولا هذه البقية الباقية من صوفيي نيسابور لزال القبر من عهد بعيد.

على قبر الفضل بن شاذان

خلفنا العطار ومضينا في طريقنا إلى قبر الفضل بن شاذان، وكان الطريق بين حقول القمح الواسعة، وكنا نسير فوق أطلال نيسابور القديمة فتبدو حولنا آثار شوارعها الزائلة.

ها هي السيارة تمضي بنا قدماً، وها هم القرويون على الطريق عائدون من المدينة إلى قراهم مزودين بما ملأ (أخراجهم) وأوقر دوابهم، وها هي الدراجات تنازع الدواب السيطرة على النقل، ها هي كثيرة على الدرب ذاهبة آيبة.

وما إن دخلنا المقبرة حتى أدركنا الفارق بين عناية النيسابوريين بالفضل بن شاذان وبين عنايتهم بفريد الدين العطار، وعرفنا فعلاً أن العطار لا يظفر إلاّ بعناية الصوفيين وحدهم، بينما يظفر ابن شاذان بعناية الجميع وإجماعهم على تقديره. ولا بدع فهو الفقيه الجليل صاحب الإمامين موسى الكاظم وعلي الرضا.

كان القبر في باحة مسورة مزروع بعضها قمحاً، وعلى القبر شاهدة أفقية، وأرضه مفروشة بالسجاد، وعلى جدرانه بعض الستائر والزيارات المكتوبة، وفوق الضريح كتاب «مفتاح الجنان».

وفي الساحة الخارجية قبور كثيرة فوقها بلاطات صغيرة على مستوى الأرض مكتوب عليها أسماء أصحابها بعبارات عربية بحتة، فعلى أحد القبور مكتوب مثلاً: هذا مرقد مرحوم حسن ولد قربان ١٣١٢، وعلى قبر آخر: هذا مرقد مرحوم عباس علي ولد كربلائي يوسف ١٣٢٥، وعلى قبر ثالث: هذا مرقد مرحوم يوسف علي ولد حسن ١٢٨٨، إلى عدد كبير من أمثال هذه القبور.

وإذا استثنينا حذف الألف واللام من كلمة المرحوم، فالتعبير كما ترى عربي سليم.

ولكن هناك قبراً آخر لم يكتب اسم صاحبه بهذه البساطة، بل إنه قبر معتنى بمظهره، وفوق هذا فإن اسم صاحبه مكتوب بشكل طريف. فصاحب القبر كان طبيباً لذلك نقش على قبره اسمه مسبوقاً بصفات تدل على ذلك، ولكن بمبالغات عجيبة لا أستطيع نقلها كلها، بل أنقل بعضها كمثال عليها:

«... مجمع كرامات النفساني والروحاني أفلاطون الدوراني وجالينوس الزماني ميرزا محمد طبيب توفي سنة ١٢٣٣».

وإذا استثنينا الخطأ الوارد في كلمتي: الدوراني والزماني، فإن العبارة هي الأخرى عربية. فما هو سر هذه القبور، ولماذا كتبت شواهدها بالعربية دون الفارسية؟

بقي ما قاله هارولد لام عن قلة من يعرفون قبر الخيام، وعما روي من أن الحجاج عندما يمرون بمدينة نيسابور لا يفوتهم أن يصقوا على قبر الخيام.

أما عن الشطر الأول فيخيل إليّ أنه صحيح إلى حد ما. وأما عن الشطر الثاني، فهو كلام فيه الكثير من الغلو. فالذي يظهر أنه يقصد بكلمة الحجاج زوار قبر محمد المحروق المجاور لقبر الخيام، وإطلاقه كلمة (الحجاج) على هؤلاء غير صحيح، لأن كلمة الحجاج لا تطلق إلاّ على الذين يقصدون مكة في موسم معين.

هؤلاء الزوار هم دائماً من الأتقياء الورعين الذين يلمون بقبر محمد المحروق في طريقهم إلى زيارة الرضا، أو يقصدون المحروق بالذات مما جاوره من البلدان. وهؤلاء لا ينسون للخيام أنه شاعر الخمرة، فلا ينظرون لقبره نظرة رضا، ولكن لا إلى الحد الذي ذكره هارولد لام، كما نرى من حديث قيم القبر الآتي.

قبر الخيام

يقع قبر الخيام في الضاحية الأخرى بعيداً عما كنا فيه، إنه فيما أسماه السمرقندي بمقبرة (الحيرة) ولما أقبلنا عليه بدا لنا شيء لم نجد له مثيلاً من قبل لا في قبر العطار ولا في مقبرة الفضل.

لقد أبصرنا هنا على أبواب قبر الخيام، الرياض والشجر والأعشاب والأزهار والأوراد، ثم أقبلنا على باب ولجناه إلى ممر عريض يتوسطه صفان من الورد المتفتح، وعلى جانبيه صفوف من الشجر الغضيض الممتد حدائق رحيبة غناء.

ومشينا في الممر تستقبلنا قبة عالية، حسبنا أن الخيام يرقد تحتها، فعجبنا أن يكون للخيام مثل قبور الأولياء، وأن يجد من يعده ولياً من أولياء الله فيشيد على ضريحه مثل هذه القبة الشامخة التي توحي بأن صاحبها يزار ويقدس.

ولكن العجب زال حين عرفنا أن القبة ليست للخيام، وأن نصيبه منها هو ليس إلاّ المجاورة، فإن صاحب القبة هو أحد أولياء الله حقاً من نسل الرسول، ويعرفه الناس باسم محمد المحروق وقد قدر للخيام أن يكون بعد الموت جاراً للأولياء، يضطر لزيارته من لا يفكر في زيارته.

أما قبر الخيام نفسه فيقوم إلى شرقي القبة ويفصله عنها فاصل بسيط.

وإذا كان السمرقندي يوم زار القبر قد وجده في حضن أشجار الكمثرى والخوخ، ووجد النوار يغطيه في موسمين مختلفين، فكذلك هو اليوم، ولكن باختلاف بسيط، هو أنه في عصر السمرقندي كان الشجر يحتضنه والنوار يكسوه، أما اليوم فإن الشجر يطل عليه، والنوار يشارفه. ولعله ليس من باب المصادفة أن لا يكون الزهر والورد إلاّ حول قبر الخيام، وأن لا يكون على قبر الفضل وقبر العطار لا شجر ولا نوار ولا ورد ولا زهر. وإذا بدا أن العناية إنما هي موجهة إلى جار الخيام محمد المحروق لا إلى الخيام نفسه، فإننا بعد أن قرأنا ما قاله السمرقندي نعتقد أن الشجر والورد قد تسلسلا على تلك الأرض منذ ذاك العصر حتى هذا العصر، وأن نبوءة الخيام عن قبره ظلت صادقة وستظل صادقة إلى ما شاء الله.

ومن طرائف القبر قيمه العجوز[٩]، فقد سألته رأيه في عمر الخيام، فأبى أن يصرح به، وقال بالعربية التي يحسنها:

ـ غير معلوم.

ولكنني ألححت عليه في السؤال فقال:

ـ هو حكيم رياضي.

ثم أخذ يتلو بالفارسية شعراً للخيام، ثم تكلم مع رفاقنا بالفارسية فضحكوا وقالوا لي: لقد صرح برأيه، إنه لا يحب الخيام، ولما علم أني عرفت رأيه ساءه ذلك، ثم قال بالعربية:

ـ يقولون شارب الخمر فاسق.

ولما سألته هل تحفظ شعره؟ قال: قليلاً، ثم قال: لا لزوم لي بشعره.

ولا شك أنه متبرم باضطراره لمجاورة شارب الخمر الفاسق ولكن الذي يعزيه، أنه في الحقيقة قيم قبر حفيد الرسول: التقي الورع محمد المحروق.

ولما هممنا بالعودة قدم لي القيم دفتراً لأسجل كلمة فيه، فكتبت كلمة قلت فيها:

لقد وقفنا على قبر الخيام متغاضين عن زلاته، مكبرين لمواهبه، معجبين به محترمين لقبره، وإن كان هذا يغضب صديقنا الجديد جار القبر السيد جعفر.

ولما عرف القيم مضمون ما كتبت ضحك طويلاً، وبدا راضياً عن هذا القول، وكان آخر ما ودعنا به أن هتف بي:

ـ نسألك الدعاء.

على طريق أصفهان

في الخامس من نيسان/أبريل ١٩٦٦ كنا في مقر شركة نقليات ميهن نورد في خيابان بوذرجمهري من طهران نتهيأ للسفر إلى أصفهان، وقد كان علينا أن نختار بين السيارة والطيارة. وأنا في البلاد التي أزورها لأول مرة أفضل ركوب السيارة أو القطار، لأن في ذلك تعرفاً على البلاد والعباد. لذلك فضلت السيارة هذه المرة، وكان هناك نوعان من السيارات الكبرى (الحافلة) والصغرى، وقد انصرف ذهني أول ما انصرف إلى الصغرى، ولكن كان الأصحاب على شبه إجماع على تفضيل الكبرى. وقد كان للسيارات الكبرى في ذهني صورة سيئة لما أعهد حالها عندنا في بلادنا، لذلك عافت نفسي أول الأمر ركوبها. ولكنني أخذت بنصيحة الناصحين، ومضيت مساء الرابع من نيسان/ أبريل واحتجزت بطاقة سفر لصباح اليوم الثاني وها أنا الساعة في مقر الشركة مستعد للسفر.

وقد أدركت لأول وهلة صواب من أشاروا بأخذ السيارة الكبرى، وكانت أولى حسناتها انتظام المواعيد، فها نحن قبل الساعة العاشرة بدقائق نرى السيارة متحفزة للسير في موعدها المحدد وهو العاشرة. وها هو مكبر الصوت ينادي المسافرين بأن يقبلوا على السيارة، وها نحن نبدأ بالصعود اليها فتبدو لنا الحسنة الثانية من حسناتها وهي نظافتها ثم مقاعدها المريحة.

وفي الساعة العاشرة تماماً كان المنادي ينادي على المتأخرين بأسمائهم المدوّنة في قائمة في يده بعد أن

رأى مقاعدهم فارغة، فأقبل بعضهم يهرول، ووصل آخرون والسيارة تهم بالانطلاق. ومن هنا عرفنا أن الموعد صادق وأن لا تأخير ولا انتظار للمتأخرين.

ومن حسنات هذه الشركات في طهران تنظيم أمر البطاقات تنظيماً دقيقاً ففي البطاقة خريطة للسيارة ومقاعدها وإشارة على المقعد المخصص للراكب فيصعد إليه رأساً بلا تفتيش ولا تطلع.

وما دمنا في تعداد الحسنات فلا بد لنا من إبداء الملاحظات، وهي تكاد تنحصر في أمر واحد هو هذه المظاهر غير الحسنة في باحة مقر الشركة، مظاهر أهم ما فيها هو أن النظافة ليست هي القاعدة المعمول بها هنا. فالباحة قذرة فيها حفر مملوءة ماء، وفيها أوساخ وفضلات لا تليق بمثل من عنوا هذه العناية بسياراتهم ومواعيدهم.

مستجدون خطباء

وما كاد شمل الركاب يلتئم في السيارة ويستقِرون في مقاعدهم حتى صعد على درجتيها سائل أخذ يستجديهم، ولما رأى أن أحداً لا يجيبه صعد إلى مقدم السيارة ووقف وقفة الخطيب وأخذ يرتجل كلاماً منمقاً، ومضى متأنياً في كلامه ـ أو بالأحرى في خطابه ـ لا مستكيناً ولا متضرعاً بل مقنعاً مؤثراً. وفعلت البلاغة الخطابية فعلها فاستجاب إليه من لم يستجب من قبل فتناول نصيبه ونزل. وإذا بآخر يقفوه ويسلك مسلكه على الدرجات أولاً ثم في مقدم السيارة، وينطلق بخطابه انطلاق زميله بأناة وتنميق، إذا كنت لم أفهم ألفاظهما، فقد فهمت ما يعنيان. وهزت الخطابة مرة أخرى من لم يهزهم شيء من قبل وجادوا على الشحاذ.

حمالون

وبينما نحن هادئون إذا بصيحة وضجة ومشاكسة فعلمنا أنها المشكلة العالمية، مشكلة الحمّالين مع المسافرين... فالمسافر يدفع والحمال لا يقنع، ولا تدري من هو المحق منهما، على أنه مهما كان الأمر، فإن كثيرين من المسافرين لا يعرفون الاقتصاد إلاّ في محاسبة الحمّالين، فيثور النقاش الذي كان يمكن أن يحله القليل الذي لا يعد شيئاً إذا حسب المسافر ما ينفقه في سفره. ولكنك لا يمكن أن تبرىء الحمّالين دائماً، ففي بعضهم حذق يدركون معه أن إخجال المسافر يضطره أن يزيد في الدفع لهم مهما زاد من نفسه، وكلما شعروا به متباعداً عن الإخجال أمعنوا في استغلاله. والناس دائماً بعواطفهم مع الحمّال، فهم يسلقون المسافر بألسنة قلوبهم إن لم يسلقوه بألسنة أفواههم، لذلك يعرف بعض الحمّالين الماكرين كيف يستغلون حياء ذوي الحياء. والحمالون في كل مكان بالذهنية نفسها والأسلوب نفسه.

الانطلاق وقصة المجانين والمئذنة

وفي تمام الساعة العاشرة انطلقت السيارة الحافلة مخترقة (خيابان بوذرجمهري) ثم متفرعات شوارع طهران الأخرى حتى انتهت بعد خمس عشرة دقيقة إلى أطراف طهران فأوغلت فيها، وهنا بدت لنا مداخن معامل حجارة الآجر، أو الطابوق باصطلاح العراقيين، وكنت كثيراً ما أرى مثل تلك المداخن

الشاهقة في العراق. ولكنها لم تكن تلفت نظري مثل هذا الإلفات لأني كنت أراها من بعيد. أما هذه المداخن فقد كنا نمر قريباً منها ونبصرها عن كثب، لذلك تنبهت لها لأول مرة فشاقني ذاك السموق المتعالي إلى عنان السماء بهذا الشكل الذي يبدأ بقاعدة متسعة المحيط ثم يأخذ يضيق كلما ارتفع حتى ليكاد يصبح بعضه ذا صورة مخروطية.

ولئن روى الظرفاء قصة المجانين الذين مروا بمنارة عالية فوقفوا يتأملونها متعجبين كيف أمكن أن تبنى هكذا في الهواء، فقال أحدهم: إنها كانت في الأصل بئراً عميقة فحدثت زلزلة قلبت عالي الأرض سافلها فارتفعت البئر في الجو وغدت مئذنة. فاتهمه رفيقه بقلة العقل حين تخيل هذا التخيل وقال له: إن الأمر سهل جداً، إنهم بنوها على الأرض فلما تمَّ بناؤها وتماسكت أحجارها رفعوها إلى الأعالي وركزوها حيث تراها.

لئن روى الظرفاء هذه القصة عن المجانين، فإنك لتكاد تتساءل تساؤل المجانين وأنت ترى هذا الرمح الأجوف الصلد الثخين منتصباً هذا الانتصاب البديع ومندفعاً إلى السماء هذا الاندفاع اللطيف، ويمر ذهنك للحظات في حيرة بالطريقة التي أمكن فيها أن يبنى هذا البناء هكذا في أعالي الجو. ولكنك لا تلبث أن تتذكر قصة المجانين والمئذنة فتصرف ذهنك عن التساؤل وتشغله بشيء آخر لئلا تصل إلى مثل ما وصل إليه المجانين من نتائج فكرية مدهشة.

خارج طهران

بعد أقل من نصف ساعة كنا قد انتهينا من أطراف طهران، ومضينا في السهول الرحبة عابرين القرى والحقول.

وإنك لا تكون قد مضيت بعيداً حين تلاحظ أن الأرض قد غدت في بعضها صحراوية مجدبة، وأن اختلافاً بيناً يبدو فيما تجتازه من أرضين: فالإجداب الصحراوي المطبق يصمد جنباً إلى جنب مع الإخصاب الحقلي الممرع.

ولكنك لا تكون قد ابتعدت أكثر من نصف ساعة عن طهران حتى تحس أنك في الصحراء المترامية، صحراء حلوة تتخللها التلال السمراء البعيدة أحياناً، والقريبة أحياناً، حتى ليغدو الطريق عابراً خلالها فتراها حواليك عالية، طوراً صخرية وطوراً غير صخرية، إلى أن تنفرج عن سهول يتخللها الاخضرار اليانع، وتتوسطها قرى متباعدة.

هذه الحقول وهذه القرى لا تشغل إلاّ حيزاً قليلاً لا يكاد يعد شيئاً أمام اتساع الصحراء وترامي أطرافها البعيدة. ولك أن تشبهها بواحات، ولكن واحات محدودة في ذلك المدى غير المحدود. نحن نقصد أصفهان، ولكن هذا الطريق الذي نسلكه هو الطريق المشترك بين قم وأصفهان، فلنا أن نقول إننا الآن نسير في طريق مدينة قم، الموصل منها إلى أصفهان. وها نحن نعبر جسراً على نُهير إذا كان الآن في أوائل الربيع شحيح الماء فلا شك أنه ينضب في الصيف، وها نحن نرى غير بعيد منه القطعان ترعى سارحة.

الصحارى

إذا كان تخيل الصحراء يوحي بالوحشة والانقباض، فليس كذلك مرآها، لا سيما إذا كنت تقطعها لا على ظهر البعير، ولا على الأقدام، بل في سيارة خفيفة السير.

إن لتخيل الصحراء وحشته حين تتصور قوافل الجمال، وقد ارتفع النهار واشتد الحر وقل الماء وأقفرت الأرض. أما الآن فها هي الصحراء أمامنا على صورة من أعذب الصور وأعلقها بالنفس.

إننا لا نحس أن ما انبسط أمامنا على ما لا يدرك البصر آخره، هو صحراء كتلك التي طالما سمعنا وصفها في الشعر، ورأينا صورتها في النثر... إن الذي أمامنا الآن هو بحر لجي متلاطم الأمواج، تواثبت موجاته، موجة خلف موجة، وموجة جنب موجة، حتى إذا حاولت كل موجة أن تأخذ طريقها لتتكسر على الرضراض في الشاطىء، نفخ عليها جني ساحر، فجمدت في مكانها، وجمد البحر كله، وعاد الماء الأجاج يابسة على صورة البحر وشكله.

شقراء وسمراء

تلك التلال السمر التي رافقتنا من قبل، أسلمتنا الآن إلى أخوات لها على غير لونها، فما عرفناه من الهضاب وراءنا أسمر اللون، عاد نظيره هنا ميالاً إلى الشقرة، وهكذا لا تترك الصحراء روادها ملولين، فمن كان سمراوي الذوق أرته ما يحب من السمرة، ومن كان شقراويه أرته كذلك ما يحب.

ولكنها سمرة وشقرة تروق لنا نحن الخياليين، وإلاّ فأي واحد من أصحابنا الواقعيين يفكر بالسمرة والشقرة في هذه الصحراء؟

إنها سواء لديه أكانت التلال سمراء أو شقراء أو سوداء أو حتى شوهاء. وماذا يجني إذا تتابعت أمام عينيه الربوات ببياضها الناصع أو شقارها الفاقع أو سمارها الرائع؟ إنها عنده جماد في جماد، وصمت في صمت، وهمود في همود. لن يحرك فيه تتابع الألوان المتباينة أي حس، ولن يثير فيه أي شوق، ولن يبعث فيه أي رغبة.

فلتكن الصحراء وتلالها سمراء أو شقراء أو خضراء، فماذا يعني ذلك؟ وماذا تجدي المفاضلة بين لون وآخر من هذه الألوان الجافة؟

إن السمرة لتروق لا هنا في هذه البوادي، وإن الشقرة لتشوق لا على هذه الربى. وإن المفاضلة لتصح لا هنا في هذا البر الأقفر.

إن كل ذلك ليروق ويشوق ويصح، إذا كانت الشقرة تميز الوجه الناعم، والسمرة تزين الشعر الفاحم.

إن أصحابنا الواقعيين ليهزأون بنا حين نتحدث عن الاسمرار في تلال الصحراء، وإنهم ليسخرون منا حين نصبو لشقرة الربى.

ولعلها قسمة ضيزى أن تكون لنا هذه السمرة وهذه الشقرة وأن تكون لهم تلك السمرة وتلك الشقرة.

إنها حقاً قسمة ضيزى، ولكن من هو الخاسر فيها؟

حقيقة طبيعة هذه الأرض

مهما تفرست وتطلعت فلن تصل إلى حقيقة طبيعة هذه الأرض... أهي صحارى خالية، أم هي أرض عامرة؟ وإذا كانت عامرة فما هو مدى هذا العمران وما هي حقيقته؟

إن الجواب على هذا السؤال لا يكون عند مسافر عابر وسائح مستطرق؟ وهذا السائح الذي يرى أنه يجوز القفار، ثم ها هو يرى قطعان الغنم أمام عينيه، ثم ها هو يمر فجأة بقرية.

هذا السائح لا يستطيع أن يجيب على تساؤلك. أجل ها نحن نجوز قرية بعد اليباب، قرية محدودة البيوت محدودة الحقول ولكن كثيرة الماشية. قرية كمعظم ما مررنا به من قبل من قرى ذات أسطحة من قباب طينية.

وبعد دقائق نمر بقرية أخرى كالأولى في كل شيء، لولا هذه الخيول المشدودة إلى مربط واحد، ولولا هذا العلم الذي يخفق فوق مخفرها، ولولا أنها قليلة الماشية. وحين نقول كثيرة الماشية أو نقول قليلة الماشية، فإنما نحكم على ذلك مما نشاهده في محاجرها ومراعيها القريبة.

وهذه الخيول أتكون للفلاحين، وهل لا يزال للخيل ميدان في هذه القرى الإيرانية، أم إنها فقدته كما فقدته في قرانا العربية؟ لعل هذه الخيل هي لجنود المخفر لا للفلاحين.

ثم، ها هي ساقية ماء تروي بعض الشجرات على مجراها وها هي مضارب من الشعر، لا ندري أهي للبدو أو للنَّور، وها هي التلال السمر تقف صفاً بعد صف. وها نحن نمر بقرية ثالثة بدت لنا أكثر عمراناً وأوسع بنياناً وأكثر شجراً ولكن أقل حقولاً. وظهرت مدرستها بارزة، واستطعنا أن نقرأ اسمها في مر السيارة السريع (دبستان علي آباد).

أما رفيقة الطريق، أما التلال السمر فقد عادت هنا سلاسل من الجبال الشوامخ. وبعد دقائق تطالعنا بضعة بيوت وأمامها بساتين الرمان. ويبدو أن الرمان هنا شيء أساسي، فها هي مزرعة أخرى تتلو المزرعة الأولى ببيوتها القليلة ورمانها الكثير ومقهاها الكبير، ثم تتلوها ثانية وثالثة، ثم لا نلبث أن نطل على سهل صحراوي بعيد المدى، لا تلال فيه ولا جبال، بل بحيرة لماعة الماء.

على أبواب قم

وعادت الطريق متشابهة لا جديد فيها... متشابهة في سهولها وهضابها وكل ما فيها إلى أن أطلت لنا فجأة مدينة قم بقبابها ومآذنها وخضرتها. فلم تكد تلوح من بعيد حتى هتف الإيرانيون المؤمنون بصوت واحد: اللهم صلِّ على محمد وآل محمد.

تحية لكم يا رفاقي الإيرانيين في سيارة «ميهن نورد» الذين صحبتهم في اليوم الخامس من نيسان/ أبريل سنة ١٩٦٦ من طهران إلى قم، دون أن أكلمهم أو يكلموني، تحية قلبية لكم من هذا المسافر الغريب الذي كان يحس أنكم أصدقاؤه ولو لم تتعارفوا، تحية يبعثها لكم على صفحات هذا القرطاس، جواباً على تحيتكم الرائعة لمحمد وآل محمد حين بدا لكم مشهد حفيدة محمد فاطمة بنت موسى بن جعفر.

في قم

بعد ساعتين وخمس عشرة دقيقة من خروجنا من طهران، كنا نقبل على مدينة قم ثم ندخلها في شارع عريض مستقيم ينتهي بمقام السيدة فاطمة، وقبل الوصول إلى المقام انحرفنا في شارع آخر ونزلنا من السيارة.

وفهمنا من الحوار الذي جرى بين السائق وبين رفاقنا أن لدينا مهلة ثلاثين دقيقة يزور من يزور مقام السيدة ويتغدى من يتغدى. وكان أول ما فعلنا أن ذهبنا خاشعين إلى حرم السيدة الطاهرة التي حملتها الأقدار من منازل أهلها في الحجاز لتلحق بأخيها الإمام علي الرضا، ولكنها قبل الوصول إليه مرضت في الطريق ثم ماتت ودفنت في مدينة قم. وليست هذه أول زيارة لي لمدينة قم ولهذا المقام المقدس، بل تكرر ذلك قبل اليوم، وفي كل مرة كنت أحس بجلال يغمر الكون وأنا أتلمس طريقي بين الحشود الإيرانية المقبلة على ضريح هذه السيدة العربية العظيمة، الحشود المقبلة، بكل ما في قلوبها من حب وتكريم تصوغهما دعوات واستغفاراً، فأكبر هذا الشعب العظيم واخشع لإيمانه الراسخ ووفائه النادر.

الفوضى

النظام الذي كان سائداً في مقر شركة ميهن نورد بطهران عند ابتداء الرحلة انقلب إلى فوضى في قم ساعة السفر، فوضى لم ندرك كنهها لأننا لا نفهم مما يتصايح به الراكبون شيئاً، فما إن أعلن السائق عن الصعود إلى السيارة وبدا الراكبون يصعدون، حتى عرفنا أن ركاباً جدداً سيصحبوننا من مدينة قم، وما إن بدأوا يصعدون حتى استحالت السيارة إلى فوضى عجيبة من صياح وبكاء أطفال وتناد واختلاف على المقاعد ونزول وصعود. وبدا أن مرد ذلك إلى تلك الطبيعة الاستغلالية التي تسيطر على السائقين فهم سواء في بيروت ودمشق وقم وغيرها، وأنهم يحاولون الكسب مهما كان طريق هذا الكسب.

تلاشي الفوضى

تحركت السيارة ولا يزال فريق من النساء والرجال وقوفاً في أرضها، وكلما تقدمت السيارة هدأت الضجة بعض الشيء، ولكن السيارة كانت تمشي خطوتين ثم تقف، ونحن لا ندري شيئاً مما يجري ولا نفهم ما يقال.

ثم وقفت السيارة وطال وقوفها وظل النقاش محتدماً، ولم ينه مظاهر الإشكالات إلاّ معاودة السيارة للسير، سيراً كان هذه المرة حازماً، وظل التصايح متعالياً أول الأمر ولكنه أخذ يهدأ رويداً رويداً كلما مضت السيارة في ركضها. وكان بعض الواقفين قد اضطروا للجلوس إما على الحافات البارزة من مقدم السيارة أو على أوعية البنزين الفارغة في أرض السيارة. ولم تهدأ الضجة تماماً إلاّ بعد أن خرجنا من قم، ويبدو أن المحتجين قد يئسوا من الاحتجاج وغير الراضين لم يجدوا مناصاً من الرضا فقرت السيارة وهدأت الأصوات.

والمسافرون الذين صعدوا من قم كانوا من طراز غير الطراز الذي صعد من طهران، وبدا بعضهم أسراً

كاملة تحمل الكثير من الأدوات المنزلية، حتى أباريق الماء، ويظهر أنهم من زوار السيدة فاطمة العائدين إلى بلدانهم.

في الطريق

وانطلقنا من أبواب قم تواجهنا سلاسل جبال عبرنا بينها إلى السهول. إن الطريق بعد قم يشبه الطريق قبلها لولا تلك السلاسل الجديدة من الجبال الشاهقة التي بدت أمامنا وعلى يميننا وشمالنا والتي كان بعضها مكللاً بالثلوج.

ثم صرنا بعد الجبال الجرداء نسير في أوديتها المتشعبة وسهولها وثناياها وشعابها، ومع أنه لا تبدو أية قرية ولا تظهر أية حياة فقد كانت بعض القطعان تسرح في السفوح، حتى بلغنا بلدة (داجان) ثم بلدة (ميحة). ومنها إلى السهول الفيح حتى كنا على بعد عشرين كيلومتراً من مدينة أصفهان وهنا تألقت الحقول والبساتين، وازدهرت الأرض كلها على عكس ما كنا نمر به منذ خروجنا من طهران حتى وصولنا إلى هنا.

وبدا شجر البساتين صغيراً مما دل على مشاريع جديدة للإرواء لم تكن من قبل، وظهرت الأقنية والمجاري والعمائر والمزارع وأيقنا أن ذلك سيظل متصلاً حتى أصفهان نفسها.

وإنك وأنت تسير في هذا الطريق الإسفلتي الطويل من طهران حتى أصفهان لتحس حقاً أنه من مفاخر إيران الحديثة فهو في اتساعه وتعبيده السليم ودقة صنعه لا يقل عن أحسن الطرق العالمية إتقاناً وإحكاماً وتنظيماً.

على أبواب أصفهان

لقد تحقق ما حدسنا به فإن الشجر والزروع ظلت تغمر الأرض في كل خطوة نخطوها وكان الشجر هنا كبيراً عالياً. وعلى بعد خمسة عشر كيلومتراً من أصفهان وقفت السيارة أمام مخفر الشرطة وصعد ضابط شرطة بثلاث نجوم إلى السيارة وبدأ يراقب بكل رقة وتهذيب. مع أننا لم نعلم أول الأمر نوع التفتيش الذي يجري هنا ولا موضوع السؤال والجواب فقد حمدنا لهذا الضابط أنه كان جديراً بما أودع إليه من مهمة لم يبد في أدائها متعجرفاً آمراً ناهياً، بل كان مثال المواطن المخلص الغيور على مواطنيه.

وعلى بعد عشرة كيلومترات عن أصفهان تكاثف الشجر وتلاصقت حقول القمح واتصل العمران، وكثرت الدراجات، ثم ازداد الشجر تكاثفاً وبدت القطعان في المراعي. ثم صارت الدراجات تشكل قوافل متتابعة. وبدا لنا أن هذه الدراجات شيء أساسي في حياة السكان، فقد كانت تمر بنا قادمة من أصفهان مجموعات يترافق راكبوها في الطريق فيتحدثون ويتذاكرون وينقلون وراءهم عليها كل شيء، فمن أخراج مملوءة إلى أكياس محشوة إلى حزم من الحطب إلى كل ما يمكن أن يحتاجه مثل هؤلاء الراكبين.

وفي مدخل أصفهان كانت تقف السيارات الحافلة وتدخل قطعان الماشية وتزدهر حقول القمح الخضراء.

ودخلنا مع الداخلين في شارع طويل على جانبيه الشجر العالي وفي أوله مستديرة جميلة. ثم انعطفنا منه إلى شارع أرحب وأعرض وقفنا فيه فكان خاتمة المسير.

في أصفهان

التفتيش الذي قام به مفوض الشرطة على بعد خمسة عشر كيلو متراً من أصفهان والذي جهلنا حقيقته، ساعة جرى، عرفنا الآن سره، إنه تدبير من أحسن ما تلجأ إليه الشرطة لفرض رقابتها على السيارات حين لا تستطيع فرضها في تلك البراري الواسعة التي هي أفضل فرصة لينطلق فيها السائقون على هواهم مسرعين ما شاء لهم الإسراع.

فكيف تقبض على زمام هؤلاء السائقين فتوقفهم عن السرعة التي لا يصح أن يتجاوزوها؟ كيف تستطيع أن تفعل ذلك إذا كان لا رقيب عليهم سوى عقولهم الهوجاء، وهل من الممكن أن تملأ تلك السهول المترامية برجال الشرطة آيبين ذاهبين؟ إن ذلك مستحيل، لذلك اهتدت الشرطة الإيرانية إلى هذا الأسلوب الفريد: ذلك أنها ترغم السائقين على أن يسجلوا ساعة خروجهم من المدينة عند مخفر للشرطة ثم عليهم أن يسجلوا ساعة وصولهم إلى المدينة المقصودة فإذا تجاوزوا المدة المحددة عوقبوا.

إن عليهم مثلاً أن يقطعوا المسافة بين طهران وأصفهان بزمن لا يزيد على سبع ساعات. وهكذا تراهم لا يحاولون أبداً تجاوز الزمن المحدد لأن العقاب ينتظرهم.

شوارع أصفهان

لا يزال القديم والجديد يصطرعان في شوارع أصفهان، دون أن يستطيع الجديد تغلباً، وهو وإن كان يبدو أنه سائر إلى الغلبة إلاّ أنه يمشي إليها مشياً بطيئاً فلا تدري متى يمكن أن يصل.

فهذه الشوارع الرحبة العريضة التي هي من أبرز مظاهر التجديد، إن هذه الشوارع لم تستطع أن تضفي على أصفهان حلة الجدة، فإذا كانت بمجرد شقها ثم بما بذل في سبيل تمديدها وتعريضها من جهد، إذا كانت بذلك تحاول أن تعطيك الصورة الواضحة عن أصفهان الحديثة، فإنها بأرصفتها الترابية، وبما يتفرع عنها من أزقة بدائية ملتوية ضيقة، وبما في تلك الأزقة من بيوت طينية الجدران عتيقة البناء، بكل ذلك تحس أن أصفهان لا تزال أصفهان القديمة. إن تعبيد الشوارع الكبرى لم يغير من طبيعة البناء على جوانبها، فترى الشارع جديداً، ولكن البناء على الجانبين لا يزال هو البناء الأول لم يتجدد.

بل إن الكثير من أحياء أصفهان لا بد في الوصول إلى بيوتها من دخول دهاليز طويلة هي أشبه بالكهوف، مسقوف بعضها بالخشب. وبعضها بالعقود، فإذا مررت في الزقاق وسرت في الدهاليز ووقفت أمام البوابة الخشبية الأثرية خيّل إليك أنك واصل إلى بيت بسيط لا يختلف عن طبيعة هذا الزقاق وهذا الدهليز، ولكن ما إن تدخل البيت حتى ترى أن المظهر الخارجي شيء، والحقيقة شيء آخر، وترى أنك في دار أنيقة بغرفها وبركتها وباحتها وبكل ما فيها، فبيوت أصفهان من هذه الناحية تشبه بيوت دمشق القديمة التي لا توحي بواباتها وواجهاتها وطريق الوصول إليها بأنك واصل إلى ما ستصل إليه.

على أن أصفهان استطاعت بشارع واحد أن تكون فريدة بين المدن، هذا الشارع هو (خيابان جهارباغ)

أي شارع الحدائق الأربع، وأول ما تلاحظه أنه ثلاثة شوارع: شارع في الوسط يحدق به صفان من الأشجار، وشارعان على الجانبين يرافقهما الشجر أيضاً، ورصيف عريض لكل واحد من هذين الشارعين، فيتكون من ذلك شارع من أجمل شوارع الدنيا وأكثرها اتساعاً واتساقاً. وإذا كانوا قد أطلقوا عليه اسم شارع الحدائق الأربع فيجدر أن يسمى الشارع الحديقة. وسبب تسميته أنه أقيم مكان أربع حدائق كانت تقوم هناك، ثم استبدل هذا الشارع بالحدائق فحمل اسمها عن جدارة. وهو بهذا الشجر الغضيض المتشابك فروعاً وأغصاناً، والمتراص على كل الجوانب، لا سيما على ضفتي القسم الأوسط. شارع يعز مثيله في بلد من البلاد.

وحتى هذا الشارع الأنيق البهيج يتصارع فيه القديم والجديد ويتجاذبانه من هنا وهناك، ولكن غلبة الجديد هنا تبدو للعيان، فإذا جئت الشارع من الشمال ومشيت فيه متجهاً إلى الجنوب رأيت شارعاً متناقضاً، هو حديث إن كان المقصود بالحداثة حداثة الإيجاد، ولكن حداثة الإيجاد هنا غير مكتملة فالقسم الأوسط منه ترابي، والبناء على الجانبين قديم، وحتى الشجر هنا في هذه الجهة يختلف عما ستراه في الجهة الجنوبية.

فإذا أوغلت ماشياً إلى الطرف الجنوبي بدت لك أصفهان الحديثة، الحديثة في كل شيء فها هنا أرشق المتاجر والمطاعم والسينمات والفنادق والحوانيت، أرشقها وأحدثها وأبهجها. وها هنا الشوارع العرضانية المتفرعة عنه والمتناسبة معه.

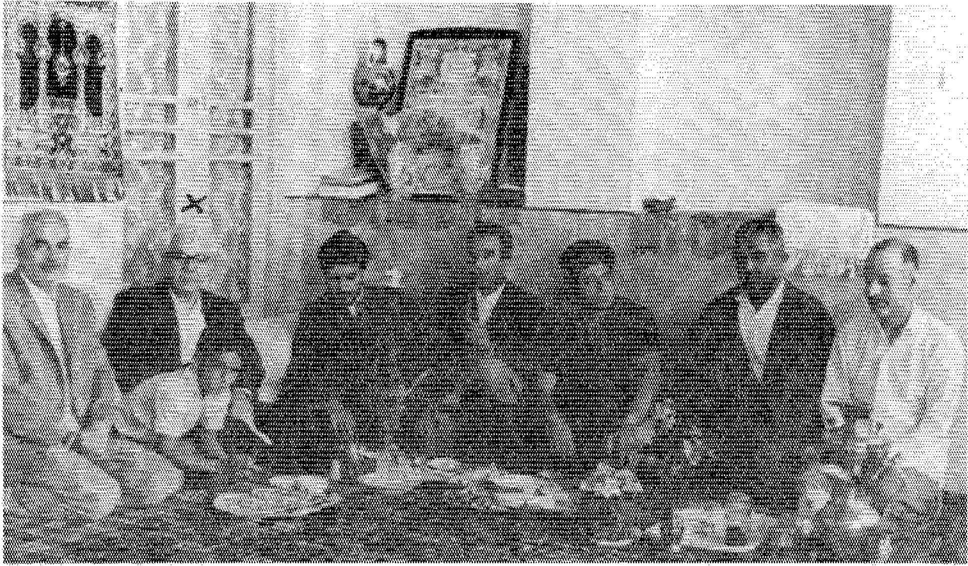
ويمتد هكذا نضيراً شجيراً متألقاً حتى ينتهي بساحة ٢٤ اسفند الجميلة الرحبة، فتبرز فيها أكبر الفنادق والمتاجر وأزهاها، وتطل عليها الجبال الشواهق من عل، وتمضي الساحة حتى تلتقي بنهر زندرود وجسره الطويل ذي الثلاث والثلاثين قنطرة فإذا دهمك الأصيل وأنت تسير واقترب غروب الشمس وأنت على طيتك، رأيت منظراً حلواً، فيه الجسر إلى يسارك ومجرى النهر أمامك، مجرى النهر العريض الناضب بعضه والجاري بعضه، الناضب ماء ولكن المزدهر عشباً حتى يعود كميدان أخضر مخضوضر بالشجر ومجاور بالماء ومحروس بالجبال.

في الشطر الجنوبي من هذا الشارع مروراً إلى الساحة يلتقي الأصفهانيون في الآصال متنزهين، فإذا دنا الليل ازدادوا إقبالاً على النزهة وازداد الشارع بهجة وتألقت فيه الأضواء على جوانبه شعلاً بالنور الأحمر والأخضر، الثابت والمتحرك.

أما المتاجر فقد شعت هي الأخرى بالمصابيح واستعدت للسهر عارضة أجمل وأدق ما صنعته الأيدي الأصفهانية المبدعة.

والناس ذاهبون آيبون من ها هنا وها هناك مستمتعين بكل ما هيأه لهم هذا الشارع الجديد الجميل، ولا يفوتك أن تلاحظ أن النساء هنا قلة قليلة يخيل إليك أن أكثرهن عابرات لا متنزهات، وهن هنا محجبات إلاّ النادر في الفتيات منهن.

ومن الطريف أن ما قابل شاطىء النهر اتخذ موقعه مسمى لمكانه فتجد هنا: سينما الساحل وأوتيل الساحل وتجد حتى (كوشت ساحل) أي لحم الساحل.



جلسة في أحد منازل أصفهان ويبدو فيها العالم العامل الدكتور جمال الموسوي

ومن ساحة ٢٤ اسفند يتفرع باتجاه الغرب شارع بهلوي العريض الطويل الشجر، وفيه تبدأ أصفهان الحديثة التي تختلف عما رأيته من قبل، هنا الشارع شارع متناسق بكل ما فيه، بهذه الأرصفة المتقنة، بهذه الدارات الأنيقة، هذه المنازل الرشيقة، بهذا الشجر الظليل.

ونسيت أن أقول إنه من جنوب شارع جهار باغ يتفرع شارع يحمل اسم عاملي شهير، إنه شارع الشيخ البهائي الذي يعد من أضخم شوارع أصفهان، ولقد عبرناه في الليل ومضينا في طوله المديد فكانت بعض متاجره منارة بالأضواء الملونة، أما أكثره فمساكن ومنازل.

وزرات الحمام

ومن مشاهد الشوارع في أصفهان مشهد طريف، رأيناه أول ما رأيناه على مدخل المدينة، ثم تكررت رؤيتنا له، ذاك هو مشهد وزارات الحمام بألوانها الحمراء منشورة على السطوح بصفوف عديدة وأعداد كثيرة، وإذا كان منظرها عى الأسطحة لا بد منه في تنشيفها بنشرها في الفضاء معرضة للشمس والهواء، فإن بعض الحمامات ينشر الوزارات الجافة إعلاناً عن وجود الحمام ودعاية له. فحمام بناهي في شارع فروغي مثلاً يعلق طول الوقت على بابه وزرتين، متخذاً منهما لافتتين للإعلان، ولا شك أنهما بحمرتهما القانية وألوانهما الزاهية وبما تشيران إليه وتدلان عليه لا تحتاجان إلى أي كلام. على أن بعض الحمامات لا ينشر وزراته للتجفيف على السطوح بل في الزقاق على حبال يمدها فيه.

الدراجات

ولكثرة استعمال الدراجات الهوائية في أصفهان كان لها مواقف على الأرصفة تزدحم فيها ازدحاماً لافتاً. ففي شارع جهار باغ مثلاً تراها وقد تكدست جنباً إلى جنب واجتمعت كتلاً متراصة، ولا شك

أنها تسد حاجة كبرى في التنقل داخل المدينة، ومنها إلى الضواحي القريبة، فهي أداة أساسية في الحياة الأصفهانية.

الأسواق القديمة

في أصفهان سوقها الكبير (سوق الشاه) وإذا كان يحمل اسماً معيناً فهو ليس كذلك في الحقيقة، بل هو مجموعة أسواق متداخل بعضها في بعض، متفرع بعضها عن بعض. يحمل كل منها اسماً خاصاً، ويؤلف مجموعها سوق الشاه وهو من ألطف الأسواق وأكثرها طرافة ومتعة. دخلناه من ساحة نقش جهان من مدخل حافظ منحرفين إلى سوق (اللوافين) فإذا بنا أمام مشاهد منوعة وطرائف متعددة، فإلى يسارنا «بسطة» ملابس جاهزة تلاصقها بسطة أوانٍ زجاجية تقابلها دكان حلويات ونمشي فنرى بائع فواكه يقابله لحام فبائع ملابس جاهزة فبائع دفاتر. ثم يقابله بائع تنوعت بضائعه وتعددت معروضاته، وإن كانت في هذا التنوع والتعدد لم تعدم رابطة تؤلف بينها. فيها مزيج من الحبال والسطول والأخراج والمساحي وأرسنة الخيل والحمير، بعضها من الحديد وبعضها من الحبال، ودلاء المطاط، ثم مخزن للحديد يقابله بائع أخراج وحبال فبائع ورق، يقابله بائع اللحم والجلاجل الكبيرة وسروج العربات تلاصقه مكتبة مدرسية فبائع سجاد يقابله حلاق. وهكذا يمضي سوق اللوافين في بضائعه عارضاً منها ما تناقض وتخالف، رابطاً بين ذلك بوثائق من حاجات الناس التي تتناقض هي الأخرى وتتخالف، فلم يمتنع عن أن يجمع بين المكتبة واللجم والسروج، وبين كل ما لا يجتمع في سوق واحد، لم يمتنع عن أن يجمع ذلك في صف واحد وجوار متلاصق.

ولعله كان في ذلك منطقياً أكثر من غيره. فالرجل الذي يأتي فيساوم على أعنة الخيل وبراذع البغال مثلاً، لماذا لا نفكر أنه قد يتذكر بأن ابنه بحاجة إلى كتاب وأن بيته بحاجة إلى آنية. وأخيراً يحس بالجوع فيميل من دكان إلى دكان حتى ينتهي إلى الحلويات والفواكه.

سوق آخر

وينتهي سوق اللوافين متصلاً بسوق علي قلي خان فنرى هنا أيضاً مجموعات متناقضة. والشيء الوحيد الذي يختفي فيه هو أدوات الخيل، والحبال والسطول، ولكنه يظل متبايناً، يجمع مثلاً جنباً إلى جنب بين بائع الفواكه وبائع الملابس الجاهزة. وقد تجمع الدكان الواحدة بين الخس والبن والرز المطبوخ بالحليب، ثم تفاجأ وأنت تمشي بالحمام منشورة وزرزاته الحمراء على الجدران.

وتوغل بعد ذلك فترى دنيا أخرى من المتاجر الأنيقة التي تظل هي الأخرى متباينة البضائع ولكنها أقرب إلى التجانس.

ويجب أن نذكر ونحن نجول في هذه الأسواق أننا لم نكن نجول في الفضاء وتحت السماء، بل تحت عقود حجرية تقي السوق من أشعة الشمس، ومن صبيب المطر.

ويتشعب السوق إلى أسواق يتداخل بعضها في بعض وتحوي أنواع الطرف مما أخرجته الصناعة الأصفهانية بفنها الرفيع وإتقانها البديع، أو مما جلب إليها ووفد عليها.

كما تتفرع عن السوق بعض المدارس الدينية والخانات التجارية والمساجد. وفيه مما فيه (باغ قلندرها) أي حديقة القلندرية، وللقلندرية أخبار وأحداث ليس هذا موضع الإفاضة فيها. ولكن حديقتهم هي اليوم اسم لغير مسمى، فلا حديقة ولا شجر ولا عشب، بل سوق ومخازن ودكاكين.

مسجد جهارباغ

مساجد أصفهان لا مثيل لها في أي مكان بما تحويه من ضروب الفن وروعة الصناعة ودقة العمل. فهناك مدرسة جهار باغ ومسجدها. وإذا كان شارع جهار باغ هو الشارع الحديقة فإن هذه المدرسة هي المدرسة الحديقة، فإن نهراً يشقها على طولها وتتوسطها بركة كبيرة وتقوم فيها الحدائق والأشجار. وهذا كله يكسبها جمالاً طبيعياً فائقاً. ولكن الروعة تبدو حين تستقبل مدخلها من الصحن في اتجاه القبلة وترى القبة والمئذنتين والعقود والنقوش والفسيفساء والزخارف. كذلك عندما تستقبل العقود الأخرى لا سيما الباب الشمالي. ويبلغ الفن أقصاه في الداخل حيث الجدران والقبة والعقود والأواوين.

وهذا ـ كما تقدم ـ مسجد ومدرسة دينية معاً أنشأهما حسين الصفوي، وأنشأ لنفسه فيهما غرفة بسيطة كان يؤمها ويجلس فيها. ولا يزيد عدد طلاب المدرسة اليوم على ثلاثين طالباً.

مسجد الشيخ لطف الله العاملي

هذا أثر من جبل عامل في أصفهان، أثر لعالم عاملي سليل علماء عامليين احتضنتهم أصفهان فكانوا أكفاء هذا الاحتضان بما بذلوه من علم وعمل وإخلاص، وكانت أصفهان وفية لهم بما يسرت لهم من سبل وما مهدت لهم من وسائل، ثم حفظت ذكراهم في هذا المسجد العظيم الذي إذا كان يحمل اسم واحد منهم، فإنما هو رمز لهم جميعاً.

تقبل على المسجد فتلقاك واجهته بقيشانيها الجميل ونقوشها البديعة وخطوطها ورسومها اللطيفة، فترى أمامك لوحة فائقة من أبدع الصنع بجدرانها الثلاثة، وتدخل في الرواق المستطيل المعقود بالقيشاني، وتنحرف في الرواق الثاني لتدخل المسجد مستقبلاً المحراب تحت القبة التي تغمر المسجد كله فيتيه بصرك في بدائع المحراب والزوايا والجدران والقبة. وبقدر ما تملأ نفسك واجهة المدخل تنساها أمام ما رأيت من جديد.

ليس المسجد متسع المساحة، ولكنه لوحة من أروع اللوحات العالمية. ولقد وقفت طويلاً أمام المحراب وتخيلت الشيخ لطف الله يستقبله بوجهه المشرق ويركع ويسجد فيه، وتخيلت الجموع خلفه مصلية بصلاته، مقتدية بهذا العاملي العظيم الذي نزح أهله من قرية ميس الجبل هناك في أقصى الطرف الجنوبي من جبل عامل، تلك القرية التي كانت يوماً جامعة من الجامعات، وكان من نتاجها أهل هذا العاملي وكان هو ثمرة من ثمراتهم، وما أكثر ثمراتهم.

وقفت حيال المحراب العاملي في الأرض الأصفهانية، وما أبعد ما بين جبل عامل وأصفهان، وما أطول ما بين ميس الجبل وجهار باغ. ولكن ما أقرب ما بين كل ذلك حين تترابط القلوب بالإيمان وتتعاطف بالعلم وتتوحد في الله.

لقد رحل عالم أصفهان بل أكبر عالم في عصره الشيخ عبد الله التستري، لقد رحل من أصفهان وخلف المدينة الكبيرة، وظلالها الوارفة ونهرها الدافق، ونزل جبل عامل وهبط فيه القرية النائية (عيناثا) لأن عيناثا كانت في ذلك الوقت بلدة العلماء ومقر آل خاتون ومدارسهم العامرة، فأقبل العالِم الأصفهاني يستزيد من العلماء العامليين علماً ويستجيزهم ثم عاد إلى بلده مجازاً منهم.

ورحل إلى أصفهان من جبل عامل أفذاذ العلماء وحلوا فيها مكرمين معززين. وهكذا تبودلت الرحلات العلمية، وما حالت دونها الأبعاد، ولا حجبتها الآماد، بل لقد قرب حب العلم كل بعيد، وداني الإخلاص بين القصيين.

ها هنا في هذا المحراب انحنى الشيخ لطف الله، وعلى هذا الصعيد عفر جبهته، وفي هذه الأرض سجد لله خاشعاً، فما أزكى هذه الأنفاس التي أحسها أنا الساعة بعد تلك القرون الطويلة، وما أطيب هذه الأنسام التي لا تزال عابقة بأريج العلم.

مسجد الشاه

تشكل واجهة مسجد الشيخ لطف الله جزءاً من السور الكبير الذي يحيط بساحة (نقش جهان) وساحة نقش جهان، أي ساحة صورة العالم هي الساحة الرحبة الجميلة التي أعجب بها الأصفهانيون فأطلقوا عليها هذا الاسم الكبير، وهي جديرة بأن تسمى بأحسن الأسماء. وفي الجهة الجنوبية تشكل واجهة مسجد الشاه جزءاً آخر من السور في مسجد الشيخ لطف الله نفسه ولكن في اتجاه معاكس.

وتمضي إلى مسجد الشاه بعد مسجد الشيخ لطف الله، فترى فيه تتابع اللوحات وتعاقب الإبداع وتنوع الصور. في الباحة والأواوين والأقبية والمآذن والعقود والجدران.

على أن فيه شيئاً آخر هو أعجب من هذه الأعاجيب، ذلك أن المسجد متسع الجنبات لا يبلغ صوت الخطيب فيه إلى كل جانب، فاستطاع مهندسه البارع أن يبنيه على فن يتجاوب فيه الصوت تجاوباً متتابعاً يتيح انتقاله إلى كل أذن داخل المسجد، ويبلغ به مدى بعيداً في صحن المسجد. ولقد كنت أسمع عن هذا من قبل فلا أتصوره، حتى كنت هنا وأصغيت إلى تتابع الصدى، تتابعاً متتالياً قيل إنه يبلغ سبع مرات، ولكنني لم أستطع عدها وإن سمعت تعددها. كما وقفنا في الصحن بعيداً عن مكاننا وسمعنا من يهتف في الداخل سماعاً ما كنا لندركه لو كنا في غير هذا المسجد.

وهكذا استطاع ذاك المهندس أن يوجد مكبراً للصوت، بلا مكبر ولا كهرباء ولا أسلاك، من قبل أن يعرف العالم هذه المبتكرات بمئات السنين.

أما المهندس الذي قام بكل ذلك فالمعروف إنه عاملي من جبل عامل، أنه بهاء الدين العاملي.

جهل ستون

ومضينا إلى (جهل ستون) الأربعين عموداً، وسميت بذلك لأن عشرين عموداً تنتصب على ضفاف الماء فتنعكس على صفحته فتبدو العشرون أربعين. على أن الشيء العظيم هو ما كان داخل البناء، في تلك

اللوحات التي تبلغ أعلى درجات الفن، والتي تمثل المعارك والمجالس والأشخاص، مثل حروب نادر شاه وحروب الشاه إسماعيل الصفوي والشاه عباس الكبير الصفوي وانتصاراتهم.

لقد أفرغ فيها الفنانون الإيرانيون أدق ما حذقوه من صناعة وما عرفوا به من براعة.

على طريق قم

قاضي قم الذي أكسبها عزله شهرة حين نودي به: أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم! هذا القاضي الذي قال: والله ما عزلني إلاّ حب السجع! هذا القاضي المنكوب بوظيفته له علينا حق، أي حق، إذ عن طريقه سمعنا أول ما سمعنا بقم ونحن لا نزال بعد أطفالاً، نصغي إلى ما يتحدث رجالنا في مجالسهم، فتعلق في أذهاننا من كلامهم شوارد طريفة من الأدب والتاريخ والشعر والعلم.

وكانت هذه الطرفة مما استعذبناه فحفظناه، وجعلنا نستحب اسم قم حتى قدر لنا أن نمشي إليها، وأن نراها عياناً، وأن نتذكر قاضيها المعزول، ونحن على كثب من داره!

بلى هذا طريق قم ينفتح أمامنا، فنمشي إليها من طهران في السيارة، بين مزارع وصحارى وتلال ترابية وأخرى صخرية، وبين سهول بعيدة المدى، يتخللها أحياناً مزارع، تشقها محاريث البقر!

وننسى قاضي قم ونحن ننحوها في تلك الصحارى القاحلة. ننساه، ولا يبقى له في الذهن مكان، أمام ما ينثال على الذهن مما توالى على قم من ذكريات، وبكل ما حفل به تاريخها من أطايب، تتمثل لنا في هذه الهنيهات من الزمن الذي يحملنا إليها، فنحن الساعة نذكر «الأشعريين» الذين هجروا ديارهم نازحين من جور الحجاج، فحملوا إليها عبقات من نوافح علي عليه السلام ظلت تتأرجح فيها وتفوح حولها ما شاء الله أن تتأرج وأن تفوح!

ونذكر الشاعر دعبل الخزاعي، وقد مر بها راجعاً من لقيا الإمام الرضا(ع) بعد أن مدحه بتائيته الشهيرة:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

وبعد أن منحه الإمام بدر المال، فأباها وقنع بثوب من أثواب الإمام، فأهداه جبته، فآب بها فرحاً مسروراً، ومر بقم، فعرفوا القصة، فاستضافوه، وساوموه على أن يهبهم الجبة بما شاء من المال، فأبى وأغروه فامتنع. حتى إذا رحل عنهم قطعوا عليه الطريق، وانتزعوا منه الجبة قهراً، بعد أن رفض أن يسخو بها طوعاً، فرجاهم عند ذلك أن يهبوه أحد كميها ليجعله في قبره عند موته، فوهبوه الكم وأعطوه المال!

في هذا الطريق نفسه مر دعبل الخزاعي راحلاً من قم، وعلى هذه التلعات أشرف، وعلى هذه السهول أطل!

هذا هو طريق الشاعر الثائر الحر، فما أحب هذه الآصال تحمل إلينا أنفاساً كان دعبل قد شمها، وترينا معالم كان قد أبصرها، وتحملنا على محجة كان قد سلكها.

إني لأتمثله الساعة وقد طلعت به النيب على هذه الأكمة، فتلفت إلى الوراء أسفاً على فراق (مرو) ومن في مرو، فجعل يترنم بتائيته، وإني لأسمعه يشدو:

أرى فيئهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئهم صفرات

رحمك الله يا دعبل، فلقد كنت رفيقي في طريق قم، وسميري في هذه الصحارى وأنيسي على هذا الدرب البعيد!

وها هنا موكب فاطمة بنت موسى بن جعفر (ع) مقبلة من الحجاز إلى أخيها الرضا(ع) في مرو، حتى إذا بلغت (ساوة) ومرضت بها، تساءلت عما يفصلها عن قم؟ فقيل لها عشرة فراسخ، فتحاملت على نفسها، وسألتهم أن يحملوها إلى قم، فحملوها، فلما بلغ القميين مقدمها هب إشرافهم يستقبلونها، وفي مقدمتهم موسى بن الخزرج بن سعد الأشعري، فأخذ بزمام ناقتها، وجرها إلى منزله، فكانت في منزله سبعة عشر يوماً، ثم ماتت، فدفنها موسى في أرض له.

كأنما شاءت فاطمة أن لا تموت إلاّ في قم، وكأنها أصرّت عى أن تحمل من ساوة ليكون لقم من بعد هذا الشأن.

لقد كانت فاطمة وفية لقم، وفية للبلدة التي فرّ رجالها بحريتهم من الظلم حتى حطوا هنا على هذه النواحي. على قم. على البلدة الوادعة المؤمنة، فكانت لهم ملاذاً، وكانوا لها أهلاً، يتداولونها جيلاً بعد جيل، حتى جيل موسى بن الخزرج منهم، فكانت أرضه جدثاً لسليلة الفاطميين بنت الأئمة، جدثاً فضلته تفضيلاً، وسارت إليه بهزالها ودائها، سارت حيث يشق عليها السير ويبهظها السفر.

ولكنها، وفي طبعها الوفاء، شاءت أن ترد للأشعريين أحباب أهلها جميلهم وتضاعف لهم تحيتهم، فأناخت في رحابهم، يقود زمام ناقتها رجالهم، ويمرضها نساؤهم. حتى إذا حكم القضاء، واراها ترابهم، وأظلها سحابهم... فإذا بالأرض الطيبة، أرض موسى بن الخزرج الأشعري، الذي لم يكن في حسبانه يوماً أن تكون أرضه أكثر من صعيد، ينبت العشب، أو يطلع الزرع. إذا بالأرض البسيطة التي شق فيها الجدث، ودفنت فيها التجاليد، ثم أهيل التراب كما يهال كل يوم على الألوف، ثم يطويهم النسيان. إذا بالأرض الأشعرية الطيبة والحقل الخزرجي البسيط، إذا بأرض موسى مضيف فاطمة العلوية، وقائد ناقتها، والآخذ بزمام راحلتها، إذا بأرض زعيم الأشعريين محب الفاطميين تعود محجة من محجات الدنيا، وإذا بها بعد قرون وقرون ـ كما كانت من قبل، وكما ستظل من بعد ـ مهوى القلوب، وملتقى النفوس. وإذا بها مدرسة من أضخم مدارس الكون، يتحلق فيها ألوف التلاميذ، ويتدفق فيها خير الأساتيذ!

فيا لله للوفاء، ما أزكى منابته، وأطيب أصوله!

ومضت بنا دروب قم، ومضينا عليها في هبوب الذكريات، وتألق الأحاسيس وشبوب العواطف، وطالعتنا مساربها بصحارى مجدبة في عز الربيع، وبواد قاحلة في أعقاب الشتاء، وما خلت من قرى متناثرة في اليباب، وزروع ممرعة على حافات الأجداب!

وفي (علي آباد) تقف الركبان متزودة من المأكل والمشرب، ومتخففة من وعثاء السفر وعناء الطريق، ثم تعود مفوزة في الآماد البعيدة.

ها هي ذي في السهل مضارب سوداء، كتلك التي نبصرها في بوادينا، منطوية على رُحّل تحف بهم مواشيهم، وتدانيهم إبلهم، قاضمة نبات الربيع، فهم هنا في بادية قم، كما هم هناك في بادية الشام، لا

تستقر بهم دار، ولا يقر لهم قرار، بل يركضون وراء الماء والعشب أنّى وجدوهما. فها هم اليوم يطلون في إطلال الربيع على ما اخضوضر من هذه الأرض، وما فار من هذا الماء، مخلفين وراءهم (دامغان وسمنان) على أمل العودة إليهما في قابل.

وها نحن نشارف تخوم النفط، وها هي حقوله المتعالية تملأ النواظر. وهكذا في ساعة واحدة من مضارب الرحل ومنازل البداوة إلى آبار الزيت ونفاطات الحضر.

ثم ها هي ذي قم، بقبابها الوضاءة، ومناراتها الوهاجة. وها نحن على أبواب الأرض الأشعرية، ندخلها مع الداخلين، فنغيب في تلك الجموع المتزاحمة على أعتاب فاطمة. وها هم السدنة في الحرم الطاهر يقودون الحشود الإيرانية في الزيارة مرتلين بلسان عربي مبين: بإذن الله وإذن رسوله وإذن خلفائه أدخل هذا البيت.

ثم يمضون في الترتيل، والحشود ترتل معهم محيية محمداً وآله وصحبه وخاصة بالتحية دفينة هذه الروضة: فاطمة بنت موسى بن جعفر(ع).

إنه لتكريم رائع، لا لفاطمة وحدها، بل للمرأة الفاضلة أينما كانت، تكريم للمرأة، وإعزاز لجنسها في شخص بنت الأئمة، تعلنه جموع الزائرين الهابطين من كل مكان، تعلنه وهي تتضرع إلى الله في (حرم معصومة قم)، شهيدة الوفاء، وحفيدة سيدة النساء.

من شواطىء المتوسط إلى شواطىء بحر الخزر

هذا نوع فريد من الجبال، جبال تتشعب من كل ناحية فتفاجئك بالمضايق والأنفاق والأودية والشعاب. جبال يتألق فيها الثلج وتتكاثف طبقاته منحدرة من القمم حتى السفوح.

جبال قفراء لا قطين ولا نزيل، وقمم خالية لا قطعان ولا رعاة.

ونحن الذين عشنا الجبال آهلة غانية وألفناها مغدى ومراحاً، نحن الجبليين نحس هنا في جبال البرز الإيرانية شيئاً جديداً وأمراً طريفاً.

ولما يقال إن جبال البرز هي طريقنا إلى شواطىء بحر الخزر، تلتمع في أذهاننا صور جبال لبنان من منعطفات الكحالة إلى منحدرات المريجات... صور السيارة تمضي صعداً من السفوح إلى الأعالي، ثم تنحدر من الأعالي إلى السفوح بين العمائر والأشجار والحقول.

أما صورة هذا الطريق الجبلي فما عنت للذهن، هذا الطريق المنطلق في الجبال لا على السفوح ولا على الأعالي ولكن في المضايق والشعاب، هذا الطريق البديع طريق جبلي حقاً ولكن على غير ما عرفنا من طرق الجبال ومسالكها.

وزاد الإنسان في مضايق الجبل مضايق أخرى، وأضاف إلى مغاوره مغاور ولكنها مضايق لينفرج بها الطريق، ومغاور لينطلق فيها الإنسان.

فحين اعترضت الطريق صخور وتلال، وحين وقف الجبل يتحدى الطريق، خرقوه بأنفاق طويلة عريضة، ومضوا في جوفه نافذين منه.

قرى وفنادق ومطعم

والقرى هنا لا تقوم على الجبل، وأنّى لها أن تقوم عليه وهو ثلج دائم، بل تناثرت في السفوح المتصلة بالأودية وقامت على نهر (كرج) المتدفق في الوادي.

ومضينا هكذا من طهران خلال الجبال، وبين مضايقها وفي أنفاقها وعلى أوديتها حتى (كجساران) فإذا هنا في قلب الوادي فندق ومطعم.

لقد أقيما هنا منزلاً من منازل الطريق إلى بحر الخزر، فمن شاء المضي إلى البحر ومرابعه عاج على المطعم فاستراح إليه وتزود منه، ثم كان له أن يمضي قدماً فلا ينهي السير إلاّ على البحر أو كان له أن يقضي هنا أصيلاً جميلاً، وليلاً قاراً يعاود بعدهما الرحلة إلى البعيد القصي. وربما طابت الحياة هنا فما تعدى المسافر هذا الربع الساجي.

مشابه من لبنان

وراء كجساران عاد الطريق منحدراً بعد أن كان من قبل متصاعداً، وعادت مجاري الماء منحدرة مع انحدار الأرض، ومشت مع الطريق تسايرنا في السير بعد أن كانت من قبل تخالفنا فيه.

وصرنا نحس في الجبال هنا شيئاً جديداً، كم من القمم الشامخة هنا تشبه قمة جبل الشقيف المطل على الليطاني، وكم من مهوى سحيق هنا كأنه ذاك المهوى السحيق هناك! ثم أخذ كل شيء يتبدل ثم طلعت الخضرة اليانعة في الأرض بعد تلك القحولة فيها. وهكذا حتى بلدة (جالوس) الجميلة القائمة وسط السهل الواسع.

الأطلال على بحر الخزر

الذين يقصدون شواطىء بحر الخزر، تمضي كثرتهم ليلها الأول هنا في (جالوس) وإذا قلّ الذين يبيتون في كجساران، وليست كجساران إلاّ مطعماً وفندقاً فحسب، فإن الذين يبيتون في جالوس - وهي المدينة الجميلة - لا يقلون.

تتطاول جالوس على السهل بجواد أنيقة وأسواق منظمة ونصب فيها جسر حديدي بهيج، وتبدو الحيوية في كل ما يبدو منها. وفي لافتتين من لافتاتها قرأت هذين الاسمين الحلوين: دكتور أبطحي ودكتور غفاري.

أجل هنا في جالوس على شواطىء بحر الخزر من ينتمي اسمه إلى الأبطح، فيذكرك بشيخ الأبطح أبي طالب. ومن ينتسب إلى غفار، فيذكرك بأبي ذر الغفاري.

وألممنا بجالوس إلماماً ومضينا عنها معجلين ولم نوغل في السير إلاّ قليلاً حتى التمعت أمام عيوننا أمواج بحر الخزر. فيا الله ما أحلى هذه الإطلالة الجميلة على هذا البحر البعيد. فمن هناك من شطوط المتوسط إلى هنا إلى شطوط الخزر، كم طافت بنا من أحاسيس.

بيوت من الهشيم

دبت الحياة هنا على هذا الساحل في هذه السهول، وتدفقت جمالاً لم نعهده من قبل. فليس هنا إلاّ مغارس ومزارع ومنازل، ليس إلاّ حياة متماوجة من كل ناحية. حتى وصلنا إلى (موتل قو) وهي استراحة على شاطىء البحر كأحدث ما تكون الاستراحات، مطعم ومشرب ومنتزه وكل ما يروق المسافر والمقيم.

البيوت بعد جالوس ليست كما عهدناه من بيوت، إن البيوت هنا مسقوفة بالهشيم (الحشيش اليابس) بأشكال مثلثات مسطحة جميلة الشكل، والحديث من البيوت مسقوف بالصفيح بدل الهشيم. أما الجدران فليست من الحجر ولا من الإسمنت بل من الطين اليابس وجذوع الأشجار، في نحو يشه ما كان مألوفاً في بيوت دمشق القديمة. وبعض البيوت ترتفع جدرانها عن سطح الأرض على قواعد مغروسة في الأرض.

على الشاطىء

ومضينا في تلك السهول الجميلة قريباً من شاطىء بحر الخزر بين بساتين أزهر بعض شجرها، وبحر الخزر يهدر إلى يميننا، وتنتشر حوالينا البيوت متفردة على أطراف البساتين أو بين البساتين وتبدو أسطحتها الهشيمية وكأنها خيام أو مظلات تغمر الواحدة منها البيت ثم تتعداه إلى الإيوان أو الشرفة.

والقرويات ينتقلن على الطريق مغطيات الرؤوس بالمناديل. أما الأثواب فقصيرة تطول بعدها أرجل السراويل حتى الأقدام.

عروس بحر الخزر

وتطل بعد ذلك (رامسر) طالعة من وراء السهول بأنق ما يعرف الإنسان من تلال شجيرة خضراء وفنادق ومطاعم غانية، وحدائق وبساتين فاخرة.

تطل رامسر رابضة على شاطىء بحر الخزر بجمال رائع من صنع الله، امتدت إليه يد الإنسان فنظمته وطورته، فأصبحت هذه البقعة مصطافاً لا يفوقه مصطاف عالمي، زاده محاسن هذا التكوين الطبيعي الرائع الذي جعله بين البحر والجبل. فالقمم الخضراء تطل عليه والأمواج الزرقاء تجثم بين يديه.

العودة

لعلنا أول مسافرين يحط بهم الأصيل على مرابع رامسر ثم يحملهم الغروب نائياً بهم عنها. فليس هناك من يهبط هذه الأرض الطيبة، وهو ينوي أن لا يقيم فيها إلاّ ساعتين أو ثلاثاً.

وليس من يحمل هذا الجهد في السفر الطويل بالسيارة من طهران إلى رامسر مجتازاً جبال البرز ومضايقها وفجاجها، قاطعاً الطريق في مرحلة واحدة، ثم يكون في نيته العودة في المرحلة نفسها.

ولكن كان ذلك هو شأننا فلم نكد نرتمي على مقاعد الفندق الوثيرة، ولم نكد نرسل الأبصار كرات على ما يتلألأ أمامنا من خضرة وزرقة ونصاعة، حتى كنا نتهيأ للإياب.

لقد كنا نحار ماذا نبصر في رامسر وفي أي شيء نطيل التأمل، فإذا تطلعنا على الذروات المجنحة وأطلنا التطلع فيها خفنا أن يفوتنا الوقت فلا نعود نستطيع أن نطيل التطلع إلى الموجات المتراقصة.

وهكذا كنا أمام كل مشهد وعلى كل درب على الشاطىء أو بين الحدائق في المنعطفات وفي الباحات. كنا نصطرع مع الزمن ثم نخف معجلين، ونمضي عائدين لنطوي الطريق الطويل من جديد في سواد الليل بعد أن طويناه على وضح النهار وغبش المساء.

في سواد الليل

وإذا كنا قد استمتعنا بمباهج الطريق وهي بادية أمامنا في نور الشمس، فإن تلك المباهج قد طويت عنا في فحمة الدجى. وهكذا حتى كنا نقبل في الليل على (سياه بيشه) وإذا كانت (سياه بيشه) لم تلفتنا في الذهاب فهي قد لفتتنا في الإياب إذ كان لا بد من التعريج عليها لنتزود منها ونستريح فيها.

وفي الذهاب عجنا على كجساران حيث تغدينا في مطعم الفندق المشاد هناك، ثم توقفنا في جالوس ثم عرجنا على موتل قو على المربع المترف في شاطىء البحر.

أما في الإياب فقد حملنا الزاد من (موتل قو) ومضينا لا تستوقفنا جالوس ولا كجساران، ولا الفنادق والمطاعم، والمقاهي والمرابع، لم تستوقفنا إلاّ (سياه بيشه) هذه مما كنا فيه ومما حللنا عليه من مغانٍ ناضرة ومقاصف عامرة.

أين هذه المحطة القروية الخابية من تلك المحطات المتلألئة على مدارج الطريق في كجساران وجالوس، أو في مسابح البحر في موتل قو ورامسر.

دخلنا الغرفة المستطيلة ذات المناضد الثلاث المضموم بعضها إلى بعض، المترعة بقوارير الكوكا والبيبسي وأقداح اللبن، المناضد الثلاث التي تملأ وسط الغرفة بنفسها وبما حولها من كراسٍ.

دخلنا الغرفة المستطيلة، فها هنا في جانبها مقاعد خشبية عريضة، وفي طرفها موقدان واحد بالفحم وواحد بالنفط وفوق كل منهما قدر يغلي فوقه الحليب، وهنالك مجموعة من القدور مبثوثة على المقاعد بينها قدر ضخم ملقى في الزاوية.

أما أرض الغرفة المستطيلة فترابية محضة ومن طبيعة الأرض الترابية أن تكون ذات حفر ونقر.

وما دام يكتنفها الثلج ونحن في الواحد والثلاثين من آذار/ مارس فالمدفأة هي أول كل شيء فيها، إنها ليست أول كل شيء فحسب، بل هي أضخم من كل شيء، المدفأة هي برميل ضخم تتأجج فيه النار وينطلق دخانها إلى الخارج في مدخنة تتناسب والبرميل.

واللوكسات هنا هي مصدر النور، لوكسات تئز أزيزها المعهود وترسل شعاعها المنشود.

والجدران مغطاة بصور النساء صور مقتطعة من إعلانات الكوكاكولا وإعلانات غير الكوكاكولا ومن أغلفة المجلات، وفي الصدر صورة الملك والملكة.

أركيلة طويلة في صدر الشباك، ورجل يغط في النوم على سرير خشبي وقد تدثر من القدمين إلى الهامة، وهرة تتمطى وتموء.

ورب الحجرة على مدخلها بسترته وبنطلونه المدعوكين دعكاً، وقميصه الأزرق المفتوح الصدر، وأمامه المنضدة وبجانبه الكانون الحديدي الضخم.

يقابله متربع على المقعد الخشبي وقد تخذه مائدة يزدرد عليها العشاء وعلى المقعد الآخر قروي آخر بكمين مشمرين وهزال وشيخوخة.

يا للمتناقضات: مدفأة كالبرميل، وكانون كبير، ثم شيخ بلا سترة وبأكمام مشمرة...

الرواد لا ينقطعون فبين الفينة والفينة يدخل اثنان أو ثلاثة لتناول الشاي أو الكباب ثم ينصرفون.

ويدور على الجميع خادم منفوش الشعر مفتوح القميص على الصدر بلحية ـ كمعلمه ـ لا هي مطلقة ولا هي مزينة!

وإذا كنت قد أريتك بعض معالم رامسر فلعلي استطعت كذلك أن أريك بعض معالم سياه بيشه، ولكني أقر بأن إبراز معالم سياه بيشه هو أشق وأعسر وأضنى. ويا بعد ما بين حياة رامسر وحياة سياه بيشه!

السماء تتصل بالأرض

ثم مضينا في قلب جبال الثلج موغلين في سواد الليل، والثلوج تتلامع على أنواع السيارات وتتماوج في عيوننا براقة، وكانت الغيوم البيض قد انحدرت حتى تطاولت لها السفوح والأجزاع فكنا وكأنما الأرض قد طلعت إلى السماء أو أن السماء قد نزلت إلى الأرض فتلاصقتا واتحدتا.

الهوامش:

(١) كان ذلك في العام ١٩٥٨.

(٢) قال أبو الفداء وابن خرداذية وخواندمير: إن كلمة خراسان تعني مطلع الشمس.

(٣) كالدولة الطاهرية والدولة الصفارية والدولة السامانية.

(٤) في العدد ٤٧ من السنة الرابعة لمجلة «المجلة» المصرية مقال مفصل عن أفغانستان حوى الكثير من الحقائق عن خراسان، وقد عدَّ الأستاذ كامل المهندس، كاتب المقال القيّم، أبا حنيفة والزمخشري وابن حنبل من علماء خراسان.

(٥) قُومس هي المدينة المعروفة اليوم باسم «شاهرود».

(٦) مطلع الشمس يعني خراسان كما مرّ.

(٧) دفن في المشهد بعد ذلك بسنين عاملي جليل آخر هو الشيخ عارف الزين صاحب مجلة «العرفان»ه

(٨) يقول ابن حوقل في كتابه (صورة الأرض): نيسابور تعرف بأبرشهر. وفيها يقول أبو تمام:

أيا سهري بليلة أبرشهر ذممت إليّ نوماً من سواها

(٩) هو في الواقع قيم قبر محمد المحروق، ولكن تجاور القبرين جعله وكأنه قيم لكليهما.

الفصل الخامس

على عباب البحر المتوسط

أمام الشواطىء العربية

أقبلنا في بيروت صيف ١٩٤٩ على الباخرة مساء وصعدنا مدارجها في زحام صاخب، ووقفنا نترقب ساعة السير مرسلين الطرف إلى جموع المودعين، وقد أخذوا ينحدرون من الباخرة ويتجمعون على الأرصفة أنواعاً مختلفة من الناس، فيهم الباكي وفيهم الضاحك، يدفع كلاً منهم إلى البكاء أو إلى الضحك ما دفع مسافريهم إلى السفر، فهؤلاء المتحلقون هنا وهناك نساء ورجالاً وأطفالاً وقد انخرطوا جميعاً في بكاء ممض إنما يودعون أعزاء ضاقت بهم سبل الحياة هنا في أرض الوطن، فنفروا مهاجرين إلى أفريقيا أو البرازيل أو غيرهما. وهؤلاء الباسمون إنما يودعون أقرباء ضاقت بهم هم الآخرون سبل الحياة في أرض الوطن فنفروا إلى حيث يجدون الرحب بعد الضيق!

ولكن شتان بين ضيق كل من الحياتين، فهؤلاء الآخرون إنما ضاقت بهم سبل حياة الرفاه والنعيم في بلادهم لطول ما ألفوها فذهبوا يفتشون في الغرب عن رفاه جديد ونعيم جديد!

لا نهار ولا ليل!

مشت الباخرة الهوينا وبيروت تمتد على الساحل كمدرج ذي لونين أحمر وأبيض، وقد ارتفع فوقها الجبل بقراه وغاباته فكأنها سلم جميل يرتفع إلى القمم الجميلة. ووقفنا على ممرات الباخرة نرسل آخر النظرات إلى الأرض الحبيبة، وأخذنا نبتعد عن الساحل قليلاً قليلاً والشمس إلى يميننا تجنح للمغيب، وقمم الجبل تتوهج بانعكاس أشعة الشمس على زجاجها الكثير، فيغدو الجبل براقاً لامعاً في كل صوب. ثم فصلنا عن بيروت فكنا نقابل عاليه وسوق الغرب، هنا أرسلت بصري في تلك الساعة أحاول أن أستكشف موقع (كيفون)، وسواء أكانت هي التي بانت لي أم كان غيرها، فقد ظل طرفي عالقاً بها لا يحيد عنها.

ثم أخذت قمم الجبال تنخفض وتميل للانحدار حتى كان أقصاها يبدو وكأنه ملاصق للبحر. وكانت الشمس لا تني منحدرة ثم غابت فخبت في الجبال الشعل الوضاءة التي كانت إلى ما قبل قليل تشع في نور الشمس وغدت الجبال في دكنة قاتمة تتوجها الحمرة المشرقية بينما كان مغيب الشمس يتوهج أحمر

وردياً، وكانت هذه الفترة بين المغيب والليل فترة بديعة حقاً، فلا نحن في نهار ولا نحن في ليل. ومثل هذه الفترة لا تحسها في المدن. وإنما تحسها في مثل هذا الموقف حيث ينكشف الأفق ويتسع الفضاء وتنبسط الدنيا.

أنوار الجبال ثم الظلام

كانت بيروت تبتعد عن عيوننا ولم يعد يبدو منها إلاّ حي المنارة، ثم أخذت «المنارة» ترسل ضوءها فيبدو ويختفي كأنه الحباحب، ثم طلعت أول نجمة من وراء الجبال شاقة طريقها إلى السماء كأنها حلم من أشهى الأحلام! كم من عيون عزيزة علينا تلتقي الساعة على هذا النجم المتألق، وحسبنا الآن أن تتلاقى عيوننا مع أعز العيون وأحبها! وكذلك ظهر أول ضوء من أضواء بيروت التي تبدو الآن كأشباح ضئيلة، ثم أخذت الأنوار تتابع في الجبال وأول ما بدت في عاليه، ثم كان الظلام الدامس يقترب والهواء يشتد، ونحن لا نزال على شرفات الباخرة.

وما هو غير قليل حتى عمت الأنوار سائر نواحي الجبل وأشرقت السفوح والأصواح والقمم. وكانت أجمل ما تبدو في عاليه حيث انتشرت صفحة طويلة من نور وامتدت في خط مستقيم بعيد المدى. ولم تكن الأنوار تبدو وهاجة لأن الظلام لم يسدف بعد بل كانت تظهر ضئيلة. وما هو أن بلغت الساعة العشرين حتى كنا في سكون الدجى الرهيب تلتمع فوقنا نجوم السماء وتتألق وراءنا مصابيح الجبال ويطبق أمامنا ظلام دامس تشقه الباخرة مسرعة فتحيل سواد الماء إلى ابيضاض كالثلج. ورحنا لا نتطلع إلاّ إلى الوراء متزودين من النظر إلى هذه الأنوار الجبلية التي ستغيب بعد قليل فلا نعود نبصرها. وفي الساعة الواحدة والعشرين كانت الأنوار قد غابت وتوارى شعاعها وراء بعد لا تدركه العين. وظللنا ساهرين إلى قرب انتصاف الليل فأوينا إلى المضاجع حتى الصباح الباكر.

بين البحر والصحراء

كنا نستيقظ نشطين فلا نبصر إلاّ سماء وماء يتتابعان فأذكرتني هذه المشاهد بمشاهد الصحراء حين كنا نسير بين دمشق وبغداد فلا نرى إلاّ منظراً واحداً لا يتبدل. وها نحن الآن نجتاز اليم كما اجتزنا الصحراء فلا يتبدل المنظر. وإذا كان هذا الطريق البحري يختلف عن ذاك الطريق الصحراوي بأنه طريق لا سموم فيه بل نسمات بليلة عذبة، فإن هذه النسمات إذا طالت واستمرت، تبعث السأم وتورث الضجر، وهكذا كان حالنا فقد مللنا هذه الزرقة الجميلة التي كانت وكأنها تنحدر من السماء فتغمر الأرض أو تطلع من الأرض فتغمر السماء. وشد ما كنا نشتاق النزهة البحرية، وطالما هفت نفوسنا ونحن على شواطىء بيروت نبصر الزوارق البخارية منسابة في الماء تحمل المتنزهين، طالما هفت نفوسنا لأن نكون معهم في هذا السير الجميل، ولكننا الآن ونحن في حال هو أقرب إلى أن يكون نزهة بحرية من أن يكون سفراً بحرياً نمل لأنه طال ولم ينته. وهكذا الإنسان أبداً في الحياة!

وإذا كانت هذه الفترة غير الطويلة التي انقطع فيها البر عن عيوننا قد أضجرتنا فماذا نحن فاعلون غداً عندما يمر النهار ويمر الليل، ثم يمر نهار ويمر ليل ونحن لا نزال بين السماء والماء لا نبصر غيرهما!

بور سعيد

مضت الساعات بطيئة حتى كنا في الزوال فإذا بتباشير البر تلوح لنا من بعيد، وإذا بنا نعلم أن بور سعيد أمامنا وأننا نمشي إليها حثيثاً. ثم أخذت تنجلي للعيون ونقبل عليها ونوغل في مرفئها فظهرت لنا جميلة تزين الأشجار شارعها الساحلي وتمتد العمائر منسقة لطيفة. وكان القسم الآخر من البلدة ينتشر إلى يسارنا بأسطحته القرميدية الحمراء وأشجاره الكثيرة الخضراء. والفكرة التي تنطبع في ذهن المسافر وهو يرى بور سعيد من ظهر الباخرة هي أنها مدينة عامرة ومرفأ جميل.

في أوائل الليل تحركت الباخرة بعد طول سكون ومشت بين صفوف البواخر الكثيرة الراسية في المرفأ، فاجتزنا المدينة وقد أصبحت شعلة من نور يمتزج فيها الأحمر بالأبيض بالأزرق، وبدت شوارعها متلألئة، وظهرت فيها السيارات جارية وبان المارة جائلين، فتوجهت راكبة مصرية ببصرها إلى المدينة وهتفت: «الفاتحة للمشايخ اللي فيها» وراحت تقرأ الفاتحة مهداة إلى مشايخ بور سعيد.

إلى الإسكندرية

ظلت المدينة ترافقنا خمس عشرة دقيقة ثم كنا ننفصل عن آخر مصباح فيها، وراحت عيوننا تتطلع إلى الوراء مستجلية أنوار بور سعيد ومتملية منها قبل أن يغمرها الظلام فلا نعود نبصر نوراً في هذه الأمواج التي لا تنتهي. وبعد نصف ساعة صارت أنوار المدينة تحاذينا بعد أن كانت وراءنا. وتجاوزت الساعة التاسعة ومصابيح بور سعيد لا تزال تشع وتخبو لتهدي السارين في ظلمات البحار.

البارحة ودعنا أنوار بيروت وصرنا بعدها إلى ظلامين: ظلام الليل وظلام الوجد. وها نحن الليلة نودع أنوار بور سعيد في رحلتنا، لنستقبل بعدها ظلاماً أي ظلام!

وفي الصباح كنا نقبل على الإسكندرية، ثم نبارحها عصر اليوم الثاني شاقين البحر في عرضه بعيدين عن السواحل العربية مستهدفين شواطىء اليونان التي بانت لنا في جزيرة كريت.

أمام السواحل الأوروبية

طلعت لنا في عرض البحر جزيرة كريت فما إن رآها المسافرون اليونانيون حتى ازدحموا على الشرفات متطلعين إليها متحدثين عنها ببهجة بالغة وحبور ظاهر. ورحنا نحدق بجبالها فيعجبنا أن فيها مشابه من جبل عامل فهذه القمة المتفردة مثلاً تذكرك بقمة (شمع) ويذكرك غيرها بغيرها.

ثم انطوت كريت وعسعس الليل وتنفس الصبح فإذا نحن نطالع في الأفق جبال اليونان وأشرقت الشمس من وراء الجبال ومتع الضحى ونحن نعبر بحر إيجه ونجتاز الأرخبيل اليوناني موغلين فيه، فتبدو السفوح من وراء غلالة الضباب الشفافة وتتلألأ القرى والمدن داكنة وبيضاء. وكانت مدينة (بيره) مرفأ أثينا هدف السفينة وكنا نمشي إليها حثيثاً فتبين من بعيد مبثوثة طولاً في حضن الجبل على الساحل. وما إن وضحت جزيرة (بيشي) ببلدانها المتدرجة من الساحل وصاعدة إلى القمم الشجيرة حتى انفجرت أصوات لبنانية على الباخرة تصرخ من أعماق القلوب بأغانيها الجبلية، إنهم لبنانيون مسافرون رأوا الجبال فذكروا لبنان وجباله وشطآنه وسفوحه فهاج بهم الحنين!

ها هي البلدان تنجلي إلى شرق بيره وغربها، وها هو الدخان يتصاعد من مداخن مصانع بيره الشاهقة، وها نحن نقبل عليها ثم نهبط إليها لنرى أول بلد أوروبي. ولكن لولا بعض الفروق لما حسبنا أننا الآن في بلد أوروبي، فهذه السحن وهذه البنايات وكثير مما تراه يذكرك بالشرق. حتى صابغو الأحذية وهم يغرونك بصبغ حذائك، وحتى صبيان المتاجر الذين ينادونك إلى متاجرهم، فأنت ترى المناظر الشرقية تواجهك في كل شيء: في الطنابر التي تنقل الحطب وفي بائع الكعك الذي يحمل بسطته على صدره وينادي على الكعك، وفي كل ما تلمحه عينا..

وخرجنا من بيره والبحر ساج لا يتحرك، وإذا كان قد أعجبنا أن لا يتحرك فلا تتحرك أحشاؤنا فإن إعجابنا كان أقوى بذاك المنظر البديع الذي انبسطت فيه صفحة البحر كأنها باحة زرقاء. ولم أكن أحسب أن البحر يمكن أن يكون يوماً في مثل هذا السكون الذي لا تهتز فيه قطرة ولا تتماوج ذرة، ثم أخذت الجزر تتابع علينا وأخذنا نمر بها متطلعين إلى تلك الطبيعة العجيبة فهذه الجزر الجبلية الصلدة في هذا الخضم المضطرب، وهؤلاء السكان في جوار الحيتان مفصولين عن الإنسان، كل ذلك يثير في نفسك وأنت تشق البحر التفكير في عجائب الطبيعة وعجائب الإنسان وعجائب قدرة الخلاق.

كنا في منتصف الليل عندما أخذت الباخرة تميد بعد سكون طويل ويظهر أنها انحرفت إلى الغرب وسارت في مداخل بحر الأدرياتيك حيث تصطخب هناك الأمواج فأهمنا ذلك وتوقعنا ألماً ناصباً ودواراً صاخباً ولكنها كانت غمرة وانجلت عن ليل ساكن ثم عن صباح وادع لم نبصر فيه إلاّ الزرقة المديدة تلفنا من فوقنا ومن أسفل منا، حتى دنا الليل فانقلبت الزرقة اسوداداً حالكاً رهيباً عودنا إياه هذا البحر الطويل فيما سلف لنا فيه من ليال غوابر، ولكن صحاباً لنا تعدد جوازهم لهذا السبيل وخبروا منه ما لم نخبر قالوا لنا إن في هذا الليل جديداً سيفاجئونا من خلال هذه السدف الداجية وإننا إذا شئنا الاستمتاع بمشهد عذب فعلينا أن نسهر طويلاً أو أن ننام قليلاً ثم نصحو، وما كنت يوماً من رجال السهر الطويل فنمت حتى أيقظتني حركات متتابعات، وأصوات متتاليات، فنهضت فإذا نحن في الثالثة بعد انتصاف الليل وإذا نحن نجري بين ضفتين من نور تتعاليان في العدوتين من السهول إلى السفوح إلى القمم، لقد كنا نعبر مضيق مسينا الجميل فتلوح الجبال باسودادها وتلمع المصابيح بابيضاضها ونمشي نحن معجبين بالسواد إعجابنا بالبياض فنرسل أبصارنا لنرى أن كل شيء قد عاد يشع في سكون الليل العميق من وراء منعطفات الرواسي ومن ذرواتها ومن أسنادها ومن شطآنها.

ثم عند إشراق الشمس، أشرق علينا من الغرب في قلب البحر بركان سترامبولي والدخان ينبعث منه في أجواز السماء والنار تنسكب فيه إلى أكناف الأرض، وبدت في سفحه الشرقي قرية بيضاء جميلة تعيش راضية بما قسم الله لها من نار وراءها ودخان فوقها وماء أجاج تحتها وحولها.

ومضى النهار بطيئاً ثم انقضى الليل طويلاً، ثم أقبل الصبح من جديد وما كنا نعلم ما يخبئه لنا من طرائف. ولولا ذلك المجهول الذي نتوقعه في كل ساعة وهذا الغيب الذي نرنو إليه في كل لحظة، ولولا أننا نمضي وفي يقيننا أن هذه الزرقة الطويلة ربما انكشفت في كل حين عن شيء جميل، لمضينا مرهقين برتابة المشهد ووحدة المنظر، ولكن الأمل المهيمن على جوانحنا كان يهون علينا الملل فنظل في توقع

وانتظار. وهذا جديد نراه في هذا الصباح الجديد. فقد أطلت علينا جزيرة كورسيكا بجبالها الشاهقة، ثم أخذت تنجلي لعيوننا وتنكشف مدنها وقراها البيضاء في السفوح والضفاف. وفي الوقت الذي كنا نرى فيه كورسيكا واضحة كانت جزيرة ألبا تلوح لنا من بعيد وهكذا كنا نمر بين مولد نابليون ومنفاه.

وعند الزوال أخذت أشباح الساحل الإيطالي تبين، وأخذنا نقترب منها فنحاذي بعضها ثم أخذت بالانجلاء وصار البناء الأبيض يبدو خلال اسوداد الجبال العالية ثم صارت المدن والقرى تتضح للعيون مبثوثة في كل مكان. وإننا في كل ما مرَّ بنا من جبال كثيرة لم نر جبالاً أشبه بالجبال اللبنانية من مشاهد هذه الجبال، فهي بهذه البلدان المنتشرة على طول الساحل والتي تبدأ من الضفاف رحيبة ثم تأخذ بالانكماش والتدرج إلى الأعلى خلال اسوداد الجبل تريك صورة لبنانية محضة.

إنه ساحل حافل بالعمران يكاد يكون مدينة واحدة متصلة الحلقات، فأينما أرسلت البصر على طول الشواطىء لا تبصر إلاّ بناء ومدناً وقرى ودساكر. وكنا ندنو حثيثاً من جنوى وكانت تنكشف لنا على التدريج، ثم ظهرت لنا كل الظهور منتشرة طولاً على شاطىء بعيد المدى ومرتفعة عرضاً إلى أواسط الجبل. وعندما قربنا منها لم تملك نفسها إحدى اللبنانيات المسافرات أن صاحت معجبة: مثل بلادنا فيها جبال.

في جنوى

هبطنا جنوى ورحنا نضرب في شوارعها، فكانت ترتفع وتنخفض تبعاً لتدرجها في الجبل. وعندما كان الترام يمضي بنا فيها كان يدخل في نفق ثم يخرج منه ليدخل في نفق آخر ثم يمشي صعداً صعداً، ثم يعود منحدراً هابطاً ونحن نبصر شواهق البناء ومن دونها الربوات الخضر الجميلة تتخللها الأودية النضيرة العامة. ولا أحسب أن مدينة تعدل مدينة جنوى في تكوينها الفريد فهي تقوم على هضاب وأودية وشعاب وثنايا تتداخل في كل ناحية وتتشعب من كل صوب وتكسب المدينة بهجة ورونقاً.

ولا تذكر جنوى إلاّ وتذكر معها مقبرتها. وإذا كان السائح في غير جنوى لا يقصد إلاّ منازل الأحياء وينأى عن مراقد الأموات، فهو في جنوى لا يقصد أول ما يقصد إلاّ الأموات وقبورهم، يقصدهم لا للاعتبار بالموت ورهبة الأجداث، بل للاعتبار بالحياة وأهل الحياة. ها هنا في مقبرة جنوى تتجلى روعة الفنون الإيطالية وبراعة الفنانين الإيطاليين. ها هنا في هذه التماثيل والأنصاب الممتدة في كل ناحية بعضها يمثل الألم والنوم والحزن والرحمة والصراع بين الحياة والموت وصبر أيوب، وبعضها تماثيل لأصحاب القبور، فأنت أينما تلفت تبصر أواوين متتابعة ومداخل متوالية تطالعك بأدق ما وصل إليه الفن الناحت.

ليل الشاطىء اللازوردي

وعلى مشارق الصبح كانت الشواطىء الفرنسية قد بدت لنا تحت قرص الشمس الأحمر بربواتها الدهم وأشجارها الخضر، وعماراتها البيض، وجزرها الصخرية. ثم كنا نقبل على مرسيليا فندخل في خليج صخري يتقوس على طرفي الساحل ثم نوغل فيه صوب المدينة، فتبين لنا رؤوس أشجارها وأعالي داراتها

وقمم قبابها. ووقف الناس على شرفات الباخرة يتطلعون إلى الأرض التي سينزلونها بعد قليل. وراحوا يعلقون شتى التعليقات، فقالت لبنانية تقارن بين الإقبال على مرسيليا وبين الإقبال على جنوى: «ما فيش بلد مفرفحة مثل اللي شفناها جنوى» فعبرت بذلك عما تركته جنوى في نفسها من أثر. ولعل أبلغ ما يقال عن جنوى ما قالته هذه المرأة بلهجتها القروية العريقة (مفرفحة).

من مرسيليا إلى باريس

كنا، ونحن نستبق للوصول إلى المحطة في مرسيليا سائرين في شوارعها، كثيراً ما ننحدر في السير انحداراً أو نرتقي ارتقاء، وكثيراً ما كانت تعترضنا السلالم الحجرية سلماً بعد سلم، فنمضي فيها صاعدين أو نازلين. وما دام بعض مرسيليا يقع على الربوات، فإن من شأن بعض شوارعها أن تكون هكذا. وعندما صرنا في المحطة رأيناها تزخر بالناس ورأينا الناس في عراك واصطخاب لم نحسب أنهما يمكن أن يبلغا هذا المبلغ. ولم يلبث القطار أن درج بنا يشق بسيطاً يخضر بالزروع وصنوف الشجر وتنتشر فيه المنازل على مدى البصر. وبعد أن كنا في سهول مستوية لا نبصر غيرها عدنا الآن نرى الهضاب تتخلل السهول، ونرى القرى تعتلي الربى وصار الصنوبر الجميل يحتشد في الأباطح والوهاد. وصارت بعض شجرات الأرز تلوح هنا وهناك، وظللنا في عمران مستمر نمشي فيه بين تلاع وشعاب وأجزاع إلى أن كنا في واد صخري صلد دخلنا فيه نفقاً طال علينا حتى انكشف إلى يميننا عن الربوات والغابات في مزارع بعيدة المدى، كما انكشف إلى يسارنا عن البحر. وكانت تلك الصخور في التلعات الحانئة بديعة في تكوينها الهندسي حتى كأن يد نحّات تعمّدت صنعها فجاءت كما أرادها. وكم كان ذاك الاخضرار بهيجاً وهو يمتد فيسابق القطار ويظل سابقاً له متقدماً عليه: هذا القطار الثقيل الخفيف، الثقيل بما اشتمل عليه من حديد ونار وبشر، والخفيف بهذه السرعة التي يعييك تأملها!

مضى القطار عنيفاً غير رفيق ومضينا نتأمل هذا الليل الذي صرنا في صميمه والذي لم يعد يبدو لنا فيه إلاّ مصابيح متناثرة وأشباح للمزارع وما حوته من شجر وبناء. وكان الازدحام في القطار ازدحاماً عجيباً وكانت الممرات مملوءة بالناس وبالأمتعة، وكان بعض الناس قد طووا أجسامهم فوق أمتعتهم وأغفوا، وكان بعضهم لا يزال واقفاً على قدميه يغالب التعب والنعاس، إلى أن غلباهم فوضعوا أيديهم تحت رؤوسهم وناموا في المداخل والممرات. وكنا قد وصلنا بعيد انتصاف الليل إلى مدينة (ليون) وكانت تمتد أمامنا بشوارعها الغافية وعماراتها الشاهقة وأضوائها المشعة. واجتزنا جسراً على نهر الرون ثم وقفنا تحت سقف المحطة الكبرى التي كانت تتألّق بالنور وتزخر بالناس وتزدحم بالقطر. ثم عاودنا السير مخترقين المدينة ومارين فوق فرع آخر من فروع الرون ثم مجتازين نفقاً طويلاً خرجنا منه لنرى ليون لا تزال بين أيدينا.

لم تكن ليون تسهر في تلك الساعة بل كانت تنام، أو هذا ما كانت تدل عليه منازلها المظلمة وشوارعها الخالية. ولعلها إن كانت نائمة في هذا الطرف فهي ساهرة في طرف آخر. وعادت فروع نهر الرون تلمع مخترقة المدينة بمائها الرقراق. ثم ودعنا ليون لننصرف إلى النوم حتى إذا أصبحنا رأينا أنفسنا في حقول وقرى ومزارع وغابات وأنهار وجداول تسير معنا أنى سرنا. وفي الساعة السابعة كنا قد صرنا على بعد

ثلاثة وعشرين كيلومتراً من باريس، فكانت الغابات تتكاثف بأدواحها الخضر فيلمع من بينها القرميد الأحمر كما تلمع أطباق الورد، وكانت الربوات والوهدات والسهول كلها على هذا المنظر البديع حدائق وردية حتى باريس.

باريس

ما من دروب تغريك بمثل الذي تغريك به دروب باريس من التأمل الطويل والتطلع البعيد. ولا كمثلها دروب تراوح بين المطالع وتخالف بين المشاهد، حتى لتلبي كل طالب وتستجيب لكل ناشد. فما يضيق بها المتزمت الوقور كما لا يضيق بها المستهتر الطروب. ولا يتبرم بها الجاهل الغبي، كما لا يتبرم بها العالم الذكي. فمهما كان الذي حملك إليها فإنك ملاق أبداً في هذه الدروب الرحيبة غايتك.

أأنت دارس تحب أن تتعلم حتى آخر ساعة من حياتك؟ إنك واجد هنا كل ما يزيدك علماً. ها هنا في دروب الحي اللاتيني وعلى مفارق سان ميشيل وساحة السوربون... ها هنا في هذه المنعطفات وراء تلك الجدران وتحت هذه القباب يتفجر العلم فتعب منه هذه الأقوام التي هبت إلى باريس من كل أرض. هنا المعاهد والمكتبات، هنا المدارس والجامعات، هنا يلتقي السود بالبيض ويجلس الصفر مع الشقر، هنا يتعايشون على موائد المعرفة ومقاعد الدرس. ومن هنا يخرج أعلام السياسة والأدب والعلم فيكون منهم في كل بلد قبس وفي كل وطن منارة.

ها هنا في هذه الدروب مرّ جبابرة الفكر وهنا مشوا وعلى هذه الكراسي جلسوا وفي هذه المقاهي شربوا، وفي هذه المطاعم أكلوا. إنك لتحسهم في كل شيء وترى حياتهم في كل صوب فتروعك باريس العالمة أم العلماء.

وهنا في الحي اللاتيني، الحي اللاتيني نفسه الذي لم تبرحه بعد ولم تتجاوز دروبه، هنا في هذه الرحاب وراء تلك الجدران وتحت هذه القباب يتفجر المجون، فتعبّ منه هذه الأقوام التي هبت إلى باريس من كل أرض. ها هنا يلتقي السود بالبيض ويجلس الصفر مع الشقر، هنا يتعانقون على موائد العبث ومقاعد اللهو. هنا يتعانقون: هذا الزنجي بسواده المسدف وشفتيه المندلقتين وأنفه الأفطس، وهذه الشقراء ببياضها الناصع وشعرها الذهبي وأنفها الدقيق.

في مونبارناس

وهناك في حي مونبارناس وجادته (البولفار) لا تنطوي الحركة ولا يقف الضجيج من الصباح إلى الصباح فهو أبداً يمور بالأضواء الراعشة الساكنة ويتدفق بالناس الغادين الرائحين. وإذا قدرت أن مطلع الشارع في الليل إنما يبدأ من مقهى الديبون فإنك مبصر هنا كل ما يثير فضولك. ففي الديبون تذهب وتجيء صنوف من البشر شتى لا تكاد تراها تقبل بظمئها إلى المقاعد حتى ترتوي من كل ما تعده باريس من شراب أحمر أو أصفر أو قرمزي أو أسود أو بنفسجي، فيخف بعضها معجلاً ويثقل بعضها مبطئاً ونفسه تواقة إلى ما بعد الكأس وثغره مشتاق إلى ما وراء الشراب، إذ ليس ظمأ الفم هو الذي طرح به على

مقاعد الديپون ولا أوام الشفة هو الذي ساقه هذا المساق. أو لعل الصحيح أن نقول إنه ظمأ الفم وأوام الشفة.

إنك ترى العيون تجول وتدور، ثم تجول وتدور حتى تهدأ وتقر على عيون كانت هي الأخرى تجول وتدور. فإذا قرت العيون على العيون مشت الأنفاس إلى الأنفاس وتحركت الأيدي إلى الأيدي. إنك لا تستطيع أن تدرك أبداً الصورة الصحيحة لبيت شوقي:

نــظــرة فــابـتــســامــة فــســلام فــكــلام فــمــوعــد فــلــقــاء

إلاّ هنا في هذه المقاهي وفي هذه المركبات وفي هذه المطاعم. ولكنك لا تلبث أن تدرك أن في هذا البيت زيادة، وأنك حين تحذف منه (فموعد) تظل الصورة كاملة صحيحة.

إنهن هنا، هاويات، إنهن ينشدن المتعة وحدها، ولا مطمح وراء المتعة، فتروعك باريس العابثة ملتقى العابثين.

فإذا مضيت في الشارع صعداً فإنك ستبصر أبداً مقهى يضج وملهى يعج، وستبصر هنا المحترفات ناشدات المال اللواتي يحاولن اصطياد المارة بالبسمات فيقفن في المنعطف والدرب بحليهن وحللهن، فلا تستطيع إلاّ أن تنكس رأسك خجلاً لأنهنّ شريكاتك في الإنسانية التي تنتمي وينتمين إليها.

وقد تبصر على مقاعد الشارع من أنهكهم كد النهار، فما وجدوا في الليل مستراحاً إلاّ هذه المقاعد الخشبية الصلدة يلقون بأجسامهم عليها ويغيبون فوقها في نوم عميق.

ويا لهوان الحضارة حين تكون مقاعد الخشب في الشارع أسرّة الفقراء ومراقد البؤساء.

في المترو

وتريد أن تبدل المشهد فتهبط سرداب المترو إلى (الإيتوال) والمترو أعجوبة من أعاجيب باريس، فهذه المدينة التي تضم زهاء خمسة ملايين نسمة لا يمكن أن يتسع لسكانها ظهر الأرض، فاتخذوا لأنفسهم أنفاقاً في بطنها، فأبدعت العقول الرياضية شوارع وأزقة وسراديب وسلالم يتداخل بعضها في بعض ويتفرع بعضها عن بعض لتمهد لهؤلاء الناس طريق التنقل بعيدين عن زحمة المدينة وما يتبع هذه الزحمة من حوادث وإعاقة ومتاعب. فكان المترو وكانت محطات المترو، وكان أن انقسم سكان باريس قسمين: قسم يدب على الأرض وقسم يسعى تحت الأرض، وأحكم الفكر الهندسي سبل المترو فعبر به تحت نهر السين، ونظم التبديل من جانب إلى جانب، والانتقال من طبقة إلى طبقة، وأنشأ هذه المنعطفات والتعاريج والدهاليز والسلالم الآلية وغير الآلية، حتى أصبحت الحياة هنا في باطن الأرض حياة فريدة، لولا أن العين تألفها بعد قليل لظلت موضع الدهشة.

في الشانزيليزه

وها نحن وقد انتصف الليل نبعث من محطة المترو، من باطن الأرض إلى ظاهرها تحت قوس النصر أمام الشعلة الأبدية في ساحة الإيتوال حيث تصب فيها أو تنبع منها الشوارع البديعة الغانية وحيث ينطلق شارع الشانزيليزه، منحدراً تارة بين صفوف العمائر الأنيقة وتارة بين صفوف الشجر الظليل حتى ساحة

الكونكورد. وما هو أن نرسل البصر في مسارب الشانزيليزه حتى نرى ضفتين من نور يتدفق بينهما سيل من السيارات مواجاً بالأشعة الحمراء والبيضاء والصفراء، سيل يظل يكر وينفلت فلا تدري من أين خرج ولا أين يمضي.

لقد قالوا عن باريس إنها المدينة التي لا تنام ليلا.، ومهما قرأت الغلو في هذا القول، فإني وأنا أسير في الشانزيليزه في هذه الساعة وأرى هذه الحياة المتدفقة من سيارات تجري وأناس يمشون ومقاه تمتلىء، أعود فأؤمن أن الكثير من الحق فيما قال القائلون عن ليل باريس الساهر. فإنه ليخيل إليَّ أن الناس في هذا الشارع قد خرجوا الآن من بيوتهم وأنهم قد بدأوا أسمارهم منذ هذه الدقائق وأن انتصاف الليل كان إيذاناً بابتداء السمر.

وهنا في مطلع هذا الشارع يروعك ما راعك من قبل في مونبارناس من أمر هؤلاء المحترفات وقد تخطرن على الأرصفة مبتسمات غامزات. لقد شهدتهن تحت الشمس المحرقة، وشهدتهن تحت المطر المغرق. شهدتهن يلذن من البرد بمعاطفهن، ومن الوابل بمظلاتهن متواريات أمام جدار أو تحت حاجز. لقد كان فيهن فتيات في عمر الورود وفوق جمال الورود فما كن يثرن في النفس الكريمة إلاّ أعمق الأسى والأسف. وأنا لا أدري حكم القانون الفرنسي فيهن ولكني شهدت يوماً أن إحداهن صرخت مذعورة: أيتها الفتيات احذرن. فما انطلق الصوت حتى انتفضن راكضات ركضاً ما كان أجمله لو أنه كان من غيرهن. فقد كانت تلك القامات الهيف تتلوى مياسة بقشيب الأثواب، وقد انطلقن فوق الرصيف انطلاقاً ترن فيه كعاب الأحذية على البلاط رنيناً أين منه رنين الموسيقى.

وتلفتنا فإذا شرطي يسرع، وإذا هو مصدر الحذر. وعرفنا أن القانون لا يطالهن إلاّ إذا خالفن بعض ما فرض عليهن من نظام، ولذلك روع ظهور الشرطي المخالفات فهربن راكضات.

باريس القديمة

ليست باريس، هي باريس الإيتوال والشانزيليزه والكونكورد وحدها، وليست هي في هذه الجواد الشجيرة والشوارع العريضة والعمائر الرفيعة فحسب، بل إن هنا باريس سان جرمان ومونمارتر. باريس الدروب الضيقة والأزقة المظلمة والمنازل الخابية، باريس التي تلقاها هنا وراء السين مقابل كنيسة نوتردام في زقاق (متر ألبير) وما أدراك ما زقاق متر ألبير. هنا في هذا الزقاق تتذكر «زواريب» بيروت و«درابين» بغداد و«دخلات» دمشق و«حواري» القاهرة. وهنا تمر بين المشارب الذاوية والفنادق الضاوية والدور الواهية، فترى أول ما ترى (فندق باريس) ويا لضيعة باريس حين يصبح هذه الفندق فندقها الحامل لاسمها! ثم تتابع المشاهد الفريدة فترى (البوابات) الخشبية ذات (الخوخات) ووراءها السلالم الخشبية المحطمة والدهاليز الطويلة المظلمة!

وتتابع الفنادق الهزيلة البالية فترى فندق (بوجولي) وفندق (بوكي) وفندق (بوركوني) وتبصر شبابيكها المكسرة وجدرانها المهشمة وزجاجها المرقع بالكرتون. ولكن كل ذلك يظل في حدود باريس النظيفة فلا تلمح في الزقاق مأخذاً على النظافة وإن جهلت حقيقة هذه النظافة فيما وراء الجدران وخلف الأبواب. وإذا لم يكن هذا الزقاق وحيداً في سان جرمان، فإن سان جرمان ليس وحيداً في أحياء باريس القديمة

فهناك (مونمارتر) الذي يجمع بين النقيضين: أحدث الملاهي والمقاهي وأقدم الأزقة والبيوت. ففيه ساحة (بلانش) وفيه (بيكال) وما تحويه من علب الليل ودور اللهو، وفيه مثلاً شارع (تولوزي) وما يتفرع عنه من منحدرات ومرتفعات وما يتشعب منه من دورب وأزقة!

فرساي

وخرجنا إلى الضاحية، إلى ظاهر باريس ماشين إلى دروب فرساي فاجتزنا غابة بولونيا في يوم أحد، فكانت ممتلئة بالمتنزهين تضيق بهم المقاعد فيستلقون على الحشائش ويجلسون على ضفاف البحيرة، ويمشون في الطرق الرحبة والباحات الواسعة، متفيئين الأشجار الباسقة والظلال الممتدة. ثم صرنا على ضفاف السين تدرج بنا السيارة مسايرة له فانكشفت أمامنا جوانب أخرى من الغابة على الربوات، وسرنا في طريق عريض يخترق الأشجار، فكنا نبصر الناس جالسين على حوالي السين أو تحت الأغصان كما يفعل الناس في دمشق حين يخرجون إلى الربوة وغيرها من المتنزهات. ثم يتفرع الطريق منحدراً ونمشي نحن في سياراتنا والغابة تتماوج أمامنا وقد بدت المنازل والعمارات ومن ورائها الغابات. ثم نصير بين البيوت وهي على جانبينا فنحن الآن في مدينة فرساي نشق جادة عريضة. ولا يلبث القصر الكبير أن يلوح لنا وقد وقفت حوله مئات السيارات في باحة واسعة. وها نحن نتقدم من ساحة القصر ونلجها فيستقبلنا تمثال لفارس مشير بيده إلى الأمام، ذاك هو تمثال لويس الرابع عشر. ثم نتطلع إلى الصرح فإذا هو يمتد من ها هنا وها هنا وجموع الناس داخلة وخارجة وقد طفحت بهم الرحاب ومعظمهم من السائحين الغرباء. ثم مشينا إلى داخل القصر فكان يطوف بكل جماعة دليل يشرح لهم ما غمض عليهم من شؤون القصر ويقص عليهم تاريخ كل جزء من أجزائه. والواقع أن العين لتعجب بكل ما تراه من أعمدة ولوحات وصور وأبهاء وغرف ومرايا وأرائك وكراسٍ وطنافس وحدائق. ولكن الذي يطغى على كل ذلك فيشغل الذهن هو تلك الذكريات التي تنهال على الزائر وهو يستعرض ما مرّ على القصر من أحداث، وما رافق تاريخه من شؤون كان آخرها معاهدة (فرساي) المشؤومة فلا يستطيع إلاّ أن يستغرق في تفكير بعيد!

ومن فرساي عدنا إلى غابة بولونيا وجلسنا إلى مقهى من مقاهيها العامرة نستمتع بما أفاءت يد الإنسان على هذا المكان من جمال وتنظيم وإبداع. والواقع أن غابة بولونيا ليست كما يمكن أن يتبادر إلى الفكر لأول وهلة أنها غابة وكفى بل هي عالم مستقل، الغابة بعض أجزائه. وهذه الغابة في الحقيقة عديد من الغابات تنتشر في مدى واسع وتملأ ربى وسهولاً تمتد في كل ناحية، فيها الشوارع الواسعة والحدائق الغناء والجداول الرقراقة والبحيرات الروية.

الماضي الحاضر

إن شيئاً سامياً يروقك في دروب باريس، شيئاً بعيداً عن راهن الحياة، شيئاً يستوقفك طويلاً ليغيب بك في لجج الماضي البعيد أحياناً والماضي القريب أحياناً أخرى. لقد حفظت باريس ذكرى عظمائها ووفت لهم وفاء كريماً. فأنت مثلاً تقرأ منقوشاً على الحجر في جدار منزل متواضع من منازل زقاق مونبارناس هذه العبارة:

«سان بوف شاعر وناقد ١٨٠٤ ـ ١٨٦٩ مات في هذا البيت» تقرأها متملياً فتقف حيالها منفعلاً بالذكرى التي أوحتها لك وللسالف الذي أعادته أمامك فتحس أنك تعيش هنيهات مع سان بوف حين تدوس الدرب الذي داسه وتتلمس الجدار الذي تلمّسه وتتنفس الجو الذي تنفسه. إنك حيثما سرت في دروب باريس ستشاهد مثل هذا الشاعر أو رساماً أو كاتباً أو سياسياً أو عسكرياً. أما السياسيون والعسكريون فما اكترثت بهم يوماً، وأما الفنانون والشعراء والمفكرون فلطالما وقفت أمام بيوتهم ولطالما شاقني التردد إلى دورهم والمشي في طرقهم.

مسرعون

وأمضي في دروب باريس من درب إلى درب على قدمي حيناً وفي المترو أحياناً وفي الحافلة (الأوتوبيس) آناً، خارجاً من هذا الفندق الذي علّق على بابه الرقم ٣٧ في بوليفار مونبارناس فكان مأوى لي عهداً حمدته وما ذممته حتى أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتي الباريسية وذكرياتها المرة الحلوة. ثم زاحمه في حياتي وواقعي الرقم ٤٩ في بوليفار فوجيرار فالتصق هذان الرقمان والاسمان في ذاكرتي التصاقاً رائقاً!

وأمضي في دروب باريس حتى أراني وقد وقفت حيال ميدان (الأوبرا)، حيث قصر الأوبرا من ورائي، وقهوة السلام إلى يميني ممتداً منها شارع الكبوشيين، وحيث شارع الإيطاليين إلى يساري، إنني لأقف هنا وقوفاً كان يطول أحياناً ويقصر أحياناً فيعجبني التفرس في هؤلاء العابرين. إنهم كالسيل الزاخر يندفعون من اليمين والشمال، من الأمام والوراء ماشين مشياً هو الركض بعينه. إنهم يسرعون ويسرعون غير متلفتين ولا متريثين. إنهم يجرون إلى غاياتهم ويمضون إلى طياتهم والسرعة تحدوهم والعجلة تسوقهم. إنه لا إبطاء هنا ولا وقوف!..

الرز في باريس

ستمل حتماً هذه المآكل الباريسية مهما أسبغ عليها من أسماء وأضيف إليها من نعوت. ستمل حتماً هذا الذي يقدم لك في الظهر والمساء وكل الأوقات ويهيج بك الحنين إلى «صحون الرز» وإلى تلك التلال البيضاء التي لا تكاد تتلألأ على الموائد حتى تنسفها الأيدي نسفاً! ولكن أين منك الرز في باريس؟!

إن باريس التي ترضي كل الأذواق لن تبخل على روادها بما يشتهون من الرز الناصع. إنه هناك في مطعم (طهران). ومشينا إلى ساحة الايتوال ثم انحدرنا في فرع من فروعها قادنا إلى شارع عرضاني وصلنا منه إلى مطعم طهران أو (تهران) كما كتب أصحابه على بابه بالحروف العربية.

لقد عشنا فيه هنيهات حياة شرقية كدنا ننسى معها أننا في باريس. فها هنا في هذه الحجرة الإيرانية الأنيقة يلتقي الشرقيون على غير موعد ويتجالسون على غير تعارف لا يشدهم بعضهم إلى بعض إلاّ هذه الصحاف الجائلة عليهم بمآكل بلادهم فيعكفون عليها هاربين من مآكل الفرنجة!

إن مطعم طهران طرفة من طرف باريس، فلطالما مشينا طريقه الطويل، وصعدنا درجه الصغير حتى إذا

احتوتنا مقاعده المخملية وشممنا نوافح رزه العنبرية، غبنا عن باريس وعدنا إلى هناك إلى دمشق وبيروت وطهران وبغداد.

على دروب الريف الفرنسي

كنا في أوائل الخريف وأواسط تشرين الأول/أكتوبر، وكانت أوراق الشجر قد اصفرت، عندما خرجنا في السيارة من باريس قاصدين مرسيليا بين صفوف من الشجر تتتابع على طول الطرق. ولأول مرة أحس جمال هذه الصفرة الفاقعة تتوج رؤوس الشجر الطويل!

من ذا الذي يزعم أن هذا اللون العسجدي هو أقل جمالاً من اللون السندسي؟ وأن هذه الأشجار الباسقة أقل روعة باصفرارها منها باخضرارها! إني الساعة أتأملها فأعجب بها وأعجب كيف أن الناس لم يأخذهم لطفها فيتحدثوا عنها صفراء كما أطالوا الحديث عنها خضراء.

لعل السر في ذلك أن هذا الاصفرار على جماله هو نذير النهاية الأليمة، وأن هذه الأوراق حين تصير إلى الصفرة إنما يعني ذلك أنها صائرة إلى الفناء. وهي في ذلك كابيضاض الشعر بعد اسوداده، ليس فيه من عيب إلاّ أنه دليل التحول. ولو أن الشعر يولد أبيض ثم يسود لما تغزل الناس إلاّ ببياض الشعر، ولزعموا أن لون الحداد الأسود إنما أخذ من لون اسوداد الشعر!

لقد راقتني هذه الصفرة تكلل هامات الشجر الرفيعة، ولماذا أقول هذه الصفرة ولا أقول هذه الشقرة، أليست هذه الصفوف الأنيقة من الشجر المضفور الرؤوس بالذهب تذكرك بالصفوف الأنيقة من البشر المضفوري الرؤوس بالذهب! ولماذا تسمى هذه الشجرة صفراء، وتسمى تلك الحسناء شقراء؟!

لقد شبه أجدادنا جمال المرأة بشتى التشبيهات المستمدة من الحيوان والنبات والجماد، فكانت الأغصان والكثبان والغزلان بعض ما شبّهوها به، فهل إذا قلدناهم اليوم وقلنا عن امرأة فارعة شقراء إنها كشجرة الخريف نرضي المرأة أم نغضبها؟

نستطيع أن نشبه المرأة بكل شيء فتكون راضية، أما أن نشبهها ببعض ما في الخريف، فإنها لن ترضى أبداً. شبهها بأي شيء في الربيع، ليكن تافهاً، ليكن غير جميل، فهو ربيع، ولا تشبهها أبداً بشجرة الخريف فإنها مهما عذبت ولطفت فهي خريف!

ولكنني سأظل أجد أن خير شبه لتلك الشقراء الجميلة هو شجرة الخريف هذه التي تتتابع صفوفها الآن أمام عيني.

أبواب الغرب وأبواب الشرق

وبلغنا غابات فونتين بلو ومضينا نسير وهي تسير معنا سيراً طويلاً حتى بلغنا بلدة موري، فإذا بنا ندخلها من باب أثري، ثم نعود فنخرج من باب أثري آخر. إنها لا تزال تحتفظ بهذه البقية من طراز البلدان القديم، هذا الطراز الواحد في الشرق والغرب. فهذان البابان هنا في بلدة موري في أقصى الغرب هما تماماً كالبابين القائمين هناك في دمشق في أقصى الشرق (باب توما) و(باب شرقي).

وتتابعت بعد ذلك هذه الأبواب في مداخل البلدان ومخارجها، فرأيناها في (سانس) و(نوف سيريون) وغيرهما.

في الريف

لقد كنا نجتاز الريف الفرنسي ونمر في المزارع والقرى مراً سريعاً فنلحظ جمال هذا الريف وأناقته. وكانت الدساكر تتابع علينا في السهول وفي التلال وعلى ضفاف الماء حتى مدينة (جواني)، فاجتزنا فيها جسراً على نهر (يون) خرجنا منه إلى الجانب الآخر من المدينة ثم إلى البراري الخضراء. وأذكرني جسر جواني بجسر المسيب في العراق، ويا طول ما بين المسيب وجواني!

ثم مضينا في الربوات البديعة والسهول الجميلة حتى كنا نمشي في سفوح الربى التي تتابعت وتتابعت حتى اكتنفتنا من كل صوب وسدت علينا الطريق، فمضينا نعبرها في نفق خرجنا منه إلى النهر والخضرة والتلال والقرى والمروج.

وقبل وصولنا إلى مدينة (شالو) انبسطت السهول إلى أبعد مدى واستوت مستقرة رحيبة حتى دخلنا مدينة (شالون) على نهر (سون) وأوغلنا في المدينة الجميلة مجتازين ساحتها وشوارعها الرحيبة وأسواقها العامرة، وعبرنا جسراً على نهر (سون) فواجهتنا بناية المحطة فانعطفنا إلى اليسار مجتازين شوارع ضيقة ومارين بمنازل متواضعة حتى كنا نساير نهر سون سائرين على ضفافه إلى أن غاب عنا. وعدنا إلى البراري المنبسطة الطويلة ومضينا ثم مضينا حتى أطللنا على بلدة (تورني) فإذا بنا نطل حواليها على مناظر في السهول من أجمل ما رأينا، وقد زادها جمالاً تدفق نهر سون فيها. وانطلقنا نوغل في البلدان والمزارع والمروج حتى دنا المساء فكنا في مداخل مدينة (ليون).

ليون

أخذنا نهبط إلى ليون في طريق منحدر، فبدت المدينة منتشرة على التلال، منبسطة في السهول. ومضينا في شوارعها وهي تتعالى حوالينا وأمامنا على الربوات، واتخذنا طريقاً على ضفة (الرون) ثم عبرنا أحد الجسور ومضينا لا نلوي على شيء في ليون مستهدفين مرسيليا.

وليون، قيل هي ثالثة المدن الفرنسية، ولكن الشقة بينها وبين المدينة الأولى (العاصمة) بعيدة، أو هكذا بدت لنا في المعابر والدروب التي سلكناها والمقهى الذي جلسنا فيه.

مرسيليا

ومضينا في الليل حتى مرسيليا، ولم أعجب وأنا أرى مرسيليا، غير مرة، كيف تتناقض أقوال الناس عنها، وكيف يصفها بعضهم بأنها المدينة القذرة، وكيف يصفها آخرون بأنها المدينة الأنيقة، فهي حقاً غير أنيقة في نواحٍ منها، وأنيقة جداً في نواحٍ أخرى.

وعندما كنا نجول مرة في مرسيليا على غير قصد في الأوتوبيس، سمعنا الجابي يهتف عند إحدى المحطات «الأسانسور» فنزل جمهور من الراكبين، فرأينا أن نتبعهم لنرى أين ينتهي أمرهم ولنعلم ما هو هذا الأسانسور، وإذا بنا نصير إلى سفح جبل صخري ربط إليه مصعدان، يهبط أحدهما بأناس فيرتفع

الثاني بآخرين. فدفعنا الأجر المطلوب ومشينا مع الصاعدين ودخلنا تلك العلبة الخشبية الحديدية فلم تلبث أن تحركت بنا متسلقة الجبل حتى حطت على القمة، فعبرنا جسراً صعدنا بعده سلالم أوصلتنا إلى كنيسة دخلناها فإذا هي مظلمة تضاء جوانبها بالشموع. ثم صعدنا في درج كنا بعده في الكنيسة الضخمة (كنيسة السيدة الحارسة)، وعندما أطللنا من تلك القمة على مرسيليا أبصرنا مشهداً بهيجاً إذ كان البحر ينبسط أمامنا بمائه الرجراج، ومن ورائه التلال الشجرية بأسطحة منازلها الحمراء، والمدينة تمتد ها هنا وها هنا بعماراتها وأشجارها ومداخنها، وخلف ذلك الضواحي بداراتها وغاباتها ثم الجبال المخططة بشتى الألوان! ومن ألطف ما يبدو تلك الشوارع المستقيمة بأيكها الدائح حيث تمتد فيها صفوف الشجر أنيقة ظليلة.

إن مرسيليا تبدو من هنا مدينة ضخمة حيث تدرك العين مدى انتشارها وجمالها، ولا يمكن لزائر مرسيليا أن يعرف حقيقتها إلاّ من هذه الذروة العالية. ثم انحدرنا إلى حيث جئنا ووقفنا ننتظر نزول المصعد بنا. ولعل الأصوب أن نسميه الآن المهبط. وعندما وضعنا أقدامنا فيه واحتوانا مع غيرنا ونظرنا تحتنا تهيبنا هذا المزلق الراعب الذي سنسلم أنفسنا فيه إلى خشبات وحديدات مربوطات، فأغمضنا العيون فإذا نحن قد وصلنا!

وإذا كانت مرسيليا قد بدت لنا من الذروة ضخمة فخمة، فليست كذلك تبدو من كل ناحية تأتيها. فكما ترى فيها شارع (الكانوبيير) الصاعد من ساحة المرفأ القديم بأناقته ورونقه، ترى فيها وأنت تخرج منها بالسيارة منتحياً باريس أزقة ضيقة وأرصفة ترابية وبيوتاً شوهاء. وكذلك حين تقبل عليها في السيارة قادماً من طولون وتلجها في مدخل لا يوحي إليك بأنك مقبل على مدينة عظيمة كمرسيليا. فمرسيليا لا تتناقض في هذا فحسب، بل تتناقض في كل شيء. تتناقض فيمن فيها وفيما فيها، فلن يحذروك في غير مرسيليا من لصوص النهار، ولن تبصر في غيرها هذه السحن الناطقة بالجريمة والشر، ولا هذا العسر المجلجل في الوجوه، ولا هذا الأسى المدوي في العيون! كل هذا تلقاه كما تلقى الحضارة والوداعة واليسر كأحسن ما تلقاها.

وفي ساحة المرفأ القديم ترى شتى الأجناس وضروب الأصناف، وفيها يتجول حتى النوريات (المبصرات) حاملات الودع.

إن مرسيليا مرفأ عالمي، وطبيعي أن تتميز بمثل هذه السمات المتناقضة.

في جبال الألب الساحلية

مضينا عن مرسيليا صاعدين جبال الألب الساحلية في طريقنا إلى (كان)، وأول ما يلفت الذهن في هذه الجبال هو خلوها من العمران، فلا قرى ولا دساكر ولا مزارع، بل جبال متتابعة، هي طوراً جرداً وطوراً شجيرة وطوراً بيضاء وطوراً سمراء أو سوداء. ووصلنا بلدة (كاسيس) التي تشبه القرى اللبنانية لا سيما في هذا الصنوبر والزيتون وتشع في قممها الصخور ويتعالى الهشيم، حتى بلغنا بلدة (بيدول)، فإذا بساحتها تحمل اسم جوزيف ستالين! ومنها مضينا في طريق مظلال في قلب الحرجات الصنوبرية فكنا

وكأننا في قطعة من صميم لبنان. وقد تبدل الحال بعد كاسيس، إذ إن العمران عاد متصلاً من قرية إلى دسكرة إلى مزرعة إلى قصبة. فالجبال التي كانت مقفرة بعد مرسيليا عادت غانية منذ كاسيس وامتدت طرقها ظليلة بصنوف الشجر الجميل!

ولن أنسى تلك الراعية تسوق البقر وتقرأ المجلة، ولا الراعي الآخر في السهول قبل مرسيليا، يرعى القطيع ويقرأ الجريدة! إن الراعي عندنا صورة الجهل الشوهاء والمثل الذي يضرب للغفلة وللغباء، وما كان الذنب في ذلك ذنبه، فهو ضحية السيطرات الظالمة، التي جعلت منه جزءاً من القطيع لا يتميز عنه إلاّ بأنه يحمل من العسف ما لا يحمله القطيع، وألا بأن الغذاء والماء والطمأنينة متوفرة للقطيع وغير متوفرة له!

كنا ننحدر هابطين لنعود إلى الساحل بعد الجبال، حتى استوت لنا الأرض بسيطة، وامتدت أمامنا فسيحة، إلى أن أدركنا في الليل مدينة (كان) على الشاطىء اللازوردي.

في نيس

حين وقفت في الليل على مرتفع (مون بورون) في مدينة (نيس) وأطللت منه على المدينة المتوهجة، عرفت لماذا سمى النيسيون هذه الأنوار الملتوية على شاطىء البحر بهذا الاسم الشعري «عقد اللؤلؤ».

ليس من الضروري أن تكون شاعراً لتحس الشعر في هذا الموقف البديع، وليس من الضروري أن تكون قوي الخيال لتتمثل عقد اللؤلؤ على جيد الحسناء حين تبصر الأضواء المتقوسة على جيد بحر نيس.

من هنا، من هذا المرتفع تروق لك نيس الجميلة، ومن هنا تحب نيس الرقيقة العذبة!

ولكنني لا أحسب أنهم كثيرون أولئك الذين يحبون نيس هذا «الحب الأفلاطوني» فيقصدونها ليتمتعوا بمرآها من فوق مون بورون. ولا أحسب أن مون بورون هو الذي يستهوي الرواد ليطلوا منه على روائع الليل المتألقة في عقد اللؤلؤ!

إنهم يقصدون نيس لينغمسوا فيها لا ليشرفوا عليها، ويأتونها ليستريحوا إلى العقود المحسوسة الملموسة لا لينظروا إلى العقد الخيالي الشعري. إنهم يجيئونها ليلجوا غمار روائع الليل المتألقة في عقد اللؤلؤ لا ليجتلوها من عل... من بعيد!

وشتان بين مفهومنا نحن الذين كنا نرى الهناء، كل الهناء، في هذه الوقفة الساجية في ظلام الليل على النجد المشرف على نيس، وبين مفهوم أولئك الذين كانوا يرون الهناء كل الهناء في تلك الوقفة الصاخبة بين أضواء الليل المطيفة بنيس.

هنالك في تلك الشوامخ من الفنادق والملاهي والملاعب، وفي ذلك الشاطىء الزاخر بقوارب النزهة المترفة، وفي تلك الشوارع الساحلية المطيفة بالبحر، هنالك في تلك العمائر البيض الممتدة على الشاطىء كصفوف من العرائس، آخذ بعضها بأيدي بعض كأنها تتهيأ للانطلاق إلى البحر، أو كأنها خرجت لتوها من البحر، والتي تحيرك فما تدري أهي عرائس عارية تشع أجسامها البضة نوراً وحسناً، أم هي عرائس كاسية تتألق أثوابها زهواً وبداعة، هنالك تطيب الحياة لرواد نيس لا كما طابت لنا نحن على المرتقى الموحش والدرب المقفر!

جدران متآكلة

ولكن لنيس وجهاً آخر غير هذا الوجه الضخم الفخم، وجهاً يختلف عن هذا الوجه الباذخ الذي تشهده هنا على شاطىء البح. إنه في نيس القديمة، نيس التي لا تتصور أن تجدها هنا بعد أن شهدتها هناك، إنها هنا أزقة ضيقة، ودروب ملتوية، وأبواب واطئة وأبنية شاحبة وطرق مسدودة ومظاهر قروية في السكان والمكان!

هنا في نيس القديمة جدران متآكلة ودهاليز مظلمة في مداخل الدور وسلالم ضيقة في الأزقة، وهنا، في هذه «الزواريب» المتداخل بعضها في بعض تجد الغسيل منشوراً على الحبال وتجد الدوالي متعرّشة على الجدران، وترى الدكاكين البسيطة والمقاهي المتواضعة! فتتساءل أحقاً أنا لا أزال في نيس، أم قد طويت الأبعاد وأوغلت في الأسفار إلى عالم آخر!

مونت كارلو وعاليه

وعندما تخرج من نيس في اتجاه الحدود الإيطالية عن طريق (مونت كارلو) وتمضي صعداً في سفوح الجبال تحسب أنك تخرج من بيروت في طريق عاليه. غير أنك لما توغل في السير وتواجه القمم الصخرية الوالجة في البحر، وتشاهد البناء صاعداً من الضفاف حتى الأعالي، والأحراج منحدرة من الذروات حتى الشطوط، ترى أن المناظر قد عادت أبعد ما تكون شبهاً بمناظر لبنان.

وعندما تدخل مونت كارلو، تتذكر دخولك عاليه متجهاً إلى سوق الغرب، لولا أنه ليس لعاليه هذه الصروح الزاهية الباذخة، ولا هذه الدارات الرفيعة الشامخة، وليس لها هذا التدرج الأنيق من الشاطىء إلى القمم، تدرجاً تفوز معه بالحسنيين، وتظفر بالمزيتين: مزية الجبل ومزية البحر.

على الحدود الإيطالية

وتخرج من مونت كارلو حتى (مانتون) على الحدود الإيطالية في عمائر متصلة لا تعرف معها أين تبدأ حدود المدن وأين تنتهي، حتى كأنك في مدينة واحدة شارفت تخوم إيطاليا ولم تزل سائرة. وعندما يدركك الليل عائداً من حيث أتيت تبهرك الأضواء المنبثقة من كل صوب، من الساحل وراءك وأمامك وفوقك وتحتك، أضواء يطلقها ليل الشاطىء اللازوردي لتنير لرواده ما أظلم عليهم من مسارب اللهو والبعث!

لقد كان أروع في عيني من تلك الأضواء جميعها، ضوء يرق في عرض البحر ضئيلاً جامداً! إنه ضوء زوارق الصيادين وقد انطلقوا فوق الماء يفتشون عن الرزق!

في إيطاليا

مضت بنا الطائرة من لندن متجهة صوب بحر المانش. فما هو أن علت في الجو ثم اندفعت في الأفق حتى جاء أحد ملاحيها يخطبنا بالإنكليزية خطاباً طويلاً. ثم تلاه آخر بدا وكأنه يشير إلى تعليمات يجب أن نتبعها. ثم أخذ جهاز المظلة ولبسها وأخذ يتحدث عنه ويشير إلى كيف يجب أن نستعمله! ماذا؟! أنحن معرضون لخطر السقوط؟ ليس في حركة الطائرة ما يشير إلى خطر راهن، ولا في حركات الملاحين ما يشعر بالشر الداهم! فماذا إذن؟ أهناك خطر لا نحسه نحن ويحسونه هم وحدهم بما لهم من طول تمرس؟ أيخفون عنا الواقع المرير لئلا نضطرب ونحيل الطائرة إلى فوضى يائسة؟!

لقد كانت مصيبتنا نحن الذين نجهل ما يقول ولا نعي إلاّ إشاراته وتلفتاته، لقد كانت مصيبتنا مروعة مثيرة. فما شهدت على طول ما ركبت الطائرة من افتتح سير الطائرة بمثل هذا. فلولا أن في الأمر داهية مقبلة لما خطبنا الخطيب الأول، ولما جاء هذا يقفوه ويزيد عليه بلبس جهاز الهبوط وتعليمنا كيف نتقي به الموت! وتفرست في الوجوه حولي فلم أر فيها استشعار موت قريب. أيفهم هؤلاء الإنكليزية أم يجهلونها؟ وهل فهمهم لها هو الذي لم يثر فيهم الرعب مما يقول القائل، أم جهلهم لها هو الذي لم يثر فيهم الرعب؟ أأدركوا ما قال فاطمأنوا، أم لم يدركوا ما قال فاطمأنوا؟!

لم يكن الدرس الذي ألقاه علينا الملاح كافياً لتعليمنا استعمال مظلة النجاة. وهبه كان كافياً، وهبنا أعدناه وكررناه، فهل من المعقول عندما يجد الجد أن يبقى هذا الدرس عالقاً بأذهاننا؟ وهبه علق فيها، أأنا من يجرؤ على أن يرتمي من السماء لتنفتح به المظلة فتوصله إلى الأرض؟!

فوق فرنسا

ولم ينه هذه الأفكار السود من رؤوسنا سوى أن الخطيب البليغ كان قد أنهى خطابه ومضى لشأنه. وكنا قد عبرنا بحر المانش، فضاع علينا منظره من الجو، ولم نشعر إلاّ ونحن فوق الأرض الفرنسية. وها هي تحتنا مخططة بخضرة الزرع وصفرة التراب وحمرة البناء، وها هي الطرق فيها تتوزع كأنها الشرايين، والأنهار تجري ملتوية كأنها الأفاعي!

كم كرهت تشبيه الأنهار في الشعر العربي بالأفاعي والحيات، وكم عددت من قلة الذوق أن تشبه النهر الذي يحمل الحياة والجمال بالأفعى التي تحمل الموت والبشاعة! ولكنني الآن وأنا أراها من علٍ تتلوى في السير داكنة، لا أجد شبهاً لها في هذا التلوي المتعاقب غير الأفاعي! فعذراً أيها الشعراء الماضون الذين حملت عليكم، عذراً إليكم فإني لم أكن أبصر من الأنهار إلاّ المستقيم. أما النهر المتعرج الملتوي فحين أبصرته عدت إليكم معتذراً!

لقد كان من أبدع ما تراه العين فوق فرنسا، تلك البسائط الطويلة من الأرض الحمراء موشاة بالاخضرار. لقد كانت كثوب العروس السابغ!

فوق سويسرا

هذه سويسرا نبلغها بعد فرنسا، ولم نكد نلمحها حتى كنا وكأننا والغيوم على موعد. فقد تكاثفت فوقها تكاثفاً حجبها حتى لم نعد نبصر إلاّ السحاب. فإذا عنَّ لها أن تنفرج بعض الانفراج، بدا لنا جمال سويسرا الفريد، وطلعت جبالها وأنهارها وبحيراتها، وبرزت قممها بثلوجها الناصعة منثورة نثراً في قلب الحراج والغابات. وأدركنا بحيرة جنيف في حين كان الغمام آخذاً بالانقشاع، حتى لم يبق منه إلاّ ذيول شفافة برزت فيها سويسرا كالغادة تبرز ببرقع رقيق لا يستر محاسنها! فانتشرت البيوت على القمم والمنحدرات والأودية، وتدفقت الأنهار في المسارب والمسالك. إنها هنا لا تشبه الأفاعي، إنها خطوط مستقيمة لا تتلوى ولا تتعرج! وتكاثفت الثلوج على الجبال وغارت الأودية وفارت القمم، كل ذلك ومواكب السحاب الأبيض تتهادى تحتنا متثاقلة فلا تمنع البصر إلاّ عندما يعن لها، فتنفرج من ها هنا وها هنا. ثم ازداد شموخ الذروات وامتدت إلينا، حتى لنكاد نلمسها باليد لو استطعنا مد اليد!

فوق الجبل الأبيض

نحن الآن فوق قمم «الجبل الأبيض». إنه أبيض حقاً بهذه الثلوج البيض، وإن كان في الأصل أسود شديد السواد. لقد سمينا نحن في بلاد الشام جبلنا المكسو بالثلج «جبل الشيخ» أو «الجبل الشيخ» وسموا هم جبلهم المكسو بالثلج «الجبل الأبيض» هرباً من تصور شبح الشيخوخة وتذكر الهرم! ألا سلام على جبلنا، جبل الشيخ، سلام نرسله له من فوق (شيبة) زميله شيخ سويسرا، الجبل الأبيض!

فوق إيطاليا

وصرنا على أبواب الغروب، فإذا نحن فوق إيطاليا. لقد تغيرت الأرض وغاب ذاك الطابع السويسري الفريد. إن هنا لجمالاً تحسه أيما إحساس، ولكنك تنكره بعد أن تكون قد ودّعت الجمال السويسري الفذ. لقد شهدت سويسرا يوماً من الأرض واجتزتها بالقطار، فأحسست منذ تركت فرنسا ووصلتها، أني في شيء جديد. ثم اجتزت الحدود السويسرية إلى إيطاليا، وكنت في سهول لمبارديا الرائعة، ولكنني أحسست وأنا أنحدر من سويسرا إلى هذه السهول، أني خلفت هناك شيئاً أفتقده هنا! وها أنا الآن أشهد سوسيرا من السماء، فأصلها من فرنسا كما وصلتها من قبل، ثم أجتازها إلى إيطاليا، فأحس وأنا في الجو ما أحسست وأنا على الأرض، من أن سويسرا شيء فريد في الدنيا!

أنوار إيطاليا

هذه هي الأنوار الإيطالية تتلألأ تحتنا، وهذه هي البلدان تشع في كل جهة. وها نحن لا نعود نميز شيئاً من شيء، إذ إننا لم نعد نبصر الأنوار والأنهار. ثم نصير فوق بحر من نور: إننا الآن فوق مدينة روما.

في دروب روما

التاريخ وحده هو الذي يشغلك وأنت تقبل على روما، والماضي وحده هو الذي يعتمل في ذهنك وأنت مطل على مدينة الماضي الزاخر.

إن روما الأمس، روما التي طالما ملأت لك فكرك وجلجلت مواكبها في سمعك ودوت محافلها ملء أذنيك، إن روما التي شهدتها عبر التاريخ البعيد، روما الفتوح، وروما العلوم والفنون، وروما الخلاعة والمجون، روما المنتصرة حيناً، المنكسرة حيناً، روما المشرقة آناً، الخابية آناً، روما بأساطيرها وحقائقها، إن روما الأمس هي التي تراها في خيالك، وهي وحدها التي تشغلك وأنت تطلع من بين الشعاب على روما اليوم.

وروما اليوم لن تخيبك أبداً وأنت تطالبها بروما الأمس، إنها ستريك في كل درب من دروبها ما يشبع تطلعك ويرضي تفرسك، إنها ستجلو لك الماضي صوراً حية في هذه الدور وتلك القصور، على تلك الأسوار وفي هذه الأقبية، في النصب والتماثيل، وفي القباب والرحاب.

وتظل تضرب في السكك وتدور في المنعطفات ويظل الماضي حاضراً بين يديك وتظل شخوصه ماثلة أمام عينيك.

وتطوي صفحة الماضي هنيهة لتحدق في الحاضر فتريك روما من أمرها عجباً أي عجب!

هنا في هذه المدينة الخالدة تلتقي أغرب المتناقضات وتجتمع أبعد المفترقات. هنا على هذا الصعيد الواحد تضم روما في صدرها أقصى اليمين المتطرف إلى أقصى اليسار المتطرف، فإذا شهدت الناس عاكفين في شوراعها على جدار قديم يرتلون الصلوات ويرددون الدعوات ويسبحون للعذارء وللمسيح، وإذا أبصرتهم خاشعين في الطريق حيال الصلبان والأيقونات، فإنك ستشهدهم بعد قليل عاكفين على جدار جديد يصرخون بالثورات ويستنزلون اللعنات، وستشهدهم خاشعين حيال المطارق والمناجل يسبحون لماركس ولينين.

لن تجد في غير روما مثل المتدينين المتعصبين الذين يستهويهم دينهم أيما استهواء حتى ليدفعهم إلى بقايا أسوار، وأطلال وأحجار، فيتفرغوا لها نهارهم أو بعض نهارهم مترنمين بالأناشيد المذهبية والتراتيل الكنسية. ولن تجد في غير روما مثل هؤلاء الشيوعيين المتحمسين الذين تستهويهم عقيدتهم أيما استهواء حتى ليفعموا الدنيا بشعاراتهم الصارخة ونداءاتهم العارمة.

تديّن عنيف يجاوره إلحاد عنيف، فإذا ما شهدت الأول بادىء بدء خيِّل إليك أن روما هي محجة الدين في أوروبا وإذا ما شهدت الثاني بادىء ذي بدء خيِّل إليك أن روما هي كعبة الكفر فيها، ولكنك تعود فتعرف أن روما هي محجة الاثنين وكعبة الأمرين وأن روما هي روما المتناقضات.

وها هنا في ساحة (ايسدرا) حيث يفور الماء من البركة ممتزجاً بالنور، وحيث تستريح على المقاعد الوثيرة في المقهى الفخم أترف الطبقات وأشدها بذخاً، وحيث تشدو المغنية وتعزف الموسيقى، هنا في ساحة ايسدرا نفسها وحيال المربع الشادي الطروب تستريح على الأحجار الصلدة القاسية في جدران البركة أبأس الطبقات وأشدها تعاسة، فما يجذبها الغناء ولا يلفتها العزف، بل تتيه عيونها قبل آذانها في عالم بعيد سحيق.

إنك لتلقاهم صنوفاً شتى، فيهم النساء والرجال، وفيهم الشرطي والجندي، وفيهم الشاب والشيخ، وكلهم في شاغل عن اللحن المنبعث من جوارهم بما يجيش في صدورهم من هموم وأشجان.

ها هنا النعيم المتطرف، وها هنا البؤس المتطرف، وكان لا بد بينهما من وسط يحب أن يستمع، ولكنه لا يستطيع أن يدفع. فوقفت جموع على أقدامها خارج المقهى تطرب دون أن يكلفها الطرب إنفاق المال.

وكما تلقى في روما ساحة ايسدرا وساحة فينيسيا بصرحها الممرد وأنصابها الشاهقة وجنائنها الشائقة، وتلقى فيلاّ بورجيزة وساحة غاريبالدي تلقى كذلك (الزواريب) المتعرجة والأزقة الملتوية.

ها هنا في روما نفسها تلقى أزقة (بيستاره لو) و(بابيكسيو) و(مودلي) ذات الضيق والتعاريج.

كانت نساء هنا تغسل الملابس على حنفية الماء وسط الزقاق، وكانت نساء تنشر الغسيل على حبال فوق الزقاق، وكانت نساء يجلسن مع أطفالهن على الكراسي للسهر.

وتمضي في رؤية هذه المشاهد في قلب روما حتى إذا بلغت زقاق (سكودري) وخرجت منه مشمئزاً مما فيه من أوساخ متراكمة، فإنك ستصل إلى شارع (ترافورو)، وهنا ستلقى دنيا بديعة من النظافة والعمران والتنظيم.

إنها روما مدينة المتناقضات، ففيها الجماعات الأنيقة أناقة تحسدها عليها جماعات باريس وكل العواصم، وفيها الجماعات الشحاذة تمد الأيدي مستعطية، وتمر مستعطفة بينها رجل بثياب راهب، وأطفال شبه عراة ونساء ضريرات.

وروما المتناقضة هذه، لا تتركك قبل أن تعرض أمامك صورة حلوة لشرطة السير فيها. إنك لن تنسى رشاقتهم وخفة حركاتهم ولطافة إشاراتهم.

إنهم من أجمل مظاهر روما وأرقها!

في دروب نابولي

إن نابولي لجميلة! أو هذا ما أحسسته وأنا أطل عليها من سطوح الباخرة ونوافذها، وما أدري أكان إحساسي هذا لأني طلعت إليها من بين الأمواج الضارية ونزلتها منفلتاً من تلك الزرقة الطويلة العريضة واسترحت إليها من نصب الدوار وسأم الليل والنهار!

أهذه الصحبة المضنية للبحر هي التي حببت إليَّ نابولي، أكان شغفي بالبر هو الذي أرانيها مليحة مونقة؟ لا أدري! فلعل هذا هو الصحيح، ولعل العكس هو الصحيح، ولعلي لو جئتها من العباب أو من بين السحاب أو من أقصى الرحاب، لكانت في العين في كل ذلك شائقة جميلة!

إنه منذ ينطوي عن أذنيك ضجيج الإسكندرية وتغيب عن عينيك آخر معالمها لا يبقى لأذنيك إلاّ أن تستمع لدوي البحر وهدير الموج ولا لعينيك إلاّ أن تحدق في زرقة الفضاء وزرقة الماء إلى أن يسلمك السير في مطالع الليل إلى شطوط صقلية وسواحل إيطاليا فتستقبلك (مسينا) وقد أطلقت مضيقها الرحب مسرباً وديعاً تمرق فيه الباخرة بين صفوف النور المتوقد. ثم تعود بعدها إلى مثل الذي كنت فيه حتى تفكك نابولي من إسار البحر، وتأخذ بيدك إلى الراحة والطمأنينة!

ها هي ذي أمام أبصارنا يتعالى بناؤها على قمم التلال ثم ينحدر إلى الشاطىء بحدائق غانية وشوارع رحيبة، فيها العمار القديم الموغل في القدم، وفيها العمار القديم غير الموغل في القدم، وفيها الحديث

الأنيق والجديد الرشيق. وفي الشاطىء عند (مرجه لينا) ترتفع المنازل متدرجة على الهضاب العالية وتدور حول البحر متقوسة بشجرها الغضيض ويمتد البحر أمامها بمسابحه الشعبية الضاجة بالأطفال. لقد أعدوا هذه الناحية للأطفال وعنوا بها فمهدوا لها بحواجز حجرية تضمن هدوء البحر وتجمع مائه فانطلق الصغار يسبحون آمنين ضاحكين صائحين. ما أكثر ما تشدك هذه المشاهد التي تذكرك ببلادك. بلادك التي يستطاع فيها كل شيء ولا يعمل لها شيء، أين من يفكر عندنا بالصغار، بل أين من يفكر بالكبار!

لقد كان اليوم يوم الأحد، ولكنه وهو يوم الزينة والبهجة لم يستطع أن يصل بالزينة والبهجة إلى هذه الجماعات الغادية الرائحة ببؤسها فظلت في الأحد كما كانت في السبت والجمعة والخميس مهلهلة الملابس زرية الأحذية. وبقيت الرقع والبقع في ستراتها وسراويلها وقمصانها! إنها لو كانت تملك غير ما تلبس اليوم للبسته فليس بعد الأحد يوم تهيّىء له جديدها! لقد شهدت في القطار بين نابولي وروما راهبة تسقي كلبها الحليب بعناية ورفق، والبلد الذي تشرب فيه كلاب الراهبات الحليب مدللة، ليس من العجيب أن يخرج فيه كثير من الناس يوم الأحد بمثل ما خرجوا!

ويح الحضارة إذا كانت لا تستطيع أن تدفع البؤس عن البؤساء، إذا كان سيظل في كل بلد من أعرق بلاد الحضارة من يشكو البطالة ومن يعاني الشظف ومن ترهقه الفاقة ويضويه الفقر!

ولعل من مظاهر العوز هذا التحايل على العيش الذي تراه في دروب نابولي إذ يلقاك من لا تخطىء فراسته في أنك غريب فيتابعك ليكون دليلك في التعرف على نابولي. وحينما تعتذر له يظل متابعاً لك شاغلاً إياك بالحديث حتى ينسيك نفسك ويندمج فيك فلا ينتهي المطاف إلاّ وقد صار دليلك دون أن تريد. على أن فيها ضروباً أخرى من التحايل الشرير الذي لا تعدم أن تجد له شبيهاً عندنا في دروب بيروت، هي محاولة خداع المارة بعرض الساعات والأقلام الزائفة عرضاً يغري بأنها رخيصة الثمن غالية النوع. ومن هذا الضرب أذى سائقي «التكسي» فمهما كنت حريصاً على إرضائهم فإنك لن ترضيهم أبداً، وإذا كانت حكوماتنا في بيروت تقاد بسائقي «التكسي» فلا تجرؤ على تحميل العداد لسياراتهم فإنها في نابولي قد وضعت العداد، ولكن العداد لم يحل المشكلة فحين يصل المال ليد أحدهم فإنه لن يخرج منها مهما زاد عما رقمه العداد إلاّ بأن تسمعه كلمة (البوليس) وعند ذلك تنحل عقدة يده عن بعض ما انعقدت عليه، وبهذا وحده افترقوا عن سائقي «التكسي» في بيروت فإن كلمة البوليس في آذانهم لا تثير إلاّ الابتسام!

ومن ملامح نابولي أنهم يبادرونك في المطاعم بالماء المثلج الكثير أول ما تجلس إلى المائدة دون أن تطلبه في حين أنهم في فرنسا مثلاً لا يرون شرب الماء على الطعام هو الأصل فإذا سألوك عما تشرب وعلموا أنك لا تشرب إلاّ الماء لم يكن لك أن تنتظر أن يأتوك به إلاّ بعد أن تلح بالطلب، فإذا فعلوا أتوا به قليلاً فاتراً لا يروي غلة ولا يبل أواماً! ومن ملائحها تلك العربات المجرورة بالخيل، عربات الخيل كما كنت تعهدها في دمشق هناك في شارع النصر ومداخل المرجة مصفوفة صفاً طويلاً، إنها هنا في نابولي في ساحة (مينيسيو) كما كانت هناك والمخالي معلقة في رؤوس الخيل والحشيش الأخضر يملأ مكان أقدام السائق، وإنها تجول في كل شارع وميدان.

في دروب كابري

أول خاطر يراودك قبل الوصول وأنت مبحر إلى نابولي، هو أن ترى جزيرة (كابري) بعد أن تصبح قريباً منها لا يفصلك عنها إلاّ مرحلة لا تعد شيئاً في مراحلك الطويلة البعيدة، ولكنك ما إن تصل نابولي وتضع رجلك في البر، حتى تحس أن ما من قوة تستطيع أن تعيدك إلى البحر هذا البحر الذي لا يلفظك إلاّ بعد أن يكون قد أخذ منك بالخناق وأذاقك الداء الدوي بما طوح بك ذات اليمين وذات الشمال.

وما كابري إذا كنت ستركب البحر من جديد. وما جمال كابري إذا كنت ستعود إلى التلوي على غارب الموج الأرعن!

حين تتخيّل مفاتن كابري فتشدك إليها، تتخيل العودة إلى البحر فتشدك عنها، وتظل بين أخذ ودفع حتى تكون قد استرحت إلى البر الهادىء وملأت رئتيك من نسماته فتحل بك نعمة النسيان فتهتف بنفسك: إلى كابري!

أجل إلى كابري، بين هذه الحشود الغريبة الطالعة من كل مكان والناطقة بكل لسان. إليها على هذه الباخرة الصغيرة بين هؤلاء الأميركان شيباً وشباناً، فتيات وفتياناً.

ها هي كابري

وها هي كابري تطل علينا ببيوت هزيلة على طول الساحل ما كان أشبهها ببيوت صور القديمة عندنا. أهذه منازل كابري؟!

لا، إن الدارات هناك فوق الجبل وعلى التلال، هنالك في القمم البعيدة والربى القريبة، وإذا كان اسم كابري قد أطلق عند الناس على الجزيرة كلها فإنهم هنا لا يطلقونه إلاّ على ناحية من نواحيها، فهناك كابري، وهناك آنا كابري.

وكنت أجهل هذه التفاصيل حتى عرفتها في الفندق الذي اخترته قريباً من البحر، فعرفت أن الأقلين يبقون كما بقيت هنا غير بعيد عن الساحل وأن معظم الناس يتوزعون بين كابري وبين آنا كابري. فمن ابتغى السكينة ظل هنا كما ظللت، ومن طلب الضجيج والصخب صعد في مدارج الجبل مسرعاً. وكان للمقام هنا حسنات أبدعها هذا الهدوء الساحر الذي يطيف بالكون فلا تسمع إلاّ رنة الموج الساجي، رنة تنطلق بين الفينة والفينة فتصل إلى أذنيك نغماً رقيقاً يأخذ بمجامع نفسك وأنت في إطلالتك المسائية على البحر وفي عينيك الأضواء وحمرة الغسق وزرقة الماء.

الكهف الأزرق

في الأصيل مضى بي قارب إلى «الكهف الأزرق» وكانت الشمس تميل جانحة إلى المغيب، فكان علينا أن نسابق الشمس فنصل إلى الكهف قبل أن تصل الشمس إلى البحر. ومضى الملاح يضرب الماء بمجذافيه مشيراً إلى ظواهر طبيعية في اليابسة سماها الناس بما رأوها تشبهه من مظاهر الحياة والأحياء. فها هنا «الشمبانيا الكبرى»، الماء يندفع في الفجوة ثم ينطلق بنشيش وفقاقيع هو نشيش زجاجة الشمبانيا وفقاقيعها، وهنا «القلب» وهنا «الجمجمة» وهنا «خرطوم الفيل» وهنا «آذان الحمار». وكل ذلك صور

حفرها الماء في الصخر فكانت وكأن إنساناً تعمد أن يخرجها كما خرجت تماثيل لهذه الأشياء.

وكان أهم من ذلك عند الملاح أن يساوم من جديد في الأجر الذي اتفقنا عليه فهو يريده مضاعفاً! وتذكرت أن ملاحين في العراق في العهد العثماني كانوا يرغمون الناس على ما يريدون، وذلك بأن يوصلوهم إلى قلب النهر في طريقهم إلى الضفة الأخرى. فإذا رفضوا الاستجابة كما يريد الملاحون أخذوا يدورون بالزورق دوراناً تنخلع له قلوب المسافرين فيسمعون ويطيعون، فقلت في نفسي أترى هذا يجري هنا؟

ولكنني رأيت القارب يمضي قدماً فلا يدور ولا يحور، فتشجعت ورفضت الطلب. وهنا لاحت لعيني الملّاح مسبحة سوداء كانت في يدي فتطلع إليها وافتر ثغره قائلاً: أأنت كاثوليكي؟ فلم أشأ أن أكذب فأقول: نعم، ولم أشأ أن أخيب ظنه فأقول: لا، فسكت. ثم ظهر أن كلاً منا يريد أن يستغل الأمر لمصلحته وأن الدين يتاجر به حتى الملاحون بالقوارب على طريق الكهف الأزرق في بحر كابري.

أما أنا فقد حسبت أن اعتقاده في الكثلكة سيجعل لي من المكانة في نفسه ما يريحني منه، وأما هو فقد أسرع إلى إخراج أيقونة صغيرة من صدره ليبرهن لي عن عراقته في التدين وليقول ضمناً إنه لذلك يجدر بي أن أضاعف له الأجر، ولو بسبب الاشتراك في الدين والمذهب!

وبلغنا الكهف فتطلعت فاختلط عليَّ الأمر، إذ أبصرت فجوة في اليابسة مسدودة بالماء المتدافع منها وإليها، فكيف تنفذ الزوارق، والموج يضطرب في هذا المدخل فيفعمه ماء دفاقاً؟!

ولكني لم ألبث أن أبصرت الكهف يقذف الزوارق من باطنه زورقاً بعد زورق، فيتصايح من فيه طربين ضاحكين.

وانهالت تعليمات الملاح تأمر بالجلوس في قعر الزورق، ورأيت أن أبالغ في تنفيذ التعليمات تحفظاً مما أكاد أتيقنه من الارتطام بالصخور.

وطفق الملاح يغالب الموج ليهتبل أول سانحة لهبوط الماء ثم رفع يده إلى سلسلة طويلة ممتدة من الداخل إلى الخارج فاستمسك بها ثم اندفع بالزورق فما شعرت إلاّ ونحن في الكهف الموعود، نطفو على مائه الرقراق.

وسر الكهف في هذا الشعاع الرقيق الذي ترسله الشمس فينير الكهف فيشف الماء في العينين وينعكس النور على السقف فتحس كأنك في مكان مسحور.

في الليل

وفي الليل مضينا من الساحل نصعد إلى كابري إلى الناحية التي تحمل الاسم بعد أن حملته الجزيرة كلها، فاحتوانا (الفينيكولاري) الكهربائي ومضى يزحف بنا على الجبل زحفاً حتى حطنا في مداخل ساحة (أرماندو دياز) فإذا كابري محجة الرواد تبدو هنا حقاً.

ففي هذه الساحة الجميلة، يزدحم الناس ماشين وواقفين وجالسين. ناس من كل الأجناس استهوتهم كابري، فالتقوا فيها على ما بين بلادهم من أبعاد وآماد.

ومضينا نمشي في الأزقة فإذا هي ضيقة لا تتسع لأكثر من اثنين، وكلها مشارب ومطاعم ومراقص مكتظة بالسائحين. وكلما ابتعدنا عن الساحة متوغلين في الأزقة الضيقة، بدا القدم في البيوت وظهرت فيها معالم القرى.

في النهار

وفي الصباح مضينا في الدروب الملتوية صاعدين في السيارة إلى (آنا كابري) إلى القمم الشواهق، إلى أعلى الذروات، إلى فندق الفردوس، إلى ديرسان ميشيل حيث كتب «اكسيل مونتيه» قصة سان ميشيل.

وهنا وقفنا نطل على البحر أسفل منا فكان الموقف جميلاً مثيراً، ولكنه بالنسبة إليَّ لم يكن جديداً كل الجدة. فنحن الذين ألفنا في بلادنا مناظر الجبل والبحر مجتمعين لا يأخذنا هذا المشهد كما يأخذ غيرنا من الذين كانوا يقفون مبهوتين بما يبصرون من سحر الطبيعة الآسر.

وليس يعني ذلك أن مثل هذه المشاهد لا تنقص بلادنا، وأننا لا نبصر هنا ما لم نبصر مثله من قبل، بل إن الأمر ليس كذلك. فها هنا شيء فريد قل أن يكون له شبه في لبنان، بالرغم من اجتماع منظر البحر والجبل معاً فيه. فالفرق أنك في لبنان كلما أوغلت صعوداً في الجبل أوغلت ابتعاداً عن الشاطىء وولوجاً في اليابسة كأنما تسير سيراً أفقياً، فإذا بلغت الذروة رأيت البحر أمامك ولكن من بعيد بعيد. أما هنا فإنك حين توغل في الصعود لا تبعد أبداً عن الشاطىء إلاّ بمقدار ما ترتفع، حتى لكأنك تسير سيراً عمودياً يعلو بك عن البحر ولكن لا يوغل بك في البر، فكلما علوت زاد منظر البحر جمالاً، فإذا بلغت ذروة الجبل بلغت ذروة الجمال حتى تطل على البحر فتراه تحت عينيك رجراجاً رقيقاً يتلاعب بالزوارق ويتدافع على الحصى والرمال.

من غرب أوروبا إلى شرقها

راح القطار يعدو بنا خارجاً من باريس في سهول رحيبة تتلألأ فيها المصابيح على كل وجهة حتى ليخيل إليك كأن السماء بنجومها قد انعكست على الأرض. فأنت حيثما توجهت في هذا الليل مصعداً بصرك إلى السماء تبصر النجوم وحيث توجهت مصوّباً بصرك إلى الأرض تبصر النجوم، تبصرها في الأرض كما تبصرها في السماء منفردة حيناً ومزدوجة حيناً، متفرقة حيناً ومجتمعة حيناً. ولما انقضى علينا تسعون دقيقة كانت نجوم الأرض قد أخذت تتوارى حتى لم نعد نبصر منها إلاّ أضاميم. وكنا تعبين فأسبلنا الجفون مهوّمين ثم انطوينا في الكرى حتى السحر، فإذا بنا قد اجتزنا في الليل فرنسا، وإذا بنا نقف أمام آخر بلدة فرنسية (ديل) لندخل بعدها في الأرض السويسرية واصلين إلى بلدة (بور أنتروي). وكان الصباح قد تجلى وأصبحت معالم الأرض واضحة، فشهدنا جمال الربوات وتنسيق الحرجات واخضرار الروضات، بل شعرنا أننا صرنا في شيء جديد لا عهد لنا به.

في الدروب السويسرية

أوغلنا في سويسرا فانكشفت أمامنا الجبال الجميلة تتعالى دهماء بالشجر الكثير، وانبسطت الوهاد الخضراء بالعشب النضير، وكنا نمشي في صميم الجبال فلم نكد نبرح (بور انتروي) حتى دخلنا في نفق طال علينا وطال إلى أن خرجنا منه لنبصر مشاهد الطبيعة الفتانة، لقد كنا نسير في سفح الجبل الشجير وتحتنا الأودية الحانئة تلمع فيها الأنهار والبرك ووراء الأودية الجبال تعتلي بغاباتها المنسقة أبدع تنسيق، والقرى مبثوثة على الضفاف وفي الوهاد وفوق التلال بأسطحتها الجميلة وجدرانها البيضاء، ولم يكن يزعجنا شيء كهذه الأنفاق المظلمة الطويلة التي كانت بين الحين والحين تحجب عنا تلك المناظر الرائعة.

لقد كنا نطل من نوافذ القطار فيلفح برد الصباح وجوهنا ولكننا ننسى لفحات البرد أمام التمتع بهذه الطبيعة السويسرية فنظل مطلين من النوافذ مطلقين البصر في كل ناحية. وإذا كانت يد الإنسان قد نظمت الغابات، فإن الخالق قد أغدق على هذه الطبيعة الكثير من التنظيم الموهوب مما يعجز عنه تنظيم الإنسان. فرصفت الجبال رصفاً بديعاً، وصفت الهضاب صفاً أنيقاً، ثم جاء الإنسان فاستغل ذلك أحسن استغلال فأتت جنة الأرض فريدة في الدنيا! ولقد كنا نرى حتى الآن أن معظم القرى ليست في القمم ولا بالسفوح بل في المنبسطات والبطائح، ولما لاحظت ذلك قال رفيق سويسري: إن القرى لم تكن في الأعالي لعدم وجود الماء، وكانت تضيق أحياناً رقعة الطريق فنصير في مضائق صخرية هي سفوح الجبال وقواعدها يتخللها ويعلوها الشجر الغضيض وقد تذهب الصخور فنصير في مضائق من الغابات تتدرج علواً حتى القمم. ولقد كانت لا تنقطع بل كانت لطولها وتتابعها تبعث السأم فنحن الآن في نفق ابتدأ ولم يعد يعرف كيف ينتهي. ويظهر أننا نخترق جبلاً بعيد المدى خرجنا منه فجأة إلى بلدة جميلة تقع في حضن الجبل الشجير وتمتد منها بلدان وقرى إلى كل جانب، وهنا أبصرنا لأول مرة

في أوروبا حقول (التبغ) وقد اخضرت أوراقه وتفتحت أزهاره، لقد وصلنا مدينة (بيه ن Bienne) فإذا هي مدينة المعامل وكانت تنتشر على السهل في حجر الجبل وفوقها على الذروات بين الحرجات بعض القرى.

وترك القطار (بيه ن) ومشى باتجاه معاكس لاتجاهه الأول فلم نلبث أن عبرنا نهر (الآر) سائرين في منبسطات رحيبة خضراء كانت فيها الجبال والهضاب قد ابتعدت عنا، وقد أصبحنا نشعر باشتباك اللغات وصرنا نسمع الألمانية وغير الألمانية من لغات سويسرا المختلفة، وكنا نمشي في عمران وجمال متصل لا يهي ولا ينقطع، ونسير بين غابات وخضرة متتالية لا تنتهي ولا تنقضي إلى أن طلع لنا نهر الآر من جديد وكنا قد دنونا من (برن). وفي الساعة الثامنة، كنا ندخل برن فنعبر جسراً على نهر الآر ونسير خلال البلدة إلى المحطة فأبصرنا الجنود السويسريين بألبستهم الجميلة ورأينا شوارع العاصمة وجسورها النظيفة وأجراف النهر الخضراء المنسقة، ثم عاودنا السير في القطار مارين في الضواحي الجميلة مبتعدين عن برن وماشين كما كنا نمشي منذ دخول سويسرا في الطبيعة العجيبة والعمائر الأنيقة حتى بانت لنا في أقصى البصر شواهق الجبال وكنا نمشي إليها حثيثاً وهي تتجلى قليلاً قليلاً ولمع لنا الثلج في أعاليها أبيض ناصعاً، وها هو (الإكسبرس) يدني كل قاص وها هي الجبال تقترب بعد بُعد فيظهر الشجر في الأسناد والأصواح وتتعرى الذروات إلاّ من الثلج اللماع.

ألا ما أعجب هذه الجبال وما أبدع تكوينها الهندسي فبعضها مثلثات وبعضها مستطيلات وقمم بعضها مثل الحراب، وما أعجب هذا الوشي الجميل الذي يزينها فهذه الغابات التي تتسلق صفحة الجبل فتطرزها بالخضرة لا تحسب إلاّ أن أنامل مصور قد رسمتها على هذا الشكل المختار فجعلت منها مثلثات مطبوعة في كل جانب.

ثم وقفنا في بلدة (تون) الواقعة أمام الجبال ثم مشينا عنها فكنا نزداد قرباً من الجبال إلى أن ظهرت لنا بحيرة (تون) ممتدة طولاً في السفوح وعلى ضفافها المزارع والقرى والحدائق والحراج، وعلى مائها الزوارق والمراكب ومن فوقها تطل الذروات العالية. وصارت الجبال الآن تكتنفنا من اليمين واليسار والأمام بأشكالها الهندسية الشائقة، فهذان جبلان تحسبهما هرمين من الأهرام لولا أنه ليس في الأهرام أشجار مرصوفة هذا الرصف البديع!

لم أذم السرعة في السير كما ذممتها وأنا هنا في هذه الأرض في سويسرا. ولقد وددت لو أن ناقة الأجداد هي التي تطوي بي هذه المشاهد، لا هذا (الإكسبرس) الخاطف الذي لا تكاد تتعلق عيناك بحسن حتى ينتزعك عنه انتزاعاً!

خرجنا من (سبييس) فدخلنا في منطقة كادت تنسينا كل ما أبصرناه قبلها. هذه سويسرا الساحرة تبدو هنا وراء تون وسبييس في (فروتيكن) في هذا الوادي النضير في هذه الجبال والجداول في هذه الثلوج والقمم في مجرى نهر (انشليكن) وقد حفت به الرواسي واكتنفته المروج وأطلت عليه الصخور وأشرفت من فوقه الأشجار وتناثرت حوله البيوت! إنها لوحة فنية بدأت ساعة دخولنا سويسرا ولا تزال تمتد أمامنا وكلما ازداد امتدادها ازدادت إبداعاً. فنحن لا نكاد نترك بلدة (كانده ستك) ثم نقف على محطة نسير

بعدها إلى نفق حتى ينكشف لنا النفق إلى يميننا عن واد أين منه فروتيكن ووواديها ونهرها وجبالها، إنه واد عجيب يجري فيه النهر وتنتشر فيه القرى وتشرق عليه من الجبل مشاهد تفوق كل تصور وتخيّل.

مشى الوادي مع القطار أو مشى القطار معه وكلاهما يسابق الآخر فلا يسبقه ومشى يرافق الوادي جمال تغيب النفس في روعته ومشت ألوان من الحسن تتماوج في كل صوب على الأعالي والوهاد والمسارب حتى طلعت في قلب الوادي مدينة (فييج Viege) الصناعية بمعاملها ودخانها وطلع حولها النهران الجميلان نهر (شالتين) ونهر (بن) اللذان يلتقيان في طرفها ثم يصبان في نهر الرون. ثم كنا نوازي في مسرانا نهر الرون ونعاكسه في اتجاهه فندنو أحياناً منه ونبتعد أحياناً عنه حتى وقفنا على بلدة (بريك) التي تقع عن ضفة نهر الرون والتي هي إحدى مدن هذا الوادي الغاني. وكان الخط الحديدي يشطرها شطرين يقع كل واحد منهما في سفح جبل من جبال الوادي. وطال وقوفنا في بريك وحمدنا هذا الطول، ثم جاءنا فيها الموظفون الإيطاليون يطلبون جوازات السفر إذ إنها آخر مدينة سويسرية وبعدها سندخل الحدود الإيطالية.

في الدروب الإيطالية

ولم نجتز عن بريك سوى عشرين دقيقة حتى كنا قد انتقلنا من بلاد إلى بلاد وحتى كنا داخل إيطاليا نطالع فيها وجوهاً جديدة وألواناً جديدة فإذا بنا نصل أول بلدة إيطالة (إيزل) وكانت المناظر لا تزال متشابهة ولكن لم يعد لها روعة المناظر السويسرية وهنا جاءنا رجل الجمرك الإيطالي بملابسه العسكرية وقبته ذات الريشة الطويلة، ثم رأينا بعد ذلك هذه الريشة تعلو قبعات أصناف عديدة من الجند بل رأينا الجند الإيطالي يتأنق ببزاته أيما تأنق.

ورحنا نوغل في الأرض الإيطالية فيزداد الفرق بينها وبين الأرض السويسرية ومع أننا الآن نسير في واد بين جبلين وبالقرب من أنهار، فإننا لم نعد نبصر شيئاً من ذلك الطابع السويسري الفريد. وإني لا أدري أكانت الطبيعة وحدها هي التي ميزت سويسرا وأفاضت عليها ذاك الثوب الأخاذ فظلت متميزة بين البلاد، أم أن الطبيعة واحدة ولكن اليد السويسرية هي التي استطاعت أن تعمل حتى تفردت أرضها وتميزت؟

كنا نسير في قلب الوادي الرحب فنرى نهراً متصل المجرى، فقال رفاقنا إنه ليس بنهر، بل هو ذوب الثلوج يجتمع فيجري كأنه نهر كبير. ثم طلعت لنا بحيرة (ميركوزو) تتغلغل بين الجبال في مواقع جميلة تحوطها الغابات والمروج والقرى، ثم تتابعت المشاهد الرائقة إذ إننا صرنا في سهول لومبارديا الشهيرة، فمررنا ببحيرة (ماجوره) العظيمة التي تزين هذه المناطق وتقوم على ضفافها المدن الجميلة والقرى البديعة والجبال الشجيرة. ووقف القطار قريباً من ضفتها في بلدة (بافينو) فتراءت لنا البحيرة بامتدادها الواسع وقد ظلت ترافقنا وقتاً طويلاً فنرى فيها الجزر العامرة بأجمل القصور والدور. ثم وقفنا في مدينة (ستريزا) على ضفة البحيرة وحسبك في اتساع هذه البحيرة أن تكون ضفافها مدناً يقف عليها (الإكسبريس) وقد حدثنا رفاقنا الإيطاليون أن شواطىء البحيرة مصايف عالمية تعج اليوم بروادها من كل مكان. وقد ظلت البحيرة ترافقنا وستريزا تمتد على ضفتها إلى أن حجبها عنا نفق طلعنا بعده نعدو على الشاطىء

عدواً بهيجاً فنساير البحيرة والبحيرة تسايرنا مارين ببلدانها المتتابعة إلى أن غابت عنا ولكن الجمال لم يغب، بل ظللنا في جو نضير تتلاحق فيه الغابات والمياه والمروج والحقول والبلدان، حتى أقبلنا على مدينة (ميلانو) التي كانت تنتشر أمامنا في السهل الواسع. ثم سرنا عنها في سهول خضراء لا نرى فيها أثراً للجبال وكانت الجبال قد انقطعت قبيل ميلانو وظللنا في السهول البعيدة نشقها موغلين حتى صرنا نرى بعض الجبال إلى اليسار ثم لمعت لنا بحيرة (كارد) في السفوح بمدنها وقراها الكثيرة وبما فيها من قصور وغابات وجنائن. ومن وراء ربوات البحيرة كانت تطل الجبال الشواهق التي عرفنا فيها مطالع جبال الألب، وجاء الأصيل ونحن لا نزال في السهول الخضر نجتاز الترع والقنوات والمدن والقرى حتى أقبل الليل ونحن لا نزال فيما كنا فيه. وحوالى الساعة التاسعة شعّت لنا أنوار البندقية (فينيسيا).

في البندقية

نزلت من القطار ليلاً في محطة البندقية (فينيسيا) وليس في ذهني أية فكرة عما يمكن أن أقطع فيه هذا الليل ولا عما يمكن أن ألاقيه في هذه المدينة الفريدة. وكنت أحسبني سأستسلم إلى نوم عميق أعيد به إلى جسمي بعض الراحة التي فقدتها طيلة ليل ونهار وبعض ليل قضيتها في القطار من باريس حتى فينيسيا. ولم أكن أدري أن هذه الليلة هي من ليالي فينيسيا المشهودة وأنها الآن في عيد من أعيادها الزاهرة وأن التقادير شاءت أن أصل إليها في يوم يقصدها فيه الناس من كل مكان.

لم أكد أخرج من المحطة وأمشي قليلاً حتى رأيت أني بلغت ضفة تحسبها لأول وهلة ضفة نهر ثم تتذكر أنك في فينيسيا وأن هذه المياه هي فروع البحر المتداخلة في البر. وحين وقفت على الضفة كنت كمن يقف على رصيف الشارع بانتظار وسائط النقل، وما وسائط النقل هنا سوى المراكب والزوارق، وما الشوارع هنا سوى القنوات. وجاء مركب كما يجيء الترام أو الباص عندنا فصعدت فيه وجلست بين جماعات الجالسين، ومشى المركب بنا يشق القناة، فلم نلبث أن فوجئنا بالمشهد العظيم. لقد كنا نمشي في القناة الكبرى وكان يمشي في اتجاهنا موكب يتحقق فيه القول بأن فينيسيا مدينة الأحلام، فما كنت أحسبني إلاّ في حلم رائع يتجلى لعيني في هذه الساعة من الليل، فقد كانت الزوارق تغطي صفحة القناة من الضفة إلى الضفة، وتمتد طولاً إلى نهاية البصر ولكن أية زوارق؟ إنها زوارق مكسوة بالأغصان والأزهار ومزينة بالمصابيح الملونة الحمراء والخضراء والبيضاء والصفراء ترتفع منها الأنغام والألحان وتمشي وئيداً في موكبها الخيالي، كما كانت المصابيح الملونة تتدلى سلاسلها من الجسور أو تنتشر فوقها، بل لقد تألق كل شيء بهذا النور الباهت السحري: البنايات والمقاهي والجدران، وعادت الدنيا تشع ابتهاجاً بعيد البندقية، ومضى موكب الأحلام بروعته وجماله وخلف وراءه زوارق منفردة تتتابع لتلحق به وبقينا نحن غارقين في حلمنا اللذيذ!

وعندما وصلت الفندق لم يكن همي إلاّ أن أعود للاستمتاع ببقية هذا الليل فقد نسيت التعب والإجهاد ومضيت إلى مركب ينقلني إلى ساحة القديس مرقص، والمراكب هنا كما قلت تقوم مقام السيارات والتراموايات في بقية المدن، وقد مشى المركب تشع أمامه على الضفاف أسطع الأنوار حتى حط بنا على شاطىء الساحة، فصعدت إليها في جموع يزحم بعضها بعضاً وأبصرت الكنيسة الكبرى، كنيسة

القديس مرقص وقصر الدوقات والسجن وجسر التنهدات وبرج الأجراس وما في هذا كله من فن بيزنطي قوطي. ثم مشيت على غير هدى بين هذه الجموع الحاشدة الذي كان بعضها ذاهباً وبعضها آيباً في أزقة وأسواق ضيقة يتدافع الناس فيها بالمناكب حتى وصلت إحدى القنوات، وكانت الساعة قد بلغت منتصف الليل، فإذا المشهد الذي رأيناه قبلاً في القناة العظمى نرى مثله هنا وإذا بموكب الأحلام واقف وإذا بنا نراه من أوله بعد أن حرمنا رؤية المقدمة هناك. وكانت المقدمة قبة من نور سطحها أحمر وأعلاها أخضر وطرفها أصفر وتحيط بها أقواس من نور متعدد الألوان، ومن ورائها الموكب الرائع يتهادى فوق الماء وقد اكتسى كل (غندول) غلالته النورانية وحلته الخضراوية وانبعثت الأناشيد من القبة والناس على الضفاف وفي الماء سكوت مصغون بكل جوارحهم. ثم تحرك الموكب ومشت المقدمة الوهاجة وتأهبت صفوف (الغنادل) تسير ثم زحفت تغطي القناة من الضفة إلى الضفة. وقد كنت تتطلع إلى الماء فتحسب أن البندقية كلها فوق الماء. وتتطلع إلى الضفتين فتحسب أن البندقية كلها هنا، والحقيقة أن البندقية كانت مقسمة هنا وهناك.

لا أدري إلى أي ساعة امتد سمر البندقية تلك الليلة ولكن الذي أدريه أن الإعياء كاد يغلبني، فعدت إلى الفندق أقضي بقية الليل. وأني في الصباح قمت للتعرف على المدينة التي تهفو إليها النفوس في كل مكان، فركبت المركب من جزيرة الليدو فمشى بنا فوق الماء، وكان يقف على المحطات فينزل فيها من يشاء، أو يصعد منها من يشاء كما يحدث في الباص أو الترامواي. وكان يجري بنا خلال المدينة فنرى كيف تتشعب هذه المياه وكيف تشطر البر وكيف تتكون الجزر وكيف تنفصل وكيف تتصل، ونبصر الشوارع المائية وقد انسابت فيها أفواج الغندول تنقل الناس إلى المتاجر والبيوت.

لقد كنت أتخيل للبندقية في ذهني صوراً متعددة ولكن هذه الصور جميعها قد غابت ساعة أبصرت البندقية، ولم تكن واحدة منها لتنطبق على حقيقتها. فهذا هو المكان الوحيد الذي لا يستطيع الذهن أن يتصوره: هذه البيوت الجزائر، وهذه المداخل والمخارج وهذه الجسور والقناطر وهذه المراكب والغنادل هذا التكوين العجيب، بل هذا العيد الطروب، بل كل شيء في فينيسيا. ورحت أمشي في الأزقة والأسواق فكانت تتسع أحياناً وتضيق أحياناً حتى قد تبلغ أقصى الضيق واتساعها وضيقها يتبع ضيق الجزيرة واتساعها فبمقدار ما تتسع بقعة اليابسة تتسع الأزقة والعكس بالعكس. والقنوات أيضاً تضيق وتتسع وأعظمها القناة الكبرى. وهذه القنوات تتشعب من البحر في قلب المدينة فتفصل بين أجزائها فيعود كل جزء جزيرة مستقلة تربطها بالجزر المجاورة قناطر وجسور، وقد تنفصل بعض الجزر لاتساع رقعة البحر فلا تربطها بالبندقية إلاّ المراكب كما هو الحال في جزيرة الليدو التي تقع في مدخل الأدرياتيك وتمتد طولاً حتى تبلغ ثماني كيلومترات. وقد جعلها الإيطاليون مصيفاً عالمياً أقاموا فيه أضخم الفنادق وأجمل المسابح وأوسع الشوارع وأعذب الشواطىء، وانتشرت فيه الحدائق والبساتين، ولاتساع هذه الجزيرة نظمت فيها خطوط للباصات تنقل المتنزهين من مكان إلى مكان.

لقد كان هذا النهار نهار الأحد فرحت في أصيله أجول في أزقة البندقية، فكنت لا أترك قنطرة حتى أصل إلى أخرى وقد تصغر بعض القناطر حتى تكون معبراً بسيطاً، وقد تكبر حتى تكون جسراً عظيماً. وكنت أنتقل من زقاق ضيق إلى سوق واسع، إلى باحة رحبة، فأبصر الناس محتشدين بين مشاة

يتنقلون، وبين جلوس في المقاهي أو قعود على أبواب بيوتهم قد اتخذوا من كراسيهم مقاعد ومن القنوات متنزهات، ووفروا على أنفسهم الانتقال إلى المقاهي ودفع المال إلى أربابها.

وجاء الليل فاستأنفت تجوالي، فكنت أرى الناس كما رأيتهم في الأصيل زرافات زرافات يتجولون أو يجلسون في المقاهي أو أمام الدور، وطبيعة المرح والانبساط تبدو على قسماتهم وتلمع في عيونهم ،فلم أعجب كيف أن هذا الشعب لم يحارب وكيف أنه لم يكد يرى المعارك حتى ألقى السلاح وولى الأدبار، بل عجبت كيف خطر لموسوليني أن يجعل من هؤلاء الناس رجالاً محاربين. من هو الذي يستطيع أن ينتزع هؤلاء الناس من ضفاف هذه القنوات ومن بين هذه الجسور ومن هذا الجو الشعري الرقيق ليقذف بهم في أتون الحرب. إنهم قوم يسبحون في أحلامهم ولا يمكن أن يواجهوا واقع الحياة وما في هذا الواقع من أهوال وفواجع.

في قطار الليل

أطللنا على سويسرا من فرنسا في مشارق الصبح ثم مضينا فيها عابرين مدينة لوزان وما وراء لوزان حتى بحيرة ليمان، ثم إلى الحدود الإيطالية موغلين بعد مدينة ميلانو في سهول (بيه مونتي) و(لمبارديا) وفينه تو الخصبة الخضراء إلى أن أفضى بنا الأصيل إلى شاطىء البحر في مشارف فينيسيا الجميلة.

وفي الليل البهيم كان القطار يزمجر في اتجاه (تريستا) ونحن نطالع في حلك الظلام مصابيح المدائن مبثوثة في كل صوب، ونمتع الطرف بمشاهد الليل المنطلقة من خلال الدجى المعتكر حيناً أو النور المنتشر حيناً آخر، حتى لاحت لنا في منتصف الساعة العاشرة أضواء تريستا نفسها مترامية على مد البصر. وأخذنا ندنو منها فتزداد جمالاً ووضوحاً ثم شعت منارتها الشاهقة ودخلنا ضواحيها ووصلنا محطتها ونزلنا إليها.

هذه تريستا

هذه تريستا بين أيدينا لساعة وبعض الساعة، ثم نوغل بعدها في المراحل البعيدة الشاسعة. وها نحن نبادر إلى «ساحة ليبرتا» في جوار المحطة فلا نعدوها، وها هي الساحة بشجرها العالي وحدائقها الرحيبة، وها هم الرجال يمرون بطلائع اللحى السوداء المطلة من أذقانهم، على الأسلوب المنتشر في إيطاليا من الاكتفاء بحلق العذارين وإطلاق اللحية بعض الإطلاق، وكأن رجال تريستا يريدون أن يدلوا على عراقة مدينتهم في الطابع الإيطالي فاتبعوا أسلوبه في اللحى ليذكروا الغريب أنه في إيطاليا.

وها هي الدقائق تمر سراعاً وموعد الرحيل يدنو قبل أن تنطبع في الذهن صورة عن تريستا.

على أبواب يوغوسلافيا

وها هو القطار يمضي بنا في انتصاف الليل من تريستا فنمر بأنوارها المتدرجة على التلال من جانب والممتدة على البحر من جانب آخر، وها نحن نشق سواد الدجى مهومين تارة ومستيقظين تارة حتى بلغنا مدينة (سيزانا) فبلغنا بذلك مناطق الحدود اليوغوسلافية.

ووقف القطار في سيزانا طويلاً يستبدل رجالاً برجال وسلطة بسلطة، وما كان لنا أن ننزل في سيزانا

في هذا الليل، فرحنا نعالج الوقت الثقيل بالنوم تارة والتطلع تارة حتى مضينا عن سيزانا لنطلع على مدينة (لوبيانا) عاصمة جمهورية سلوفينيا إحدى الجمهوريات الست التي يتألف منها الاتحاد اليوغوسلافي.

اخترق القطار بنا منازل لوبيانا وقد متع الضحى وارتفع النهار، فبدت لنا المدينة جميلة وظهرت أنيقة المنازل والحدائق. ثم أخذ في السهول الخضراء عابراً نهر (لوبلانسا) ومارّاً في المسالك الزاهرة وبين التلال الشجراء والأنهار الدافقة ومجتازاً وادياً من أنضر أودية الدنيا وأزهاها على ضفاف نهر (الساف) وبين روابيه وغاباته ومزارعه وقراه.

نساء يوغوسلافيا

وتطلعنا إلى الناس في هذا الوادي وفيما وراء هذا الوادي فإذا بنا ندرك أن النساء هنا هن الكادحات كدحاً يتفردن به ويتجشمنه صليبات العود!

فمنذ طلع الصباح ومضى القطار يضرب في شعاب يوغوسلافيا وسهولها كنا نبصر أن المرأة هي ربة العمل في هذه الحقول الخضراء، وأن على سواعدها تقوم الحياة هنا في هذه المزدرعات الطويلة العريضة. لقد شهدنا المرأة تضرب بالمسحاة والمجرفة وتسوق العربة، بل رأيناها تقوم بالعمل الشاق الذي لم نكن نحسب أن ساعديها ينهضان به، لقد شهدناها تحمل الحطب الصلب على ظهرها ورأيناها تقذف بالراحة الحديدية الحصى الممزوج بالتراب على خيوط الشباك لتنقيته، وأبصرناها تنقل الأخشاب الضخمة وتكدسها، ورأيناها تحطم بالفأس كتل جذوع الشجر، بل لقد رأينا فتيات دون العشرين يضربن الأرض بالمجارف والمساحي.

أنوار بلغراد

ها نحن نطل على زغرب، فتلوح لنا منها جوانب رأينا فيها البناء الشاهق والحدائق العامرة والغابات الدهماء كما رأينا فيها بيوتاً أشبه بالأكواخ.

وكان المساء يدنو والقرى اليوغوسلافية تنتشر متلاحقة في صميم السهول أو سفوح التلال أو رؤوس الهضاب، لا يكاد يفصلها بعضها عن بعض حدّ ولا فاصل، حتى لتكاد تستحيل الأرض إلى مزرعة واحدة بعيدة المدى.

وفي ظلام الليل الدامس أطلت أنوار بلغراد منتشرة على السهول والتلال، ثم عبرنا جسراً حديدياً ضخماً على نهر الساف.

ثم لم نلبث أن كنا في بلغراد.

هنا الشرق

عندما تجتاز الحدود الإيطالية وتصل إلى يوغوسلافيا تكون قد انتهيت من أوروبا التي عرفتها من قبل. وكلما أوغلت في داخل يوغوسلافيا ازددت يقيناً بأنك لم تعد في أوروبا.

فأنت ترى وجوهاً تعودت أن ترى أمثالها في شرقك القريب، وليست الوجوه وحدها هي التي توحي لك بهذا، فالذي لم تكن تراه إلاّ في بلادك، والذي لم تشاهد له مثيلاً لا في فرنسا ولا في سويسرا ولا في إيطاليا، ستشاهد أمثاله هنا.

فأنت منذ أن تترجل من القطار، ويستقبلك الحمالون ويمضون بمتاعك إلى الفندق القريب، تعرف أن هذا لا يجري إلاّ في بلادك وأن الحمّالين في أوروبا لا يحملون إلاّ بأديهم أو على عجلاتهم، وتنتهي مهمتهم بإيصالك إلى باب المحطة. ولكن الحمال هنا كما هو عندك يحمل الحقائب على كتفه، ويتطوع بإبلاغك أن الفندق الذي تطلبه غير بعيد، ويمضي بك إليه مثقل المنكبين. ومنذ أن تلقي أول نظرة على الشارع وترى صفوف ماسحي الأحذية، تعلم أن هذا أيضاً لا يجري إلاّ في بلادك.

ولعل من الطريف الذي يذكرك أنك صرت في الشرق: أن الوحدة النقدية هنا هي (الدينار). الدينار الذي تسمعه يتردد على ألسنة الناس في بغداد وعمان وتونس والكويت، يتردد على ألسنة الناس في بلغراد، مع فارق واحد هو أن الدينار هنا هو الوحدة الصغرى للنقد، في حين أن الدينار عندنا هو الكبرى!

في بلغراد

تتعالى هذه المدينة الجميلة (بلغراد) على الربوات ويطوف حولها النهران الكبيران: الساف والدانوب، فيوغلان في الطواف حتى يلتقيا تحت راية (كاليماكدن)، وتقوم داخل المدينة مبانٍ فخمة، وشوارع رحبة تتميز بنظافتها واتساعها وكثرة أشجارها. وتتداخل في الساحات والشوارع الحدائق زاهية ناضرة.

وفي خلال هذه الشوارع والمنازل والحدائق تلقى شعباً من أنبل الشعوب وأكرمها وأكثرها ترحيباً بالغريب وإعزازاً له، شعباً لا تلبث منذ أن تلقى الواحد والاثنين منه أن تحبه وتحترمه، فإذا اختلطت به لم يزدك الاختلاط إلاّ حباً واحتراماً له، شعباً مكافحاً صبوراً يكابد الإعسار الذي لا يستحقه نبله وأريحيته.

في شوارع بلغراد

وفي دروب بلغراد يهدر الترام فيذكرك بترام بيروت السعيد الذكر. ولكن الذي ينسيك بيروت هو سيارات بلغراد فمشكلة السير التي أعيت العقول وحيرت الألباب في بيروت حلّت نفسها بنفسها في بلغراد. فالسيارات هنا أقل عدداً من أن تحدث مشكلة سير. إنك لا تحس لها أثراً في كثير من الشوارع حتى الكبرى منها، فضلاً عن الأحياء والأزقة. فإذا أحسست هذا الأثر كان أثراً ضئيلاً.

وفي حدائق بلغراد وشوارعها ترى المرأة عاملة كادحة، تراها كما رأيتها في الحقول على طريق بلغراد. إنها هنا هي التي تكنس الحدائق والشوارع، وتضع القمامة في عربة تدفعها أمامها. وقد يشاركها الرجل في هذا العمل، وقد تشارك هي الرجل في مسح الأحذية.

وإذا جاء الأصيل ودنا الغروب خرجت جموع البلغراديين إلى الشوراع والحدائق متنزهة. ففي شارع (كينز ميخائيل لوفا) رأيت الناس كأنهم في يوم الحشر كثرة واحتشاداً يمضون في الشارع الطويل حتى ينتهوا إلى حديقة كاليماكدن المطلة على ملتقى النهرين.

وليس كالبلغراديين، بل كاليوغوسلافيين جميعاً من يحفل بالغريب ويعنى به، فإذا سألت لم يجيبوك بالقول، بل أردفوا القول بالعمل فمضوا يدلونك على الطريق. وهم على جانب ذلك يدعونك إلى بيوتهم، ويجهدون في إرضائك والترحيب بك.

وتفجعك وأنت تسير في الدروب مشاهد أثار الرصاص وشظايا القنابل مسجلة على الجدران كوارث الحرب وأهوالها، وما عاناه منها هذا الشعب الباسل.

وإذا كانت وحدة الزي هي السائدة هنا فإنك لا تعدم أن تشهد إنساناً يرتدي الطربوش وآخر يرتدي (القلبق). أما نساء الفلاحين فإنك لا تراهن إلاّ والمناديل السود متدلية من رؤوسهن ومعقودة على أعناقهن.

الجندي المجهول

وعلى قمة (أفالا) الصاعدة في العلاء، في الضاحية البعيدة، يرقد جثمان جندي يوغوسلافيا المجهول.

ومضيت إليها في «باص» من الباصات العامة في جمع من سكان الضواحي، فما حسبتني أبداً أسير في بلد أوروبي. فإذا استثنيت هذه الشقراء المرجلة الشعر، فإن كل من في الباص بعيد عن مظاهر الحياة الأوروبية.

ومضى الباص في طريق يخترق الغياض والحقول. ثم انطلق في البرية الخضراء الواسعة، فكنا نمر بالقرويين مشاة على الطرق، ونمر بالمرأة كما مررنا بها من قبل عاملة جاهدة، إنها هنا تسوق العربة بقوة وحزم.

وعلى سفح (أفالا) رمى بنا الباص ومضى بركابه إلى شقته البعيدة. ومضينا نحن على الأقدام صعداً صعداً إلى الذروة العالية، فإذا هي تطل على البطاح والربى والوهاد المتماوجة إلى أبعد مدى، وإذا بالحرجات تطوف بها من كل صوب.

أما الضريح فهو من المرمر الأسود الجميل الدقيق الصنع، تقوم على بابيه تماثيل رخامية لثماني نسوة يوغوسلافيات بملابسهن الوطنية يمثلن المقاطعات اليوغوسلافية الثماني: الصرب، والجبل الأسود، وكرواتيا، وسلوفينيا، ومكدونيا، والبوسنة، والهرسك، ودلماسيا.

ولم تكن مكافأة للمرأة اليوغوسلافية على كدحها أبلغ من هذه المكافأة الكريمة التي جعلت منها رمزاً ليوغوسلافيا فوق ضريح جنديها المجهول، على تلك الذروة الشامخة.

ليل بلغراد

والليل هنا هو الآخر شرقي وقور، ليل هادىء ساكن، لا صخب فيه ولا ضجيج، لا تسكع في الشوارع، ولا تغامز في الطرق. وفيما عدا تلك الغابات المظلمة التي تتحرك أشباحها تحركاً تستطيع أن تفسره كل تفسير، وتستنتج منه كل استنتاج! وفيما عدا تلك المقاهي القليلة المتباعدة، وفيما عدا هذه المعازف المنفردة، فإن الليل بسيط وقور!

فلقد مضيت أستجلي ظلام هذه المدينة الجميلة الرقيقة، وأبحث عن مظاهر الدجى في هذه الشوراع الرحبة النظيفة، وأوغلت فيما حسبته أكبر جوادها وأعمر دروبها، فما كان يطالعني إلاّ سكينة قارة ترين على حواشي الليل من حيث ما طلع لها الليل. فالمقاهي التي عرفتها في العواصم من قبل سيدة الشارع، كان لا يحفل بها هذا الشارع.

إن بلغراد لا تؤمن بالمقاهي، وما إن أشار عقرب الساعة إلى الحادية عشرة حتى كان ذاك القليل منها قد كاد أن يقفر، أو هو قد أقفر!

وإن كان من ضجيج لليل في بلغراد فهو هنا في أطراف المحطة وحول أبوابها وداخل جدرانها. وإن كان للمقهى من سيادة في بلغراد فهي هنا في هذا المقهى المناوح للمحطة. إن هذا المقهى حافل، ولكن لا بالعاطلين اللاهين، بل بالكادحين الجادين، بهؤلاء القرويين المتعبين الذين حملتهم الحاجة إلى المدينة، فلما قضوا حاجتهم أقبلوا على المقهى بجموعهم ينتظرون القطار، مسترسلين شيباً وشباناً بنوم انكفأوا فيه على المناضد أمامهم. ومن لم ينم كان بادي النعاس ظاهر التعب.

لم يسعد مقهى من مقاهي الدنيا بمثل ما سعد به هذا المقهى (البلغرادي) حين استطاع أن يريح أولى الناس بالراحة، وأن يعنى بأجدرهم بالعناية.

ومضيت أشق سواد الدجى وأخترق حجب الظلام وأتملى من بلغراد ولياليها الوقورة. فطلعت على صوت لمس أعمق حواسي وأثار أهدأ كوامني. لقد كنت حيال مطعم شعبي هو أيضاً مشرب شعبي، وكانت الموسيقى الشعبية والغناء الشعبي يتعاليان منه كأرق ما تكون الموسيقى الشعبية عند مثلي على الأقل. إنهما موسيقى وغناء شرقيان لا يكادان يتميزان عن الموسيقى والغناء التركيين في شيء. بل لو لم تكن في بلغراد لما حسبت إلاّ أنك أمام الشدو التركي المثير.

ومضيت ثم مضيت، فإذا بي أعود فأطلع عند ناحية أخرى من نواحي المحطة، وإذا الذين رأيتهم من قبل على مقاعد المقهى مهومين نائمين، أجد لهم أخواناً هنا متكدسين على الأرض بأطمارهم البالية وأحذيتهم الرثة، وقد راحوا في سبات لعلي أجافي الحقيقة إن قلت إنه عميق، أو لعلي أجافيها إن قلت إنه ليس بعميق! وبعضهم لم ينم بل جلس على الصعيد متربعاً مفكراً!

أهؤلاء ينتظرون قطاراً؟ أم هم قد رأوا أن هذا الاضطجاع والنوم، وهذا الجلوس والقعود في هذا المكان لا يرهقانهم من أمرهم عسراً، ولا يزيدان فيما يتحملون من أنفاق؟

وما أغربني وأنا أصف ليل العواصم حين أقص عليك هذا القصص. ولعلك حسبت أني سأريك صوراً مشرقة عن الليالي المرحة الغنائية، ولعلك خبت وأنت تقرأ هذا الكلام!

إن هذه مظاهر الليل كما شهدتها في بلغراد، أما أعماق الليل القصية، وأما أغواره الخفية، فلم أهتد إليها، أو لعلّي لم أسع إليها!

ولا شك أن لليل في بلغراد أعماقاً توغل في البعد، وأغواراً تمعن في الخفاء!

مسجد بلغراد

في الطريق إلى بلغراد ونحن في القطار رآني بعض المسافرين أكتب في دفتري فتطلعوا متعجبين. ولما طال الطريق وتعارفنا سألوني عما أرسم فأدهشهم أن يكون هناك من يكتب من اليمين إلى الشمال وفي مثل هذه الحروف. ولما قلت لهم إني عربي وهذه حروف لغتي بادرني أحدهم بالقول: ما دمت عربياً «ألن تزور جامع بلغراد»، وكان الحديث يدور بالفرنسية ولفظ المتحدث لفظة الجامع كما هي مع إبدال العين همزة.

فقلت: إن من أولى رغباتي هي زيارة الجامع، ولعلك تتفضل فتعطيني عنوانه فكتب في دفتري اسم الحي الذي فيه المسجد. ولما أصبح علي أول صباح في بلغراد وضعت في منهجي أن أؤدي صلاة الظهر في مسجدها، إذ خيّل إليّ أن صلاة جماعة أؤديها على ضفاف الدانوب وشواطىء الساف ومحاني بلغراد وفي صميم يوغوسلافيا ستكون من أكثر صلواتي قبولاً عند الله. وقبل أن يحين موعد الظهر كنت في الترام أسأل عن الحي الموعود. فلما نزلت عرفت أن من أشق الأمور الاهتداء إلى مكان المسجد، إذ كان ما سجل في دفتري اسم حي كبير من أحياء بلغراد فكنت كمن يعطى اسم الصالحية في دمشق أو الكرادة في بغداد أو رأس بيروت في بيروت ليهتدي إلى ما يريد.

فمضيت في طريقي آسفاً أن لا أستطيع الوصول إلى المسجد في موعد الظهر، وعجت إلى دكان صغير أطلب ما أشرب من المبردات وتناولت زجاجة (الكازوز) ووضعت دفتري على المنضدة، فإذا بعيون البائع الشاب تتعلق بالكتابة العربية المدونة على غلاف الدفتر. ولم يلبث أن نطق باللغة التركية، كلاماً فهمت منه أنه يسألني عما إذا كنت أحسن التركية فاكتفيت بأن قلت له الكلمة الدولية التي يفهمها كل الناس (نو)، فأشار إلى الكتابة متسائلاً؟ فأشرت إلى نفسي وقلت: عربي، فلم يكد يسمع هذه الكلمة حتى اندفع إليّ معانقاً والبهجة تطفح من كل جارحة فيه. وكان ينطق بكلام إذا كنت لم أفهمه فقد عرفت ما يعنيه. لقد كان يرحب بي من أعماق قلبه، ثم أشار إلى نفسه وقال: مسلم، ثم نادى امرأة كهلة أدركت أنها أمه ومدت يدها مرحبة مغتبطة، ثم دعاني للجلوس فاعتذرت واكتفيت بأن لفظت كلمة (جامع) فأشار إلى طريق سلكته. ولكن الطريق طال فسألت أول من لقيته مقتصراً على كلمة (جامع) ففكر قليلاً وأدرك أني لن أهتدي فترك طريقه ورجع معي يقودني إلى المسجد. ولقد خجلت من نفسي وأنا أعيق هذا الكهل عن طريقه، ولم يكن لي للكلام معه من سبيل، ولما طال الطريق وتشعبت مداخله ومخارجه عرفت لماذا عاد معي هذا اليوغسلافي الكريم، فقد كان من المحال أن أصل وحدي إلى المسجد. وفجأة بدا المسجد وبدت مئذنته ودخلنا ساحته ووصلنا إلى داخله، فإذا بالمسجد خالٍ إلاّ من البنائين ينحتون فيه الحجارة وقد تصدعت جدرانه وبدت فيها الشقوق، وتكلم الدليل مع أحد البنائين ثم ودّعني ومضى، فغاب البنّاء قليلاً ثم عاد وأمامه رجل ملتح لم يكد يراني حتى فاجأني بالتحية مبتهجاً قائلاً: السلام عليكم. فسألته: أتحسن العربية؟ فقال أفهمها أكثر مما أتكلمها، فسألته عمن يكون، فقال أنا المؤذن وأنا من البوسنة، فسألته عن الإمام فقال: أذهب فأناديه، فغاب قليلاً ثم عاد يقول: الإمام لا في البيت، وفهمت أنه يسكن هو والإمام في بيتين مجاورين للمسجد، ثم أشار إلى المسجد وقال: تعميرات، تعميرات. وعلمت منه أن عدد المسلمين في بلغراد يتراوح بين الألفين والثلاثة الآلاف وأنهم

لا يسكنون حياً خاصاً، وأنهم على حال حسنة من الثقافة والتعليم. فسألته: أتقيمون الجماعة في كل أوقاتها، فقال: أنا أؤذن لكل الأوقات ولكن الجماعة تقام لصلاة العصر والمغرب والعشاء فقط. وسألته عن عدد من يحضرون لصلاة الجمعة فقال: لا يزيدون عن المائة والعشرين، وعمن يحضرون لصلاة العيدين فأشار إلى المسجد وقال هذا يمتلىء. ثم ودعته وأبديت له أسفي أني لم أستطع أن أصلي في مسجد بلغراد وعدت في طريقي متذكراً قصة ذلك الأعرابي الذي مضى إلى المسجد يصلي بعد طول امتناع فلما وصله رآه مغلقاً فعاد يقول: حسناً أن جاءت منك ولم تجيء مني! أما أنا فقد كان أسفي عظيماً لأني لم أصلِّ الجماعة في هذا المسجد، والمسجد بسيط صغير لا يعدو أن يكون غرفة واسعة فوقها قبة وأمامها صحن.

وفي المساء كنت في الترام فسألت جاراً لي عما إذا كان يحسن الفرنسية فأجابني شاب واقف: أنا أحسنها فسألته عما أقصده، ثم قال أأنت فرنسي، فقلت بل عربي فاندفع إليَّ مصافحاً ومرحباً وقال: أنا مسلم وهذا أخي وهذه زوجة أخي ثم ناداهما فأقبلا جميعاً مرحبين مغتبطين. ثم عرفت أنه مهندس وأن أخاه طالب حقوق وأن زوجته طالبة في الجامعة.

وداعاً يا بلغراد

وداعاً يا بلغراد، بلغراد الباسلة المضيافة الجميلة. وداعاً يا شارع البلقان، ويا ضفاف الدانوب، ويا قمة أفالا، ويا رياض كاليماكدن.

وداعاً أيها اليوغوسلافيون الأريحيون!

ها هو القطار الذي ألقى بنا إلى بلغراد يتهيأ ليلتقطنا منها ليلقي بنا إلى غيرها من البلاد والعباد. وها نحن على أبواب المحطة نحاول أن نستعلم مواعيد سير القطار. وها هو مكتب الاستعلامات مفتوح النافذة، ولكننا استغلقنا عليه واستغلق علينا!

إنه مكتب استعلامات ككل المكاتب في كل المحطات الكبرى، ولكن موظف المكتب لا يتكلم إلاّ اللغة الصربية، فلا هو يفهمنا ولا نحن نفهمه. وهكذا كان حين جئنا نستعلمه يحاول أن يستعلمنا، فلا نحن نستطيع أن نعلمه ولا هو مستطيع أن يعلمنا!

وحسبك بأبكمين يتحاوران، وأخرسين يتناجيان، وجاهلين يتدارسان!

ليت محطة بلغراد تعلم أنها محطة عالمية على طريق عالمي، وأنه يحسن بمكتب الاستعلامات فيها أن يحسن أكثر من لغة!

فيما وراء بلغراد

ها نحن على أعتاب القطار، وها هم الناس يتوافدون من كل صوب، وها نحن نطل على ما يلوح لنا من بلغراد الإطلالة المودعة، وها هو قروي يوغوسلافي ينطلق من نافذة القطار برأسه ليودع بلغراد وداعاً حافلاً، فيمسك «شبابته» بكلتا يديه ويرسل في النسمات أنغامها الشجية.

إنه هنا في محطة بلغراد كذلك القروي في جبل عامل، هناك على البيدر وفي المرعى!

ها نحن نجاوز الأرض اليوغوسلافية فيما وراء بلغراد كما جاوزناها من قبل في الطريق إلى بلغراد. وها نحن نمشي في الخضرة المتماوجة، على التلال حرجات مديدة، وعلى السهول مزارع بعيدة. وها نحن نعود من جديد إلى حقول الذرة المخضوضرة، ها هي لا تنفك رفيقة الطريق! إنها الركن الركين لهذه الأرض، والثروة العتيدة لهذا الفلاح. إنها فيما بدا لنا الموسم الأول والأخير لهذا البلد. وإذا اختلفت الأرض فيما بعد بلغراد عما قبلها في شيء، فهي إنما تختلف في أنها كانت من قبل مسرباً لنهر الساف، ومجرى لأمواهه الروية الثرة. وأما هنا فلا ساف يندفق رقراقاً في الأودية النضيرة ولا ماء يندفع خلال الشعاب والهضاب، بل هنا ماء ساكن قار متواضع. هنا ماء الآبار يمتح طوراً بالأيدي في «السطل» متحاً بطيئاً لري الشفاه، وطوراً بأدوات بدائية بسيطة لري التراب، التراب الذي لا يتجاوز بيوت القرية ومحاجرها القريبة لاستنبات بعض الخضراوات.

في صميم يوغوسلافيا

ها نحن في صميم يوغوسلافيا، نعدو فيها عدواً ونمضي فيها قدماً، مطلين من نوافذ القطار على ما ينتهي من مشاهد هذا الشعب الكريم، فنشاهد على الطريق نساء ورجالاً بالملابس الصربية الوطنية، وقد مشوا جميعاً حاملين بالأيدي أو على الظهور ما جلبوه من المدينة من متاع، وماضين كما يمضي العائدون من أسواق القرى الأسبوعية عندنا، من سوق الخميس في بنت جبيل، أو سوق الاثنين في النبطية، مشياً على الأقدام إلى قراهم ومزارعهم.

ألا ما أروع هذه الطفلة النضيرة، أنها تمشي بين ذويها مرفوعة الرأس شامخة الأنف، تمشي بقدمين صغيرتين إذا كان عليهما أن تمشيا، فإنما في مسارب القرية ومنعطفاتها، لا على هذه الدروب البعيدة الطويلة. إنها فلاحة المستقبل، تتفرس في هذه الحقول التي ستكون يوماً ميدان كدحها!

ها نحن نمضي في سبيلنا حتى نبرح السهول ونبلغ منطقة كاد ديليسيا بين الجبال الشجراء على محاذاة نهر (موراوا) ماشين معه في الوادي النضير إلى أن ينتهي بنا السير إلى مشارف مقدونيا ثم نوغل في سهولها الرحيبة المديدة.

هذه مقدونيا بين أيدينا، مقدونيا التي اصطرع فيها الترك والصرب في الحرب البلقانية أيما اصطراع، ثم انتهت صربية الحكم، وإن احتفظت من ماضيها ببقايا لا تزال ماثلة في هؤلاء السكان الأتراك، وفي هذه المآذن البيض المتعالية فوق المساجد في القرى والدساكر والمدن.

هذه مقدونيا التي بكاها «شوقي» وهو يبكي (أدرنة) بكاءه الموجع. وهذه مدينة (كومانوفو) تطلع لنا بأبنيتها الشامخة وعماراتها الأنيقة الباذخة ورياضها الزهراء ومئذنتها السمراء، وها هي القرى تتعاقب علينا كبيرة وصغيرة. وهي لا تختلف عن قرانا إلاّ في أنها مهما قلَّ عدد منازلها وضؤل شأنها فلا بد من أن تسقف بالقرميد الأحمر، ولا بد من أن تتفرد بعضها عن بعض، ولا بد فيها من الشجر.

غوطة البلقان

هذه مدينة «سكوبه» قاعدة جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية تبرز لنا بمآذنها ثم تنبسط أمامنا ببساتينها وإذا

كانت قد بدت لنا من الخارج شرقية السمات والملامح، فهي ـ كما حدثنا رفاقنا اليوغوسلافيون ـ تبدو من الداخل أكثر إمعاناً في شرقيتها.

ولقد أضفت عليها الطبيعة جلباباً نضيراً فيه الكثير من بهارج الشرق العربي وبريقه، حتى لقد كانت أقرب ما تكون إلى بعض مدنه وسهوله بهذا الماء الدافق فيها من نهر (واردار) وبهذه الغوطة المتقطعة التي تدور حولها وتمتد بعدها، وبشجر المشمش وحقول البطيخ وخيام النواطير، وبالتالي بهذه المآذن المتعالية فيها من كل ناحية!

وما رأيت لخيام النواطير مثل هذه الملاحة التي رأيت فيها خيام نواطيرها مبثوتة في مزارع البطيخ، ولا حننت إلى سهل البقاع كما حننت إليه وأنا أتطلع من نوافذ هذا القطار إلى هذه الخيام، وإلى أكداس هذا البطيخ على طول الطريق حول (سكوبه).

الذين قدر لهم أن يزوروا سكوبه من الشرقيين والغربيين تفننوا في وصف مبانيها والحديث عن مؤسساتها وجمال ما حوته من كل ذلك. ولقد بلغت المدينة قمة أمجادها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر حيث كانت خلال الحكم العثماني عاصمة من كبريات العواصم التركية.

ولكن سكوبه تعرضت لنكبة من أروع النكبات، إذ إن القائد النمسوي (بيكولومبيني) هاجمها واستولى عليها، ثم غادرها منهزماً، فانتقم بإشعال النار فيها سنة ١٦٨٩ فأتى عليها الحريق غير مبقٍ من معالمها إلاّ القليل.

ولا تزال تحتفظ من الآثار الإسلامية المعمارية بأثر جليل هو جسر (دوشان) الذي يصل بين شطري المدينة المقسومة بمجرى نهر واردار، وكذلك فلا يزال فيها (فرشوملي خان) المشيد على طريقة خانات المدن الشرقية التي لا يزال بعضها قائماً في دمشق وبغداد، وهو اليوم متحف سكوبه يضم ما بقي من آثارها القديمة. وبناؤه مربع الشكل يتوسطه فناء داخلي فسيح يفور الماء من نافورة في وسطه على ما حدثونا عنه.

وهذا الخان هو إلى أن يكون حصناً صغيراً أقرب منه إلى أن يكون خاناً.

ولكنه خان من تلك الخانات التي كانت تقوم غرفها العليا منازل للمسافرين، وطوابقها السفلى إسطبلات لخيولهم، أو متاجر ومخازن.

وأكبر أثر إسلامي فيها هو مسجد السلطان مراد الذي بني سنة ١٤٣١م في مكان كان قصراً ملكياً صربياً. وهناك مسجد آخر هو أصغر حجماً وأحدث بناء ولكن قيمته الفنية أعلى، هو مسجد الغازي أزبك.

بعد سكوبه

وفيما وراء سكوبه طلعنا من السهول إلى الأودية وأوغلنا فيها بين الشجر الغضيض والماء الجاري. فكانت طوراً تضيق علينا بصخورها العاتية السمراء وأشجارها الزاهية الخضراء فتسد علينا الأفق، وطوراً تطبق علينا بأنفاقها الداجية السوداء فتطفيء علينا نور الشمس، وطوراً تنفرج لنا عن الأفق والنور. كل ذلك

ونهر واردار يعدو شادياً في قلب الوادي حتى بلغنا في مطالع الليل بلدة (قيلس) بمئذنتها الضخمة، وبمنازلها المتدرجة صعداً حتى قمم التلال العالية فإن قيلس ترقد في حضن الوادي وعلى صدر الجبل.

وبعد قيلس انخفضت جدران الوادي وعادت بطاحاً مستوية متتابعة. وكان الليل قد غشينا بسواده المدلهم فمضينا فيه موغلين حتى أدركنا (كيف كيليا) آخر بلدة يوغوسلافية على ألف متر من الحدود اليونانية، فأقبل علينا موظفو الحدود اليوغوسلافيون يودعوننا، كما استقبلنا أخوانهم، أحسن وداع.

لقد أدوا واجبهم على أدق ما يؤدى الواجب، ففتشوا حتى الشبابيك تحرياً عن النقد، ولكنهم كانوا في كل ذلك على لطف وحسن معاملة.

ثم مضينا إلى الحدود اليونانية فبلغناها بدقائق، وأبصرنا بين الحدين حجراً كحجر وادي الحرير بين سوريا ولبنان!

وفي المخفر عاد القطار يقف من جديد، وعدنا نستقبل موظفي الحدود اليونانية ببزاتهم الأنيقة، فكان أول ما فعلوه أن وزعوا علينا خرائط لأثينا خاصة ولليونان عامة، ثم راحوا يدققون في التحري تدقيقاً ترافقه الوداعة والإيناس.

ثم انطلقنا داخل الأرض اليونانية يعدو بنا القطار في حلكة الظلام، حتى شعت لنا عند انتصاف الليل أنوار (سلانيك) في عرض السهل.

في سلانيك

إذا لاحت لك ملامح الشرق في يوغوسلافيا، وإذا بدت لك سماته على الوجوه والنفوس، وإذا استشعرتها فيما تجوزه من عوائد ومظاهر وانفعالات، فإنك حينما تصل سلانيك اليونانية وتطلع من محطتها وتمضي فيها قدماً، ستعرف بأن أوروبا التي عرفتها بالأمس لم يبق منها بين يديك إلاّ الاسم وحده! فها هنا في سلانيك: المقاهي البلدية ذات المناضد الخشبية في الشوارع المغطاة بالتراب، وها هنا (الطنابر) تجرها الدواب أو تدفعها الأيدي، وها هنا الأسواق ذات المخازن العميقة، وها هنا الدكاكين المرصوفة رصفاً تعرفه حق المعرفة في بلادك وتنكره كل الإنكار في أوروبا، وها هنا الترامويات البالية و(الباصات) المتداعية، وها هنا حوانيت البقالين وقد زخرت بأكياس السكر والفول والفاصوليا والحمص والبطاطا والرز، وعلقت على أعتابها المكانس والمقشات والمخالي والأمراس والسلال، وكومت على أبوابها الحبال والتخوت وصفائح الزيت والسمن وتلال الصابون، ورصفت (السطول) رصفاً هرمياً بعضها في جوف بعض!

وها هنا الخليط العجيب من المتاجر: الماكينات المكدسة في دكان إلى جانب الساعات المكدسة في دكان آخر إلى جانب الأحذية المعلقة على باب دكان إلى جانب الأدوية في الصيدلية، إلى جانب القمصان والجوارب والمناديل بالقرب من مطارق الحدادين ونيرانهم، إلى جانب مخازن الحديد ودكاكين الغرابيل والمناخل، إلى جانب السمكري وتاجر الأكياس الفارغة!

إنك لتحار أأنت في دمشق أم بيروت أم القاهرة؟ ولكنك ستعرف أخيراً إنك فيها جميعاً، في سلانيك من كل بلد من هذه البلاد مشابه عريقة وملامح أصيلة!

إنك لتمضي في دروب سلانيك فتصادف (البوسطات) المتكدسة تكدسها الشهير في بيروت، وأكوام الأكياس الفارغة على رصيف الشارع، والمطاعم المتراصفة قدورها النحاسية جنباً إلى جنب، والصور المعروضة في الرصيف للبيع فوق مجموعة من الكتب والمجلات العتيقة. وتصل إلى السوق المسقوف بالتوتيا على الطريقة الدمشقية، السوق الذي يجمع البقالين وبائعي الخضر والسمك واللحامين والمطاعم الهزيلة وبائع ورق الصر، السوق الذي لا تراه إلاّ في سلانيك ودمشق، وأخيراً هذا سوق (الزرابلية) الدمشقي بقضه وقضيضه، إنه منقول إلى هنا إلى سلانيك!

ومن عجب أن الأسلوب الدمشقي القديم في رصف الشوارع بالحجارة السود المستطيلة، والذي هجرته دمشق، والذي لا تلبث فيه الشوارع أن تنقلب إلى نقر تنخفض من جانب وتعلو من جانب. إن هذا الأسلوب الدمشقي المهجور لا يزال هو أسلوب سلانيك المتبوع!

ومقهى فاروق الشهير في بيروت، إنه هنا في سلانيك بمناضده وكراسيه وصياح جلاسه وضجيج أحجار طاولاته. ثم هذه المسابح الصفراء في أيدي الناس يلاعبونها بأصابعهم ويداعبونها بأناملهم، إنك لتفاجأ بها في سلانيك بعد أن تكون قد غبت عنها في أوروبا هذا الأمد الطويل!

إن سلانيك، كما شهدناها هنا في هذه النواحي، لبسيطة البناء عتيقة الحياة، لا تزال تحتفظ بأرصفة ترابية غير مسواة، ولكننا شهدنا سلانيك أخرى غير هذه، هناك في شارع الملك قسطنطين التجاري المتدفّق أناقة وطرافة، والذي تتجاوزه شوارع على نسقه وطرازه تعرض فيها أحدث المعروضات منسقة أحسن تنسيق، وتنحدر شوارع أخرى إلى البحر بمتاجر فخمة ومنازل ضخمة وأشجار غضيضة حتى إذا بلغت البحر امتدت على شاطئه الطويل بأحسن ما تكون الشوارع في أرقى المدن. وكذلك هنا بهذا البناء المتدرج على المرتفعات بجواد شجيرة، ولكنك إذا أوغلت في الصعود عدت إلى القديم الهزيل حتى تبلغ القمم فتبلغ أقصى القدم، على أنك تبصر سلانيك تحت عينك بكل ما فيها من شوامخ البناء وسواحل البحر ومناظر البر، وتبصر فيما تبصر مئذنة مقطوعة الرأس على بقايا مسجد!

وهناك وأنت تجول في هذه الأعالي، تلقى من يبيع الخضار على ظهر حماره كما يفعلون في أزقة دمشق!

فإذا عدت إلى المدينة وأتيتها من كل النواحي شهدت مظاهر البؤس في الطبقة الكادحة، في قمصانها وسراويلها وأحذيتها، وشهدت أولئك المكدودين وقد تعرى أعلى أجسامهم إلاّ من القمصان الداخلية، يجلسون إلى مطاعم شعبية خابية يلتهمون فيها ما استطاع كدحهم أن يصل إليه من طعام. وتلاحظ أن الناس يكادون يستغنون عن السترات ويتكفون بقمصانهم القصيرة الأكمام مع أن الحر ليس من الشدة بحيث يلجىء إلى ذلك.

وفيما أنت تمشي تفاجأ بكتابة عربية منقوشة على الحجر في بناء ألفت أمثاله في دمشق، وتتفرس فيها مندهشاً فتقرأ: «أمر ببنائه أمام المسلمين وسلطان الغزاة والمجاهدين السلطان مراد بن محمد بن بايزيد خلد الله ملكه.».

ثم تقرأ تحتها: «أهلاً وسهلاً»، فيغريك هذا التأهيل والترحيب، بعد أن يكون قد أغراك مرأى لغتك الحبيبة

فتلبي الدعوة منطلقاً فيلقاك من يرحب بك باللسان الأعجمي بعد أن رحبت بك الأحجار باللسان العربي، وينبئك أنك أمام حمام قديم من بقايا عهود العثمانيين في هذا البلد. وعندما تستغلق عليك قراءة التاريخ يتطوع بأن يقول لك بأنه سنة ٨٤٦هـ.

والذي يشغل ذهنك هو أنه ما دام الباني هو السلطان العثماني فلماذا سجل هذا باللغة العربية ولم يسجله بلغته التركية؟! ألا ترى بذلك دليلاً على أن اللغة العربية هي التي كانت سائدة في مظاهر الدولة يومذاك، ودليلاً على ما قيل من أن بعض السلاطين كان يجول في تفكيرهم جعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية.

ولن أفسد عليك استرسالك فأسوقك إلى بحوث تاريخية وأقوال أثرية، وقد كانت الآثار والأطلال آخر ما يشوقني ويستوقفني، وهي هنا في سلانيك كثيرة تصل إلى أبعد حدود التاريخ، ولكن حسبنا منها بهذا الأمر الذي حملنا إليه أنه عربي العنوان.

وتمضي في دروب سلانيك حتى إذا أظلّك المساء وبلغت ساحة أرستطاليس أعجبك فيها هذا النسق من المقاهي وأغراك بالجلوس معيداً إلى ذهنك صور مقاهي بغداد الصيفية. لقد منعوا دخول السيارات إلى هذه الساحة الساحلية الكبيرة الجميلة، وجعلوا بعض جوانبها مقاهي صيفية وبعضها الآخر مقاعد عامة، فانطلق الناس فيها على كل الجواب وحفلت بالصغار الجالسين مرحين ضاحكين.

وفي الليل يروقك هذا الشاطىء الجميل مطيفاً بسلانيك ومضفياً عليها غلالة شفافة من بدائعه!

وعقدة العقد في سلانيك وفي اليونان عامة هي النقد، فقد هبط النقد اليوناني (الدراخمة) هبوطاً كاملاً حتى أصبحت عشرات الألوف منه تذوب في شراء أقل ما يشترى، وتضيع أكبر الأذهان الرياضية في حسبان هذه الألوف، وتتعقد أمامك الأسعار وتدوخ في القياس والنسبة. وزاد الأمر بلبلة أن حجم ورقة الخمسين الدراخمة مثلاً ضعف حجم الألف الدراخمة، وتكاد تكون في حجم ورقة العشرة الآلاف! وأنت مضطر في كل لحظة أن تدفع وأن تشتري ومضطر أن تتأمل وتطيل التأمل فيما بين يديك قبل أن تدفعه لئلا يختلط عليك الأمر، وهو مختلط على كل حال!

وآخر ما يثيرك في سلانيك، بل أول ما يثيرك فيها من تصاريف الزمن وتحولات الدهر: أن سلانيك التي كانت العش الذي درجت منه جمعية الاتحاد والترقي، والمنطلق الذي مشت منه جحافلها لخلع السلطان عبد الحميد وقلب الأوضاع العثمانية، وأن سلانيك التي ولد فيها ونشأ مصطفى كمال باعث تركيا الحديثة، هي اليوم بلد يوناني عريق لم يبق فيه من الماضي إلاّ أشباح ضئيلة وعوارض هزيلة!

بعد سلانيك

تتميز الأرض فيما وراء سلانيك بأنها جرداء قاحلة لا خضرة تلتمع على سهولها ولا نضرة تتماوج على جبالها، وبعدما ألفنا في طول أوروبا وعرضها ذاك الشجر النضير متكاثفاً على الربوات، متشابكاً على الوهدات، وتلك الزروع متلاحقة من كل النواحي باخضرارها الناصع البهيج، عدنا هنا بعد خروجنا من سلانيك لا نرى إلاّ الأرض القاحلة الجراداء!

ولا يعني ذلك أن هذه الأرض موات من غير إنبات، بل إنها على ما بدا لنا إنما تنبت المواسم الشتوية وحدها، فإذا جاء الصيف أقفرت وكلحت وأصبحت بلقعاً قفراً.

والشيء الذي تخلو منه، والذي ما خلت منه الأرضون فيما قبل سلانيك، فأضفى عليها نضارة دائمة سواء أجئتها في الصيف أو جئتها في الشتاء، هو الحرجات الخضراء. فإذا انقضت المواسم الشتوية ومضت ببهارجها ظل على الأرض رواء متلألىء بالشجر المتتابع فما تنفك خضراء بهيجة.

أما هنا فلا شجر يغمر السهل، ولا حرج يملأ الجبل، بل تراب جاف لا تقربه العين ولا تستريح إليه النفس!

الخصب بعد القحولة

وطلعت لنا ونحن في القطار بحيرة (تويزان)، وبدت خلفها جبال يوغوسلافيا الشجيرة الشاهقة، ويتقاسم البحيرة كل من يوغوسلافيا واليونان ويفصل بين البلدين خط وهمي يمر في وسطها، والضفاف اليوغوسلافية عامرة بالمزارع والدساكر والغابات.

وبعد البحيرة انقلبت الأرض اليونانية من الجفاف والقحولة إلى الخصب والإمراع، وانتشرت حقول الدخان تغمر الأرض على طول المدى. ولم تكن هناك أرض بتكوينها الإنباتي وتركيبها الطبيعي أشبه ببلادنا من هذه الأرض الإغريقية التي لا نزال نجوزها منذ سلانيك!

مآذن

لقد كان يلوح لنا في الأقاصي البعيدة في القرى ما خيّل إلينا أنه مآذن حتى فاجأتنا مدينة (كسانتي) منتشرة في السهل ومتعالية إلى أحضان الجبل الدائر حولها بين الاخضرار اليانع من الشجر والزرع، وإذا بالمآذن البيض ترتفع فيها من كل جانب، وإذا بنا نعلم أننا الآن في منطقة (تراكيا). وظلت بعض المآذن الناصعة القصية تتعالى أمامنا على طول الطريق بين ازدهار الشجر حولها واسوداد الجبل وراءها.

مشاهد شتى

ومضينا نبصر الجبال الدهم ممتدة بسلاسل متماسكة بشعابها وأوديتها، وبقراها المتناثرة في السفوح فوق الدوح الناضر.

وقد كنا صرنا على محاذاة بحيرة (بورتولاكو) وكانت تناوحها من بعيد في سفح الجبل قرية شهدنا فيها لأول مرة في أوروبا بيوتاً تسقف بالهشيم، وبيوتاً أخرى تبنى كلها بالهشيم، كتلك القرى التي تبنى في العراق بالقصب. وإلى جانب هذه البيوت في القرية نفسها بيوت القرميد الأحمر!

وها نحن لأول مرة أيضاً نرى الجاموس في أوروبا، مطلقاً في المراعي أو مقيداً إلى العربات يجر أثقالها. وبلغنا مدينة (كوموتيني) قاعدة تراكيا فإذا بالمآذن ترتفع إلى جانب قباب الكنائس.

مدينة للإسكندر

وأفضى بنا السير في المساء إلى مدينة (ألسكندروبول) إحدى المدائن التي تحمل اسم الإسكندر الكبير،

ومن أولى من بلاد اليونان بأن تحمل مدينة فيها اسم الإسكندر. ولكن مدينة الإسكندر هذه لا تتناسب مع ما أراده لها حين أطلق اسمه عليها فيما أطلق من الأسماء على المدن!

لقد كان مقضياً علينا أن ننزلها دون غيرها من البلاد التي عبرناها، ولم يكن ذلك مردوداً إلينا بل كان مفروضاً علينا، ذلك أننا علمنا أن القطار الذي يقلنا لا يواصل السير إلى استانبول، بل ينتهي هنا وأن علينا أن ننزل في ألسكندروبول لنأخذ منها الأوتوموتريس إلى الحدود التركية.

وهبطنا من القطار فكنا جمعاً التقى على غير موعد في هذا البلد البعيد، وكنا خليطاً من أقوام شتى، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، فحملتنا مركبات الخيل من المحطة إلى المدينة داخلة بنا إليها في مداخل قروية حتى بلغنا ما بدا لنا أنه شارع البلدة الرئيسي، واخترقناه في موكب من العربات يثير الضجيج ويلفت الأنظار، ولكن أنظار أهل هذه البلدة كانت معودة على مثل هذه المواكب التي تجوز بهم بين الحين والحين، فكانوا يزدحمون في مقاهيهم على جوانب الطريق وهم ينظرون إلينا بوجوه ساهمة وعيون شاردة.

ووصلنا المحطة الثانية التي سننتظر فيها الأوتوموتريس، فترجلنا من المركبات، وإذا علينا أن نغوص في الشارع في التراب، وأن نتلفع بالغبار. وإذا كنا قد رضينا لأنفسنا ما لقينا، وصبرنا على ما أوتينا، فقد كنا نشفق على أولئك الفتيات الأنيقات من بنات المدينة، وهن ينقلن أقدامهن بأحذيتهن البيض في التراب المتراكم في ساحة المحطة وشارعها!!

فلقد كانت تمر بنا زمر الأهلين، ومن بينها النساء المسنّات يخطرن بالملابس اليونانية الوطنية الفضفاضة، والفتيات يرفلن بآنق الملبس وأحدثه، ويغصن مع ذلك في التراب المنتشر، ولا بد في المسنّات من ستر الرأس بالمناديل كما رأيناهن من قبل في سلانيك.

لم تكن الفترة التي علينا أن نقضيها في ألسكندروبول فترة انتقال كما خيّل إلينا بادىء الأمر، بل كانت في فترة انتظار إذا كان مملاً فإنه لم يخل من الطرافة. فقد اطلعنا على ضروب من الحياة اليونانية في هذا الساحل البحري. ورأينا بأعيننا مظاهر العوز الذي يكابده فريق من الناس تحت أنظار المدنية الأوروبية الراهنة! وإذا كانت هذه المدنية ستظل عاجزة عن القضاء على البؤس، أو على الأقل عن تخفيف هذا البؤس فأية مدنية هي؟ وما هي رسالتها في الحياة؟! أية مدنية هذه المدنية التي تبصر فيها مثل هؤلاء الأطفال الحفاة الأقدام، القذري الأجسام، العاري الصدور، الممزقي الملابس!

شكوك وريب

ولما رأيت أن الأمر قد امتد، وأن أمامنا وقتاً طويلا قبل الرحيل، قمت أجول قليلاً على ساحل البحر وأدوّن في مفكرتي بعض الملاحظات. ولم أكن أحسب أن هذا سيجر المشاكل ويبعث المتاعب. ولما عدت إلى المقهى، كان قد أقبل عليه جماعة من اليونانيين لم يصبروا على التراب، فرشّوا الأرض بالماء وتحلقوا حول المناضد المستديرة والمستطيلة وانغمروا في أحاديثهم وتشاكي همومهم. فجلست بينهم وسألت إن كان فيهم من يحسن الفرنسية، فإذا بأحدهم يتكلم بعض جملها بمشقة، فرحت أستزيده معلومات عن هذه المدينة، ولم أكن أحسب أني كلما ازددت في الاستعلام ازددت إيغالاً في المشاكل!

ثم قمنا نعاود السير في سواد الليل ونعبر المحطات المتعاقبة ونبصرها مضاءة بسرج البترول حتى بلغنا آخر الحدود اليونانية، واصلين إلى الحدود التركية في منطقة (أدرنة).

وفيما راحوا يوزعون الجوازات على أصحابها رأيت جوازي فقلت: هذا جوازي، فقال: اللبناني؟ فقلت: نعم.. فإذا به يخفيه في آخر الجوازات، ولما انتهى التوزيع اصطحبني إلى رئيسه. فإذا بي قد أثرت ريبهم فيما كتبت وسألت فراح الرئيس يستوضحني مهتماً مغالياً بالاهتمام!

فأدركت أي حذر يمارسونه وأي توجس يعانونه، بل أدركت أي عيون مبثوثة على هذه الحدود، وربما وراء هذه الحدود، عيون لا يفوتها حتى الحديث القصير والقلم الصغير والورق اليسير، عيون يثير فيها الريب حتى المفكرة في الجيب!

وانتهى الأمر بالتفاهم والملاطفة والاعتذار وانتهت بذلك جولتنا في أوروبا بالقطار، عازمين على الوصول إلى اسطنبول.

اسطنبول

تطل على اسطنبول مقبلاً في القطار من أوروبا فتطالعك في مداخلها البيوت الخشبية السوداء، ومن ورائها المدينة متعالية بمآذنها وقصورها.

ثم تمضي في اسطنبول فتراها في حالين متباعدين: اسطنبول القديمة بمنازلها الخشبية الشاحبة القاتمة، وأوضارها المتناثرة المتراكمة! فيها هنا قذارة في الطرق والشوارع لا يفوتها حتى أرواث الدواب، ويزداد الأمر عندما تصل أسواق الخضرة والفواكه لا سيما إذا جئتها مساء وقد خلت من باعتها ومشتريها، ولم يبق فيها إلاّ الفضلات!

وهناك اسطنبول الحديثة بداراتها الحديثة، وشوارعها النظيفة، وسكانها الأنيقين، ونسائها المتبرجات، ومحلاتها الفخمة، ومظاهرها الأوروبية البراقة.

وتوغل في اسطنبول فترى كيف تصطرع الحياة هنا، وكيف تتلاحم الميول، فالنساء اللواتي سمعت عن سفورهن المطلق تراهن في المدينة القديمة في احتراب صامت في مظاهره، مجلجل في حقائقه. ففي مداخل المدينة ترى النساء بالملاءات السود، وتحتهن على البحر النساء شبه عرايا يسبحن في الماء!

وفي موكب واحد في الطريق تبصر النساء المسنّات يسرن بسوادهن المطبق، وهذا ليس بعجيب، ولكن العجيب أن فتيات الموكب محجبات الرؤوس ومتوسطات السن سافراتها!

على أنك لا تعدم أن تجد موكباً آخر بكهلاته وفتياته وعجائزه مغطى الرؤوس تغطية اجتماعية. وفي فندق حديث في محلة (قاضي كوي)، كانت امرأة تدير الفندق كما تديره أية أوروبية في أية مدينة من أوروبا، تديره من وراء مكتبها بشعرها المرجل المنثور، وطلعتها المطلقة السافرة. ولكن في الفندق نفسه امرأة أخرى تعمل في ترتيب أسرّة غرفه وتنظيفها، امرأة مغمورة بالسواد من رأسها حتى قدميها.

وعندما تصل اسطنبول الحديثة وتطل على ساحة (تقسيم) وما يتشعب منها وما يتصل بها من شوارع وجادات يتبدل أمر اسطنبول بين يديك، فترى هنا النظافة في كل شيء: النظافة في الأزقة والنظافة في

الناس، ومشاهد البؤس التي كنت تشهدها هناك في الرائحين الغادين، لا تعود تشاهدها هنا. وإذا جئت الساحة مساء أبصرت الرجال والنساء منحدرين على الأرصفة كالأنهار الدافقة بأناقة ورشاقة وحسن مظهر. والمناديل التي كنت تبصرها على رؤوس الصبايا هناك لا تبصرها هنا أبداً، فرؤوس الصبايا هنا منطلقة للنسيم، بلا ساتر ولا حاجز.

وفيما وراء (تقسيم) يزداد تبدل الحال، فمن سيارات حديثة ومن بناء شاهق ناصع، ومن شوارع عريضة نظيفة شجيرة وحدائق فسيحة نضيرة، حتى تبلغ حي (ضولمه بغجه) بأشجاره العالية وجاداته الرحيبة. فإذا وصلت ضفاف البوسفور في الليل تلألأ أمامك جمال الطبيعة، وومض بريق البهجة. ولعل من ألطف ما في مقاهي البوسفور تلك «السماورات» الجميلة التي تملأ مناضد رواد المقهى. فالطريقة كما بدا لنا، هي أن يؤتى لشاربي الشاي ـ وجل الرواد من شاربي الشاي ـ لا بأباريق الشاي بل يؤتى لكل منضدة بسماور جميل يشع في الليل ويئن في السكون!

وإذا مضيت في اسطنبول متقصياً فسترى أن اللغة العربية في بعض كلماتها التي لا تزال تحتفظ بها اللغة التركية، قد استحالت في حروف لاتينية إلى لفظ طريف. فأنت تقرأ مثلاً أمام كلمة «تلفون» هذه اللفظة: «امومي» فتعرف أن المقصود أنه تلفون عمومي، وتقرأ في لوحة على باب دائرة رسمية: «ادليت» وأمام دائرة أخرى: «زراءت» فتعرف أنهما دائرة «عدلية» ودائرة «زراعة»، ثم تقرأ على مواقف الترام: «اهتياري»، فتعرف أنه موقف اختياري، وتقرأ في مكان آخر: «استهبارات» فتعرف أنك أمام دائرة استخبارات.

ولكن للغة العربية مكاناً آخر، تكتب به بحروفها الأصلية لا بالحروف اللاتينية. ففي مداخل اسطنبول مثلاً تقرأ في لوحات معلقة على شرفات البيوت «توكلت على الله» تقرأها بنصها العربي ورسمها العربي. وفي الفندق العصري الذي تديره المرأة السافرة المتحررة، تقرأ في مكتبها فوق رأسها: بسم الله الرحمن الرحيم، بالخط العربي الجميل، وتلقى وأنت تجول في الشوارع مخزناً لبيع اللوحات الخطية كلها مكتوبة باللغة العربية وبحروفها. ففي بعضها آيات قرآنية، واسم الجلالة، وفي بعضها أسماء الخلفاء الراشدين، وفي بعضها حكم وأمثال. وتتطلع في المخزن المملوء بهذا وأمثاله فلا تعثر على لوحة بغير اللغة العربية، فيما عدا لوحة واحدة مكتوبة باللغة التركية ولكن بالحروف العربية.

وتمضي بعد ذلك فترى اللغة العربية لا بالرسم والكتابة، ولكن باللفظ والنطق، فهذا الأناضولي العريق الذي أسأله عن مقام أبي أيوب الأنصاري، ثم يعلم أنني عربي فيجيبني بلغة عربية فصحى تعلّمها في الأناضول. وذاك الآخر في مقام أبي أيوب نفسه حين يعلم أنني عربي يسترسل في حديث عربي مبين، وغير هذا وذاك في المركب في طريق المقام تلقى من يحدثك بالعربية ومن يردد على سمعك: «إنما المؤمنون أخوة».

وتمضي بعد ذلك ثم تمضي حتى تزور مساجد اسطنبول، هذه المساجد التي طالما ملأ أذنيك الحديث عن فخامتها ودقة الفن فيها، ولكن كل حديث عنها يضؤل أمام الواقع العظيم الذي تحسه وتراه فيها، وعندما تصل إلى مسجد السلطان أحمد، تلك التحفة الفنية، وترى طريق مدخله، وباحته الخارجية غير

النظيفين تأسف على أن لا تصل النظافة إلى ما جاور هذا المسجد، ثم تتذكر أمثال هذه المشاهد في أوروبا: في روما وفي فينيسيا مثلاً، وكيف تمشي إليها في مداخل وباحات تعجبك وتشوقك!

ولا بد لك وأنت تواصل التجول في اسطنبول من أن تركب المراكب المائية فيها، ففيها من هذا القبيل مشابه من البندقية في أن المركب هناك هو للنقل لا للنزهة، وما عداه فهو استثنائي، لا تلقاه إلاّ في جزيرة الليدو، والمركب في اسطنبول هو وسيلة النقل الأولى في نواحٍ خاصة منها.

ففي القرن الذهبي مثلاً يتقاسم النقل السيارة والمركب، فإن على الخليج جسرين كبيرين يصلان بين ضفتيه المتباعدتين، أحدهما جسر غلطة الشهير والثاني حديث وهو جسر أتاتورك، وعلى الجسرين تعمل السيارات قليلاً وتترك باقي العمل للمراكب. وعدا القرن الذهبي فإن هناك البوسفور ومرمرة، وحسبك بهما ناحيتان تتلقفان المراكب ومن عليها من رواد وقصاد. ولعل اسطنبول في ذلك أكثر شبهاً بجزيرة (برمودا) منها بالبندقية، وليس الانتقال هنا في المركب سهلاً هيناً، بل هو شاق مضجر، فإن ازدحام الناس وكثرتهم وما يتبع ذلك من انتظار وتسابق يرهق ويمض، وعليك أن تدفع ثمن البطاقة في نافذة الموظف المختص، ثم تمضي بها إلى المركب، وهذا ما زاد في الأمر تعقيداً وإرباكاً، ونافذة البطاقات ليست مفتوحة دائماً بل هي تفتح وتغلق حسب مرور المراكب. وكثيراً ما شاهدنا الموظف عاطلاً يقرأ الجريدة وراء نافذته الموصدة والناس على مثل الجمر انتظاراً وضجراً.

ومضينا في المركب إلى القرن الذهبي يحفزنا الشوق إلى زيارة مقام الصحابي الجليل، والحجازي الأصيل دفين اسطنبول، أبي أيوب الأنصاري، هذا الذي يحمل نفسه وهو متجاوز التسعين من رمال الحجاز ونخيل المدينة إلى هذه الأرض النائية مجاهداً، حتى إذا وصلها أدركته المنية فدفن فيها فأصبح قبره محجة ومزاراً!

وكم أثار الطريق إلى أبي أيوب هواجس النفس، وكم اعتلجت الذكريات ونحن نشق الماء إليه فتطلعنا من ها هنا من اسطنبول إلى يثرب وما بينهما من بلاد وعباد، وحدقنا عبر التاريخ البعيد متخيلين ما زخرت به هذه الحقب البعيدة من أحداث هي منا في الصميم. فمنذ أبي أيوب الأنصاري إلى منتهى الحرب العالمية الأولى، ظلت اسطنبول لصيقة بتاريخنا لصوقاً يثيرك وأنت تبصرها بعينيك بعد أن سمعتها بأذنيك!

الفصل السادس

إلى أميركا الجنوبية

طلعنا ذلك الصباح من مطار دمشق في أحد أيام كانون الأول/ديسمبر من سنة ١٩٤٩ محلقين في أعالي الجو، لنعبر القفار والبحار ولننتقل في مثل لمح البصر من قارة إلى قارة ثانية فقارة ثالثة. ولم نكد نودع تلك المشاهد البديعة، ونخلف الجبال الشاهقة بأشكالها المخططة المزركشة، ثم نعبر البحر حتى كنا نشكو الدوار شكاة إن لم تكن بالمريرة، فهي ليست باليسيرة. ومررنا فوق جزيرتي قبرص وكريت، وحلقنا فوق غيوم كثيفة، ثم كنا فوق الساحل الإيطالي، ولم نلبث أن هبطنا في مطار روما، وبعد روما كانت شواطىء فرنسا تمر بنا سريعة متلألئة بأنوارها. ثم حططنا في مطار أورلي لنقضي في باريس ليلة ونهاراً وليلة نعاود بعدها السفر الطويل. وها نحن نغادر باريس في جو جميل لم يشبه دوار ولا انزعاج، ولم نلبث أن صرنا فوق إسبانيا فبدت لنا جبال البرانس (البيرنيه) مغطاة بالثلوج. وكان يحجز عنا مناظر الأرض غيم أبيض كثيف لم نستطع معه أن نتملى من المشاهد السانحة. ولم يلبث هذا الغيم أن انكشف عن إسبانيا وأنهارها الدافقة وجبالها السود تسبح فوقها قطع الغيم الأبيض، وبدت السهول بترابها الأحمر وقراها الصغيرة ذات الأسطح القرميدية القانية منتشرة في بطون الأودية وأحضان الجبال. وكانت الساعة قد بلغت منتصف الواحدة عندما كنا قد صرنا على ارتفاع ٤٨٠٠ متر عن البحر و٣٥٠٠ عن الأرض وكنا نسير بسرعة ٤٣٠ كيلومتراً في الساعة، فغابت عنا جبال البرانس ولم نعد نبصر إلاّ ثلوجها على أن غيرها من الجبال كان يسايرنا ببعض الثلج كما كانت قرى بيضاء ناصعة تلتمع تحتنا بين الحين والحين، وهنا عاودنا الغيم من أسفل منا فغطى الأرض عن أبصارنا ثم شعرنا بأن الطائرة بدأت تنزل في قلب الغيوم الكثيفة المتراصة، التي كانت تبدو لنا من علونا الشاهق وكأنها تارة سهل فسيح وتارة كأنها بحر زاخر، وفي الساعة الواحدة كنا نهبط مطار مدريد في جو غائم ولكنه غير بارد ولم نمكث غير ساعة حتى صعدنا في قلب الغيوم الكثيفة وتجاوزناها إلى الأعلى وانتقلنا في لمحة من الجو الغائم المنذر بالمطر القريب إلى الجو المشمس المنذر بالصحو الطويل ومشينا في حدة نور الشمس، وتركنا تحتنا الدنيا مظلمة قاتمة غائمة، ولم أبصر غيوماً أبهى وأعذب من غيوم إسبانيا. فهي هنا تحتنا كثيفة متراصة تراصاً، فتخالها سطحاً لطابق أرضي وأنت تسبح في الطابق العلوي. ولئن حجزت عنا هذه الغيوم سهول إسبانيا وتلالها وأنهارها فقد أعاضتنا عنها

بما لا يقل عن ذلك حسناً فقد كانت تتكون تكويناً عجيباً. فهي طوراً سهول مديدة وأحياناً تلال عديدة، وهي حيناً كثيفة صفيقة وحيناً شفافة رقيقة، بل هي حيناً كالبحر الرجراج الدافق بالأمواج.

فوق الأندلس

ومضت دنيا الغيم وبانت الأرض منبسطة تحت عيوننا، فإذا نحن فوق مدينة قرطبة نبصر نهر الوادي الكبير ينساب فيها وجسراً عظيماً وصل بين ضفتيه. ها هي بلاد الأندلس العربية وهذا هو البلد الذي شدّ ما حلمنا به نعبر فوقه اليوم كما تعبر الأحلام، ولم نكن نملك في تلك الساعة إلاّ أن نهتف مع ابن خفاجة:

إن لـلـجـنـة بـالأنـدلـس ... مـجـتـلـى عـين وريّـا نـفـس

فـإذا مـا هـبّـت الـريـح صـبـاً ... صـحـت واشـوقـي إلـى الأنـدلـس

وها هي الريح تهبّ صباً وجنوباً، وهي هي عيوننا تجتلي جنة الأندلس وها نحن نستاف رياها فيهزنا إليها الشوق فنبعث إليها من أعالي الجو بعواطفنا وحنيننا. وجاوزنا قرطبة، فإذا بنا نرى على مد البصر عمراناً غريب التكوين فلا هو مدن ولا هو قرى، بل هو بيوت مبثوثة في كل جانب، ترى فيها البيت الواحد أو البيتين أو الثلاثة، وقد ترى أحياناً قرى ودساكر. وتلك البيوت المتفرقة قد تتباعد حتى يؤلف كل منها وحدة مستقلة وقد تتقارب حتى تكاد تكون مجموعة واحدة، وكانت الأرض تحتنا سهولاً وأباطح حمراء وبيضاء وخضراء، ثم رأينا أنفسنا وقد صرنا فوق منطقة خصبة لاحت فيها البساتين والغابات والزروع وكثر فيها العمران وامتد إلى كل مكان، وكان ما نبصره حتى الآن هو إلى يسارنا. وهنا أشارت مضيفة الطائرة بأن أنتقل إلى اليمين فقمت، فإذا بنا نجتاز مدينة طليطلة، وإذا بها مجتمعة البيوت في نطاق محدود، وأخذت المدن تتتابع علينا وكانت المضيفة قد غابت عني فضاعت عليَّ الأسماء، وكانت الأرض قد مالت إلى الاسوداد وكلها سهول منبسطة يرويها نهر الوادي الكبير، وبدت إلى يسارنا مناطق جبلية بعيدة، وكثيراً ما كنا نشاهد بحيرات عديدة سواء في المدن أو السهول حتى كنا فوق مدينة قادس، فإذا الأنهار تتجمع حولها لتصب في البحر. وقد كنا نعبر فوق الطرف الأغر فأبصرنا إلى يسارنا جبل طارق وصخرته العاتية الشماء ومضيقه الرحب الضيق.

فوق الأطلانطيك

وهناك فصلنا عن البرّ لنصير إلى الأطلانطيك بين زرقتين: زرقة السماء وزرقة الماء، فلاحت لنا معالم الشاطىء الأفريقي وأخذنا نسير على محاذاته فوق البحر، نحن فوق الأطلانطيك. فيا الله ما أروع هذا العبور الذي أسلمنا أنفسنا إليه. ومددت ببصري إلى الأمام، إلى بيروت ودمشق وبغداد. فيا أحبابنا في ظلال المشمش والتين والنخيل، ويا أترابنا على دجلة وبردى والليطاني: لكم من فوق ظلمات الأطلانطيك تحايا هذا النازح المشوق. ظللنا محاذين للشاطىء الأفريقي فمررنا قريباً من طنجة والدار البيضاء والرباط، ثم عبرنا فوق الدار البيضاء. وكان الساحل الأفريقي يبدو سهولاً رحيبة تتخلل بعضها الأنهار. وأما الجبال فكانت نائية عن الأبصار. وبعد الدار البيضاء دانينا البر، ثم سرنا فوقه وتحتنا تلك

السهول الساحلية يتخللها عمران كثير الشبه بما رأينا في إسبانيا من انفراد البيوت وتفرقها، ولاحت لنا الثلوج في الجبال النائية.

ظلام الأطلانطيك

وجاء الغروب ونحن لا نزال فوق البر ثم عبرناه إلى البحر، فبدت لنا أشباح بلدة أغادير على الشاطىء تلتمع فيها بعض الأضواء، ثم عمّنا الظلام ونحن فوق الأطلانطيك، وبعدما كانت الطائرة في كل ما مر هادئة قارة إذا بحالها تحول وإذا بها تأخذ بالميدان فتهبط وتثب هبوطاً ووثوباً إذا كانا وحدهما كافيين لتنغيص الحياة فكيف إذا كانا فوق الأطلانطيك. لقد شعرت بأقصى رهبة الجو وأقصى رهبة البحر ونحن في طائرتنا المضطربة الميادة القلقة فوق الأطلانطيك، على أنني لم ألبث أن نمت في مقعدي ولم أستيقظ إلاّ والطائرة تنحدر من الجو هابطة إلى مطار دكار في الساعة الثانية عشرة والنصف.

فوق أميركا

بعد تسعين دقيقة، قمنا من مطار دكار إلى الليل نشقه فوق البحر، فاستسلمت لنوم لم أفق بعده إلاّ والشفق الأحمر يتماوج في السماء، وارتفعت الشمس فكنا فوق السحاب الكثيف الذي بدا هنا وكأنه صخور عاتية. وفي الساعة السادسة كنا بين السحاب نشقه فبدت لنا خضرة أميركا الجنوبية وعمرانها ومياهها إذ كنا مقبلين على مدينة الرصيف أول أرض أميركية نراها. وكان الاخضرار يمشي على مد البصر، كما كان العمران ينتشر بصفوف منسقة في الوهاد والربى والسهول. وصرنا فوق الرصيف فإذا بالمياه تتخللها غزيرة وإذا بالخضرة الحائنة تحوطها من كل مكان، ثم أخذنا نهبط إليها وأخذت أشجارها تبين فخيّل إليّ أني أرى النخل فيما أرى من الشجر، ولكن أين أنا عن النخل الذي خلفته في العراق، وسرت عنه وفي القلب إليه حنين لا يفنى. أهو الشوق يصور لي النخل هنا أم هو الخيال يحملني الآن إلى بغداد الحبيبة؟ كلا إنه النخل، نخل أميركا حقيقة لا خيالاً وها هي الطائرة تحط فإذا إلى يسارها عدة نخلات، وها هو النخل في الربى حولنا كثيراً. وهكذا في بضعة أيام انتقلت من نخيل العراق إلى نخيل أميركا. ولكن أيستطيع هذا النخل أن يملأ النفس كما كان يملأها ذاك، ويستطيع هذه السعفات أن تبعث في القلب ما بعثت به تلك، ويستطيع هذا الظل أن يثير في الجوانح ما أثار ذلك فأنشد هنا ما أنشدت هناك:

هذا النخيل تباركت عذباته ... ما كان أروع حسنها الخلابا
تسمو على هام الفضاء غدائراً ... وترف في عين السما أهدابا
وتميس في كف النسيم عرائساً ... وتصول في أيدي الرياح حرابا

يا نخلات أميركا: إنك والله لجميلة، ولكن حب نخلات العراق لم يدع في القلب مكاناً لحب نخل آخر.

ريو دي جانيرو فمنتيفيديو فبونس.آيرس

تناولنا في الرصيف طعام الصباح، وكنا نأكل في المطعم والحر يضايقنا، وكنا في الخامس من كانون

الأول/ ديسمبر حيث الشتاء والبرد في بلادنا، وحيث الصيف والحر هنا. وقمنا من الرصيف نسير إلى عاصمة البرازيل السابقة ريو دي جانيرو فكنا في الساعة الواحدة والنصف نهبط في مطارها، وكان الاخضرار هنا كما كان في الرصيف، كثيراً ممتداً وكانت تلال عالية تحيط بالعاصمة، ووراءها جبال شواهق سوداء لما يغطيها من الشجر الكثير، وكان الحر هنا كما كان في الرصيف شديداً، وقمنا إلى الجو نطير فوق المدينة فوضحت لنا بمشاهدها الجميلة وجزرها وأشباه جزرها وتلالها وامتدادها الطويل، وسرنا متجهين إلى بونس آيرس وراحت الطائرة تدنو بنا من الأرجنتين.

ها نحن نهبط في منتيفيديو ومعنى ذلك أنه لم يبق بيننا وبين بونس آيرس إلاّ مرحلة واحدة. وأننا حين نصعد من منتيفيديو لن نهبط إلاّ في الأرجنتين وأن الوجه العربي الذي فقدته طوال هذه الأيام الخوالي، سيطالعني على غروب هذا النهار، وأني سأبيت ليلي الصاعد بعد أن تتشنف أذناي باللغة العربية واللهجة العاملية، وأن قومي وعشيرتي الذين خلفتهم هناك على ضفاف البحر المتوسط سألقاهم هنا على هذا الزاخر الفضي. لم تعد مشاهد الأرض تشغلني ولا مطالع السماء تلفتني ولم أعد أتطلع ببصري إلى الآفاق الجميلة الرحبة التي شد ما فتنتني طوال الرحلة، بل صرت الآن أتطلع بقلبي إلى مدينة الهواء الجميل، إلى الذين سألقاهم بعد قليل، وهكذا مضيت مشغول القلب بعد أن كنت مشغول العينين وحومت الطائرة فوق بونس آيرس ودارت فوق مطار إيسيسيا ونزلت بنا وأخذ الناس ينزلون منها وكنت في آخر من نزل. وكان قد جال في ذهني أن كيف سأتعرف على إخواني المنتظرين فلا أنا أعرفهم بالوجوه ولا هم يعرفونني، ومشيت خطوات فإذا بصوت يهتف بي من أعلى سطح المطار لم أعرف بعد ذلك من كان صاحب الصوت، ولكن الذي أعرفه أن صاحب هذا الصوت الذي هتف به هاتف في مساء ذلك اليوم، وتلقته أذناي أصيل ذاك النهار لا يزال يتردد في أذني وسيظل يتردد فيهما أبد الحياة. لقد كان أول كلمة سمعتها من جالية الأرجنتين فهل من ذكرى أخلد في نفسي من هذه الذكرى. لقد كان باب تلك الأسمار والأحاديث التي امتدت ثلاثة أشهر ونصف الشهر هناك في فلورس ومتديرو في قاعة التعاضد الإسلامي وباحة الحلف العربي وساحة الاتحاد العلوي، ونادي الشباب العربي، هناك في بيريسو في النوادي الحافلة والأنهار الشادية والجزر الحالمة، هناك في الروساريو على ضفاف برانا الخالد وفي الدارات والباحات، في مدينة الورود في الأصل الشاعرة والليالي الساهرة، هناك في الصلطو على الينابيع والمنازل، هناك بين جالية الأرجنتين، في تلك البيوت المضيافة في منازل أولئك الكرام الذين طهرت نفوسهم وصفت قلوبهم وسما شعورهم.

ألا يا صاحب ذلك الصوت أياً كنت: ها أنذا هنا في بيروت أدوّن هذه الذكريات بعيداً عنك وعن إخوانك، ولكنني أسمعك في هذه الساعة من وراء البحار ومن خلف الأبعاد، أسمع صوتك الحلو يتعالى في مطار إيسيسيا، في سماء بونس آيرس. وها أنذا أجيبك من أعماق قلبي فليتك تسمعني. ليت تلك الجالية العظيمة تعلم أن ما من صوت مهما علا يمكن أن يطغى في نفسي على صوتكم وصوت إخوانكم في أميركا الشمالية.

في طريق التشيلي

زمجرت الطائرة مؤذنة بالرحيل من بونس آيرس، ومضت صاعدة في الأفق فرأينا أننا نجتاز سهولاً لا حد

لها، وتطلعنا إلى السهول فإذا هي مزارع وقرى متتابعة إذا حفلت بخضرة الأعشاب والزروع فقد خلت من الشجر إلاّ القليل القليل. ثم صرنا نمر بين الحين والحين فوق بلدان عامرة ومدن كبيرة حتى بلغنا صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا عمران، ذكرتنا بالطريق بين دمشق وبغداد. وبعد ثلاث ساعات لاحت لنا جبال الأندوس الشاهقة التي ترتفع عن سطح البحر سبعة آلاف متر، وكانوا قد حذرونا من اجتيازها وأنذرونا بما سنلاقيه ونحن نمر فوقها من ذلك العلو العظيم، ولم نلبث أن قاربناها فتقدم موظفو الطائرة إلى كل راكب يشدون على أنفه وفمه بكيس غريب التكوين. وعندما أبصرتهم يتقدمون بالأكياس إلى الذين قبلي تساءلت في نفسي عما يراد بنا، وعلام نكمم هذا التكميم القبيح، وكانوا قد أمرونا قبل ذلك بأن نشد الأحزمة على أوساطنا شداً قوياً ثم أخذوا يدورون بأكياسهم علينا يربطونها إلى وجوهنا ونحن مستسلمون أضعف استسلام. وهل تطيق ألا تستسلم لهؤلاء استسلاماً ذليلاً فإنك لا تشعر بضعفك كما تشعر به وأنت في الطائرة، وأنت بين السماء الأرض وبالرغم من أن موظفي الطائرة رجالاً ونساء هم بشر مثلك لن يصيبك أشد مما يصيبهم إذا عنَّ للطائرة أن تودي بركابها، فإن الوهم ليصور لك أن مصيرك بين يدي هؤلاء وأنهم ليستطيعون أن يعملوا لخلاصك من شر طارىء وخطر مفاجىء مع أن حالهم عند طروء الشر ومفاجئاً، الخطر حال أي راكب.

ريشة في مهب الريح

ولقد أدركنا استنتاجاً أن ما في الكيس المشدود إلى وجهي هو الأوكسيجين وأن ما ستصير إليه الطائرة من الارتفاع، سيقلل علينا الهواء فنحن بحاجة إلى الأوكسيجين لنقوى به على مصيرنا.

ثم كنا فوق الجبال فكنا نعبر بين القمم إذ كانت بعض القمم أعلى من الطائرة وهنا حاق بنا البلاء الذي حسبنا أن ما بعده بلاء، فما شعرت في حياتي بالصورة الصادقة لهذا القول: «كالريشة في مهب الريح». كما شعرت بها وأنا في الطائرة فوق جبال الأندوس، فقد كانت الطائرة تنحط وترتفع كما تنحط الريشة في مهب الريح. وحسبك أن تكون في مثل هذه الحال. وما اعتقدت أننا ناجون من هذا الهول وأيقنت أننا من الخطر على أقرب حال، أما الذين اعتادوا هذا السفر فكانوا يرون أنها فترة لا بد منها ثم نعود إلى السلامة والعافية. وقد كنت بين عاملين، عامل الرغبة باستجلاء هذه المناظر النادرة وعامل الرعب من التطلع إلى الأسفل لا سيما وأن الدوار كان قد صرعنا بحيث كانت كل حركة تزيدنا دواراً على دوار. ولكن خشية الحرمان من رؤية هذه المشاهد كانت تدفعني إلى مغالبة ما أنا فيه، فإذا أطللت من النافذة شعرت بأني لا أطيق هذا الإطلال فأعود إلى مقعدي قاراً مستكيناً. وقد رأيت من خلال النظرات القليلة أن الجبال قاحلة جرداء لا شيء فيها إلاّ بقايا الثلوج وكنا آنذاك في أواخر الصيف.

لا شك أن العبور فوق جبال الأندوس هو عبور شعري بديع يشرف فيه الإنسان على الدنيا من ارتفاع سبعة آلاف متر، وتحته هذه الرواسي الشوامخ بقممها ووديانها وسفوحها وأجزاعها، ولكن من ذا الذي يفكر في تلك الساعة بالشعر والبداعة. ومن ذا يفكر بغير النجاة؟ ولك أن تتصور أي قبح في نظر الإنسان لتلك الذروات الحالمة الجميلة إذا رأى أنها ستكون قبراً له.

وانتهينا من جبال الأندوس، وخرجنا منها إلى ما فوق السهول الخضر والمدن الفيح، إلى أن كنا نصل إلى

سانتياغو عاصمة تشيلي، وبوصولنا إليها نكون قد قطعنا الأرجنتين من عرضها ومشينا من ساحل الأطلانطيك الجنوبي على ساحل الباسفيك.

دخلت فندق (كاريرو) في سانتياغو محطم القوى متلاشي الأنفاس لما انتابني من الدوار العنيف. وكان لي أن أقضي في العاصمة التشيلية هذا الليل وبعض النهار المقبل، فلذت بالسرير أستعيد عليه ما فقدته من قوة وجلد فوق جبال الأندوس واستعد فيه للتزود من محاسن هذه المدينة الجميلة في الساعات القليلة التي سأقيمها فيها.

وقضيت الليل في فندق كاريرو وأطبقت فيه جفوني على نوم عميق لأفتحها على صباح جميل أطالع فيه العاصمة الجميلة ثم أرتحل عنها وقد متع الضحى وارتفع النهار.

الفصل السابع

من سانتياغو إلى نيويورك

هذه سانتياغو تحوطها الجبال من كل صوب، وها نحن في مطارها نتطلع إلى تلك الجبال الدانية حيناً والقاصية حيناً آخر، وها هي ضواحي العاصمة أمام عيوننا تنبسط بين يدي الجبال وتمتد أمامها من ها هنا وها هنا، وها نحن نطالع في المطار وجوهاً شتى لناس كثيرين ربما كانوا من شعوب متفرقة وإن تقارب معظمهم في أنهم عجائز متصابيات. ولم أبصر أبداً مكاناً يضم مثل هذا العديد من العجائز، وقد عددت في حلقة واحدة من حلقاتهن تسع عجائز، وإذا كانت خمس عجائز قد أوحت للشاعر القديم قوله:

لـقـد رأيـت عـجـبـاً مـذ أمـسـا　　عـجـائـزاً مـثـل الـسـعـالـى خـمـسـا
يـأكـلـن مـا فـي رحـلـهـن هـمـسـا　　لا تـرك الـلـه لـهـن ضـرسـا
ولا لـقـين الـدهـر إلاّ تـعـسـا

فما عسى أن توحي التسع ومن وراء التسع ومن أمام التسع من تسع وتسع.

عقدة الجبال

وفي الساعة الواحدة كنا نأخذ طريقنا إلى الطائرة، ثم كنا نصعد في الجو متهادين فوق سانتياغو وهي تحتنا منتشرة بمربعاتها البديعة وحدائق منازلها النضيرة وبذاك الاخضرار اليانع دائراً بها من كل جهة. وما راعنا إلاّ أننا نبصر الجبال الشواهق حوالينا فذكرتنا بجبال الأندوس وخيِّل إلينا أن لا مناص من أن نعبر فوق قممها الصاعدة فهل سنصير إلى ما صرنا إليه فوق قمم الأندوس؟ إن كنا سنمضي على هذه الأعالي، فالويل لنا مما سنكابد فوقها. ولا تزال عقابيل محنة الأندوس نصب عيوننا وملء أذهاننا، وإذا كنا قد نجونا هناك فمن يدري أننا سننجو هنا. وأفسدت علينا هذه الفكرة ما كان لنا أن نتمتع به من مشاهد رائقة كانت تتوالى أمام أبصارنا، على أن أبصارنا لم تعد ترى إلاّ الجبال وما فوق الجبال من أرزاء منتظرة، ولم يفتنا أن نلحظ أن بعض الجبال لا تزال تكتسي الثلج مع أننا الآن، حسب جو هذه البلاد، في أوائل الخريف أي أن هذه الثلوج قد قهرت الصيف، ويظهر أنها ستقهر الخريف لتلتقي بأخواتها في الشتاء الجديد. ولم ندر كيف خلصنا من الجبال، فلم نمر بها وما رأينا إلاّ أننا فوق سهول خضراء وربى

سوداء وأنهار جارية وأودية زاهية، ثم مرت تحتنا جبال ليس لها شموخ الجبال الأولى فليس فيها ما يرعب، وكانت جبالاً جرداء خالية لا عمران فيها ولا زروع إلاّ بعض النباتات البرية المنتشرة في أطرافها، على أن في بعض شعابها بنياناً قليلاً متفرداً لا تكاد تحسه العين، ولم يلبث البحر أن لاح لنا بعيداً إلى يسارنا ثم رأينا أننا اجتزنا القحولة إلى الأمراع وأننا نمر بواد عامر زاهر، ثم تعاقبت الأودية الغانية فما نترك وادياً منها حتى نطل على وادٍ آخر، وحتى نبصر بحيرة هنا وبحيرة هناك، ولكن الجبال كانت خالية والعمران لا يتجاوز الأودية إليها. وإن الإنسان ليلاحظ أول ما يلاحظ أن هذه الأرض تشكو قلة الأحياء وندرة الإعمار، فما فيها منهما إذا قيس باتساع رقعتها وامتداد مساحتها كان قليلاً جد قليل، فمن شاطىء الباسفيك الذي صرنا الآن ندانيه إلى ما وراء تلك التلال البعيدة أرض موات إلاّ اليسير اليسير.

من البر إلى البحر

ثم عبرنا إلى البحر وكانت تحجبه عنا غلالة من السحاب الأبيض الشفاف فنودي على الغداء وكنا قد بلغنا الساعة الثانية ودارت علينا الأطباق فكان غداء جميلاً ازدردناه في الفضاء والبحر تحتنا والسماء فوقنا والطائرة هادئة مطمئنة، وما شعرت في السفر بغداء أعذب وأشهى من هذا الغداء السماوي الهوائي البحري.

وظللنا بعد الغداء في سير جميل مستقر وتعاقبت علينا شتى المشاهد فمن نضارة السهول إلى يبوسة الجبال إلى ركود البحر، إلى تماوج الرمال، إلى نصاعة السحاب، حتى عدنا في النهاية إلى البحر لا نبرحه وإلى الباسفيك لا نحيد عنه، ودنا المغيب وأخذت الشمس تنحدر صوب البحر واتصل النور من الماء إلى الأفق متموجاً على السحاب الأحمر والأزرق، والبحر في كل ذلك ساج والهواء ساكن والأفق هادىء، ولا يتحرك إلاّ هذه النار والحديد والفولاذ الذي اجتمع فكان هذه الطائرة العجيبة، وإلاّ هذه النار والحديد والفولاذ الذي بدا تحتنا باخرة تهز البحر المديد. ونصعت الحمرة على الأفق كما نصعت الزرقة، وشعت في المغيب كتلة من اللهب وتوارت الكرة البيضاء، وماجت فوق الماء غلالة أرجوانية وصار الأفق على أبدع زينة وأروع افترار. يا للعجب، إنه انفراط حلقة من حلقات العمر وموت يوم من أيام الحياة. إنه كل ذلك ويحتفل به بمثل هذه البهجة البارعة والطلاقة الماتعة.

أنا الساعة أودع اليوم الحادي والعشرين من آذار/مارس فوق الباسفيك وقد ودعته العام الماضي تحت النخل في بغداد ويا طول ما بين الباسفيك وبغداد، فأين سأودعه غداً؟

من نور إلى نور

ثم انطوى النور عنا وصرنا إلى الظلام الحالك لا نتبين فيه شيئاً حتى كانت الساعة قد بلغت التاسعة فإذا بالنور يعود من جديد ولكنه نور الكهرباء، وإذا بمصابيح (ليما) تتوهج أمامنا وإذا بنا ننحدر إلى عاصمة بيرو فنجتاز بالمدينة وقد دنونا من أرضها دنواً رأينا فيه حركاتها المتعاقبة وسياراتها المتدافعة ثم إذا بنا على أرضها وفي مطارها.

لم يطل مقامنا في ليما عاصمة بيرو أكثر من ساعة عدنا بعدها إلى تسلق الجو والسبح في الفضاء وودعنا الأضواء إلى العتمة الداجية فلم نملك عيوننا عن أن تستسلم لنوم طويل لم نفق معه إلاّ في الساعة الخامسة فعلمنا أننا سننزل في بناما بعد قليل، وأخذت الأنوار تبدو تحتنا باهتة قليلة ثم شعت في وجوهنا أنوار بناما نفسها وراحت الطائرة تنزل إليها، وحوالى الساعة السادسة كنا قد وصلنا الثرى واحتوتنا عمارات بناما فأبصرنا الزنوج السود يمتلكون العمل هناك ولكن عملهم لا يتعدى استخدامهم في المطار وفي المطعم وفي المقهى، وبعض أولئك السود كان زنجياً بوجهه وشعره، وبعضهم كان يغلب عليه الاسوداد في لون وجهه ولكنه ليس اسوداداً فاحماً. وأما شعره فليس فيه من الزنجية شيء، وكذلك كانت بعض الوجوه سمراء بالغة السمرة، ولم يكن هذا التباين إلاّ من تمازج الدماء واختلاط الأجناس، وقد أبصرنا بين ذلك العديد من المستخدمين الرجال امرأة واحدة مستخدمة كانت على جانب كبير من السمرة الداكنة.

من الباسفيك إلى الأطلانطيك

بعد ساعة قمنا من بناما واجتزنا قناتها الشهيرة وباجتيازنا هذه القناة اجتزنا أميركا الجنوبية والوسطى إلى أميركا الشمالية وانتقلنا من الباسفيك إلى الأطلانطيك الشمالي. لم أشعر فوق الأطلانطيك الشمالي بالرهبة التي شعرت بها وأنا أصل الأطلانطيك الجنوبي لأول مرة، ولم يعد للجو والبحر والليل في النفس الخشية التي كانت لها أول عهدي بركوب الطائرة فوق المحيط. فالذي يقوم طائراً من آسيا وأوروبا ماراً بأفريقيا إلى أميركا الجنوبية ويعبر ما في ذلك من بحار وجبال وسهول لا يخشى بعد ذلك ظلام الليل وهدير البحر وشموخ الجبل وإقفار الصحراء مهما أظلم الليل وهدر البحر وشمخ الجبل وأقفرت الصحراء، وهكذا كنت فوق الأطلانطيك الشمالي غيري فوق الأطلانطيك الجنوبي، أسير هنا هادئاً مطمئناً لا يقلقني ذعر ولا يشغلني اضطراب ولكن إذا اختلف شعوري فوق كل من البحرين من حيث الحذر واللامبالاة فإن شعوراً جارفاً كان يسطر عليّ وأنا فوق كل منهما وأن عاطفة جياشة كانت تهزني وأنا أمر بكل منهما، وأن إحساساً عارماً كان يثيرني وأنا أعبر كلاً منهما شعوراً واحداً لم يتبدل وعاطفة ثابتة لم تتلون وإحساساً صامداً لم يتحول. كنت وأنا أسير فوق الأطلانتيك الجنوبي أعلم أن هذا السير يدنيني من أخوان لي وراء المحيط هنالك على ضفاف الأرجنتين، وكنت أحس في أعماقي أن لي في تلك الأرض النائية أعز الخلان وأكرم الأخوان، وهكذا كنت فوق الأطلانطيك الشمالي أعلم أنه كما أدناني ذاك الأطلانطيك من بونس آيرس والروساريو وبيريسو والسلطو فالتقيت فيها بقومي وعشيرتي التقاء لن تفنى ذكراه، كذلك سيدنيني هذا الأطلانطيك من أرض فيها قومي وعشيرتي فالتقي فيها بهم التقاء لن تفنى ذكراه. هنالك في نيويورك وديترويت وديوربورن وهاليندبارك وميشغن سيتي وتوليدو أوهايو وكيري أنديانا. فيا أيتها الأرض التي هفوت لك وأنا في أجواء السماء وحننت إليك وأنا فوق ظلمات الماء، ثم جئتك فكنت بجالياتك العربية أكرم جوار وأعز منزل وأطيب دار، ويا ليالينا في تلك البيوت الكريمة ويا أماسينا على تلك الشواطىء وتلك المروج وفي هاتيك الدارات والمنازل لن ننساك مهما تطاولت الأيام وتباعدت السنون وسنظل نذكرك ونذكر عهودنا فيك ذكرى خالدة باقية.

في قلب الأطلانطيك

عبرنا بناما واجتزنا الجنوب إلى الشمال شاقين جو المحيط وماشين على هواء الأطلانطيك لا نمر ببر ولا نجوز بإنسان، وليس لنا إلاّ هذه الزرقة الرقيقة تتدافع حولنا سماء لا حد لها وتمتد تحتنا مياهاً لا نهاية لها، ومضينا ثم مضينا ومضينا في هذه الدنيا الرحيبة الخالية في تلك الساعة إلاّ منا والقاصية إلاّ عنا، واندفعنا لا نلوي على شيء، وعلى أي شيء يمكن أن نلوي إذا عنَّ لنا أن نلوي؟ أعلى الحيتان في قاع البحر أم على الكواكب في هام الجو؟ وما زلنا نمضي ونمضي حتى كانت الساعة قد بلغت منتصف التاسعة صباحاً فإذا بطلائع اليابسة تلوح من بعيد وإذا بمعالم الجزر تبين لنا في ذاك الخضم العاتي، ولم أكبر رواد البحار كما أكبرتهم وأنا فوق البحار ولم أعلم عظمة ماجلان وكولومبس كما علمتها وأنا في الطائرة فوق الأطلانطيك الجنوبي طوراً والباسفيك تارة والأطلانطيك الشمالي حيناً، فما أصلب أولئك الرجال الذين غالبوا هذه الأمواج وغلبوها بأضعف سلاح وأقل عتاد، وما أمضى عزائمهم وهم يجوبون هذه المتاهات لا إلى بلد يعلمونه ولا إلى مرفأ يقصدونه بل إلى المجهول يستطلعونه. إن المحيط لمخيف في أقوى البواخر وأمضى الدوارع، وإنه لعنيف في أفخم الطائرات وأعظم الجاريات، وإنه لبغيض مملول حتى وهو طريقك إلى بونس آيرس ونيويورك ولندن، فما بالك إذا كان المركب فيه الخشب الرقيق والحبل الدقيق والشراع الصفيق، وإذا كنت تسير فيه لا على طريق ولا إلى طريق بل تخرج من ضيق لتدخل في ضيق يشاحنك فيه حتى الصديق ويخاصمك حتى الرفيق.

الحسناء تزن الحرارة

هذه أولى الجزر تقترب منا أو نقترب منها، وها نحن نمشي إلى كانغستون قاعدة جزيرة جاميكا الإنكليزية في البحر الأميركي. وجزر الإنكليز في هذا البحر تمتد حتى تكاد تصل إلى تخوم نيويورك ومشارف الولايات المتحدة، وحلقنا فوق كانغستون وحومنا فوق أشجارها الخضر وجبالها السود ثم نزلنا وأقبلنا على مبانيها، فاستقبلتنا أول ما استقبلتنا امرأة من موظفات المطار تحمل بيمناها ميزاناً للحرارة تقدمت به إلى أفواهنا تزن حرارة كل منا وهو ما لم نبصر مثله في بلد من البلاد، على كثرة ما مررنا ببلاد ورأينا من عباد، ولعل الذين اختاروا لهذه المهمة امرأة جميلة، أخطأوا في هذا الاختيار فما أحسب إلاّ أنه سيكون بين المسافرين، من سترتفع حرارتهم حتماً عندما تقبل عليهم هذه الغادة اللعوب، مخترقة بأجفانها الثائرة قلوبهم الخائرة ومقتحمة بأناملها الريا شفافهم الظمأى. وحدقت الحسناء في الميزان تعد خطوطه وتحسب أعداد،ه وحدقنا في وجهها نستنتج حالنا ونستقرىء أمرنا فعلمنا أننا من السالمين المعافين وأن حرارتنا صحيحة وصحتنا سليمة، ولقد كانت المسألة يمكن أن تكون أدهى لو أن من أنظمة الجزيرة أن تفحص هذه الغانية القلوب والأكباد مع ما تفحص من الحرارات والبرودات، إذن لسقط في فحصها الأكثرون ولخذلهم ضعف الأفئدة وخفقانها وكشفهم وهن الأكبدة وذوبانها.

سود وشقر

وحمدنا الله على العافية ومضينا نتطلع في المطار فإذا الموظفون السود يعملون مع الموظفين والموظفات البيض والشقر جنباً إلى جنب، وقد انتظمتهم هذه الأرض معاً حكاماً ومحكومين فعاشوا خليطاً متناقضاً

لا وسط فيه فإما إمعان في السواد أو إمعان في البياض على عكس ما شهدنا في بناما من عنصر هو بين السواد الناصع والبياض الناصع يعيش بين اللونين السائدين هناك، ولعل مرد ذلك إلى أن البيض لم يمتزجوا بالسود هنا امتزاجهم بهم في بناما حيث نشأ من ذاك الامتزاج لون جديد لا هو سواد ولا هو بياض بل هو سمرة داكنة أحياناً وغير داكنة أحياناً، بل لعل ما شهدناه هنا لا يتعدى المطار وموظفيه ولعل هؤلاء الموظفين البيض مستقدمون من الجزر البريطانية رأساً ولعل بين السكان في كانغستون وغير كانغستون من بلدان جاميكا من امتزج بيضهم بسودهم على النحو الذي رأيناه في بناما ولم نره في مطار كانغستون.

فوضى ...

وبعد هنيهة رأيت أمتعني تنقل من الطائرة إلى مكتب الجمرك وتقدمت لأبصر فتحها وتفتيشها فأيقنت أن الطائرة ستبيت بنا هنا في هذه الجزيرة وكنت قد علمت في الطريق أننا سنبيت في إحدى الجزر، وقبل فتح الحقيبة سألني موظف أتريد أن تبيت هنا؟ فأجبته: من قال إني أريد أن أبيت هنا، أليس هو حكم الطائرة؟ قال إذن تريد أن تسافر الآن، فقلت إذا كان الأمر لي فنعم. فأمر بإعادة حقائبي إلى الطائرة. فأدهشني هذا الاضطراب ولم أعلم السر في مبعث عدم هذا الانتظام ولولا هذا السؤال العابر الذي سألني إياه هذا الموظف لما شعرت إلاّ وأنا منقطع في كانغستون.

انتشار الأسبانية

وقد كان الحديث يجري مرهقاً فلا هم يحسنون الفرنسية ولا أنا أحسن الإنكليزية ولكن الكلمات الإسبانية القليلة التي كنت تعلمتها والكلمات الفرنسية القليلة التي يحسنونها هم جعلت التفاهم ممكناً ومن هنا أدركت انتشار اللغة الإسبانية في هذه المناطق ومماشاتها للغة الإنكليزية، لغة الحكم والسلطان.

سواد فاحم

أما الناس فقد كانت فيهم مجموعات مختلفة الألوان واللغات وقفوا جميعاً في بهو المطار بين مسافر ومودع وقادم، وقد أبصرت فيهم مجموعة سوداء هائلة السواد بأطفالها، وقد كنا رأينا السود من قبل فلم نر فيهم هذا القبح المخيف في الوجوه والسحن إذ كانت الوجوه السود هنا نابية كل النبو بحيث يعد معها نبو الوجوه السنغالية جمالاً، ولعل أقبح ما في ذلك القبح هو الحمرة على شفاه السوداوات، وما لم نبصره من اللون الوسط بين موظفي المطار أبصرناه هنا في بهو المطار إذ كان بين هذا الحشد العجيب ألوان لا هي سوداء ولا هي بيضاء بل هي بين بين، وأبرز ما يبدو في هذا الجنس الوسط هو أجسامه الفارعة سواء في الرجال أو النساء وهو في النساء جميل جداً.

الجنة الأرضية

بعد ساعة قمنا من مطار كانغستون إلى الجو نعاود السير فوق البحر فنعبر ببعض الجزر أو لا نعبر شيئاً أبداً حتى بلغت الساعة الثانية عشرة فهبطنا في جزيرة ناسو. وناسو هذه جزيرة صغيرة تقع في مداخل الأطلانطيك الشمالي محاذية لميامي وهي لا تختلف عما رأيناه من جزر إلاّ في أن جوها أكثر اعتدالاً

وأقل حرارة. وهي كغيرها إنكليزية الحكم بريطانية السيطرة وطال مقامنا فيها ساعتين قمنا بعدهما إلى الطيران حتى بعيد الغروب، فإذا بنا نقبل على جزيرة برمودا في قلب الأطلنطيك وهي آخر مرحلة لنا قبل نيويورك، إذ إننا منها سنصل إلى المدينة العظيمة الجبارة. وكنت ونحن في ناسو قد تساءلت عن برمودا التي سنبيت فيها فأجاب أحد رفاق الطريق قائلاً بالفرنسية: هي جنة وها نحن الساعة على صعيد هذه الجنة الأرضية التي وعدنا بها هذا الرفيق فهل سنجد فيها حقاً بعض مظاهر الجنان ومشاهد الفراديس؟

كنت والسيارة تجري مصعدة بنا في الطريق العالي إلى الفندق الشاهق أحاول أن أستجلي بعض مرائي برمودا التي استحقت بها وصف الجنة ولكن الطريق كانت خاطفة والليل كان مسدلاً فلم نشعر إلاّ ونحن في فندق سان جورج القائم على الربوات وكان زاخراً بالناس يموج بهم أو يموجون فيه في كل صوب وكانوا ناساً ذوي لسان واحد وهو اللسان الإنكليزي وإن كنا لم نعلم أكانوا كلهم أميركاناً أم كان فيهم إنكليز، وإذا أخذنا بما نعلمه عن الجزيرة، من أنها مشتى لكبراء الأميركان عرفنا أن ضيوف الفندق لا بد أن يكونوا من الأميركان، وأن المقيمين لا بد أن يكونوا من الإنكليز. فبرمودا هي الأخرى محكومة للإنكليز.

مرحلة واحدة ثم نيويورك

وبالرغم مما كان ينتابني من حب استطلاع حال برمودا، والتعرف إلى حقائقها في الزمن القليل المحدد لإقامتنا فيها فقد كان أعظم ما يجيش في نفسي هو رهبة الإقدام على نيويورك وليس بيننا وبينها إلاّ هذه المرحلة القصيرة فنيويورك تشغل الذهن وتملأ الخاطر بما لا تشغله مدينة غيرها. واسمها الضخم وصيتها المدوي كفيلان بإذكاء الخيال وتشعب الفكر. وقد زاد الأمر عندي أني علمت ساعة الوصول إلى برمودا أن الطائرة لن تصل لنيويورك في وقتها المحدد وأن خطأً كان في إعطائنا ذلك الوقت وأنها ستسبق الموعد بيوم، ومعنى هذا أني سأصل إلى نيويورك فألفي نفسي وحيداً لا أفهم لغة ولا أعرف أحداً، على أنني لم ألبث أن أخذت بما في الفندق ومضيت إلى باحته الخارجية فإذا هو يقوم على هضبة تشرف على البيوت المنبسطة أمامها وتطل على البحر فتأتلق حولها الأنوار الحمراء منعكساً بعضها على الماء. وسبح ذهني في هذا الفضاء ومضى يتنقل من دمشق إلى بيروت إلى بغداد ثم يعود ليستقر هنا في قلب الأطلانطيك في برمودا ثم يعاود الرحلة المضنية ذاهباً آيباً متخيلاً متذكراً لا يقر على حال.

وحشة وشعر

وعدت إلى بهو الفندق وكانت فيه جوقة موسيقية من الزنوج تعزف بألحانها الضاجة وواحد من رجالها السود يغني غناءً غريباً وحلقة من الراقصين تدور مرحة فازددت ضيقاً على ضيق ومضيت إلى شرفة مطلة على البحر وهناك كتبت قصيدتي التي أقول فيها:

وحدي أقلب ناظريّ هنا ... وأسائل المجهول أين أنا
الحلم مرَّ فليت لي جفنا ... من بعده يستعذب الوسنا
سكنت حواشي الليل غير أسى ... في صدري الحرّان ما سكنا
أرنو لعل على الدجى حلماً ... قلب الحبيب له هناك رنا

هـذا الجمـال ولـسـت أنـكـره ... مـا كـان قـلـبـي فـيـه مـفـتـتنا
أجـد الـربـى والـبـحـر مـنـفـرداً ... والـغـيـد والأمـواج والـسـفـنـا
قـفـراً يـضـج بـخـاطـري شـجـنـاً ... صـحـراء تـزخـر لـوعـة وضـنـا[1]

في جنة الأطلانطيك

عندما قيل لي في جزيرة ناسو إن جزيرة برمودا هي فردوس تساءلت في نفسي عما عسى أن يكون هذا الفردوس، وفي الساعات الليلية الأولى التي قضيتها في الجزيرة لم أستطع أن أتبين أمرها سوى ما كان من إقبال الناس عليها إقبالاً يدل على أن فيها من مظاهر الفردوس ما يغري بالنزوح إليها، فالحشد الذي شهدناه ليلاً في فندق سان جورج كان من الطبقات الأميركية المترفة التي تضيق بشتاء بلادها فتقضيه في جو برمودا الدافىء. ولم يكن الجو وحده هو الذي يغري بالقدوم لولا أن في طبيعة الجزيرة ما يزيد جوها إغراء على إغراء وما يحفز هؤلاء الناعمين البطرين على الانتقال إليها تمتعاً بجوها وطبيعتها معاً، وتشاء التقادير العجيبة أن نقضي ليلة في تلك البيئة الأميركية اللاهية وأن نشاركها المقام ساعات معدودات لم يكن لنا رد في اختيارها لولا أنه حكم الطائرة الذي لا مفر منه، وإذا كنت قد ضقت ذرعاً في الليل بصخب هؤلاء الصاخبين وبنوع طربهم ولهوهم، ففررت منهم وانفردت بنفسي في شرفة مطلة على البحر، فإن الصباح قد حمل إليَّ من المباهج ما جعلني أؤمن بأن برمودا حقاً جنة من جنان الأرض، وأن المصادفة التي ساقتني إليها تستحق الشكر فقد أفقت صباحاً ومضيت على طرق برمودا فكان أول ما يعجبك هو أن الأهلين السائرين في الطرقات يبادرونك بالتحية مما يدل على وداعة أصيلة في نفوسهم، ولعل كون أرضهم أرضاً مطروقة يكثر فيها الغرباء ولعل كونهم يجنون كل الخير من هؤلاء الغرباء، لعل ذلك جعل فيهم الإيناس طبيعة وسجية.

وفي بيوت برمودا بساطة ولا فخامة فيها ولكنها بسيطة جميلة فيها ذوق وأناقة أما الأزقة والشوارع فإنك تنحدر فيها انحداراً أو ترتفع فيها ارتفاعاً فأنت صاعد طوراً وهابط طوراً آخر وهذا لا بد منه ما دامت البلدة تقوم على الربوات التي تعلو من جانب وتنخفض من جانب آخر.

لم ندر ونحن نجول في دروب برمودا في أي فصل نحن فقد خلفنا الأرجنتين وراءنا من أيام وهي في أواخر الصيف ثم اجتزنا الباسفيك والأطلانطيك ونحن مقبلون على أميركا الشمالية التي نعلم أنها الآن في أواخر الشتاء فما هو فصل برمودا التي هي بين بلاد أواخر الصيف وبلاد أواخر الشتاء؟ بدا لنا هنا في الخريف فإن هذه الأشجار العارية وهذا الهواء القوي يشعران أنهما من صنع الخريف وحده.

ومضينا في الجزيرة هبوطاً وصعوداً فرأينا فيها كل جميل بهيج فهي ليست جزيرة واحدة بل أرخبيل جزر متقاربة يتداخل ماء البحر بينها كأنه أنهار وحياض وتربط بين بعضها جسور ثابتة ففيها هذا مشابه من فينيسيا وإن اختلفت عنها كل الاختلاف. والجزر كلها هضاب وشعاب وغابات تتخللها الدارات والمنازل الجميلة، وأكبر الجزر هي أربع تخرج منها رؤوس إلى داخل البحر فيتشابك فيها ماء البحر ويتعرج من هنا وهناك، وفي كبرى الجزر مضيق صغير يدخل فيه الماء إلى اليابسة وينحصر فيها فيكون بحيرة جميلة، كما أن الجزيرتين الشرقيتين تحصران بينهما المياه وتسدانها بجزر صغيرة وتفتحانها بمضائق

مضغوطة، والجزر الصغيرة كثيرة العدد حتى لتكاد تبلغ الثمانين ومن هنا اكتسبت برمودا مشاهدها الفريدة، والجزيرة الكبرى تنفرج عن شقين يشكلان زاوية حادة يمتد ضلعها الجنوبي ثم يتقوس سائراً إلى الشمال حتى يلتقي بإحدى الجزر الشمالية فتفصله عنها مضائق ضيقة وتكاد تصله بها ثلاث جزر صغيرة، وتلك الجزيرة الشمالية تنحرف إلى الشرق فتكاد تلتقي بثلاث جزر فيتكون من ذلك خليج بشكل الكمثري، وفي منفرج الزاوية الحادة يتجمع عديد من الجزر الصغيرة.

والزوارق دائمة الحركة بين الجزر تنقل الناس من جزيرة إلى جزيرة فهي إما أنها تحمل السكان أو تحمل المتنزهين المتفرجين، أما في الأسواق وفي المتاجر والطرقات فالناس إما بيض شقر أو سود فحم أو بين اللونين وهي في ذلك تجري على ما يجري عليه غيرها من جزر هذا البحر في تنوع ألوان السكان واختلاف أصولهم وفروعهم، ولم نجد في خدم الفندق إلاّ الزنوج السود.

أمضينا في برمودا ليلاً ونهاراً كاملين. وفي المساء كنا ننحدر إلى المطار مودعين برمودا الجميلة وعندما اعتزمنا النزوح عنها كان الجو ماطراً فأرعبني ذلك وأذكرني بفواجع الطيران في العواصف والأنواء ولكنني لم أكن أملك لنفسي تصرفاً بل كنت خاضعاً مقوداً للطائرة وأوامرها ولو خيرت لما اخترت السفر في تلك الساعة، وصعدنا في الجو والمطر يهطل غزيراً وينصب دافقاً ولكنّا بعد قليل خرجنا إلى الصحو الجميل وأسلمنا أنفسنا إلى السماء دانين من نيويورك ولم يبق بيننا وبينها إلاّ القليل، ولم نلبث أن كنا فوق أنوار نيويورك وحسبك بأنوارها اندلاعاً وتألقاً، ثم هبطنا المطار واصلين إلى أكبر مدينة في أميركا.

في نيويورك

أقبلنا والليل على نيويورك وسبحنا فوقها في دجى غاسق كثيف ففاتنا أن نطل عليها في وضح النهار ومتوع الضحى فنراها جليلة بناطحات سحابها وشاهقات قبابها وكنا ونحن ندنو منها ونسير نحوها نأسف على أن كان نصيبنا الوصول إليها في العتمة الداجية لا في الصباح المشرق ولا في الأصيل المونق، ولكننا لم نكد نشارفها ونمضي إليها من علٍ ولم تكد أنوارها تتوهج أمامنا حتى قرأنا الآية الكريمة: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ فقد كان خيراً لنا حقاً أن نصل إلى نيويورك في الليل، وكان خيراً لأبصارنا أن تمتلىء من هذا الوهج الأخاذ وتجول في هذا المضطرم اللماع! لقد غابت عني نيويورك بصروحها الممرَّدة ونسيت جبروتها الصاخب الضاج ولم أعد أرى منها إلاّ فيضاً من اللآلىء يمور من كل صوب، وسهلاً من الألق يمتد من كل ناحية، وإذا أدهشت ناطحات السحاب الناس بشموخها واستهوتهم بتساميها فإنها لم تدهشني بمثل ما أدهشتني في الليل واستهوتني في الظلام سواء وأنا أتشوف عليها من السماء أو أتطلع إليها من الأرض! إنني لم أكن أبصر مادة ولم أكن أشاهد بنياناً، ولم أكن أتخيل أن هذا الماثل لناظري هو جماد من حجر ومدر، بل كنت أبصر كوى فتحت في السماء فتدفق منها النور، وكنت أتخيل سلماً من الضوء يرتفع من الأرض إلى أجواز الفضاء.

على أن روائع نيويورك وخيلاءها لا تصرفك عما فيها من شوائب وعيوب بل إن هذه الشوائب وتلك العيوب تبدو فيها أكثر اتضاحاً وبروزاً منها في غيرها، فقد لا تستغرب مثلاً في غير نيويورك إذا لم تجد أن النظافة كاملة وأن في الشوارع مظاهر الأوضار، ولكن أن تجد ذلك في نيويورك فذلك هو العجيب

حقاً، فالشوارع في نيويورك ليست نظيفة النظافة المفروضة في بلد ناطحات السحاب! وأين شوارع باريس وشوارع بونس آيرس الأنيقة اللماعة من هذه الشوارع التي تمتلىء بأعقاب اللفائف وبالورق الممزق، إن في أفخم شوارع نيويورك مآخذ في النظافة ولكن ليس في أواسط شوارع باريس وبونس آيرس أي مأخذ من هذا القبيل، بل إن في صميم نيويورك شوارع هي أسوأ مثال للشوارع البالية القذرة، فبعد أن تترك ناطحات السحاب وتمضي في (باوري ميشن) تجد هناك خيبة اعتقادك في نيويورك! فثمة شارع محطم الأرصفة تافه البناء تتجول فيه جماعة يجللها البؤس ويغمرها الهوان، ولم أكن أحسب أنه يمكن أن يكون هنا مثل هذا المكان ومثل هؤلاء السكان! أجل مثل هؤلاء السكان البائسين الساهمين الذين لا تكاد تحس لهم كياناً يمور وحياة تتدفق، والذين تنخفض هاماتهم وتنكمش صدورهم على أسمال خلقة وأطمار مهلهلة إن أعربت عن شيء فإنما تعرب عن فاقة قاصمة وعوز مرهق، أو عن نفوس مهشمة وأرواح محطمة كان أحرى بمشاريع أميركا المتدفقة إلى ما وراء البحار وعبر القفار أن تنهل عليها بالرحمة والخير! ولعمري إن هذا المشهد المثير الذي شهدته هنا في هذه الناحية من نيويورك كان أشد أثراً في نفسي من كل ما أبصرت في أميركا من مشاهد جبارة ومدنية قهارة، وإن كل حضارات أميركا لتتضاءل وتنطوي أمام إنسان واحد من هؤلاء الأناسي الذين أبصرتهم في صميم نيويورك غير بعيد عن ناطحات السحاب!

ويظلّل شارع باوري ميشن جسر مديد يمتد على طوله وتسير فوقه القطارات الكهربائية حتى ليبدو الشارع والجسر كأنما هما طابقان لبناء واحد، وهذه الجسور من أعاجيب نيويورك ومعجزات العلم فيها فهناك جسور يبلغ طول كل منها عشرة أميال وعرضه ستون متراً وعلوه فوق سطح الأرض خمسون متراً، بل إن هذه الجسور قد تتعدد ويتكاثف بعضها فوق بعض، وإذا كنا قد رأينا طابقاً واحداً فقد تبلغ في غير هنا سبعة طوابق أو بالأحرى سبع طرقات يمتد كل واحد منها فوق الآخر في جوف الأرض وعلى ظهر الأرض وفوق الأرض.

مضينا بعد نحو ناطحة السحاب الكبرى (البيارستات بيلدنغ) ذات الطابقين والمائة الطابق، والعشرة الآلاف الغرفة، والسبعة الفنادق والخمسة والعشرين مطعماً، والثمانية المستشفيات والثلاث دور السينما. مضينا إليها ورحنا نعلو فيها بالمصعد حتى بلغنا الطابق السادس والثمانين، حيث وقفنا قليلاً متطلعين إلى الأرض فإذا المدينة تحتنا تهدر هديراً وتدوي دوياً، وإذا بنيويورك موارة بأنهارها وشوارعها وسياراتها ومعاملها، وإذا نواطح السحاب الأخرى تبدو حولنا كالأقزام الضئيلة، ثم علونا صاعدين حتى بلغنا الذروة في الطابق الثاني بعد المائة فبدت لنا منه روعة تنظيم الشوارع وجمال اتساقها، وكان الغروب قد حلَّ فاشتعلت الأنوار خطوطاً حمراء وصفراء وبيضاء وخضراء تحجز بين البناء المتراص، وكما صعدنا في مثل لمح البصر هبطنا كذلك معجلين تتتابع أرقام الطوابق أمام عيوننا تتابعاً خاطفاً نكاد نعجز معه عن تبيّنها!

ومن ناطحات السحاب سرنا ننشد العشاء وكان ميعادنا مطعم (بغداد) ولم يكن أعجب من أن ننتقل فجأة من صميم نيويورك من ذروة الناطحة من الأحاسيس الأميركية، إلى صميم بغداد إلى أغوار الشط إلى الأحاسيس العربية! فها هنا في هذا المطعم العراقي الشامي[2] أحسسنا أننا عدنا إلى بغداد فصاحبه لم

يكتف بأن سماه مطعم بغداد بل زانه بصور بغدادية أصيلة لجسر الأعظمية العائم وللزوارق العراقية (الأبلام) ولبعض مزارات العراق ومساجده والريفيين يصنعون القهوة، ولقوافل الإبل! وكان الكلام هنا عربياً والتحايا عربية، والناس عرباً يأكلون الطعام العربي ويشاركهم في أكله بعض الأميركان.

ثم مضينا إلى ميدان (التايمس سكوير) فكان ليله نهاراً بما يشع فيه من الأضواء، أضواء الإعلانات من كل لون فحيث تطلعت رأيت أنواراً متحركة صاعدة هابطة، رجراجة ثابتة، أفقية عمودية، عالية واطئة، أنواراً تعترضك من اليمين والشمال والأمام والوراء، بعضها حروف وبعضها أقواس وبعضها رموز وبعضها رسوم. ومن أطرف ما فيه إعلان عن دخان (الجمل) مكتوب بحروف من نور ضخمة متماوجة تحاذيها صورة كبيرة لرجل فاغر فاه ينفث الدخان نفخاً متواصلاً، دخاناً حقيقياً لا مصوراً، ينفثه كما ينفث الرجل المدخن دخانه من فيه! إنه سيل من نور يمتد طولاً ويتعرج عرضاً ويجري بين تلك الشواهق من البناء فيحيل الليل نهاراً!

وجئنا نهاراً الحي الصيني فما خلنا إلاّ أننا في قطعة من صميم الصين حملت من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، فالوجوه صينية خالصة والناس صينيون أقحاح لا يخالطهم غريب ولا يعيش فيهم من ليس منهم، وتدرك لأول وهلة أن هؤلاء العابرين من ذوي الوجوه الصفر ليسوا إلاّ مستطرقين حملهم الفضول كما حملك على المرور بهذه الديار الصينية ساعة يتزودون فيها من هذا المنظر العجب. وسرنا في زقاق عرضاني من أزقة الحي ودخلنا أحد المتاجر فإذا كل ما فيه صيني لا يبيع ولا يشتري إلاّ ما أخرجته اليد الصينية، وهكذا غيره مما كان يلوح لنا ونمر به من المتاجر والحوانيت. وتتفرع في الحي أزقة وشوارع وجواد ليس فيها إلاّ الوجوه الصينية والمتاع الصيني، وليس على واجهاتها وجدرانها إلاّ الحروف الصينية والنقوش الصينية، فنحن لم نكن نزور قطعة من صميم نيويورك بل كنا نزور قطعة من صميم (بكين) وإذا كنت قد قلت إن النظافة ليست كاملة في شوارع نيويورك فأحر بي أن أؤكد هذا القول وأنا أكتب عن الحي الصيني وعن أزقته وشوارعه.

ثم تركنا الشارع الصيني وانحرفنا عن استقامته فإذا بنا نباغت بعالم آخر ودنيا جديدة وإذا بنا أمام شوامخ الصروح وشواهق القصور، لقد كنا نصل إلى حي المصارف في نيويورك (دول ستريت) الحي الذي تتدفق فيه الأموال وتخزن الكنوز! لقد كان بمظاهره يدل على حقائقه وحسبها من حقائق! ومضينا بعد إلى جزيرة (بادلو) راكبين ماء البحر لنصل إلى تمثال الحرية في الجزيرة التي تبعد عن نيويورك بضعة آلاف من الأمتار وكانت تقصد التمثال جموع غفيرة لا حصر لها، جاءت من كل مكان متطلعة إلى التمثال العظيم الذي يرمز إلى الحرية المتطلعة المتوثبة، والذي ساعد أصحابه على وأد الحريات وعملوا على خنقها ولن نذكرهم بفلسطين، بل ندلهم على مواطنيهم السود الذين يحاولون تنسم الحرية ولكن عبثاً يحاولون! والتمثال يبدو لك من بعيد تمثالاً بسيطاً ويخيَّل إليك أنه حجم إنسان طبيعي ولكن لا تكاد تدانيه ولا تكاد تصل إليه حتى تدرك أنك أمام قمة شاهقة لا تطيق الوصول إليها على قدميك بل لا بد من مراقي آلية تحطك على الأعالي، وسرنا إلى المصعد فعلا بنا مجتازاً الطوابق واحداً بعد الآخر حتى بلغنا الطابق العاشر، ثم كان لا بد من ترك المصعد والصعود على الأقدام في درج حديدي ضيق حتى بلغنا الطابق الثاني والعشرين، وفيه هتفنا من أعماق النفوس هتافاً صامتاً: أيتها الحرية! إنهم

يريدونك لغيرهم صخراً يابساً كهذا التمثال وحديداً صلداً كهذه الآلات، وأما لهم فريا طيبة كهذه النسمات، وعبيراً زكياً كهذه النفحات!

الهوامش:

(١) راجع القصيدة مع ما مر من الشعر.

(٢) اسمه مطعم بغداد وصاحبه من مدينة صيدا.

الفصل الثامن

في ألموت وديار الاسماعليين

إلى قلعة ألموت

عندما قرأت أن المستشرق الروسي إيفانوف زار قلعة ألموت بحثاً عن الحقيقة فيما يقال عن الإسماعيليين النزاريين الذين كانوا موضع دراسته، أعجبني أن تبلغ العناية بتقصي الحقائق إلى حد احتمال المشاق المرهقة في سبيل الوصول إليها.

ولم أعلم كيف وصل إيفانوف إلى ألموت، لأن من ذكر ذهابه إليها لم يذكر شيئاً عن تفاصيل هذا الذهاب. ولكنني كنت أعلم من مطالعاتي أن الوصول إلى ألموت ليس أمراً سهلاً، بل هو رهق أي رهق، لا يشجع على زيارتها، بل يصد عنها.

وفي آخر سفر لي إلى إيران سنة ١٩٨٨م تعرفت عى الكاتب البحاثة المؤرخ الأستاذ عبد الحسين الصالحي، فذكر فيما ذكر زيارة ألموت، ولكن كان الفصل شتاء مما لا يسمح بالتفكير في هذه الزيارة.

وفي العام ١٩٨٩ زرت إيران من جديد، ولقيت في طهران الأستاذ الصالحي، ومعه صهره حسن آغا مير بهاء فرغباني بزيارة ألموت، واسترسل حسن آغا في تهوين الوصول إليها، قائلاً: إن السيارة تصل إلى مكان يبعد ٨٠٠ متر عن القلعة، وأن هذا البعد يمكن اجتيازه على ظهر دابة، وبذلك أتجنب الصعود المرهق إلى قمة الجبل مشياً على الأقدام.

فأغراني هذا التهوين وصممت على الذهاب.

وفي اليوم السادس من شهر نيسان/أبريل سنة ١٩٨٩ في الساعة الحادية عشرة كنّا نخرج نحن الثلاثة في سيارة حسن آغا من طهران متجهين إلى مدينة قزوين في المرحلة الأولى من الرحلة.

في طريق قزوين

بعد خروجنا من طهران كانت تمتد على يميننا سلسلة جبال ألبرز الطويلة وكان بعضها مكللاً بالثلوج. وكنّا نسير باتجاه الغرب في سهول مديدة، والجبال تسايرنا فتنخفض حيناً وترتفع أحياناً، وكانت تبدو وكأنها سلاسل لا سلسلة واحدة، ما انخفض منها هو السلسلة الأولى، وما تعالى هو سلسلة أخرى، الله

أعلم ما وراءها. وقد علمنا نحن بعد ذلك الشيء الكثير عن هذا (الوراء) كما سنقص على القارىء فيما يلي من القول.

بعد ثلاثين دقيقة كنّا نمر بأطراف مدينة (كَرَج) التي كانت تمتد عرضاً حتى تتصل بسفوح جبال ألبرز، هذه الجبال التي كانت قد انتهى المنخفض منها، ولم يبق أمام أبصارنا إلاّ الشاهق السامق.

وكنا نسير بعد كَرَج في سهول قاحلة مع أننا في عز الربيع، ويبدو أنها سهول صحراوية لا تُنبت، وهكذا يتجاور هنا الضدان: الصحراء والجبال، ضدان تجمع بينهما الجدوبة!

ثم بدت الأشجار إلى يمين الطريق وطلع الإخصاب وظهر العمران، وتجلّت الحياة العملية عن معمل للإسمنت من أكبر معامل الشرق الأوسط، تمده جبال ألبرز بما لا ينتهي مما يغذيه من حجر ومدر! ويتصل المعمل ببلدة (آب يك) التي بدت لأنظارنا في عرض السهل الواسع.

بعد تسعين دقيقة كنا نمر بمعسكر كبير إلى يسارنا تتعالى في طرفه عمائر عالية هي مساكن الضباط، وكنا قد صرنا في سهول قزوين على بعد ٣٥ كيلومتراً من المدينة.

وهذه السهول مملوءة بمزارع الدجاج التي تنتج ما يقرب من ثلث منتجات إيران كلها، ثم هي أيضاً مزارع للبقر والماعز والغنم مما يعطي كل يوم ٤٥ طناً من الحليب ومقادير كبيرة من اللحوم.

وعلى بعد ٢٥ كيلومتراً من قزوين يشاد معمل ضخم للكهرباء رأينا معالمه واضحة، ثم بدت إلى يميننا بلدة (كوندج) ثم قرية (حصار). ثم المدينة التي تشاد حديثاً باسم (زيبا شهر) وهي مدينة للعمال الذين يعملون في مدينة (شهر صنعتي ألبرز) الذين يبلغ عددهم ٣٠ ألف عامل يعملون في معامل منوعة يبلغ عددها ٤٥٠ معملاً ما بين كبير وصغير.

مدخل قزوين

وعلى مداخل قزوين بدت بساتين اللوز والفستق المزهرة التي تحيط بقزوين، ودخلنا المدينة في مدخل جميل من شارع واسع بين صفين من الأشجار هو شارع الطالقاني. والأشجار هي ميزة شوارع القسم الحديث من قزوين، حتى إن شارعاً ضيقاً لا يتسع لصفين من الأشجار، اكتفوا بأن صفّوا الأشجار على طرف واحد منه لئلا يحرموه من الشجر.

وعلى ذكر الشجر، فإن التفاح الذي اشتهر به لبنان قد استقدم القزوينيون أغراساً منه إلى مدينتهم منذ ٢٥ سنة فنجحت كل النجاح وأصبح تفاح قزوين يسد حاجة إيران، وما زاد عن ذلك يصدر إلى دول الخليج.

قبر حمد الله المستوفي

إذا كنا قد ذكرنا الأشجار في شوارع قزوين الحديثة فإن هذه الأشجار لا أثر لها في القسم القديم من قزوين، ولو أريد تشجيرها فهي لا تتسع لهذا التشجير لضيقها، شأنها شأن الشوارع القديمة في كل المدن.

وفي جولة على بعض المعالم الأثرية في قزوين زرنا قبر المؤرخ حمد الله المستوفي الذي احتفظت قزوين بقبره فلم يندثر كما اندثر غيره من قبور العلماء والشعراء والمؤرخين، وهو قائم في قزوين القديمة عند مدخل شارع الصوفيين وسط حديقة فيها أشجار مزهرة وأشجار غير مزهرة، وهو داخل سرداب في غرفة عليها قبة خضراء مخروطية الشكل، مزنَّر أسفلها بأحجار الكاشي الزرقاء المملوءة بكتابات عربية لم نستطع قراءتها لارتفاعها، وللغرفة باب خشبي قديم محفور عليه كتابات عربية، والحديقة مسيَّجة بسياج حجري فوقه سياج حديدي.

معالم أثرية

وفي قزوين بقايا دور وقصور صفوية، فقد كانت قزوين عاصمة للصفويين فترة من الزمن، ولا يزال أحد قصورهم عامراً وسط حديقة غناء واسعة، وقد اتخذ متحفاً لما ظهر ويظهر من الآثار في قزوين.

وفيها المسجد الجامع الذي يعود إلى العصر العباسي الأول، وفي مدخله الأول تجديد قاجاري وتجديد صفوي في المدخل الثاني الذي يلي المدخل الأول، وبين المدخلين ممر عريض. ويؤدي المدخل الثاني إلى صحن واسع جداً فيه بعض الأشجار، وهو ترابي الأرض ما عدا القليل منه.

وفي هذا المسجد بقايا بويهية وسلجوقية وإيلخانية، ويضم عدة أواوين تقام اليوم في كل إيوان منها صلاة الجماعة.

وسرنا إلى تل كبير عرضاً وطولاً قيل لنا إنه بقايا قصر عباسي لأحد حكام المدينة العباسيين ميمون بن عون الكاتب الذي كان والياً للخليفة المهدي. ومما زرناه (مدرسة النواب) التي زارها محمد بن الحسن الحر العاملي صاحب كتاب «أمل الآمل»، وهي تبنى الآن من جديد في ثلاثة طوابق مع سرداب وهي معدة لسكن طلاب العلوم الدينية، ونفقات بنائها من تبرعات المؤمنين.

ولا تزال في قزوين بيوت قديمة جداً تعطي صورة عما كان عليه طراز البناء القديم وهي بيوت مبنية من طابقين، لكل واحد منها شرفة مستطيلة مطلة على الشارع لها حواجز خشبية وأعمدة خشبية تدعم سقفها. وبعض هذه البيوت بالٍ غير مسكون، وبعضها مسكون هو أقل بِلى.

بيوت آل البرغاني

آل البرغاني أسرة علمية كبيرة نبغ منها أعلام العلماء الذين كانت لهم السيادة العلمية في قزوين، وحين انقسمت المدينة مذهبياً إلى قسمين: قسم إخباري ساد في القسم الغربي من المدينة، وقسم أصولي ساد في القسم الشرقي منها، كان يفصل بين القسمين نهر يجري من الشمال إلى الجنوب، وقد غُطي اليوم وأصبح غطاؤه شارعاً.

في ذلك الوقت كان آل البرغاني يسكنون في طرف القسم الغربي، وكانوا من حماة الرأي الأصولي. ومن أخبار بيوتهم أن في أحدها عقد الاجتماع الشهير بين الشيخ أحمد الأحسائي وبين علماء قزوين لمناقشة الشيخ أحمد في آرائه المغالية التي أثارت نقمة الناس، وانتهت المناقشة بالحكم بتكفير الشيخ أحمد.

وقد تحول أكثر بيوت آل البرغاني إلى محال تجارية لا تزال تملكها سلالاتهم التي حملت اليوم أسماء عديدة كآل الصالحي وآل الشهيدي. ولم يبق منها من يحمل اسم (البرغاني).

واحتراماً لذكرى آل البرغاني لا سيما شهيدهم الشيخ محمد تقي الذي اشتهر باسم «الشهيد الثالث»، زرنا منزله الذي جرت فيه المناظرة مع الأحسائي، فدخلنا أولاً في دهليز انحرفنا منه إلى باب نزلنا منه في درجات أدّت بنا إلى باحة الدار التي رأينا فيها بعض الشجر.

القسم الجنوبي من الدار مسكون من بعض أحفاد الشهيد. وأما القسم الشمالي فغير مسكون وفيه القاعة التي جرت فيها المناظرة. وتقام في القاعة الاحتفالات الدينية، وقد أفرز من القاعة قسم خصص للنساء مفصول بحاجز خشبي، وينفق على الاحتفالات من موقوفات الأسرة.

كما زرنا المدرسة الصالحية المنسوبة إلى الشيخ صالح البرغاني الذي كان من أشهر علماء الأسرة والذي خرّجت مدرسته كبار العلماء، فدخلناها من باب ذي مصراعين خشبيين كبيرين ونزلنا في درجات أخرى أفضت بنا إلى باب حديدي حديث دخلنا منه إلى ساحة واسعة فيها بعض الأشجار، وعلى جوانبها غرف بطابقين لا تزال على بنائها القديم وأبوابها القديمة. ويسكن هذه الحجر اليوم ستون طالباً من طلاب العلوم الدينية.

وهذه المدرسة هي المدرسة الكبرى، وهناك الوسطى والصغرى المتصلتان بها. وفي هذه المدرسة سكن السيد جمال الدين الأفغاني حوالى ثلاث سنين ودرس فيها الفلسفة الإسلامية على ملا آغا الحكمي القزويني.

وبعض جوانب المدرسة هي اليوم خراب كما أن أرضها خربة. وصعدنا إلى سطح المدرسة فبدت أمامنا قزوين، وبدت تحتنا دار الشيخ صالح خراباً متهدمة فهي مجرد أرض خالية إلاّ من بقايا عمران، محاطة بأربعة جدران.

كما أشرفنا من السطح على منزل (قرة العين) الشهيرة الذي سكنته بعد زواجها وانتقالها إليها من بيت أبيها الشيخ صالح. والمنزل خرب متهدم.

إلى ألموت

لم نقض في قزوين سوى يوم واحد هو اليوم نفسه الذي وصلنا فيه إليها، وبتنا ليلاً ثم بكرنا في اليوم الثاني متّجهين إلى قلعة ألموت حيث خرجنا في الساعة الثامنة، وكنا نحن الثلاثة الذين قدمنا من طهران، وانضم إلينا المهندس نصرة الله كاظمي الذي كانت سيارته اللاند روفر الضخمة التي يسوقها بنفسه وسيلة انتقالنا إلى ألموت، لأن طريق ألموت لا يمكن أن تسلكه إلاّ مثل هذه السيارات القوية. وهو طريق ترابي معبد منذ عشرين سنة تقريباً عبر الجبال الصلدة العالية، ومع ذلك لا يصل إلى ألموت بل ينتهي قبلها بمسافة بعيدة، ويبقى أمام السيارة طريق عسير مشقوق بشكل بدائي.

بعد خروجنا من قزوين انعطفنا في طريق ألموت متجهين إلى الشمال عبر سهول واسعة خضراء بمزروعاتها المختلفة وكنّا ندنو من جبال ألبرز الممتدة شرقاً وغرباً إلى ما لا نهاية له، العالي منها مكلل

بالثلوج. وكنا نمر ببعض البساتين المنتشرة هنا وهناك. وأخذت الجبال تتضح لنا تدريجياً، ثم مررنا بقرية (كورانه) الصغيرة، ثم بقرية أخرى يخفق في وسطها علم إيراني وبقرية ثالثة فيها بعض البساتين المزهرة.

وهنا أضحت الجبال أمامنا واضحة جلية، ولما وصلنا قرية (رشتفون) وأشرقت لأبصارنا أزهار بساتينها كنا قد دنونا من سفوح الجبال، وهنا انتهى الطريق (المسفلت) وبدأنا في طريق ترابي طويل، ولم نلبث أن صرنا في واد بين جبلين، ثم أخذنا بارتقاء الجبال التي كانت أشجارها مزهرة على يميننا وعلى شمالنا، وكان نهر صغير ينساب بينها.

صعود.. صعود.. صعود مستمر في قلب الجبال الشاهقة، ومررنا بقرية (يزدجرد)، ومن العجيب أن يكون مصير اسم (يزدجرد) آخر الأكاسرة هو إطلاقه على هذه القرية البسيطة!

وانتهت الزروع، وأوغلنا صُعُداً في صميم الجبال حتى دنونا من القمم المكسوة بالثلوج ثم رحنا في صميمها مصعدين.

جبال إلى يميننا، وجبال إلى يسارنا، وجبال أمامنا، وقطعان من الخراف ترعى في الجبال!

أبداً نحن في صعود عنيف مستهدفين الذروات العليا بين بقايا الثلوج، وبلغنا الذروات نمشي بينها غير مصعدين كأننا في سهل مديد، ولم نلبث أن عدنا إلى الصعود، وفوجئنا بمقهى على الطريق بين الأشجار.

صعود في صعود خلال القمم حتى بلغنا أعلاها بين الثلوج، فاستبدلنا الانحدار بالصعود سائرين بين القمم، وأمام أبصارنا سلسلة طويلة، عريضة عالية، شامخة من الجبال المغطاة بالثلوج.

وبعد مرورنا بقرية (خنجر بلاق) الواقعة إلى يسارنا في حضن الجبل، صار الانحدار بين الثلوج شديداً، ثم بدت إلى يسارنا عن بعد قرية (مرك).

إن السلسلة الجبلية العظيمة المقابلة لنا والتي نهبط نحوها هي معاقل حسن الصباح التي نحاول الوصول إليها.

هنا فلاح يحرث على البقر، وبعض الشجر، ثم فلاحان آخران يحرثان، ونحن في انحدار متواصل كنّا انتهينا فيه من الثلوج، حيث عنف الانحدار واشتد. فبدا اخضرار الأعشاب حولنا كما بدا بعض الشجر وبعض الأرض المزروعة، ثم ظهر في الأودية كثير من الشجر، وبدت قرية (قسطين لار) إلى يميننا في المنحدر بأشجار بساتينها المزهرة. ثم كان إلى يميننا أودية هائلة، وتابعنا الانحدار المتواصل، فشاهدنا قطعاناً من الغنم والماعز في مراعيها، ورأينا فلاحاً على حماره صاعداً في طريق الجبل كما رأينا أرضاً محروثة.

أما إلى الوراء فعندما تلفتنا إلى ما كنا فيه مما ننحدر عنه الآن، فقد رأينا أن ما خلفناه وراءنا موغلين في الانحدار، كان جبالاً هائلة رهيبة!

ثم بدت أمامنا في السفوح البعيدة بعض القرى. كل ذلك ونحن ننحدر هابطين وقد أحاط بنا بساط أخضر.

إن الذي أمامنا والذي وراءنا: جبال ووديان وشعاب وتلال وثنايا من أعجب وأروع ما خلق الله في الطبيعة.

هذه قرية (سياه دشت) تبدو في حضن الوادي الذي صرنا على حافته، وتقوم على ضفة نهر (شاهرود) الذي عبرناه على جسر حديدي واصلين إلى القرية.

نحن الآن في قلب الوادي الذي هو سهل واسع بين السلسلتين الرهيبتين، لقد هبطنا من السلسلة الأولى وأخذنا نصعد في السلسلة المقابلة.

وإذا كنت أقول: سلسلتان، فلا يعني أنهما سلسلتان وحيدتان.

إن الجبال هنا سلاسل وراء سلاسل... وراء سلاسل... إلى ما لا يمكن أن تعيه وتدركه.

بدأنا الصعود في أرض جرداء، وتلفَّتنا إلى الوراء فرأينا ما جعلنا نكاد لا نصدق أننا كنا هناك في تلك الجبال الثلجية المرعبة، وأننا هبطنا منها لنواجه ما هو أشد إرعاباً!

كان الصعود أول الأمر غير شاق مضينا فيه بين اخضرار من حولنا، ثم عدنا إلى الانحدار الطويل البعيد الغور حتى صرنا في وادٍ ضيق يجري فيه نهر (أوان) الذي هو من روافد نهر شاهرود، وعبرناه على جسر لنعود إلى الصعود من جديد، وأوغلنا في الصعود أي إيغال، ورأينا قطعاناً من الغنم، ثم مررنا بقرية (بيكين) مجتازين وسطها ببيوتها الطينية.

ولسكان هذه القرية وسكان أربع قرى أخرى غير بعيدة عنها، وأربع قرى أخرى بعيدة في (رودبار) حديث لا بد من إيجازه هنا. وهذه القرى هي: وسته، ويوج دُرجاك، وتلو، وأسب مرد، وسوخته كش، وكش آباد، ورتايان، وزنا سوج، وهلارود، وصبوجين، وديكين، وابيترك.

إن لسكان هذه القرى عقيدة دينية سرية لا يظهرونها لأحد، ويكتمونها كل الكتمان، فقال بعض الناس عنهم إنهم زرادشتيون، وقال آخرون إنهم إسماعيليون نزاريون، ولكن كلا القولين لا يصح، فالزرادشتيون موجودون علناً في إيران لا يخفون عقيدتهم. وكذلك النزاريون.

وقد حاول أحد الباحثين إعداد دراسة جامعية عنهم فاتصل بهم فلم يحظ منهم بطائل.

وحدثني رفيقنا الأستاذ عبد الحسين الصالحي أنه صادق واحداً منهم وأوجد له عملاً يرتزق منه، فلما سأله عن حقيقة عقيدتهم لاذ بالصمت المطبق، ولما كرر عليه السؤال بعد ذلك ترك عمله الذي أصبح مورد رزقه وانقطع عن الأستاذ الصالحي، وصار إذا رآه حيّاه مبتعداً بإشارة من يده متجنّباً لقاءه.

ويطلقون عليهم في إيران اسم (كلاّبُز).

وقد عرفنا بعد ذلك من عقيدتهم أن الطلاق عندهم ممنوع، وإذا حدث أن طلّق أحدهم زوجته فإن أحداً منهم لا يتزوجها، وإذا مات الزوج لا تتزوج زوجته بعده، وأنهم يصومون في السنة ثلاثة أيام. وهم يحرمون أكل لحم الحيوان الحامل، ويحرمون أكل رأس الماعز، وربما لذلك ولما يأتي كان اسمهم (كلاّبُز)، فإن معنى كلمة (كلاّ) الرأس، ومعنى كلمة (بُز) الماعز.

وهم يحرمون أكل الجبن، ولا يزوجون أحداً من غيرهم، ولا يتزوجون من غيرهم.

ولديهم جلسة سرية سنوية تعقد في أول ليلة في فصل الشتاء هي أطول ليلة وأقصر نهار. وعندما يجتمعون في هذه الجلسة يضعون حرساً حول مكان الاجتماع لئلا يدخله غريب عنهم، ويطبخون رأس عنزة ويتناولون منه بعد بركة الشيخ ويقرأون بعد ذلك دعاء. ويسمون هذه الليلة (شب يلدا) أي ليلة يلدا.

هذا ما انكشف من أسرارهم، ولكن من الأكيد أن عندهم أسراراً لم يكشفها أحد بعد.

على أن من الغريب ما حدثنا به السيد ناصر القوامي، وهو من أفاضل العلماء ومخالط لهم أنهم في مظاهرهم لا يختلفون عن المسلمين في شيء، فلهم مساجدهم ويصومون ويصلون ويفعلون كل ما يأمر به الإسلام، حتى إن واحداً منهم جُند في الحرب العراقية الإيرانية الأخيرة، فكتب وصية قبل ذهابه إلى الحرب وجعل السيد ناصر وصياً، وكان مما أوصى به مبلغ من المال ينفق ـ إذا قتل في الحرب ـ على بناء مسجد، فنفذ الوصي الوصية وقبض المال وبنى المسجد.

وأوغلنا في الصعود.. صعود.. صعود.. منتحين القمم العالية، ومررنا بقرية من بضعة بيوت اسمها (مياني خاني). وكانت القمم التي نقصدها تبدو أمامنا قمماً هائلة، وكنا في الوقت نفسه نمشي بين القمم قاصدين القمم الأعلى.

ووصلنا قرية (مُعلّم كلايه) التي ترتبط بها أربع قرى أخرى هي أكبرها، وتبدو على القرية مظاهر حضارية عكس القرية السابقة (بيكين) التي هي قرية بدائية.

ومن القرى التي ترتبط بقرية (معلم كلايه) قرية (شمس كلايه) التي تقع في سفح قلعة من قلاع الإسماعيليين النزاريين، هي عبارة عن كهف كبير يتداخل في كهوف أخرى متصلة به. ويسمونها هناك قلعة (شمس كلايه) ولا ندري هل أن القلعة أخذت اسمها من القرية أم أن الأمر بالعكس.

وقد وصفها لنا بما قلنا أحد الأشخاص القلائل الذين استطاعوا الوصول إليها، لأن الوصول إليها يكاد يكون مستحيلاً. وقيل لنا إن المعروف هناك أن الإسماعيليين كانوا يصعدون إليها بسلالم من الحبال يدلي من بداخلها إلى من يريدون الوصول إليها منهم.

كنّا طوال سيرنا نسير في طريق من أعجب الطرق، فما نكاد نخترق سلسلة من الجبال حتى ننتهي إلى سلسلة أخرى، فنبهط ثم نصعد، ثم نهبط ثم نصعد... وهكذا.

كنا نسير تارة بين تلال هي في الحقيقة قمم الجبال، وتارة في جبال، وتارة في وديان هي في الحقيقة ثنايا الجبال.

إننا الآن نهبط ونهبط وحولنا زروع وأمامنا الجبال التي هي أشد هولاً من كل هائل مررنا به.

لقد عرف الحسن الصباح كيف يختار معاقله. فأي جيوش تستطيع سلوك هذه المسالك؟!

كانت قلعة شمس كلايه أشبه بمخفر أمامي استطلاعي يراقب من يحاول التقدم، ومن الذي يستطيع التقدم من هنا؟!

نحن الآن نهبط، ونمعن في الهبوط حتى صرنا في قلب الوادي، ووصلنا قرية (شهرك).

هذا الوادي هو لزراعة الرز لكثرة مياهه، عبرنا فيه على جسر رافد من روافد نهر شاهرود، ثم على رافد آخر قريب منه. وانطلقنا في قلب الوادي حتى اجتزنا بقرية (دوزدك سر) على جسر لرافد ثالث للنهر الكبير، ثم بقرية (محمد آباد) المتصلة بالقرية الأولى. ولا نزال نسير في الوادي الروي البعيد المدى، وهذا جسر رابع على رافد رابع، وهذه قرية (شترخان) نمر بها إلى رافد خامس ولكنه صغير لم يقم عليه جسر فعبرناه وسط المياه.

وهنا كان قد انتهى الطريق المعبّد، فوجب علينا أن نسير في طرق يصعب فيها السير ويشق، فواصلنا السير مارِّين على جداول متتابعة، هي الأخرى روافد صغيرة لنهر شاهرود الكبير.

ثم بدأ الصعود الجبار في جبال من أعجب ما في الدنيا من جبال، وكانت لا تخلو من حقول مزروعة وأشجار مبثوثة، وإذا بنا نعود إلى الانحدار العنيف عابرين على جدول، عدنا بعده إلى الصعود العنيف حتى قرية (كازرخان).

ولندرة ما يمر بهذه القرية من سيارات كان وصول سيارتنا إليها عاملاً على تجمهر أطفالها مستطلعين متعجبين، بل عاملاً على تجمهر بعض الرجال أيضاً.

وهذه القرية (كازرخان) تقع على مقربة من سفح قلعة (ألموت)، وتواجهها القلعة على القمة القريبة، ويفصل بينهما وادٍ على شكل خندق كبير، والقرية محاطة بالأشجار من كل جانب.

وكان وصولنا إلى القرية في منتصف الساعة الثانية عشرة، أي أننا قضينا في الطريق ما بين مدينة قزوين وبين قرية كازرخان في سفح قلعة ألموت ثلاث ساعات ونصف الساعة.

وبدت القلعة حيالنا على قمة صخرية كبرى تمتد وراءها الجبال الصخرية. وكان على السيارة أن تقف هنا فلا تتعدى ما بعد القرية إلاّ مسافة لا تتجاوز مئات الأمتار، إذ لا سبيل للسيارة إلى تجاوز ما وراء ذلك.

وتقدمنا نحن قليلاً إلى ما هو أقرب إلى موقع القلعة حتى صرنا في سفح صخرتها الضخمة على قيد أمتار من القاعدة.

وبدا موقع القلعة فوق الصخرة الهائلة، محاطاً بالجبال شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وهي في قمة جبل تكتنفه الوديان الفاصلة بينها وبين الجبال.

ويجري جدول صغير منحدراً في سفوح صخرة القلعة، وتُرى قطعان من الضأن ترعى في سفوحها المنبتة.

لقد أوصلتنا السيارة إلى سفح قلعة ألموت عابرة ما عبرت من جبال شامخة وأودية سحيقة، وحطت بنا على السفح المنشود، وها نحن غير بعيد عن القلعة التاريخية العظيمة. ولكن هذا الذي يبدو لأعيننا غير بعيد، كان في الحقيقة بعيداً كل البعد، بل إن بعده هذا الذي هو غير بعيد ـ يحول بيننا وبين الوصول إليه؟!

ماذا؟ أأتكلم بالألغاز؟! لا ألغاز ولكنها حقيقة واضحة، تبدو وكأنها من صميم الألغاز!

بيني وبين الوصول إلى صميم القلعة مسافة تعد بمئات الأمتار، ولكن هذه الأمتار ممعنة في الصعود.

إنها قريبة بالرغم من إمعانها هذا!!

ولكن إذا كانت المسافة المكانية بيني وبين القلعة تعد بمئات الأمتار، فإن المسافة الزمنية بيني وبينها هي إحدى وثمانون سنة.

إحدى وثمانون سنة من العمر هي التي تفصل الآن بيني وبين القلعة! فكيف لي وأنا أحمل هذه السنين الثقال بأن أصعد الجبل على قدميّ إلى قلعة حسن الصباح؟!

لقد كان لحسن الصباح فدائيوه الذين طالما قذف بهم إلى اغتيال من ناوأوه وعادوه، وفكرت وأنا في سفح قلعته في ذلك! واستعرضت في ذهني مواقفي منه، وهل هي مما يسلكني في صف من يستحقون أن ينالهم فدائيوه بالشر؟ وما يدريني أن لا تكون قلعته بموقعها الشامخ معدة إعداداً محكماً لاغتيال من يغضب عليهم حسن الصباح وهو في قبره، فتقتلهم وهم يحاولون الصعود إليها؟!

استعرضت مواقفي من حسن الصباح، فرأيت أنني إذا كنت قد أغضبته بإنكاري عليه الانشقاق الخطير الذي أحدثه في الصف الموحّد، وإنكاري على خلفائه ما ابتدعوه من العقائد، فكان وكانوا السبب في استغلال خصوم الدولة الفاطمية العظيمة لكل ذلك بنسبة ما هي بريئة منه إليها.

إذا كنت فعلت ذلك، فإني في الوقت نفسه قد أحسنت الدفاع عمّا نسب إليه وإلى جماعته من بعده من تهم باطلة لا أصل لها.

فهل تمحو الحسنة عنده السيئة فلا تنالني الآن قلعته بالشر إذا عزمت على الصعود إليها؟! أم إن حقده وحقد قومه قد وصل إلى جماداتهم فلا تنسى السيئات، وتكون الآن فرصتها للانتقام؟!

لم يكن هناك مجال للتردد لأن خوف الصعود مشياً على الأقدام قد أزاله إحضار (حمارة) من القرية أعدها الرفاق لي، فامتطيتها ومضت صاعدة بي وأنا لا أكاد أتماسك على ظهرها لما في الطريق من مزالق، وصبرت على ذلك حتى بلغنا مكاناً لا تستطيع حتى (الحمارة) سلوك طريقه، فكان لا بد من النزول والتوقف.

ونزلت متطلّعاً إلى موقع القلعة، فإذا لا يزال بيننا وبينها مراقٍ طويلة. هيهات أن يتاح لي اجتيازها على قدميّ، فقررت الاكتفاء بما وصلنا إليه، بعد أن عرفت الكثير مما يجب معرفته. ولكن تشجيع الرفاق، والتفكير بخيبة عدم الوصول إلى القلعة بعد أن صرت على وشك الوصول إليها كان دافعاً على المغامرة فمشيت وئيداً، ومضيت أمشي قليلاً وأجلس كثيراً حتى بلغنا القمة المنشودة.

لم يبق من القلعة بعدما نالها من التخريب، إلاّ بقايا جدران وأكوام من الأحجار، أو أحجار متناثرة، وأطلال غرف، وبقايا صهاريج ماء، وغرف منحوتة في الصخر كانت على ما يبدو صهاريج مائية.

إلى الشرق من القلعة واد صخري سحيق، وإلى الغرب واد مثله وكذلك إلى الشمال والجنوب ولكنها أودية غير صخرية، وهي أودية يتعذر على جيش مهاجم للقلعة أن يجتازها سليماً.



في ظل المنبسط الذي تقوم عليه القلعة

ووراء هذه الأودية ما لا يدرك الطرف مداه من جبال وأودية، ونقول جبال وأودية لأن لا كلمات أخرى تحل محلها، وإلاّ فهي فوق أن تحمل اسم الجبل أو الوادي، إذا كان مفهوم ذلك ما يمكن أن يتخيله الإنسان مما سبق أن رآه من الجبال والوديان.

وإذا تجاوزت التفكير بالماضي والاعتبار به، واكتفيت بالنظر إلى ما هو أمام عينيك، فإن تلك الجبال والوديان والقمم والثنايا والشعاب من أروع ما يمكن أن تقع عليه العين.

ولا يفوتنا أن نقول بأن ارتفاع الصخرة التي تقوم عليها القلعة هو ١٥٠ متراً. وارتفاعها عن سطح البحر هو ١٩٥٠ متراً، وأن طول القلعة حوالى ١٢٠ متراً، وعرضها بين ١٠ أمتار إلى ٣٥ متراً.

أين الجنة؟

ومن أول ما يتبادر إلى الذهن وأنت في القلعة البحث عن المكان الذي زعم الزاعمون أن الحسن الصباح أقام فيه جنته التي كان يغري بها فدائييه لاقتحام الأهوال. وقد تطلعت إلى كل مكان باحثاً عن البقعة التي تصلح لأن تقام فيها الجنة، فلم أجد تلك البقعة، لا في الأودية الصخرية ولا في السفوح المهاوي، ولا في القمم الثلجية.

على أنني وجدت أن ما يعشب من تلك الأرضين يمكن أن يدل على أن ما قاله القائلون من أن أصل كلمة (الحشاشين) التي لحقت بالإسماعيليين النزاريين، هو (الحشائشيون)، أي الذين يجمعون الحشائش الطبية ويصدرونها لغيرهم ـ إن ذلك يمكن أن يدل على أن هذا القول سليم، لإخصاب تلك الأرض بالحشائش، وتنوع تلك الحشائش.

أين هذا السكون المهيمن على هذه الخرائب الباقية من قلعة ألموت من ذاك الضجيج الذي كان يلف القلعة من كل جانب؟

لقد خلت ألموت من عُمّارها، وباد أولئك الذين ملأوا الدنيا من حولهم صخباً وثوراناً، ولم يبق منهم ما يدل عليهم، ولولا أن سطور التاريخ وحدها هي التي تشير إليهم، لما كان في هذا المكان ما يشير إلى أنهم حلوه أقوياء أشداء مرعبين.

وإذا كان الشريف الرضي قد قال حين مرّ على أطلال (الحيرة):

باق بها حظ العيون وإنما لا حظّ فيها اليوم للآذان

فإنه لا حظ لعيون من يمر على أطلال ألموت، إذا كان المقصود أطلال ما خلف الماضون، ولكن حظ العيون للمتطلع من قمّة ألموت هو حظ كبير، إذا كان المقصود بذلك ما أضفى الله من الروعة والجلال على ما حولها مما تعالى أو انحدر أو انبسط.

على أنك مهما انفعلت بالطبيعة ومشاهدها لا تستطيع إلاّ أن تردد قول الشاعر الآخر:

مرابع إن تلمم بها بعد عزّها رأيت دبيب الموت من كل جانب

وأمر قرية (كازرخان) وريثة ألموت أمر يدعو إلى التأمل، وإذا كانت القرية لم تقم على القمة، بل على السفح لأن الكازرخانيين حين قرروا الإقامة هنا لم يكن في ذهنهم عدو يهاجمهم فيمتنعون منه بالقمة، ولا هم فكروا باستعداء الناس، لذلك آثروا النزول هنا على الماء الجاري في سفحهم المعشب.



أمام فجوة في القاعدة التي تقوم عليها القلعة

وأنا لا أعرف شيئاً عن ماضي الكازرخانيين، وعن تاريخ حلولهم في هذه القرية، فلربما كانوا ممن سلم من مذابح المغول في القلعة، فهم من سلالة النزاريين الذين نجوا بأنفسهم، ثم آثروا الإقامة غير بعيد عن مقامهم الأول.

لم تتسنّ لي محادثتهم واستطلاع شؤونهم لأننا كنا معجلين في العودة ولقد كانوا كراماً فأعدوا لنا غداء سخياً تناولناه بعد الإياب من القلعة، كما أنه كان منهم صاحب (الحمارة) التي استأجرناها لصعود الجبل.

على أن الأكيد أن عقيدتهم ليست العقيدة الإسماعيلية النزارية، بل هم شيعة جعفريون. وهم منعزلون بعض الانعزال عن العالم وقلما تصل سيارة إلى قريتهم لوعورة الطريق الذي لا يمكن أن تقطعه إلاّ سيارات من نوع قوي غير عادي. لذلك رأينا تجمهر الأطفال عند سماعهم أزيز السيارة، بل تجمهر بعض الرجال، لأن وصول السيارة لقريتهم حدث يُرى ويُعجب!

ولقد تأملت في وجوه من لقيناه لعلّي أرى فيها ما يدل على أصل فدائي جبّار، نستنتج منه على أنهم من سلالات نزارية مفادية!

فربما كان هذا الشيخ المضياف الماثل أمامي حفيداً لذلك الفدائي الذي غرس المدية تهديداً قرب سرير الملك السلجوقي سنجر، في اللحظات التي كان سنجر يغط فيها بنومه!

ولربما كان هذا الشاب المعوان المنهمك حيالي برص صحاف الطعام سبطاً لذلك الفدائي الآخر الذي جرّد خنجره على الفقيه الرازي، فارتدع الفقيه عن شتم النزاريين في مجلسه إلى الأبد!

وربما كان هؤلاء الغادون الرائحون من هنا وهناك متحدرين من تلك الأصلاب التي طالما أرعب أصحابها من أرعبوا!

ولكن الوجوه الكازرخانية لم توحِ إلاّ بالدعة، ولم أجد في قسماتها إلاّ الأمن والسلام.

في ديار الحسن بن الصباح

السابع من حزيران/يونيو سنة ١٩٩١ كنا نخرج من مدينة قزوين في سيارة جيب ضخمة عابرين السهول الفيح بين حقول القمح الممتدة إلى كل مكان، وكانت تواجهنا من بعيد سلاسل جبال البرز، وبدا لنا في قمة من قممها نصب عالٍ يطل في مدى واسع على ما أمامه من سهول مترامية الأطراف.

هذا النصب هو بعض ما أعده الإسماعيليون النزاريون لمواجهة الأخطار، فهو عين راصدة لا تفوتها تحركات المقبلين في الأرض المكشوفة، فإذا لمحت ما يريب أوقدت ناراً أو أرسلت دخاناً أو أطارت حماماً، إشارة إلى الخطر الداهم، فتكون النار أو الدخان أو الحمام إنذاراً يحتاط معه المحتاطون.

وكان هذا النصب أول ما نبصر من مظاهر الحياة العسكرية للنزاريين، وأول ما يطالعنا على أبواب ديارهم التي نمشي إليها حثيثاً. وهو إن دلَّ على شيء فإنما يدل على شدّة الحذر الذي كانوا يمارسونه في جبالهم التي لا تشبهها جبال.

ولم نلبث أن مررنا بنهر (باراجين) الجاري إلى يميننا. ثم عبرناه على جسر جعل النهر إلى يسارنا، ورأينا الدسكرة التي تقوم على ضفّتيه ومواقع المطاحن الكبرى التي كانت تدور بماء السد المشاد على النهر، ثم زالت مع ما زال من القديم بحلول الجديد المتطور محله.

وبعد مرور ثلاثين دقيقة على خروجنا من قزوين انتهى طريق الإسفلت، وتشعب الطريق فمشينا في الشعبة الترابية، فكنّا في تخوم جبال الديلم، وعلى أبواب مداخلها.

جبال الديلم

ولهذه الجبال ذكر موغل في التاريخ ليس هنا مكان الحديث عنه، ولكن طروق جبال الديلم لا يمكن أن يمر دون أن يعيد الفكر إلى العصور التي كانت فيها هذه الجبال مسرحاً لأحداث لا تزال أصديتها تتجاوب في مسامع الزمن. فأنا الآن أسمع قول الشاعر القديم:

قد يعلم الديلم إذ نحارب حين أتى في جيشه ابن عازب

بأنّ ظن المشركين كاذب فكم قطعنا في دجى الغياهب

من جبل وعر ومن سباسب

وإذا كان هذا الشاعر أنشد ما أنشد محارباً، وعبر هذه الجبال مقاتلاً، فإننا نردد شعره مسالمين، ونعبر الجبال مؤاخين متحالفين. وإذا كان يعلن بأن ظن المشركين فيها كاذب، فإننا نعلن أن فيها اليوم: المؤمنين الذين لا تكذب ظنونهم. على أننا مثله: كم نقطع (من جبل وعر ومن سباسب)، ولكن لا في دجى الغياهب، بل في وضح النهار وتألق الشمس ومتوع الضحى.

ومضينا في الجبال التي تكاثفت حولنا شاقين لها في واد طويل مررنا فيه على جدول ينحدر من الأعالي بين الصخور، وتقوم الأشجار على ضفته، ومن فوقها الحقول الخضراء الضيقة المستطيلة.

ورحنا نوغل في الوادي في قلب جبال الديلم، والنهر والشجر إلى يميننا في قلب الوادي، ثم انقطع كل ذلك وعادت السفوح الصخرية، ثم عادت شجيرة، ونحن بين الجبال.

ولاح إلى يسارنا كوخ متفرد في ذلك البر، وحياله على الضفة الثانية من الطريق غابة أشجار، ثم لاح لنا كوخان آخران. وكان من الغريب وجود هذه الأكواخ في هذه الأمكنة، ولكن بعد أن عرفنا أن هذا الطريق الترابي الذي نسير فيه لا يعود تاريخ شقه إلى أكثر من ثلاث سنوات، استنتجنا أن هذه الأكواخ ربما كانت محطات للمسافرين على ظهور الدواب يفيئون إليها من عناء السفر.

نحن نسير الآن صعوداً فوصلنا قرية (زدشك) بحقولها الخضراء، وبدت القرية إلى يسارنا ببيوتها الطينية محاطة بالأشجار الممتدة إلى خارجها، ما يدل على ماء غزير هنا يروي البساتين.

وحدة

وواصلنا السير صعوداً في صميم الجبال الخضراء، ومنذ سلكنا هذا الطريق كانت سيارتنا هي الوحيدة فيه، إذ لم نصادف أية سيارة صاعدة أو هابطة، إلى أن رأينا الآن شاحنة تهبط نزولاً.

وبعد اجتيازنا بحيرة (درىابك) صادفنا حافلتين تتجهان نحونا واحدة بعد أخرى.

ومضينا مصعدين صعوداً غير عنيف بين خضرة الجبال حولنا وأمامنا، ثم بدت لنا السلسلة الجبلية الضخمة التي نتجه إليها، والتي هي قلب الوطن (الصباحي)، وإذا كنا الآن نمشي في هذا الوطن ونعبر فيه الجبال المتكاثفة: قمماً عالية وأغواراً هاوية، فليس كل ذلك إلاّ خطاً دفاعياً أول ـ على التعبير العسكري الحديث ـ يصد من تسول له نفسه التقدم إلى القلب.

ولم يلبث الجبل أن صار إلى يسارنا، والوادي السحيق إلى يميننا، وكانت بعض القرى الشجراء تتناثر في الوادي.

وبعد السيارات الثلاث أقفر الطريق إقفاراً كاملاً، وبقينا وحدنا في هذا الطريق الطويل غير العريض.

ثم تشعبت الجبال والأودية إلى يميننا وتداخل بعضها في بعض، وأخذنا بالانحدار بعد التصعيد المستمر، وفجأة أبصرنا (منحلاً) كبيراً في وسط البرية الواسعة المقفرة، وأحسن مربو النحل اختيار المكان المعشب المزهر لاجتناء العسل، ولكن أين هم أصحاب هذا (المنحل) المنتشر على مساحة واسعة؟ إننا لم نحس إنساناً في طول هذا الطريق الطويل وفي عرض هذه الدنيا العريضة التي نجتازها!

وأوغلنا في انحدار متواصل ففوجئنا بشاحنة ثم بأخرى في اتجاهنا. واشتد الانحدار اشتداداً سيوصلنا إلى الوادي العظيم الفاصل بين السلسلتين العظيمتين: السلسلة التي ننحدر منها والسلسلة والتي نمشي إليها. وتنوعت أمامنا مناظر الطبيعة الأخاذة التي تشده بأفانين جمالها. كل ذلك في طريق مقفر وأرض خالية حتى لتحسب أن لا بشر هنا.

وإذا كان الشاعر العربي القديم قال:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصـــوّت إنســـان فــكـــدت أطـيـــر

فإننا كنا نتمنى لو يعوي الذئب أو يصوت الإنسان فنستأنس بالاثنين ولا نحس بوحشة الكون الخالي من الإنسان والحيوان.

وأبواق السيارات التي طالما دوّت في آذاننا كريهة الدوي كنا نتمنى لو تدوي هنا فتكون حبيبة الدوي سائغة الزعيق.

ننحدر وننحدر راكضين في مملكة حسن الصباح إلى الوادي الخصيب الرحب. وإذا كان عزنا حتى الآن عواء الذئاب وتصويت البشر، وإذا كنا افتقدنا الإنسان والحيوان فيما نمشي فيه من جبال وأودية، فإن قطيعاً كبيراً من الغنم فاجأنا بظهوره منكباً على الأرض المعشبة يوسعها قضماً، وراعياً يقف إلى جانب الطريق متكئاً على عصاه التي لم يكن في حاجة لأن يهش بها على القطيع الساكن الوادع!

واشتد انحدارنا من الجبال الهائلة، فلاحت إلى يميننا قرية (فلار) في قلب الأودية والجبال، وفوقها غابة مكتظة، ومررنا ببيوت متطرفة من القرية، بيوت طينية بدائية ضاوية!

المنحل العامل بخلياته المتراصفة صفوفاً نظيمة، بصناديقها الفنية المصوغة على أحدث ما تصاغ به صناديق خلايا النخل في أرقى البلاد.

المنحل الذي فاجأنا ظهوره في البرية المقفرة، هو نقيض هذه القرية مظهراً ومخبراً!

حقيقة الحياة النزارية

ومضينا منحدرين فطلعت لنا سيارة جيب عسكرية، كانت وحيدة في الطريق البعيد المدى.

ثم لاحت كتل الجبال المقابلة واضحة، وبدت في الوادي قرية (رازميان) التي سنعود إلى ذكرها، ولاحت فوقها قلعة (لمبسر) إحدى أشهر قلاع الإسماعيين النزاريين، وهي التي ننوي الوصول إليها فيما ننوي الوصول إليه من القلاع والديار.

هنا حيال رازميان المغمورة بالزروع والبساتين، والمطلة عليها من فوق الشواهق قلعة لمبسر تبدو حقيقة مملكة حسن الصباح.

لم تكن الحياة في هذه المملكة جافة خشنة كما قد يبدو من وصف معاقلها والحديث عن مواقعها، ولم تكن عسكرية العيش فدائية التحرك، عيشاً لا تعدوه وتحركاً لا يميزها غيره.

هناك على القلعة الشامخة فوق الجبل قلعة لمبسر بوحشتها وانقطاعها، هناك تتحرك عقول العسكريين وتدبر مؤامرات الفدائيين.

وهنا في الوادي البهيج في رازميان تنطلق الحياة مرحة في ظلال الشجر وانبساط العشب وتدفق الماء.

هنا تتحرك أيدي المزارعين وأقدام الفلاحين وأفكار الشاعرين والكاتبين.

فمن القمم ومن السهول، من الصخور الصلدة والغصون الغضة، من غلظة الجبل ورقة الوادي، من تمازج ذلك كله وتفاعله كانت تتألف مملكة حسن الصباح وخلفائه، فكان لها ما كان من الدوي الصاخب في مطاوي التاريخ.

طال انحدارنا بين المرائي الطبيعية الجميلة، الجبلي منها والودياني، فقد تجلى لنا الآن الوادي الخصيب الروي، ووضح بكل معالمه الرحبة المنطلقة في كل مكان بحسنها الريان.

ورحنا ننحدر في طريق مقفر من كل إنسان، هذا الإقفار المتوالي الذي نشهده هنا في هذه الأرض المخصاب على هذا الطريق المفترع للجبال والآكام والوهاد.

هذا الإقفار العجيب أعاد إلى ذهني وحشة الشعراء القدامى وهم يجوبون البوادي على ظهور الإبل، وحشتهم من توحّدهم في سيرهم الطويل، فألهمهم ذلك شعراً جميلاً، رحت أكد ذاكرتي لتسعفني بشيء مما أستظهره منه متمثلاً به هنا في هذه السبل القفراء، فكان أول ما عنّ على الذهن من ذلك قصيدة جاء في أولها:

وصلنا السرى بالسير نقطعها قفرا ... مهامه لا تهدى إليها القطا إثرا

على يعملات كالقسي تفاوضت ... أحاديث من تهوى فطاب لها السرى

على أننا نحن لم نكن نواصل (السرى)، بل (السير) فقط، ولم نكن في مهامه بل في مساكن ومزارع ومغارس وينابيع، ومع ذلك فقد كنا كذاك الشاعر نقطعها (قفرا).

وشتان بين (يعملات كالقسي) كانت تقله ورفاقه، وبين (سيارة الجيب) التي كانت تقلنا، وإذا استطاعت شاعريته أن تجد تشبيهاً جميلاً لـ (يعملاته)، فقد عجزت أنا عن أن أجد مشبهاً به لهذه (الجيب) الضخمة القوية!

وما كان أرقه وأعذبه وهو يتحدث عن الهوى وأصحاب الهوى، وأن المسرى في المهامه المقفرة، على مشقاته، كان يطيب بمجرد تذكر من يهوى، والتحدث إليه، تفاوضاً بينه وبين الحبيب الماثل في خاطره!

أيها البعيدون هناك في بيروت وبغداد ودمشق وشقرا، إننا كنا كهذا الشاعر نستطيب المسرى المجهد حين نتذكركم!

ورحنا ننحدر وننحدر، والشعر البدوي ملء الذهن، فإذا (المشبه به) الذي عجزت عن إيجاده لأضيفه إلى (الجيب) المنحدرة التي تحتوينا، إذا بذاك الشعر يمدّني به، وإذا بي لا أجد لإحدى معجزات الحضارة إلاّ مشبهاً به مستمداً من صميم شعر البداوة، إن هذه (الجيب) المنحدرة بنا بقوة كانت كما قال امرؤ القيس: «كجلمود صخر حطّه السيل من علِ»!

وبينا نحن ننحدر في طريق مقفر من كل إنسان، إذا بدراجة نارية تفاجئنا صاعدة بدويها المعهود.

ومرت بطيئة السير، تصدها العقاب عن الانطلاق، وتلاقينا معها، تصدنا الوهاد عن الانطلاق. كنا هابطين مبطئين، وكانت صاعدة مبطئة، فكنّا كلانا في هذا الطريق الترابي المثير للغبار، وبما عبرنا به، وما نعبر من بيوت طينية في القرى الضاوية.

كنا جميعاً صورة للحياة في هذه الأرض: حضارة متثاقلة الخطى، يلفّها العجاج ويعيقها المهبط والمصعد!

ولاحت في الوادي قرية (بهرام آباد)، واجتازتنا حافلة صاعدة من حيث نهبط، ثم سيارة صاعدة، ثم سيارة (ستيشن) محملة بالحطب صاعدة.

وبدا أننا على مشارف تبدل الحياة هنا، وأن الحركة بدأت تمور مورانها الطبيعي إن لم يكن كاملاً فهي على كل حال حركة كنا نفتقد مثلها من قبل.

وبدت قرى الوادي متناثرة بخضرتها اليانعة، خضرة أشجار وزروع. ودنونا من الوادي وظهرت (بهرام آباد) واضحة أمامنا، ثم صرنا في قلب الوادي إلى جانب بهرام آباد التي بدت قرية بدائية ببيوت طينية هامدة.

نحن الآن بين حقول الرز المنتشرة في هذا الوادي الخصيب، وكان زارعوه يخوضون الماء لغرسه. فهذا الوادي هو من أكبر منابت الرز، ثم عبرنا جسراً على نهر شاهرود الذي يمد هذه الأرض بالحياة من مائه الدافق فيها، ومضينا نشاهد منظرين: منظر الرز مزروعاً ومنظر القمح محصوداً. وكانت الحمير تنقل حصيد القمح من حقوله إلى حيث يفصل بين القش والحب.

وأوغلنا في جانب الوادي سائرين على أطراف قاعدة الجبل حيث بدت لنا غابة خضراء كثيفة الأشجار الشامخة المتسلسلة إلى أبعد من البعيد.

قديم وجديد وألوان

وإذا كانت الحقيقة في حياة مملكة حسن الصباح تجلّت حيال (رازميان)، حقيقة الحياة التي يرفدها العزم الصارم في قمة الجبل والزند الحازم في غور الوادي، فها هي هنا أكثر تجلياً في هذا السهل المنبسط وادياً بين السلسلتين الهائلتين، حيث حصيد القمح وغريس الرز وتكاثف الغابة وهدير النهر. وحيث الجبل المتمادي علواً تدبر فيه الأمور وتحبك حبائل الخير والشرور.

ومضينا صعداً نمر بينابيع مياه وغابات أشجار، ولما أوغلنا في الصعود صرنا في جبال جرداء عجيبة، فهي طوراً صفراء وطوراً بيضاء وطوراً سمراء، ثم أطلت قرية (برود) محوطة بالبساتين في قلب الوادي الذي عدنا إلى السير فيه، فإذا بدراجتين ناريتين خارجتين من القرية. ثم دخلنا القرية عابرين إليها على جسر نهر. وسرنا في الشجر المتكاثف، فأبصرنا في مداخل القرية حمارتين داخلتين إليها.

دراجتان خارجتان، وحمارتان داخلتان! أحدث الحديث وأقدم القديم.

على أن القدم والحداثة هما أقل من القليل ظهوراً في هذا المشهد بين وسيلتي النقل: الدراجة والحمارة.

إن القدم والحداثة يبدوان في هذا الموقف وسيظلان يبدوان في كل ما سنجوزه من مواقع ـ إنهما يبدوان بمظهرهما المذهل، متمثلاً بهذه الفجوة الواسعة بين المكان والزمان.

إن المكان لا يزال على ما خلفه الإسماعيليون النزاريون منذ أكثر من سبعمائة سنة: بيوت طينية واطئة شاحبة، في قرية بدائية متضائلة خابية.

والزمان هو العقد الأخير من القرن العشرين!

خرجنا من القرية مصعدين في جبال هي بلونها غير الجبال التي عرفناها فيما وراء (رازميان)، فإذا تنوعت ألوان الجبال هناك من ابيضاض إلى اصفرار إلى اسمرار، فإنها هنا بيضاء تتخللها الصخور السوداء. وفجأة أشرفنا على غابات بعيدة، ولم تلبث الصخور هنا أن عادت بيضاء ابيضاض الجبال.

ابيضاض واسمرار واصفرار نعلل أنفسنا بها هنا في هذه الدروب الموحشة.

تراب أبيض وحجر أسود وصعيد أصفر ومدر أسمر. هذا ما يشغلنا هنا، وهذا ما نحدّق فيه في هذه الرواسي الخشنة.

أما الرفاق في بيروت فإن ما يشغلهم فيها هو ما يشغلنا هنا من احمرار وابيضاض واسمرار واسوداد، فكلنا بشر تزدهيهم الألوان ويستهويهم تموجها.

نحن هنا يشغلنا اسمرار الجماد وابيضاضه واسوداده واحمراره، نتحرّك إليه وهو ساكن، ونشرف عليه وهو هامد.

أما هم فإن ما يشغلهم هو الابيضاض والاسمرار في الوجوه والقدود والاحمرار في الوجنات والنهود، تتحرك إليهم وهم ركود، وتشرف عليهم وهم قعود.

ويَشْدَهنا السواد المتكاثف تحت التلة الناصعة، ويشدههم السواد المترادف تحت الجبين الأغر. ويبهرنا التماع الصخرات البيض تنفتح عنها الذروتان، ويبهرهم ائتلاف الثنايا اللؤلؤية تنفرج عنها الشفتان.

وتشدّنا الخرائب في القفر المهجور، وتشدّهم العمائر في الربع الغاني المعمور. وغلظتنا تسمي من الألوان: (الصفرة)، ورقتهم تسميه: (الشقرة)، فإذا نحن حدّقنا في الجبل الأصفر، أطالوا هم التحديق في الشعر الأشقر.

يا لها من قسمة عجيبة بيننا وبينهم، اخترناها نحن لأنفسنا بأنفسنا. أنحن الأغبياء أم هم؟ من يدري، وهل يدري المجنون أنه مجنون!؟

تجديد

تعدد ظهور الغابات البعيدة، ولا تزال الجبال بيضاء ناصعة البياض. فهذه قرية في الوادي إلى يسارنا هي قرية (آكوجان) محاطة بالبساتين. والبساتين في كل ما مررنا به، وما سنمر به هي بساتين (البندق).

ثم رأينا مجموعة من الخيل إلى يسارنا وما أدري ما هو عمل الخيل هنا، ثم عبرنا إلى قرية آكوجان بين الشجر الغضيض. وآكوجان مثل غيرها من القرى البدائية التي مررنا بها، ولكن تتميز بأن بعض بيوتها ذو طابقين اثنين.

ومضينا عنها متجهين إلى قرية (تلاتر) التي ستكون مقرنا في ليلنا المقبل، داخلين إليها بين بساتين البندق بشجرها المتكاثف.

وإذا كنا لم نر فيما تقدم ذكره من القرى سوى مظاهرها الخارجية، فإن رؤيتنا لأزقة تلاتر أكدت لنا أن هذه القرى لا تزال على ما تركها الإسماعيليون النزاريون.

ولكن شيئاً فريداً كان في هذه القرية، شيئاً جعلها تقفز في بعض حياتها من تلك القرون البعيدة إلى أواخر هذا القرن.

فإن ابناً باراً من أبنائها هو السيد ناصر القوامي لم ينسها وهو يتقدم في مناصب الدين والدنيا فأنشأ فيها مستوصفاً يكاد يكون مستشفى مجانياً بمداواته وأدويته.

وتلاتر ذات الخمسمائة النفس من السكان، من أبنائها في الجامعة اليوم خمسة عشر طالباً.

جنة خارود

وفي الضحى كنا نقصد بالسيارة في طريق وعر يرج الأجساد رجاً منطقة (خارود)، التي تبعد عن تلاتر أكثر من خمسة كيلومترات لم تستطع السيارة اجتيازها كلها، فمشينا صعوداً في الجبل، صعوداً كنا ندوس فيه أحياناً في قلب الماء الجاري، وأخيراً توقفنا مرهقين وجلسنا عند الينابيع الغزيرة بين الخرير والظلال والنسيم.

وبرغم روعة ما نحن فيه، كان ذلك فرعاً من أصل هو مكان تفجر الماء من بين الصخور في قلب الجبل، على خطوات منا فمشينا إليه مجهدين، ووصلناه متعبين، وأخذنا نكرع من مائه العذب الزلال البارد.

إذا كان حسن الصباح قائداً حازماً وثائراً شديد المراس، فلا شك أنه كان إلى ذلك شاعري الطبع. فهو

حين اختار لمستقره تلك الجبال التي لا تطولها أيدي الجيوش مهما امتدت واستطالت، فإنه لم يختر ذلك اعتباطاً، ولم ينزله مصادفة، بل جمع عامداً شدة الصخر في القمة الجافة الغليظة، إلى رقة الصخر في الينبوع الدافق الفوّار.

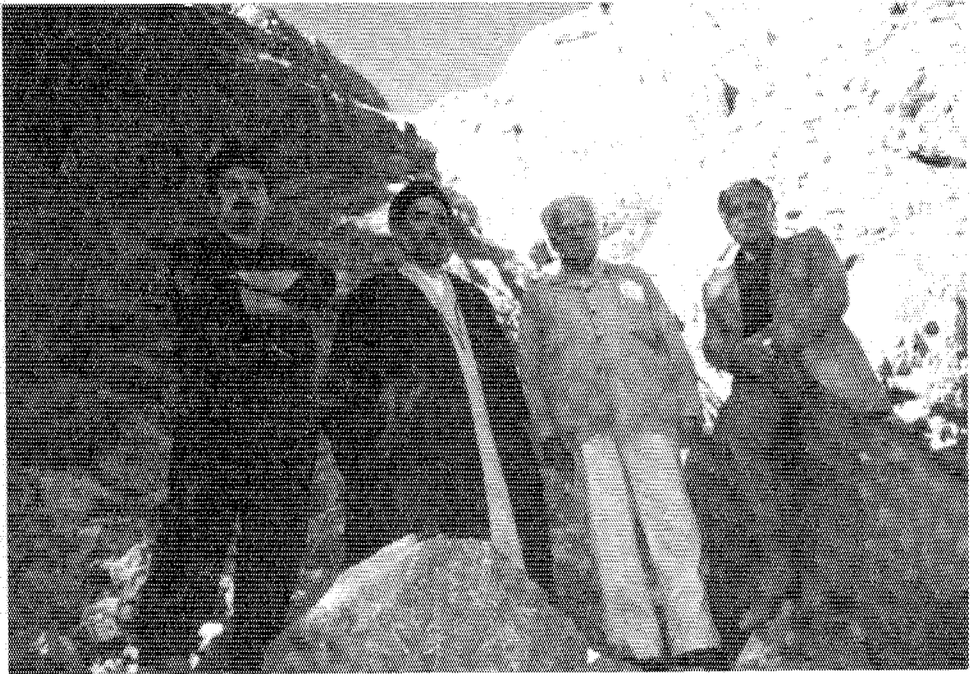
ولو صح ما زعمه الزاعمون من اصطناع الصباح لجنة يغري بها أتباعه، لما كان في حاجة إلى اصطناع الجنان، وعنده مثل (خارود) الجنة الطبيعية الرائعة. وكم لخارود من نظائر في ديار الصباح.

وفجأة انطلق من بين الجالسين قريباً منا صوت رقيق عذب، ولكنه في الوقت نفسه هدّار، انطلق من فوق صخرة شمّاء ينشد شعراً فارسياً إنشاداً استفزّه له ما في هذا الذي فيه من روض وجبل وواد وينبوع، اجتمعت فكان منها أعذب ما تحلم به العين من مرائي الوجود، وكان يعوزها التعبير الصوتي، فانطلق ينشد الشعر إنشاداً هو قطعة من هذا الجمال الأخّاذ.

ولكنه لم ينشده غزلياً كما قد يفعل من تستفزّهم مثل هذه الطبيعة الوهّاجة، ولم يردّده منبعثاً عن شوق لحبيب غائب وتلهّفاً على لقاء مرغوب.

لم أكن أفهم ما يقول، ولكنني كنت أفهم كلمة واحدة من كل ما كان يرتل هذا المرتل الفريد، هذه الكلمة أفهمتني كل ما كان يجب أن أفهمه من مضمون هذا الشعر، كنت أفهم كلمة (علي)!

فلم أملك الدمع أن يفيض من عيني وأنا هنا في هذا المنتأى البعيد، وفوق هذه الرواسي الشامخة، وعلى هذي المشارف الباذخة أسمع اسم علي تتجاوب به السباسب والأنجاد، وتتنادى به الذرى والوهاد.



على القمم الصخرية في خارود

إلى اللقاء

تلاتر ثم خارود هما منتهى مجال المملكة (الصباحية النزارية)، إذ إننا بوصولنا إليهما نكون بلغنا الحدود الشمالية الغربية لتلك المملكة، وما بعد خارود وجبالها تبدأ حدود لديار أخرى تعرف اليوم باسم (أشْكَوَر).

على الينابيع الفوّارة في قلب القمة العالية وفوق الوادي الغضيض الشجير هنا في خارود نغيب في مطاوي الزمن البعيد متنقلين من عام إلى عام ومن قرن إلى قرن، ومن رجال إلى رجال، ومن قوم إلى قوم.

هنا نستعرض ذلك كله فنستمد من المكان الحاضر ما استمددنا من الزمان الغابر معرفة واطلاعاً.

يا حسن يا صباح: أنا الآن في ديارك، في الأرض التي هي منازلك، أنا ضيفك هنا في هذه المرابع مرابعك، ولئن غبت عنها، فلا تزال مطبوعة بطابعك، حاملة اسمك.

لا أقول لك وداعاً، بل أقول: إلى اللقاء، فمثلك يظل يلتقي به المؤرخ حيث اتجه.

إلى اللقاء القريب على هذه الصفحات نفسها، وفي هذا المرتحل ذاته.

وأنت يا تلاتر، وأنت يا خارود اللتان سنبتعد عنكما بعداً لا نحسب أن لنا بعده دنواً، حسبي أن أقول لكل منكما ولكل من صحبنا فيكما:

تذكرنيك الريح مرت عليلة — على الروض مطلولاً وقد وضح الفجر

وما بعدت دار ولا شطَّ منزل — إذا هي أدنتنا الأمانيُ والذكر

الحشيشية

هنا على ينابيع خارود، تحت القمم المظلّلة لنا، ومن فوق هذا المنحدر الشجير، وما لا يحصى من الأودية والغيطان والمروج.

وعلى هبات النسيم، تلفتّ إلى الماضي البعيد، وإلى حسن الصباح، تلفتّ إليه وهو يعاند ويصر على العناد، ويهزم فلا يعترف بالهزيمة، بل يزداد بها عناداً، فيحول الدولة إلى دولتين، ويعود الأمر إلى كارثة.

وإذا كنت لا أوفر حسن الصباح من اللوم، فإنني لا أذكر بالخير مزوّري التاريخ، العابثين به، المفترين على رجاله.

هؤلاء جعلوا من حسن الصباح (زارع حشيشة)، ومن رجاله (حشاشين)، وتفننوا في هذه الأقاويل ما شاء لهم التفنن، وظلوا يتفننون وسيظلون يتفننون.

وكان من أهداف رحلتي الوصول إلى الحقيقة في هذا الأمر، وكنت من قبل التقطت الخيط الذي يمكن أن يوصل إليها وذلك أنني رأيت أن أهم ما تجب معرفته هو الزمن الذي بدىء فيه بنسبة الإسماعيليين النزارين إلى الحشيش، ومن هو أول من نسبهم إليه، فإذا بي أكتشف أنهم لم يلقبوا أول الأمر بحشاشين، بل لقبوا بحشيشية، ثم طور المطورون هذا اللقب إلى (حشاشين).

وكان الاكتشاف الغريب أن الذين أطلقوا عليهم هذا اللقب (الحشيشية) هم الإسماعيليون الفاطميون الذين انفصل عنهم الإسماعيليون النزاريون وبادروهم بالعداء واغتالوا خليفتهم (الآمر).

ثم استمر الصراع محتدماً بمختلف وسائله، ومنها الإعلامية بإمكانيات ذلك العصر. فكان النزاريون يوزعون بيانات تبين فساد خلافة أحمد المستعلي، ومن تلاه ويمكن أن يتلوه، فيرد المستعليون على البيان ببيان وعلى الأدلة بأدلة.

فمن ذلك أن الخليفة الآمر بأحكام الله أصدر رسالة باسم «الهداية الآمرية في إبطال الدعوى النزارية». فرد عليها النزاريون، فرد المستعليون على الرد برسالة جاء فيها: «ولما صدرت هذه الهداية عن حضرة سيدنا ومولانا أبي علي الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين... أشرق بها نور الحق المبين وعمت بركتها جميع أهل الدين».

ثم تقول الرسالة: «ولما وصلت إلى دمشق ووقف عليها نفر من جماعة الحشيشية فلّت عزمهم وكدّرت شربهم».

إلى آخر ما جاء في الرسالة.

وعندما نشر الدكتور جمال الدين الشيال هذه الرسالة في (مجموعة الوثائق الفاطمية)، ارتأى تفسيراً معقولاً لكلمة (الحشيشية). فالدكتور الشيّال ليس من المؤرخين المخرجين التاريخ عن رسالته، والمسخرين له لأهوائهم وأغراضهم، بل هو مؤرخ متحرٍّ للحقيقة وحدها، لذلك لم ينصرف ذهنه إلى أن المقصود من كلمة (حشيشية) هو اتهام المطلقة عليهم باستعمال الحشيش المخدر، لأن هذا لا يقوله أي منصف، لذلك فسرها بأن من أطلقها على الإسماعيليين النزاريين كان يقصد بذلك أنهم (يخرفون) كما (يخرف) مستعمل الحشيشة، أي إن كلامهم غير منطقي.

وإذا كنا لم نطلع على نصوص خاصة بردود النزاريين، فإننا اطلعنا على نصوص وردت خلال ردود المستعلية عليهم، ويبدو مما ورد على الرسالة التي وصفت النزاريين بالحشيشية أن الذي ورد هو النص الكامل للرد النزاري إذ جاء فيها ما يلي: «وصل كتاب من الدعاة المستخدمين في دمشق مشتملاً على فصل هذا نصه: لما كان يوم الخميس السابع والعشرين من ذي الحجة بعد الفراغ من قراءة المجلس الشريف على المستجيبين للدعوة الهادية ـ كثرهم الله ـ ورد على المملوك رجل من القوم الماكرين لم تجر له بذاك عادة، وصحبه أحد المستجيبين للدعوة الهادية، فجلسنا هنيهاً، وأخرج الرجل من كمّه نسخة الهداية الواردة من المقام الأشرف، وأن تلك النسخة كانت عند المستجيب، وخص ذلك الرجل بسماعه إياها، وإن الرجل لما وقف على مضمونها اشتبه عليه أمره وضاق بها ذرعاً، وحملته تلك الحال إلى أن مضى بتلك النسخة إلى طاغوته فطلب جوابها وخلاص مشكلاتها، فأجابه على ذلك في أواخر الهداية إذ كان البياض يسع الجواب، بهذه الفصول».

ثم يلي ذلك رد النزاريين على (الهداية)، ويبدو جلياً أن الرد كان على إيجازه إذ لم يتجاوز الصفحة الواحدة من كتاب (مجموعة الوثائق الفاطمية)، كان هو النص الكامل للرد. كما يبدو ذلك من قول الرد المستعلي بأن جواب النزاريين على رد المستعلية كان على ما بقي من بياض من نسخة (الهداية).

وبذلك يكون النزاريون لم يردوا على وصفهم بالحشيشية، وهذا يدل على أنهم لم يفهموا منه اتهامهم بتعاطي الحشيش المخدر، ولو فهموه كذلك وفسروه بأنه اتهام لهم بتعاطي الحشيش لما سكتوا عن الرد على هذا الاتهام.

ورد النزاريون على هذا الرد، فرد المستعلية على ردهم برسالة أوردوا فيها وصفهم للنزاريين بالحشيشية مرة أخرى، إذ جاء فيها: «وقد وقفت يا أبناء الدعوة على ما سطرتموه في كتابكم من جواب الحشيشية ـ هداها الله وأصلحها ـ عما تضمنته الهداية».

وكان تاريخ هذا الرد الأخير ٢٧ من ذي الحجة دون ذكر السنة، وحدد الدكتور الشيال السنة استنتاجاً وهي سنة ٥١٦هـ.

وإذا كان تفسير الدكتور الشيال لكلمة (الحشيشية) معقولاً ويمكن الأخذ به، فإنه لم يقنعني كل الإقناع، وظللت معتقداً أن لهذا الوصف تفسيراً آخر.

وكنت أعرف أن فريقاً من العلماء والأطباء العرب اشتهروا بجمع الحشائش الطبية وبيعها أدوية، ومن أشهرهم: أبو العباس أحمد بن مفرج الإشبيلي الأندلسي المعروف بابن الرومية المولود في إشبيلية سنة (٥٦١هـ ـ ١١٦٥م)، كان صيدلانياً عقاقيرياً، كما كان نباتياً عشاباً، وكذلك كان من رجال الحديث. وكما قيل عنه: «ودعته إلى الأسفار رغبته في سماع الحديث والاتصال بشيوخه، وميله إلى تحرّي منابت الأعشاب وجميع أنواع النبات». وكانت له مؤلفات جليلة في النبات والعقاقير.

وهناك أسر تحمل لقب (الحشائشي) وتتوارثه دون أن تعمل في (الحشائش)، ولا شك أن أسلافها ممن عملوا فيها فأطلق اللقب عليهم، وظل يطلق على أنسالهم حتى بعد أن تركوا العمل في الحشائش. ومنهم مثلاً محمد بن عثمان الحشائشي المولود سنة (١٢٧١هـ ـ ١٨٥٥م) في مدينة تونس مؤلف كتاب «جلاء الكرب عن طرابلس الغرب» وغيره من المؤلفات.

فقلت لماذا لا تكون صفة «الحشيشية» التي أطلقت على النزاريين يقصد بها التهكّم بأنهم باعة حشائش لا أصحاب دولة وعقائد؟

وكنت أتحدث بذلك أمام بعض الأصدقاء الإيرانيين فذكر أنه قرأ شيئاً من هذا القبيل في كتاب يتحدث عن النزاريين ووعدني بالبحث عن الكتاب في مكتبته ثم جاءني به، فإذا هو كتاب لمؤلف أوروبي هو بول آمير مترجم إلى اللغة الفارسية، ويعني اسمه ما يمكن أن نطلق عليه باللغة العربية (سيد ألموت)، وإذا فيه بحث هو في صميم ما نتحدث عنه هنا فيما يتعلق بالمقصود من نسبة النزاريين إلى الحشائش، وتفضل الصديق بترجمة ما كتبه «بول آمير» ويتلخص ذلك بأن المقصود بتلك النسبة هي الصفة التي كانت تطلق في تلك العهود على من يتعاطون جمع الحشائش البرية التي تستعمل هي نفسها أدوية، أو تستقطر منها الأدوية. وعمل النزاريون في ذلك في شكل واسع، فكان لهم في سفوح جبالهم قرى ودساكر ومزارع كان ينطلق فيها حتى النساء والأطفال لجمع الحشائش الطبية التي كانوا يتوسعون في زراعتها ولا يقتصرون على ما تنبته الطبيعة، حتى لقد يزرعونها في حدائق البيوت.

وكان جامعو الحشائش من الحقول والبراري يبيعون ما يجمعونه إلى أشخاص معينين متصلين بسيد ألموت حيث يصدرونها إلى مختلف المدن.

ويسمي بول آمير محمود السجستاني أحد وكلاء سيد ألموت واحداً ممن كان لهم أمر استيراد هذه الحشائش ثم تصديرها، ويذكر حواراً جرى بين السجستاني وبين من يسميه علي الكرماني وهو من الموظفين عنده، يطلب إليه التنبّه أن لا يخلط الحشائش الطبية بغيرها من الحشائش الرخيصة قائلاً له: إذا نحن خلطنا مرة واحدة أنواعاً من زهر البنفسج والسبستان والأنذروت مع أخلاط نفايات الزهور وأرسلناها مرة إلى عملائنا في الري وكاشان وأصفهان وأصفهان وسائر المدن فلا أحد منهم يشتري منا بعد ذلك أدوية.

وكان في كل مدينة سوق خاص يسمى سوق الحشائشيين، وكانت الحشائش تجمع بألموت في جوالق يكتب عليها اسم المرسلة إليه واسم المدينة مع كلمة (سوق الحشائشيين). أما ما يستقطر منها فيوضع في قوارير خاصة محفوظة من عوامل الكسر وترسل مع أحمال الحشائش.

ومن هنا لصق بالنزاريين لقب (الحشيشية)، ثم استغله خصومهم فطوروه إلى (الحشاشين).

وكان من عوامل رحلتي هذه التحقق في موطن الإسماعيليين النزاريين الأول، فإذا بي أمام حقائق تؤكد ذلك كل التأكيد، ولم يبق الأمر أمر ترجيح، بل أمر يقين، وقد تبين لي أن تلك الأرض من أخصب الأرضين في إنبات الحشائش الطبية، وأنه لا يزال هناك حتى اليوم لهذه الحشائش جامعوها وتجّارها المختصون بها يصدرونها إلى كل مكان ومن أهم الحشائش التي تتداولها أيدي التجار اليوم: كاب زيان، وختمي، وبنفشه، وأمثالها مما هو معروف هناك. وفي داخل قلعة لمبسر التي هي من أهم قلاع النزاريين لا يزال ينبت ـ كما ينبت في غيرها ـ ما يعرف في إيران باسم كبركل، وهو نبات يغلى زهره بالماء وتعالج به آلام الظهر والبطن.

وهكذا تتبين صحة ما كنت فسّرت به لقب (الحشيشية) الذي أطلقه المستعلية على النزاريين، وهو الاستهزاء بهم بالقول إنهم باعة حشائش لا أصحاب دولة ومذهب وعقائد. بقي أن نقول إن ما كانت تتألف منه مملكة حسن الصباح وخلفائه يقسم اليوم بحسب التنظيم الإيراني الحديث إلى قسمين إداريين يسمى أحدهما: رودبار شهرستان، والثاني رودبار ألموت، ويتألف كلا القسمين من ٢١٦ قرية، منها ١٠٦ قرى في رودبار ألموت، و١١٠ قرى في رودبار شهرستان.

ويبلغ عدد نفوس أكبر قرية في المجموع وهي قرية هير ٣٠٠٠ نفس، وعدد نفوس أصغر قرية، وهي قرية روح آباد ١٥٠ نفساً.

ولم يبق من كل سكان المنطقة أي إسماعيلي نزاري بل ذاب جميع النزاريين في المحيط الإيراني الواسع. وإن كانت لا تزال منهم بقية قليلة جداً في مناطق أخرى من إيران.

ومما يدل على إحكام حسن الصباح أمره هو اختياره لهذه المنطقة بالذات لتكون مقراً لدولته، فهي منطقة خصبة، غنية بمحاصيلها الزراعية المنوعة، ما تستطيع معه أن تكتفي اكتفاء ذاتياً في حالة حصارها وقطع

المؤونات عنها، مهما طال هذا الحصار، وساعدها على ذلك غزارة المياه فيها، مياه الأنهار والعيون والينابيع.

وقد رأينا بأعيننا كيف أن الأرض تنبت موسمين في العام الواحد، كنا نشاهد أكوام القمح المحصود تنقل من الحقل وقت تدار إليه المياه لزرعه بالرز.

وهي تنتج جميع أنواع الحبوب، ومن أهم ما تنتجه: العدس والفاصوليا واللوبيا والحمص، تنتجها بكثرة للتصدير إلى خارج المنطقة. أما القمح فمنتوجها منه أقل من غيره. هذا فضلاً عن الرز وهي من أكبر مناطق زراعته.

أما الأشجار المثمرة فغابات كثيفة فيها، وهي مكوّنة من شجر الجوز وشجر البندق.

ويكفي في إخصاب شجر الجوز والبندق أن عدة قرى فيها، هي قرية تلاتر التي تقدم ذكرها، وقرى في جوارها، أنتجت في موسم واحد مليوناً ومائتي طن من البندق. وأن شجرة جوز واحدة في تلاتر أعطت في موسم واحد ما ثمنه ستون ألف تومان.

نذكر هذا للتدليل على أن حسن الصباح أحسن اختيار المكان الذي قرر أن يقيم أمره فيه: قلاع منيعة على قمم جبال لا تنال، ومياه غزيرة تروي حقولاً وبساتين تظل خضراء منتجة طوال العام.

إلى قلعة لمبسر

قمنا صباحاً لنعود من تلاتر في الطريق نفسه الذي جئنا منه إليها. وبعد وصولنا إلى بلدة (بهرام آباد) انشعب الطريق شعبتين، فتركنا الشعبة الموصلة إلى قزوين، واتجهنا نحو الشرق سائرين في قلب الوادي العريض، ونهر شاهرود يجري إلى يميننا معاكساً لنا في السير، ووراءه حقول الرز ثم السلسلة الجبلية الشاهقة، وكنا نسير خلال حقول الرز وهي على جانبينا، ونرى أكوام القمح المحصود لا تزال مكدسة بينما يغرس الرز في الأرض الحصيد نفسها.

ووصلنا بلدة (رازميان) التي تقع في الوادي على أصل الجبل بين السلسلتين الجبليتين الهائلتين وفوقها على القمة الشاهقة قلعة لمبسر. والبلدة مقر مديرية الناحية، وهي مغمورة بالزروع والأشجار، وهي ككل ما مررنا به من قرى لا تزال بدائية، ولكنها آخذة بالتحول إلى الحضارة، ومن مظاهر ذلك وجود الهاتف فيها، ووجود أعمدة الكهرباء المعدّة للتركيز وإيصال الكهرباء إليها بعد أيام.

وحططنا الرحال في رازميان استعداداً للصعود إلى قلعة لمبسر.

ويبدو أن لبلدة رازميان زواراً بين الحين والحين، وهم الذين يقصدونها بغية الوصول إلى قلعة لمبسر ـ كما سنذكر فيما يلي ـ وكان الغربيون ينصبون خياماً يأوون إليها قبل الصعود إلى القلعة وبعد النزول إليها. ومن التغييرات التي حدثت أن بنت الحكومة (مضيفاً) ينزله الغرباء، وزادت في العناية بهم أن أودعت رعايته لمتعهد يقدم لهم الطعام مجاناً. وقد عرفنا ذلك من سوء الطعام الذي قدم إلينا على الغداء في نزولنا في المضيف. فمن الطعام المألوف في إيران طعام (جلو كباب) وهو لحم مشوي ويطبخ على طبق الرز، وكذلك طعام (جوجي كباب) ويستبدل فيه لحم الدجاج بلحم الخراف.

وكان الذي قدم لنا على الغداء هذا الأخير، ولأول مرة أجد أن ما قدم لي من لحم الدجاج هو رقبة الدجاجة. وعادة الإيرانيين هو التأنّق في هذا الطعام بتقديم أطايب اللحوم فيه، فحسبتها صدفة على غير المألوف من كرم الإيرانيين في مآدبهم.

ولما مضينا بعد ذلك في السيارة عائدين ـ وكنا أربعة ـ إذا بالجميع يذكرون أن نصيب كل واحد منهم من اللحم كان جناح دجاجة. وعرفوا هم السبب فالمتعهد يذكر لمن يحاسبونه أنه قدم الطعام لأربعة ضيوف، وهذا يقتضيه في أقل تقدير دجاجتان، فيقبض ثمن الدجاجتين، ويقدم للضيوف منهما أربعة أجنحة ورقبتين ويفوز هو بالباقي!

المتعهدون هم المتعهودن في كل مكان وكل زمان وفي كل نوع من أنواع التعهد!

وهذا المضيف الذي نزلناه عبارة عن غرفة مستطيلة متواضعة نجلس فيها على الأرض بدون مقاعد ويلذعنا الحر لذعاً.

وهي بالنسبة إلى بيوت بلدة رازميان تعتبر قصر ضيافة!

ولا بد أن تتحسن أحوالها وأحوال رازميان كلها بعد وصول الكهرباء إليها، هذه الكهرباء التي كانت تنصب أعمدتها ونحن هناك ليصل نورها بعد أيام.

وقصّ علينا أحد من لقيناهم من أبناء البلدة قصة بعثة بريطانية مؤلفة من خمسة أشخاص بينهم امرأة هي شقيقة زوجة أحدهم، جاؤوا رازميان سنة ١٩٧٧م بقصد الصعود إلى القلعة، فنصبوا خيمة لهم في القرية واصطحبوا دليلاً كان هو الذي يقص علينا قصتهم، فقال إنه سار برفقتهم حتى بلغوا القلعة مشياً على الأقدام، وهناك أخذوا ينقبون ويدرسون، ولما همّوا بالعودة رأى أحدهم بقايا قناة تصل إلى القلعة، فأهمه أن يرى مصدر الماء الذي كانت تنقله القناة إلى القلعة فطلب إلى رفاقه أن يصحبوه في سير مع مجرى القناة فرفضوا إلاّ شقيقة زوجته فقد مشت معه، وعادوا هم مع الدليل إلى خيمتهم في رازميان. ولم تلبث شقيقة الزوجة أن عادة ناعية الرجل الذي زلت به قدمه خلال السير فهوى من الجبل إلى القعر.

أما نحن فقد أقلتنا السيارة في الطريق المشقوق حديثاً في الجبل والموصل في نهايته إلى قرية (هير)، وهو ما شق إثر الزلزال الأخير المدمر للوصول إلى مناطق الزلزال، فخرجنا من القرية الخضراء، نمشي صعوداً في جبال من أعجب ما خلق الله من جبال بوديانها وتلالها وهوّاتها وسلاسلها وتشعبها وتداخلها بعضها في بعض، وكانت كلها جرداء إلاّ من بعض النباتات البرية.

ولم نلبث أن وصلنا في السيارة إلى أقرب مكان من القلعة يمكن أن توصلنا اليه، حيث يستمر الطريق المعبّد واصلاً هير، فنزلنا وتأملنا القلعة في القمة الشاهقة، وقدرنا المسافة بيننا وبينها بأكثر من اثنين من الكيلومترات يمتدان صعوداً من حيث نحن، وصولاً إليها.

وكان قطع هذه المسافة صعوداً في الجبل مشياً على القدمين فوق طاقتي فصممت على البقاء وانطلق

الرفاق صاعدين، وكان بينهم الأستاذ عبد الحسين الصالحي، فكلفته أن ينوب عني في تدوين ما يشاهده في القلعة، وعن وصفه لها أكتب أنا ما أكتب عما هي عليه اليوم:

إنها قلعة ضخمة لا تزال عامرة على العكس من قلعة ألموت. وهي محاطة بسور حجري عال. وكان الطريق إليها في الجبل لا يتجاوز عرضه عشرة سنتيمترات إلى عشرين في أعرض حالاته، وشاهدنا قبل الوصول إلى القلعة مجرى قناة قدرنا عرضه بثلاثين سنتيمتراً محفوراً في الصخر لجلب الماء إلى داخل القلعة، متّجهاً من الشمال إلى الجنوب فسرنا معه قليلاً، ثم عدنا، ويبدو أنه هو المجرى الذي سقط في سبيل الكشف عن أصله الرجل الإنكليزي.

ويحيط بالقلعة الضخمة واد عميق، قدّرنا أن عمقه يبلغ في ناحية ٦٠٠ متر وأخرى ١٢٠٠ متر. وعندما وصلنا إلى القلعة شاهدنا أسطوانتين من الحجر هما ركنا باب القلعة الذي قدرنا عرضه بمترين ونصف المتر، وهو يقع في الشمال الغربي من القلعة. ثم وقفنا باتجاه الشمال فرأينا نهراً يجري باتجاه القلعة في واد عميق بين جبلين شاهقين ـ يجري من الشمال إلى الجنوب اسمه نهر نينه رود ـ وعندما يصل إلى قاعدة الجبل الذي تقوم عليه القلعة ينشطر إلى شطرين يتجه أحدهما إلى غرب القلعة اسمه طه در والآخر إلى شرقها وهو أكبر الشطرين يحتفظ باسم (نينه رود) ويعود النهران فيلتقيان عند جنوب القلعة، وهكذا تحاط القلعة بالماء. وقدرنا عمق الوادي الذي يجري فيه النهر قبل انشطاره بألف متر.

وتقوم في وسط القلعة اثنتا عشرة غرفة منها ثلاث غرف لا تزال عامرة، وسقوفها على عقود حجرية، وهي مشادة بالحجر. وبداخل القلعة بانخفاض عشرة أمتار تقريباً قطعة أرض واسعة مستطيلة يظهر أنها كانت بستاناً داخل القلعة، وفي الضلع الجنوبي الشرقي من هذا البستان إسطبل كبير للحيوانات لم يبق منه إلاّ الجدران، وفي جنوب البستان يقع الباب الجنوبي للقلعة.

ويحيط بجوانب القلعة خمسة أبراج لا تزال سالمة في جنوب القلعة وغربها وشرقها، وتطل القلعة من الجنوب على قرية رازميان.

وفي القلعة اثنا عشر مخزناً للمياه منقورة في الصخر لا يزال بادياً من عمقها ما يقارب الستة أمتار وبقية العمق مملوء بالتراب، وهي مستطيلة الشكل بحيث يبلغ الطول سبعة أمتار والعرض أربعة، ورأينا في بعضها ماء، يظهر أنه ماء نابع.

وفي الجانب الغربي والجانب الجنوبي من القلعة بئران عميقتان ربما كانتا نفقين سريين للخروج من القلعة والدخول إليها.

وفي زاوية الضلع الشمالي الشرقي حمام يتشكل من ثلاث غرف متصل بعضها ببعض من الشرق إلى الغرب، وخلف هذه الغرف غرفة رابعة يبلغ طولها طول الغرف الثلاث معاً، وفي شرق الغرف الثلاث غرفة كبيرة مهدومة السقف في حين أن الغرف الأربع لا تزال مسقوفة.

وبعد الحمام إلى الجانب الشرقي من القلعة جنوب الحمام ٤٨ غرفة متدرجة من الأسفل إلى الأعلى، بحيث يكون سطح كل غرفة باحة للغرفة التي فوقها، فتشكل كل اثنتي عشرة غرفة مدرجاً مستقلاً،

وتطل هذه الغرف على نهر نينه رود في أكثر مكان منه انخفاضاً بحيث يقدر ارتفاعها عن الوادي الذي يجري فيه النهر بحوالى ٢٠٠٠ متر.

كما رأينا مخزناً منحوتاً من الصخر بطول ما يقارب ثمانية أمتار وعرض ثلاثة مغطاة جدرانه بطبقة كلسية ناعمة بخلاف مخازن المياه العارية من ذلك، وقيل لنا إن هذا المخزن ربما كان مخزناً للعسل. وهناك مخزن كبير متسع جداً وهو مهدوم السقف كان مستودعاً للحبوب. ورأينا في داخل القلعة كثيراً من أشجار الرمان والتوت، كما رأينا أرومات لشجر الجوز.

وتحاط القلعة بالوديان عدا الجانب الشمالي الذي يتصل بجبال (زرده جال) وجبال (كرماجال).

كتب صدرت للمؤلف

- **المغول بين الوثنية والنصرانية والإسلام** - دار التعارف.
- **الوطن الإسلامي بين السلاجقة والصليبيين** - دار الغدير.
- **الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي** - دار الغدير.
- **سراب الاستقلال في بلاد الشام** - «رياض الريس للكتب والنشر» - بيروت ١٩٩٨.
- **صفحات من التاريخ العباسي وولاية عهد المأمون** - دار الجديد.
- **صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين** - دار الجديد.

فهرس الأعلام

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

غ

ف

ق

ك

ل

م

فهرس الأماكن

أ

ب

م

ن

هـ

ي